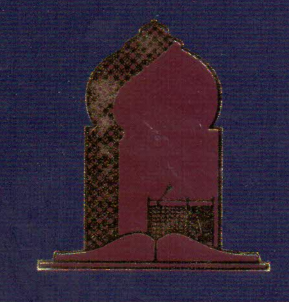


الخطاب الإسلامي المعاصر

«دعوة للتقويم وإعادة النظر»

نخبة من الباحثين والكتاب



إعداد

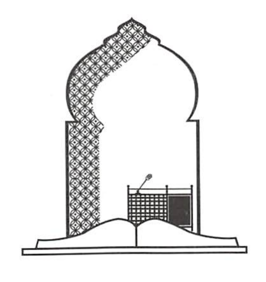
مركز البحوث والدراسات



الخطاب الإسلامي المعاصر

«دعوة للتقويم وإعادة النظر»

نخبة من الباحثين والكتاب



إعداد
مركز البحوث والدراسات

الطبـــعة الأولـــى

ذو الحجة ١٤٢٦هـ - كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٦م

الخطاب الإسلامي المعاصر.. دعوة للتقويم وإعادة النظر

- نخبة من الكتاب والباحثين.

الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠٠٦م.

٧٣٢ ص، ٢٤سم

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: ٢٤ / ٢٠٠٦

الرقم الدولي الموحد للكتاب: ٤ - ٨٣ - ٥٢ - ٩٩٩٢١

مركز البحوث والدراسات

هاتف : ٤٤٤٧٣٠٠ – فاكس: ٤٤٤٧٠٢٢

ص.ب: ٨٩٣ - الدوحة

موقعنا على الإنترنت: www.Islamweb.net

البريد الإلكتروني: E. Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa

بسم الله الرحمن الرحيم

وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاتَيْنَٰهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ

(ص : ٢٠)



حضرة صاحب السمو

الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني

أمير دولة قطر



سمو الشيخ تميم بن حمد آل ثاني

ولي العهد الأمين

تقديم

سعادة وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية

فيصل بن عبد الله آل محمود

الحمد لله الذي أخرج خير أمة للناس من خلال كتاب (خطاب القرآن للإنسان) وحدد وسيلتها بالبلاغ المبين، فقال تعالى: ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (النور:٥٤)، وبدأ رسالتها الخاتمة بكلمة ﴿ ٱقْرَأْ ﴾، فكانت القراءة والمعرفة مفتاح فهم هذا الدين وركيزة الحضارة الإسلامية، وناط جهادها ومجاهدتها بالقرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ (الفرقان:٥٢)، وقال: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (ق:٤٥).

وكان الالتزام بقيم القرآن والبيان النبوي، وما يزال، سبيل الأمة إلى الرفعة والمكانة والشهود الحضاري: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ (الزخرف:٤٤).

والصلاة والسلام على الرسول المعلم، إمام الفصاحة والبلاغة، الـذي أُوتي جوامع الكلم، فتلقى خطاب السماء ليبلغه للناس ويبين لهم ما نزل إليهم، قـال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل:٤٤)، فكانت الكلمة الطيبة والخطاب المبين والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بـالتي هي أحسن، هي طريقه إلى عقول وقلوب الناس جميعاً، لنقلهم مـن ظلمـات الجهل إلى نور الإيمان.

وبعد:

فهذا الإصدار الخامس في سلـسلة مشروعاتنا الثقافـية العالمية الممتـدة، بمشيئة الله تعالى: «**الخطاب الإسلامي المعاصر.. دعوة للتقويم وإعادة النظر**»، يأتي في هذه الحقـبة التاريخية الدقيقة بكل معطياتها وتجلياتها الثقافية والسياسية وما يرافقها ويصاحبها من عقد مؤتمرات وندوات الحوار على المستوى الإقليمي والعالمي، ورفع شعارات التعاون والتعايش والشراكة، ومحاولات بناء المشـترك الإنساني، وإشاعة ثقافة الحوار والتفاهم والقبول (بالآخر)، وما يلازمها ويقاربها أيضاً من صور المواجهة المتعددة وممارسات القمع والهيمنـة والـتحكم تحـت عناوين وشعارات ومسوغات متعددة؛ وما يصاحبها مـن الإنتـاج الثقـافي والسياسي المتباين بين التأكيد على أن صراع الحضارات هو حقيقة وواقع، وبين النقيض من الدعوة إلى أهمية التفاهم والتعاون وحوار الثقافـات والحضـارات والاعتراف بالتنوع الإنساني والثقافي، الـذي يـؤدي إلى الإغنـاء والإثـراء

الحضاري، ويحقق التنمية المستدامة، والاعتراف بحقوق الإنسان، وإلغاء التمييز بكل أشكاله.

هذه الحقبة بكل مواصفاتها وتجلياتها وتداعياتها تتطلب خطاباً بصيراً بطبيعة المرحلة، ولا يتحقق ذلك إلا بإدراك أبعاد المرحلة،.أو بتعبير آخر تتطلب فقهها والإحاطة بعلمها، ومن ثم وضع خطة واستراتيجية واعية بحيث تساهم فيها مجموعة تخصصات علمية ومعرفية، تأخذ بعين الاعتبار الإمكان الحضاري الذي يمتلكه المسلمون، والظروف المحيطة التي يعيشونها، والإضافة الحضارية التي يمكن أن يقدموها، والدور الرسالي الذي يمكن أن يضطلعوا به، والوسائل والآليات الملائمة والمشروعة والمؤثرة التي يعتمدونها في هذه الحقبة.

تلك الحقبة من العولمة، التي يمكن وصفها بأنها فتحت علينا أبواب كل شيء، لكن في الوقت الذي يمكن أن تكون فتحت لنا أبواب كل شيء أيضاً، إذا كنا في مستوى إسلامنا وعصرنا، لتوصيل القيم الإسلامية التي تحمل الرحمة للإنسانية جمعاء، وبذلك نحقق ظهور الدين وإبلاغه للناس، وهو مهمة النبوة ومن سار على طريقها وحمل رسالتها.

ذلك أن محور رسالة النبوة الأساس هو التوصيل والبيان لقيم الوحي، يقول تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ وما يتطلب الامتداد بذلك اليوم من «الخطاب الإسلامي» المبين الملائم للظروف والمتغيرات، القادر على توصيل القيم الإسلامية للإنسان أينما كان وحيثما كان.

وقد لا نكون بحاجة إلى التأكيد أن بناء الخطـــاب المبين، أو البلاغ المبين، أو الإعلام المؤثر والملائم، ليس بالأمر السهل، أو المرتجل، الذي تكفي فيه سماكة الحناجر وعلو الأصوات، وإنما هو ثمرة لمجموعة علـــوم وتخصصـــات معرفيـــة واجتماعية وإنسانية، إضافة إلى أهمية وجود المعايير العلمية والموضوعية للتقـــويم والقياس، حتى لنكاد نقول: بأن الإعلام أصبح علماً بحد ذاته، ولا غرو في ذلك، فالبلاغة في تراثنا العلمي والثقافي، بما فيها من البيان، والبديع، والمعـــاني، هـــي إحدى العلوم التي تمكن من فنون القول.

فإذا كانت البلاغة تعني - فيما تعني - موافقة أو مطابقة الكلام لمقتضـــى الحال، فكم من العلوم والمعارف المطلوبة اليوم لفقه الواقع، أو فقه الحال، ومن ثم اختيار الخطاب الموافق والملائم لهذا الحال؟

ويزداد الأمر دقة وخطورة عندما يصبح الحال المطـــلوب فقهـــه، ومـــن ثم خطابه، عالمياً، يتمحور حول قضية التأثير والتغيير والتفاعل الحضاري، أو الحوار الحضاري، أو حتى الصراع الحضاري، والمغالبة في ساحة الفكر والثقافة والإعلام.

فإذا قدّرنا أو قَدَرْنا أن نبصر مدى التسارع والتدفق الإعلامي وما يصاحبه من اختزال الزمان والمكان وما يحدثه من التغيير العالمي، الـــذي قـــد تصـــعب ملاحقته واســـتيعابه، ناهيك عن التأثير فيه والمساهمة بتعديل وجهته، أدركنـــا ثقل المهمة ومدى التطوير والتغيير والارتقاء والتجديد المطلـــوب «للخطـــاب الإسلامي» اليوم.

وإذا كان التغير والتغيير على مستوى الفرد والجماعة والمجتمع والعالم هو سنة الحياة، وطبيعة سيرورتها، فإن ديمومة النظر في مدى ملائمة الخطاب وتطويره والارتقاء به يصبح ضرورة شرعية، وحاجة دعوية، وسنة اجتماعية، وفريضة حضارية، خاصة وأن التجديد في «الخطاب» وتطوير وسائل البلاغ المبين هو في حقيقته تكليف شرعي واجتهاد بشري، يجري عليه التغيير والتعديل والتطوير والتجديد والخطأ والصواب وليس له صفة القدسية والعصمة.

والدعوة إلى تجديد «الخطاب الإسلامي» واستمرار العمل على تطويره وتقويم جودته وفحص جدواه واختبار مدى ملائمته للمتغيرات المتسارعة، تطرح قضية على قدر كبير من الأهمية، تتطلب الكثير من التأمل وتحرير النظر فيها، لفك الالتباس حولها وإعادتها إلى موقعها الطبيعي، حتى يتخلص «الخطاب الإسلامي» في كل عصر مما يمكن أن يلحقه من إصابات وما يكبله من قيود قد تؤدي إلى تجمده وتسهم بعجزه عن مواكبة المتغيرات، بحيث يعاود انطلاقه من مواقعه الشرعية من جديد، بعد نفي نوابت السوء عنه.

لذلك نرى هنا أهمية وضرورة التفريق بين «خطاب الإسلام»، المعصوم الخالد المجرد عن حدود الزمان والمكان والمتمثل في معرفة الوحي في القرآن الكريم والبيان النبوي، وبين «الخطاب الإسلامي» أو «خطاب المسلمين» المتأتي من «خطاب الإسلام» في كل عصر، ولكل عصر، الذي يتمثل في التفكير والاجتهاد في اختيار الوسائل والأدوات والآليات ووضع البرامج والخطط وطرح

المفاهيم والمصطلحات، التي تحاول إبلاغ الإسلام وتوصيل رسالته إلى الإنسان أينما كان والدعوة إليه والإغراء به.

وهذا (خطاب المسلمين) اجتهاد متطور بطبيعته وقابل للتغير والتجديد والمراجعة في ضوء الظروف والمستجدات والمتغيرات.. هو إنتاج بشري مؤطر بمعرفة الوحي، ومنطلق منها في بناء الخطاب، أو عملية البلاغ المبين، أو صناعة فنون القول، بحسب فقه الواقع ومتطلباته في كل زمان ومكان، لذلك فالتوهم بأن «الخطاب الإسلامي» معصوم عن الخطأ شأن «خطاب الإسلام» وغير قابل للتعديل والتبديل والتقويم والمراجعة، أدى وسوف يؤدي إلى الكثير من التراجع والتخلف والعطالة الذهنية.

نعاود التأكيد بأن الأمة والحضارة الإسلامية إنما أُخرجت خير أمة للناس من خلال خطاب (القرآن والبيان النبوي)؛ وأن مهمة الرسول ﷺ إنما تحددت بالبلاغ المبين، وأن الارتقاء بهذا البلاغ والتأصيل له أصبح علماً قائماً بذاته في تراث المسلمين (علم البلاغة) لكنه مع الأسف لم يمتد ويتجدد ويتطور بالشكل المطلوب ليكون في مستوى الإسلام والعصر، حيث أصبح الإعلام اليوم سفير الحضارات البشرية ومرآتها ولسانها، علماً يُخدم من علوم ومعارف متنوعة.

إن طريقنا إلى الدعوة والبلاغ ومعاودة إخراج الأمة هو الكلمة الطيبة، المنطلقة من معرفة الوحي (أصلها ثابت) تستمد عطاءها ورواءها من قيم القرآن، وتمتد وتعلو وترتقي كلما امتد الزمان، فكيف نصوغ هذا الخطاب؟

والكلمة الطيبة والبلاغ المبين وتحقيق القناعة والإيمان في مناخ من الحرية وكرامة الإنسان هو وسيلة الدعوة فـ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾، ذلك أن الكلمة هي التي تبني عقل الإنسان وتنميه وتصنع سلوكه؛ والعَضَلة والعنف والإكراه تلغي كرامته وتنهي حياته.

وإذا ثبت حضارياً أن معاودة نهوض الأمة وإخراجها مرهون بتوفير ظروف وشروط ميلادها وإخراجها الأول، و«أن آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها»، أو كما قال الإمام مالك، رحمه الله، فإن الارتقاء بالخطاب ليكون في مستوى الإسلام منطلقاً والعصر تقنية هو السبيل إلى استرداد الفاعلية ونشر الدعوة وإظهار الدين ونهوض الأمة من جديد.

وبعد:

فلا ندعي أو نزعم أننا بهذا الإنجاز الثقافي الجماعي قد عالجنا جميع جوانب الإشكالية المطروحة، وحسبنا في ذلك أننا فتحنا الملف واستدعيناه إلى ساحة الاهتمام؛ ودعونا إلى إعادة النظر، في محاولة لاسترداد الفاعلية وتكوين ذهنية التقويم والمراجعة لواقع الخطاب، واكتشاف سبب عجزه عن توصيل قيم الإسلام إلى الإنسان، وامتلاك القدرة على تجاوز الإصابات التي لحقت «بالخطاب الإسلامي المعاصر» فحالت دون الإنتاج المأمول.

ونعترف أن ما أقدمنا عليه يعتبر ملفاً مفتوحاً بطبيعته، لا يمكن أن يُعالج بكتاب أو كتب، وحسبنا – كما أسلفنا– استدعاء الموضوع لساحة التفكير

والنظر والاجتهاد، إلى جانب توفير الإطلاع على الحالة الثقافية، أو الواقع الثقافي لعالم المسلمين وتفكير نخبهم على حد سواء، وهذا بحد ذاته يمثل جزءاً كبيراً من الاستواء على طريق الحل، ودليلاً هادياً من أدلة العمل الثقافي، إن شاء الله.

ولا يسعني بمناسبة هذا الإنجاز الثقافي الجماعي، إلا أن أتقدم **لحضرة صاحب السمو أمير البلاد الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني، حفظه الله**، بوافر الشكر والإجلال والتقدير على تشجيعه ورعايته المستمرة لمثل هذه المشروعات، ومتابعته لإنجازها، والأمر بترجمتها إلى اللغات الحية، تعميماً للفائدة، وتوصيته الدائمة بتوسيع دائرة المشاركة والمساهمة فيها.

كما لا يفوتني أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى الإخوة الكتاب والباحثين، الذين كان لهم الفضل في إنجاز هذا العمل العظيم، وإلى الإخوة في مركز البحوث والدراسات الذين اضطلعوا بعبء هذا العمل، رغم الإمكانات المتواضعة.

سائلاً الله للجميع التوفيق والسداد.

والحمد لله رب العالمين.

هذا الكتاب

الكتاب، الذي نقدمه **«الخطاب الإسلامي المعاصر.. دعوة للتقويم وإعادة النظر»** هو المشروع الثقافي الجماعي السادس في سلسلة مشروعاتنا الثقافية الكبرى الممتدة والواعدة بتوفيق الله سبحانه وتعالى، والتي تشكل ساحة للحوار والمناقشة والمثاقفة والمفاكرة والمراجعة والنقد والتقويم للإشكاليات المركبة التي تعاني منها الأمة، والتي يمكن وصفها بالمعقدة أيضاً، وهي بطبيعتها تتطلب مجموعة تخصصات معرفية وعلمية متنوعة، حتى يمكن النظر إليها من مختلف الزوايا، في محاولة للإحاطة بعلمها، فقد تكون الحقيقة الغائبة، والحل الناجع، الذي نريد الوصول إليه والاطمئنان إلى صوابه وموضوعيته واختبار جدواه غير متوفر جميعه في تخصص واحد، وغير ممكن لإنسان واحد، مهما بلغ علمه وعظم لقبه، بل هو ثمرة لمدارسة وجهد جماعي وتخصصات علمية ومعرفية متعددة، هذا إضافة إلى ما يحقق ذلك من المسؤولية الجماعية عن إشكالات الأمة، والحيلولة دون العبث والادعاء فيها بدون مؤهل من قبل أفراد يكرسون شتات الأمر، وبعثرة الرؤية، والمساهمة بامتداد حالة العجز والتخلف، وتمزيق شبكة العلاقات الاجتماعية والثقافية، حيث يُدْخلون الأمة في حالة العطالة والشلل الذهني والنظرة الذرائعية لإعفاء النفس من الفاعلية والفعل والمسؤولية ويُدْخلونها غرفة انتظار البطل المنقذ أو الزعيم الخالد والقائد الفذ.

وقد يكون من الضروري الإشارة، بين يدي هذا المشروع، إلى أن مثل هذه الإشكاليات الكبرى والمركبة والمعقدة تعتبر من الملفات المفتوحة، والقضايا ذات الحركة الدائمة والدائبة والمتطورة والممتدة؛ لأنها تشكل المحركات الاجتماعية والمفاصل السياسية والثقافية الأساس لحركة الأمة، التي تتطلب الكثير من النظر والتأمل، والبصيرة النضيجة النافذة، والتخصصات المناسبة للإحاطة بعلمها، حتى لا نقع بحفر الوهم والمخادعة، فيصدق فينا قوله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ (يونس:٣٩)، فتتحول جهودنا الفكرية من النظر في طبيعة الإشكالية وموضوعها ودراستها وتحليلها إلى الدفاع عن أنفسنا وإيجاد الأعذار غير المقنعة، في كثير من الأحيان، لإعفاء النفس من مسؤولية الخطأ والتقصير.

ولعل من أخطر الإصابات الذهنية التي لا تغيب عن كل ذي بصيرة، التي تترافق مع النظر في الإشكاليات الكبرى التي نعاني منها، الجراءة في محاولاتنا اقتحام الساحة بدون علم وتخصص في طبيعتها وتكوينها، ودون امتلاك أدوات صحيحة للتعامل معها في تحليلها ودراستها، حيث ما تزال تفعل فينا فعلها «ذهنية الخطابات» والحماسات والانفعالات والتعالي في الأصوات، وتغيب عنا عقلية الخبراء والحكماء، التي تحوّلنا من ذهنية أن نقول كثيراً ونفعل قليلاً إلى حالة أن نقول قليلاً ونفعل كثيراً... ونتأدب بأدب العلم والمعرفة، فلا نقدم على ما ليس لنا به علم، أو لا نقف ما ليس لنا به علم، بحيث تتمحور الجهود على استدراك وتعلم ما جهلنا.

ونعترف من البداية أن مثل هذه الإشكاليات والقضايا قد لا يحيط بها كتاب مهما كان حجمه، ولا مجموعة كتّاب مهما تنوعت تخصصاتهم، ولا زمن بعينه يغني عن النظر في الأزمان الأخرى؛ لأنها سفر مفتوح للنظر والاكتشاف والتعديل والتقويم والمراجعة؛ هي من إشكاليات الأنفس التي كلما نظرنا إليها بدت لنا آيات، شأنها في

ذلك شأن رحلة الكشف العلمي والكوني، التي لا تتوقف عن اكتشاف الحقائق واستكمالها والتحقق منها وتعديلها وأحياناً تبديلها، فما بالنا بالإشكاليات والقضايا التي محلها الإنسان، في الوقت الذي يشكل أداة النظر فيها، يقول تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ (فصلت:٥٣). فاستمرار التبين والاستبانة والبيان هو الروح السارية والفاعلية المتقدة في الأمة، وهي دليل الحيوية والحياة وسبيل التقدم والارتقاء.

ونسارع إلى القول: بأن ما نقصده بالخطاب الإسلامي هنا هو الاجتهاد والفهم البشري لنصوص الكتاب والسنة في محاولاته تنـزيلها على واقع الحياة في كل زمان ومكان، كما لا نعني بذلك الاقتصار على خطاب الفقه التشريعي ومراتبه في العبادات والحلال والحرام، وإنما نعني الإنتاج البشري أو الفهم البشري لتنـزيل قيم الكتاب والسنة على جميع مجالات الحياة، السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية والإدارية، وكل إنتاج أو فهم يرتكز أو ينطلق من القيم الإسلامية، أو إن شئت فقل: من معرفة الوحي؛ وهذا بطبيعة مصدره البشري قابل للفحص والاختبار والتعديل والتبديل والنقد والتقويم والمراجعة؛ لأنه من فهم البشر الذي يجري عليه الخطأ والصواب والتأثر بظروف الزمان والمكان.

وإنما وُسِم الإنتاج البشري بـ«الإسلامي» لأنه ينطلق من القيم الإسلامية وينتسب إليها، وبالتالي فالقيم المعصومة في الكتاب والسنة (خطاب الإسلام) هي معايير التقويم لهذا الإنتاج البشري في جميع مناحي الحياة؛ ونعته بـ«الإسلامي» لا يمنحه عصمة ولا يحوطه بقدسية تحول دون مراجعته ومناقشته وتعديله شأن خطاب الإسلام، وهو ما ورد في القرآن الكريم وبيانه النبوي، فقيم الدين غير صور التدين.

والإشكالية، كل الإشكالية، عندما يختلط الأمر ويغيب التمييز وتلتبس قيم الدين بصور التدين أو عندما تلبس أو تتلبس الذات بالقيمة، فتصبح الذات هـي المعيـار، وعندها تنشأ أنواع من الكهانات الدينية، ويسود مناخ مغشوش من التدين، يحـيط اجتهادات البشر بلون من التقديس والعصمة تحول دون مراجعتها ومناقشتها، وتبدأ مرحلة السقوط في حمأة الإرهاب الفكري، الذي قد يكون أخطـر وأسـوأ مـن الاستبداد والإرهاب السياسي، وتتحول القيم الدينية بدل أن تكون سبيلاً للنـهوض إلى طريق للتخلف والجمود.

ومن المحزن القول: إن بعض المساهمات تعتبر من بعض الوجـوه أحـد أدلـة الإصابات الذهنية وطرائق التفكير والنظر، ولكننا نقول: حسبنا إننا عرضـنا لعـدة أنماط من ذهنية المثقفين والمفكرين من أكثر من موقع وتخصص، لتكون هي بـذاتها مؤشراً على الحالة الذهنية التي نعيشها، لتصبح محل بحث ونظر، ذلك أن الكثير ممـن شغلوا مواقع النخب والقيادات وأهـل الحل والعقـد، بسبب من اعتبارات حزبية أو طائفية أو عائلية، أصبحوا وقفاً على فكر الأمة وأسواراً على عقلها، يمكن مـن حيث يدرون أو لا يعون أن يكونوا جزءاً من المشكلة.

وهنا قد تصل الإشكالية إلى مرحلة الاستعصاء والأزمـة والمـأزق، وتتوقـف إمكانية التجديد، ويتحدد الطريق بالعمل على اسـتبدال النخـب: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴾ (محمد:٣٨)، ذلك أن الحال المتـردي التي نعاني منها يشكل شاهد إدانة على العجز والتخاذل وتحول الحلول، على أيـدي من يسمون بالنخبة، إلى مشكلات.

ولعلنا نرى بهذه المناسبة: أن ما يسمى بالنخب في بعض بلاد المسلمين قد تكون من ألفاظ الأضـداد، حيث تحولت من أمل تقديم الحلول لإشـكاليات التخلـف،

كما هو الوضع الطبيعي، إلى مشكلة؛ أي تحول الحل المرجو إلى إشكالية معقدة، ذلك أن إطلاق مصطلح «النخب» على الكثير من القائمين على الأمر في معظم المجالات، إن لم نقل كلها، فيه القليل من الصواب والكثير من التبسيط والتضليل، الذي يؤدي إلى تكريس العجز والتخلف، فحسبنا القول: إن هذه النخب لم تأت منتخبة من الأمة، كما يدل اسمها، و لم يأت اختيارها في ضوء إمكاناتها وبرامجها وتاريخها، و لم تأت ثمرة لتكافؤ الفرص التي يتيح المجال لبروز الإمكانات الحقيقية، و لم تأت أو تنتخب من خلال القانون الطبيعي للتطور والارتقاء، و لم تأت ثمرة لسنن المدافعة وقوانينها الاجتماعية ومعاييرها الموضوعية، وإنما جاءت نتيجة لأسباب أبعد ما تكون عن طريق الاختيار والانتخاب، لذلك فهي قد تدفع بنخب غير مؤهلة تفتقد اللياقة والأهلية لتحمل المسؤولية ومعالجة الأزمة، فتصبح من معوقات النهوض.

وهذا قد لا يقتصر على مجال دون آخر، وإن كان بروزه قد يبدو أكبر هنا وأصغر هناك، لكنها الحالة العقيمة المنتجة للنخب؛ هي ثمرة للذهنية نفسها، لذلك يتضاءل الأمل في النهوض والخروج من نفق التخلف؛ ولذلك نرى أن العالم ينمو ويتقدم، أما نحن فنراوح في مكاننا إلا من بعض مظاهر التقدم التي قد يصنعها لنا (الآخر)، ونستنزف طاقاتنا في مواجهة الديمقراطية توهماً بأننا ندافع عن قيم الشورى الغائبة، فنحول المعركة لصالح تكريس الاستبداد السياسي، وعلى أحسن الأحوال نستغني بالحديث عن مشروعية الشورى وأحكامها وإلزامها أو إعلامها على حساب ممارستها، والبحث والدرس والتحقيق للنص والحديث عن عظمته على التفكير في كيفية إعماله، ونعيش جدلية: الإصلاح القادم من الخارج أم النابع من الداخل، والمحصلة لا إصلاح ... وهكذا.

وإصابة أخرى نعتقد أنه من المفيد إبرازها، وهي أننا طرحنا محاور للموضوع، لتأتي المساهمات والمقاربات ضمن السياق المطروح، ومع ذلك فقد لا نستغرب كثيراً

- ونحن جزء من هذا الواقع الثقافي- أن نقع على الكثير من عدم الموضوعية، والتوهم بأن كل كلام يصلح لكل مقام، حيث مازال بعضنا يخطب بالقلم كما يخطب باللسان والحركة والانفعال والحماس.

ولعل هذا الكتاب بطبيعته يتطلب أن يكون العقل وراء العين القارئة، وهو صفحات - فيما نرى - مطروحة لإثارة التفكير وليس للقراءة المسترخية المتكئة على الأرائك، إنه محاولة لإنعاش الوعي واستدعاء مناخ التحريض الفكري، والتحريك الذهني، والتدريب على النظر والتحليل والتركيب والنظر في المآلات، وبناء العقل الناقد القادر على التمييز بين قيم الدين المعصومة وصور التدين القابلة للخطأ والصواب.

ونحب أن نؤكد أن الآراء والاجتهادات الواردة، لا تمثل بالضرورة وجهة نظر الوزارة، بل يمكن القول: إن بعضها قد لا يمثلها، بل هو محل نظر، لكنها إتاحة الفرصة لاستطلاع الساحة الذهنية.

والكتاب بعموم مساهماته يمثل ساحة للحوار وتبادل الأفكار والمثاقفة الفكرية، وليس كتاباً فقهياً يقرر أحكام الحلال والحرام.

ويطيب لنا بهذه المناسبة أن نتقدم بالشكر الجزيل للإخوة الكتاب والباحثين، الذين أسهموا معنا في إنجاز هذا العمل.. وإلى الإخوة موظفي مركز البحوث والدراسات، الذين شاركوا في إعداد الكتاب، على الرغم من الظروف الصعبة، والإمكانات البشرية المتواضعة.

والله نسأل أن ينفع به، وأن يكون خطوة سديدة على الطريق الطويل، وإضاءة متميزة وبصيرة نافذة، على هذه الحقبة الخطيرة من مسيرة البشرية، تعين المسلم المعاصر على الاضطلاع برسالته والارتقاء بإبلاغها وخطابها، رحمة للعالمين.

إنه نعم المسؤول.

الخطاب الإسلامي المعاصر

دعوة للتقويم وإعادة النظر

المحاور الرئيسة

المحور الأول: دلالة المصطلح:

- إشكالية المصطلح.
- منهجية الخطاب الإسلامي.
- مرجعية الخطاب.
- فنون الخطاب.

المحور الثاني: حوار.. لا مواجهة:

- إعادة بناء المفاهيم وتوليد المصطلحات.
- الدين والتدين في الخطاب الإسلامي (فك التلبس بين الذات والقيمة).
- التمكن من أدوات الخطاب.
- الإحاطة بمصطلحات (الآخر).
- الاعتراف (بالآخر) والالتزام بأدب الاختلاف.

المحور الثالث: من مواصفات الخطاب الإسلامي:

- خطاب الذات وخطاب (الآخر).
- تحرير بعض المسلمات في الخطاب الإسلامي.
- الخطاب بين الواقعية والمثالية.
- الخطاب بين التلقين والتفكير.
- مطابقة الخطاب لمقتضى الحال (التربوي، السياسي، التعبوي،...).

المحور الرابع: من إشكاليات الخطاب الإسلامي:

- جمود الخطاب وتطور المجتمع وتبدل المشكلات.
- الوقوع في الثنائيات (الدين والدولة، الدنيا والآخرة، علوم الدين وعلوم العصر،...).
- انطفاء الفاعلية وغياب التخصص.
- الخطاب الدفاعي ورجع صدى (الآخر).
- الخلط بين خطاب الذات وخطاب (الآخر).
- خطاب الأزمة وأزمة الخطاب.
- الانحباس ضمن دوائر مغلقة وإعادة إنتاج الماضي.

المحور الخامس: دور الخطاب في التشكيل الثقافي ومعاودة إخراج الأمة:

- استقراء تاريخي لدور الخطاب.
- مفهوم الخطاب وأبعاده المتعددة (الكلمة-القلم- اللون - الصورة - الصوت... إلخ).
- ثقافة الخطاب والخطاب الثقافي.
- العلاقة بين المعرفة والسلطة (المثقف والسياسي) (الأمة والدولة).
- عالمية الخطاب وإنسانيته.
- الخطاب بين (النص والاجتهاد).

المحور السادس: رؤية مستقبلية:

- من دراسة الماضي إلى استشراف المستقبل.
- من الانكفاء إلى الانفتاح على الذات و(الآخر).
- من الخطبة والتلقي إلى التخاطب والمشاركة.

الخطاب الإسلامي.. رؤية مستقبلية

الدكتور سعيد إسماعيل علي (*)

تذوق أحوال الحضارة المختلفة، وأنواع الثقافات، ومجالات التعليم، يولد طرقاً مختلفة لمواجهة المشكلات، وتقبل اختلاف الثقافات، كأمر من طبيعة الأشياء، ويمنح قدرة على تجاوز مجرد النظر الموضوعي للحضارة التي تختلف عن حضارتنا، إلى المشاركة الواعية في طرق الفكر وطرق العمل في هذه الحضارات.

مقدمة:

شهدت العقود القليلة الماضية تصاعداً ملحوظاً في استخدام مصطلح .«الخطاب» الذي لم يكن شائع الاستخدام في الكتابات العربية طوال قرون، ولعلنا نذكر أن كتاب الفيلسوف الفرنسي الشهير «ديكارت»: (Discourse de la methode) عندما ترجمه الدكتور عثمان أمين، أستاذ الفلسفة الراحل بجامعة القاهرة، عنونه بـ (مقال في المنهج)، بينما نترجم نحن الآن هذا اللفظ «discourse» بـ «الخطاب».

(*) باحث أكاديمي.. أستاذ أصول التربية، جامعة عين شمس (مصر).

و«الخطاب»، كما نتعامل معه في هذه الدراسة هو جملة التصورات والمفهومات والاقتراحات التي يقدمها العلماء والمفكرون حول الواقع الإسلامي، وصفاً وتحليلاً، ونقداً، واستشرافاً لمستقبله، محدداً بخمسة أمور:

- أولها: لغة معبرة؛
- ثانيها: محتوى فكري؛
- ثالثها: شكل مُنظَّم؛
- رابعها: سياق محيط؛
- خامسها: «مذهبية» أو «عقيدة» منتج «الخطاب».

وعلى الرغم من افتراض أن يدور التناول في الدراسة الحالية حول «الخطاب الإسلامي» في عمومه الذي لا يحد بنسق معرفي بعينه، لكننا وجدنا أن المفضل أن يكون هناك مجال تطبيقي بعينه، يكون هو «حقل» التمثيل والإشارة، وقتما يقتضي الحال، حتى لا يقتصر الأمر بنا على مجرد تحليق مفارق لحركة الواقع، في سماء تنظير، فما من فكرة، وما من تأمل إلا وله حضين من حركة الواقع، يمده بالغذاء العقلي، ويختبره، ويضبط تحليقاته، حتى لا تصل إلى سماء لا يطار لها على جناح ولا يسعى على قدم.

والحقل التطبيقي سيكون هو الحقل التربوي، ربما بحكم التخصص المهني، وربما بحكم الدراية المعرفية، وربما كذلك لإيمان راسخ بأن «التربية» هي الرباط الجامع بين كثير من الأنساق المعرفية، إذا أردنا أن نتناولها من زاوية «خطاب ديني إسلامي»، على أساس ما يصعب حصره في الدراسة الحالية من مؤشرات إسلامية، تجعل المدار في «الخطاب» كله، ما يتم منه من ترجمة سلوكية نستطيع أن نلمسها على أرض الواقع وحركة العمل الإنساني.. وإذ تبرز لنا هذه الحقيقة، نجد أنفسنا في عقر دار التربية، حيث إن عملها الأساس هو الترجمة السلوكية لما نحمل من أفكار وما ندعو إليه من

آراء، وما نصل إليه من نظريات، فالله عز وجل يصب اللعنة على بني إسرائيل على اعتبار أنهم ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ...﴾، والله عز وجل يدين بشدة أن يكون انفصالٌ بين القول والفعل: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

والرسول ﷺ يؤكد أن الإيمان الحقيقي هو «**ما وقر في القلب وصدقه العمل**»[1]، وهو إذ يؤكد كذلك أن «**الدين المعاملة**»[2]، فكأنه يرادف بين الدين وبين السلوك.

لماذا الخطاب الإسلامي؟

عندما تتأزم المواقف بالأمة وتتكاثر عليها وأمامها المشكلات، ترى غيرها يواصل قفزاته إلى أمام، وهي أحياناً ما تظل مكانها لا تبرحه، وأحياناً أخرى تجد خطواتها بطيئة لا تعينها على تجاوز الفجوة، بل وأحياناً أخرى ما ترى وكأن خطوها قد دفع بها إلى خلف... عندما تجد الأمة نفسها في هذا الحال، لابد وأن يقدح علماؤها ومصلحوها زناد فكرهم عن حقيقة الأزمة، بحثاً عن «الطريق» الكفيل الذي به يمكن أن تصل إلى ما يبوؤها مكانة مرموقة بين الأمم. وبالنسبة للأمة العربية الإسلامية، فمكانتها ينبغي ألا تقف عند حد أن تكون مرموقة، بل لابد أن تحقق وصف الخالق عز وجل لها بأنها ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾، ومثل هذا الوصف ليس وصفاً لحالة موروثة بالفطرة، وإنما هي استحقاق مكتسب، لا يجئ إلا نتيجة مجاهدة واجتهاد، إلا نتيجة مكابدة وكد، إلا نتيجة مثابرة ومصابرة.

والطريق المأمول في الحقيقة ليس مجهولاً، فهو كما نؤكد هو الخطاب القائم على «النهج الإسلامي»، لكن هذا النهج يحتاج إلى وعي وحسن فهم وسلامة إدراك، ويحتاج إلى تطبيق وتنفيذ. واختيارنا للنهج الإسلامي نهجاً للخطاب ليس اختياراً

(١) أورده الشيخ ناصر الدين الألباني في موسوعة الأحاديث والآثار الضعيفة، حرف اللام، رقم (٢١١٨٨).
(٢) الشيخ الألباني، موسوعة الأحاديث والآثار الضعيفة، حرف الدال، رقم (١٠٧٩٢).

اعتباطياً ومزاجياً، وليس اختياراً مبنياً على التوارث والمجاراة، وإنما هو اختيار مبني على البحث والدراسة والتحليل، ومبني على المناقشة العقلية والبرهنة المنطقية، كما يمكن أن نبينه في جزء تالي.

ولكي نكون على بينة من هذه المهمة لابد من تصور إجمالي لمواقع الحركة الفكرية وأصول النشاط المعرفي في هذا العصر، فإن الحاجة إلى المنهج (بمعنى الطريق) إنما هي في كثير من الأحيان وليدة مشكلة، وما لم تتضح المشكلة وتشخص جذورها وأبعادها، لن يتيسر العثور على المنهج الملائم الذي يناط به حلها، وبوسعنا أن نوجز بيان ذلك في عالمنا الذي نعيش فيه من خلال النقاط التالية[1]:

١- هيمن الحضارة الغربية على أوجه النشاط الإنساني المختلفة في ربوع الغرب على اختلافه، ويعكس ذلك تأثيراً مباشراً على العالم الإسلامي بدرجات مختلفة بين صقع وآخر، وفئة وأخرى. ومن المعلوم أن هذه الحضارة إنما تدور على محورها الوحيد ألا وهو الزخم المادي، ذلك الزخم الذي أحال إنسان الحضارة الغربية، بكل خصائصه الفكرية والوجدانية والروحية، إلى ما يشبه حيوان يلهث سعياً للبحث عن أي سبيل لاكتشاف فنون جديدة فيها.

٢- كان لابد أن يفقد الفكر الإنساني حريته تحت سلطان هذا الزخم المادي، فيتحول إلى جندي يتحرك في خدمة ذلك الحيوان المادي الهائج بين جوانح هذا الإنسان الجديد، وهذا ما تحقق في أكثر ربوع الغرب، إن لم نقل في عامته، فقد غدت المعرفة ذريعة للمصلحة، وأصبحت العقيدة تابعة للإرادة، وجند البحث العلمي لتسويغ كل ذلك وتبريره، بل سرعان ما تم اعتباره منهجاً إنسانياً فذاً في طريق المعرفة والبحث عن اليقين.

---

(١) محمد سعيد رمضان البوطي، أزمة المعرفة وعلاجها، في: طه جابر العلواني وآخرون: المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية والتربوية (هيرندن، فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٠م) ١/٦٠.

٣- أن هذا التيار الذرائعي من شأنه أنه قد يحتضن شعار الإيمان بالله وما قد يستتبعه من مستلزمات سلوكية وأخلاقية بقطع النظر عن مؤيداته العقلية والعلمية، لمجرد أن يديره في فلكه ويسيره لمصلحته، ويستخدمه ذريعة للمصالح النفسية والمادية والسياسية، فينقطع الإيمان بذلك، وفي مثل هذا الجو، عن براهينه العقلية وأسسه الفكرية والعلمية ليرتبط بدلاً عنها بالمؤيدات الذرائعية؛ وتعبيراً عن هذا الاستخدام، قال «نابليون» كلمته التي اشتهرت عنه: «لو لم يكن الله موجوداً لأوجدته»، وهو بهذا يصير الدين واهي الحجة، هش المعقولية، وصيداً سهلاً لمنكريه وادعائهم باطلاً أنه صنع في مصانع الفكر البشري[1]. ومن بعده أكد الفيلسوف الأمريكي، وعالم النفس «وليم جيمس» مبدأ الفلسفة البراجماتية بناء على المقارنة بين فكرة الإيمان بالله وفكرة الكفر به، فلما وجد أن الفكرة الأولى تدر فوائد أكثر، تبناها ورفض الثانية!

٤- اقتضت تبعية الفكر لسلطان المادة أن تتحرك كثير من الدراسات الإنسانية بنوازع ذاتية وأهواء قومية ودوافع عنصرية، ثم يزعم لها الحيدة والموضوعية، وحتى يدفع عنها التحيز أحيطت بسياج من مناهج تؤكد على الظواهر الكمية.

٥- تقطعت الصلة ما بين العلوم الطبيعية، بعضها عن بعض، وتحولت إلى أوصال ممزقة، ثم سخرت كل قطعة منها لخدمة جانب من جوانب الحضارة المادية، التي تهتم بالإنسان غريزة وجسماً، وتهمله روحاً وفكراً، ومن ثم لم تعد في مكنة هذه العلوم أن تقوم على مبدأ وحدة المعرفة الذي يدور على محور الوحدة الكونية المترابطة المتناسقة، والمنبهة إلى وحدة المكون، وعظيم سلطانه[2].

---

(١) المرجع السابق، ص ٦١.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٢.

أما على مستوى العالم الإسلامي، فلقد أدى انتشار الجهل والخرافات والأمية بين المسلمين – نتيجة قرون من التدهور والتخلف – إلى دفع المسلم العادي إلى النكوص والركون إلى الإيمان الشكلي والتقليد الأعمى، والتقيد بالتفسير الحرفي، والاستسلام لدعاة الخرافة مما أوجد في نفسه قدراً كبيراً من الضعف والعجز عن مقاومة التحديات والتأثيرات الخارجية. وعندما داهمه العالم الحديث، أدى ضعفه العسكري والسياسي والاقتصادي إلى خوفه وارتباكه. وتحت تأثير هذه الصدمة سعى إلى حلول وسطية لإصلاح حاله اعتقاداً منه أنها العصا السحرية التي ستعيد إليه بسرعة كل ما أضاعه وفاته[1]. وهكذا لجأ دون وعي أو إدراك إلى اعتماد الوسائل والأفكار الغربية بعد أن أغوته تجربة الغرب الناجحة، وبعد أن زين له مستشاروه الغربيون، أو مستشاروه المحليون غربيو التفكير، محاولة تقليدها؛ أما في المناطق الخاضعة للإدارة الاستعمارية فقد فرض النهج الغربي وقام أولو الأمر فيه بالترويج له وتشجيعه بكل ما توافر لديهم من وسائل.

وسواء كانت نية هؤلاء القوم، الذين سعوا لحل مشكلات بلادهم باتباع النهج الغربي، حسنة أو سيئة، فإنهم عجزوا عن أن يدركوا أن برامجهم سوف تزعزع وتقوض – عاجلاً أم آجلاً – أسس الدين الإسلامي وثقافته بين صفوف رعيتهم. وكانت العلاقة بين مظاهر القدرة على الإنتاج والقوة في الغرب من جهة وبين الأفكار الغربية التي تتعلق بالله والإنسان والحياة الطبيعية والكون والزمان والتاريخ من جهة أخرى، من الدقة والتعقيد إلى درجة أن أولي الأمر، الناهجين نهجاً غربياً، عجزوا عن الانتباه لها وفهمها، أو أن تسرعهم للإصلاح أدى إلى عدم إعارتها أية أهمية.

---

(١) المعهد العالمي للفكر الإسلامي، إسلامية المعرفة (القاهرة: مطابع الأهرام، ١٩٨٦م) ص ٢٨.

وهكذا نشأ نظام تعليمي لاديني يلقن القيم والمفاهيم بالأساليب الغربية، وسرعان ما أخذ يغرق المجتمع الإسلامي بأجيال من الخريجين من حملة الدرجات العلمية الجاهلين تماماً بأمور دينهم وتراثهم الإسلامي، وزاد في عدم ثقة هؤلاء الخريجين بالعلماء المسلمين حماة التراث الإسلامي وحملته ما كان عليه كثير من هؤلاء العلماء من حرفية وتشبث بالموروث، جملة وتفصيلاً، ودون تمييز بين ما لا يجوز تجاوزه من أحكام الكتاب والسنة، وبين ما وسع الله فيه من فقه الرجال وآرائهم. وهكذا بدأت الشقة تنمو بين العلماء المسلمين المعارضين للنهج العلماني اللاديني وبين العلمانيين اللادينيين غربي التفكير الداعين له. ورتب الاستعمار الأمر بحيث أصبح العلمانيون اللادينيون أصحاب اليد الطولى وصناع القرار في كثير من بلدان العالم الإسلامي[1]، وأخطر من هذا جعل أجهزة التثقيف والإعلام والتعليم بأيديهم.

ومهما تعددت جهود اليقظة الإسلامية والاجتهاد الإسلامي وتنوعت أو اختلفت إزاء أزمة الفكر الإسلامي ومأزق الأمة الإسلامية، فلا نعتقد أن هناك مجالاً للخلاف على ضرورة وأهمية، بل وجوب أن ينفر قوم من مفكري الأمة، في عصرنا الراهن، فيعكفون على صياغة «خطاب» يعبر عن الإسلام كبديل حضاري للنموذج الغربي، الوافد والمهيمن على القطاع الأكبر والمؤثر من واقعنا وفكرنا، وكبديل أيضاً لفكرية التخلف الموروث التي تفل قدرات الأمة وتقيد خطاها وتفقدها القدرة على الإبداع، وعلى أهمية وضرورة تحديد معالم هذا البديل الحضارى الإسلامي، كدليل عمل لكل العاملين في إطار النهضة الإسلامية بمختلف الميادين[2].

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٩.

(٢) محمد عمارة، معالم المنهج الإسلامي (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩١م) ص ١٥.

لماذا المستقبلية؟

الملاحظ أنه كثيراً ما يتردد على ألسنة كثيرين وأقلامهم تسمية مجال دراسة المستقبل «بعلم المستقبل»، مع أن التسمية كانت موضع جدل علمي في الفترة التي شهد فيها هذا الميدان تطوراته المهمة، حيث كان الجدل يدور حول التسمية الأكثر تناسباً مع اشتغالات واهتمامات هذا الميدان. ومن الأسماء التي أطلقت على هذا الحقل الذي بات يتمتع حالياً بتداول كبير: بحث الأمور المستقبلية أو المستقبلات، ودراسة المستقبل، و«الريادات المستقبلية: Futuristics»، و«علم المستقبل: Futurology»، وليس ثمة من نقص في البدائل، فهناك: النذر أو «التكهنات: Prognostics»، و«الاستقباليات: Futuribles»، وتحليلات المستقبل، و«المستقبلية: Futurism»، وهو مصطلح استعمله العالم الأمريكي «إلفين توفلر» صاحب الكتاب الشهير «صدمة المستقبل»[1].

ونحن نميل إلى الاقتداء بهؤلاء الذين عبروا عن هذا الفن بمفهوم «استشراف المستقبل»، لما تحمله لفظة الاستشراف من دلالة عريقة في لغة العرب، تعبر أحسن تعبير عن المراد فعلاً من اكتشاف آفاق المستقبل، والتطلع لسبر أغواره.

وفي اللغة العربية: الاستشراف، تحديد النظر إلى الشيء بشكل يجعل الناظر أقوى على إدراكه واستبيانه، كأن يبسط الكف فوق الحاجب كالمستظل من الشمس، أو ينظر إليه من شرفة أو مكان مرتفع، أو يمد عنقه ويسدد بصره نحوه، كل ذلك يفعله للإحاطة بشكل الشيء والتدقيق في ماهيته. وفي حديث أبي طلحة، رضي الله عنه: أنه كان حسن الرمي، فكان إذا رمى استشرفه النبي ﷺ، لينظر مواقع نبله، أي يحقق نظره ويطلع عليه. وأصل الاستشراف من الشرف والعلو.

(١) زكي الميلاد، العالم الإسلامي والمستقبل.. أي مستقبل نبحث عنه؟ مجلة الكلمة، العدد (١٥)، بيروت، ربيع ١٩٩٧، ص ١٦.

ومن استقراء بعض ما دار حول هذه القضية، يمكن أن نرجح أن المستقبلية ليست علماً قائماً بذاته، وإن استعانت مناهجها بالعلوم البحتة والعلوم الاجتماعية. أما موضوعها، فهو الدراسة لوضع معين بشكل مفتوح على البدائل والخيارات لتفحص جميع التطورات، واستقراء النتائج الممكنة المترتبة على هذا القرار أو ذاك على هذه التطورات، ولهذا يغلب الحديث عن «مستقبلات»، بصيغة الجمع في ميدان الدراسات المستقبلية، وليس عن المستقبل بصيغة الفرد. والغاية الأساسية من هذه الدراسات هي تحديد الأهداف المتوخاة، وإمعان النظر في جعلها ممكنة في المدى المتوسط أو البعيد من خلال التأثير على الحاضر ومجراه[1].

وإذا كانت الدراسات المستقبلية تسعى لاستشراف آفاق المستقبل ودروبه الممكنة، فهي بذلك تستهدف رسم خرائط للملاحة الصعبة في بحار المستقبل، إذ أن امتلاك «بوصلة» ما حول نمط التطورات والتحولات المستقبلة المحتملة، يساعد راسم السياسة على تحديد درجات «الحرية» أو «المناورة» التاريخية، إذا صح هذا التعبير، حتى لا يصبح المستقبل قدراً محتوماً تستقبله الأمم والشعوب دون حول أو قوة، فحقيقة الأمر، أن الصور المختلفة للمستقبل تتوقف إلى حد بعيد على القرارات التي تتخذ في الحاضر، ولذلك فإن محاولة استقراء آثارها التراكمية في الأجل الطويل ستساعد في ترشيد القرارات الحالية، ابتغاء الاقتراب من أفضل البدائل التي يمكن أن تتاح في المستقبل، ومن هنا يتأكد القول: بأن العلاقة بين الحاضر والمستقبل هي علاقة تفاعلية، تركيبية، تأليفية بالضرورة[2].

---

(١) المرجع السابق، ص ١٧.

(٢) محمود عبد الفضيل، الجهود العربية في مجال استشراف المستقبل، في: خير الدين حسيب «تحرير»، مستقبل الأمة العربية، التحديات، والخيارات (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٨م) ص ٥٢.

قابلية الخطاب الإسلامي للنظر المستقبلي:

لو قدر لنا أن نجمع جملة ما وجهه المغايرون للتوجه الإسلامي، على وجه العموم، والعلمانيون على وجه الخصوص من صور نقد «للخطاب الإسلامي»، بل وللتوجه الإسلامي نفسه، فسوف نجد أن أبرز «نقد» أو «تهمة» هي أن هذا الخطاب، وذاك التوجه، ينظر على الخلف، حيث إنه - وفق ما يتصورون - ذو نزعة «ماضوية»، يريد أن يرجع عقارب الساعة إلى وراء، استناداً إلى مقولات تتردد في «الخطاب الإسلامي» ترى أن الخلاص مما يعيشه المسلمون من تخلف، وما يعانونه من تأزم إنما يكمن في أن تنهج الأمة نهج أوائلها. ومن ثم فكأن الحديث عن رؤية إسلامية للمستقبلية، وكأنه حديث عن «تربيع الدائرة»، حيث التناقض بين طرفي كل من العبارتين، فالإسلامية، تعني النظر إلى وراء، والمستقبلية تعني النظر إلى أمام، تماماً مثلما أن المربع هو مساحة محاطة بأربع أضلاع متساوية، وكل زاوية هي زاوية قائمة، بينما الدائرة على العكس من ذلك تماماً.

إن وجه اللبس هنا هو هذا الخلط المشهور بين «الثوابت» و«المتغيرات»، فما جاء به القرآن الكريم، وما صدر عن رسول الله ﷺ من سنة هو مما يتجاوز حدود المكان والزمان، بحيث يسقط عنهما التوصيف الشهير، ماض وحاضر ومستقبل، إلا ما يرتبط بهما من «فهم» و«اجتهاد»، فهذا جهد بشري، وما دمنا قد دخلنا دائرة البشرية، فلابد من الخضوع إلى أبعاد الزمان والمكان، ومن الممكن عندئذ أن نصنِّف تصنيفاً زمانياً إلى: ماض، وحاضر، ومستقبل.

والشأن كذلك فيما صدر ويصدر عن المسلمين من «أفعال» و«ممارسات»... هي متغيرات، تتبدل بتبدلات الزمان والمكان.

لكن هناك من يذهبون إلى أننا بهذا نسلم بأن كلاً من القرآن والسنة، يظهرا من خلال عقل بشري وفهم إنساني، وبالتالي فإنهما يتصفان كذلك بالتاريخية، وهذا استنتاج غير صحيح، لأن كلاً منهما بدوره يقوم على أصول وفروع، والأصول ثابتة لا تتغير، ومعظم الاجتهاد والتأويل إنما يكون في الفروع، فضلاً عن قاعدة هناك اتفاق عليها تقضي بألا اجتهاد مع نص، خاصة إذا كان هذا النص واضحاً وصريحاً.

إننا عند تأمل قتل أحد ابني آدم لأخيه ندين هذا العمل، على الرغم من مرور ما يصعب معرفته من آلاف السنين، لأنه يتعلق بقيمة إنسانية أساسية لا تتغير بتغير الزمان والمكان.

وعندما ننظر في ما كان يراه مربو الماضي، منذ عشرات القرون الماضية من وجوب «الصدق» في القول، و«الإخلاص» في العمل وإتقانه، وما سار على الدرب، لا نتصور أن مثل هذه القيم الأساسية يمكن أن تتبدل، فيصبح الكذب مطلوباً والصدق مستهجناً!

وهكذا نجد عدداً من «الثوابت» في القيم الأخلاقية، تتحدى أبعاد الزمان والمكان، فهل ندهش إذا قلنا: إن هناك ثوابت دينية تتجاوز حدود الزمان والمكان؟

وعلى ذلك فإن «الخطاب الإسلامي» عندما يحفل بآيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ داعياً إلى الالتزام بها، فهو لا يتوجه بذلك إلى الماضي، وإنما على العكس من ذلك، يتوجه إلى تصويب حركة الحاضر، والتأسيس السوي للمستقبل.

ولعل المثال التطبيقي التالي يزيد قولنا وضوحاً...

فعندما ارتفعت بعض الأصوات في بعض البلدان إلى ضرورة العودة إلى «الكتاتيب»، فزع بعضٌ آخرون، ثائرين مرددين أن هذه دعوة إلى الخلف، ورأي «رجعي»، وهنا أيضاً خلط بين ثوابت وبين متغيرات ينبغي إزالته.

فمدارسة المسلم لكتاب الله عز وجل والسعي على حفظه هي أيضاً تصحيح لحاضر وتأسيس لمستقبل، ما دام هذا الكتاب هو دستور حياة المسلمين، فهذا أمر أصبح ضرورة تحتل المرتبة الأولى في سلم الأولويات في حياة المسلم منذ أن نزلت الرسالة الإسلامية على الرسول الأمين، وحتى الآن، وإلى ما شاء الله.

لكن «النظام» الذي يتم من خلاله هذا، و«الطريقة» التي يمكن التوسل بها، و«الأدوات» المعينة على التنفيذ، و«العدد» الذي يمكن أن يضمه المكان، و«المبنى»، والمعلم، وشخصيته ومؤهلاته وإعداده... كل هذا وذاك «متغيرات» لا أحد يلزم أحداً بأن يتبع ما كان منها في العصور السابقة، لأن الدنيا لم تعد هي الدنيا، فالمناداة بعودة الكتاتيب هي مناداة بعودة «الوعي بالقرآن»، وليست مناداة بعودة المكان، والطريقة، والمعلم، والأدوات، مما كان من سالف السنين، فهل يمكن وصف هذه الدعوة بالرجعية والماضوية ؟

بل إننا لنذهب إلى ما هو أكثر من ذلك، ألا وهو أن التفكير الديني لابد أن يتسق مع مهمة الدين، التي هي «حاضر» بالضرورة، «مستقبل» بالأساس، ذلك أن المدار في الدين هو ما نعيشه، وما سوف نعيشه، ولا عبرة بما كان، فلربما كان الفرد منا مرتكباً لبعض المعاصي، فإذا ما رجع عنها وتاب اختلف أمره وتباينت صورته، والتوبة سبيل إلى محو الماضي غير المشرف، وإعلان بأن الحاضر والمستقبل يسير بصاحبها على الصراط المستقيم.

بل إن كل ما يفعله كل البشر في كل البلدان، في كل العهود والعصور، إن هو إلا طرق ممهدة لحياة أخرى سوف يحياها الإنسان في عالم آخر، الذي هو العالم الحقيقي، بينما ما نحياه الآن إن هو إلا «جسر» موصل إلى ما هو أبقى وأعظم.

إن الله عندما خلق البشر، لم يدعهم يعيشون في الأرض بضع سنين، ثم يفنون وتبقى لهم ذكرى أو لا تبقى، كلا، لقد أوجدهم حقاً ليعيشوا مستقبلاً يحكمه

«الخلود»، والموت الذي يعترض حياتهم على ظهر الأرض هو رقدة مؤقتة أو نقطة فاصلة بين مرحلتين من الوجود، كانت الأولى للغرس، والأخرى للحصاد[1].

أما الذين أحسنوا الغراس، واستعدوا للقاء الله، فإنهم يقولون: ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (الصافات:٥٨-٦٠)، وأما الذين ظنوا العيش بين المهد واللحد هو الوجود الأول والأخير، وجحدوا ما بعده، فلهم شأن آخر: ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ۖ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ (الملك:٦-٨).

وهذا تأكيد على حقيقة عدل الله وحكمته، فقد تحدثت آيات القرآن الكريم عن وجوب مجيء يوم الحساب، مستندة في إثبات ما تتحدث عنه على أن الخالق حكيم ومستحيل عليه العبث، وعادل يستحيل عليه الظلم، يقول تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ (المؤمنون: ١١٥-١١٦)

وفى القرآن العديد من الآيات التي تقوم على الترغيب والترهيب، الترغيب في جنة ينعم الإنسان فيها بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، والترهيب من عذاب يصعب تصوره في نار جهنم[2]. وهو من خلال هذا الترغيب وذاك الترهيب إنما يجعل فكر الإنسان وعمله في حاضره يستشرف المستقبل الذي هو على غير ما نتصوره من «مستقبلات» في هذه الحياة الدنيا، إنه «مستقبل» خالد، يقول عز من قال في نعيم الجنة:

(١) سعيد إسماعيل علي، القرآن الكريم، رؤية تربوية (القاهرة: دار الفكر العربي، ٢٠٠٠م) ص ٦٢.
(٢) محمود شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة (القاهرة: دار الشروق، ١٩٧٥م) ص ٤٥.

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (الرحمن:٤٦-٥٥).

وفي عذابها، يقول:

﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ (الواقعة:٤٢-٤٤).

ويقول: ﴿ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴾ (الهمزة:٤-٧).

ولو نظرنا إلى خطاب التعليم بصفة خاصة، فسوف نجد أنه، ربما أكثر من غيره، لابد أن يكون مستقبلي التوجه، حيث من المعروف أننا نربي اليوم تلاميذ خلقوا لزمان غير زماننا، فالطفل الذي يلتحق بالصف الأول الابتدائي اليوم، سوف يتخرج بعد ما قد يزيد على ثلاثة عشر عاماً. وإذا كانت هذه المدة فيما مضى لا تشهد كثيراً من التغير والتبدل، لكنها في عصرنا الحاضر، تشكل ما أصبح يمثل «فجوة زمنية»، وهو الأمر الذي أصبحنا نشهده في بيوتنا، لا نقول بين الأجداد والأبناء والأحفاد، ولكن بين الأبناء أنفسهم الذين يفصل بين كل منهم سنوات تقل عن أصابع اليد الواحدة، في غير مبالغة.

من هنا وجد الخطاب التربوى نفسه ملزماً بأن يبحث عن صيغ متعددة يمكن أن تلاحق هذا التبدل الذي يحدث لنوع المعرفة وحجمها، وهذا التغير الذي يحدث لنوع المهارات وعددها، وأصبح «التدريب» قاسماً مشتركاً بين كل المهن وبين كل الحرف.

إن من أكثر المواقف المتكررة مدعاة للمرارة حقاً، هي ما نسمعه من حين لآخر من بعض المسؤولين في الوطن العربي، في بعض المجال أن يقول هذا - مثلاً - إنهم «فوجئوا» بتزايد الاستهلاك في مجال الكهرباء – مثلاً – عن المعدلات السابقة، أو أن يقول آخر: إن إدارته فوجئت بتزايد حركة السير على الطرق في مدينة ما أو في حي ما أو بين مناطق ما، عما تعودوا عليه من معدلات تزايد... وهكذا.

إن هذا هو ما يمكن أن ينطبق عليه القول الشائع: «عذر أقبح من ذنب»، ذلك أن من بين مهام ولي أمر شأن ما أن تتوافر لديه، أو لدى من يستشيرهم، مهارات استشراف المستقبل، بحيث لا «تفاجئهم» الأحداث، باستثناء بعض الطوارئ الطبيعية التي لا قبل – حتى الآن – للإنسان بالتنبوء بها، مثل الزلازل والبراكين.

وعكس هذا نجده لدى (الآخر) الحضاري، فهم لا ينتظرون حتى يقع الحدث أو تقع الكارثة، وإنما هناك دائماً فرق بحث علمي، ومراكز للرصد، يدرسون فيها مجالات عدة، وما يمكن أن يحدث فيها والتطورات المتوقعة، ويضعون بدائل مختلفة، حيث إن التنبوء الدقيق بمسار الأحداث قد لا يتوافر دائماً، بحيث يختار ولي الأمر البديل الملائم لما يتم بالفعل، كما رأينا على سبيل المثال، في الشؤون الخاصة بالمسارات السياسية للوطن العربي، إذ نجد أن (الآخر) قد أعد لكل احتمال عدته، وتتصاعد من معسكرنا صيحات «المفاجأة»، وأننا لم نكن نتوقع أن يحدث كذا وكذا، فنخفق «نحن» في المواجهة، وينجحون «هم» في الهجوم.

ولعل هذا ما نراه في الحروب، فالذي يحسن التحسب والتوقع والتقدير، يمسك بزمام المبادرة، ومن ثم يوجهها في الاتجاه الذي يراه صالحاً له، لكن الذي تدهمه المفاجأة يفقد إرادته في التوجيه والتسيير، ولا يجد مفراً أمامه إلا الاستسلام لقوة الدفع الحادثة، حتى ولو كان فيها دماره.

الوظيفة المستقبلية لاستقراء الماضي:

كثير من الناس إذ ينظرون إلى التاريخ باعتباره دراسة لأحداث ووقائع ماضية، ومن ثم فهذا يعني انقطاع الصلة بينه وبين استشراف المستقبل، وهذا وهمٌ مفزع حقاً نتج عن ضعف الوعي بالوظيفة الحقيقية للتاريخ. والمؤسف حقاً أن أسلافاً لنا منذ قرون بعيدة تنبهوا إلى وظيفة التاريخ هذه، بينما ينتشر الجهل بها ونحن في أوائل القرن الحادي والعشرين، حيث حدث ما حدث مما تفيض به الكتابات من سيولة معرفية وتقدم تقني مذهل.

فكتاب «ابن خلدون» في التاريخ يحمل كلمتي «الاعتبار»، و«المواعظ»، على اعتبار أن دراسة التاريخ تستهدف بالدرجة الأولى استقراء ما حدث حتى يمكن فهم ما يحدث، على اعتبار أن ما يحدث هو «ابن لما حدث»، وكذلك من أجل التعرف على «الدلالات» و«المضامين» و«المعاني» المستخلصة من مسار الوقائع والأحداث بحيث يمكن تلافي ما كان فيها من سلبيات، وتأكيد ما كان فيها من إيجابيات. وهناك صفحات عدة تحملها مقدمة «ابن خلدون» ناطقة بهذه المعاني.

من ذلك يعرف «ابن خلدون» التاريخ: «... فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال... وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق... »[1].

وهو يبين كيف أن العمل التأريخي يدرب الباحث على مهارات النقد والتحليل والتعليل، ولا يقف عند حد السرد، فيقول فيما يجب على الباحث التاريخي أن يقوم

---

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، تحقيق درويش الجويدي (بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٣م) ص١٣.

بـ «... النظر بعين الانتقاد لا بعين الارتضاء؛ لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، و لم تُحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها على الشاهد والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم، والحيد عن جادة الصدق...».

ولِمَ نذهب بعيداً؟ فهذا هو كتاب الله عز وجل يحفل بالعديد من القصص التي هي في معظمها رواية لأحداث ووقائع تاريخية. وإذا كان القرآن قد سمى الأحداث والوقائع قصصاً، فهل التسمية تتلاقى مع المفهوم الاصطلاحي، ومع المحتوى الفني للقصة كما تعرف في الآداب الإنسانية قديماً وحديثاً؟ [1].

ونحن حين ننظر في المعنى اللغوي للقصة نرى أصل اشتقاقها يتلاقى مع المفهوم الذي قام عليه أصل التسمية للقصص القرآني، فالقصة مشتقة من «القصص» وهو تتبع الأثر، قال تعالى: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ... ﴾ (القصص:١١)، أي تتبعي آثاره، على ما انتهي إليه أمره.

وقد استعمل القرآن الكريم الخبر والنبأ بمعنى التحدث عن الماضي، وإن كان قد فرق بينهما في المجال الذي استعملا فيه جرياً على ما قام عليه نظمه من دقة وإحكام وإعجاز، فاستعمل النبأ والأنباء في الإخبار عن الأحداث البعيدة، زماناً أو مكاناً ولفها في أطواقه، على حين أنه استعمل الخبر والأخبار في الكشف عن الوقائع القريبة العهد بالوقوع أو التي لا تزال مشاهدها قائمة ماثلة للعيان، ففي النبأ والأنباء يقول تعالى في أصحاب الكهف: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ... ﴾ (الكهف:١٣)، ويقول

(١) عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه (القاهرة، ١٩٧٤م) ص ٤٤.

سبحانه في شأن الأمم الماضية وما وقع فيها: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ (هود:١٠٠).

وفي الخبر والأخبار يقول سبحانه مخاطباً المؤمنين: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ (محمد:٣١).

وقد أرهق «البعض» أنفسهم في محاولة الكشف عن أبعاد القصص التاريخي في القرآن دون جدوى، ذلك لأن الهدف القرآني لم يكن مجرد «التأريخ» والسرد، وإنما هو ما تحمله الأحداث من دلالات ومعاني يفيد وعي المسلم بها رشد التعامل مع حاضره، والتحسب لمستقبله، ومن هنا فإنه لم يحدد تاريخاً بعينه، ولا مكاناً بذاته.

ومن يتأمل جيداً الخطاب القرآني المخبر بأحداث الماضي يجد أنه غالباً ما ينتهي بأن الغاية من رواية الحدث هو «الاتعاظ» و«الاعتبار»:

- ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (آل عمران:١٣).
- ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ...﴾ (يوسف:١١١).
- ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ...إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾(النازعات:١٧-٢٦).
- ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ... فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (الحشر:٢).

ولا يتسع المقام لاستقراء عدد من قصص القرآن التاريخي لنكشف عن الدروس التي يمكن استخلاصها منها، مما يشكل أداة فهم للحاضر، وسبيل بناء للمستقبل، فمن ذلك:

أن الجهلاء ينقادون للأمر والسطوة ولا ينقادون للحجة والدليل، ويريدون من صاحب الدعوة، كما جاء في قصة نوح، عليه السلام، أن يكون ملكاً أو تكون عنده خزائن الله، ويقولون: ﴿... قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ (هود:٣٢).

ومن تلك الدروس أن أصحاب السيادة في الأمة يكرهون التغيير ويتشبثون بالقديم، ويأخذون على النبي ﷺ أن تبعه أناس من غير ذوي السيادة والجاه: ﴿...وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ (هود:٢٧)، أو كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ (سبأ:٣٤).

ومن تلك الدروس أن الجمود على التقاليد الموروثة أكبر آفات العقل البشري؛ لأنها تعطل تفكيره وتتركه في حكم الآلة التي تسير على نهج واحد في آثار الآباء والأجداد مع اختلاف الزمن وتبدل الأحوال.

ومنها أن العقائد تخالطها أوشاب الزمن فلا تزال بحاجة إلى التهذيب والتطهير كلما ابتعد العهد بينها وبين مصادرها الأولى[1].

ومنها أن الإصلاح تضحية وعناء، وأن الأنبياء كانوا بين فريقين: فريق يكذبه قومه، وفريق يقتلونه، ولا مناص من القدوة على ما فيها من خطر ومحنة، ولو لم يكن من دليل غير ذلك على أن الإصلاح رسالة إلهية لكفى به دليلاً يغني عن كل دليل،

---

(١) عباس محمود العقاد، الإسلام دعوة عالمية، القاهرة، دار الهلال، سلسلة كتاب الهلال (٢٣٧)، نوفمبر ١٩٧٠م، ص ٢١٧.

فلا مشيئة لمصلح في عمله، ولو شاء مصلح أن يعمل على ثقة من الأمان والنجاح لما قام في الأرض مصلحون.

وإنه لمن الصعب إبداع حضارة واحدة بذوات متنافرة لا تجمعها روح منسابة واحدة. وإنه مهما اختلفت الإيقاعات في الحضارة فيجب أن يكون الإيقاع الأقوى هو الإيقاع الذاتي الذي يمثل روح الروح العامة للأمة[1].

ومن المعروف أن قضية البحث عن الذات الحضارية قد استولت على شعوب كثيرة إبان معاناتها لما عرف «بصدمة الغرب»، وإزاء الشعور بخطر إفناء الذات الذي يمثله (الآخر) الغازي أو المعتدي، تباينت سبل الشعوب في مواجهتها لهذا الخطر دفاعاً عن الذات، حسب الرؤية الأيديولوجية لمعنى الذات عند هذا الشعب أو ذاك: ذات دينية أو قبلية أو قومية. ولقد أخطأت الشعوب الإسلامية والعربية في اعتبار السبب واحداً وهو الغزو الخارجي مقترناً بأسباب القوة العلمية والتقنية والأطماع الاستعمارية، التي تستهدف سحق إرادتها وتاريخ ذاتيتها، ولكن تباينت سبل مواجهة هذا التحدي[2].

لقد غرق الباحثون العرب والمسلمون بعامة في مشكلة البحث عن الذات في التراث، واطّرد البحث على نحو فردي أو على أيدي جماعات متناثرة بل ومتنافرة، واتصل البحث عقوداً دون أن يهتدي الباحثون إلى الذات المفقودة في بطون كتب التراث، ومن أسباب ذلك الغموض الشديد بشأن الإطار العام الذي يجب أن تكون عليه رؤيتنا للتراث، وصورة المستقبل: لماذا نبحث عن ذاتنا؟ هل لمجرد أن استهوتنا المشكلة نظرياً؟ ولماذا نبحث عنها في صفحات كتب بعضها لا يزال بحاجة إلى أن

(١) عبد الحليم عويس، فقه التاريخ في ضوء أزمة المسلمين الحضارية (القاهرة: دار الصحوة، ١٩٩٤م)ص ١٢٠.
(٢) شوقي جلال، التراث والتاريخ (القاهرة: دار سينا للنشر، ١٩٩٥م) ص ٥.

يخضع للبحث والدراسة على هدى منهج علمي؟ وقلّ من الباحثين من يملك المنهج أو الرؤية المستقبلية التي تحدد معايير النظر[1].

ومن هنا فإن الخطوة الأولى التي لابد منها في بناء الإنسان – الوحدة الأساسية في بناء أمتنا – تصبح هي الوعي بتراثه على وجه العموم، والتربوي على وجه الخصوص، وعياً تحكمه جملة من المبادئ الأساسية التي لابد من إبرازها حتى لا يقع تصورنا للتراث تحت مظلة هذه الصورة التي يشبعها كثيرون نقداً وذماً على اعتبار أنها مجرد نظرة ماضوية تريد شدنا إلى الوراء.. من هذه المبادئ:

– الكف عن النظر إلى الموروث على أنه غاية، فهو وسيلة يمكن أن تخضع للنقد والتمحيص أو التغيير، وعدم الخلط بين ثوابت الأمة الموروثة (القرآن الكريم والسنة النبوية) وبين متغيرات الموروث التي هي من صنع البشر، حتى لا تنتفي عن الموروث صفة الإبداع الإنساني[2].

– الموروث ليس خارج التاريخ والزمان والمكان، وهو ليس بذاته حقيقة أبدية لا تتطور ولا تتغير، لا فرق فيها بين ماض وحاضر ومستقبل. من ثم فلابد من الاعتراف بوجود خصوصيات للمجتمعات والشعوب.

– ضرورة حضور الإنسان، إرادته وعقله وروحه وحاجاته الأساسية، فالغاية ليست مجرد الدفاع عن الموروث وتأكيد حاكميته.

– ضرورة البعد عن التعصب، والحرص على إقامة حوار مع (الآخر)، حتى لا ننغلق على (الذات) ونسهم في التخاصم والتصارع مع الحاضر ونظامه[3].

(١) المرجع السابق، ص ٩.

(٢) عبد الباسط عبد المعطي، التدين والإبداع، الوعي الشعبي في مصر (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م) ص٤٦.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٩.

إننا إذا وعينا ما في موروثنا التربوي من قيم إيجابية فأقبلنا عليهـا وأحييناهـا، ووعينا ما قد يكون فيه من عكس ذلك فأدرنا له ظهورنا واستبعدناه، عندئذ سيبرز التراث الإسلامي ظاهرة فكرية حضارية ولكنها متعددة الجنبات، متنوعة القسمات، وفيها ما يصلح قيوداً على تقدمنا، وما يمثل طاقات إبداعية وخلاقة تدفع هذا التقدم إلى أمام، ومن ثم تنتقل هذه القضية من «العماء والغموض» إلى سـاحة الصـراع الاجتماعي والفكري الواضح والمحدد، فتعرف جماهير هذه الأمة ومثقفوها الـذين ربطوا مصيرهم بقضية تقدمها وتحررها كيف تجعل هذا الموروث الإسلامي كتيبة من كتائب حربها ضد التخلف والجمود، وتياراً سارياً في ضمير هذه الأمة يربطها بأمجد صفحات تاريخها وحضارتها، يذكي فيها إحساس الأصالة والمجد بقدر مـا يـدفع خطواتها على الطريق إلى الأمـام، كما يعرف خطواتـها على الطريق إلى الأمام، كما يعرف أعداء تقدم هذه الأمة أن قوى التقدم قد اقتحمت عليهم الحصن الذي توهموا أنهم وحدهم المتحصنون فيه[1].

ولعلنا بعد هذا يمكن أن نشير باختصار شديد إلى عدد من **الوظائف المستقبلية التي يمكن أن تقوم بها دراسة الموروث الإسلامي**[2]:

-فهم المشكلات الحضارية، التي واجهت المسلمين في سياق تطورهم الاجتماعي.

- بعض العلم بالطرق التي واجهوا بها هذه المشكلات في عهـود مختلفـة، وفي أماكن مختلفة.

- اتجاه موضوعي نحو كل الأفكار والنظم الحضارية، على أنها وسائل لا غايات في حد ذاتها، واستعداد لتقديرها، لا على أساس الولاء الأعمى، ولكن على أسـاس صلاحها لتحقيق الغايات التي من أجلها وضعت.

(١) محمد عمارة، نظرة جديدة إلى التراث (القاهرة: دار قتيبة، ١٩٨٨م) ص ٨.
(٢) سعيد إسماعيل علي، مقدمة في التأريخ للتربية (القاهرة: عالم الكتب، ١٩٩٩م) ص ١٥٥.

- تذوق حقيقة أن أي حركة في التطور الحضاري لا يمكن أن تفهم فهماً صحيحاً وتقدر تقديراً دقيقاً من غير الرجوع إلى الدوافع القريبة والبعيدة التي أوجدتها في أول الأمر.

- تذوق حقيقة أن الجماعة الإسلامية هي في حركة دائمة ولا تستقر أبداً، وأن مفهوم التغير المستمر أساسي لفهم أي كائن اجتماعي، بدرجة ما هو أساس لفهم أي كائن بيولوجي.

- تذوق حقيقة أنه ما دام التغير هو أساس الجماعة البشرية، فإن النظم المجتمعية يجب أن تكيف دائماً لتواجه الحاجات الاجتماعية المتغيرة لعالم متغير.

- اتجاه واع نحو كل الآراء الموجهة جدياً إلى تحسين النظم المجتمعية يرافقه شك ناقد لكثير من الأدوية المجتمعية التي تركب وتوصف بدون علم كاف بطبيعة المرض أو تاريخ المريض.

- تذوق حقيقة أن أحوال الحضارة المختلفة ومستوياتها المتعددة وأنواع الثقافات ودرجاتها ومجالات التعليم، تولد طرقاً مختلفة لمواجهة المشكلات الحضارية، وتقبل اختلاف الثقافات كأمر من طبيعة الأشياء، لا على أنها شيء مرغوب فيه، وقدرة تتجاوز مجرد النظر الموضوعي للثقافات والحضارات التي تختلف عن حضارتنا وثقافتنا إلى المشاركة الواعية في طرق الفكر وطرق العمل في هذه الحضارات والثقافات.

- إحساس بالمسؤولية الاجتماعية يتضمن، بالإضافة إلى المشاركة الذكية في عمل الآلية الحضارية، والآلية الاجتماعية، كما هما، إلى التعاون الذكي في إحداث التغيرات اللازم إحداثها في هاتين الآليتين حتى تبقيا متكيفتين أبداً لحاجات الأمة المتغيرة.

- إن الموروث الحضارى، إذا علم جيداً، يجب أن ينمي اتجاهات محددة خاصة تنفع في معالجة المواقف المجتمعية من كل نوع، وخاصة في المواقف المتصلة بعملية التنشئة والتربية. ويجب أن يهيئ فرصة مناسبة لتدريب الباحثين على: أين، وكيف

يحصلون على المعلومات؟ كيف يزنون الأدلة ويستبعدون التحيز؟ كيف يحصلون على نتائج منطقية؟ كيف يختارون ويرتبون ويعرضون الحقائق الحضارية كمقدمة لتكوين رأي سليم عن أي موقف حضاري ماض أو حاضر؟

مقومات أساسية:

حتى يمكن للخطاب الإسلامي أن يستقيم في تعامله مع الماضي بحيث لا ينسحب إليه، وإنما يتخذه خطوة رئيسة على طريق استشراف المستقبل، فإن ذلك يستلزم توافر عدد من المقومات في كل من منتج الخطاب، وفي الخطاب نفسه، لعل من أبرزها ما يلي:

- **الأدوات البحثية**، ذلك أن استشراف المستقبل لم يعد رجماً بالغيب، ولا من قبيل «ضرب الرمل والبحث في الودع»، كما يقول محترفو الشعوذة التنبوئية في مصر، وإنما هو عملية منهجية علمية، وما دمنا نقول: إنها عملية منهجية علمية، فإن هذا يعني توسلها بأدوات تتسم بأقصى ما يمكن الوصول إليه من الموضوعية والضبط والدقة. وهناك الآن مراكز ومعاهد وأقسام وأطروحات، كلها تتعامل مع المستقبل وفق بعض الأساليب، من أكثرها شيوعاً «أسلوب دلفاي»، الذي إذ يستفيد من خبرة وعقول كثيرين من المتخصصين والمفكرين والعلماء، لا يشترط أن يجتمعوا معاً في وقت بعينه، وإنما يقوم الباحث أو مجموعة الباحثين بطرح تساؤل كلي عام، ثم يتلقى الإجابات من هؤلاء العلماء والمفكرين والخبراء، ليعاود الكرة مرة أخرى بتساؤلات أكثر تحديداً، ثم يتكرر هذا لمرة ثالثة إلى أن تتضح معالم الآراء والهيكل العام للرأي الجامع، وبناء على ذلك يمكن الاعتماد على عدة «سيناريوهات»، وفق تقدير عدد من الاحتمالات والبدائل التي يتسق كل منها مع سياق بعينه محتمل.

ومن المشروعات المبكرة في هذا المجال، المشروع الذي قاده منتدى الفكر العربي بعمان (الأردن) في أواخر الثمانينيات، عن (مستقبل التعليم في الوطن العربي)، وإن لم يعتمد على «أسلوب دلفاي» في المشروع العام، وإنما استعاض عن ذلك بتكليف عدد من خيار الباحثين والعلماء والمفكرين بكتابة بحوث موسعة معمقة للتعليم في كل منطقة من مناطق الوطن العربي، فضلاً عن عقد ندوتين كبيرتين، أولاهما في البحرين ،عام ١٩٨٧م، وثانيهما في عمان، الأردن، عام ١٩٩٠م لعدد غير قليل من العلماء والمفكرين والمتخصصين لمناقشة جوانب القضية المتعددة، ثم انتهى إلى تقرير شامل، كان لكاتب هذه السطور الدور الأكبر في كتابته.

لكن، ليس معنى لجوء باحث إلى «أسلوب دلفاي»، وكتابة «سيناريوهات»، أننا أصبحنا بالفعل أمام عمل علمي لاستشراف المستقبل، فمثلما هو الأمر في كثير من الشؤون، ومثلما هو الأمر بالنسبة لكثير من الأدوات، هناك قضية «الإتقان» و«التمهر» و«الإحسان»، حيث يمكن أن نجد صوراً ساذجة من «سيناريوهات» استشراف المستقبل وكأن المسألة قد انحصرت في ثلاثة احتمالات، ذاعت وشاعت، **أولها:** أن يستمر الوضع القائم، **ثانيها:** أن يتدهور، **ثالثها:** أن يتطور إلى الأفضل والأحسن، ومن ثم ينفتح الباب لبعض من لا يتقنون، وبعض ممن لا يحسنون، في عمليات «تخمين»، هي في الحقيقة إعادة إنتاج لأساليب الرجم بالغيب، وفي أحسن الأحوال، الحدس، وفق الاجتهاد الشخصي.

- **اللغة**، ولا نقصد باللغة هنا، العربية، أو الإنجليزية أو غير هذه وتلك، وإن كان اختيار اللغة العربية باعتبار أنها لغة القرآن الكريم، لابد أن تكون له آثاره في مضمون «الخطاب» وأسلوبه، ذلك أن اللغة ليست مجرد حروف وكلمات وجمل،

وإنما هي في الأصل مركب ثقافي، وتكوين عقلي، وإنما نقصد لغة التعبير، من حيث الدقة في استخـــدام الألفاظ والجمل التي تعبر تعبيراً دقيقاً عما جـــاءت لتعبر عنـــه، ولا تلتبس بكلمات أخرى تتقارب معها في الشكل وتتباين في المضمون. إن هنـــاك من يؤكدون على حرية المتلقي في أن «يفهم» ما يؤدي إليه فهمـــه مـــن المعـــاني والمضامين، وذلك أمر لا شك فيه، لكنه في الوقت نفسه يلقي مسؤولية جسيمة على «منتج الخطاب» من حيث التزام الوضوح ودقة التعبير، وممن ثم يكون «الفهم» نتاج حرية عقل في التفكير والتلقي، وليس نتاج غموض ولبس.

ومن شدة الحاجة إلى مثل هذه الدقة وذلك الوضوح، قامت فلســـفة كـــبرى في العصر الحديث هي «الفلسفة التحليلية»، إلى الدرجة التي دفعتها إلى القول: بأن مهمة الفلسفة لم تعد تفسير العالم، مثلما ذهبت سائر الفلسفات في العصور السابقة، ولا هي مهمة تغييره، مثلما ذهب أصحاب الفلسفة الماركسية، ولكنها هي «التوضيح المنطقي» لما يستخدمه العلماء من ألفاظ وجمل ومصطلحات، فهي تقوم بتحليلها، لا من حيث قواعد النحو والصرف، ولكن من حيث البنية المنطقية لها، ودلالاتها على ما جـــاءت تسميه وتشير إليه، على أساس أنه ما من لفظ إلا وجاء به الإنسان ليسمي شيئاً بعينه، فإذا ما وجدنا لفظاً لا يشير إلى مسماه، حذفناه من جملة الكلام «المفهوم».

والمسألة ليست مسايرة للفلسفة التحليلية، فقد عني كثير من اللغويين والعلمـــاء المسلمين بهذه القضية عناية ملحوظة. وفضلاً عن ذلك، فنحن أشد ما نكون حاجة إليها اليوم بصفة خاصة حيث يتم التلاعب بمصائر شعوب إسلامية ودول عربية، بناء على مجموعة من المفاهيم «المراوغة»، مما أصبح محتماً علينا أن نكثف الجهد لكشف زيف مثل هذه المفاهيم المراوغة، أو قل بمعنى أصح المفاهيم «المزيفة» والتي تســـمي

أشياء بغير أسمائها، حتى وصل الأمر إلى حد «التناقض» الصارخ، لا مجرد «الالتباس» أو «التماس اللغوي».. «فالأصولية»، التي تعني الرجوع إلى «أصول الدين» والاحتكام إليها، والالتزام بها، أصبحت تثير معاني رجعية وتخلف وماضوية؛ و«الجهاد في سبيل الله» أصبح نزعة عنصرية ورفضاً (للآخر) وتعبيراً عن اتجاه مصاصي دماء و«جزارين بشريين»؛ و«المقاومة» أصبحت إرهاباً وترويعاً؛ والسعي لتحرير الأرض العربية المحتلة أصبح أعمال عنف غير مشروع، تستصدر له قرارات دولية للوقوف في وجهه وإنهائه... وهكذا.

وإذا كان هذا مما نشهده في المجال السياسي فإننا نشهد ما لا يقل عن ذلك خطورة في المجالين الفكري والأدبي، فهذا مفهوم «الإبداع» على سبيل المثال الذي لا جدال في أنه تعبير عن حاجة إنسانية ونعمة إلهية، وضرورة للتطوير والتجديد والتغيير، فإذا ما وصل الجميع إلى اتفاق بشأن أهميته وضرورته، بدأت «المراوغة» في تحديد الحالات التي ينطبق عليها، بحيث تسمى إبداعاً أو لا. وعلى سبيل المثال فهناك من الأدباء والكتاب من يجترئون على الله جل وعلا، ويبدون ازدراء للدين، ويكتبون عن مواقف جنسية فاضحة مكشوفة، فإذا ما هب نفر من الغيورين على الأخلاق والدين، انبرى نفر آخر ينعى هدر حرية التفكير والإبداع، بينما هم لا يجرؤون على توجيه نقد صريح لزعامات سياسية ومؤسسات حكم، فيما يمكن أن يُرى مما يستحق النقد.

إن أبسط ما يمكن أن يقال هنا هو: إن «العلَم» الذي يعتبر شعار ورمز هذه الدولة وتلك، لا يفكر أحد في إهانته وازدرائه، على أساس ما يمثله من «ثوابت» هذا الشعب وذاك، فلم يصح هذا في مثل هذا الشأن البسيط المادي الرمزي، ولا يصح في خالق الكون وموجد الإنسان، ومبدعهما وواهب الإبداع للإنسان ؟

* المناخ، فغني عن البيان، وفقاً للسنن التي أودعها الله في «الطبيعة»، وخاصة بالنسبة للكائنات الحية، هذا التوافق الضروري بين حركة النشأة وسير النمو للكائن الحي وبين المناخ المحيط، بكل ما يحمله هذا المناخ من عناصر. ومثل هذه السنة الإلهية، تسري كذلك على «الأفكار»، وأشكال التعبير عنها، وأبرز مثال يمكن أن يساق لذلك ما يسود في بعض المجتمعات من مناخ يقوم على القهر والاستبداد، مما يجعل أشكال التعبير عن الفكر محدودة الحركة، والمفكر، أو العالِم، عندما يكون متيقناً، وهو يشرع بالكتابة، أو التحدث، أن هناك أكثر من عين تراقبه حتى لا يخرج عما يسمى بالخطوط الحمراء، والتي تضيق مساحتها كثيراً في البلدان المتخلفة خاصة، وأن السوط وراء ظهره، وأبواب السجن والاعتقال مستعدة لاستقباله، والمطاردة والتشريد احتمالات قائمة، يصعب أن نتوقع أن يصدر منه خطاب ينطق بالصدق، وينهج نهج التعمق، ويمارس النقد. صحيح أننا نردد دائماً على قيم الشجاعة، والبطولة، والصراحة، وما سار على هذا الدرب، لكن وسائل وأساليب وأجهزة توقيع العقاب اليوم مذهلة، لا طاقة لإنسان بتحملها، بل إن التقدم في التقنيات الحديثة يمكن أن يتيح فرصة الفك والتركيب بحيث يمكن أن يجد الإنسان نفسه متهماً بأقذع ما يمكن تصوره، على غير الحقيقة، لمجرد أنه صاحب فكر مخالف، ولأنه يسعى كثيراً للتعبير عن رأيه !

ومن هنا فإن «الخطاب»، على سبيل المثال، قد يجد صعوبة، وهو بسبيل استشراف المستقبل، أن يعتبر امتداد الحاضر - الذي يسوده مثل هذا المناخ المشار إليه - يمكن أن يجر المجتمع إلى مزيد من التخلف والتدهور. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أهمية توافر مناخ يقوم على التعددية الفكرية، وتوافر ضمانات بألا يضار صاحب الخطاب المخالف، ما دام يعتمد على الحجة والدليل، ولا يخرج عما هو متفق عليه من حيث آداب الحوار.

إننا نعتبر هذه القضية قضية محورية؛ لأن «الخطاب» شأن فكري بالدرجة الأولى، والفكر بطبيعته لا ينمو إلا في أجواء تتشبع بقيم الحرية والممارسة الديموقراطية.

* **وعي جماهيري:** فمنتج الخطاب، مثله مثل منتج السلع المادية، الذي يحتاج إلى «زبائن» يستهلكون بضاعته، وإلا أصيبت بالكساد، ومن ثم فهو يكتب للناس، ويخطب لهم، ويتحدث إليهم لكي يقوم معوجاً أو يوسع ما ضيقته الأيام والظروف غير السوية، أو يعزز طيباً.. وضعف وعي الجمهور يمكن أن يؤدي به إلى احتمال تقبل السلعة المغشوشة، أي خطابات مزيفة، أو ملفقة، أو خادعة، فتروج مثل هذه البضاعة المغشوشة، وتكسد الأخرى المطابقة لمواصفات الإنتاج الجيد، والعكس صحيح.

وتوافر الوعي الجماهيري مهم أيضاً ليشد أزر منتج الخطاب، وتجعل الجماهير من هذا الوعي وكأنه «جنود حراسة» تقف بالمرصاد لكل من يحاول إيقاع الأذى بهذه الفئة الحريصة على سوية الخطاب ومراعاته لصالح الأمة، وصدق لغته، وعمق محتواه. ولابد من الاعتراف هنا بأن هناك علاقة تفاعلية بين الأمرين: توافر الوعي الجماهيري، وسلامة منتج الخطاب، فكلما أخلص منتج الخطاب في خطاباته وصدق وأحسن، كلما ساعد ذلك على توفير وعي جماهيري مساند ومؤازر، وكذلك فإن توافر هذا الوعي يروج للمنتج المتميز.

إننا نرى في السنوات الأخيرة في بعض البلدان العربية الإسلامية، تركيزاً على نفر ابتليت بهم الأمة، حيث يتم تصويرهم باعتبارهم مفكرين «إسلاميين»، فينشرون تزييفاً للوعي، ولا يكتفون بهذا، بل ويستغلون ما يتوافر لديهم من مساحات واسعة في وسائل النشر العام، المكتوب والمسموع والمشاهد، للنيل من الخطابات الصادقة وتشويهها وليّ ذراع تعبيراتها وألفاظها حتى تستحق ما قصدوه من تجريح وإساءة، بحيث تصدق المقولة الاقتصادية المعروفة التي تقضي بأن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة!

وهناك بعض من تفخر الأمة بخطاباتهم، سواء ممن ينشرون على صفحات بعض الصحف الكبرى، أو من يذيعون على شاشات التلفاز، وتود بعض السلطات أن لو اختفوا من على ظهر الأرض، لكن ما استطاعوا أن يكونوه من وعي لدى كثيرين، وما اكتسبوه من مصداقية، جعل من الصعب على الكارهين لخطاباتهم من أولي الأمر أن يمسوهم بسوء، ولا حاجة لذكر أسماء، فواقع العالم العربي ينطق بهذا.

* **توافر مهارات أساسية:** صحيح أنها في الغالب والأعم مهارات نلزم بها القائمين بالبحث العلمي وندربهم عليها، لكننا في الوقت نفسه نراها أجزاء مهمة في تكوين منتج الخطاب، يؤدي افتقادها إلى أن ينتج خطاباً معتل الصحة الفكرية، مهتز البنية المنهجية، من ذلك:

- **مهارة التحليل،** ذلك أن الحديث عن موضوع، يقتضي فهمه... وحسن الفهم إنما يُتأتى أكثر كلما تمكن الإنسان من «تفكيك» الموضوع إلى جزئياته وعناصره، حتى يتوافر لديه وعي أعمق، وفهم أقرب لطبيعة الموضوع.

- لكن التحليل يمكن أن يكون خطراً إذا وقفنا عنده وحده، إذ لابد أن تلحقه على الفور خطوة أخرى هي «التركيب»، ليرى منتج الخطاب القضية في كليتها، ذلك أن المركب الكلي كثيراً ما يعطي من المعاني ما لا يتوافر عند الوقوف عند الفروع والعناصر المكونة. ومن المعروف أن الصورة الكلية ليست مجرد حاصل جمع العناصر المكونة، وهو ما يتأكد لنا من خلال المهارة التالية، ألا وهي:

- **إدراك العلاقات،** وهي على نوعين، فهناك العلاقات التي تربط بين عناصر القضية، أو الشيء، إذ أن «الساعة» التي في يدي على سبيل المثال، ليست مجرد حاصل جمع عناصرها، وإنما لابد أن تربط علاقات معينة بينها حتى تصبح ساعة، أي أن الصورة الكلية، هي نتيجة الشكل الذي تتخذه العلاقات بين المكونات. والنحو الآخر من العلاقات، هو ما قد يكون من روابط بين الموضوع نفسه وبين موضوعات وقضايا أخرى، خاصة في مجالاتنا الإنسانية والاجتماعية، ففقه قضية

اقتصادية معينة، قد يكتمل أكثر كلما أدركنا ما بينها وبين قضية سياسية، وهكـــذا الشأن في معظم إن لم يكن كل قضايا الخطاب.

- **المنطقة** (نسبة للمنطق)، ونقصد بها حسن ترتيب العناصر المكونة، بحيث تجيء الأولى مسلمة للثانية، وتجيء الثالثة، بعد الفراغ من الثانية... وهكـــذا. وأن تجـــيء الأحكام والتعميمات الواردة مستندة إلى الدليل العقلي والبرهان المنطقي، والشاهد الواقعي، وفقاً لما تتطلبه طبيعة القضية موضوع الخطاب، ولو رأينا في خطاب أنـــك يمكن أن تضع العنصر الثاني مـــكان الرابع، أو العـــكس، فإن هذا ربمـــا ينبئ عن «لا منطقية» في الخطاب، إلا من حيث بعض الاستثناءات، كأن يكون موضـــوع الخطاب، على سبـــيل المثال، نظاماً تعليمياً في مجتمع ما، فقد يبدأ بالمنهج، ثم بالمعلم أو العكس، والشيء نفسه بالنسبة للمبنى المدرسي أو الكتاب، دون أن يعـــني هـــذا تساوياً في الوزن النسبي، وتكافوءاً في المنـــزلة.

- **الوعي بالسياق المجتمعي**، فالفكر الذي يتضمنه الخطاب ليس نبتاً معلقـــاً في الفضاء... إنه نبت إنساني، تنعكس عليه جملة الظروف المجتمعية القائمة، إن كـــان خيراً فخيراً وإن كان شراً فشراً، وهذا ما يجعلنا نشير إلى أن فكرة قد تكون مناسبة لمجتمع، ولا تكون كذلك بالنسبة لمجتمع آخر، أو تكون ملائمة لـــزمن ولا تكـــون كذلك بالنسبة لزمن آخر.

- **الوعى بالماوراء**، فعند استقراء الواقع وتحليله، لابد من الانتباه إلى أن عـــدداً غير قليل من القضايا مثلها مثل جبل الثلج، ربما يكون الجزء الخفي منها أكبر مـــن الظاهر، ولا يعني هذا الدخول في دوامة «التخمين»، وإنما مثل هذا تحكمـــه أيضـــاً قواعد وأصول يمكن أن تتيح للفرد أن يمسك ببعض العوامل غير الظاهرة، أو النتائج المخفاة، وربما يكون هذا «الماوراء» هو ما يمثل حقيقة الأمر.

- **مهارة الاستنباط**، بحيث تؤدي المقدمات إلى ما يتم التوصل إليه من نتـــائج، فضلاً عن ضرورة الغوص في الأعماق حتى يجيء الاستنباط متين الجذور.. ومهـــارة

الاستنباط نفسها، تقوم على عدد آخر من المهارات الفرعية، مما هو معروض في كتب المنطق بصفة خاصة.

أسس لابد منها في استشراف المستقبل:

وحتى يمكن أن تتم عملية استشراف المستقبل في الخطاب الإسلامي، فلابد من الالتزام، فضلاً عما سبق، بالاستناد إلى مجموعة من الأسس والركائز، يمكن أن نشير إليها فيما يلي:

١- تحديد المرجعية: فالخطاب لا يكون إسلامياً إلا إذا استند إلى ما يجب أن يستند إليه كل مسلم[١]، والمرجعية التي اتفق عليها المسلمون في كل زمان ومكان هي كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، عملاً بقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ (النساء:٥٩)، وكذلك مثلما أكد مفكرون[٢] من ضرورة تعيين المرجعية الخاصة بهذه الأمة الإسلامية من جديد، حتى لا يصبح التراث كله فقط هو مصدر الأصالة، ولا المعاصرة كلها إطاراً مرجعياً، ذلك أن الإبداع يمكن تحقيقه بتفجير طاقات الإنسان وقدراته والربط بينها وبين هداية كتاب الله المسطور، وهو القرآن الكريم، وسنن وقوانين الكتاب المشهود، وهو الكون.

وعلى هذا ينبغي أن تتحدد مرجعية الخطاب الإسلامي بالقرآن الكريم، مصدراً للفكر والتصور والعقيدة والقيم، والأسس التي تقوم عليها النظم المجتمعية، والسنة النبوية الصحيحة.

---

(١) عباس محجوب، ثقافة الحوار، في مؤتمر الإسلام والمسلمون في القرن الحادي والعشرين، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة اليرموك، الأردن، ٢٧-٢٩ نوفمبر ٢٠٠٤، ص ٤٣٧.

(٢) طه جابر العلواني، كيف نقتحم متغيرات المستقبل من خلال ثوابت الماضي؟ كتاب المعرفة، الرياض، ١٩٩٢م، ص٤٠- ٤١.

٢- **فقه الواقع:** فعلى الرغم من أن مهمة الخطاب الإسلامي في الدراسة الحالية هي كيفية التوجه إلى المستقبل، إلا أننا نؤكد أن الخطوة الأولى لابد من أن تنطلق من «فقه الواقع»، ليس لأن المستقبل هو امتداد للواقع امتداداً خطياً كما يتصور بعضهم، ولكن لأن ما نأمل أن يكون عليه المستقبل، هو إما إصلاحاً لما هو قائم، أو تطويراً، أو تجديداً، أو تبديلاً كلياً. ومثل هذا يتطلب[1]:

أولاً: فقه النصوص الشرعية، وذلك بالتأمل والتدبر لآيات القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ.

ثانياً: فقه الكون والحياة، وهذا يقتضي استقراء حاضر المجال الذي يتوجه إليه الخطاب، بتضاريسه المختلفة.

ثالثاً: التزام الفقه الذي يجمع بين القدرة على التواصل بين السنن القرآنية والسنن الكونية، لهذا قال الإمام علي، رضي الله عنه: «إن الفقيه حق الفقه من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره».

رابعاً: قراءة الواقع من منظور فقه الأولويات ومراتب المقاصد، والابتعاد عن السطحيات والشكليات في معالجة الأمور وتعقيداتها.

خامساً: الاعتماد في دراسة الواقع على المناهج والأساليب العلمية التي تلتزم الدقة في استخدام المصطلحات، والخطوات المنهجية، بعيداً عن التفسيرات التي يغلب عليها استخدام العبارات الوجدانية والأساليب الشاعرية.

---

(١) سامي الصلاحات، أسس منهجية في قراءة وقعنا الراهن، ورقة قدمت إلى مؤتمر الإسلام والمسلمون في القرن الحادي والعشرين، ص ٢٢٥.

سادساً: قراءة الواقع قراءة شاملة، لا تجزيئية، جماعية لا فردية، خاصة ونحن نعيش مجتمعات تسعى على نشر مؤسسات المجتمع المدني وتعزيزها، وتساقط نظم الحكم الشمولية.

٣- البنية التحتية: فمن المقولات المعروفة «العقل السليم في الجسم السليم»، وهي مقولة إذ تقصد الفرد وتتضمن حقيقة صحية ونفسية، فمن الممكن تعميمها بحيث تصدق على الأمة، وتتضمن حقيقة تاريخية اجتماعية، فالعقل هو منتج الفكر، والفكر هو محتوى الخطاب، والجسم الاجتماعي هو جملة الأنظمة الأساسية المكونة للبنية المجتمعية، ومن ثم فبقدر ما تكون البنية المجتمعية على أعلى قدر من السوية والسلامة، بالقدر الذي نضمن فيه إلى حد كبير سوية الفكر وسلامته، ومن ثم رشد الخطاب واستقامته.

نقول هذا مع الوعي بقدر من التحفظ، فأحياناً ما يكون الجسم الاجتماعي جسماً معتلاً، لكن يقيض الله للأمة بعضاً من مفكريها وعلمائها من يكونوا من المرابطين على ثغر الإيمان وصدق العزيمة، فلا ينغمسون ولا يتلوثون، بل بالعكس من ذلك نراهم يندبون أنفسهم حماة للثغور، كاشفين عما يكون بالأمة من سيئات وسلبيات، منبهين إلى ما لابد من سلوكه حيث الصراط المستقيم، ومن ثم يكون خطابهم محملاً بنفس التوجه الصادق السوي.

لكننا إذ نسجل وعينا بذلك لابد أن نسجل كذلك حقيقة أن مثل هؤلاء يكونون قليلي العدد عندما يعم الفساد والخلل خلايا البنية المجتمعية. وعلى أية حال، فما ندعو له لا ينقض المقولة، فإذا صح العزم وصدقت النية وتضافرت الجهود نحو بث دماء قوة وصحة وعافية في عروق الأمة، فسوف يزيد هذا من هؤلاء النفر المرابطين، مستقيمي الخطاب.

إن القوة الحضارية ينطبق عليها القانون الخاص بالأواني المستطرقة، بمعنى أنها تمتد لتكون «نهجاً» وليس فقط «مظهراً».. نهجاً يدفع المسلمين إلى أن يحققوا وعد الله سبحانه وتعالى عندما قال: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾، حيث إن هذا الوصف – كما قدمنا – ليس «شيكاً» على بياض، وليس وصفاً مطلقاً يصدق بغض النظر عن واقع حركة الأمة ومدى استقامة فكرها، وإنما هو مرهون بهذا الشرط الجلي: ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾، ونحن هنا نفهم من المعروف كل ما يبث دماء قوة وصحة وعافية في عروق الأمة، اقتصاداً واجتماعاً وسياسة وثقافة وفكراً وعلماً، والمنكر العكس من ذلك.

إن من مقولات النبوة العظيمة أن « **الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ**»[1]، وأن «**الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى**»[2]، دون أن يعني هذا تقييماً للتراتب الطبقي بين الناس، وإنما هو تقدير لمقدار الجهد المبذول في العمل وفي الفكر. وتشتد الحاجة إلى الوعي بهذه المقولات العظيمة في عصرنا الحاضر بصفة خاصة حيث لم يعد المبدأ الحاكم لمسيرة العالم هو مبدأ قوة الحق، وإنما هو حق القوة.. لم يعد هناك مجال لأن يكون الحق فوق القوة، وإنما لابد من قوة تحرس الحق وتمكن له وتدفع عنه كيد الكائدين ودسائس الغاصبين.

٤– **ثقافة الحوار**: فالحوار نزوع طبيعي غرسه الخالق عز وجل في الإنسان: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾، وفي كل منا نزوع إلى أن يبسط ما يراه على الآخرين ويتمنى أن يميلوا إلى ما وصل إليه من أفكار وآراء، وتكون الوسيلة الأساسية إلى ذلك

(١) أخرجه البخاري .
(٢) أخرجه مسلم.

مطارحة (الآخر) أفكاره. إنه ممارسة يومية يتعاطاها الإنسان كوسيلة للتواصل مع غيره، والتعبير عن آرائه وحل مشاكله لتيسير الحياة الاجتماعية، وإثراء الأجواء الثقافية[1].

لكن هذا لا يعني أن كل إنسان قادر على الحوار وفق قواعده وأصوله وآدابه، فكثيراً ما نرى من يضيق صدرهم عند مخالفة (الآخر) لما يرون، بل قد يصد الأمر إلى اللدد في الخصومة، خاصة وأن كثيرين يأخذون المخالفة في الرأي وكأنها مس بقدرهم وهز لمكانتهم وهجوم على ذواتهم الشخصية، فيختلط الأمر بين الذات والموضوع، وتضيع الحقيقة في مثل هذه الأجواء، ويصدق هذا أكثر لدى بعضهم ممن يتولون مسؤولية عامة، إذ يعتبرون أن ما يوجه لما يتم من جهود في عهدهم وكأنه سعي للنيل من أشخاصهم، فيكون رد فعلهم على قدر هذا الظن غير الصحيح في كثير من الأحيان.

لذلك فإن منتج الخطاب الإسلامي إذا رغب بخطابه في ممارسة حوار مع آخرين فعليه أن يدرك أنه بحاجة إلى ثقافة تسمى «ثقافة الحوار»، فليس كل من يحاور (الآخر) يملك ثقافة الحوار، ويلتزم بها في حواراته على الرغم من أهميتها وضرورتها القصوى في أي حوار إيجابي وفاعل.

وثقافة الحوار، التي تسعى النخب الثقافية والفكرية في العالم المعاصر إلى وضع أسسها وتنميتها ودعمها وتعميمها وإيجاد مكان لائق بها في المنظومات التعليمية العالمية هي مشروع حضاري حيوي، هدفه توسيع مدارك الإنسان حتى يستوعب خلافه مع غيره في إطار مجتمعه، وتدريبه على تقبل الرأي المخالف، والاستعداد للتعاون معه لمصلحة الجميع، كما يهدف - في إطار أوسع - إلى تقارب الشعوب وتقريبها من بعضها بعضاً، وصنع ثقافة السلام القائم على العدل بين جميع الناس

(١) محمد زرمان، ثقافة الحوار ودورها في التأسيس للتواصل بين الأنا والآخر، في المرجع السابق، ص ٤٦٠.

وكل الأمم؛ لأن معرفة مبادئ الحوار والوعي بالكيفية المثلى لممارسته وتمثله فكراً وسلوكاً أضحى اليوم ضرورة ملحة، وخياراً استراتيجياً، والتزاماً إنسانياً. وهي في مجال التعليم خاصة من أكثر الطرق فعالية في الفهم والاستيعاب، والاسترجاع.. وتكوين الشخصية الواثقة بقدرتها على التفكير وتبادل الرأي.

ولا يفوت المسلم الواعي المتبصر أن يدرك أن القرآن الكريم والسنة النبوية، مثلما أصلا للحوار كأسلوب مثالي لحصول القناعة الذاتية المؤسسة على الحجة العقلية والبرهان الواضح، أصلا أيضاً لثقافة الحوار، وهذه الثقافة لها قواعدها وأركانها التي تقوم عليها، وبدونها يفقد الحوار غائيته وينحرف عن وجهته.

فمن الدعائم القوية التي تقوم عليها ثقافة الحوار في القرآن والسنة أن الاختلاف سنة من سنن الله في الوجود، وحقيقة إنسانية طبيعية، فالناس مختلفون في ألوانهم وألسنتهم وطباعهم ومدركاتهم وعقولهم ومعارفهم، ومختلفون أيضاً في آرائهم واتجاهاتهم ومناهجهم، وكل ذلك آية من آيات الله نبه عليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ ﴾ (هود:١١٨-١١٩) ومن المعاني التي توحي بها الآية أن الله لو شاء لجعل الناس على دين واحد بمقتضى الفطرة والغريزة، بحيث لا يكون لهم رأي أو اختيار، لكنهم في مثل هذه الحال يكون مثلهم مثل النحل والنمل، وأصبحوا بالنسبة لما نفخ فيهم من روحه مثل الملائكة لا يقدرون على المعصية، لكنه خلقهم متباينين، يملكون إرادة الاختيار ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴾، ومن ثَمّ فلا سبيل للتعايش بين البشر إلا بالتحاور المستمر، والجدال بالتي هي أحسن[١].

(١) المرجع السابق، ص ٤٦٧.

والإيمان بالحوار كخيار أمثل لحل المشكلات يستلزم بالضرورة أن يتخلص صاحب الخطاب المحاور من مفردات التخوين والنفي والإقصاء والتعالي، وادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة، وأن يلتزم الموضوعية في طرح أفكاره وفي تحليل أفكار الطرف الآخر، قاصداً البحث عن الحقيقة من خلال النقاش وتبادل الآراء، واضعاً قناعاته في المستوى نفسه مع قناعات محاوره، ليس شكاً فيها ولكن وضعاً لها في محك الاختبار في سبيل الوصول إلى الحقيقة بعرضها على مختلف وجهات النظر و مقارنتها بالآراء المعارضة، فإذا كانت تفتقر إلى المنطق السليم والتفكير الصحيح فإن الحوار سيصفيها وينقيها من الشوائب والزوائد والأخطاء ويقدم لصاحبها بديلاً معرفياً ثرياً[1].

ومن أصول الحوار وقواعده وآدابه، أن ينحصر الحوار في دائرة «القضية» موضوع الحوار دون أن يتجاوزها إلى «شخص» يمثل طرفاً في حوار. والحق أننا هنا نقف أمام آفة تشيع كثيراً فيما نراه من حوارات في عالمنا العربي، فغالباً ما ينحرف المتحاورون عن «القضية» ليتناولوا جوانب في شخص هذا الطرف أو ذاك فيزداد التوتر ويشوب الحوار انفعال غاضب يعمي البصيرة، فإذا بالهوة تزداد بين المتحاورين، وإذا بالموقف يزداد تعقداً.

والحوار يقتضي كذلك تحديداً لما يتم التعامل به من مفاهيم، إذ هناك العديد من الكلمات التي قد يعني بها متحدث أمراً غير ما يعني به (الآخر)، فقد يعني طرف بالديموقراطية «نظاماً» غربياً للحكم يجعل الشعب مصدر السلطة مما قد يوقع في شبهة المخالفة الدينية على اعتبار أن الشريعة هي مصدر السلطة وليس الشعب. وقد يعني بها آخر طريقة للحياة تجعل للإنسان الحق في الاستمتاع بفرص العمل

(١) المرجع السابق، ص ٤٧١.

والتعليم والتعبير والسكن بغير تمييز بينه وبين «الغير» تمييزاً يقوم على «العرق» أو «المذهب» أو «الطبقة»، فإذا لم توضح هذه المعاني، فليس مستبعداً أن يقول الأول أن الديموقراطية تخالف الدين، وأن يصدم هذا الحكم الطرف الآخر فيسيئ الظن بالإسلام[1].

والحوار الذي نريد من الخطاب الإسلامي أن يديره، ليس بيننا وبين (الآخر) فحسب، إذ مما لا يقل عن ذلك أهمية أن يكون بين «السلطة» والمحكومين، وبين أفراد المجتمع بعضهم وبعض.

إن علماء البيولوجيا يؤكدون لنا أن التلاقح كلما كان بين أطراف تتباعد في أصولها كلما كان ذلك أفضل لإنتاج حيوي أكثر صحة وعافية وسلامة، ويحذر الأطباء كثيراً من التزاوج بين شديدي القرابة.

هكذا الفكر، فالتلاقح بين الأفكار المغايرة يؤدي إلى تكاثر فكري صحيح البنية، معافى القدرة.

إن سيادة الفكر الواحد الخطاب، يصيب العقول بالعقم ويصيب الأمة بالجمود... وكل يوم يمر بأمة فكرها لا ينمو ولا يتطور ويتقدم، فهذا لا يعني فقط جموداً عن الحركة، وإنما يعني كذلك تراجعاً إلى الخلف.

إن الحقيقة ليس لها إلا مالك واحد هو الله، وما نحن جميعاً إلا مجموعة أفراد، مهما كثروا لا نقف منها إلا من زاوية واحدة، لا تتيح لنا أن نبصر إلا من خلال هذه الزاوية، وكلما اجتمعت آراء أكثر، وكلما تفاعلت كلما أتاح لنا هذا بصراً بمساحة أكبر بالحقيقة.

(1) سعيد إسماعيل علي، التربية الإسلامية وتحديات القرن الحادي والعشرين، مؤتمر كلية التربية بجامعة السلطان قابوس، عمان، ١٩٩٧م.

٥ – **النهج الوسطي**: فمن الأمور المقررة أن الإسلام دين الوسطية، مما فاضت به كثير من الكتابات شرحاً وتفسيراً وتأكيداً وتطبيقاً، حيث إن الآية القرآنية جاءت صريحة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة:١٤٣).

وأهمية هذا النهج للخطاب أن ينضبط الخطاب فلا يتجاوز في أمانيه ومطالبه وتطلعاته واستشرافاته إمكانات الواقع وظروفه، وقدرات المسلمين وما يحيط بهم من متغيرات، ولا يهبط في تواضع أحلامه إلى درجة تصور أن معطيات الواقع مما يدخل في باب الحتم الذي لا قبل للإنسان بتغييره وتطويره.

إن المشكلة في الطريقة الأولى تكمن فيما يتصوره بعضهم من أن المسألة مسألة أوراق وأقلام، أو صوت وميكروفون، لينطلق هنا وهناك حالماً، مجاوزاً ما هو ممكن، ومن ثم يدفع جماهير المتلقين للخطاب في تبني الحلم، حتى إذا كشفت مسار الواقع عن فشل في التطبيق والتنفيذ، وقعوا في مهاوي الإحباط واليأس وضعف الثقة، وتصوروا أن المسألة بحاجة إلى «معجزة»، وتكون الصدمة على درجة عنيفة بالقدر الذي كان فيه الخطاب مفارقاً وحالماً.

ولعل أبرز الشواهد على ذلك ما ساد الخطاب السياسي العربي قبل هزيمة يونيو ١٩٦٧م من تجاوز لكل الإمكانات القائمة، سواء بالتضخيم لقوى الداخل، أو التهوين لقوى الخارج، ومن ثم لم تكن الصدمة فقط بفقد أراض عربية على أهميتها، وإنما كان عمق الهزيمة بالداخل.. داخل الإنسان العربي، من حيث فقد الثقة، والسقوط فجأة من موقع محلق في عالي الفضاء إلى هوة سحيقة في باطن الأرض، مما لم يخطر على بال أحد، حتى في ظل أشد التوقعات تشاؤماً.

ويسود الخطاب العربي في وقتنا الراهن توجه معاكس تماماً، بفعل ما يصعب حصره من صور هزيمة واستباحة ووقوع بعض البلدان العربية الإسلامية تحت مظلة الوصاية الدولية، أو الاحتلال المباشر، فضلاً عن إملاءات بتسيير بعض أمور الداخل، وفي مقدمتها التعليم الديني، وكثير مما يتصل بالعقيدة، وفق ما يحقق المصالح الخاصة بقوى الهيمنة بالخارج.. إلى غير هذا وذاك مما يخرج عن نطاق هذه الدراسة. فإذا ما بدرت صيحات تبرم واحتجاج، كان الرد مؤكداً أنه لا قبل لنا بالمعارضة والمقاومة، وليس أمامنا إلا الرضوخ، وأننا مهما فعلنا فلن نستطيع الإفلات من القبضة الفولاذية لقوى البغي والاستكبار.

إن النهج الإلهي واضح: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (الإسراء:٢٩).

٦- **الوعي بالتغير**: فقديماً قال فيلسوف اليونان «هراقليطس»: إنك لا تستطيع أن تنزل البحر مرتين، لأن مياهه تتغير باستمرار، مما سار «مثلاً» يساق كثيراً للدلالة على سنة التغير، في معظم مكونات الكون الذي نعيش فيه.

إن هذا الوعي بطبيعة الحال ليس مقصوداً لذاته، وإنما مقصود به المتابعة المستمرة لما يحدث، وخاصة فيما يتصل بحقل التخصص بالدرجة الأولى، ثم ما يتصل به من قريب أو بعيد بالدرجة الثانية، فضلاً عن الانشغال المستمر بهموم الأمة العامة، وما يلحقها من أضرار أو صور تقدم وتطور.

إن منتج الخطاب لا ينتجه لمجرد المتعة الشخصية، وإنما ينتجه كي يتلقاه متلقون لهم اهتماماتهم، ولهم ظروفهم، ولهم تطلعاتهم، وكل هذا مما يلحقه التغير بالضرورة، مما يحتم المتابعة المستمرة لما يجد ويوجد هنا وهناك.

ويفرض الوعي بالتغير الإيمان بتغير يمكن أن يلحق مستويات الطموح، ومعايير التقويم والنقد في بعض المجالات التي تتصل بالحياة اليومية بصفة خاصة، وربما عاش منتج الخطاب زمناً يجدّ فيه من مثل هذه الأمور ما لم ينشأ عليه ويتعود، مما يجعل بعضهم على قدر من الصلابة والجمود ما يحول بينه وبين الاستجابة لدواعي التغيير، بحيث يعدل مما كان يرى، أو يطور مما كان يظن، أو يلغي، أو يستحدث، إلى غير هذا وذاك من احتمالات الاستجابة للتغير الحادث.

من هنا تأتي اللفتة النبوية الكريمة، عندما أكد رسول الله ﷺ على مفهوم التجديد ودور المجدد في إعادة الدين لواجهة الواقع من جديد، كما روى أبو علقمة عن أبي هريرة، رضي الله عنه، الذي قال: فيما أعلم عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**»[1].

وعى علماء الأمة الحكمة المتضمنة في هذا الحديث النبوى العظيم، فأخذوا يملأون العالم بكل ما هو جديد في مختلف المجالات والأنساق المعرفية، ويوسعون من هذا وذاك، ويعمقونه، ويخطون به دائماً إلى أمام، فإذا بالحضارة الإسلامية تنمو وتزدهر، وإذا بالعقل الإسلامي يقتحم ما كان مجهولاً من آفاق، وإذا بدماء قوة تجري في عروق الأمة فتحولها من جماعات مبعثرة إلا قوة موحدة تملأ الدنيا عزة وفخراً.

من هنا نستطيع القول: إن التجديد كان دائماً يطرح كاستجابة على الأسئلة التي يطرحها العصر بتعقيداته المتشابكة، فكان التجديد دائماً بمثابة إجابة طموحة تسعى للإجابة عن هذه الأسئلة من منطق المواكبة والقدرة على التجدد الذي يفتح

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم والفتن.

باب الإبداع مشرعاً على مصراعيه، بما يحمل مما يتفتق عنه الذهن ويخلقه العقل المتلئ بالأسئلة القلقة، التي تتطلب حتماً إجابات سريعة وضرورية.

ومن ثم يصبح المطلوب من التجديد إذن أن يعيد تربية الإسلام أو يعيدنا إليها بصفتها النقية الخالصة، لحظة صفائها الأولى، وهذا يتطلب تصفية عقائد المسلمين مما علق بها من التصور الخرافي والاتجاه البدعي ومظاهر الشرك الجلي والخفي، وتحلية سلوكهم بقيم الإسلام وأخلاقياته. والمجددون دائماً كانوا هم الذين يتزعمون هذا الاتجاه ويقومون بتحقيقه، بتحرير الدين وتجديده من التصورات الخاطئة التي تكونت عنه، بما يعيدنا إلى تربية الإسلام الصحيح التي كان عليها سلفنا الصالح.. والمراجع للكتب التي أحصت المجددين وعدهم يجدها غالباً ما تؤكد هذا المعنى بوصفه المعيار الرئيسي التي يحتكم إليه عند تحديد المجددين خلال قرون الإسلام، فـ «التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مائة » لجلال الدين السيوطي؛ المتوفى في القرن العاشر الهجرى؛ «بغية المقتدين ومنحة المجددين على تحفة المهتدين» للمراغي الجرجاوي، وغيرهما تؤكد على أن المجدد هو الذي يجدد الدين في نفوس الناس وعقولهم، وفي سلوكهم ومعاملاتهم، بعد أن تراكمت فيها تصورات خاطئة ومغلوطة عن هذا الدين، هذا دون أن نغفل المآخذ العديدة في هذه الكتب التي اعتمدت تصنيفاً مذهبياً. (١)

٧ - **النزعة الاقتحامية**: ولا نقصد بطبيعة الحال هنا بذلك تشجيعاً على الاعتداء، وإنما نقصد بذلك أن يمسك الخطاب بزمام المبادرة ويسعى إلى المبادأة،

---

(١) رضوان زيادة، التجديد بوصفه سؤال العصر، مراجعة لقرن مضى، مجلة الاجتهاد، بيروت، دار الاجتهاد، العددان العاشر والحادى عشر، ١٩٩١م، ص ١٣٠.

ذلك أن طبيعة الثورة العلمية والتقنية في عالمنا المعاصر قد أصبحت «اقتحامية»، تفرض نفسها الآن على الجميع، بحيث يصعب على أحد أن يعيش بمعزل عنها مثلما أمكن في عصور ماضية. ووصل التعبير عن ذلك لدى أحد الكتاب ممن لا تسعفني الذاكرة بتذكره، ربما منذ ما يقرب من ثلاثة أرباع القرن مصوراً تلك الطبيعة الاقتحامية بأن العلم يقتحم علينا تفاصيل حياتنا، حتى في محل إزالة الضرورة.

ومن شروط الخطاب الجيد أن يتسق مع النهج العام للعصر الذي يعيشه، فلا ينتظر حتى ينتج الآخرون خطاباتهم، ويروجون لمقولاتهم، ويتحول هو بعد ذلك إلى «رجع صدى»، يردد ما يقولون، ويرد عليهم!

إن المشكلة هنا أن الوقوف عند حد رد الفعل يجعل (الآخر) هو الذي يحدد لنا جدول أعمال تفكيرنا، وهو بحكم ثقافته وبيئته ومصالحه، من حقه أن يحدد قضاياه، ومن حقه أن يحدد رؤيته لنا، لكن ليس من واجبنا أبداً أن نحد أنفسنا بالحدود نفسها التي تحدد توجهات وقضايا (الآخر).

فخطاباتنا الحالية، تدور في الغالب والأعم عن الانفتاح والتعايش والسلام ونبذ العنف والتعاون وما سار على هذا النهج، لأننا بهذا نريد أن نرد على اتهامات تُوجه إلينا، ونسعى إلى تبديد صورة نرى أنها خاطئة عنا، لكننا من حيث لا نريد نتخلى بذلك عن عدد آخر من القضايا التي لا تقل أهمية عن مثل هذه القضايا.

إن خطاباتنا، إذ تغرق في خضم الحديث عن القضايا المشار إليها تنسى أنهم يريدون منا ألا نقاومهم، وأن نفتح لهم الأبواب يدخلون أينما شاءوا وكيفما أرادوا

ووفقاً لما يرون من شروط، بينما هذه المقولات نحن أنفسنا أكثـــر احتياجـــاً إلى أن يعاملنا (الآخر) بها، فنحن لم نقتـــحم ديارهـــم وهـــم الذين اقتحموا ديارنا، ونحن لم نحتل أراضيهم بل هم الذين احتلوا أراضينا، ونحن لم ندمر بلادهم ونقتل شعوبهم بل هم الذين فعلوا ذلك معنا، وما حدث في الحادي عشر مـــن ســـبتمبر ٢٠٠١م حركة نشاز إذا قورنت بما فعلوه – وما زالوا – بنا، لما وصلت على جزء من مليون، دون أن يعني هذا أننا نقرها أو ندعوا إلى تكرارها.

إن ما يؤكد ما نقول هذا التساؤل المشروع لنا: أين خطابنا الآن مـــن قضـــية التنمية على سبيل المثال؟ إنهم في الغرب لا يلحون علينا في التنبيه والسخرية مما أصبح عليه اقتصادنا من قصور في دفع عجلة التنمية، فإذا بنا لا نلح على هـــذه القضـــية المركزية، إلا بين المتخصصـــين من علـــماء الاقتـــصاد، وخاصة في المراكز البحثية والمواقع الأكاديمية.

ونحن ما زلنا نعاني من تخلف مخجل في كثير من المجالات العلمية والتقنية، لا نجد إشارات من القيادات الغربية إلى ذلك أو صحفهم، فهل يعني هذا أن تغيب مثل هذه القضية عن خطابنا أيضاً، إلا فيما ندر؟

وفي بعض الأحيان يتصدى الخطاب الإسلامي لمشكلة مثل المشكلة الســـكانية، منطلقاً من مقولات غربية، ذلك أنهم في الغرب يعانون من تناقص سكاني أو علـــى الأقل من توقف، بينما يعيش العالم العربي والعالم الإسلامي تزايداً شديداً، مما يمكن أن يشكل تهديداً للعالم الغربي، وآية ذلك تلك المنظمات والمعونات الضخمة الـــتي تتدفق على بعض البلدان العربية تشجيعاً على الحد من معـــدلات هـــذا التزايـــد، مصورين التزايد بأنه هو سبب قصور التنمية وذيوع الفقـــر، دون تنبيـــه إلى أنـــه

بالإمكان البصر بأن المشكلة ليست في مجرد هذا التزايد، وإنما في سوء توزيع السكان، وفي هدر الإمكانات البشرية القائمة، وفي ترك المساحات الشاسعة بغير تعمير، وفي تدني نوعية التأهيل والتكوين... إلى غير هذا وذاك من مظاهر، مفروض أن تدفعنا إلى البصر بوسائل أخرى تعين على الحل، مثل السوق العربية المشتركة، والتكامل الاقتصادي، واستقطاب رؤوس الأموال العربية إلى البنوك العربية، وتخفيف القيود القائمة بين بعض البلدان في حرية التنقل، أملاً في أن يجد المواطن بإمكانه أن يتنقل من دولة إلى أخرى بغير الحصول على تأشيرة دخول... وهكذا.

وبعد:

إن المسلمين يمرون اليوم بفترة لا أظن أنهم مروا بمثلها سوءاً وضعف حال من قبل... لقد داهمنا المغول، ودهمنا التتار... وداهمنا الفرنجة فيما سمي بالحروب الصليبية، لكنهم – أي المسلمون– امتلكوا وقتها إرادة المقاومة والثقة في المستقبل، ولعل هذا هو ما يشير إلى خطورة ما أصبحنا عليه في وقتنا الراهن، فلا تكمن المأساة في أراض قد استبيحت، وإرادة قد قهرت، وطاقات قد سرقت ونهبت، وعقول قد غُزيت، وإنما تكمن المأساة فيما بدأ يسود عدداً لا يستهان به من الناس، من فقد الثقة بالذات، وتبدد الأحلام.

والدعوة إلى استعادة الثقة بالذات، وبألا نفقد الحلم، لا تُتأتى بمجرد النصح والوعظ، وإنما بالسعي سوياً لإرادة الحياة، لا كما يعيشها كل كائن حي، وإنما كما أرادها المولى عز وجل، حياة خير أمة أخرجت للناس، تلك الأمة التي لا طريق أمام استعادتها في صورتها القرآنية إلا بامتلاك الوحدة، وامتلاك القوة.

الخطاب الإسلامي
والخروج من مأزق الثنائيات

الدكتور محمد بن نصر (*)

لطالما ألح عليَّ السؤال حول الحكمة من تفصيل القرآن لأحكام الدين بينما اكتفى بإشارات عامة عندما يتعلق الأمر بالطبيعة أو الإنسان، وأقدّر - والله أعلم- أن الله أراد من المؤمن أن يفرغ جهده في معرفة أسرار الطبيعة وأسرار نفسه، وأن يتقبل ما أمره الله بفعله ويترك الخوض في الجزئيات التي لا تؤدي في النهاية إلا إلى بلبلة الأذهان وغياب الفعل.

مقدمة:

لاشك أن كل محاولة للتحقيب الفكري هي نوع من المجازفة؛ لأنها تهدف إلى رصد المحطات الكبرى لخطاب معين، ولا تعكس بالضرورة الخريطة الفكرية الظاهرة التي تتقاطع فيها التوجهات الفكرية، وإنما تهتم بالكشف عن التضاريس المتخفية، التي تتكون منها بنية الخطاب. تكشف هذه البنية عن مسيرة الفكر الإسلامي المعاصر التي

(*) أستاذ محاضر في المعهد الفرنسي للدراسات والعلوم الإسلامية.. (فرنسا).

نزعم أنها مرت بثلاث محطات رئيسة، شكّل الدفاع عن مقومات الدين العلامة البارزة للمحطة الأولى.

بدأت هذه المرحلة بخطاب أخذ سمة الاعتذارية، و لم يكن هذا ناتجاً عن خيار استراتيجي و لكن المرحلة التاريخية كانت تفرض ذلك. لم يكن بوسع العقل الإسلامي أن يفعل أكثر من محاولة التأقلم خاصة وأنه لم يركز على النظر في الأسس الفلسفية التي قامت عليها الحداثة الغربية، فضلاً عن أن الزمن كان زمن الاستعلاء العقلي، حيث فرضت العقلانية في صياغتها الوضعية بوصفها الأنموذج الوحيد القادر على تحقيق السعادة في الدنيا ولا سعادة غيرها، ولا يمكن لنا أن ننكر الإنجازات الكبرى التي حققتها العقلانية، كما لا يجب أن نغفل عما نتج عنها من مآسي لم تعرف الإنسانية لها مثيلاً. على أنه يجب التفريق بين الحداثة التي يمكن اعتبارها الرؤية الفلسفية الكلية التي تتحرك فيها العقلانية وبين العقلانية في حد ذاتها التي تعتبر نزعة ومنهجاً في التفكير، تعطي للعقل منزلة متميزة ومكانة محورية تصل في بعض حالاتها إلى رفض الحقيقة الدينية باعتبارها خرافة أو باعتبارها غير خاضعة للتجربة الحسية، فليس كل منهج عقلاني منافياً للدين بالضرورة أو رافضاً له.

ولعل هذا الخلط بين الحداثة بوصفها أيديولوجيا والعقلانية بوصفها منهجاً هو الذي تسبب في بروز الموقف الاعتذاري، الذي ظهر تحت عناوين عديدة مثل أصالة العقل في الإسلام، وقابلية الدين الإسلامي للتمدن والترقي خلافاً للأديان الأخرى. ولكن تمكّن التيارات الماركسية والليبرالية -خاصة تلك التي أخذت موقفاً متطرفاً من الدين- في المجالات الفكرية، جعلت المفكرين ذوي التوجه الإسلامي يركزون على الأسس التي يقوم عليها الدين، مثل مسألة إثبات وجود الله وضرورة الوحي باعتباره الخيط الواصل بين الله ومخلوقاته، ثم نتج عن الفشل الذي منيت به المشروعات الثورية في شقيها الليبرالي والماركسي - على الأقل قياساً إلى الشعارات والوعود التي

رفعت آنذاك - بروز اهتمامات جديدة للعقل الإسلامي تمثلت في طرح الإسلام بوصفه مشروعاً بديلاً وشاملاً لكل مناحي الحياة مع رفض واضح للقيم الغربية التي أدخلت العالم في حربين عالميتين مدمرتين.

ويكفي أن نقوم بمقارنة بين صورة (الآخر) في كتاب الشيخ الطهطاوي، غفر الله له: «**تخليص الإبريز في معرفة أحوال باريس**» وبين كتاب الشهيد سيد قطب: «**أمريكا التي رأيت**»، لنرى التحول العميق الذي حصل في رؤية (الآخر). وسيكون التحول أعمق في كتابات أخرى مثل تلك التي كتبها الدكتور عبد الوهاب المسيري: «**الفلسفة المادية و تفكيك الإنسان**»، على سبيل المثال، والذي ركز في نقده للحداثة الغربية على المنطلقات الفلسفية للحضارة الغربية والمآلات التي كان لابد أن تؤول إليها.

ولكن مازال هناك من ينظر إلى الحداثة بوصفها إطاراً موحداً للإنسانية، باعتبار إنسانية العقل وحياديته. فهذا الدكتور فتحي التريكي - وهو أبعد من أن يوصف بالاتباعية العمياء، فهو كثيراً ما يدعو إلى النقدية المنفتحة، ولكنه يقع في نفس الإشكال عندما يريد أن يؤصل للحداثة بوصفها الإطار الجامع للتفكير الإنساني، ولعل ذلك ناتج عن تصور لا يخلو من براءة؛ لأنه يقف فقط عند إنجازاتها المادية وعند مقولاتها العلمية- يقول: «لا نريد هنا التأكيد على تأثير ابن سينا وابن الهيثم والبيروني وابن رشد في الثقافة اللاتينية عامة وفي تكوين العقل العلمي خاصة، تلك أطروحات أصبحت اليوم من المسلمات بعد الدراسات التاريخية والعلمية المتعددة في الشرق والغرب. نريد فقط أن نتوصل إلى إقرار أننا نتواصل مع تراثنا العلمي والعقلي إذا ما تواصلنا مع مستتبعاته الغربية المتمثلة في إنتاجيات الغرب العلمية والتقنية بما أننا كنا مساهمين أساسيين في صقل العقل العلمي. ولذلك يجب أن يكون تعاملنا مع

الحداثة كتعاملنا مع شيء من كياننا، فيكون هذا التعامل عنصراً مهمّاً لتحديد هويتنا إلى جانب ثوابت التأصيل والتراث التي كثيراً ما التجأنا إليها. فالحداثة هي نقطة استكمال الدورة الجدلية للتفاعل الحضاري بين الشعوب والأمم»[1].

ولا ندري كيف يستطيع التريكي أن يجمع في هوية واحدة تصورين يُعتبر كل منهما نسق متكامل ورؤية للكون تستند إلى ميتافزيقا مسبقة تطرح إجابات عن الأسئلة النهائية الكبرى؟ بل يصبح الحديث عن الهوية في حد ذاته أمراً مستحيلاً بهذا المعنى. نعتقد أن مثل هذا التوهم ناتج عن خلط مقصود بين معنى الحداثة بوصفه تصوراً فلسفياً شاملاً وبين معنى التحديث الذي يمكن أن يكون مطلباً مشتركاً؛ لأنه يهدف إلى الاستثمار الجيد لكل الإمكانات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية من أجل نمو مطرد للمجتمع ولكن في ضوء تصورات فلسفية مختلفة. وذلك هو أصل التنوع وإلا يفقد معناه إذا كان التصور الفلسفي الواحد.

يمكن أن نقول: إن الكلمة المفتاح، أو الكلمة المحور التي أصبحت تنافس فكرة المحاكاة (للآخر) القوي هي كلمة الشمولية عند الأطراف المعتدلة، والحاكمية عند الأطراف الأكثر تشدداً، وما تولد عنها من مفاهيم مثل مفهوم القطيعة.. ولكن بساطة الطرح وتعقيد الواقع وتيار العولمة الجارف جعل الفكر الإسلامي يثير من جديد العلاقة بالنص القرآني وكيفية فهمه وحل مفهوم التفاعل بدل القطيعة، مع التأكيد الدائم على أن تكون المرجعية الإسلامية هي المعيار والأساس الذي يحتكم إليه في ضوء مقاصد الدين الشرعية، وهي من المؤشرات التي تدل على إمكانية تجاوز الخطاب الإسلامي لحالة التجاذب بين الانفعالات المتضادة وردات الفعل المتعاكسة

(١) عبد الوهاب المسيري وفتحي التريكي، الحداثة وما بعد الحداثة (دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٣م) ص٢١٣.

والاختلافات التي تنشأ عن التضارب الصوري لبعض المفاهيم التي تنتمي في الأصل إلى الفضاء الفكري.

تحاول هذه الدراسة أن تبين إلى أي حد استطاع الفكر الإسلامي أن يتخلص من سمة الثنائية التي غلبت عليه في مسيرته هذه، وسنأخذ على سبيل المثال ثنائية الإسلام والحداثة، وثنائية الدولة والجماعة، وثنائية العلوم الشرعية والعلوم المدنية، وثنائية الهوية والانفتاح، وثنائية العالمية والعولمة. كيف يمكن الخروج من هذه الدوائر المغلقة؟ وهل يمكن الحديث عن بداية لتأسيس خطاب جديد؟ وسيتم تناولها بوصفها عوائق للتفكير المرن، جعلت الفكر الإسلامي لا يكاد يراوح مكانه.

- ثنائية الإسلام و الحداثة:

في سنة ١٦٥٢م، كتب عمر طالب منبهاً أصحاب القرار في الدولة العثمانية إلى تنامي النفوذ الأوروبي قائلاً: «الآن أصبح الأوروبيون يعرفون العالم كله، فيرسلون مراكبهم إلى كل الجهات فتصل المرافئ المهمة من العالم، وقبلاً كان تجار الهند والسند معتادين على المجيء إلى السويس، وكانت بضائعهم توزع على أيدي المسلمين إلى العالم أجمع. أما الآن فهذه البضائع تنقل على مراكب برتغالية وهولندية وإنكليزية إلى فرنجستان، وتنشر في العالم أجمع انطلاقاً من هناك، أما ما ليسوا بحاجة إليه فإنهم يأتون به إلى إستانبول وغيرها من أراضي الإسلام ويبيعونه بخمسة أضعاف سعره الفعلي فيكسبون بذلك المال الوفير. لهذا السبب أصبح الذهب والفضة نادرين في بلاد الإسلام. يجب على الدولة العثمانية أن تسيطر على الشواطئ وعلى التجارة المارة من هناك، وإلا فإنه لن يمر وقت طويل ويسيطر الأوروبيون على بلاد الإسلام»[1].

(١) هذا النص أورده خالد زيادة، اكتشاف التقدم الأوروبي (بيروت: دار الطليعة، ١٩٨١م) ص٣١-٣٢.

وفي الثاني من يوليو ١٧٩٨م، أي بعد أقل من قرن ونصف القرن بقليل من هذا النداء، سقطت مدينة الإسكندرية بعد معركة غير متكافئة مع الأسطول الفرنسي، وتبعتها في الثالث والعشرين من نفس الشهر مدينة القاهرة، وفي الخامس من يوليو ١٨٣٠م، سقطت مدينة الجزائر. لقد كان عمر طالب ذا بصيرة نافذة، لقد استطاع أن يستقرئ مستقبل الأحداث.

ولكن النور الذي سطع، الشيخ الأزهري رفاعة الطهطاوي، والذي حرر في كنفه كتابه القيم السالف الذكر، جعله غير قادر على سماع دوي المدافع التي دكت القرى الجزائرية الآمنة، ولكنه أجهد نفسه للتفريق بين الرقص الشرقي المتخلف والرقص الفرنسي المتحضر. ليس هذا تجنياً على الشيخ الطهطاوي، ولكن أردنا فقط أن نبين أثر الانبهار في النظرة إلى الأمور، خاصة وأن الشيخ الطهطاوي قد نشأ في ظل الاحتلال الفرنسي، حيث إنه ولد بعد ثلاث سنوات من غزو نابليون لمصر.

غياب النظرة المتوازنة جعلت منطق المتقابلات المتنافية هو الذي حكم الفكر في عالمنا الإسلامي، فنجد أنفسنا دائماً أمام خيارين يُقدَّم أحدهما على أساس أنه الخيار المصيري ومن دونه الدمار، فإما الإسلام أو الحداثة، الدولة أو الجماعة، العلوم الشرعية أو العلوم الإنسانية، الدنيا أو الدين وهكذا، سلسلة من الثنائيات التي لا تنتهي، والتي يراد منها أن يظل الخطاب الفكري حبيس المربع الأول، يحصي ضحايا التعصب للقديم والتعصب للحديث، بل التعصب لقديم على حساب قديم آخر، والتعصب لحديث على حساب حديث آخر، الأمر الذي عمق النظرة الجزئية للأشياء، مختزلة بذلك التراث والمعاصرة في آن واحد، ومغذية بذلك حريقاً لا ينطفئ، حرباً أهلية لم نعرف لها نهاية، تتغير وسائلها وأبطالها ولكن جوهرها ثابت.

ومن هنا تكمن ضرورة النظر في الخطاب الإسلامي لرصد الثنائيات التي تعرقل خروجه من هذا النفق وكيف يمكن معالجتها؟

إن تعرف رواد الإصلاح الأوائل على تَعيُّن الحداثة قبل التعرف على الفلسفة التي تقوم عليها جعلهم يتعاملون معها انطلاقاً من إنجازاتها المادية، فلم يستوعبوا الأسس النظرية التي قامت عليها، ولا الغايات التي تسعى إليها. نظروا إليها على أنها مجرد حركة تنويرية عقلانية تهدف إلى سعادة الإنسان وتسليحه بالمعرفة العلمية، التي تساعده على التحرر من الخرافة، وتمكنه من الاعتماد كلية على نفسه. لم يفهموا الحداثة انطلاقاً من منطقها الداخلي وإنما انطلاقاً من المشكلات التي كانوا يعانونها. نظرة وظيفية أرادوا منها أن تسعفهم في حل قضايا التخلف التي يرزح تحتها المجتمع الإسلامي، في حين أن المشاريع الكبرى للمدَنية الأوربية تستوجب أن يبقى الآخرون في تخلفهم العمراني، فتُنهَبُ خيراتهم وتستغل قوتهم العاملة في إقامة مشاريعهم الضخمة، ويتم إغراق العالم بسلعهم ومنتجاتهم وفرض نمطهم في الحياة.

وضعت الحداثة الإنسان في أعلى هرم الأنواع، وجعلته سيد الطبيعة، وكما يقول الفيلسوف الفرنسي المعروف، «رنيه ديكارت» (١٥٩٦-١٦٥٠م): «يجب أن يكون الإنسان سيداً للطبيعة ومالكاً لها»[1]، ونجد نفس الشيء عند نظيره «فرنسيس بيكون» (١٥٦١-١٦٢٦) حيث يجعل غاية المنهج العلمي تحقيق «إمبراطورية الإنسان على الطبيعة».

وعكس ما يُعتقد، فإن هذه العلاقة مع الطبيعة لا تجد أساسها في العقلانية المعاصرة فقط وإنما أيضاً في المكانة التي أعطتها الثقافة اليهودية المسيحية للطبيعة،

---

(١) انظر: René Descartes, discours de la méthode (Paris : Flammarion, Coll GF, 2000)

وتحديداً للأرض، حيث اعتبرتها المكان الذي نُفي فيه الإنسان بسبب خطيئته الأولى. «ليس من المحتمل تجنب ردة فعل البيئة المدمر بتوظيف المزيد من العلم والتقنية، فعلومنا وتقنياتنا قد تطورت في ظل المفهوم المسيحي لعلاقة الإنسان بالطبيعة، وهو ليس فقط مفهوم المسيحيين والمسيحيين الجدد، وإنما أيضاً أولئك الذين يعتبرون أنفسهم بصدق ما بعد المسيحيين»، كما يقول المؤرخ «لين وايت»[1]، وهو ما يتضمنه الإنجيل نصاً: «ملعونة أنت الأرض، بسببك أُطرد الإنسان من الجنة، لك خُلق الفحم والأشواك» (إنجيل بيت المقدس، سفر التكوين، الآية١) إنها أرض المنفى، أرض الإبعاد.

يتصرف الإنسان الغربي ذي الخلفية المسيحية في الأرض ومع من فيها بروح انتقامية لا شعورية، وجهت أفعاله، وحكمت علاقته بغيره من المخلوقات، وهو ما يفسر المآل الذي آلت إليه العقلانية، التي بدأت كمنهج لفهم أسرار الطبيعة والسيطرة عليها وتوجيه الفعل الإنساني والتحكم فيه، انتهت إلى الاستجابة الكلية للغريزة البهيمية، فأصبح الفعل الإنساني نوعاً من السيولة القاتلة التي فقد الفعل معها كل معنى، وهكذا تهاوت ركائز المجتمع الواحدة تلو الأخرى، وتحول المجتمع إلى كتلة ملساء متدحرجة لا قرار لها، يتساوى فيها كل شيء، إنها بحق الردة التراجيدية التي تحدث عنها عبد الوهاب المسيري حيث يقول: «يمكن القول: بأن الحضارة الغربية الحديثة، في جانب هام من جوانبها، تعبير عن التراجع التراجيدي والمستمر للفلسفة الإنسانية الهيومانية التي تؤكد استقلالية الإنسان عن الطبيعة/المادة ومقدرته على تجاوزها وعلى تطوير منظومات قيمية ومعرفية، ولذا تضعه في مركز الكون، وهو

---

(١) Lynn White, historical roots of our ecological crisis, Science155, 1967, 1203-1207.

تراجع يقابله تصاعد مستمر ومطرد للحلولية الكمونية المادية، أو وحدة الوجود المادية أو العلمانية الشاملة، التي تهمش الإنسان ومنظوماته المعرفية والأخلاقية جميعاً وتسوّيه بالظواهر الطبيعية/ المادة، فتلغيه وتبيده ككائن مستقل له قيمة مطلقة عن قوانين الحركة الطبيعية/ المادية»[1].

لم تعد الطبيعة قادرة تلقائياً على إصلاح ما أفسده الإنسان؛ لأن إساءة الإنسان للطبيعة تجاوزت الحدود المقبولة، كانت تجاربه تتم في إطار الدورة الطبيعية، ولكنه الآن بدأ يتطاول على أسس النظام الطبيعي مثل تجاربه في الهندسة الوراثية و غيرها. في حين أن القرآن الكريم يؤسس هذه العلاقة على مبدأ التسخير، حيث قال الله جل جلاله : ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ (لقمان: ٢٠)، من المفروض أن تكون العلاقة مع الطبيعة علاقة تتسم بالسعي إلى معرفة قوانينها واحترامها وليس العمل على تغييرها وتبديلها. لن يخلّف هذا الموقف الاستعلائي تجاه الطبيعة إلا الدمار؛ لأنه ينطلق من فكرة الصراع مع كل شيء.

عدم فهم الأسس التي قامت عليها الحضارة الغربية أعطى لمنتجاتها المادية بريقاً خاصاً ومفعولاً سحرياً عند الذين عايشوها من مفكري الإصلاح الرواد. والغريب أن هذا الأمر مازال يغري الكثيرين، فمازال هناك من يعتقد أن العالم يمكن أن ينعم كله بالاستقرار والحرية والأمن، في حين أن شرط قيامه هو مبدأ الصراع والبقاء للأقوى. كيف سيكون العالم لو أصبح كله واحة من الحرية، ينعم الجميع فيه

(١) عبدالوهاب المسيري، الحلولية والتوحيد والعلمنة الشاملة، مجلة التجديد، السنة الأولى، العدد الثاني، يوليو ١٩٩٧م/ ربيع الأول ١٤١٨هـ.

بامتلاك المعرفة وامتلاك القوة فتكون كل الدول منتجة ومعتمدة على ذاتها في إطار من التعاون المتبادل؟ كيف سيكون حاله لو تحرك فيه الإنسان بحرية كاملة مثلما تتحرك رؤوس الأموال ويتناقل البشر ما استجد من الاختراعات والاكتشافات العلمية كما يتناقلون اليوم أخبار الكوارث والحروب؟ ألا يعني ذلك نهاية احتكار العالم الغربي للمعرفة والقوة؟ إنه من السذاجة أن نتصور أن الغرب، الذي بنى حضارته على شعار الغلبة ونهب خيرات الشعوب الأخرى، سيرضى طوعاً واحتراماً لحقوق الإنسان بهذا المصير الذي ينزع منه الزعامة ويجعله طوعاً في نفس المنزلة مع الدول الأخرى.

لاشك أن الصورة التي قدمت فيها الحداثة نفسها توهم بذلك، فهي مشروع عالمي يبشر بالعدل والحرية للإنسانية كافة. واختزلت المسألة في فصل الدين عن الدولة، التي تمت صياغتها بطريقة توحي بأنها محايدة، فعرفت العلمانية بأنها: «الإيمان بإمكانية إصلاح حال الإنسان من خلال الطرق المادية، دون التصدي لقضية الإيمان، سواء بالقبول أو بالرفض».

وهو التعريف الذي اختاره «جون هوليوك» (١٨١٧-١٩٠٦م)، لا يمكن لأحد أن يرفض الدعوة إلى إصلاح حال الإنسان ولكن لماذا بالطرق المادية ووفق أي نموذج؟ ذلك ما تم السكوت عنه قصداً في هذا التعريف.

لم يهتم رواد الإصلاح الأوائل بالتفكير في مناقشة مفهوم التقدم مناقشة فلسفية، وقادهم الأمل في تغيير واقع مجتمعاتهم إلى تبسيط مفاهيمه والعمل على تبيئتها ورأوا في كثير منها التحقيق الفعلي لمبادئ الإسلام المهجورة في بلاد الإسلام. ويؤثر عن الإمام محمد عبده أنه قال: «لقد وجدت هناك (يقصد بلاد الغرب) إسلاماً

بلا مسلمين ووجدتُ هنا (الشرق) مسلمين بلا إسلام»، وكما كان الانبهار بمظاهر التقدم المادي عائقاً أمام فهم عميق للحداثة كانت النتائج المدمرة لتطبيقاتها العشوائية في العالم الإسلامي منطلق الدعوة إلى القطيعة مع كل إنجازات العقل الإنساني.

لم تكن نتائج الانبهار الكامل بأقل سوء من نتائج الرفض الشامل. لقد أدى منطق التقابل بين الأشياء إلى تجارب نافية لبعضها بعضاً، وتحولت إلى عوائق أمام تطوير أنموذج تنموي مستمد من قيمنا الحضارية ومستفيد من أوجه النجاح في التجارب الأخرى. ولا ينفع القول: بأن المسلم مكتف بما عنده لا يهمه ما كسبت أيدي الآخرين، والإسلام لا شأن له بالمشكلات التي أفرزتها الحضارة المادية، فأثر هذه المشكلات في المجتمعات الإسلامية أكبر وأخطر، فنحن لا نملك أسباب الوقاية منها، خاصة وأن الشركات العالمية المنتشرة في كل أنحاء العالم لا يحكمها إلا منطق الربح والخسارة، وبقدر ما تجتهد في حماية مجتمعات الوفرة بقدر ما تتصرف بوحشية مع المجتمعات الأخرى.

من هنا، وجب على العقل الإسلامي أن يطور أنموذجاً للحداثة أساسه التصور التوحيدي، وموضوعه العالم بشقيه الشهودي والغيبي، فيعطي للوجود معنى، وللفعل الإنساني غاية. فالتقابل يجب أن يكون بين حداثة في إطار مفهوم التوحيد وحداثة مادية مقطوعة الصلة كلية بالله، وليس بين الإسلام والتحديث في المطلق.

- ثنائية الدولة والمجتمع:

في محاولتهم لفهم التقدم الغربي، برزت الدولة لهم بوصفها المؤسسة الصانعة للتقدم ولذلك راهن مفكرو الإصلاح على إصلاح الدولة من أجل إصلاح المجتمع، وعندما تحولت هذه الدولة إلى مؤسسة منتجة للعنف ومحتكرة له ومتسلطة على

المجتمع، نادى المفكرون الإسلاميون بالقطيعة معها، فأدى عدم وعي المفكرين المصلحين بالظروف التي نشأت فيها الدولة في الغرب إلى المراهنة على الرسالة الإصلاحية للدولة الوطنية الناشئة، وأدى عدم وعي المفكرين الإسلاميين تحديداً بظروف نشأة الدولة الحديثة وعوامل قوتها إلى الدخول في مغامرات سياسية فاشله. المراهنة الأولى تمت في إطار المحاكاة، التي لم يفهم أصحابها أن التطورات التي عرفها المجتمع الغربي هي التي أفرزت الدولة، ولذلك مهما استبدت الدولة الغربية فإنها لا تستطيع أن تتجاوز المؤسسات الاجتماعية والإنسانية التي نشأت في إطارها، فالدولة كانت ضرورية لإدارة الصراع بين القوى الاجتماعية الناشئة والباحثة عن سبيل لفرض السلم الأهلي وتوفير الاستقرار الضروري لنمو الحياة الاقتصادية.

أما نشأة الدولة القطرية في العالم الإسلامي فقد تمت وفق تصور استراتيجي تجاوز مدركات الداعين إليها والقائمين عليها، حيث سرعان ما وجدت نفسها في مواجهة مباشرة مع المجتمع الذي جاءت من أجل إصلاحه. طرحت هذه الدولة مشاريع طموحة ولكنها كانت تفتقد الإمكانيات اللازمة للقيام بها فأثقلت شعوبها بالضرائب التي زادتها رهقاً على رهق، وكان أول ما سعت الدولة الناشئة إلى إصلاحه هو الجهاز الأمني والعسكري بدعوى مواجهة القوة العسكرية الزاحفة، وكما قال خير الدين التونسي: «إن الممالك التي لا تنسج على منوال مجاوريها فيما يستحدثونه من الآلات الحربية والتراتيب العسكرية توشك أن تكون غنيمة لهم ولو بعد حين»[1].

---

(١) معن زيادة، خير الدين التونسي و كتابه أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات النشر و التوزيع، ١٩٨٥م) ص١٥٢.

ولكن الجهاز الأمني والعسكري المتجدد بدل أن يكون درعاً حصيناً للمجتمعات المسلمة، تحول إلى قوة حماية لمؤسسات الدولة القطرية الحديثة الناشئة وسيف مسلط على شعوبها، التي بدأت تشعر أن الهوة بينها وبين النخبة الحاكمة تتسع باستمرار. ونظراً لفقدان الدول القطرية للشرعية الشعبية وحاجتها إلى الإمكانيات المادية، لجأت إلى اقتراض أموال طائلة من الدول القوية التي كانت تعلم أن الدول الناشئة تحت رعايتها ستُقدم لا محالة على هذه الخطوة المخطط لها استراتيجياً، وبذلك أصبح استمرار وجودها رهن استراتيجية الدول الكبرى، التي بدأت باحتلالها بذريعة استرجاع ديونها وانتهت بتفكيك المجتمع الإسلامي وفرض نموذجها التنموي عليه، فأصبحت تابعة لها في كل المجالات، السياسية والاقتصادية والثقافية.

فليس هناك، من هذه الناحية، فرق نوعي بين دولة حقبة الاستعمار المباشر ودولة ما بعد الاستعمار المباشر. ليس معنى ذلك أن نشطب بجرة قلم الإنجازات التي تحققت والتي يجب أن تذكر في إطارها، ولكن نحن هنا بصدد الحديث عن أسباب حالة الصراع الدائم بين الدولة والمجتمع أو على الأقل مع فئة مُن فئاته، الأمر الذي يشكل سبباً من أسباب العطالة الدائمة لمؤسسات الدولة والمجتمع على حد سواء.

من ناحية أخرى، عرف التاريخ الإسلامي نوعاً متميزاً من العلاقة بين السلطة الحاكمة وبين المؤسسات الأهلية، حيث كان هناك نوع من توزيع الأدوار، فتكفلت الدولة بمهمات ما يمكن أن نطلق عليه اليوم الفضاء السياسي، وتكفلت المؤسسات الأهلية بإدارة شؤون المجتمع، كان للقبيلة دورها وكان للمسجد دوره وكان للمؤسسات الحرفية دورها. كانت هذه المؤسسات الاجتماعية تمنع من سيطرة الدولة على المجتمع، وكل محاولات توسيع نفوذ الدولة باءت بالفشل، كما فشلت كل

محاولات القضاء عليها، ولكن عندما جاءت الدولة القطرية جاء معها مفهوم السيطرة الشاملة، فسعت إلى القضاء على هذه المؤسسات الوسيطة، وأصبح المواطن فرداً معزولاً معرضاً مباشرة لبطش الدولة.

وأمام هذا التوسع لنفوذ الدولة كانت ردة فعل بعضهم رفض مؤسسة الدولة من أساسها والدعوة إلى القطيعة معها، فتعمق الصراع معها، ومن ثم تعطلت وظيفة الدولة وتعطلت وظيفة المجتمع.

وبما أن نشأة الدولة القطرية لم تكن موضوع بحث عميق عند مفكري الصحوة الإسلامية فقد استهانوا بمسألة مواجهتها ليكتشفوا بعد ذلك أنهم واجهوها بأضعف ما عندهم وقابلتهم بأقوى ما عندها، فكانت هذه المواجهة وبالاً على الجميع. ذلك أن أضعف زاد عند الإسلاميين هو زادهم من الفقه السياسي، وهو ضعف موروث بحكم توزيع الأدوار بين السلاطين والفقهاء، الذي أشرنا إليه آنفاً، وأكبر خبرة عند الدولة القطرية بحكم تراكم التجربة هي الخبرة الأمنية، وأضخم جهاز فيها هو جهازها الأمني، فكان إذاً من الطبيعي أن تكون هذه العلاقة الصدامية مع الدولة علاقة كارثية على الجميع.

زادت الدولة من استبدادها، وأصبحت جسماً قوياً في عضلاته، وعال على غيره في كل شيء، وضعف المجتمع المدني، وتم القضاء على القوى الحية فيه.

ليس هناك من سبيل للخروج من هذا المأزق سوى الاتفاق على نبذ العنف من الطرفين، والاعتراف المتبادل وفسح المجال للسان والبيان. فحيثما يكون هناك استقرار منشؤه العمل من أجل الصالح العام والتنافس البريء، وليس منشؤه الخوف المولّد لليأس، يصبح ممكناً؛ - ونقول ممكناً؛ لأن الاستقرار شرط ضروري وليس

كافياً- الحديث عن التفوق العلمي والتفوق الاقتصادي والأمن الاجتماعي. وهي معركة تنموية متعددة الجوانب، تفترض خطة استراتيجية يعمل الجميع على إنجازها.

ولكن الخطاب الإسلامي انقسم على نفسه، فمن داع إلى التغيير بالقوة، ومن داع إلى الاكتفاء بأسلوب الحكمة والموعظة الحسنة، وكل يستدعي ما استطاع من الأدلة الشرعية، في حين أن المسألة ليست مسألة أدلة بقدر ما هي مسألة اختيار الأسلوب المناسب للحالة المناسبة، فطبيعة الحالة هي التي تحدد طبيعة الأسلوب وليس العكس، فضلاً عن أن اختيار أسلوب معين يجب أن يكون مشروطاً بتنمية ما تم من إنجازات على طريق الإصلاح لا أن يأتي عليها، فينطبق علينا قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (النحل:٩٢).

فالإصلاح الحقيقي هو الذي يُبنى على التجربة المتراكمة ذات البعد الاستراتيجي وليس الذي يبنى على المصالح الحزبية الضيقة.

لاشك أن القوى المتربصة لا ترضى بهذا الحل، وستعمل جاهدة على أن يظل الحريق مشتعلاً بين كل الأطراف الفاعلة في المجتمع، فالمطلوب أن تظل المجتمعات الإسلامية منهكة بصراعاتها وما ينتج عنها من جراحات وأمراض، وكما قال عبد الرحمن الكواكبي: لو كان الاستبداد(*) رجلاً وأراد أن ينتسب لقال: «أنا الشر، وأبي الظلم، وأمي الإساءة، وأخي الغدر، وخالي الذل، وابني الفقر، وبنتي البطالة،

(*) ليس للاستبداد مصدر واحد، فهو ثقافة مشتركة – وللأسف- بين كل الأطراف، إنه الأمر الأكثر عدالة في التوزيع.

وعشيرتي الجهالة، ووطني الخراب»[1]، فهل يستطيع مجتمع بمثل هذه الأمـــراض أن يتطور من إمكانياته الذهنية والعلمية ويحسن من أسلوب حياته، فضلاً عن أن يكون قادراً على المنافسة ويفرض نفسه بوصفه مجتمع خير أمة أخرجت للناس؟

لقد أصبـــح من الضروري تجـــاوز هـــذه الثنائية، التي أهـــدرت الطاقـــات، وبددت الأموال، فرسخت بذلك الاستقالة الحضارية للأمة، وأفرغتها من رصـــيدها العلمي والمادي.

- ثنائية العلوم المدنية والعلوم الدينية:

منذ أن بدأ المسلمون التفكير في إصلاح أوضاع مجتمعاتهم جعلوا مـــن التعلـــيم حجر الزاوية في عملية الإصلاح، فسعوا أولاً إلى إدماج العلوم العصرية في بـــرامج التعليم في المؤسسات الإسلامية التقليدية، ولكنهم جوبهوا بمعارضة من غالبية فقهاء تلك المرحلة، أولئك الفقهاء الذين رفعوا شعار صون الدين والعقيدة، بعضهم عـــن حسن نية أو سوء فهم أو الاثنين معاً، معتقدين خطأً أن الدين لا دخل له في الشأن العام؛ طوروا عن غير وعي منهم ما يمكن أن نسميه بالعلمانية الدينية، وبعضهم من أجل المحافظة على موقعه الاجتماعي المميز مع علمهم أن هذا الموقع الاجتماعي الذي كانوا يتمتعون به في المجتمع التقليدي آيل إلى التهميش إن لم نقل إلى الزوال، بدليل أن علماء الجامعة الزيتونية، على سبيل المثال، الذين عارضوا مشاريع إصلاح التعليم الزيتوني قد سارعوا إلى إلحاق أبنائهم بالمعاهد العصرية، التي تخرجت منها النخبـــة الحديثة، حيث أصبح عدد منهم فيما بعد من أعمدة المدرسة العلمانية في أشـــكالها الأكثر تطرفاً؛ تلك المعاهد التي كانت نواة الجامعات العصرية في العالم الإســـلامي والتي بدأت تدريجياً تتخلص من البرامج ذات المحتوى الديني.

---

(١) علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب (بيروت: المطبعة الأهلية للنشر، ١٩٧٨م) ص١٧١.

فإذا كانت نهايات القرن التاسع عشر قد شهدت الدعوة إلى إدخال العلوم المدنية في المؤسسات العلمية التقليدية، فقد شهدت نهايات القرن العشرين الدعوة إلى إدخال العلوم الشرعية في الجامعات التي غلب عليها التوجه العلماني، فقوبلت بنفس القوة من الرفض، فبرزت بعض المؤسسات العلمية في العالم الإسلامي التي سعت إلى تحقيق فكرة الدمج بين العلوم؛ وهي تنطلق من ضرورة الجمع بين العلوم، بحيث يمكّن الطالب من التحصيل العلمي المزدوج، تكوين في العلوم الشرعية وتكوين في العلوم الإنسانية، ولعل الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا تعتبر التجربة الأبرز في هذا المجال، بالرغم من أن فلسفة التكامل بين العلوم التي تنتهجها هذه الجامعة تتجه عملياً نحو نوع من التعايش بين تخصصات شرعية وإنسانية يربط بينها خيط رفيع يتمثل في التخصصات الفرعية المكملة للتخصصات الأساسية، مع محافظة كل فرع من هذه الفروع المعرفية على مقدماته الأصلية في إطار التصور الوضعي.

هذا التنافي المتبادل، الذي طغى على ساحتنا المعرفية جعل العلوم الشرعية تبقى رهينة التصورات التقليدية، وجعل العلوم الإنسانية تبقى رهينة التصورات الوضعية، فنتج عن هذا التصور نخبة مفكرة يغلب عليها حالة من التشظّي المعرفي، متعددة المرجعيات ومتنافرة المقاصد.

من أين جاء هذا التفريق بين العلوم الشرعية والعلوم الإنسانية؟ ولماذا استأثرت العلوم المتعلقة بفهم الكتاب بصفة الشرعية؟ ألا يتعبد الباحث وهو يبحث في الإنسان أو يبحث في الطبيعة، طبعاً على شرط أن يكون بذلك طالباً لرضا الله ومنفعة العباد ؟ ثم ما الفائدة من علم بالكتاب لا أثر له في فهم الطبيعة وكيفية التعامل معها ولا أثر له في فهم الإنسان والمجتمع؟

ما اصطلح عليه بالعلوم الشرعية ضروري لكل علم، ولكنه لا يمكن اعتباره علماً قائماً بذاته. بهذا المعنى كل العلوم شرعية طالما أنها تسعى إلى معرفة الله وتوثق الصلة به. فشرف العلم يستمد من الغاية التي يسعى إليها وليس من صفته المجردة.

ليس معنى ذلك أن نتوقف عن تعلم العلوم الشرعية أو العلوم النصية؛ لأن هذه العلوم ضرورية بنفس الدرجة التي هي ضرورية العلوم الأخرى، بل هي أساس كل علم، ويجب على كل باحث مسلم أن يتزود منها حتى تكون أبحاثه تتحرك في إطار عقيدة التوحيد منطلقاً وغاية.

لقد كنت دائم التساؤل حول غياب مقررات خاصة بالوضعية في معظم الجامعات الغربية بينما نجد الفلسفة الوضعية من حيث هي قاعدة للتفكير، حاضرة في كل مقرر، فبالرغم من اختلاف المقاربات وزوايا النظر فإن الإطار العام للتفكير إطار واحد، فلا خلاف في التصورات العامة حول الوجود والكون والإنسان في كل التخصصات العلمية، حتى حركة النقد التي عرفت باسم ما بعد الحداثة لم تخرج عن الإطار العام للفلسفة الوضعية. في حين أن مناهج التعليم في العالم الإسلامي بكل أنواعها تفتقد إلى هذا الإطار الفلسفي الموحد.

لطالما ألح عليَّ السؤال حول الحكمة من تفصيل القرآن لأحكام الدين بينما اكتفى بإشارات عامة عندما يتعلق الأمر بالطبيعة أو الإنسان، وأقدّر - والله أعلم- أن الله أراد من المؤمن أن يفرغ جهده في معرفة أسرار الطبيعة وأسرار نفسه وأن يتقبل بنفس مطمئنة ما أمره بفعله وأن يترك الخوض في الجزئيات التي لا تؤدي في النهاية إلا إلى بلبلة الأذهان وغياب الفعل.

بهذا المعنى، فالعلم سواء كان موضوعه كتاب الله أو الطبيعة أو الإنسان هو علم شريف تُشدّ إليه الرحال، ولذلك عندما قال النبي ﷺ: « **طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ...**»[1] - وما أظن أن العلم المفروض هو علم يتعلق بالكتاب والسنة فقط، وإن كان ذلك ليس محالاً من الناحية النظرية- كان يتحدث عن العلم في معناه الشامل، بل إني أظن- وليس كل الظن إثم - أن العلم الذي يجب أن تشد إليه الرحال هو العلم المتعلق بالطبيعة وبالإنسان، أما العلم بالأحكام فقد فصل فيه الكتاب والسنة من أجل أن يتربى عليه الإنسان وليس من أجل صرف العمر في تحصيل الحاصل واستفراغ الجهد في الخلافات الفرعية، وما نشهده من تكاثر لطلبة العلم، فبما يطلق عليه عادة العلوم الشرعية، وكذلك ترك الكثير من أصحاب الاختصاصات الأخرى مجالات تخصصهم لينخرطوا في المعركة الوهمية المتعلقة بإعادة قراءة النص الديني - وهو حق أريد به باطل- حيث توهمت النخبة أن نهضة الأمة أصبحت رهينة تجاوز هذه المسألة، بدل أن يبدع كلٌّ في مجاله في ظل الهدي القرآني، ذلك دليل على أن الأولويات المقلوبة هي التي هدرت الطاقات الذهنية والإمكانات البشرية في غير مجالها.

متى كان الإسلام، الذي حث على النظر والتدبر، عقبة أمام التقدم العمراني حتى يستوجب ذلك عقد سلسلة لا نهاية لها من المؤتمرات حول الإسلام و التنمية؟ ومتى كان الإسلام الذي أسس للشورى وأمر بالالتزام بها - حتى في الحالة التي لا تؤتي ثمارها المرجوة كما في غزوة أحد - عقبة أمام الديمقراطية الحقيقية، ليصبح الإسلام والديمقراطية إشكالا تتبارى الأقلام في إيجاد حل له؟ وغرق المفكرون المسلمون في

(١) أخرجه ابن ماجه.

مستنقع الجدل النظري المتسم بتقليد الموروث وتقليد الوافد في الأسئلة المثارة والأجوبة المقترحة، فأحبط بذلك العمل وصار الفعل انفعالاً والنظر جدلاً بلا ضفاف.

لن يصبح العقل الإسلامي مبدعاً إذا ظل يبحث في أسئلة الآخرين ويتعقب أجوبتهم. فبنظرة سريعة في الإشكاليات التي نخوض فيها في عالمنا الإسلامي، نجدها في معظمها صدى لحاجات الآخرين، إما حاجات من سبقنا من الأجيال في زمن قوتنا، أو حاجات أقوام معاصرين لنا يسعون إلى المحافظة على ضعفنا الذي هو من بين أسباب قوتهم، فنتائج التقليد واحدة، سواء كان تقليداً للماضي أو تقليداً للحاضر الغالب.

إلى متى سيظل العقل الإسلامي يفكر بالنيابة؟ وهل يمكن أن يكون التفكير بالنيابة تفكيراً أصلاً؟ إنه مجرد استعراض لأفكار الآخرين في صياغات مختلفة.

من المؤكد أن التكوين العلمي المزدوج خطوة متقدمة في سبيل ترسيخ المنطلقات التوحيدية للعلم، ولكن ذلك يظل محدود الفاعلية؛ ليس معنى ذلك انتفاء التخصصات الدقيقة ولكن الهدف أن تكون هذه التخصصات مشتركة في المبادئ المؤسسة لها، وفي الغايات والقيم الأخلاقية، التي في ضوئها يتم توظيف نتائج العلم، ومستقلة في موضوعاتها وفي أدواتها المنهجية. لقد سخّر المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن والمراكز الفكرية والمؤسسات الجامعية المتعاونة معه في الوطن العربي والعالم الإسلامي جهوداً معتبرة لتأصيل المعرفة وإنتاجها وفق تصور يجعل من فكرة التوحيد الأصل الذي منه تنطلق وإليه تعود مختلف المعارف العلمية، سواء تعلقت بعالم الشهادة أو بعالم الغيب. هذه الفكرة في حد ذاتها فكرة محورية يجب في تقديرنا أن تكون منطلقاً لكل تفكير جدي يهدف إلى إصلاح الفكر وإصلاح النظام القيمي الذي يكاد يهتز أمام الزحف الجارف للمادية المنحرفة.

ولكن، كل فكرة تفقد خصوبتها إذا تحولت إلى خانة ضيقة تُخنق فيها الأسئلة وتُغتال فيها المبادرة؛ لأن المشروع الفكري بطبعه يكره التقولب ويرفض الاستقطاب، والحقيقة في تعيّنها الإنساني عادة ما تكون موزعة بين أطراف عديدة، والبحث عن متقابلات ثنائية متنافرة يقتل الحوار ويحُد من إمكانات الإبداع والخروج من التخلف الموروث والتخلف المفروض.

- ثنائية الهوية والانفتاح:

لا نبالغ إذا قلنا: إن الإنسانية لم تعرف حضارة لها قدرة على استيعاب الوافد وإعادة صقله وفق معاييرها الخاصة مثل الحضارة الإسلامية، في حالة القوة كما في حالة الضعف، فقد جمعت بين الخصوصية وبين التنوع، ويعود ذلك إلى أنها تأسست على دين الفطرة، الذي استعاد تراث الأنبياء بعد أن قام بتصحيحه وتنقيته من الإضافات التحريفية، قال تعالى: ﴿ ۞إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (النساء: ١٦٣-١٦٦).

هذا الأساس المتين هو الذي أعطى للإسلام هذه القابلية على هضم التجارب الإنسانية الماضية واللاحقة، وهذا ما لا يستطيع أن ينكره مكابر، وكما قال

«جولد زيهر»: «إن الإسلام قد أكد استعداده وقدرته على امتصاص الآراء وتمثلها. كما أكد قدرته كذلك على صهر تلك العناصر الأجنبية كلها في بوتقته، فأصبحت لا تبدو على حقيقتها، إلا إذا حللت تحليلاً دقيقاً، وبحثت بحثاً نقدياً دقيقاً»[1].

فهذه القدرةُ والقابليَّة لاستيعاب ما استقام من قيم الحداثة وهضمها، وتشكيلها من جديد وفقَ معاييره، ومنطلقاته الأساسيَّة، كانت سبب التصرُّف الهستيري للتيارات اللادينيَّة تجاه الإسلام والمسلمين، فلم يقبل الإسلام سياسة الانحناء للعاصفة؛ لأنَّ الانحناء لا يولِّدُ إلاَّ الآراء والتصوُّرات المحدَّبة؛ ولأنَّ العاصفة؛ لن تكون في كل الأحوال مؤقتة؛ وبما أن الإسلام هو دين الفطرة التي فطر الناس عليها فلا حاجة له لكي يستمر في التماهي مع كل أشكال التعبير الإنساني المتغيرة. فمهما بدا الانحراف عن الفطرة وكأنه الأصل وما عداه استثناء، فإن الإنسانية ستكتشف - ولو بعد حين وبعد أن تشقى بسعادتها المادية- أن الإسلام هو دين التوازن، وهو النمط المناسب لطبيعة الإنسان؛ ومن يعرف طبيعة المخلوق أكثر من الخالق؟

ولذلك فإنه لا خوف على الهوية الإسلامية من الانفتاح على (الآخر).

إن الذين يعارضون انفتاح المسلمين على غيرهم عادة ما يستشهدون بالمآل الذي آلت إليه الأديان الأخرى، ولكنهم نسوا أن هذه الأديان تحمل في ذاتها قابلية الذوبان، وبالفعل فقد أدت سياسةُ الانحناء بالأديان الأخرى إلى الانصهار كلية أو تكاد في الأنماط المادية، حيثُ تداخلت فيما بينها إلى حدٍّ فقدانها المميِّزات التي تميِّزُ بعضها من بعض، وانصهرت في النِّظام العلماني إلى درجة الانحلال الكلِّي،

---

(١) أجنتس جولد زيهر، العقيدة و الشريعة في الإسلام، الترجمة العربية: محمد يوسف موسى، علي حسن عبد القادر وعبدالعزيز عبدالحق، ط٢ (القاهرة: دار الكتب الحديثة ١٩٥٩م) ص١١.

ففقدت أثَرَها في توجيه الحياة العامَّة وترشيدها، بخلاف الإسلام، فقد استطاع في مظهره الأغلب المحافظة على مقوِّماته الأساسيَّة، واستطاع بفعل هذه القدرة على الاستيعاب أن يحطِّم ثنائيَّة الدِّين والحداثة، وبرزت أجيالٌ جديدة لا تعرف فرقاً بين الالتزام الدِّيني وبين إمكان التفوُّق في المجالات كلِّها، و لم تشعر أن قيم الدين التي تؤمن بها تشكل عائقاً أمام البحث العلمي، فلم يكن من السهل على المخيِّلة الغربيَّة أن تقبل تجاوزَ الإسلام لهذه التقابليَّة، فتمكَّن منها الخوف والحذر في تعاملها مع المسلمين، وظلَّ أصحاب الشَّوكة من صانعي القرار، يبحثون عن الحالات التي شذَّت عن المنطق العام للإسلام ليبرزوها ويضخِّموا من شأنها. وعلى الرغم من أنَّهم لم يبخلوا عليها بكلِّ أسباب التمكين والتأثير فإنَّ هذه الحالات لم تتجاوز السطح، وبقي العمقُ بمنأىً عنها، فسرعان ما تبدَّدت، وتلاشى أمرُها حين ظنَّ مهندسوها أنَّها قد استوت على الجودي.

منذ عقود خلت والمهتمون بالشأن الإسلامي من العلمانيين الغربيين ومن كان على شاكلتهم من المسلمين يبشرون بقرب الإعلان عن شيخوخة الإسلام وإحالته على التقاعد، وجربوا في ذلك كل السبل، وأنفق أصحابُ الشوكة من أصحاب الثروة التي نهبوها وأعوانهم المبالغَ الطائلة، ولكن كما قال الله سبحانه و تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ (الأنفال:٣٦).

قالوا: إن الإسلام يناهض العلم والعلماء، ولما تبين لهم سوء ظنهم، قالوا إن القيم الدينية التي استطاعت أن تصمد أمام نزعة التحرر الجارفة ليس لقوة ذاتية كامنة فيها

ولكن بسبب ترسخها العميق في اللاّوعي الجمعي، فالمسألة لا تزيد عن كونها مسألة وقت، فبمجرد انتهاء الجيل المخضرم الذي لم يتشبع بقيم الحداثة، سيأتي الجيل الذي يقطع مع الدين والتقاليد بحكم تعلمه في المدارس العصرية، ولكن الخيبة كانت أكبر، ففي المدارس العصرية التي كانت المراهنة عليها كبيرة، نشأت الصحوة الإسلامية، وتربى شباب، وتخرجت فئات جديدة من المثقّفين استطاعت أن تجمعَ بين انتمائها الدِّيني وتحصيلها العلمي، بل ترى في التَّحصيل العلميِّ عبادةً في حد ذاته.

وراحوا يبحثون عن تعلات جديدة من نوع: أنَّ المُعدمين عادةً ما يستهويهم التِّيه في خيالات الدِّين، وأنَّ الأمر يحتاج إلى وقت أطول حتى يتمَّ تخفيفُ هذه الينابيع التقليديَّة. و لم يفهموا بعدُ قدرة الإسلام العظيمة على التأقلم مع الظروف الطارئة وإجهاض كل الاستراتيجيات الرامية إلى وأده. فليس هناك ما يبرر الانغلاق على الذات بدعوى المحافظة عليها، فقد أثبتت ما يسمى باستراتيجية التحصين السلبي فشلها، فضلاً على أنها لم تعد ممكنة في زمن انفتح فيه كل شيء على كل شيء.

فلم يعد مقبولاً أن يكون الدفاع عن الهوية بفرض رقابة على الآراء المخالفة في الدين كما في السياسة، فكما أنه من الطبيعي أن نطالب بالحرية للمؤمن يجب أن نحمي حرية غير المؤمن، بغض النظر عن كونه من الوافدين أو من أبناء المجتمع الإسلامي، الذي لم يعد يرى في الدين ما يلبي حاجته الوجودية أو الحياتية، فكل أنواع الاستبداد، سواء كانت باسم السياسة أو باسم الدين مرفوضة شرعاً وعقلاً.

أمر واحد يُشترط على الجميع في نقدهم لعقائد (الآخرين) هو الالتزام بالآداب وعدم التجريح والسخرية. وقد قال الشيخ أبو الأعلى المودودي كلاماً في هذا الشأن جدير بالتأمل والتدبر: «سيكون لغير المسلمين في الدولة الإسلامية من حرية الخطابة

والكتابة والرأي والتفكير والاجتماع ما هو للمسلمين سواء بسواء، وسيكون عليهم من القيود والالتزامات في هذا الباب ما على المسلمين أنفسهم، فسيجوز لهم أن ينتقدوا الحكومة وعمالها، حتى رئيس الحكومة نفسه ضمن حدود القانون؛ سيكون لهم الحق في انتقاد الدين الإسلامي مثل ما للمسلمين الحق في نقد مذاهبهم ونحلهم، ويجب على المسلمين أن يلتزموا حدود القانون في نقدهم هذا كوجوب ذلك على غير المسلمين؛ وسيكون لهم الحرية كاملة في مدح نحلهم فإن ارتد - أي المسلم - فسيقع وبال ارتداده على نفسه، ولا يؤخذ به غير المسلم، ولن يُكره غير المسلمين في الدولة الإسلامية على عقيدة أو عمل يخالف ضميرهم، وسيكون لهم أن يأتوا كل ما يوافق ضميرهم من أعمال ما دام لا يصطدم بقانون الدولة»[1].

هذه الثقة، وهذا العزم الصادق منشؤه الاعتقاد في أن الإسلام لن ينهزم في معركة فكرية أبداً، لن يرتد مسلم سويٌّ بعد أن ذاق طعم الإسلام إلا أن يكون طامعاً أو جاهلاً أو مُحبطاً، وفي كل الحالات تقع المسؤولية على المسلمين وليس بسبب الحرية التي من المفروض أن يتمتع بها المعارضون بكل أصنافهم. وعلى المسلمين أن يعتبروا من الواقع الذي يعيشونه اليوم.

لقد اختُزِلت عبقريَّة العالم - المتحضر مع نفسه، المتوحش مع غيره - في كيفية مواجهة وتعطيل كلِّ محاولات النهوض الفكريِّ والعلميِّ والسِّياسيِّ والاقتصاديّ، ومع ذلك ظلت هذه الأمة واقفة، وظل الإسلام يجدد طاقته باستمرار، وازداد التمسك به والإقبال عليه في مجتمعات غير مجتمعاته التقليديَّة، كان يُظن أن المعركة

(١) أبو الأعلى المودودي، نظرية الإسلام و هديه في السياسة والقانون (بيروت، دمشق:دار الفكر، ١٩٦٤) ص٣٦١.

حسمت نهائياً لصالح التيارات اللاّدينية، وهيمنت فيها قيم العلمانية والحداثة المنفلتة عليها. فقدَ فقهاءُ العلمانيَّة صوابهم، وتخلّوا عن قيم الحريَّة الفرديَّة التي طالما تغنَّوا بها، ولجأوا إلى قوَّة السلطة لقمع نزعة التديُّن الفطريَّة في الإنسان. ففقهاء العلمانية لما اقتنعوا - مرغمين - أنَّه لا سبيل إلى مواجهة الإسلام برمته، عمدوا إلى نواته يفتِّتونها، فحاول بعض منهم أن يجعل من الإسلام إسلامات: إسلامٌ الشعوب وإسلامٌ للحكام، إسلامٌ للنُّخبة وإسلامٌ للعلماء، إسلامٌ حضاري وإسلامٌ غير حضاري، إسلامٌ شرقيّ وإسلامٌ غربيّ... والقائمة تتناسل وتتسلسل باستمرار.

ولكنَّ الإسلام، وبحكم منطقه الداخلي الذي يحكمه، لفظَ وسيلفظ كلَّ هذه النوابت، وأخفقت كل محاولات تبعيضه كما أحبطت كل محاولات تجاوزه من خارج إطاره العقائديّ، استوت في ذلك القراءات الحَرفيَّة والقراءات المحرَّفة. ولكن بدل أن يعتبر المسلمون من هذه الحالة ويزدادون ثقة بأنفسهم، نرى بعضهم يحذر من العولمة ومن أخطارها، بالرغم من علمهم أن مسألة خيار الانخراط فيها أو عدمه تتجاوز قدراتنا المادية والتقنية، ويرسخ التقابل بين عالمية الإسلام وبين العولمة.

- ثنائية العولمة والعالمية:

خلافاً لما يُعتقد، وبالرغم مما يبدو في الظاهر، فإن صمود الإسلام في مرحلة العولمة سيكون أيسر من صموده في مرحلة ما قبل العولمة؛ لأن العولمة بالرغم من ضخامة الوسائل التقنية التي تستخدمها في بسط نفوذها وبالرغم من كونها حركة كاسحة، ولكنها تتحرك بدون روح، فاقدة لعناصر الجذب والفعالية التي كانت متوفرة في مرحلة ما قبل العولمة. ومعلوم أن الوسائل المادية المتطورة يكون تأثيرها محدوداً إذا كانت فاقدة لرسالة تقدمها للعالم، ومن هنا وجب النظر في القيم التي

ترسخت في عصر العولمة، وبيان أثرها في تكوين شخصية ما يمكن أن نطلق عليه «المواطن العالمي».

لنتوقف أولاً عند مفهوم العولمة، ثم نتبين القيم التي تدعو إليها، ونقارن بينها وبين قيم مرحلة ما قبل العولمة، وتجنبنا أن نطلق عليها صفة العالمية حتى لا يلتبس الأمر على القارئ فيخلط بينها وبين العالمية الإسلامية(*) . ونصل بعد ذلك إلى إثبات الفرضية التي انطلقنا منها والتي تزعم أن مستقبل الإسلام سيكون في ظل العولمة.

تعددت التعريفات وتنوعت، ولكن هناك اتفاقاً على أنّ العولمة تجسيد لإرادة القوى الكبرى في الهيمنة على الآخرين، أو بالأحرى للقوة الأكبر التي تسعى إلى تحويل العالم إلى مجتمع كوني واحد، تحكمه القوانين نفسها وتوجهه القيم ذاتها، وذلك من خلال التحكم في الاتصال: وسيلة ومضموناً، والتحكم في الاقتصاد: إنتاجاً وتسويقاً، والتحكم في التقنية: تصميماً وإنتاجاً. وأصل هذه التحكمات، التحكم في العلم والتحكم في الثروات. إذا انطلقنا من هذا التعريف، كيف إذاً يستقيم القول: بأن حال الإسلام في العولمة سيكون أفضل من حاله قبل ذلك، وما الإضافة التي يمكن أن يقدمها المسلمون في هذا المجال، حتى نزعم أن المسلمين بإمكانهم إذا وفروا الشروط اللازمة أن يستعيدوا تدريجياً دورهم الحضاري؟

وما الشروط التي يجب أن تتوفر؟

(*) الثقافة العالمية، ثقافة نامية ومتفوقة، سمت إلى المستوى العالمي مع احتفاظها بصفاتها الذاتية وهويتها الخاصة، ولأنّ الآخرين أشادوا بها أصبحت عالمية، فصفة العالمية استحقاق تحصل عليه ثقافة ما من الآخرين، أمّا العولمة فصفة تطلقها حضارة على نفسها وتفرضها على الآخرين. ونرجو من القارئ الكريم أن يستحضر هذا المعنى كلما مرّ به حديث عن العالمية، فكل ثقافة لها أن تدّعي أنّها عالمية، ولكن المعيار الحقيقي هل الآخرون يعتبرونها كذلك أم لا. وذلك هو معنى الاستحقاق، فصفة العالمية مجردة ليست بالضرورة إيجابية، والإسلام لا يتميز بعالميته بقدر ما يتميز بطبيعة عالميته التي يجب أن تكون رحمة للعالمين.

لقد سعت الحضارة الغربية في مرحلة ما قبل العولمة إلى مخاطبة العالم بلغة جذابة استطاعت أن تغطي بها ما اقترفته من آثام في حق الشعوب الأخرى، كانت تستهوي الأنفس بالحديث عن الرشاد العقلي وعن التسامح والحرية والعدل والإنصاف، وحاولت أن تتبع سياسة التفتح والانفتاح على الثقافات الأخرى مع التركيز على القيم التي تلتقي كلياً أو جزئياً مع قيم الغرب في محاولة للارتقاء بالجوانب الخاصة فيها إلى مستوى الثقافة العالمية، أمَّا العولمة فإنها لا تقوم على منطق الاحتواء ولكن على منطق الاختراق، لا تعير اهتماماً للخصوصيات الثقافية، بل تهدف إلى محوها وبالتحديد تلك الخصوصيات التي تساعد الثقافات الأخرى على الصمود والمواجهة والمحافظة على ثوابتها.

في مرحلة ما قبل العولمة سعت الحضارة الغربية إلى تكوين وعي عام، يقوم على القناعة الطوعية للأفراد والجماعات بضرورة الاتساق الجزئي أو الكلي مع قيمها. أمَّا في مرحلة العولمة فلم يعد مهمًّا أن يكون الفرد مقتنعاً أو غير مقتنع، بل من الأفضل أن يكون وعاءً يستقبل ويستفرغ دون أن يكون واعياً بالفرق بين العمليتين، وهذا يعني كما يقول عبد الوهاب المسيري «اختفاء العقل، أي الملكة التي يقوم الإنسان من خلالها بمراكمة المعنى والإنجازات، ويظهر ما سماه أحدهم ذاكرة الكلمات المتقاطعة، أي المعلومات المتناثرة التي لا يربطها رابط، وينشأ الإحساس بأننا في الحاضر الأزلي، تغيُّر مستمر بلا ماض ولا مستقبل، تجارب دائمة بلا عمق ولا معنى، ويتحول التاريخ إلى مجرد لحظات جامدة، وزمن مسطّح لا عمق فيه، ويتزامن الحاضر والماضي والمستقبل، ويتساوى الجميع تماماً مثل

تساوي الذات والموضوع والإنسان والأشياء. ولكنه تزامن دون استمرار، فثمة انقطاع كامل»[1].

لم يعد للإنسان قصد في مشيه وغاية تتجاوز، المهم أن يمشي ولا يتوقف، ويجب ألاّ يتوقف؛ لأنه إذا توقف قد يتساءل عن سعيه الذي يسعى، المهم أن يظل تائهاً وسط حركة لولبية فارغة من كل معنى، لا همّ له إلا إشباع غرائزه البهيمية. وهنا تكمن مواطن الضعف في إنسان العولمة، وهنا أيضاً تكمن المواطن التي من خلالها يمكن أن يقدم المسلمون إضافة نوعية، لأن الإباحية أو ثقافة «الحيوان السائل» كما يحلو للمسيري أن يسميه ليست مجرد انحراف أخلاقي أو نزوة منفلتة ولكنها استراتيجية منظمة لتغيير الطبيعة البشرية، وبرنامج عمل في مجالات متعددة من أجل نسف ما تبقى من معايير خلقية بدعوى التسامح والدفاع عن مظاهر الشذوذ التي يُصرّ المدافعون عنها على اعتبارها شكلاً من أشكال التعبير عن الذات البشرية المتغيرة بطبعها. وتم اختزال الذوق الفني في متعتي الغذاء والجنس بعد أن تم تجريدهما من لباس التقوى.

قد يقول قائل: لماذا هذا الإصرار على اعتبار «السيولة» في معناها الشامل الحلقة الأضعف في الحضارة الغربية في مرحلتها الراهنة؟ لاشك أن «السيولة» ليست مقطوعة الصلة بالأسس الفلسفية للحداثة، نشأة وتطوراً، ولكنها لم تتحول إلى ثقافة نجد بصماتها في كل إنتاج أدبي أو فكري أو فني إلا في مرحلتها الراهنة، بل أصبحت في حد ذاتها الغاية القصوى من الوجود، ليس معنى

---

(١) عبدالوهاب المسيري، فتحي التريكي، مرجع سابق، ص ١٦٤.

ذلك أن الحضارة الغربية في مرحلة ما قبل العولمة لم تعرف أشكالاً من الإباحية، ولكن كانت تملك إلى جانب ذلك العديد من المقومات الجذابة التي أبهرت الذين تعرفوا على تعيُّناتها الواقعية، ومن هنا لم يكن من السهل استيعابها دون أن تحدث شروخاً في بنية الحضارة الإسلامية مازلت ماثلة إلى اليوم، وتطلبت جهوداً مضنية من أجل الإحاطة بها.

من الركائز التي قامت عليها، تلك القيمة التي أعطتها للإنسان ولقدراته العقلية، والأهمية التي أعطتها لمبدأي العدل والحرية. يجب أن ننظر إلى هذه المقومات في زمن تبلورها وما أعطته من شحنة للفعل، ولا نتوقف فقط عند مآلاتها الحاضرة أو نتوقف فقط عند الكيفية التي تعامل بها الإنسان الذي يصف نفسه بالمتحضر مع غيره من الشعوب، لقد أعادت الحداثة الإنسان المسيحي إلى دائرة الفعل في حين أن المسلم كان قد خرج منها منذ زمن بعيد.

فليس من السهل على أمة أن تستيقظ من سباتها و تسعى لاستعادة دورها الحضاري والإنساني في وقت توالت ضربات (الآخر) المنتصر والمزهو لما حققه من نتائج مادية باهرة وفي وقت ساد فيه الاعتقاد الخاطئ بأن ثمة حتمية كونية تفرض نفسها على الجميع، إنَّها حتمية التدهور المستمر، من التوحيد، إلى الفجور، إلى الكفر، فالتاريخ يتجه منحدراً من الأحسن إلى الأسوأ. فبقدر ما يتعد الإنسان المسلم زمنياً عن العصر الذهبي الإسلامي بقدر ما تزداد وتيرة سقوطه، ساعدت الحالة التي كانت تعيشها شعوب الجنوب في مفهومه الاقتصادي الواسع على عدم الربط بين وقوع حدثيْن في غاية الأهمية في التاريخ الغربي، ففي الوقت الذي كان فيه الفيلسوف الفرنسي يؤسس لمبادئ العقل كانت جيوش أوربا الغربية تقوم بإبادة

الهنود الحمر في أمريكا و بناء المستعمرات التي ستصبح فيما بعد الولايات المتحدة الأمريكية، كما لاحظ ذلك الفيلسوف الفرنسي «ميشال سار»، صاحب الحس النقدي العالي.

أما انتصارات إنسان العولمة في العالم الإسلامي اليوم فلا يصاحبها الإعجاب بل يصاحبها الامتعاض والازدراء بعد أن نُزِعت عنه مساحيق الاستنارة وبانت وحشيته في تعامله مع العالم الإسلامي، تذكّر بوحشيته مع السكان الأصليين. لقد أفقدت العولمة بريق الاستنارة و لم يبق لها من عوامل الجذب إلا الجوانب المادية والاستهلاكية، التي استطاعت أن تحافظ على نفس الوتيرة من التقدم المستمر مستغلة في ذلك ما استولت عليه بصورة مباشرة وغير مباشرة من مقدرات الشعوب المغلوبة على أمرها.

وليس من السهل على أمة انتشرت فيها ثقافة التقليد والاتباع والانصياع للخرافات والزهد في المفقود الذي عجزت عن إيجاده؛ لأن الزهد فيما لا نملك لا معنى له، ليس من السهل عليها بعد أن كانت عن جدارة حضارة العقل والكتاب أن تصمد أمام العقلانية الغازية ولكنه من اليسير عليها أن تعيد صياغة العقلانية في زمن العولمة، الذي انزوى فيه العقل وأصبح مجرد عقل أداتي تتحكم فيه الغريزة عوض أن يتحكم فيها، أضحت الأمور عنده كلها متساوية، فلم تعد هناك معايير يحتكم إليها، حيث أصبحت النسبية المعرفية والأخلاقية والجمالية مجال تحركه التائه، ففقد القدرة على التجاوز، وأصبح همه الأساسي التأقلم والتكيف مع واقع بدا وكأنه لا يخضع للضبط والترشيد. وهو ما يبرر قولنا بإمكان أن تكون لها إضافة نوعية في ترشيد النظر العقلي بحيث تبلغ بالعقل

النقدي الذي حاولت أدبيات مدرسة فرانكفورت أن تؤسس له دون طائل لأنها لم تجرؤ على اختراق أسوار التصورالحداثي، أن تبلغ به مداه، وذلك بربط الصلة بينه وبين المتعال الديني من جديد، وتسليحه بالمعايير التي تحرره من التصور المادي للعقل وتسمح له بفقه سر الوجود الإنساني.

ليس من السهل على حضارة كانت تشهد صوراً من الظلم الاجتماعي والاستبداد السياسي، أن تصمد في وجه حضارة جعلت من الحرية والعدالة الاجتماعية رأسمالها الرمزي، حيث مثل التبشير بهذه القيم عوامل جذب ذات مفعول سحري غطت على المظالم التي ارتكبت في شعوب بأسرها، ومع ذلك استطاع الإسلام أن يثبت قدرته على مقاومة الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي وأن يستثمر ويستوعب هذه القيم. فلماذا إذاً الخوف من العولمة وقيمها وهي لا تملك عناصر الجذب التي توفرت في المرحلة التي سبقتها؟

فالمسلمون بإمكانهم أن يكونوا أكثر فعالية في ثقافة العولمة التي قامت على فكرة الخلاص الفردي والبقاء للأقوى، حيث انحصر تفكير الفرد في همومه الذاتية، وألغى من قاموسه مصطلح التعاون، واستولى عليه الخوف من المستقبل، لأن العولمة أعادته إلى مرحلة الرأسمالية، مرحلة توحشها، مع ملاحظة الفارق.

فالقيم الاجتماعية التي كانت سائدة حينئذ كانت قوية، بل استطاعت الحركات الاجتماعية أن تحقق الكثير من المكاسب وتنتزع من الرأسمالية بعض الحقوق التي خففت من حدتها. ويخطئ من يتصور أنه بسقوط المعسكر الاشتراكي الذي لم يحقق شيئاً للفقراء، قد أُقفل ملف العدالة الاجتماعية نهائياً.

إنّ المكاسب الاجتماعية التي تمّ تحقيقها في إطار الصراع بين الرأسمالية والاشتراكية مهدّدة بالزوال، وسيزداد عدد المحرومين من الشغل وتزداد المشكلات الاجتماعية المتفاقمة أصلاً. فالذي يفقد عمله مثلاً تنسدّ أمامه الآفاق وتبدأ رحلة عذابه، وعندما «يُحكم» على أحد بالطرد من العمل فكأنما حكم عليه بالإعدام. من هنا نفهم لماذا تسعى المنظمات الاجتماعية والإنسانية إلى مقاومة سياسات العولمة، خاصّة تلك المتعلقة بالاتفاقيات التجارية الدولية، لأنّهم يعرفون أنّ تضخم الشركات الاقتصادية العالمية سيكون على حساب الدولة، وضعف الدولة سينتهي بها إلى التخلص من التزاماتها الاجتماعية.

يقدم «جوزيف. أي. ستيكليتز» صورة معبرة حيث يقول: «الحرب التكنولوجية المعاصرة صُمّمت من أجل القضاء على كل احتكاك مادي. تُقذف القنابل من علو يتجاوز ١٥٠٠م حتى لا يحسّ الجندي الطيار ببشاعة الفعل الذي يقوم به. وكذلك الإدارة المعاصرة للاقتصاد فإنها تتبع نفس التكتيك، من أعلى غرفة في نزل فاخر، تُفرض سياسات تحتاج إلى تأمل مضاعف لو كنا نعرف عدد الذين سيكونون من ضحاياها»(١).

استطاعت الحضارة المادية في مرحلة ما قبل العولمة أن تكدس الأشياء والأفكار، ولكنها في زمن العولمة شيّأت كل شيء، وأفرغت كل شيء من معناه. ففي عالم بهذه البشاعة يستطيع الإسلام - لو فهم أهله التحديات الإنسانية المطروحة عليهم- أن يقدموا إضافة نوعية من أجل إعادة الوجه الإنساني للعالم،

(١) Josef. E. Stiglitz, **La Grande désillusion** (Paris: Fayard, 2002) P.52.

لأن هذا الوضع من شأنه أن يعمق قيمة الحياد السلبي، ولا يغرينا ما نراه من تضخم لوسائل الاتصال وتطور مذهل في هذا المجال، فقد تزامن ذلك مع تدنٍ متواصل في التواصل بين الناس. فماذا ينفع تكديس وسائل الاتصال مع غياب يكاد كلياً لقيمة التواصل.

قد يكون الفرد مالكاً أو مستخدماً لكل وسائل الاتصال الممكنة، الثابتة منها والمتنقلة، ولكنه في الوقت نفسه يكون جاهلاً لما يحصل في محيطه الضيق، تماماً مثل نزلاء الفنادق، يجمع أجسادهم المصعد الآلي ويفرقهم في غرفهم، ليدخلوا في عوالمهم الفردية، لا يسأل أحدهم عن الآخر، بل لعلّه لا يجد في نفسه ما يدفعه إلى التفكير في مسألة التواصل أصلاً. فحضور الآخر مرتبط بمدى أهمية المنفعة المادية الآنية التي يمكن أن تحصل نتيجة العلاقة به، فلم تؤد هذه الوسائل إلى تقوية الروابط الاجتماعية، وإنما جاءت لتقدم تسهيلات لتحقيق المزيد من المنافع المادية دون تحقيق التواصل الاجتماعي الذي عبَّر عنه القرآن الكريم بالتعارف، الذي يفترض الاعتراف (بالآخر) من أجل التواصل معه وليس فقط الاتصال السريع به. فأصبح كل شيء سريعاً ومؤقتاً، الصداقة مؤقتة، الجوار مؤقت، حتى الكيان الأسري أصبح مؤقتاً، فتعمقت بذلك قيمة الحياد السلبي بين الأفراد.

وأسهمت الصورة الإعلامية، التي ألغت القيمة من أدبياتها وركزت على حاسة البصر، أو بالأحرى على الفعل البصري العابر الفاقد لنظامه الرمزي، الذي تفكك بفعل المشاهد المتكررة والسريعة للعديد من الصور، ففي العالم الذي تطورت فيه وسائل الاتصال بكل تقنياته المستخدمة ينعدم التواصل الشعوري فضلاً عن التواصل

الاجتماعي، وتلك هي المفارقة التي يعيشها إنسان العولمة، فبقدر ما تنوعت وسائله في الاتصال بالآخر بقدر ما يحس بأن عالمه الشخصي يزداد ضيقاً يوماً بعد يوم، تحاصره فرديته وتخنقه وحشيته وفي الوقت نفسه يشعر بأنه يموج وسط فضاء لا حدود له.

ذلك ما يدعونا إلى القول: بأن العولمة بثقافتها السلعية ستكون إطاراً مناسباً لإعادة تفعيل القيم الإسلامية، فالعالم أصبح بحاجة إلى روح تعطي لفعله معنى وتعيد للإنسان مملكته الإنسانية. يجب على المسلمين أن يضعوا أنفسهم في موقع التصحيح، الذي يتطلب الاستفادة من مكتسبات التقدم التقني، والإضافة النوعية في مستوى القيم ولا يبقوا سجناء الأسئلة المزيفة، والعالم بحاجة لمن يرشِّد الاتصال بالتواصل المفضي للتعاون، والعالم بحاجة لمن يحرر الدفاع عن حقوق الإنسان من الضغط السياسي ومن المنفعة الاقتصادية، ويجعل التكريم الإلهي للإنسان في ذاته القاعدة التي تحكمها، وكل انتهاك لها مهما كان مصدره يجب أن يُدان ولا يكون الموقف تجاهها مرتبطاً بمصلحة مادية قريبة أم بعيدة، أو مرتبطاً بحساسية دينية أو سياسية؛ لأن الدفاع عن المظلوم أمر مقدس لذاته.

ليس هناك إذاً ما يدعو إلى القلق على عالمية الإسلام في ظل العولمة. ولكن من حق المسلم أن يخاف من زحف العولمة إذا ظل الإنسان المسلم فريسة للاستبداد السياسي وضحية للظلم الاجتماعي، ومن حقه أن يتساءل عن كيفية مواجهتها، فيختار الهروب من المواجهة والتقوقع على ذات ساكنة

غير فاعلة، في حالة ما إذا استمرت الأنظمة الحاكمة في سياساتها الأمنية لا همّ لها إلا تحقيق أمن أجهزتها بدلاً من تحقيق الأمان لمواطنيها، ولا شاغل لها إلا تحقيق «التوزيع العادل» للخوف بدلاً من تحقيق التكافؤ في الفرص وتوفير الظروف الملائمة تمكينا لهم من مواجهة التحديات العديدة التي تتعرض لها الأمة.

من هنا يبدأ الاستعداد للتعامل الإيجابي والمؤثر مع التغيرات الكبرى التي تجري في العالم. ومن هنا أيضاً تستمد العولمة قوتها استثماراً لضعف الواقع الإسلامي وهشاشته.

عندما يصبح الإنسان المسلم حراً وكريماً في وطنه يصبح الصراع متكافئاً، ويصبح السؤال حول كيفية التعامل مع العولمة سؤال كل القوى المؤثرة.

خاتمة

الثنائية والأسئلة المزيفة

الثنائية تعيق النظر وتعطل العمل؛ لأنها منبع الأسئلة المزيفة، والسؤال المزيف يستدعي جواباً مزيفاً، والجواب المزيف لا يحل المشكلة المثارة وإنما يضيف إليها مشكلات جديدة، ويتراكم ما يسمى بالوعي الشقي، وتتمثل شقاوته في مراوحته المكان نفسه و عدم وعيه بانسداد الأفق أمام حركته؛ لأنه يتعامل مع واقع معقد بذهنية مسطحة تعمل بمنطق أسود أو أبيض، فتبدو القضايا وكأنها معزولة عن بعضها بعضاً، ولذلك يخيل لمن يعالجها في ضوء الثنائيات أن حلولها أيضاً معزولة. وينتج عن ذلك أن تعلق المشكلات بل تتناسل ويصبح من الصعب تجاوزها.

ولذلك فإن من أسباب تطوير «الخطاب الإسلامي» تحرير الأسئلة من طابعها الثنائي حتى يكون الحوار ممكناً ويصبح من الممكن الاتفاق على الحد الأدنى الضروري للفعل الرشيد والهادف.

فالتصلب الذي نلحظه في الخطاب الإسلامي يعكس غياب الإنسان الحر، الذي يمتلك أدوات التفكير ويمتلك أدوات الفعل. طرح القضايا بهذه الصيغة التقابلية تجعله بالضرورة خطاباً يتسم في بعض حالاته بالإقصائية، والنزعة إلى التنافي عمّقتها مناخات الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي.

فالعقل حتى وإن كان ناقـداً لذاته لن يسـتطيع أن ينـتج وأن يبـدع إلاّ في مناخات تضمن للإنسان حرية التفـكير، وتوفّر الحدَّ الأدنى من الأمن الاجتماعي. ولن يستطيع أن يستفيد من تجارب الآخرين إلا من آمن بأن الحقيقـة إذا كانـت مستفادة من الجهد البشري، فهي بالضرورة نسبية، و لا أحد يسـتطيع أن يـدعي امتلاكها بالكامل ونهائياً.

من هنا نفهم لماذا يعجز «الخطاب» الذي يتميز بالثنائية على فهم الواقـع؛ لأن الواقع متغير ومتحوّل، ولا يمكن إخضاعه للقواعد الحدّية، ولا يمكن إلغاء مكوّن من مكوناته بإلغائه أو بتجاهله. الوعي بهذه المسألة بدا يؤتي أكله وبدأ تظهـر بعـض الأوجه الإيجابية في «الخطاب الإسلامي»، وذلك بالتخلص التدريجي مـن منطـق الرفض الكامل، أو القبول الكامل، والاعتماد على منهج الانفتاح النقدي في إطـار رؤية معرفية شاملة قادرة على استيعاب كل روائع الحضارة الإنسانية.

الخطاب الإسلامي المعاصر وتشوهات الخلط والتسطيح

الدكتور عبد الحميد أحمد أبوسليمان(*)

إن علماءَ الأمة ومفكريها ومربيها ومثقفيها مدعوون إلى وقفةٍ جادةٍ شمولية يعاد فيها النظر إلى مجمل ثقافة الأمة المعاصرة وفكرها وأطروحاتها وخطاباتها؛ لمعرفة ما أصابها من وجوه الخلل، وتشخيصه، وإعادة صياغة الفكر والمنهج والثقافة و«الخطاب»؛ بما يعيد للأمة عافيتها العقدية والثقافية والتربوية.

لا شك أن اهتمام مركز البحوث والدراسات الإسلامية بأمر «الخطاب الإسلامي» في هذه المرحلة من مراحل المسيرة المعاصرة للأمة، التي بلغت فيها من الضعف والتمزق والخسف دركاً غير مسبوق في تاريخها؛ هو أمرٌ - من الناحية الفكرية -في غاية الأهمية، ويجب أن يؤخذ من قبل فئات العلماء المستنيرين والمفكرين والتربويين والمثقفين المسلمين بكل الجد والإحساس بالمسؤولية؛ لأنه ما لم يرتفع

(*) أكاديمي.. مفكر.. (المملكة العربية السعودية).

«الخطـــاب الإســـلامي» الموجَّه إلى الأمـــة، إلى المستوى المطلـــوب في خطـــاب الأمة؛ بحيث يقدم تشخيصاً صـــائباً فعَّالاً لواقعها، ودليلاً هادياً لعلاج أمراضـــها، وأملاً مشرقاً لمستقـــبلها ومستقبل أجيالها، فما لم يرتفع هـــذا الخطـــاب إلى هـــذا المستوى فسيبقى في جوهره أقرب ما يكون إلى الهذر واللغو، الذي يسهم في تردي أحوال الأمة وضعفها وتخلفها.

فالأمة وشعوبـــها لا يجمعهم رابطُ جنسٍ ولا لونٍ ولا إقليمٍ ولا لغةٍ، وهم مع ذلك يشتركون في مأساة التخلف والتمزق والفساد والضعف والهيار المؤسســـات العامة، ولا يفسر ذلك إلا مشتركُ الثقافةِ بين هذه الشعوب، وما تقدمه من خطابات إلى أبناء الأمة وأجيالها.

إشكالية الخطاب بين الفكري والسياسي

والإشكالية المهمة، أنه على الرغم من تبين علماء الأمة ومفكريها ورجال الإصلاح فيها أن الأمة تعاني من أزمة وجودٍ، عمرها على الأقل ألف عام، عبَّر عنها الإمام أبو حامد الغزالي، في عنواني سفرين جليلين؛ أولهما: هو «**إحياء علوم الدين**»، الذي يشير إلى أن الثقافة والفكر الديني في الأمة يعاني من أزمة، وثانيهما: هو «**تهافت الفلاسفة**»، الذي يشير أيضاً إلى أن الثقافة والفكر الفلسفي والمدني يعاني من أزمة.

ومنذ ذلك الوقت، وحتى الوقت الراهن، والأمة تعاني من أزماتها، التي ما زالت تتفاقم مع الزمن وتقصر جهودها عن مواجهة تحدياتها، على الرغم مما تعاقب في تاريخها، منذ ذلك الوقت، وحتى اليوم، من حركات إصلاحية في كل اتجاه، والتي أفادت منها الأمة ولا شكّ، ولكن من المؤكد أيضاً أن هذه الحركات لم تستنهض الأمة، ولم توقف تدهور الأحوال فيها، وهذا يعني أن أزمة الثقافة وأزمة الخطاب الإسلامي – بشقيه الديني والكوني – لم تزل قائمة، وأن الجهود الإصلاحية على هذا المدى الطويل لم تكن بالعمق، ولا في المستوى المطلوب، وأن مشوار الإصلاح ما زال بعيداً، ويعتمد الاعتماد الأكبر على جهد الإصلاحيين في إعطاء المجال الفكري، في مجال الإصلاح، فضاءً أوسع؛ ليؤدي دوره في إصلاح الفكر والثقافة وما ترتب على ذلك من تشوهات وانحرافات معرفية، واجتماعية نفسية، ووجدانية تربوية؛ جعلت جُلَّ فكر الأمة، في جوهره وتأثيره وفعاليته، ألفاظاً ولغواً وهذراً؛ لأنه يصدر في كثير من جوانبه عن فكرٍ وثقافةٍ شائهةٍ، وعن نفسيةٍ ووجدانٍ شائه لا يصدق العملُ فيه القولَ.

إن تركيز الحركات الإصلاحية حتى اليوم على «السياسي»، وعلى الوسائل والأدوات والآليات، إنما هو هروب من مواجهة الحقيقة بالعمق وبالشجاعة المطلوبة، وذلك لا يكون إلا بتأثير الكوابح التي صنعتها، والتي تمترس خلفها قصورُ ثقافةِ الأمة، وقصورُ مناهجِ فكرها وتربيتها، في عموم الخطابات الإسلامية التراثية الترهيبية.

إن حراك العمل السياسي وحده، دون إحياء موات فكر الأمة ووجداها، لا يحل مشاكلها، ولا ينمي على الحقيقة طاقاها وقدراها، ويكون بذلك – وفي ضوء معطيات الصراعات والتحديات الكونية الحضارية -استنزافاً للطاقة، ولوناً من الحرث في البحر يسهم – في كثير من الحالات دون وعيٍ أو قصدٍ -في استمرار تدهور الأمة، وتفاقم أزمة وجودها.

لهذا؛ فإنه لا بد من إفساح المجال الفكري المعرفي والتربوي الوجداني لكي يؤدي دوره في مشروع الإصلاح، وتقديم الرؤية الإسلامية الفعَّالة السليمة للأمة، بعمقٍ وشجاعة؛ بحيث تفسرُ هذه الرؤيةُ واقعَ الأمة، وتدل على سبل إصلاح هذا الواقع، وتعطي الأمة أملاً في المستقبل، متغلبةً في ذلك على كوابح الثقافة وخطاباها الترهيبية الناجمة عن عصور الجمود؛ بالمبالغة في طلب النصِّ بتناول سطحي مجتزأ من السياق، يسيئ استخدام القداسة لتصبح «قهر قداسة» لا «هداية قداسة».

فتحقيق الإصلاح الفكري التربوي، وبالتالي إصلاح «الخطاب الإسلامي»، هو الأساس وأوَّل الطريق إلى أن تستعيد الأمة عافيتها العقدية، وسلامة مناهجها الفكرية، ونقاء ثقافتها المعرفية، وسلامة أساليبها التربوية؛ وعندها فقط تستعيد الأمة دافعيتها الاستخلافية العمرانية الحضارية الإسلامية.

وهذا يعني أن من أهم جهود الإصلاح في هذه المرحلة، أن يفسح «السياسي» الإصلاحي للفكر الناقد مجالاً حقيقياً للعمل في ركب الإصلاح، وإحياء موات الأمة،

واستنهاض كوامن طاقاتها، وإحياء دافعيتها الخيرة؛ الأمر الذي يوفر «للسياسي» القدرة والطاقة للعمل والإنجاز.

ولذلك فإنَّ من الضروري أن نبدأ في المجال الفكري بفهم أسباب فشل الجهود الفكرية الإصلاحية في إصلاح «الخطاب الإسلامي المعاصر»، والارتقاء به إلى مستوى الأزمة الحضارية التي تعيشها الأمة، وحتى نحقق ذلك فإنه لا بد لنا من أن ندرك طبيعة أزمة «الخطاب»، وعمق جذورها، والعوامل والكوابح التي تجعل – حتى اليوم، بسبب مقاومة الفكر التقليدي الجامد، وبسبب سيطرة «السياسي» السطحي المتعجِّل – أمرَ إصلاح وجوه قصور هذا الخطاب، وما خلَّفه من فكرٍ وكوابح، من أصعب الأمور التي لا مناص من مواجهتها؛ حتى تضع الأمة حداً لتدهور كيانها، وحتى لا تزداد أزمة وجود الأمة عمقاً وتعقيداً، وتجرها إلى مزيدٍ من الضعف والتمزق والخسف والمهانة.

لقد بدأت ظاهرة تشوه «الخطاب» وآثارها السلبية – فيما نرى – حين تمت هزيمة رجال «مدرسة المدينة» على يد رجال النخبة السياسية العرقية القبلية العربية أولاً، والشعوبية الأعجمية لاحقاً، وبذلك استحكم الفصام بين النخبة الفكرية الإسلامية والنخبة السياسية، وما أورثه هذا الفصام والعزلة التي فرضت على النخبة الفكرية وتوظيفها، من عجزٍ فكريٍّ حوَّل – تدريجياً- فكرَ الممارسةِ والاجتهاد والتجديد والإبداع، الذي تبدَّى في الصدر الأول، إلى فكرٍ مدرسي نصِّي مغلقٍ، تنعدم في عصوره المتأخرة سماتُ الاجتهاد، ويقوم على التقليد؛ بحيث ينتهي – عند بعضهم – إلى أن يصبح النصُّ الضعيفُ – الذي قد لا يكون في الحقيقة صحيحاً – أولى من الرأي، ويصبح حجّةً ودليلاً، على الرغم من أن الرأي الذي يُعتدُّ به – هو

بالضرورة - يُعبر عن تحليل موضوعي، ورؤية كلية منضبطة، أو يستند - إذا عجز القياس عن بلوغ نتيجةٍ تتسق مع روح الشريعة وكلياتها - إلى مبدأ الاستحسان على أساس روح الشريعة ومقاصدها.

هذا التدهور الفكري والمفاهيمي كان لابد له من أن يظهر وينعكس في نوعية «الخطاب» وأهدافه، وفي الآثار المترتبة عليه في رؤية الإنسان المسلم الكلية، وفي بناء عقله ووجدانه وشخصيته.

إن تشوه الرؤية الكلية لأية أمةٍ ومجتمعٍ من أخطر ما تصاب به الأمم والمجتمعات؛ لكونه يمثل الإطار الذي يفعِّل مفاهيم الأمة وقيمها وجهودها.. ودون الرؤية الكلية يكون المجتمع مثل مَنْ لديه آلة إنتاجٍ متميزة ولكنها قِطَعٌ متناثرة، فمهما كانت جودة الأجزاء فلن تكون منتجةً وذات معنى ما لم تنتظم أجزاؤها في إطارها الكلي الذي يجعل منها آلةً منتجةً ذات معنى وفاعلية، وهذا هو حال كنوز ثقافتنا من قيم ومفاهيم، فهي على الرغم من تعلقنا بها، وإعزازنا لها، وترديدنا المستمر لها، إلا أن حياتنا خِلْوٌ من ممارستها والانتفاع بها؛ لأن المفاهيم والقيم هي أجزاء ووسائل لرؤية الأمة؛ لتفعيلها في واقع الأمة، فإذا تفككت الرؤية وتملهلت وتشوَّهت فلا فاعلية للأجزاء، ولا فائدة ولا استعمال ولا تداول لها في حياة الأمم، حالها حال الآلة المفككة المتناثرة الأجزاء.

وتشوه «الخطاب» في تلك الظروف التاريخية جاء ولا شك نتيجةً طبيعيةً حتميةً لفكر العزلة والفصام بين القيادة الفكرية والقيادة السياسية، ولا علاقة لذلك في عمومه بالنوايا؛ فكان لا بدَّ عندئذٍ من أن يتحول «الخطاب» بطبيعة الموقف، من خطابِ فكرٍ، ونظرٍ، وتدبرٍ واقتناعٍ، وتواصلٍ وممارسةٍ، وتعبيرٍ عن رؤية كليةٍ شموليةٍ

فعَّالةٍ مولِّدةٍ للقدرة على الجهاد والاجتهاد، وعلى التجديد والإبداع، وعلى احتواء متغيرات الزمان والمكان، ومستجداتهما ليصبح «خطابَ» ترهيبٍ وقهرٍ وقمعٍ، يصدر عن رؤية أحادية المعرفة، جزئية مغلقة، فكان بذلك خطاباً مشوهاً، يحتمي - بسبب العجز الفكري - بعلوية مقام القداسة، وبالمبالغة في طلب النصِّ، دون رؤيةٍ كلية مقاصديةٍ، ودون وعي بعامل الزمان والمكان، أو تملُّكٍ لناصية القراءتين في النص والكون.

ومنذ ذلك الوقت، وفي كثير من الحالات، اعتمد عموم «خطاب» عامة الأمة على أكداسٍ من روايات ضعيفة لأصحاب «الغفلة» و«المدلسين» و«الحكواتية» وأصحاب الأغراض، وعلى سوء التأويل والخلط لنصوصِ خطاباتٍ قُصِدَ منها على الحقيقة، وفي كثير من الأحوال، الجاحدون والكفار والمستكبرون والمحاربون، وصُوِّبَ هذا الخطابُ المخلطُ المجتزأُ – بسبب عجز الصفوة الفكرية الموظفة في خدمة الصفوة السياسة -إلى عامة الأمة المسلمة البائسة الغارقة في الجهل والفقر والمرض، والمرزوءة بإرهاب الصفوة السياسية المستبدة وفسادها وتبديدها وقهرها ومظالمها.

وهكذا سهل توظيف هذا «الخطاب» الترهيبي الديني لخدمة الصفوة السياسية ومصالحها الخاصة وانحرافاتها الشائهة عقدياً وفكرياً ووجدانياً، ليضيفَ «الخطابُ» الترهيبي الديني، إلى جانب الترهيب السياسي، ضِغْثاً على إبَّالةٍ في سحق روح العامة؛ وليزيدَ طينَ عيشهم وذلَّ نفوسنهم بِلَّةً، وليعينَ على إسلاس قيادهم، ويضعفَ على مرِّ التاريخ عزمَهم في التمسكِ بحقوقهم، والمشاركة في تدبير أمورهم، وصيانة مؤسساتهم، ورسم سياسات مجتمعاتهم، والتصرف بروح العدل والتكافل والإعمار في مواردهم وثروات أوطانهم وجهودهم.

ومنذ بداية معركة خلط الأوراق والخطابات – على العهد الأموي – فإن مقالةَ أبي ذر الغفاري، رضي الله عنه، وهو عَلَمٌ من رجال مدرسة الرسالة، الموجَّهة إلى مؤسس دولة المُلْكِ العضوض، لم تأتِ عبثاً؛ حينما وقف «أمير المؤمنين» معاوية بن أبي سفيان على المنبر يخاطب الأمة بشأن موارد الأمة وبيت مال المسلمين، ويطلق عليه صفة «مال الله»، مستعيناً بتلك التسمية والوصف للانفراد بالتصرف فيه، مستخدماً أدوات توظيف الشكليات الدينية وسلطة علوية القدسية، عندها وقف له أبو ذر، رضي الله عنه، معارضاً ومصححاً ومنطلقاً من أسس سليمة لرؤية الأمة الكونية ولمنطلقات رسالتها السامية، يناصحه ويذكِّره بحق استخلاف الله للأمة في مواردها وثرواتها، ومساءلة حكامها والعاملين عليها، بشأن حسن التصرف بها، وردها إلى الأمة، وإلى أصحاب الحقِّ فيها، وإلى قرار شورتها، قائلاً له كلمة تسري في التاريخ، ويبقى نورها وصداها على مر الزمان: «لا، بل مال المسلمين».

لذلك ليس عجيباً أن تصل الأمة اليوم، وفي نهاية مشوارٍ طويلٍ وأمدٍ بعيدٍ، إلى ما وصلت إليه من التمزق والسلبية والتخلف، على ما نرى من حالها اليوم، وقد تشوَّهت رؤيتها الكونية الكلية، وتدهور فكرها ومنهجيتها، وتلوثت ثقافتها، وانهارت مؤسساتها، وسُحِقَتْ نفسيةُ أبنائها ووجدانهم، وتراجع حسُّ أنفتهم وكرامتهم؛ حتى أصبحت جُلُّ النفوس -كما نرى اليوم – مغشَّاةً برداء من مشاعر الأنانية ونوازع الفردية، وانعدام الإحساس بأمن الجماعة وتكافلها، وحتى أصبحت نظرة الإنسان المسلم إلى العمل والسعي في الحياة، في الحقيقة، سلبيةً مفرغةً من بعدها الحضاري والإعماري، ومن مدلولها الروحي؛ ليصبحَ إنساناً استهلاكياً ضعيفَ الدافعية الإعمارية الاستخلافية، ولتصبحَ أمتُه، بدورها، أمةً مهمشةً استهلاكيةً

مستضعفةً، وهذا حالٌ بائسٌ لا يكون إلا إذا تشوه خطابُ ثقافة عامة الأمة؛ الذي يتمثل في الأساس في كتاب الفقه؛ لكونه الخطاب الذي يمثل جوهر ثقافتهم واهتماماتهم الدينية، وهويتهم الحضارية؛ ولكونه أيضاً يخاطب المسلم، لا على أنه عضوٌ في أمةٍ، بل يخاطبه على أنه فردٌ؛ ذلك لأن كتابَ الفقه - بادئ ذي بدء - قد غاب عنه البعدُ العامُ في الإنسان؛ فلا حديث ولا وجوب ولا أحكام في الشورى والعدل والتكافل والإتقان وسلامة المؤسسات العامة وفاعليتها، بل أصبحت غاية الحياة مجرد «الذكر» الذي هو - في جوهره الروحي - تذكيرٌ ووسيلةُ ترشيدٍ للسعي الإنساني الإعماري الخيِّر في هذه الحياة الدنيا؛ لتحقيق مهمة الاستخلاف وأداء الأمانة، فيدعى «الذكر» على أنه «العبادات»، ولم يبق بذلك من أمر الحياة والأمانة والاستخلاف وجهادها وتسخيرها وإعمارها إلا فتاوى عقود، فتدعى مجرد «معاملات».

إنه ما من أمةٍ تتشوه مفاهيمُها ولبّ فحوى هويتها ووجدانها، وتحطّ من قيمة العقل، أن تصل إلى ما وصلت إليه أمتنا من التمزق والضعف والسلبية والتخلف، فهو حالٌ لابد منه لأية أمةٍ يتدهور فكرها، وتنهار مؤسساتها العامة، وليس ذلك بعجيب.

إن أحادية الفكر الإسلامي وجموده وتشوهه، وبالتالي تشوه الرؤية الكلية الإسلامية الحضارية، وتشوه ثقافتها، وخلط خطاباتها، قد أدى إلى ضعف الصفوة الحاكمة؛ فأصبحت، منذ أمدٍ بعيدٍ، لا تعرف وسيلة للتعامل مع معارضي سياساتها وأصحاب الرأي المخالف لرأيها، إلا سياسةَ الردع والقمع، ونصب السوط والسيف والنطع، وفتح أبواب السجون؛ وما ذلك ألا بسبب افتقارها إلى القاعدة

الفكرية الحيَّة المبدعة التي تعينها على التطور، وحسن الأداء، واحتــواء المــتغيرات، ومواجهة التحديات.

فإذا أضيف إلى الترهيب السياسي وأغلاله وسجونه ترهيبُ «الخطاب الديني»، المتمثل في جهنم، ولظى الجحيم، وأهوال القبر ويوم الحشر، الذي ينتظــر المــؤمنين المخاطَبين عقاباً لهم على صغير خطاياهم وكبيرها؛ فهي عذابات تترصدهم، حتى في خطابات صغارهم التربوية، وفي كل حركةٍ وسكنةٍ يتململــون بهـــا في لباســـهم ومأكلهم ومشربهم، أدركنا عندها بعضَ أهمِّ أسباب خمود روح الأمة، وغيبوبتـــها، وسلبيتها، وعجزها، وازورارها عن تمثُّل رسالتها وحملها، وعرفنا عنـــدها أســـبابَ تفجُّرات أحداثها، التي هي في جُلِّها، إنما تمثل تفجُّرات العبيد البائسين اليائسين؛ التي ما إن تخمد، حتى تبدأ دورة جديدةٌ، من ممارسات القمـــع والترهيـــب السياســـي والفكري والديني؛ التي تولِّد تفجُّراً جديداً، وما إن يخمد، حتى يتولد تفجُّرٌ آخـــرُ، وهكذا يتوالى مسلسلٌ تاريخيٌّ من التفجُّر والإخماد والقهر؛ يعمق حال أزمة الأمـــة ومعاناة أجيالها، ويستنـــزف طاقاتها، ويغيِّب رسالتها الحضارية الإعمارية الخيِّرة في خدمة الإنسانية.

ومن الأمثلة المباشرة التي تقرِّب إلى ذهن القارئ بعض ما أصـــاب «الخطـــاب الإسلامي» من خلطٍ وتشويهٍ، هو ما شاهدته في مؤتمر إسلامي عالمي عن الوحـــدة الإسلامية، وكانت المحاضرة عامة، والقاعة غاصَّة بالحـــاضرين، ولما كان الموضوع - فيما يبدو كما عبر عنه عنوان المحاضرة عن بعض قضايا وحدة الأمة - ليس مـــن معارف المتحدث وقدراته، فقد أخذت القاعة تتململ في متابعة «الخطاب» السطحي المهلهل الممل، وإذا بالمتحدث يتحول بالحديث - وبشكل مفتعل ومفاجئ، ودونمـــا

مناسبة واضحة – إلى ما يجيده من الحديث عن الموت، وكيف سيلاقيه هؤلاء البشر، وما ينتظر المسيء منهم؛ فكانت أمامي صورة حية مذهلة معبرة عن سوء استخدام خطاب التذكير، وتحويله إلى خطاب ترهيبٍ وتوعدٍ؛ يلغي به المتحدث عقل المخاطَب، في محاولة يائسة منه للسيطرة على القاعة وعلى جمهور المستمعين، وشلّ قدرتهم على النظرة الناقدة، والمحاكمة الواعية، لما يعرضه عليهم في خطابه ووعظه.

ومثل آخر من الأمثلة الفجّة الكثيرة الشائعة لأسلوب استخدام الترهيب الفكري والديني، وسوء استخدام رموز القداسة؛ ذلك الأسلوب الذي لجأ إليه أحد الخطباء في خطبة من خطب الجمعة، بشأن أمر من أمور الهيئة، وهو موضوع إطلاق اللحية، إلا أنّ ذلك الخطيب لم يكن لديه الشيء الكثير الذي يمكن أن يوضح به للجمهور الحكمةَ من إطلاق اللحية، ولم يحاول أن يصل إلى إقناع المستمعين بالحبِّ والتسامي، وتحقيق صور الكمال الذي تسعى إليه الفطرة الإنسانية، بما يعرضه عليهم، علماً بأن كثيراً من الناس الذين كانوا يستمعون إلى ذلك الخطيب كانوا من حليقي اللحى، ويرون أنه أمر من شؤون الهيئة، وهو أمر على كل الأحوال موضع خلاف واجتهاد، ولكن الخطيب آثر فرض وجهة نظره بإرهاب المستمعين؛ من خلال تحويل هذه القضية الجزئية، من كونها قضيةً من قضايا الهيئة، مثلها في ذلك مثل شعر الرأس وأزياء زينة اللباس، إلى قضية عقيدةٍ وإيمانٍ، وكفرٍ وعصيانٍ؛ حيث إنه افترض أن حليقي اللحى هم بالضرورة منكرون – لا متأوِّلون – للسنة، والمنكِر لأمر النبي ﷺ منكرٌ للدين، ومنكر الدين كافرٌ.

ومن صور الترهيب غير الواعية، ما تسمعه وتحسه، حتى في قراءة بعض الأئمة، من حدة النبرة، في توجيه آيات الوعيد، وتكرار تلاوتها، وكأن ذلك نوع من الاستدراك وتحسين أداء القصد، بمزيدٍ من تأكيد الوعيد والترهيب، وكأن القارئ بذلك يتقمص الذات الإلهية في توجيه الخطاب إلى مَنْ خلفه من المأمومين، ولا يدرك مثل هذا الإمام أو القارئ أن «الخطاب» إلهيٌّ موجَّهٌ إلى الإنسان، قارئاً، ومستمعاً، وإماماً، ومأموماً، وعلى الجميع أن يقرأه، ويتدبره، وينصت إليه، بخشوعٍ وحسٍّ مرهفٍ، ولا يستثنى من ذلك أحد، بل على الإمام والقارئ، ومَنْ في مثل موقعهم أن يحسوا قبل سواهم أنهم مقصودون بالخطاب، قبل أي أحدٍ آخر، فأسلوب الدعوة والوعظ الصحيح هو أن يخاطب المتحدثُ نفسَه بما يقول قبل أن يخاطب بقوله أيَّ أحدٍ سواه؛ فيكون خطابُه بذلك خطاباً مؤثراً، من منطلق الحبٍّ، والترغيب، والمشاركة في الإحساس، والحثّ على العمل الطيب.

والإشكال في الأمر هنا هو الفكر والمنهج الذي ما زال يسمح - حتى اليوم - لهذا اللون من «الخطاب»، ومن التعليم، باستخدام النصوص وتوظيفها، وتوظيف قدسيتها بشكل عشوائي، دون تحقيقٍ علمي ومنهجيةٍ شموليةٍ تتكامل فيها مصادر المعرفة، وتدرك أطراف القضايا المطروحة في واقع الحياة والمجتمع، وتكون قادرةً على إدراك أبعادها، وأولوياتها، وموضع المتغيرات فيها.

هذا الفكر والمنهج الترهيبي يفتقد المعرفة السليمة الفاعلة، ويفتقد الحبَّ والرفقَ والحكمةَ والكلمةَ الطيبةَ الناصحةَ المؤلِّفةَ للقلوب؛ التي تنشئ عقولاً واعيةً، ونفوساً ناضجةً، وأمةً قادرةً.

ولما كانت التربية وتعليم العقيدة والدين والثقافة بمثل هذا النوع من «الخطاب»، المستخدم في تكوين العقـلية، وبناء النفسـية المسلمة، كان أثر التعليم الديني، على ما نشاهد من عموم حال الأمة وأدائها، ضعيفاً وغيرَ إيجابي، ومن الممكن اسـتقراء ذلك وملاحظته في ضعف استجابة عامةِ أبناءِ الأمةِ تجاه مـا يلقـى علـيهم مـن توجيهاتٍ ومواعظَ، كما يمكن تحسُّسُه في عواطف الطفل نحـو هـذه المعـارف، وأساليب تلقينها وتعليمها، ورهبته منها، وإعراضه الوجداني عنها؛ وذلك لافتقارها في هذه المرحلة التكوينية الغضَّة إلى الرؤية الاستخلافية الإعماريـة، وإلى توظيـف دوافع الحبِّ والإقناع والتكريم في تكوين الطفل المسلم وتربيته.

ويكفينا في هذا الموضع أن نشير إلى أنّ رسول الله ﷺ كان أباً وجداً ومربيـاً ناجحاً، وأنه لم يضرب طفلاً قطُّ؛ لأنه كان حفياً رفيقاً بالأطفال والناشئة، وكان في تعامله وتواصله معهم مدركاً لطبائع نفوسهم، ومراحل نموِّهم، وما يناسب عقولهم من أنواع الخطاب، ولذلك لم يكن في حاجة، في منهجه التربـوي الـواعي، وفي تواصله الوجداني الفعَّال مع الصغار، إلى أن يسكب من عين طفل دمعـةً، ولا أن يوجع في حياته ظهرَ واحدٍ منهم قط.

وانظر إليه ﷺ كيف خاطب الغلام عبدالله بن عباس، فهو لم يخاطبه خطـابَ وعيدٍ أو ترهيبٍ وتقريعٍ، بل خاطبه خطابَ اعتمادٍ وتوكُّلٍ وإيمانٍ مطلـقٍ بـالله، خاطب به وجدانه خطابَ حب واقتناعٍ وشجاعة، فالله حين يَتواصَل معه الإنسـانُ تواصلَ حبٍّ وتساند يحفظه ويرعاه، وعندما يصدر في أفعاله وحركاته وسكناته عن اقتناع وإيمان فلن يستطيع أحدٌ أن يضره أو ينفعه إلا أن يشاء الله، فهو بذلك يخاطب وجدانه، وهو خطابٌ غيرُ خطابِ البالغِ الذي يحتاج إلى مخاطبة عقله؛ فيلزمه العمل وطلب الأسباب؛ «فيعقلها» ثم «يتوكل».

ومن الأمثلة التي توضح ترفق «الخطاب النبوي» بالناشئة، وإدراكـه مـداخل نفوسهم، ما وقع بينه ﷺ وبين الفتى اليافع الذي بلغ مشارف الحلم، وأقضَّ مضجعه ما استيقظ في جسده من نوازع الإنجاب والعشرة، وهو الذي لا يستطيع الـزواج بعد، فأتى الرسولَ ﷺ يستأذنه في الزنى، فهدَّأ الرسول ﷺ من ثائرة مـن رأى في طلبه مجافاةً لأدب خطاب رسول الله ﷺ، وأمرهم أن يفسحوا له، وأدنى، في رفقٍ، مجلسَ الفتى منه، وما يهمنا تربوياً هنا أنه أخذ الفتى بالرفق، و لم يخاطبه خطابَ تهديدٍ ووعيدٍ، ولا خطابَ حرمةٍ وجحيمٍ؛ لأن الفتى لم يأتِ ليطلب معرفة حكمٍ؛ لكـون معرفته لهذا الحكم معلوم من الدين بالضرورة، كما يقولون، ولكنه جاء ليطلبَ حلاً ومخرجاً مما يعاني منه، ومن الواضح أن معرفته بالأحكام لم تمنع منازعة نفسه معتلجَ طبعه في الليل والنهار، فقد أصبح يخشى لواعج نفسه ونوازعها، ويخشى أن تنسـى خوفها في لحظات تغمُّ فيها رؤيتها، ويغيب وعيها، وتضعف مقاومتها، ولذلك رأينا الرسول ﷺ، بفهمه الثاقب لطبائع النفوس، قد بلغ أعماقَ نفس الفتى وطبعه؛ فأقام من نفسه على نفسه حارساً، ومن ضميره على ذاته وازعاً وضابطاً؛ حـين اسـتثار كرامة نفسه ومروءة عرضه، فسأله إن كان يرضى أن يُزْنى بأمه؟ فأجـاب إجابـة الآنف الكريم: إنه لا يرضى ذلك، فسأله إن كان يرضى أن يُزْنى بأخته؟ فكان منـه بكل عزة النفس وكرامتها الجواب نفسه، وكرر عليه السؤال بشأن عمته وخالتـه، وكانت نفسه الأبية الكريمة ترفض تلك الخِسَّةَ وذلك العار، فلفت رسـول الله ﷺ نظرَ الفتى إلى الحقيقـة التي ما كان يجب أن تغـيب عن النفس الكريـمة، وهـي أنها لا ترضى لغيرها ما لا ترضاه لذاتها؛ فخاطبه بكلِّ الحبِّ والتقدير لمعاناته النفسية:

إنهن كلهن أمهات وأخوات وعمات وخالات[1]، ودعا له، فكان ذلك له قوةً نفسيةً ومانعاً وَوِجَاءً.

من الواضح مما تقدم أن «الخطاب الإسلامي»، والفكر الإسلامي، قد عانيا وما يزالان يعانيان من أزمة الفصام المعرفي، بين هدي الدين، وعلوم الفطرة والطبائع والوقائع (الكون)؛ مما أدى إلى عجز الفكر، وتشوه الخطاب والرؤية والثقافة، وانهيار المؤسسات، وسحق الدافعية والوجدان المسلم؛ ليصبح الإنسان المسلم فاقداً للدافعية الاستخلافية الحضارية، ولتصبح الأمة الإسلامية أمةَ شعوبٍ عالةٍ استهلاكيةٍ مهمَّشةٍ في عالم الفعل والأداء والإبداع والريادة (الإعمار).

- الرؤية القرآنية الكونية مفتاح الحل:

إن هذا الحال يدلُّ على أن «الخطاب الإسلامي المعاصر» لم يتجاوز - في الحقيقة - أزمته في تشوه الرؤية وبنائها العقدي الحضاري؛ الذي يجب أن يستلهم رؤيته في المقام الأول، من المصدر الأصل، وهو القرآن الكريم الذي يتجاوز الزمان والمكان، فهو الذي يبسط الرؤية الكلية الكونية الحضارية لمسيرة الإنسانية منذ أن بدأ الله خلق الإنسان حتى نهاية عالم الحياة الدنيوية، وهذا لا يتعارض مع الخطاب النبوي، في حكمة تطبيقاته على العهد النبوي، ضمن الظروف الزمانية والمكانية لأولئك الأقوام وذلك الزمان، كما يجب على الفكر الإسلامي أن يتخطى إشكالات

---

(١) روى أحمد في مسنده (٢١١٨٥) أنْ فَتًى شَابًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ قَالُوا: مَهْ مَهْ، فَقَالَ: ادْنُهْ، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا، قَالَ فَجَلَسَ قَالَ: أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ، قَالَ: لَا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ، قَالَ: لَا، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ، قَالَ: لَا، وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ، قَالَ: لَا، وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ، قَالَ: لَا، وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ، قَالَ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ، فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ.

أحوال المسلمين الأوائل الذين انشغالوا بالإلهيات والخرافيات بتأثير الحضارة اليونانية البائدة؛ التي بادت واستنفدت أغراضها، وبتأثير الخرافيات والإسرائيليات، وسواها من تراث الشعوب التي دخلت في الإسلام مصطحبةً معها الكثيرَ من عنصرياتها القبلية والشعوبية، ومن خرافياتها، الأمر الذي ترك، حتى اليوم، آثاراً سلبية وكبيرة - على ما نرى - في فكر الأمة وممارساتها، وانعكست آثار ذلك على رؤيتها الكلية.

إن على مفكري الأمة أن يتنبهوا إلى طبيعة المنظومة الإسلامية العقدية والثقافية والحضارية، وأن يتنبهوا إلى طبيعة المنظومات الأخرى؛ حتى لا يتخبطوا من جديد ويقعوا في شباك التلاقح العشوائي، بسبب التقليد الأعمى؛ الذي دفعنا ثمنه فيما مضى بشأن الحضارة اليونانية؛ والذي ما نزال ندفع ثمنه حتى اليوم، بسبب انبهارنا بالجانب المادي في الحضارة المادية الغربية المعاصرة، التي هي النقيض المقابل لمنطلقات الحضارة الروحية الاستخلافية الإعمارية الخيِّرة؛ لنبقى - بسبب إشكالنا العقديِّ والوجدانيِّ معها - تلاميذ بلداء، وعالة فكرية وحضارية على تلك الحضارة، ولمدة تزيد على القرنين من الزمان.

وعلينا أيضاً أن نتخطى في فكرنا وفي خطاباتنا أخطاء تخليط «الخطاب الإسلامي»، وعجزه -في كثيرٍ من الحالات - عن الانضباط المنهجي، وإدراك بعد الزمان والمكان في تطور الأمم وبناء المجتمعات والحضارات.

وعلينا أن نستعيد الرؤية الإسلامية الحضارية الكونية التوحيدية الاستخلافية السببية الإعمارية الخيِّرة؛ التي يستعيد بها الإنسان المسلم الدافعية الريادية الحضارية، والرسالة الإنسانية السامية العالمية، والمنهجية الفكرية التوحيدية السننية، والثقافة المبرَّأة من أمراض العنصرية والشعوذة والخرافة، وبناء نظام الاجتماع الإسلامي، الذي يأبى توظيف الدين والقداسة خدمةً لأصحاب السطوة والسلطان، ليكون ذلك

النظامُ مبنياً على الشورى، واقتناع الإنسان المسلم، وإيمانه بمبادئ الإخاء والعدل والرحمة والسلام.

إن القرآن الكريم الذي هو كلمات الرسالة الإلهية إلى الإنسان، والذي تعهد الله بحفظه، ما يزال بين أيدينا المصدرَ الأولَ الأشملَ للرؤية الإسلامية الكلية الكونية على مدى الزمان والمكان، علينا أن نعود إليه أولاً ودائماً؛ نستلهمه الرؤية والمنهاج والقيم والمفاهيم؛ التي يجب أن نوظفها بفهم واقتناع وعلم في بناء حياتنا ومجتمعاتنا وأمتنا وحضارتنا الإنسانية العالمية، مسترشدين في ذلك بتطبيقات نموذج العهد النبوي في الحكم وبناء الأمم، وحكمة هذه التطبيقات وتعاملاتها الزمانية والمكانية؛ التي جعلت من قبائل الأعراب البدائية[1] أمةً حاملةً رسالةَ هدايةٍ ونورٍ، جددت بها الحضارة الإنسانية، وفتحت أمامها آفاق العلم والمعرفة التوحيدية السننية؛ التي أرست الأساس لكل ما حققته وتحققه الحضارة الإنسانية من تقدمٍ علميٍّ وتقنيٍّ. وللأسف، فإن الحضارة المعاصرة لم تستلهم - فيما وراء مفهوم السببية ورفض الخرافات الدينية الإسرائيلية- منطلقات الحضارة الإسلامية الإنسانية السامية التي تقوم على مبدأ «القوة للحق»، انطلاقاً من مبدأ التوحيد الإلهي والكوني والاستخلاف الإنساني الخيِّر، على أساس مبادئ العدل والإحسان والرحمة والإخاء والسلام.

إن كل ما تعانيه الحضارة المادية العنصرية التظالمية المعاصرة، التي أغرقت العالم دماءً وظلماً، هو بسبب انطلاقها من نقيض شريعة العدل الإسلامية، وهو مبدأ «الحق للقوة» الذي هو شريعة الغاب والتظالم الحيواني المُنْبَتّ عن عالم الروح؛ والذي يتمثل

---

(١)﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات:١٤)، ﴿لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً... وَأَكْثَرُهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ (التوبة:٨)، ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ.... وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ (البقرة:٢٧)، ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ.... ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ (الأنفال:٥٥-٥٦).

في عقائد القومية، وسياسات القوة، ومظالم الاستعمار العنصرية، والعدوان على الشعوب المستضعفة، وسفك دماء أبنائها، واستعبادهم، ونهب ثروات بلادهم، كما يفسر ظاهرة انهيار الأسرة، وتفشي مظاهر الانحلال الأخلاقي في المجتمعات الأيديولوجية المادية؛ لأن عالم الغاب لا مجال فيه لطلب قيم الأخلاق الأسرية.

ولو تدبرنا القرآن الكريم لرأينا التطابق بين واقع طبع الإنسان وفطرته، وحقيقة التصوُّر القرآني لهذا الإنسان ورؤيته الكلية؛ التي تنطلق من طبعه وفطرته؛ لترشِّد جهده، وتهدي مسيرته، وتعينه على تحقيق الغايات العليا التي تتطلع إليها ذاته وفطرته، فتدعم قوى الخير في نفسه، وتعزز دافعية العمل والبذل والبناء والتسخير والإعمار الخيِّر في وجدانه، فالإنسان كما هو مشاهدٌ بالفطرة «خليفةٌ» في الأرض، مكَّنه الله منها و(سخَّرها) له، وطوَّعها لحاجاته، وزوَّده بوسائل القدرة على السعي فيها، بقوة العقل والإدراك[1] والأفئدة ووسائل السمع والبصر والنطق والبيان، ووكَّل إلى الإنسان أمانة إعمار الأرض، وزوَّده بالإرادة وقوة الخيار، وحمَّله بذلك أمانة[2] بناء الحضارة وتسخير خيرات الأرض رزقاً وطيبات وزينةً، على شاكلة الخلق في الجمال والإبداع والعطاء، بالحق والعدل والرحمة والسلام، وسيادة شريعة الروح، وسبيل الرحمن؛ حيث «القوة للحق»، وعدم السعي بالطغيان والفساد واتباع

---

(١) ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة... وعلم آدم .... فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (البقرة:٣٠-٣٨)، ﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾ (العلق:٥)، ﴿اقرأ وربك الأكرم﴾ (العلق:٣)، ﴿خلق الإنسان ۝ علمه البيان﴾ (الرحمن:٣-٤)، ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾ (النحل:٧٨)، ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ۝ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ۝ ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون﴾ (السجدة:٧-٩).

(٢) ﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا﴾ (الأحزاب:٧٢)، ﴿ونفس وما سواها ۝ فألهمها فجورها وتقواها ۝ قد أفلح من زكاها ۝ وقد خاب من دساها﴾ (الشمس:٧-١٠)، ﴿ألم نجعل له عينين ۝ ولسانا وشفتين ۝ وهديناه النجدين ۝ فلا اقتحم العقبة﴾ (البلد:٨-١١).

شريعة الطين والغاب؛ حيث يسود التظالم والتغالب ليكون «الحق للقوة»، «فذلك سبيل الشيطان».

هذه هي الغاية الإلهية من خلق الإنسان في الأرض كما فطره الله، وكما عبَّر عنه القرآنُ التعبيرَ الصحيحَ الدقيقَ، فبدأ الإنسان طفولة الإنسانية وهو لا يعرف كيف يواري سوءة أخيه؟ وكيف يدفنه؟ فبدأت الإنسانية كما يبدأ الطفل لا يعلم شيئاً، فينمو، ويتعلم، ويبدع، ونمت الإنسانية، وازدهرت، وترعرعت، على تعاقب القرون والأجيال، والمتغير هو إعمار الأرض، كما عبَّر عن ذلك القرآن الكريم: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (هود:٦١) حتى أصبح الإنسان قادراً على أن يجوب الأجواء، ويرتاد الكواكب، ويشارك الطير في الفضاء، والأسماك في أعماق البحار، والله يعلم ما سوف تأتي به التقنيات الدقيقة والعليا وآفاق مستقبل العلم والمعرفة.

ومثال الإنسانية في ذلك مثال الإنسان الفرد إذا ما اكتمل عطاؤه تكون مهمته قد انتهت، وكذلك الإنسانية، حين يكتمل أداؤها وإعمارها ينتهي وجودها أيضاً، يقول الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (يونس:٢٤)، وعندها ترقى الإنسانية إلى عالم الروح والأبدية (إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌ): ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (يونس:٢٦)، ﴿ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴾ (النجم:٣١)، ﴿ وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (البقرة:١٩٥)، ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ (آل عمران:١٤٨)،

﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل:٩٧)، ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (الزلزلة:٧-٨)، « **وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ...**»[1]، « **إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ**»[2].

فالفطرة الإنسانية تأهلت وأُعِدَّتْ للحياة والعمل والإبداع والإعمار والتسخير والاستمتاع بخيرات الأرض، دون إفسادٍ ولا سوء تسخيرٍ ولا تبذيرٍ، وهو ما عبر عنه القرآن الكريم، وكشف أسراره للإنسان؛ ليشحذ همته، وليعمل ويبدع، ويعمر ويسخِّر، ويستمتع، ولكن على هدى وبصيرة؛ تحقيقاً لفطرة ذاته الروحية الخيِّرة، وتنفيذاً للإرادة الإلهية في الاستخلاف وحمل الأمانة، وتمحيصاً للنفوس الخيرة ووضعها موضعها الصحيح من التكريم في عالم الروح، أما النفوس المفسدة الشريرة حقاً وقصداً، فتكون حيث تستحق، فما كان للنفائس إلا موضع التكريم والتبجيل، ولا يكون للنفايات والقاذورات إلا حاويات النفايات حتى لا تؤذي النفوسَ الطاهرةَ ولا تزكمها، وغير ذلك لا يكون.

ولذلك؛ فالرؤية والعقيدة الإسلامية الكونية الحضارية، كما جاء بها القرآن الكريم، ليست إملاءً ولا اعتباطاً ولا أصراً، ولكنها تحقيق لغايات فطرية، وتحقيقٌ لمعنى وجود الإنسان وذاتيته، وترشيدٌ لنوازعه، في السعي والإبداع والتسخير والإعمار، على أن يكون ذلك في سبيل الحقِّ، وعلى هدي شريعة الخير والعدل والإحسان والإتقان، إنه استجابةٌ لنوازع النور والروح في فطرته ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ

(١) أخرجه مسلم.
(٢) أخرجه أحمد.

أَن تَعْدِلُوا﴾ (النساء:١٣٥)، ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (النساء:٥٨)، ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾(النساء:١٣٥)،﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾(الأنعام:١٥٢)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة:٨)، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل:٩٠).

فكلُّ عملٍ، وكلُّ سعيٍ، وكلُّ إتقانٍ، وكلُّ إبداعٍ، وكلُّ تسخيرٍ، وكلُّ تيسيرٍ، وكلُّ إعمارٍ، إن كان في سبيل الخير والعدل والإصلاح، وتحقيقاً لتطلعات فطرة الروح في طلب الخير، وحب الحق والعدل والرحمة والسلام، التي هي صفات الرحمن، فهو إتقانٌ وإحسانٌ وعملٌ صالحٌ من سجايا المؤمنين، فهم يسعون إلى تلك الصفات ويحققون بها ذواتهم، وينالون ثمارها، ويستمتعون بها في الحياة الدنيا، وترافقهم وتكون معهم وينالونها ويستمتعون بها أيضاً في عالم الأبدية والروح «خالصةً» من كل دنس الطين ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٢)، ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة:٢٥).

فرؤية الإنسان المسلم الكونية هي رؤية توحيديةٌ استخلافيةٌ حضاريةٌ خيِّرةٌ، تحقق الفطرة والذات ولا تنكرها، وتدعو إلى العمل، وتحفّز على السعي والإعمار، بكل الجهد والإخلاص والإتقان، طلباً للتيسير والخير والإصلاح، فهذا ما تسعى إليه الفطرة، وتتحقق به الذات ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (النور:٥٥)، والعمل الصالح هو العمل السنني المتقن الذي يقصد منه التسخير والتيسير والإصلاح والإعمار، وليس مجرد أعمال الذكر من تلاوة وصلاة وصيام، فإن هذه الأعمال هي، ولا شك، «ذكرٌ» وهدايةٌ ودليلٌ إلى العمل الصالح[1]، مثلها في ذلك مثل كتاب إرشاد تركيب الآلات المنتجة؛ إذ لا معنى لقراءة الدليل ما لم تركّب الآلة وتُشغَّل وتُنتِج، ولذلك فإنه « رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ

---

(١) فالآية الكريمة – في منطوقها العام – تقرر شروط الاستخلاف والقدرة والريادة، وبناء الدول والحضارات، في هذه الحياة الدنيا. وهو أنه حتى تحقق الشعوب والأمم الريادةَ والقيادةَ لابد من أن يتوافر لها عنصر الإيمان، وهو – في عمومه – عنصر الرؤية والاقتناع ووضوح الهدف والغاية والتعلق بها، ولكن الإيمان، أي الرؤية، لا تكفي وحدها ما لم تكن رؤيةً تؤدي إلى العمل.

والأداء والرؤية وإرادة العمل، هي أيضاً وحدها لا تكفي ما لم تكن وفق منهج عقلي سنني يهدي العمل ويرشّده ويجعله يعطي الثمر المرجو منه، وفق السنن والنواميس الإلهية في خلق الكون، أي إنه عملٌ صالحٌ من الناحية الموضوعية. فلا يكفي أن يحفر المرء حفرةً في الأرض لإخراج الماء، ما لم يكن دارساً وعارفاً بمسارب المياه وتدفقاتها تحت سطح الأرض، فرغبة إخراج الماء، وحفر الأرض، لا تفيد ولا تعطي الثمرة المرجوة منها ما لم يكن قد تمّ تحديد موضع الحفرة بناءً على علمٍ ودرايةٍ بموقع المياه، هذه سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

هذا فيما يختصُّ بالاستخلاف والقدرة والريادة؛ بالمعنى العام، أي إنه علوٌ واستخلافٌ وتمكينٌ لمن تتوافر فيه الشروط، وهو ما نشاهده اليوم من علوّ القوى المادية وتمكينها في الأرض، أما عالم النور والروح فإن العمل، وصلاح العمل، وسننيته؛ إنما يتعلق بالنوايا وبسلامة الإيمان، وليس عموم مجرّد الإيمان وأثر ذلك على نفسية الإنسان، فأمر عالم الروح يتعلق «بالأمانة» و«سلامة الخيار»، فإن كان إيماناً بالله، وحباً فيه، وطاعة له، وقصداً لنفع خلقه؛ فللمؤمن الأجر والثمرة «خالصة» في الآخرة، وإلا كان نصيبُ المشرك، والمنكر، والمستكبر، والضال، نصيب الدنيا، وما له في عالم النور والروح من خَلاق، ولذلك؛ فإن المؤمن المهتدي إذا اجتهد وأصاب فله أجران: أجر الثمر في الدنيا، وأجر النية في الآخرة، وإذا اجتهد وأخطأ فله أجر النية في الآخرة فقط، أما الدنيا فليس له فيها ثمرٌ.

صيامه إلا الْجُوعُ، وَرُبَّ قَائمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قيامه إلا السَّهَرُ»[1] و﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت:٤٥) و﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ (الماعون:٤-٧)، ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ (طه:٢-٣)، ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ (الزمر:٤١)، ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة:٢)، ﴿ وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ (البقرة:١٥١)، ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ (المائدة:١٥)، ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ (الأعراف:١٧٠).

وهذا يعني وفق منطوق عموم الآيات أن مجرد الإيمان والنية لا يكفي في هذه الحياة الدنيا لتحقيق القدرة والريادة ما لم يصحبها موضوعياً العملُ، وبشرط أن يكون عملاً صالحاً؛ أي عملاً وفق السنن والنواميس الإلهية في تسيير الكون وتسخيره، ولذلك؛ فإنه يكون لمن اجتهد وأخطأ أجرٌ واحدٌ، وهو أجر النية والإيمان في الآخرة، أما مَن اجتهد وأصاب موضوعياً وسننياً فإنَّ له أجرَين؛ أجر التسخير والثمرة في هذه الدنيا، وأجر النية والقصد الإيماني «الخيِّر» في الآخرة؛ لأن هذا الأداء الخيِّر هو «أداء أمانة الاستخلاف».

---

(١) أخرجه ابن ماجه.

إن ما انتهى إليه حالُ المسلمين من التمزق والتخلف والتهميش لا يفسره إلا تشوه الخطاب والرؤية، وتشوه المنهج، وتشوه الثقافة، وتردي الوجدان، وانهيار المؤسسات، وضياع حسّ المسؤولية، والبعد العام من شخصيتهم المعاصرة، الأمر الذي أدى بهم – كما نرى- إلى ضعف الدافعية الحياتية الإعمارية الحضارية الخيِّرة التي أودعها الله في فطرة البشر، وجعلها غايةَ أصل خلقهم وفطرتهم.

وبكل تأكيد فإن ما أصابهم من تشوهات وخلط وسطحية في الخطاب كان لا بد له من أن ينتهي بهم إلى ما هم عليه من الضعف والتمزق والهوان والغثائية.

ومن ظواهر المرض العقدي الفكري التربوي، الذي يحيِّر اللبيب، بشأن نفسية الإنسان المسلم، الذي يجب أن يتولى الخطابُ أمرَ علاجه، وأن يحلَّ إشكاليته، هو ذلك التناقضُ الذي يوضح عمق الهوة التي بلغها التشوه النفسي الوجداني لدى الإنسان المسلم، الناجم عن خلط الخطابات، ومبالغات الترهيب، وسوء استعمال جلال القداسة.

فنحن نعلم أن الإنسان المسلم، على مرِّ عصور التخلُّف والانحدار، يخاف من الله ويرهبه، ولا يرى فيه إلا العين التي ترصد حركاته وسكناته وهفواته في سره وعلنه، ومن يكون إحساسه الغالب هو الخوف، فهو لا يحبُّ، وهو يبتعدُ وينأى، ويعمل بالحد الأدنى، ولذلك نجد أن الإنسان المسلم المعاصر لا يكاد يعرف معنى إحساس الحب والتعلق الحق بالله، وهذا لا يتفق ولا يتسق مع قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ (البقرة:١٦٥)، ويقول الرسول ﷺ: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى

يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا»[1] إلا إذا شئنا أن نقول: بأن (المؤمنين) بالمعنى القرآني، لم يعودوا موجودين في هذا الزمان!!

وهذا على وجه القطع فهمٌ غير صحيح لهذا الإشكال، وإنما كل ما يدل عليه أن المسلم يعاني من إشكال فكري عليه أن يسبر غوره، ويحل عقدته؛ ليجد نفسه، ويحقق ذاته، كما يحب ويرغب؛ لأن الحقيقة أن أبناء الأمة مؤمنون، وأن هناك أمة هي في أشد الشوق لحبِّ الله؛ لأن المسلم في الحقيقة - وهو لا يعلم - يحبُّ الله لكونه أصلاً يحبُّ الخيرَ، ويحبُّ الحقَّ، ويحبُّ العدلَ، ويحبُّ الرحمةَ، ويحبُّ السلامَ، وهذه الصفات هي صفات الله في ضمير المسلم. والمسلم كذلك يكره الشر والباطل والظلم والقسوة والعدوان، وهذه الصفات هي صفات الشيطان، لكن هذه الأمة بما ينصبُّ عليها من خلط الخطابات بالتهديد والوعيد قد أضحت دون دليلِ رؤيةٍ وعملٍ، ودون بوصلةِ إبحارٍ، ودون خارطةِ طريقٍ، فما عادت تعرف ذاتها، ولا تهتدي طريقها؛ لأن الخطابات الإسلامية لم تَعُدْ تفرِّقُ بين المؤمن من جهة، والجاحد والمعاند من جهة، وأصبح المسلمون، في خطاب الهوية والوعظ، هم من «أكثر الناس» «الذين لا يعلمون» ولا يصلحون، ويذنبون ويعصون ويفسدون!!!.

والكثير من هذه الخطابات الموجهة إلى المسلمين والمؤمنين، وإلى الصغار والأطفال قبل الكبار، وما هو على شاكلتها، هي جهلٌ وتخليطٌ في الخطابات، وهي توظيفٌ سلبي للدين والقداسة، وقد انتهت ترهيباتها إلى تكوين نفسية العبيد بين أبناء الأمة، تلك النفسية التي تتسم بالفردية والسلبية والخوف؛ الأمر الذي أسلس قيادة الأمة، وأفسد حياتها، وهمّشها، وجعلها - كما نرى- في مؤخرة ركب الأمم، أداءً وقدرةً وكرامةً.

---

(١) اخرجه احمد.

يجب أن نكون على يقين أن الإنسان المسلم في جوهره إنسانٌ خيِّرٌ، وقوةٌ خيِّرةٌ، لو فُعِّلَ وأُحْسِنَ خطابه؛ فهو يحب الخير، ويحب الحق، ويحب العدل، ويحب الرحمة، ويحب السلام، وهذه صفات الله، فهو في الحقيقة يحبُّ الله حباً حقيقياً، وهو لا يعلم.

والإنسان المسلم يكره الشر، ويكره الظلم، ويكره القسوة، ويكره العدوان، فهو يكره الشيطان وطريقه، كراهة حقيقية، وهو لا يعلم.

والله سبحانه وتعالى يعلم ما في فطرة الإنسان وطبعه من صراع نور الروح وظلمة الطين، فهو غفورٌ رحيمٌ لمن أحبه وسعى إليه، يقبل توبته، ويمحو زلته، ويقيل عثرته، ويغفر سيئته، ويضاعف حسناته، ويفرح بعودته فرحَ الرجل في الصحراء وقد ضاعت راحلته وعليها طعامه وزاده، ومن ثم وجدها، « **وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ - أَوْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ - لَوْ لَمْ تُخْطِئُوا لَجَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقَوْمٍ يُخْطِئُونَ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ** »[1].

ولو تبين المسلم حقيقة أمره ومشاعره ومعنى حياته، ولو أخذه الخطاب في ذلك بالرفق والحب والتنوير والتيسير، لأقبل واجتهد، وسعى وأصلح، وأتقن وعمَّر، وحقق ذاته كما فطره الله، ولحرص على رضا المحبوب، وخشي من غضبه خشية حبٍّ وخوفٍ إيجابي يقربه من الله ولا يبعده عنه؛ لأنها ليست خشية خوفٍ ورعبٍ ورهبةٍ تُيَئِّس الإنسان وتبعده[2] عن ربه ودينه، وتقتل في نفسه دوافع العمل

---

(١) أخرجه الإمام أحمد.

(٢) أدعو أخي القارئ الكريم للاطلاع على مقال نشرته في مجلة إسلامية المعرفة، التي يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي في العدد ١٤ سنة ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م عن قانون العقوبات الإسلامي الذي يعد أحد القضايا، التي تثير الخوف والرعب عند كثير من الناس، ومن المسلمين، وحينما تأملتها بخطابٍ إيجابي تكشفت عن أبعاد لم تكن تخطر لي على بال، وبدت في ثوبٍ إيجابيٍّ مطمئنٍ لا يثير خوفاً ولا رعباً.

والإتقان والإعمار؛ ليصبح أنانياً فردياً ليست له في الحياة إلا غاياتٌ أنانيةٌ يأخذ منها ولا يعطي إلا بدافع سلبي أناني، لا بدافع إعماري إيجابي يجد فيه ذاتــه، ويحققهـــا بالتفاعل البنَّاء والتواصل والعطاء، فهـــو على وجه الحقيقة كائنٌ مهمّشٌ ميـــتٌ في ثياب الأحياء.

إنه من المؤسف في خلط الخطاب المسلم الشائه، وبالتالي في الضمير المســـلم الذاهل، أن يقترن «الرحمن» بـــ«الحرمـــان»، وأن تقتـــرن «البهجـــة واللـــذة» بـــ«الشيطان»، وكأن المسلم في ركاب الشيطان يحقق ذاته وفطرته، وفي ركـــاب الرحمن يسحق ذاته ويخمد فطرته، والله سبحانه وتعالى يقول في محكـــم كتابـــه في خطاب المؤمنين والناس أجمعين:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ (الأعـــراف:٣١-٣٢)، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝٨٧ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ (المائدة:٨٧-٨٨)، ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ (هود:٦١)، ويقول رسول الله ﷺ: « وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ...».

المسؤولية على عاتق المفكرين والتربويين

إن علماءَ الأمة ومفكريها ومربيها ومثقفيها مدعوون إلى وقفةٍ جادةٍ شموليةٍ يعاد فيها النظر إلى مجمل ثقافة الأمة المعاصرة وفكرها وأطروحاتها وخطاباتها؛ لمعرفة ما أصابها من وجوه الخلل، وتشخيصه، وإعادة صياغة الفكر والمنهج والثقافة و«الخطاب»؛ بما يعيد للأمة عافيتها العقدية والثقافية والتربوية، ويبني المؤسسات الفاعلة التي تقضي على السلبية والفساد، وتحقق قدرة الدعوة والتربية الدينية والإعلام، واستقلال مؤسساتها عن السلطة التنفيذية؛ حتى تنجو من مرض تزييف إرادة الأمة، ومن تهميش الدين ومفاهيمه ومقاصده، وتضع نهايةً لتوظيفه في خدمة مصالح رجال السلطة وأعوانهم، وفي تمكين الاستبداد والتبديد والفساد، في حياة الأمة العامة، وفي مختلف مؤسساتها.

إذا أدركنا ما عليه حال الأمة، على ما هي عليه اليوم، وحال رؤيتها الكونية، وحال ثقافتها ومنهج فكرها وأساليب تربيتها وبناء وجدان أبنائها، وما أصاب كل هذه الخطابات من خلطٍ وتشويهٍ، انتهى بها إلى السطحية والترهيب وتوظيف الدين لمصالح أصحاب النفوذ والسطوة والسلطان في المجتمعات المسلمة، والذي يبدأ بالطفل بمنهج الإملاء والاستظهار والمتابعة، وقهر العنف المادي والمعنوي، وتوظيف رموز القداسة لكبت روح النقد والفحص والتمييز، وكل ما يجره ذلك على عقلية الإنسان المسلم ووجدانه لاحقاً، إذا أدركنا ذلك نكون قد توصلنا إلى أهمية مسؤولية المفكرين والتربويين والمثقفين والعلماء والمستنيرين، وأهمية بذلهم وجهادهم في التصدي لإصلاح الخطابات العقدية والفكرية والثقافية والتربوية، بدءاً من العناية

بخطاب التربية للآباء، وكافة المؤسسات التي تقوم على شؤون الدعوة، وعملية التربية والتعليم الديني، ومؤسسات الإعلام التي يجب أن تتمتع بالاستقلال عن السلطة التنفيذية، وأن يتم اختيار قيادات هذه المؤسسات، على أن يكونوا من المؤهلين علماً ودرايةً وخلقاً، وأن يتمَّ ذلك عن طريق الانتخاب من قِبَلِ جمهور الأمة؛ ضماناً للنزاهة والولاء للدين والأمة فقط، وليس لمصالح رجالات السلطة وأصحاب النفوذ والمصالح الخاصة.

كما أن من المهم أن تعاد صياغة التعليم العالي وإعداد جميع الكوادر الفكرية والعلمية والمهنية؛ لكي تتحقق في مناهج التعليم العالي أيضاً وحدةُ المعرفة الإسلامية في تكوين عقلية الإنسان المسلم ودافعية الرؤية الإسلامية في نفسيته؛ حتى يحقق بدوره في الحياة مهمةَ الاستخلاف والإعمار الخيِّر، وبناء حضارة الأمة بكل الحبِّ والاقتناع والرغبة والإتقان، كما فطر الله الإنسان، وكما أراد له حين نفخ فيه الروح، واستخلفه، ووهبه أداة العقل، وحمَّله أمانة التصرف، وفطر في نفسه أشواق خيار الحق والعدل والرحمة والسلام، في مقابل نوازع الطين والغاب.

ومن المهم في هذا الصدد، الإشارة إلى تجربة الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، التي بدأت مسيرة تجربة «إسلامية المعرفة»؛ التي أكَّدت «وحدة المعرفة»، واهتمت بأمر التربية الوجدانية «مؤسسة الأسرة والوالدية» و«التفكير الإبداعي» في «أدبيات التربية الإسلامية» وفي «مناهج التعليم الإسلامي»؛ فهذه التجربة تستحق من حركات الإصلاح، الدراسةَ والتأملَ.

إن المفكر المسلم، والمربي المسلم، والعالم المسلم، هم الأيدي القادرة على إدارة مفتاح تشغيل حركة التغيير والإصلاح الفكري والوجداني في الأمة، وخاصة في مجال

التربية المتعلق أمرها بـ (الوالدين والأسرة) والتعليم المتعلق أمره بـ (المدرس والمدرسة)؛ لكونهما أساس كلّ تغيير وإصلاحٍ يسعى إلى تغيير الفرد؛ الذي بدوره يقوم بتغيير المجتمع والأمة ومؤسساتها؛ اتساقاً مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد:١١).

إن على العقل المسلم، والإنسان المسلم، في سعيه للإصلاح، أن يذكر أن مقياس النجاح وسلامة الأداء، هو بسلامة النتائج، وليس بمزايدات الدعاوى، ودون ذلك لا يكون إلا كما نرى؛ لغواً وعجزاً وجعجعةً وهراءً مكرراً معاداً، وعلى أبناء الأمة في هذا الخضم أن يذكروا أنهم أمة رسالة النور والروح السامية؛ التي يجب أن تتسلح بالقدرة والقوة، في نصرة العدل؛ حيث «القوة للحق» في مواجهة انحطاط الطين وتظالمه[1]؛ حيث «الحق للقوة»، وصدق الله القائل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ (الزلزلة:٧-٨)، وأنه سبحانه ألهم النفوس فجورها وتقواها، وزودها بقدراتها، وحمَّلها مسؤولياتها، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ (الشمس:٩-١٠)، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (التوبة:١٢٠)، وهو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ (الملك:٢)، وهو سبحانه القائل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ (الكهف:٧-٨).

---

(١) ﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ هكذا كان الإنسان قبل أن تنفخ فيه الروح، وهو يكون كذلك إذا تجرد في هذه الدنيا من عالم الروح ومن قيم الروح التي أودعها الله في فطرة الإنسان ونزل بها بيان القرآن.

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (التوبة:١٠٥) و﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ (سبأ:١٣)، و﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ (آل عمران:١٩٥)، و﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ (النور:٥٥).

ومن المهم أن نذكر في ختام هذا البحث؛ أنه دون استعادة الرؤية الحضارية الكونية القرآنية، ودون استعادة وحدة المعرفة الإسلامية وأساليب التربية الوجدانية السليمة، فإن مفردات «الخطاب الإسلامي» ومفاهيمه وقيمه تصبح كقطع الآلة المفكّكة؛ فهي على الرغم من نفاستها في حَدِّ ذاتها؛ إلا أنها تبقى عديمة الفائدة والجدوى ما لم ينتظمها إطارها العام، وهكذا أمر «الخطاب الإسلامي»؛ فدون رؤيته الكونية القرآنية الحضارية لن يكون للمسلم، ولا للأمة رؤيةٌ ودافعيةٌ يُبْنَى بها الكيان، وتتحقق يها الذات المسلمة.

وملاحظة ختامية أخيرة يحتمها واقع الحال؛ فإن الأمة قد عانت، وما تزال تعاني، من تخليط الخطابات، إلا أن الأمر الذي يثير الخوف أيضاً -بسبب من ملابسات الصراعات والخطط والأزمات التي تعصف بالأمة في هذه المرحلة - هو أن يوظّف بعضُ أصحاب الأغراض والمصالح الخاصة «الخطابَ الإصلاحي الناقد» في غير ما يهدف إليه المفكرون والإصلاحيون؛ في دفع مسيرة الإصلاح في الأمة، وترشيدها وتنمية طاقاتها، وتجديدها، خدمةً للإنسان، وتصحيحاً لمسار الحضارة الإنسانية في خدمة الخير والعدل والإخاء والسلام، «لهذا وجب التنويه» كما يقولون ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

كما أن من المهم، ألا يثني الأمةَ ورجالَ الفكر والإصلاح فيها، أيُّ معوِّقٍ عن مواصلة مسيرة العمل والإصلاح، فيجب ألا يتردد أو يتقاعس أحدٌ، عن مواصلة العمل، خشيةَ النعيق، وأن تأتي الجهود الإصلاحية -من منطلق الرؤية الذاتية -جهودَ فعلٍ مصلحٍ دافعٍ؛ بعلمٍ، وخطةٍ، وهدفٍ، وليس مجرَّد جهودِ دفعٍ ودفاعٍ، أو مجرَّد أصواتِ توسُّلٍ وتبريرٍ؛ فيكون العمل مجرَّد ردود أفعال وتفجُّرات تأتي عند النوازل، وهجمة الأحداث؛ لتخمد بعد ذلك، وتضيع هباءً، كغثاء السيل، لا أرضاً تقطع، ولا ظهراً تبقي، ولا عدوًّا ترد، ولا قدرةً تنتج، أي إن مسيرة العمل والإصلاح المنتج الواعي يجب – على الرغم من كلِّ الظروف – أن تستمرَّ في صبرٍ وتصميمٍ، فليس للأمة، دون سرى الإصلاح الجاد الشجاع، منجاةٌ ولا مخرجٌ.

وعلى الله قصد السبيل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مراجعات في الخطاب الإسلامي المعاصر

الأستاذ الدكتور أحمد الريسوني (*)

خطابنا الإسلامي ملزم بأن يعتبر أن اليهود ليسوا سواء، وأن النصارى ليسوا سواء، وأن الغربيين ليسوا سواء، وأن الأمريكيين ليسوا سواء، وأن العلمانيين ليسوا سواء، وأن حكامنا وأحزابنا ليسوا سواء، وأن المنحرفين والمفسدين ليسوا سواء... إن هؤلاء جميعاً، منهم القريب ومنهم البعيد، ومنهم المنصف ومنهم الحاقد.

أعني بالخطاب الإسلامي كل الأشكال التعبيرية البيانية الرامية إلى التعريف بالإسلام وأحكامه ومقتضياته والدفاع عن قضاياه المعرفية أو العملية، بغية جعل الناس يتقبلونه ويتمسكون به ويهتدون بهديه.

هذه الأشكال التعبيرية، الشفوية والكتابية، قد تكون عبارة عن اجتهادات وآراء وفتاوى فقهية، وقد تكون بياناً للمعتقدات وحجاجاً عنها، وقد تكون كلاماً في

(*) أستاذ أصول الفقه ومقاصد الشريعة.. جامعة محمد الخامس (المغرب).

المبادئ العامة للإسلام وأسسه الاجتماعية والتشريعية، وقد تأخذ شكل خطبة ووعظ وإرشاد وترغيب وترهيب، وقد تأتي عبر جدالات وسجالات مع المخالفين والمناهضين، أو مع الواقع المعيش...

وفي جميع هذه الأشكال وغيرها، فإن الخطاب الإسلامي، يبقى صياغة بشرية وتعبيراً بشرياً، يصطبغ قليلاً أو كثيراً بزمانه وبيئته، وبصاحبه وطبيعته وموقعه، سواء في ذلك الموقع الاجتماعي، أو الموقع المذهبي، أو حتى الموقع الجغرافي.

فإسلامية «الخطاب الإسلامي» لا تجعل منه عين الإسلام، ولا تعطيه ضمانة مطلقة بمطابقته الكاملة للحقيقة الإسلامية، كما أن تأثر الخطاب الإسلامي بمختلف المؤثرات البشرية، لا يسقط عنه بالضرورة صفته الإسلامية ومضامينه الإسلامية، على تفاوت، وقُرب أو بُعد، في ذلك.

وإذا كان الخطاب المعتمد في أي ظرف من الظروف، لا بد وأن يأتي متأثراً بظرفه، وبمختلف مكونات ظرفه، فلا بد - تبعاً لذلك - من أن يخضع هذا الخطاب لمراجعات متعددة، من عصر لآخر، ومن ظرف لآخر.

- لابد من المراجعة لتجاوز ما تغيرت أسبابه وموجباته، مما يكون في زمن دون زمن، وفي ظرف دون ظرف، وفي عرف دون عرف.

- لا بد من المراجعة أيضاً، لأجل استيعاب ما جَدَّ وما طرأ، وأخذه بعين الاعتبار في الخطاب الجديد.

- ولا بد من المراجعة لتصحيح الأخطاء والانزلاقات ومظاهر الإفراط والتفريط.

- ولا بد لهذه المراجعة أن تكون مراجعة علمية متبصرة. فإذا تمت المراجعة على هذا الأساس، وبهذه الصفة، فإنها تكون نوعاً من التجديد الديني الوارد في قوله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**»(١)

أما المراجعات العشوائية، أو اللاواعية، وغير العلمية، وكذلك تلك التي لا تكون إلا رضوخاً للضغط والتهديد، فإنها قد تتحول إلى مجرد تراجعات، أو قد تكون من قبيل قول القائل: «وداوني بالتي كانت هي الداء»، وقد تخلط بين الداء والدواء...

وأحسب أن هذه المبادرة الحميدة الصادرة عن مركز البحوث والدراسات بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية القطرية، والمتعلقة بموضوع «الخطاب الإسلامي المعاصر: دعوة للتقويم وإعادة النظر»، هي من قبيل المراجعات العلمية الواعية، التي نحتاجها من حين لآخر.

في هذا السياق تأتي هذه المساهمة، لتقف عند مجموعة من الاختلالات والثغرات التي يعاني منها الخطاب الإسلامي المعاصر، أو بعض مدارسه، أو بعض رموزه وحَملة لوائها. هذه الاختلالات والثغرات بعضها قديم، أو بدأ قديماً، وما زال عندنا اليوم من يتبناه أو يعيد إنتاجه، وبعضها وليد عصرنا وظروفنا اليوم.

ومما يجدر التنبيه عليه أن ما سأتطرق إليه من مراجعات وملاحظات قد لا تنطبق على عموم الخطاب الإسلامي، ولكنها في الغالب من سماته الشائعة الواسعة الانتشار.

---

(١) أخرجه أبو داود.

القسم الأول: مراجعات في فقه الدين

١- رسالة الدين ووظيفته التدين:

لماذا الدين؟ ولماذا التدين؟

هذه إحدى أمهات القضايا في كل خطاب إسلامي، بل في كل فهم أو عمل يتعلق بالإسلام. ولا مبالغة إذا قلت: هي أم القضايا الإسلامية والدينية عموماً. فإذا تم فهمها وتصورها وتمثلها بشكل صحيح سليم، فإنها تصبح منتجة وضامنة لخطاب إسلامي سديد ورشيد، وإذا وقع الاختلال والقصور فيها، كانت منبعاً وسبباً لاختلالات لا حصر لها في الخطاب الإسلامي وفي الممارسة الإسلامية، التي هي خطاب عملي.

واليوم نجد اختلافاً كبيراً واختلالاً خطيراً في هذه القضية، سواء عند المسلمين ودعاة الإسلام فيما بينهم، أو بين عموم المسلمين وغير المسلمين.

هناك من لا يرون في الدين إلا أنه أداء لحق الله وأداء لحق العبودية لله، فالدِّين دَيْن نؤديه إلى صاحبه.

وهناك من يرون في الدين مجرد تكاليف وأعباء وتضييقات، يجب على الناس تقبلها وتحملها تقرباً إلى الله وابتغاء لثوابه، وتجنباً لعقابه. فهو عندهم **«محنة دنيوية»** من أجل **«منحة أخروية»**.

وهناك من يرون أن الدين المتين والإيمان الصادق، إنما يتحققان بالتشدد وقهر النفس والمبالغة في التحريم والاحتياط في ذلك، وأن الترخيص والتيسير والاعتدال إنما هو من رقة في الدين وضعف الإيمان، وقد يرى فيه بعضهم نوعاً من الانحلال والتفسخ أو التفسق...

وهناك من لا يرون للدين من وظيفة سوى أنه ابتلاء وامتحان، لا يعقل له معنى ولا يدرك له مغزى، **فافعل ولا تسل.**

وبالمقابل هناك من يريدون الدين مجرد اعتقاد قلبي عاطفي، أو مجرد انتماء قومي قَبلي. ولا يريدون ديناً يزعجهم ويتدخل في حياهم ويقيد تصرفاهم، فهم أدرى بشؤوهم ومصالحهم!

ومنهم من يرون أن «كثرة التدين» مجرد هالة نفسية خاصة بأصحابها، وأن «الملتزمين» عموماً عندهم فائض غير مبرر من الدين والتدين، أو عندهم هوس ديني.

وهناك نخبة عريضة من المثقفين ومن السياسيين، لا يرون في الدين إلا أنه منافس أيديولوجي وسياسي.

وهناك من لا يتجاوز فهمهم للدين وتعاملهم معه ومع أهله، كونه مشكلة أمنية، وأن التدين عبارة عن مادة سريعة الاشتعال شديدة الانفجار، أو أنه وسيلة فعالة للتحريض والتعبئة، فيجب زيادة التدابير، والاحتياطات الأمنية بقدر زيادة التدين والمتدينين.

وقد ذهب بعض المفكرين الغربيين - ومن تبعهم من بعض أصحابنا - إلى أن كل مسلم هو مشروع إسلامي، وكل إسلامي هو مشروع متطرف، وكل متطرف هو مشروع إرهابي...

فالمشكلة في النهاية - أو بالأحرى في البداية - تكمن في الإسلام وفي التدين به.

ومن المثقفين المتفلسفين - من هنا وهناك - من يعتبرون الدين والتدين نزعة غيبية خرافية أسطورية، تظهر وتنمو عند غياب الوعي وغياب الفكر النقدي، وعند غياب التفسيرات العلمية للأشياء، وأن هذه الترعة تشتد خاصة عند الكوارث والأزمات.

لست الآن معنياً بالمواقف التي ترفض الدين - أو الإسلام خاصة - من أصله، وتعتبره مشكلة سياسية أو أمنية، أو عائقاً أمام الحرية والتنمية والحداثة والديمقراطية...

وإنما الكلام الآن عما هو «خطاب إسلامي».

الخطاب الإسلامي اليوم، يمكن أن نستخرج منه ثلاثة مواقف أو ثلاث رؤى في هذه المسألة:

- هناك من يجعلون الالتزام بالدين مشكلة دنيوية علينا أن نتحملها لنحل بها مشكلتنا الأخروية: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ (آل عمران:١٨٥) وهذا كل ما في الأمر.

- وهناك من يعتبرونه حلاً للمشكلة الأخروية، وهو أيضاً حل للمشكلة الدنيوية، لكن إذا قامت الدولة الإسلامية، أو الخلافة الإسلامية، وإذا تحقق «تطبيق الشريعة الإسلامية»، أي أنه حل أخروي مؤجل إلى حينه، وحل دنيوي موقوف التنفيذ. وهذا الموقف يؤول عملياً إلى الموقف الأول، ولو أنه - نظرياً - يختلف عنه.

- وأما الرؤية الثالثة: وهي في الخطاب الإسلامي باهتة - فهي ترى في الدين، وتجد فيه، **هداية جاهزة وسعادة ناجزة**، وهو في آن واحد حل عاجل في الدنيا وآجل في الآخرة، وأن هذا كله لا ينتظر دولة ولا خلافة، لا ينتظر قيامها في ذاتها، ولا قيامها هي بتطبيق حدود الشريعة وقوانينها. فإذا تحقق قيام الدولة، وتحقق قيامها بتطبيق الشريعة، ففي ذلك تمام نعمة ومزيد سعادة. وفي الحالتين، فإن الدين يظل حلاً للمشاكل وليس مصدراً للمشاكل.

رسالة الدين ووظيفته هذه، والآثار المرجوة للإيمان به والعمل بمقتضاه، لا يمكن تحديدها وحسمها إلا بالاعتماد المباشر على نصوص الشرع وما نطقت به وألحقت عليه. وهذه نماذج منها ومن دلالاتها في الموضوع.

١- الدين هداية ونور:

أول ما بعث لأجله الرسل وأنزلت لأجله الكتب هو أن يكون الناس على بصيرة وعلى هدى، وعلى نور من ربهم، يعرفون الحقائق الكبرى المتعلقة بخلقهم، وغاية وجودهم وحياتهم، وما بعد حياتهم وموتهم، فهذه هي الغاية الأولى والأساس لتتريل التوراة والإنجيل والقرآن، وسائر ما أنزل الله لعباده، يقول تعالى:

- ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ ﴾ (المائدة:٤٤).

- ﴿ وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ (المائدة:٤٦).

- ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ ﴾ (آل عمران:١-٤).

- ﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ (المائدة:١٥-١٦).

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (يونس:٥٧).

٢- الدين تزكية واستقامة:

الهداية تقود إلى الاستقامة، ومعرفة الحق تدعو إلى اتباعه، ومجيئ النور إنما هو للاستنارة به، وإنما هو للإبصار والاعتبار، وهنا يأتي العنصر الثاني من العناصر المكونة لماهية الدين ورسالته: استقامة وارتقاء، وتزكية ونماء، وصلاح وإصلاح، بهذا بعثت الرسل، وبهذا نطقت الكتب:

- ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ (الأعلى:١٤-١٩).

- ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ (الشمس:٩-١٠).

- ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة:٢).

- ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء:٩).

- ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الأحقاف:٣٠).

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الأحقاف:١٣).

- ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ (فصلت:٦).

- ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (٩) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴾ (الجن: ١-١٤).

- ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٦).

٣- الدين رحمة ومصلحة وسعادة:

- الله تعالى غني عن عباده وسائر خلقه، غني عن إيمانهم وعبادتهم وأعمالهم، لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية. وإنما يريد من دينه وشرعه، أن يكون الناس على ما هو أرقى وأزكى، وما هو خير لهم ورحمة، وسعادة وسكينة. ولذلك فهو سبحانه لا يريد بهم عنتاً ولا مشقة ولا عسراً، بل يريد لهم عكس ذلك كله.

- ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

- ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (التوبة:١٢٨-١٢٩).

- ﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾ (طه:١-٢).

- ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ (طه:١٢٣-١٢٤).

- ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (الأعراف:١٥٧).

- ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ (الحديد:٢٥).

فالاستفادة من الإسلام والاستمتاع بنعمته وجني ثمار العمل به، ليست مؤجلة إلى الآخرة، وليست خاصة بنعيمها، بل هي تبدأ فور الإيمان، وتزداد بزيادته ورسوخه، وتستمر وتنمو بقدر العمل به، وبقدر صحة العمل به.

فالهدى والنور وشفاء النفوس وما في الصدور، والعلم والحكمة، والتزكية والاستقامة، والرأفة والرحمة، واجتناب الضلالة والشقاوة، والاستمتاع بالطيبات دون انزلاق إلى الخبائث، والائتمار بالمعروف والانتهاء عن المنكر، وإقامة العدل

والقسط، وتحصل السكينة والطمأنينة... هذه كلها ثمار آنية وقطوف دانية، في الدنيا قبل الآخرة، في الحياة الفردية والجماعية، ودون توقف على الخلافة والدولة الإسلامية.

الخطاب الإسلامي - كتابياً أو شفوياً أو عملياً - يجب أن يتجه ويوجه إلى هذه الثمار والقطوف، وأن يجعل الناس يمسكون بها ويستفيدون منها قبل أن يقوموا من مقامهم، وقبل أن يفارقوا مجلسهم، وأن يحققوا ذلك في يومهم قبل غدهم، وفي حياتهم قبل مماتهم. وإذا لم يتحقق ذلك فالخلل في الخطاب أو في تلقي الخطاب.

نسبة كبيرة من الخطاب الإسلامي اليوم - وحتى قبل اليوم - تقنع المتدينين بضرورة الشقاء والعنت في الدنيا من أجل سعادة الآخرة. بينما خطاب الشرع يقول: اسعدوا في الدنيا لتسعدوا أكثر في الآخرة: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ (البقرة:٢٠١)، ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (النحل:٩٧)، ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الإسراء:٧٢)،

وفي الحديث الصحيح عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**»[1].

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان.

فهل يحرص خطابنا الإسلامي على تمكين أصحابه ومخاطبيه من إدراك حسنات الدنيا والتمتع بها؟ وإدراك الحياة الطيبة والعيش في أكنافها؟ وإدراك حلاوة الإيمان والسعادة بها؟ أم أن هذه مجرد شؤون دنيوية، ليس لها اعتبار في الدين والدعوة؟!

ليس على الخطاب الديني أن يحول - ولا بد - الفقراء إلى أغنياء، والمرضى إلى أصحاء، والمفسدين إلى أسوياء. وليس منتظراً منه -بالضرورة - أن يطهر الأرض من المظالم والمفاسد والآلام، ويخلصها من الجبارين والمتسلطين المعتدين.

ولكنه يستطيع - إذا فهم دينه ورسالته - أن يجعل الناس سعداء بإيمانهم، مطمئنين بعبادتهم، متحضرين بأخلاقهم، متزكين بآدابهم، مفلحين باستقامتهم، فرحين حتى بتعبهم ونَصَبهم.

يستطيع الخطاب الإسلامي أن يبني وينظم مجتمعات ومؤسسات قوامها السكينة والطمأنينة، والمودة والرحمة، والتكافل والإيثار، والبر والإحسان، وسعادة الدنيا والآخرة.

الخطاب الإسلامي حين يسير في هذا الاتجاه، وحين يحقق إنجازات في هذا الاتجاه، وحين يصبح القائمون عليه والمستقبلون له، أسعد في قلوبهم، وأهدى في عقولهم، وأزكى في نفوسهم، وأرقى في أعمالهم، وأنقى في سلوكهم، وأهنأ في أسرهم وحياتهم، وأنفع لمجتمعاتهم، حينئذ يكون هذا الخطاب على طريق الله ومنهجه، ويكون محققاً لدينه ورسالته.

إن الدين ورسالته نعمة لا نقمة، وهداية لا نكاية، وسعادة لا شقاوة، ومنفعة لا مضرة، ويسر لا عسر، ورحمة لا قسوة.

- تكاليف الدين بين المكاره والشهوات:

بعض إخواننا اللفظيين ممن يستهويهم الإعنات والتشديد، يتعلقون ببعض ألفاظ الشرع ويقعدون عند ظواهرها، ثم يحملون عليها كل دينهم وخطابهم، ويُخرِّجون عليها فقههم وفتاواهم. من ذلك فهمهم وتوجيههم لحديث النبي ﷺ: «**حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ**»[1].

من هذا النص وأمثاله ينطلق كثير من الدعاة والوعاظ والخطباء والمفتين، فلا يكادون يتركون شيئاً مما تشتهيه الأنفس وتلذ به، إلا ذموه أو حرموه، وحذروا منه ونفروا، على أساس أنه من أهواء النفوس ومن الشهوات التي حُفَّت بها النار. ولا يكادون يتركون شيئاً مما تستثقله النفوس وتضيق به، إلا مدحوه وعظموه، ورغبوا فيه أو أوجبوه، على أساس أنه من المكاره التي هي طريق الجنة.

إن الشهوات المقصودة في الحديث، إنما هي الحالات التي حرمها الله تعالى وصرح بتحريمها: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾، ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾، وهي شهوات - أو حالات - محدودة معدودة. والله تعالى حينما يحرم بعض الشهوات في بعض الحالات، فلما يكون فيها من مظالم ومفاسد وأضرار، ثم إنه سبحانه لا يحرمها إلا ولها بدائل كثيرة من جنسها ومن غير جنسها، مما هو حلال طيب.

وعلى العموم فالشهوات التي تقود إلى نار الآخرة، هي نفسها تقود أيضاً إلى نار الدنيا. ونحن نرى اليوم بعض هذه الشهوات وهي تقود الأفراد والمجتمعات إلى

(١) صحيح مسلم، أول كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

الأمراض الجسمية والنفسية والعقلية، وإلى إضعاف الإنتاج والتنمية، وإلى إشاعة نفسية العبودية الاستهلاكية، وإلى التفكك العائلي والمجتمعي، وإلى الانحراف والجريمة... وهذا بعض ما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ (مريم:٥٩).

وقد عبَّرت الآية بالاتباع الذي يعني الانقياد والاسترسال والاستسلام. فهي دعوة إلى الرشد والاتزان والاعتدال والارتقاء، وليست ذمًّا مطلقاً للشهوات أو منعاً مطلقاً لطلبها والاستمتاع بها، وقد قال الله سبحانه: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ... ﴾ (آل عمران:١٤).

فهذه الشهوات وغيرها، الله تعالى هو الذي خلقها لنا وسخرها لنا وزينها لنا وأذن فيها لنا. وليس فيها شيء محرم ولا مذموم في أصله، وإنما الذم والتحريم يقعان على حالات مخصوصة منصوصة، وهي محدودة معدودة، ومنها حالة الانهماك والاسترسال والإفراط. وكل شيء زاد عن حده انقلب إلى ضده.

وأما المكاره التي حفت بها الجنة، والتي لا بد لنا منها، فهي من قُبيل المكاره التي يجدها كل واحد حين يستيقظ من نومه، وينقطع عن راحته وينطلق إلى عمله. وهي من قبيل الجهود التي يبذلها جميع الناس إذا جدوا في أعمالهم والتزاماتهم وطموحاتهم. وهي من قبيل المعاناة التي يتحملها الطالب في دراسته والباحث في بحثه، والمبدع في مشاريعه، والرياضي في تداريبه ومسابقاته. ففي هذا كله - وسواه - مكاره تود النفوس لو أعفيت منها واستراحت من عنائها، ولكن هي ذي الحياة وطبيعتها وقوانينها، كما قال الشاعر:

تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغبٍ في ازدياد

فمثل تلك المتاعب والمكاره قد يجدها الإنسان في طهارته وصلاته، وفي صومه وزكاته، وفي حجه وجهاده، وقد يجدها حتى في إمساك لسانه وكظم غيظه وكبح غضبه.

ولكن الذي يجدُّ في أمره ويقدر ما هو بصدده، وينظر إلى العواقب والمآلات وإلى النتائج والتبعات، هذا تهون عليه هذه المكاره حتى تتلاشى، وحتى يصبح غير آبه بها ولا مكترث لها، كما قيل: من عرف ما قصد، هان عليه ما وجد. وقد يرتقي الإنسان في إيمانه وفي تقديره للأمور، وفي جديته وحماسه لها، حتى تتحول المكاره والمتاعب إلى متع وملاذٌ جديدة، كما قال ﷺ: « **وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ**»[1].

على أن هذه المكاره والمتاعب والمشاق التي يتعين تحملها سعياً إلى مصالح الدنيا والآخرة، ليست محمودة ولا مطلوبة لذاتها، وإنما لأجل المصالح والمقاصد المتوقفة عليها. ومن هنا يرى الإمام الشاطبي أن المكلف لا يصح منه ولا يجوز له أن يقصد الوقوع في المشقة وأن يقصد تحملها، «فإذا كان قصد المكلف إيقاع المشقة، فقد خالف قصد الشارع، من حيث إن الشارع لا يقصد بالتكليف نفس المشقة. وكل قصد يخالف قصد الشارع باطل، فالقصد إلى المشقة باطل، فهو إذاً من قبيل ما ينهى عنه. وما ينهى عنه لا ثواب فيه، بل فيه الإثم إن ارتفع النهي عنه إلى درجة التحريم. فطلب الأجر بقصد الدخول في المشقة قصد مناقض»[2]

(١) سنن النسائي، رقم ٣٨٧٩ .
(٢) الموافقات بشرح الشيخ عبد الله دراز، ط٢، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.

إلى أن قال رحمه الله: «...لأن الله لم يضع تعذيب النفوس سبباً للتقرب إليه ولا لنيل ما عنده»[1].

وإذا كان الشارع الحكيم لا يقصد معاكسة الناس في شهواتهم ولا حرمانهم من ملذاتهم - كيف وهو الذي خلقها فيهم وأباحها لهم - ولا يقصد كذلك إعناتهم وتنغيص حياتهم وراحتهم، وإنما يقصد - تحديداً وحصراً - الارتقاء بشهواتهم ونوازعهم، والسير بهم إلى أسمى مصالحهم ومراتبهم...

إذا كان الأمر على هذا، فلا يصح المضي مع الخطابات التي تؤثر التشديد وتعتبره خدمة للدين، وتؤثر التحريم وتعتبره دائماً هو الأحوط للدين، وتجافي رخص الشرع وتخفيفاته وتعتبر ذلك عزماً وحزماً، تصادم سنن الفطرة بدعوى قمع النفوس وترويضها.

سمعت وقرأت مراراً لبعض من يتحدثون - مثلاً - عن الزواج، ويركزون على كونه عبادة وقربى إلى الله تعالى، - وكل هذا صحيح - وأن المقصود منه هو إنجاب النسل، وليس الشهوة واللذة التي تأتي عرضاً...، بل إن بعضهم يذمون الزواج بغرض قضاء الشهوة المشروعة، ويرون ذلك نقصاً أو طعناً في شرعيته وسلامته.

وبعضهم يستنكفون ويعرضون عن ذكر ما في الزواج من شهوات وملذات حسية ونفسية، خلقها الله تعالى وشرعها لعباده ليلاً ونهاراً.

وحضرت مرة حفل زفاف، فسمعت أحد الوعاظ ينكر على أصحاب الحفل تخصيص أوقات طويلة للأناشيد وبعض التسالي، في حين لم يخصصوا للقرآن الكريم إلا دقائق معدودة، مع موعظة قصيرة !! فقلت له: في نظري، لو لم يقرأوا القرآن

---

(١) نفسه.

أصلاً في هذا الحفل، وكذلك لو لم تلق أي موعظة أو كلمة، لما كان عليهم من حرج.

فللقرآن أوقاته وحصصه ومقامه، ويمكن إعطاؤه حقه أو بعض حقه، ولو لم يكن له نصيب من وقت حفل الزواج. وكذلك الوعظ والإرشاد. أما الإنشاد والتغني والتسلي والابتهاج بالوليمة وما فيها، فهذا هو المشروع وهو المسنون لهذه المناسبة، وهو اللائق بها والأصل في إقامتها.

ولست بهذا أعارض قراءة القرآن الكريم، ولا إلقاء كلمات تثقيفية أو وعظية، في الأعراس، ولكني أعارض الترعات التشديدية الرامية إلى تضييق ما وسعه الله والتنفير مما أحله، مع المبالغة في بعض التكاليف أو وضعها في غير مواضعها.

من هذه المبالغات ما سمعته من أحد الدعاة الفضلاء – وكان ذلك قبيل قدوم شهر رمضان – وهو يحث على العناية بالقرآن في شهر رمضان، قائلاً: «فمن اعتاد منا ختم القرآن مرة في الشهر – وذلك أضعف الإيمان – فرمضان فرصته ليجتهد أكثر...»

والشاهد عندي هو اعتباره ختم القرآن مرة في الشهر، هو أضعف الإيمان...!! فماذا أبقى لمن يختمه في أربعين يوماً، وفي شهرين، ومن يقرأه ولا يكاد يختمه، ومن هم دون ذلك؟! هل أبقى لهم صاحبنا من الإيمان شيئاً؟! مع أن الله تعالى يقول ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ (المزمل: ٢٠)، ثم يؤكد ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾.

فالترغيب في القرآن الكريم وتحبيبه للنفوس وتحفيز الناس على الإكثار من قراءته وتدبره، كلها مقاصد جليلة، ولكنها لا تسوغ المبالغة ولا المغالاة ولا الضغط على الناس بإطلاق أحكام غير صحيحة.

القسم الثاني: مراجعات في فقه الواقع

الخطاب الإسلامي يتعامل مع واقعه بكل مكوناته، مع واقعه القريب والمباشر، ومع واقعه البعيد وغير المباشر، وإن كان الواقع «البعيد غير المباشر» آخذاً في التقلص ليصبح كل شيء قريباً ومباشراً.

الخطاب الإسلامي المتعلق بالواقع المعيش، يتضمن تصورات معينة لهذا الواقع، يتضمن تشخيصاً وتحليلاً لأوضاعه وأحواله، يتضمن توصيفات وتصنيفات لعناصره ومكوناته، يتضمن أحكاماً عليه وأحكاماً لمعالجتها أو مواجهتها...

هذا الخطاب الإسلامي المتعلق بالواقع، يحتاج أيضاً إلى كثير من المراجعات والتعديلات. هناك اليوم جهود وكتابات متزايدة في هذا الاتجاه. وهي تؤكد صراحة أو ضمناً حاجة الخطاب الإسلامي إلى المراجعة والترشيد في هذا الجانب الذي تنبني عليه أحكام ومواقف وتصرفات وردود أفعال لا حصر لها ولا حد لآثارها وتداعياتها...

١- طغيان النظرة السوداوية العدائية:

واقعنا الإسلامي، والواقع العالمي من حولنا، وفي عقر ديارنا، ليس واقعاً وردياً بهيجاً، وليس واقعاً ساراً مطمئناً، ولكنه أيضاً عالم مليئ بالإيجابيات، والتطورات الإيجابية، غني بالفرص والإمكانات الجيدة وغير المسبوقة.

غير أن الخطاب الإسلامي تتركز أنظاره على الجوانب السوداء والكالحة والسيئة والسلبية، فهو غارق في تأملها ووصفها ونقدها ومواجهتها.

لا أريد لخطابنا الإسلامي أن ينصرف نظره عن هذه الجوانب، ولا أن يراها ثم يتجاهلها أو يجاملها، ولكني أريده أن يرى الصورة كلها ويرى الكأس كلها، أعلاها وأسفلها، وأن يعتصم بمنهج العدل والإنصاف، لأنه منهج القرآن ومنهج الإسلام، فالاعتصام به اعتصام بكتاب الله وبحبل الله.

يقول الله جل وعلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة:٨) ، وقال أيضاً: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (الأنعام:١٥٢).

فسواء مع المسلمين، أو مع المشركين، أو مع الملحدين، وسواء مع الأشقاء، أو مع الحلفاء، أو مع الأعداء، وسواء مع المسالمين أو مع المحاربين، أو الأقربين أو الأبعدين...

مع هؤلاء، جميعاً، وفي الحالات كلها، يجب أن نتحرى الحقيقة ونقولها، ويجب أن نعترف لكل ذي فضل بفضله، ولكل ذي حُسن بحُسنه، ولو كان بعيداً عنا أوبغيضاً عندنا. ولقد علمنا القرآن الكريم أن نعترف حتى للخمر والميسر بما فيهما من منافع للناس، ولو أنهما خبيثان محرمان على قاعدة: ﴿ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَاۗ ﴾ (البقرة:٢١٩).

وها هو القرآن الكريم يحتفي بامرأة وينوه بتعقلها وصدق كلامها حتى وهي مشركة وتترأس قوماً مشركين: ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ

مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (النمل:٢٩-٣٤).

قال العلامة القرطبي: «فأخذت في حسن الأدب مع قومها، ومشاورتهم في أمرها، وأعلمتهم أن ذلك مطّرد عندها في كل أمر يعرض، بقولها: ﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ (النمل:٣٢) فكيف في هذه النازلة الكبرى؟ فراجعها الملأ بما يقر عينها، من إعلامهم إياها بالقوة والبأس، ثم سلموا الأمر إلى نظرها. **وهي محاورة حسنة من الجميع**».

وقال العلامة محمد الأمين الشنقيطي: «ألا ترى أن ملكة سبأ - في حال كونها تسجد للشمس من دون الله هي وقومها - لما قالت كلاماً حقاً صدقها الله فيه. ولم يكن كفرها مانعاً من تصديقها في الحق الذي قالته فيما ذكر الله عنها: ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ﴾ (النمل:٣٤) فقد قال تعالى مصدقاً لها في قولها: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾... »

الخطاب الإسلامي اليوم - في معظمه - ينظر إلى أوضاع الإسلام والمسلمين على أنها أسوأ من أي وقت مضى من تاريخنا، وأن ما يسودها من مظالم ومآسٍ، ومن انحرافات ومساوئ، لا يزداد إلا تعمقاً واستفحالاً، وأن تفريط المسلمين في دينهم وبعدهم - أو إبعادهم - عن أحكامه، لم يسبق له مثيل.

كما يتم النظر إلى الأوضاع العالمية - في جميع جوانبها وعلاقاتها بالإسلام والمسلمين - على نحو أكثر سوداوية، وأشد إدانة ومقتاً.

ولا شك أن الكثير مما تتأسس عليه هذه النظرة من سمات عالمنا وواقعنا في هذا العصر، صحيح ولا سبيل إلى إنكاره أو التقليل من شأنه. غير أن هذه الصورة الحالكة لواقعنا وواقع العالم من حولنا، يغيب عنها، أو يغيب معها، أمران مهمان لا يصح إسقاطهما من الصورة.

الأمر الأول، هو أن ما يعرفه العالم الإسلامي، والعالم الغربي، والعالم عامة، في هذا العصر، من انحرافات عقدية وفكرية وسلوكية، وما يعرفه من مفاسد ومظالم ومجازر، وما يعرفه المسلمون خاصة من تفريط ديني وهوان سياسي، ومن تفرق وتشتت وصراعات داخلية...

أقول: كل هذا قد عرفه التاريخ القديم، أو عرف مثله، أو عرف نظيره، أو قريباً منه أو أسوأ منه.

لقد غزا التتار المسلمين في عاصمة خلافتهم، وأعملوا فيهم القتل والتنكيل والإذلال، حتى ظن المسلمون أن قيام الساعة قد آن أوانه وظهرت.علاماته...

وغزا الصليبيون أطرافاً واسعة واحتلوا القدس الشريف نحو قرن من الزمان.

وسقطت الأندلس - بأيدي المسلمين وأيدي أعدائهم - وتعرض المسلمون فيها لما لا مثيل له من التنكيل وحرب الاستئصال، الديني والبدني.

وإذا كانت أجزاء قليلة من العالم الإسلامي ترزح اليوم تحت الاحتلال، فقد كانت معظم البلاد الإسلامية تحت الاحتلال طيلة النصف الأول من القرن العشرين الميلادي.

وإذا كان المتدينون وبعض دعاة الإسلام يتعرضون اليوم للتضييق والاضطهاد، فهذا يوشك أن يعدَّ نعمة ورحمة إذا قيس بما تعرض أمثالهم في أزمان غابرة. وأصحاب الأخدود على ذلك شهود... ومثالهم مجرد قطرة من البحر القديم.

والناس اليوم - في الشرق والغرب - ليسوا بأكفر من السابقين، الذين كذبوا الأنبياء وقتلوهم وهم ينظرون إلى آياتهم ومعجزاتهم وصدقهم. ولا ينبئك مثل خبير، فالقرآن الكريم قد أطال وفصل في قصص الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم الجاحدين المستكبرين، الطاغين المعتدين، من نوح وقومه إلى محمد وقومه...

ولو تأملنا قصة نوح مع قومه، وهم أقرب عهداً ببدء الخليقة وبالفطرة التي فطر الله الناس عليها، لوجدنا فيها من الكفران والطغيان ما ليس له نظير في زماننا: نبي رسول يدعو قومه إلى ربهم ليغفر لهم خطاياهم، وتستمر جهوده ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً، بجميع الأساليب الممكنة، وعلى مدى يقرب من عشرة قرون... وفي النهاية نجده عليه السلام يقول: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ (نوح:٧)، ويقول: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ (نوح:٢٦-٢٧).

ونجده لم يؤمن معه إلا قليل، ولم يكن من هذا القليل لا زوجته وعشيرة حياته ولا ولده وفلذة كبده!

وأما التاريخ - تاريخ الإسلام، وغير الإسلام، وما قبل الإسلام - فَجْرٌ لا ساحل له، ولا يتسع هذا المقام لدخوله واستخراج أمثلته ونماذجه، وهو، على كل حال، في متناول الجميع. ولكن المؤكد الذي لا ريب فيه أنه مليء بالضلالات والظلمات، والمناكر والمظالم، وأن جزءاً منه - يزيد وينقص - إنما هو ﴿كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ (النور:٤٠).

والمقصود أن زماننا - على وجه الإجمال - ليس أسوأ ولا أكفر ولا أضل من الأزمنة الماضية. هذا الأمر الأول.

الأمر الثاني، هو أن زماننا هذا له محاسن وفضائل وإيجابيات لم تكن في أزمنة ماضية، أو على الأقل، هي اليوم أحسن مما كانت فيما مضى، وإن منهج العدل والحق يقتضي أن نتعرف على هذه المحاسن والإيجابيات ونعترف بها، حتى ولو كانت مغمورة في المساوئ والسلبيات، وحتى لو كانت لخصومنا وأعدائنا.

وأبدأ بأوضاع المسلمين وواقعهم، ثم أثنّي بالوضع العالمي. إذا قارنا واقع المسلمين اليوم، بما كان عليه الحال قبل قرن أو قرنين من الزمن، فسنجد دون شك تغيرات كثيرة سلبية وسيئة، وأحياناً كارثية. ولكننا نجد أيضاً تطورات كبيرة إيجابية، توازي الجهة الأخرى أو تزيد عليها.

الخطاب الإسلامي اليوم يركز كثيراً على الجوانب السيئة، فيكثر الحديث عن سقوط الخلافة، وعن المد الاستعماري، وعن تهميش الشريعة وإسقاط مرجعيتها لفائدة القوانين المستوردة نصاً أو روحاً، وعن فساد الأنظمة القائمة وتبعيتها وعجزها، وعن الفساد الخلقي والاجتماعي، وعن المجاهرة بالمعاصي والمنكرات، مع التضييق على المصلحين والدعاة...

ولكننا بالمقابل، نستطيع أن نرصد تحسناً كبيراً في الحالة الإسلامية العامة، مع تحسن نسبي في جوانب معينة.

وأهم ما يمكن رصده عموماً، هو التحسن المتزايد في تدين المسلمين والتزامهم بدينهم، سواء على الصعيد الشعبي العام، أو على صعيد الفئات الشابة والمتعلمة بصفة خاصة، وكذلك على صعيد الجاليات المسلمة المهاجرة في أوربا وأمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية.

ويمكن أن نعتبر المائة سنة الماضية، وخاصة العقود الأربعة الأخيرة منها عصر انبعاث حقيقي للإسلام، عقيدة وثقافة وممارسة.

فإذا قارنا - مثلاً - ممارسة أركان الإسلام، من صلاة وصيام، وزكاة، وحج...

وإذا قارنا حالة المساجد، والعناية النوعية بالقرآن الكريم، وأداء شعيرة العمرة، في رمضان أو على مدار السنة...

وإذا قارنا التفقه في الدين وجودة التدين والوعي الديني...

وإذا قارنا العمل الدعوي والوعظي، والتعليم الإسلامي، والإعلام الإسلامي...

وإذا قارنا الحركة العلمية ودور العلماء، وحركة الفكر والاجتهاد والتجديد...

إذا قارنا هذه الجوانب بين ما هي عليه اليوم، وما كانت عليه قبل عشرات السنين، فلا شك أنها اليوم أحسن من ذي قبل وأرقى من ذي قبل، مع الإقرار بأن ألواناً من الفساد والانحراف، وكذلك بعض التحديات الجديدة، قد ظهرت، أو تفاقمت وتعززت.

وأما الوضع العالمي، وخاصة في علاقته مع الإسلام والمسلمين، فإنه أيضاً لا يخلو من محاسن وإيجابيات يجب الاعتراف بها وتقديرها والتعامل المفيد معها.

ومن أهم هذه الإيجابيات التحسن الكبير في الحريات، وأعني خاصة حرية الفكر، وحرية التعبير، وحرية الدعوة، وحرية العمل الجماعي والعمل المؤسساتي...

طبعاً هناك حواجز وقيود وحدود على هذه الحريات، تتفاوت من بلد لآخر، ومن ظرف لآخر، ومن مجال لآخر. ولكن على العموم، فإن هذه الحريات تتمتع اليوم بتوسع قل نظيره في التاريخ القديم، وتتمتع بوسائل عمل لم يتقدم لها نظير.

هذه الحريات تتعزز بسند أخلاقي ثقافي، هو ثقافة حقوق الإنسان بمواثيقها ومؤسساتها، وبسند سياسي قانوني هو الفكرة الديمقراطية ومبادئها وأنظمتها.

لقد استفادت البشرية من هذه العناصر الثلاثة، وتحسن الكثير من أوضاعها السياسية والاجتماعية، الدينية والثقافية.

وكذلك استفاد منها المسلمون وبعض الدعاة وبعض الحركات الإسلامية، ولو بتضييقات أكبر وحواجز أكثر وضغوط أشد.

وهذه العناصر يمكن أن تكون أكثر إفادة ونفعاً للمسلمين، إذا أخذت بجدية وبصدقية وبفاعلية، بعيدا عن التزييف والبهرجة وسوء التوظيف. وسيزداد نفعها وتأثيرها ورسوخها حين يزداد إدراك المسلمين أنها - في جوهرها - من صميم دينهم وشريعتهم.

٢- آفة الخلط والتعميم:

الخطاب الإسلامي يواجه الكثير من المخالفين والمناوئين، ومن الخصوم المعادين. وبعض هؤلاء هم خصوم أو أعداء للإسلام والمسلمين، بهذه الدرجة أو تلك.

وحينما يتحدث الخطاب الإسلامي عن هؤلاء المخالفين أو المعادين، نجده - في الغالب - خطاباً تعميمياً، لا يفرق ولا يميز، ولا يستثني ولا يرتب. تجد الحديث عن اليهود، وعن النصارى، وعن الصليبيين، وعن المستشرقين، وعن الغربيين، وعن الأمريكيين، وعن العلمانيين، وعن الشيوعيين...

نجد الحديث عن أي صنف من هذه الأصناف - وأحياناً عن أكثر من صنف - يتضمن أوصافاً وأحكاماً تشملهم جميعاً، وتدينهم جميعاً، وتجعل منهم جميعاً خصوماً أو أعداء، أو متآمرين، وعلى درجة واحدة.

وفي هذا النوع من الخلط والتعميم أخطاء وأضرار كثيرة. فهو أولاً خروج عن الحقيقة وما تقتضيه من دقة وأمانة في الوصف والتشخيص. وهو خروج عن منهج العدل والإنصاف، الذي يقتضي إعطاء كل ذي حقه، وعدم تحميل أحد وزر آخر، ولو كان من دينه أو طائفته أو مذهبه. كما أن هذا الخلط والتعميم يؤدي إلى نوع من التعمية والتضليل لمن يصدقه ويأخذ به، بل إن صاحبه نفسه قد يقع في ذلك، فيفقد القدرة على معرفة الأمور بما هي عليه. ثم يتبع ذلك اتخاذ مواقف وتصرفات لا تجلب إلا مزيداً من المخالفين والخصوم، ومزيداً من الخصومة والمعاداة.

إن أكثر خلافاتنا وصراعاتنا عبر التاريخ، إنما هي مع أهل الكتاب من النصارى واليهود. وقد بدأت هذه الخلافات والصراعات منذ العهد النبوي، وخاصة في المرحلة المدنية منه.

ولقد تحدث القرآن الكريم كثيراً عن أهل الكتاب وعما تسرب إليهم وإلى دينهم وسلوكاتهم من تحريفات وضلالات وآفات، لكنه قال بعد ذلك: ﴿ ۞ لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران:١١٣-١١٥).

وحتى حينما يذكر وينتقد ما عليهم من مآخذ ومساوئ، نجده يميز ويخصص فيما يتعلق ببعضهم دون عامتهم.

- ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ... ﴾ (آل عمران:٦٩).

- ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ... ﴾ (آل عمران:٧٢).

- ﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ... ﴾ (آل عمران:٧٥).

- ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ ... ﴾ (آل عمران:٧٨).

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾ (آل عمران:١٠٠).

- ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ... ﴾ (المائدة:٨٠).

- ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ... ﴾ (المائدة:٨٢-٨٣).

- ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (آل عمران:١٩٩-٢٠٠).

وعلى هذا الأساس وهذا المنهج، فخطابنا الإسلامي ملزم بأن يعتبر أن اليهود ليسوا سواء، وأن النصارى ليسوا سواء، وأن الغربيين ليسوا سواء، وأن الأمريكيين

ليسوا سواء، وأن العلمانيين ليسوا سواء، وأن حكامنا وأحزابنا ليسوا سواء، وأن المنحرفين والمفسدين ليسوا سواء...

إن هؤلاء جميعاً، منهم القريب ومنهم البعيد، ومنهم أفاضل ومنهم أراذل، ومنهم المنصفون ومنهم الحاقدون، وكلهم قد يشتركون في معتقدات وصفات وتصرفات، ولكنهم يختلفون في آخرى.

فيجب أن تنبني أحكامنا عليهم ومواقفنا منهم وعلاقاتنا معهم على أساس التمييز والتصنيف والترتيب، لا على أساس الخلط والتعميم والتسوية. فهذا هو الأوفق لديننا والأنفع لنا ولغيرنا.

إن مقولة «**الكفر ملة واحدة**» لا يصح تعميمها وإطلاقها، ولا يحسن استعمالها بالمرة، والبديل عنها هو القول الصادق المصدق: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾، أي ليسوا ملة واحدة، أو ليسوا حالة واحدة، أو ليسوا درجة واحدة، بل ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (آل عمران:١٦٣).

ولو كان «الكفر ملة واحدة» لما سمي الشهرستاني كتابه باسم «**الملل** والنحل»، ولما سمى ابن حزم كتابه باسم «الفصل في **الملل** والأهواء والنحل».

إن التعميم والتسوية بين الناس وطوائفهم، وحشرهم في سلة واحدة، وبأوصاف واحدة، هو نظر ضحل ومسلك سهل، يفضله السطحيون والمتعجلون والعاجزون عن البحث والتدقيق والتمييز.

الخطاب الإسلامي المعاصر
المنهج والآليات

الدكتورة حليمة بوكروشة(*)

إن معرفة واقع الخطاب الإسلامي لا يقتضي الوقوف عند حدّ توصيف نقاط ضعفه وأوجه الخلل فيه، بل يتجاوز ذلك إلى محاولة تحديد الأسباب وفهمها، ومن ثمّ اقتراح الحلول المناسبة لها، وهو ما يساعد بلا شك على وضع تصورات عملية وفاعلة للارتقاء بالخطاب وتجاوز إشكالاته المنهجية والموضوعية.

لقد خلق الله الإنسان وكرّمه على سائر مخلوقاته، فقال جلّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٠)، وخصّه على سائر خلقه بخصيصة البيان، فقال جل من قائل: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ (الرحمن: ١-٤)، وقد اتسقت هذه الخصيصة مع اصطفاء الله سبحانه وتعالى لأنبيائه

(*) باحثة أكاديمية.. (الجزائر).

ورسله من سائر خلقه، فميّزهم بإدراك أبعاد لسان قومهم فقال: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ (إبراهيم:٤)، وخصّهم بالتمكن من خطابهم وحسن التفاعل معه، فمدحهم بحسن الإبانة والمحاجة والمجادلة والخطاب وما تعلق بهذه المعاني، فقال تعالى في نوح عليه السلام: ﴿ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ (الشعراء:١١٥)، وقال في إبراهيم عليه السلام بعدما حاجّ قومه: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ (الأنعام:٨٣)، وقال في داود، عليه السلام: ﴿ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ﴾ (ص:٢٠).

كما وصف الله نبيه ﷺ بالبيان فقال: ﴿ وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ (الحجر:٨٩)، وقد وُصف النبي ﷺ بأنه أوتي جوامع الكلم والبيان.. وبيّن القرآن الكريم وظيفة الرسل بكلمة جامعة فقال: ﴿ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ (النحل:٣٥).

كلّ هذا يبيّن أن النصرة الحق لدين الله ولدعوة الحق تكمن، بعد الإخلاص لله سبحانه وتعالى، في الحرص على إتقان واجب البيان، وأول وآكد صور هذا الواجب هو إتقان مخاطبة (الآخر)، والتمكن من إيصال الخطاب له، بطريقة تشد بها جميع جوارحه وأحاسيسه، طريقة يذعن لها عقله وعاطفته.

من هذا المنطلق التأصيلي الشرعي بات من الضروري معاودة النظر في «خطابنا الإسلامي» للتعرف إلى مواطن القوة فيه فنثمنها وننميها، ومواطن الضعف والنقص، فنصححها ونقويها، الأمر الذي يفرض على القائمين على المهمة التقعيدية لمنظومة «الخطاب الإسلامي»، والقائمين على المهمة التوصيلية لهذا الخطاب، بل وحتى القائمين على مهمة التلقي والتبشير بهذا الخطاب، أن يسهموا بشكل أو بآخر في تقويمه وتقويته. وهذا البحث محاولة متواضعة للتذكير بالعناصر المؤسسة «للخطاب الإسلامي» عساها تسهم في النهوض به وجعله طرفاً في معادلة التغيير، وما ذلك على الله بعزيز.

العناصر المؤسسة للخطاب الإسلامي

لاشك أن أي خطاب يرمي إلى التأثير على الواقع لابد وأن يكون منضبطاً بضوابط ناظمة، تستوعب عناصره المؤسسة له، الضامنة لبلوغه غايته. والعناصر المؤسسة «للخطاب الإسلامي» هي: مفهوم هذا الخطاب، ومضمونه، ومنهجه، وآلياته. وعليه فضروري بمكان إذا أريد للخطاب الإسلامي أن يكون في مستوى التحدي، سواء أكان هذا التحدي داخلياً أو خارجياً، إقليمياً أو دولياً، لابد وأن يكون مدركاً لحقيقته وحقيقة دوره، ملتزماً بمضمونه، منضبطاً بضوابطه، متوسلاً بآلياته الموصلة إلى منتهاه.

والكلام في الارتقاء «بالخطاب الإسلامي» إلى مستوى التحدي يبدأ بضبط أبجدياته، ورسم معالمه وخطواته، الأمر الذي يتطلب منا تحديداً مختصراً لمفهوم الخطاب ومضمونه، والتركيز على بسط منهجه وآلياته.

العنصر الأول: مفهوم الخطاب:

جاء في «لسان العرب» لابن منظور أن الخطاب والمخاطبة: مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبةً وخطاباً، وهما يتخاطبان. وفصل الخطاب: أن يفصل بين الحق و الباطل، و يميّز بين الحكم و ضده[1].

وقد ورد في القرآن الكريم لفظ «خطب» بتصريفاته إحدى عشرة مرة[2]، وورد بصيغة «خطاب» ثلاث مرات، في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة خطب، ١/٣٦١.

(٢) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٢٩٨.

(ص:٢٣)، وفي قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ (ص:٢٠)، وهي تدل على أهمية الخطاب وبيانه، وضرورة مزاوجته بالحكمة، ووردت هذه الصيغة في قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ (النبأ:٣٧). فخطاب المولى الحق عز وجل يقطع كل خطاب.

وقد استُعمِل لفظ «الخطاب» في الاصطلاح الأصولي للتعريف بالحكم الشرعي الصادر عن الله مباشرة، وهو القرآن أو الصادر عن طريق رسوله ﷺ، وهي السنة، فعرفوا الحكم الشرعي بأنه: «خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين اقتضاءً أو تخييراً أو وضعاً». وعرف الأصوليون الخطاب المتداول في المباحث الأصولية بأنه: «اللفظ المتواضع عليه، المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه»[١]، وقسموه إلى واضح الدلالة وخفي الدلالة، ومفهوم ومنطوق، وذكروا أنواعاً للخطاب، وتكلموا عن دليل الخطاب وفحوى الخطاب ولحن الخطاب، مما ليس مجاله هنا.

أما الخطاب في اصطلاح المعاصرين فقد تناولوه من زوايا مختلفة، باختلاف تخصصاتهم، منها: الزاوية الفلسفية والزاوية الأدبية واللسانية والنفسية والسياسية والفكرية والدعوية والإعلامية وغيرها من الزوايا، والذي يهمنا هنا هو المعنى الخادم لإشكالية البحث.

وممن قدم تعريفاً لمصطلح الخطاب جامعاً لمعاني المتقدمين لهذا الخطاب والمعاصرين طه عبد الرحمن، حيث قال: «إن المنطوق به - أي الخطاب - الذي يصلح أن يكون كلاماً، هو الذي ينهض بتمام المقتضيات التواصلية الواجبة في حق ما يسمى خطاباً، إذ حدُّ الخطاب أنه كل منطوق به موجَّه إلى الغير بغرض إفهامه

(١) الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٠م) ١/١٣٦.

مقصوداً مخصوصاً»[1]، وهو تفصيل لتعريف الأصوليين للخطاب. وبهذا المعنى الشامل يكون الخطاب الإسلامي ليس مسؤولية فرد بعينه، أو أفراد محصورين، وإنما هو مسؤولية كل فرد مسلم أياً كان تخصصه، فهو مسؤولية علماء الشريعة، وعلماء الإعلام، والاقتصاد والسياسة والعلوم الأخرى...إلخ.

فالخطاب، بمعناه العام، هو أداة التواصل بين البشر، والعامل الأساس في تشكيل بنيتهم الذهنية وتكوينهم العقلي وتركيبتهم النفسية، وهو الوسيلة الأساسية لبلورة القناعات وصناعة المواقف والاتجاهات والتحركات على مستوى الأفراد والجماعات. وهو أهم سلاح مشهر في الصراع الدائر للسيطرة على عقول البشر وتوجهاتهم، وأهم أداة لتسويق المشاريع الثقافية والفكرية والسياسية وغيرها من المشاريع.

أما الخطاب الاسلامي فهو الأداة المعبِّرة عن التصور الإسلامي للحياة والكون والإنسان، وهو المشكّل الأساسي للعقل المسلم، وأحد أبرز المصادر لوعي (الآخر) -غير المسلم- بالإسلام والمسلمين. كما أنه المرآة العاكسة لمدى تحضّر الأمة ومواكبتها التحديات المعاصرة، أو تأزمها ومراوحتها مكانها.

وبالرغم من أهمية دور الخطاب الإسلامي في عملية التغيير والإصلاح إلاّ أن الإنصاف يقتضي منّا الاعتراف بأن خطابنا كثيراً ما كان سبباً في تشويه تصوراتنا ومنظوماتنا بدل تسويقها. الأمر الذي يوحي بشدة أن إشكالية الأمة الاسلامية هي بالدرجة الأولى إشكالية خطابية، وأن لا سبيل لإعادة تشكيل العقل المسلم وبعث فاعليته وتأثيره دون إحداث ما يلزم من الإصلاح في الخطاب الإسلامي السائد.

---

(١) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان (الدار البيضاء: طبعة المركز الثقافي العربي، ١٩٩٨) ص ٢١٥.

العنصر الثاني: مضمون الخطاب الإسلامي

لن يسرف هذا البحث في الكلام عن مضمون الخطاب الإسلامي، بل سيكتفي باعتبار كلّ خطاب يتمحور مضمونه حول الإسلام، سواء كان في المجال العقدي أو الفقهي، أو الفكري، أو الفني، أو الإعلامي، أو السياسي، أو الاقتصادي...إلخ خطاباً إسلامياً، سواء أصدر الخطاب عن الله سبحانه وتعالى، أم عن رسوله ﷺ، أم عن الأمة بوصفها الوعاء الحاضن لهذا الدين، وسواء أكان خطاباً تكليفياً أم وضعياً، أم غيرها من أنواع الخطاب، والضابط للخطاب المقصود تناوله بالبحث هو الخطاب الذي يشمل: «إصلاح المجتمع إصلاحاً شاملاً»[1].

العنصر الثالث: منهج الخطاب الإسلامي:

إن الكلام عن منهج الخطاب الإسلامي يقتضي منا التعريف بمصطلح المنهج، ثم بيان أهميته بالنسبة للخطاب. فالمنهج هو «مجموعة الإجراءات التي ينبغي اتخاذها بترتيب معيّن لبلوغ هدف معيّن»[2].

ويمثل المنهج بالنسبة للخطاب الإسلامي ضرورة من الضرورات الفكرية، إذ من شأنه تجميع الطاقات وتنظيمها وتنسيقها لخدمة أهداف محددة، بطريقة تجمع بين الإتقان وحفظ الجهد والوقت. وبغياب المنهج يصير خطابنا الإسلامي ضرباً من الفوضى الفكرية المبعثرة للجهود والمهدرة للطاقات، وهو ما يفقد عنصر الإضافة النوعية والفعالة لدعوتنا، ويحرمها العطاء المتجدد المبدع.

وإذا كان غياب المنهج يورث فوضى على مستوى الأداء الخطابي، فإن قصوره يتسبب في تشويه مضمون الخطاب وتعميق أزماته.

---

(١) معروف الدواليبي، المدخل إلى علم أصول الفقه، ص٤١٣.

(٢) عبد المنعم الحفني، الموسوعة الفلسفية، ط١ (بيروت: دار ابن زيدون؛ القاهرة: مكتبة مدبولي) ص٤٧١.

من هذا المنطلق وجب التأكيد على أن نجاح الخطاب الإسلامي في تشكيل العقل المسلم وتحسين وعي (الآخر) بالإسلام يقتضي الاتفاق على أسس منهجية تضمن فاعلية الخطاب وتعزّز وظائفه الأساسية المتمثلة في: البلاغ والبيان والإقناع، كما تعصمه من الفوضى والتشويه.

الأسس المنهجية للخطاب الإسلامي:

سيتم عرض ومناقشة الأسس المنهجية للخطاب الإسلامي من خلال جملة ثنائيات أهمها:

أولاً: التنظير والتنزيل:

يعتبر التنظير من أهم الأدوات المنهجية التي يعتمدها الخطاب الإسلامي في التعريف بالمفاهيم والبدائل الإسلامية، والدفاع عنها أمام الأطروحات المناهضة لها، إن على المستوى المحلي أو العالمي. إذ يعمد الخطاب الإسلامي من خلال أداة التنظير إلى بيان الأصول الكلية للبدائل التي يطرحها، والمقاييس الأساسية لرؤيتها، والقواعد العامة لممارستها... إلخ.

ومع الاعتراف بأهمية البعد التنظيري في أي خطاب، مهما كانت فلسفته، فإن الإشكال في الخطاب الإسلامي هو أن يقابل هذا الحضور البارز لعنصر التنظير فيه ضموراً واضحاً لعنصر التنزيل، إذ مما يلاحظ على الخطاب الإسلامي عدم بذل الجهد المطلوب والمتوقع في بلورة البدائل الإسلامية في إطار التطبيق، من خلال تشخيص لواقع الأمة وتوصيف لمشكلاتها الحقيقية، ومن ثمّ تقديم برامج عملية وحلول تفصيلية للمشكلات والقضايا الملحة في حياة الناس.

ولعل من أسباب هذا الإغراق في التنظير والضمور في التنزيل حصر الخطاب الإسلامي نفسه في دائرة رد الفعل تجاه تشكيك الاتجاهات الفكرية الوضعية في امتلاك الإسلام لأنظمة فعالة ومتكاملة في السياسة والاقتصاد والاجتماع وغيرها

من المجالات، الأمر الذي جعل الخطاب الإسلامي أسير ثنائية النفي والإثبات. إذ كلّما نفت الاتجاهات الوضعية امتلاك الإسلام لنظام من الأنظمة السابقة، تولى الخطاب الإسلامي مسؤولية الردّ على هذا النفي بإثبات وجود هذا النظام في الإسلام، وكلّما حاولت هذه الاتجاهات إثبات خرق الإسلام لبعض المبادئ التي جعلها شعاراً له، كحقوق الإنسان والحريات الدينية والسياسية، سعى الخطاب الإسلامي جاهداً لنفي هذا الادعاء وإثبات احترام الإسلام لهذه المبادئ. وبحسن نية وعدم إدراك لهذا المنزلق صار خطابنا الإسلامي إما اعتذارياً، أو احتفائياً.

ومن تداعيات ضمور البعد التنزيلي في الخطاب الإسلامي تعزيز النزعة التشكيكية في صلاحية الإسلام كنظام حياة، ذلك أن عدم تجاوز الخطاب الإسلامي المستوى التنظيري في عرض البدائل الإسلامية يشكك في امتلاك المشروع الإسلامي لبدائل واقعية على مستوى التطبيق، بل ويشكك في صحة وحقيقة هذه النظريات، وكذا صلاحيتها ومسوّغات تطبيقها أو تبنيها، الأمر الذي يفقد الخطاب الإسلامي مصداقيته ويجعله - في نظر الكثير- خطاباً تبشيرياً، يبشر بالخلاص والفلاح أكثر منه خطاباً تغييرياً يملك مبادئ قوية وثابتة وبرامج واضحة وفاعلة.

ثانياً: التجزيئية والكلية:

من الثغرات المنهجية التي تضعف الخطاب الإسلامي، طغيان البعد التجزيئ على حساب البعد الكلي والنظرة الشمولية في معالجة مضامين الخطاب الشرعي وقضايا الواقع المعاش. ولقد تلبّس الخطاب الإسلامي بهذا البعد على مستويات عدة منها:

١- مستوى الفهم:

فالنظرة التجزيئية أثرت تأثيراً بالغاً على طبيعة فهم أحداث وقضايا الواقع ومعالجتها. وأبرز صور النظرة التجزئية في مستوى الفهم تناوُل القضايا المثارة في الساحة مجردة عن المحددات الزمانية والمكانية التي لازمت بروزها أو تشكّلها، وبالتالي عزلها عن سياقها

وظروفها، الأمر الذي جعل المعالجة التجزيئية للقضايا تتّسم بالسطحية الشديدة التي قد تصل إلى حدّ السذاجة في توصيف الحدث ومحاولة فهمه والتعامل معه، كل ذلك نتيجة تشوّه الصورة الحقيقية للقضية عند عزلها عن سياقها وظروفها.

من هنا وجب التأكيد على أهمية استحضار نظرية السياق في عرض الأحداث ومناقشة القضايا لفهم الحدث فهماً صحيحاً، ومن ثمّ صياغة تصوّر صحيح وشامل للتعامل معه وحلّ معضلاته.

والجدير بالملاحظة أن المنهج التجزيئي ليس أسلوباً يختاره منتج الخطاب لمعالجة القضايا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية... إلخ، وإنما هو في الغالب منهج يفرضه عليه ضعف ثقافته ووعيه بواقعه المحلي والإقليمي والدولي. فهو لا يستمد وعيه بالقضايا المثارة حوله من الواقع السياسي والاقتصادي والثقافي الذي يحيط به، وإنما يستمده من مقولات وأحداث تاريخية لا علاقة لها في أحيان كثيرة بالواقع الذي يتفاعل معه. كما تفرض عليه هذا المنهج التجزيئي العزلة المعرفية التي تحرمه لغة العصر التي تجمع بين العلوم النفسية والاجتماعية والتجريبية وغيرها مما يفقده أدوات التواصل مع الذات ومع (الآخر). من هذا المنطلق لم يعد مجديّاً أن ينغلق المنتج للخطاب الإسلامي على تخصصه الأكاديمي أو المهني، بل هو بحاجة، إضافة إلى تخصصه، إلى ثقافة واسعة وعميقة بواقعه المحلي والعالمي بكل تعقيداته، ذلك أن الجهل بالواقع هو انفصال عنه، والمنفصل عن الواقع سيحرم خطابه من البعد الواقعي الذي يثير في المتلقي حب الإطلاع والتعلّم والتغيير.

ويقابل المنهج التجزيئي الذري في فهم الأحداث والقضايا المنهج الكلي الشمولي الذي يقتضي عند دراسة أي قضية عرض الجوانب الموجودة فيها على الصعيد

السياسي والاجتماعي والثقافي والاقتصادي حتى تكتمل الصورة، لأن عزل القضية عن سياقها وظروفها يشوّه الصورة الحقيقية لها. وأهم ما في تشويه الحقيقة من خطر صياغة تصور خاطئ لكيفية التعامل معها.

فلا يمكن على سبيل المثال معالجة تأثير الإعلام على هوية المجتمع الإسلامي دون استحضار الراهن السياسي العالمي الذي يعتمد على عنصري: المعلوماتية وثورة الاتصالات من جهة، والعولمة بوجوهها المختلفة - لاسيما الثقافي منها- من جهة أخرى. لأن استيعاب ثنائية العولمة والمعلوماتية يساعد دون شك على فهم أسس صنع (الآخر) لمفاهيمه، وطرق تسويقها، والآليات التي يشكل بها البنية الذهنية والثقافية لمجتمعاته والمجتمعات الأخرى. إن فهم هذه الحيثيات سيرسم لنا صورة حقيقية لعمق تأثير الإعلام العالمي في الهوية الإسلامية، وهو ما سيساعدنا كثيراً على صياغة مشروع متكامل يتجاوز عقلية النبذ واللمز والبكاء على الأطلال، مشروع يرسم خطة ناظمة لتحجيم هذا التأثير ورفع مستوى مناعة المجتمع الذاتية.

كما لا يمكن فهم قضية الصراع العربي - الإسرائيلي فهماً صحيحاً دون استحضار المعطيات المتحكمة بالسياسة العالمية في هذا الصراع، واستحضار طبيعة العلاقة بين الدول العربية والإسلامية والنظام العالمي الجديد.

٢- مستوى البيان:

لا يزال الشائع في خطابنا عرض مضامين الخطاب الشرعي مجزأة ومفرّقة على أبواب مستقلة عن بعضها بعضاً (عبادات، ومعاملات، وأخلاق، وسير، واقتصاد... إلخ) دون محاولة الربط بينها ربطاً وثيقاً يظهر بوضوح التداخل المحكم بين مختلف أنظمة الإسلام. إذ لا يأخذ البعد الخلقي - على سبيل المثال - حقه في معالجة

قضايا العبادات والمعاملات، كما لا يأخذ البعد التعبدي والمعاملاتي حقه في معالجة قضايا الأخلاق والسلوك، ولا يربط - إلاّ فيما نذر - فقه الأحكام بفقـه السنن الإلهية في إنزال العقوبات العامة على الأفراد والمجتمعات من جراء شيوع المعاصي والمخالفات الشرعية.

ولقد تسبّبت هذه النظرة الجزئية في شيوع مفاهيم خاطئة عن الدين الإسلامي وعن التديّن به، منها: أن الإسلام وإن كان نظام حياة شامل، إلاّ أن مرتبة الأخلاق فيه دون مرتبة العبادات والمعاملات؛ وأن المخالفة الأخلاقية ليست بأهمية المخالفة في العبادات، أو المخالفة في المعاملات ليست بأهمية المخالفة في العبادات؛ وأن فقه الفرد الذي ينظم علاقة الإنسان بربه أهم وأولى من فقه المجتمع وفقه الدولة الذي يتناول قضايا تنظيم مؤسسات الدولة والمجتمع. فتجدنا نتحدث عن العمل كقيمة، وعن أهمية أن يأكل الانسان من كسب يديه، وعن الكسب الطيّب، ولا نبذل الجهد نفسه أو جهداً قريباً منه في مناقشة مشكلة البطالة ودور الدولة والمجتمع في معالجتها، والخطوات العملية للقضاء عليها. ونتكلّم عن الأمانة والخيانة في معاملات الأفراد اليومية دون أن يكون للفساد الإداري واستغلال المناصب الإدارية في خدمة الأغراض الشخصية نصيباً من هذا الكلام. كل هذا ونحن ندرك بل ونصرح أن الدين الإسلامي دين شامل وتعليماته كلية تكاملية، فصلاح المجتمع مرتبط بصلاح الفرد، وإصلاح الفرد يسهل بإصلاح المجتمع، وصلاح المعاملة تكون بصلاح العبادة، وصلاح العبادة ومباركتها تكون بصلاح المعاملة، وصلاح العمل يكون بصلاح العلم، وما إلى ذلك من القواعد المهمة المبيّنة في نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وآثار السلف الصالح.

٣- مستوى النقد:

من طبيعة التيارات والمذاهب العقدية والفكرية والسياسية أن يحكمها بناء نسقي متكامل ومتداخل العناصر ينضوي تحته كمّ من الجزئيات تتنوع وتتجدّد في كل آن وحين، كما تنبثق عنه سياسات وتحركات ومواقف تمرّر تحت أقنعة ووسائل خفية في الحياة الاجتماعية والثقافية والإعلامية والسياسية. وما تميز به الخطاب الإسلامي في نقده للمذاهب الفكرية المناوئة تركيزه على نقد الجزئيات دون الأنساق والأبعاد الفلسفية، في حين أن معرفة النسق أو البعد الفلسفي الذي يحكم اتجاهات (الآخر)، والكشف عن ثغراته ومعضلاته سيؤدي إلى تماوٍ تلقائي لكلّ الجزئيات المنضوية تحته.

من هنا يمكن الجزم بأن تجاوز نقد الجزئيات إلى نقد الأنساق يجعل الخطاب الإسلامي خطاباً فاعلاً، يكتشف النسق ويفضح السياسات ويلاحق الجزئيات. كما ينقله من النقد الاحتجاجي النمطي إلى النقد التغييري الفعّال. ولنا في علماء سلفنا الصالح أسوة حسنة، إذ كانوا يجادلون الزنادقة والباطنية وغيرها من الفرق الضالة من خلال نقد أنساقها والمقدمات المنهجية الحاكمة لها. وأبرز مثال على ذلك تعامل الإمام الشافعي مع قضية عربية القرآن الكريم التي أثارتها الحركة الشعوبية في عصره. هذه الحركة التي أرادت النيل من الإسلام من خلال النيل من العروبة عموماً واللغة العربية على وجه الخصوص، إدراكاً منها للعلاقة الجدلية بين الإسلام واللغة العربية. فراحت تطعن في أنساب العرب وتاريخهم وفي اللغة العربية من خلال إنكار مكانتها وأفضليتها على باقي اللّغات ومحاولة إرجاع اشتقاقات بعض ألفاظها إلى أصول فارسية وغيرها من لغات العجم، لإثبات عجزها عن التوليد الذاتي للدلالات والمعاني والمصطلحات، وبالتالي عجزها عن البيان، مما يثبت أنها ليست أخصب اللّغات.

ولقد أدرك الإمام الشافعي أن طعن الحركة الشعوبية في اللغة العربية ليس هدفاً في حد ذاته بل هو وسيلة لتحريف مدلولات النص القرآني من خلال إثبات أن اللغة العربية ليست الأداة الوحيدة للوحي، بل في القرآن الكريم لغات أعجمية أخرى غير اللغة العربية، ومن ثم لا يصح منهجياً فهم معاني القرآن الكريم واستنباط أحكامه من خلال قواعد ودلالات اللغة العربية فقط.

من هنا لم يهتم الشافعي بمناقشة عربية أو أعجمية الألفاظ التي اقترحتها الحركة الشعوبية، بل بذل جهده في إثبات محورية اللغة العربية في عملية البيان للنص الشرعي، كتاباً وسنة، من خلال التأكيد على مبدأين أساسيين: الأول: أن ليس في القرآن الكريم ألفاظ أعجمية، الثاني: أن القرآن الكريم يفهم وفق لسان العرب. ولقد انتهج الإمام الشافعي في تأصيل هذين المبدأين أسلوباً حوارياً عقلياً، يقوم على أساس عرض الشبهات الكلية المناصرة لفكرة احتواء القرآن الكريم على لغات أعجمية ومناقشتها مناقشة منطقية حتى إذا خلص إلى النتيجة المرادة أسندها بنصوص قرآنية.

ثالثاً: التلقين والتحاور:

لقد أوردت كتب اللغة معاني كثيرة للتلقين شاهدها أنه تفهيم الآخر ما لم يفهم[1]. ولقد تضمنت هذه المعاني دلالات مفادها أن الذي يقوم بعملية الإفهام طرف واحد يفترض في الآخر، أو بالأحرى يلحظ في الآخر، عدم القدرة على الفهم المنفرد المستقل للأمر المراد شرحه مع استعداده التام للتلقي. ومن دلالات معاني التلقين أيضاً أنه يعتمد على عنصري الثقة والتسليم من المتلقي تجاه الملقّن، من هنا استقر في العرف على أن الذي يقوم بتلقين الميت شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله أهله وأصدقاؤه، لتوفر عناصر الاستجابة. وهي عناصر تجعل من خطاب

(١) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة لقن، ١٣/٣٩٠؛ مختار الصحاح، ص٢٥١.

الملقّن خطاباً مباشراً لا يهتم كثيراً بالمقدمات المنطقية المساعدة على الإقناع بفكرته، لأن الطرف الثاني مسلّم له بالفكرة ابتداءً، وهو ما يجعل من العملية التلقينية عملية ضخ للأفكار والمعلومات في ذهن المتلقي دون فسح المجال له للتفكير المنطقي فيها والتحليل العلمي لها. وهذا النوع من الأساليب الخطابية لا ينمي قدرات الاستيعاب لدى المتلقي للخطاب الإسلامي المعاصر، كما لا يشجعه على بناء قناعات قوية وثابتة، وذلك لجملة أسباب أهمها:

- أن المنهج التلقيني يجعل - كما سبق ذكره - عملية الاتصال الخطابي تقوم على طرف واحد بدل طرفين: المخاطِب والمخاطَب، فتتعطّل بناء على ذلك في المتلقي موهبة التفكير، ومهارة البحث والتقصي.

- أن الخطاب التلقيني طريقة تسلّطية في التعليم لا تنتج في الغالب سوى قوالب بشرية ذات معرفة آلية، غير قادرة على التعاطي مع مختلف الأطروحات سواء على مستوى الفهم والاستيعاب أم التحليل والنقد. قوالب بحاجة دائماً إلى من يفكر لها ويحدد الرأي الذي يجب أن تتبناه، لأنها عاجزة عن المشاركة في أي مرحلة من مراحل مسيرة الإقناع وتشكيل الرأي.

ثم إن التطور الهائل الذي شهده ميدان الإعلام والاتصال، والثورة المعلوماتية التي نتجت عنه، وضع الإنسان المعاصر أمام كمّ ضخم من المعارف والمعلومات أكسبته نوعاً من الاستقلال الشخصي والتريّث الشديد في قبول وتبني الأطروحات التي تعرضها الخطابات المختلفة. هذا الوضع يفرض على الخطاب الإسلامي استحقاقات كثيرة أهمها: أن يتحاشى أسلوب التلقين ويتبنى أسلوب الحوار، الأمر الذي يضمن للخطاب الإسلامي دوراً فاعلاً في تكوين القناعات وصياغة الاهتمامات. في حين أن لجوءه إلى التلقين في تخاطبه مع الذات أو مع (الآخر) يجرّده من دور مهم جداً في

عملية التخاطب، وهو أن يكون طرفاً في حوار الإنسان مع ذاته ومع (الآخرين) كمرحلة أولى من مراحل تشكّل الرأي.

وبإمكان الخطاب الإسلامي أن يقوم بهذا الدور إن اعتمد أسلوب الحوار مع المخاطَب بإشراكه في الخطاب، والانطلاق معه من النقاط التي هي محل اتفاق، والتركيز عليها بدل حصر الخطاب في نقاط الخلاف وحشوه بصيغ الرفض والنفي.

رابعاً: العقل والعاطفة:

من الأسس التي يجب أن تحكم منهج الخطاب الإسلامي المعاصر المزاوجة بين العقل والعاطفة، وعدم الإفراط في أحدهما على حساب الآخر. والحكمة في ذلك أن الإغراق في الأسلوب العاطفي الإنشائي يضعف الخطاب ولا يبني قناعات، كما أن تراكم المعلومات والمعطيات العلمية لدى المتلقي حول موضوع معيّن لا يعني بالضرورة اقتناعه بهذا الموضوع. من هنا وجب على الخطاب الإسلامي مراعاة عنصر التكامل بين العقل والعاطفة في صياغة مضمونه، لأن كلّ واحد منهما يخدم جانباً مهماً في عملية التأثير والإقناع لا يسده الآخر.

فمخاطبة العقل عن طريق الاستدلال المنطقي واعتماد المنهجية العلمية في ترتيب الأفكار وعرضها وتحليلها منهج قرآني نبيل ركزت عليه الآيات القرآنية في دعوة (الآخر)، وختمت بالتنويه به آيات القرآن الكونية، وهو منهج يؤكد أن آلة التغيير هي العقل، الذي كرم الله به آدم عليه السلام، وأسجد له ملائكته، وجعله مناط التكليف، والفيصل بين الحق والباطل، والنور والضلال. ولم يختلف سلفنا، بالرغم من اختلاف مذاهبهم الكلامية، في أهمية العقل في عملية التفكير والاستدلال والاستنباط.

كما أن مخاطبة عاطفة المتلقي وشحذ طاقته وإثارة حماسته تجاه الفكرة المعروضة يفعّل استجابته، والسبب هو أن لكل إنسان مكوّناته الوجدانية ودوافعه التي تحدد

اتجاهاته وتحكم سلوكاته، وفي كثير من الأحيان يكون تغيير الدوافع في عملية الإقناع أهم وأولى من تغيير المعلومات. من هنا تتجلى ضرورة مخاطبة هذه الدوافع مباشرة، بعد تحديدها ومعرفة أسبابها ونتائجها.

العنصر الرابع: الآليات:

إن الكلام عن الأسس المنهجية للخطاب الإسلامي يقتضي وضع آليات لتثبيت هذه الأسس وضمان حسن إعمالها. ولعل من أهم هذه الآليات: التخطيط الخطابي؛ إتقان مهارات التخاطب؛ نقل إشكالية الخطاب الإسلامي من مستوى الأفـــراد إلى مستوى المؤسسات.

الآلية الأولى: التخطيط الخطابي:

يعرّف التخطيط، الذي أصبح سمة من سمات النشاط البشري في العصر الراهن، بأنه: «التحديد للأهداف المرجوة على ضوء الإمكانيات المتيسرة الحالية والمستقبلية وأساليب وخيارات تحقيق هذه الأهدف»، وأنه: «الإجراءات التي تتخـــذ لتلبيـــة حاجات المستقبل بأكثر الوسائل فعالية على أساس الخبرات السابقة، أو على أساس تحليل المعلومات الخاصة بالتنبؤ»[1].

ويتكوّن التخطيط من عناصر أربعة هي:

أ- تحديد الأهداف،

ب- إعداد وتنظيم أفضل الوسائل اللازمة لتحقيق الأهداف،

ج- وضع خطة متكاملة لتحقيق الأهداف،

د-متابعة تنفيذ الخطة للتمكن من حلّ مشكلات التنفيذ.

---

(١) نبيل عطاس، قاموس الإدارة، ص٥٢.

مفهوم التخطيط الخطابي:

التخطيط الخطابي هو دراسة علمية متكاملة ودقيقة لإشكالية الخطاب الإسلامي المعاصر، بغرض معرفة طبيعة هذه الإشكالية، وضبط حدودها وأبعادها، والبحث عن حلول لها، من خلال رسم خطة متناسقة تتضمن توصيفاً واضحاً للخطاب الإسلامي الراهن، وأهدافاً واقعية ومعمّقة لما ينبغي أن يكون عليه، والإمكانات والوسائل المتاحة والكفيلة بتحقيق هذه الأهداف، كلّ ذلك في ضوء توقعات محسوبة لحاجات الشرائح المستهدفة من الخطاب، وللمستجدات المرتقبة على أرض الواقع، مع تحديد أفضل الحلول للتعامل معها.

مسوّغات التخطيط الخطابي:

هناك جملة مسوغات تجعل من التخطيط الخطابي أولوية ملحة في إطار معالجة أزمة الخطاب الإسلامي المعاصر، لعل من أهمها:

- أن العجز عن التوظيف الأمثل للخطاب الإسلامي في معالجة قضايا الأمة يستدعي تحرّكاً جديّاً وعاجلاً لصياغة حلول عملية تخرج الخطاب من حالة العجز إلى حالة التفعيل، وأمر بهذه الأهمية والأولوية والضخامة يجب أن يخضع للتخطيط ولا يترك للتلقائية والعفوية.

- أن عدم امتلاك الأمة الإسلامية في عصرنا هذا للإمكانات المادية والنفوذ العالمي الذي ينقلها من مرحلة الانكفاء على الذات إلى مرحلة اختراق (الآخر) بفتح مجالات حيويّة في أرضه، يجعل من الخطاب الإسلامي، بمضامينه الحضارية الراقية، الوسيلة الوحيدة التي بها يمكن جلب اهتمام العالم بها، الأمر الذي يقتضي إعادة النظر في هذا

الخطاب ليكون في مستوى هذا التحدي، إن في الأداء أو في الأسلوب أو في المنـــهج. وهو مجهود ضخم ونقلة نوعية لا ضمان لنجاحهما إلاّ بجعل التخطـــيط الخطـــابي في مقدمة أولوياتنا، وألاّ يبقى ذلك متروكاً للظروف المواتية والمبادرات الفردية.

مقتضيات التخطيط الخطابي:

إن من مقتضيات التخطيط الخطابي أموراً ثلاثة:

أولاً: رسم سياسة واضحة ومتكاملة للخطاب الإسلامي:

والمقصود بهذه السياسة الخطابية: المبادئ العامة والتوجهات الرئيسة التي يـــبنى عليها التخطيط الخطابي. ودورها الأساسي تحديد الأهداف التي يعتزم تحقيقها في فترة زمنية محدّدة، وفي إطار وظائف الخطاب الإسلامي.

وتتضمن السياسات العامة للتخطيط الخطابي:

- أهداف خطابية خاصة تضبط مضامين ووظائف الخطاب الإسلامي في إطار المجتمع الإسلامي.
- أهداف خطابية عامة تحدّد طبيعة وصيغ التواصل مع (الآخر) غير المسلم.

ثانياً: وضع استراتيجية للخطاب الإسلامي:

تشمل المرحلة الثانية من التخطيط الخطابي وضع استراتيجية للخطاب الإسلامي المعاصر، هدفها ترجمة السياسات الخطابية التي تمّ رسمها إلى مشاريع عملية تترتـــب بحسب الأهمية والأولوية والنتائج المرجوة. والفارق بين السياسة والاســـتراتيجية أن السياسة تعنى بتحديد الأهداف أما الاستراتيجية فمضمونها وموضوعها هو كيفيـــة الوصول إلى تلك الأهداف، أي تحديد الإطار والأسلوب الذي من خلاله ستتم تعبئة وتنسيق وتوجيه الطاقات والموارد المادية والبشرية المتاحة في الحاضر والمستقبل، وهذا

بغية تحقيق الأهداف المحدّدة والمرسومة في السياسة الخطابية. ويكون من مقتضيات الاستراتيجية الخطابية ترتيب الأهداف الخطابية، وتنظيمها حسب أهميتها ونتائجها، ومدى استجابتها لاحتياجات المخاطَب، وحدود تنفيذها في إطار الإمكانات البشرية والمادية المتاحة، الأمر الذي يفرض حسن الاختيار بين البدائل الموجودة، ووضع بدائل احتمالية للأحوال الطارئة.

ويعتمد التخطيط الاستراتيجي للخطاب الإسلامي على عناصر ثلاثة:

أ- القدرة على استقراء واقع الخطاب الإسلامي وتحليله:

يسبق وضع استراتيجية فعالة للخطاب الإسلامي دراسة هذا الخطاب القائم والتعرف إلى نقاط ضعفه وأوجه الخلل فيه، ومدى تلبيته لحاجات الواقع الداخلي والخارجي، ومدى كفاءة وجودة الأداء المهني للمنتجين له.

إن معرفة واقع الخطاب الإسلامي لا يقتضي الوقوف عند حدّ توصيف نقاط ضعفه وأوجه الخلل فيه، بل يتجاوز ذلك إلى محاولة تحديد الأسباب وفهمها، ومن ثمّ اقتراح الحلول المناسبة لها، وهو ما يساعد بلا شك على وضع تصورات عملية وفاعلة للارتقاء بالخطاب وتجاوز إشكالاته المنهجية والموضوعية. ولعل أهم نقاط الضعف التي هي محلّ اتفاق جلّ من يتعامل مع الخطاب الإسلامي إنتاجاً واستهلاكاً: النمطية والعفوية، وهما وإن تعددت وتشعبت أسبابهما، فإن مرجعهما في الآخير إلى عدم مراعاة الخطاب الإسلامي - في أحيان كثيرة- لطبيعة الجمهور المخاطَب، وللأساليب والأدوات المستعملة في عملية التخاطب. فما دام الجمهور هو أهم متغيّر في عملية الاتصال، فإن الأمر يقتضي معرفة أصناف الجمهور، وكيف يتلقى كل صنف خطاباً ما. وهل مستويات التلقي ودرجات الاستجابة واحدة أم متعددة؟

ولا شك أن الإجابة عن هذه الأسئلة تقتضي استخدام أساليب التخطيط العلمية من أبحاث وإحصاءات ودراسات ميدانية لتحديد جمهور المخاطبين، لأن الخطاب يختلف من فئة إلى أخرى، ومع ثبات المبادئ والقيم تتنوع الوسائل والأدوات وتختلف باختلاف الجماهير والبيئات والمعتقدات.

من هنا يتوقف فهم المجتمع الدولي - على سبيل المثال- للقضايا الإسلامية على وضع استراتيجية خطابية صحيحة، وتوظيف الوسائل والطرق الفعالة والمناسبة لظروف الجمهور الذي يتوجّه إليه الخطاب الإسلامي، مع الأخذ بعين الاعتبار الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية السائدة في هذه المجتمعات عند محاولة عرض قضايانا ومناقشتها مع (الآخر) بهدف إقناعه بعدالتها.

ب- القدرة على فهم وتحليل الواقع المعاش:

إضافة إلى واقع الخطاب، فإن وضع استراتيجية خطابية يستدعي معرفة الواقع المعاش من خلال دراسة الواقع المحلي والعالمي دراسة دقيقة تستوعب جوانبه المختلفة والمتشعبة، ذلك أن نجاح أي حركة تغييرية أو إصلاحية مرتبط بشكل وثيق بمدى فهم القائمين عليها للواقع المراد تغييره أو إصلاحه.

إن وضع استراتيجية خطابية يتطلب دراسة المجتمع الإسلامي والعالمي للتعرف إلى مقوماته وحصر احتياجات الجمهور فيه، حتى يتسنى التخطيط لخطاب قادر على تلبية حاجات المخاطبين. إن الغفلة أو التغافل عن أحداث وقضايا المجتمع الاجتماعية والثقافية والسياسية ..إلخ ينتج لنا خطاباً منفصلاً عن الواقع يتعامل مع الدين الإسلامي على أنه قوالب جامدة، وأحكام وفتاوى فقهية مجردة لا تتفاعل مع الجوانب الحياتية للإنسان. من هنا يكون تأثير الخطاب الإسلامي في الواقع بحسب معرفة القائمين عليه أو جهلهم بالأحداث والقضايا التي تحكم واقعهم المعاش.

ج- القدرة على استشراف المستقبل:

استشراف المستقبل هو النظر إلى الزمن القادم ببصر ثاقب بغية تصوّر هذا الواقع المقبل انطلاقاً من معرفة دقيقة بالواقع الحاضر، واستيعاب واع لدروس وعبر الواقع الماضي. ورغم أن علم المستقبليات صار علماً يدرس في الجامعات في إطار العلوم الإنسانية، إلاّ أنه لم يحظ بعد بالمقام والموقع اللازم في منظومتنا الفكرية المعاصرة وذلك بسبب تعاملنا غير المتوازن مع أبعاد الزمان الثلاثة: الماضي، الحاضر والمستقبل. ففي حين نجد الماضي حاضراً بقوة وعمق في العملية الفكرية عندنا، نجد بعد الحاضر ضامراً ضموراً شديداً بسبب العجز عن استقراء الواقع وتحليله، وأما بعد المستقبل فهو غائب أو شبه غائب.

والتخطيط الاستراتيجي للخطاب الإسلامي يستدعي، إضافة إلى فقه الواقع، تحليل توقعات المستقبل والتخطيط لها لتجنب الوقوع في أية اضطرابات في تنفيذ السياسات والخطط الخطابية. كما أن أخذ عامل التوقعات والاحتمالات المستقبلية بعين الاعتبار عند التخطيط الخطابي من شأنه تفعيل الخطاب الإسلامي من وجوه عديدة أهمها:

- إخراج الخطاب الإسلامي من دوامة ردود الأفعال إلى رحاب صناعة الأحداث، وتوجيهها، وصياغة الاهتمامات، واستثمارها في صناعة رأي عام يساند قضاياه ويتبنى رؤاه.

- جعل التخطيط الخطابي عملية مستمرة لا تنتهي عند انتهاء وضع خطة خطابية واحدة، بل الأمر يستدعي تتابع الخطط بشكل متواصل، في إطار تخطيط طويل المدى.

- متابعة الخطط الموضوعة أثناء وبعد تنفيذها، واكتشاف المعوّقات التي تقف أمام هذا التنفيذ، والعمل على إزالتها وتجنّبها في الخطط المستقبلية.

- قياس وتقويم النتائج المترتبة على تنفيذ الخطط الخطابية، وإجراء التعديلات المناسبة لتتلاءم والسياسات الموضوعة.

- اقتحام ساحة (الآخر) بموضوعات غير مسبوقة، وهو ما يخرج الخطاب الإسلامي من دائرة رد الفعل إلى دائرة الفعل.

ثالثاً: الخطة الخطابية:

تشمل المرحلة الثالثة من عملية التخطيط الخطابي وضع خطة خطابية تكون أداة لترجمة السياسة والاستراتيجية الخطابية إلى واقع مقروء ومسموع ومرئي، من خلال برامج وحملات متكاملة الأبعاد ومتناسقة التخطيط في إطار زمني محدّد، ووفقاً للأهداف المراد تحقيقها.

الآلية الأولى: إتقان مهارات الاتصال:

تعد مهارات الاتصال من أساسيات نجاح الخطاب الإسلامي في توصيل رسالته إلى الجماهير بأسلوب أكثر تأثيراً وفاعلية، ذلك لأن التخطيط الخطابي وما يتضمنه من سياسات واستراتيجيات وخطط خطابية لا يمكن أن يحقق الهدف المرجو منه، وهو تفعيل الخطاب الإسلامي، إن افتقد القائمون على الخطاب لمهارات الاتصال والتواصل، مثل:مهارة التفكير والكلام والاستماع والحوار والإقناع والتفاوض وغيرها من المهارات التي تضمن حسن فهم المخاطَب وحسن إعداد الخطاب، ومن ثمّ فاعلية الخطاب وتأثيره. وليس من قبيل المبالغة أو المزايدة في شيء اعتبار الفرق بين خطاب وآخر في التأثير والإقناع ترجمة صادقة للفروق في مهارات الاتصال بين صاحبيهما.

ولقد أكد الإمام الشاطبي، رحمه الله، على أهمية مهارات الاتصال والتخاطب في ضمان فاعلية وحسن أداء كافة عناصر عملية الاتصال، وهي: المرسل، والمرسل إليه، والرسالة، والموقف الاتصالي، وذلك من خلال كلامه عن أهمية معرفة أسباب النزول ومقتضيات الأحوال في فهم وإدراك مقاصد الخطاب الشرعي، حيث قال:

« معرفة أسباب التنزيل لازمة لمن أراد علم القرآن، والدليل على ذلك أمران: أحدهما أن علم المعاني والبيان، الذى يعرف به إعجاز نظم القرآن فضلاً عن معرفة مقاصد كلام العرب، إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال: حال الخطاب من جهة نفس الخطاب أو المخاطِب أو المخاطَب أو الجميع، إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين وبحسب مخاطَبين وبحسب غير ذلك، كالاستفهام لفظه واحد ويدخله معان أخر من تقرير وتوبيخ وغير ذلك، وكالأمر يدخله معنى الإباحة والتهديد والتعجيز وأشباهها، ولا يدل على معناها المراد إلا الأمور الخارجة وعمدتها مقتضيات الأحوال، وليس كل حال ينقل، ولا كل قرينة تقترن بنفس الكلام المنقول، وإذا فات نقل بعض القرائن الدالة.فات فهم الكلام جملة أو فهم شيء منه، ومعرفة الأسباب رافعة لكل مشكل في هذا النمط، فهي من المهمات في فهم الكتاب بلا بد، ومعنى معرفة السبب هو معنى معرفة مقتضى الحال، وينشأ عن هذا الوجه الوجه الثاني، وهو أن الجهل بأسباب التنزيل موقع في الشبه والإشكالات ومورد للنصوص الظاهرة مورد الإجمال حتى يقع الاختلاف وذلك مظنة وقوع النزاع»[1].

(١) الشاطبي، الموافقات، ٣/٣٤٧.

وإذا كانت هذه المهارات أساسية في فهم الخطاب الشرعي فهي أيضاً ضرورية في صناعة الخطاب الإسلامي؛ لأنها تسهم وبشكل كبير في تجاوز هذا الأخير لأزماته المنهجية التي سبّبتها العقلية التلقينية وضيق الأفق، والفهم الساذج والمشوّه للواقع، والتوظيف السيء للأحداث. فمهارة الحوار - مثلاً - من شأنها أن تعلّم المخاطِب كيف يحسن الاستماع لخطاب (الآخر) ويكتشف النسق والمنطق الذي يحكمه، وكيف يكتشف الجوانب التي تثير المخاطَب وتؤثر فيه، وكيف يستغل هذه الجوانب في تحريك المخاطَب، وكيف يوسّع من دائرة المتفق عليه ويضيّق من دائرة المختلف فيه، وكيف ينجح في إيجاد أرضية مشتركة بينه وبين المخاطَب ينطلق منها في حواره، وكيف يحسن توظيف واستثمار هذه الأرضية في تفعيل الحوار وبلوغ درجة عالية من التفاهم والتوافق، وكيف يكتشف أسباب الاختلاف، وهل هي قناعات فكرية أم دوافع نفسية؟ فإذا كانت قناعات فكرية فما مراحل تشكّل القناعات؟ وما المنهجية المثلى لمناقشة وتصحيح القناعات الخاطئة؟ وإذا كان الاختلاف لدوافع نفسية فما أسلوب مخاطبتها ومحاولة تغييرها؟

أما مهارة الإقناع فتعلّم المخاطِب فن مخاطبة الناس في احتياجاتهم ومساعدتهم على تحديد أساليب تحقيقها، وفن مناقشة القضايا من زوايا مختلفة فلا يحصر نفسه في زاوية واحدة، وصياغة وعرض الحجج المؤيدة لرأيه، ومناقشة وتفنيد الحجج المخالفة لرأيه، ومضاعفة فرص التأثير والإقناع من خلال العرض والتحليل الموضوعي للآراء المتباينة، وضمان درجة عالية من القبول أمام وجهات النظر المخالفة.

وكل مهارة من مهارات الاتصال تساعد المخاطِب على تحسين أدائه وتطوير قدراته الخطابية.

الآلية الثانية: نقل إشكالية الخطاب الإسلامي من مستوى الأفراد إلى مستوى المؤسسات:

من ضمانات نجاح مشروع تفعيل الخطاب الإسلامي نقل إشكالياته من مستوى الأفراد إلى مستوى المؤسسات، ذلك أن مشروعاً بهذه الأهمية والضخامة لا يجب أن يترك للجهود الفردية التطوعية، بل الأولى أن تتبناه مؤسسات علمية تنقله من مستوى النظرية إلى التطبيق. وهذا دأب كل المشاريع الاستراتيجية المهمة، فالحركات التبشيرية لما أرادت أن تصدر عقيدتها إلى العالم أسست المعاهد التبشيرية، وبذلت جهوداً جبارة، وصرفت أموالاً طائلة لتوصيل رسالة التنصير إلى أدغال إفريقيا وأمريكا اللاتينية.

والحركة الاستشراقية لما أرادت أن تسيطر على العالم الإسلامي أنشأت معاهدها الاستشراقية في أوربا وأمريكا لفهم هذا العالم الإسلامي والتعرف إلى أفضل وسائل التشكيك في عقيدته وبالتالي السيطرة عليه.

والشيوعية لما أرادت، في السابق، أن تصدر أيديولوجيتها أنشأت في موسكو المعهد العالمي للإلحاد، وهو أبرز المعاهد العلمية التي تديرها الأكاديمية السوفيتية التابعة للجنة المركزية للحزب الشيوعي (سابقاً)، وكان هدف هذا المعهد وضع المخططات العلمية للإلحاد، والقيام بتزويد زعماء وقياديي الحزب الشيوعي خارج الاتحاد السوفيتي بالخطط المدروسة التي يسيرون عليها في دعوتهم للإلحاد.

من هنا فإن المطلوب للنهوض بخطابنا الإسلامي إلى مستوى التحديات إنشاء معهد عالمي للخطاب الإسلامي، يكون عبارة عن مؤسسة عالمية فكرية علمية تعمل في ميدان تفعيل الخطاب الإسلامي باعتبار ذلك أحد أسس مشروع النهضة الإسلامية، يساهم فيه العلماء، والمفكرون، والباحثون والنخبة المثقفة عموماً، ويكون من مهامه:

- وضع سياسات واستراتيجيات وخطط للخطاب الإسلامي المعاصر.

- عقد المؤتمرات والندوات وورشات العمل لدراسة أزمات الخطاب الإسلامي وإشكالاته، والتنظير لمنهجية تفعيله.

- تنفيذ مشروعات الأبحاث والدراسات الخاصة بمنهجية تفعيل الخطاب الإسلامي.

- نشر الكتب والدوريات العلمية المحكّمة التي تهتم بقضايا الخطاب الإسلامي.

- إمداد الجامعات ومراكز البحوث والمؤسسات المشاركة في صناعة الخطاب الإسلامي باستراتيجية لهذا الخطاب.

- إنشاء مراكز تدريبية ملحقة بالمعهد تتولى تأهيل القائمين على الخطاب الإسلامي من خلال توعيتهم بالتخطيط الخطابي وتدريبهم على مهارات الاتصال. ويشمل هذا التأهيل الدراسات العلمية المختلفة كعلم النفس والاجتماع والإعلام والاتصال وغيرها من العلوم التي تمكن القائم على الخطاب من فهم الإنسان والواقع والتأثير فيهما.

- متابعة الحملات المضادة، والعمل على كشف مصادرها وأهدافها ووسائلها، والسعي لاحتوائها.

هذا، ولعل أهم ما يضمن فاعلية واستمرار هذا المعهد في أداء المهام السابقة تبنيه لمبدأ التقويم وممارسته كوظيفة أساسية من وظائف التخطيط الخطابي، وذلك من خلال القيام بعملية تقويمية شاملة للخطاب، تبدأ هذه العملية بوضع موازين للتقويم باعتباره عملية استراتيجية هدفها الأساسي إحداث التعديل والتطوير اللاّزمين في ضوء نتائج التقويم والمتغيّرات الحاصلة.

ويجب أن يشمل التقويم السياسات والاستراتيجيات والخطط الخطابية، كما يشمل مستوى أداء الخطاب وأثره على الواقع والكفاءة المهنية للقائمين عليه.

وحتى يكون التقويم مكتملاً يجب أن يتم قبل تنفيذ الخطة الخطابية وأثناء تنفيذها وبعد الانتهاء منها، ولكل مرحلة من هذه المراحل هدف أساسي تركز عليه عملية التقويم. فقبل تنفيذ الخطة يكون هدف التقويم الحصول على المعلومات الأساسية عن الواقع الذي سيوجه إليه الخطاب، وهو ما يساعد في توقع نوع وطبيعة التغييّرات التي يمكن أن تحدث بعد تطبيق الخطة الخطابية. أما أثناء تنفيذ الخطة الخطابية فالهدف من التقويم معرفة مدى التقدم الذي أحرزه الخطاب وردود أفعال المخاطبين، والعقبات التي واجهته. أما بعد انتهاء التنفيذ، فالتقويم يتجه إلى مختلف الآثار التي أحدثتها الخطة الخطابية بهدف معرفة الإيجابيات التي تحققت من خلالها والسلبيات التي ظهرت أثناءها، ومن ثمّ اقتراح التعديلات اللازمة.

ولضمان نجاح عملية التقويم في تفعيل الخطاب الإسلامي يجب أن يكون التقويم عنصراً أساسياً وثابتاً في استراتيجيات المعهد، ترصد له الموارد البشرية والمادية اللازمة. ويجب أن تستخدم نتائج التقويم في التخطيط وتطوير أساليب عمل المعهد وبرامجه. كما يجب أن يتولى عملية التقويم من يجمع بين التجربة الميدانية أو الممارسة في مجال الخطاب الإسلامي، والمعرفة النظرية بالتقويم وأدواته؛ وأن يقوم المعهد بدراسات ميدانية لقياس أثر الخطة الخطابية، من خلال اعتماد آليات تقيس بطريقة كمية وكيفية التغيرات في مستوى السلوكات والمواقف.

خاتمة

وفي ختام هذا البحث لا بد من التأكيد أن أمتنا الإسلامية تملك من القدرات والإمكانات المادية والبشرية ما يمكنها من بلوغ أقصى الغايات، وأصعبها، في وقت قياسي وبضمانات عالية، شريطة أن تعرف بعمق غايتها وتخطط بعلمية وحِرَفية لمشاريعها وسياساتها، وتنفّذ بحرص وتفان استراتيجياتها، وتعلم أن طريق تطوير الخطاب الإسلامي المعاصر تبدأ بخطوات أولى ثابتة ومبصرة ، تحمل هماً، وتنشد مستقبلاً، وتبتغي أجراً؛ خطوات يتفاعل فيها العقل مع العاطفة ، ويتفاعل فيها الماضي مع الحاضر لينتج مستقبلاً مبصراً، مستقبلاً يلتزم المبادئ، ولكنه لا يغفل المتغيرات، قدوتنا في كل هذه المعاني نبينا محمد ﷺ الذي بدأ وحده، ولكنه وصل بتوفيق الله تعالى إلى المعالي بفضل صبره وحسن أخذه بأسباب النصر، وقدوتنا بعده ﷺ سلفنا الصالح الذين أعطوا المثل الأعلى في إتقان العمل والتفاني في خدمة الإسلام وأهله.

فالخطاب خطابنا، وهو أمانة في أعناقنا، وإتقانه أوجب واجباتنا، والإتقان ثمرة توفيق من الله وعمل مبصر متفان مسؤول: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (التوبة: ١٠٥).

الخطاب الإسلامي
والتحولات الحضارية والاجتماعية

الأستاذ إبراهيم غرايبة (*)

إن مواصلة الجهد والبحث والتطوير مستمرة بلا توقف أبداً، الأمر الذي يؤدي إلى تراكم العمل مشكلاً حالة جديدة تجري مراجعتها باستمرار لتصل الجهود الإصلاحية إلى حالة أفضل، فتتحول هذه مرة أخرى إلى حالة سابقة تخضع من جديد للمراجعة والتصويب.

جاءت السنوات الأخيرة بتحولات كبرى، حضارية واجتماعية وسياسية واقتصادية وتقنية، وبأحداث عالمية وإقليمية ومحلية غيرت كل شيء تقريباً، وكان الخطاب الإسلامي واحداً من مكونات وموضوعات التحولات الكبرى التي تجعل فهمها خطوة مهمة وضرورية بل وحتمية لنفهم أين نحن، وأين كنا، وإلى أين نمضي، وماذا

(*) باحث في الفكر الإسلامي.. (الأردن).

كسبنا وماذا خسرنا، وماذا نريد، وكيف نوفق بين أهدافنا وإمكانياتنا ومواردنـــا، ونخرج من دوامة التكرار والهدر لنبدأ بالإقلاع في الطريق الصحيح؟

وتحاول هذه الدراسة أن تستوعب التحولات الجارية والتعامل المقترح للخطاب الإسلامي مع هذه التحولات.

مفهوم الخطاب الإسلامي:

أخذ مفهوم الخطاب الإسلامي المتسرب حديثاً إلى الأدب العربي والإســـلامي وضعاً مستقراً ومقبولاً، وإن لم يخضع لتعريف وبحث، ولكنه يكاد يكون مفهومـــاً مشتركاً ومقبولاً في الوسط الثقافي والإعلامي العام.

والخطاب بعامـــة، كما يبدو لي من السياق الفكري العام والمتابعة الشخصية، ولا أعني التعريف العلمي المنضبط، هو منظومة التعبير التطبيقي عن فكرة أو فلسفة أو حضارة، فالخطاب الإسلامي هو التعبير التطبيقي عن الإسلام في الفكر والسياسة والاقتصاد وسائر مجالات الحياة والثقافة.

والخطاب الإسلامي ليس هو الإسلام تماماً، وإن كان ناتجاً عن التحرك بالإسلام والعمل على تطبيقه وفهمه والرجوع إليه، لكنه مجهود بشري، يخطـــئ ويصـــيب، ويقترب من الإسلام ويبتعد عنه، ويستلهم المرحلة والبيئة المحيطة به، سلباً وإيجابـــاً، وقد يكون متقـــدماً ومبدعاً، وقد يكون قاصراً وفاشلاً، وهو ليس خطاباً واحـــداً كما الإسلام، ولكنه خطابات عدة مختلفة حسب قراءة النصوص والتراث وفهمها، وما يؤثر في هذه القراءات من بيئة محيطة.

فالحديث عن النظام السياسي أو الاقتصادي الإسلامي أو الإعـــلام الإســـلامي والتعليم، أو الجماعات والمؤسسات الإسلامية، والدول وأنظمة الحكـــم السياســـية الإسلامية هو تعبير نسبي، بمعنى نسبة الخطاب إلى الإسلام، وفي الحقيقة فإنه نسبة إلى

المسلمين، وليس الإسلام، فالخطاب الإسلامي هو «خطاب المسلمين»، والنظام السياسي الإسلامي، هو النظام السياسي للمسلمين، وكذا الدول والمؤسسات والأفكار والبرامج.

ونسبي أيضاً، بمعنى «النسبية»، أي أنه يسعى للاقتراب من الصواب والعدل، لكنه حتماً ليس الصواب المطلق، ولا الحالة المطلقة التي لا يجوز مراجعتها والتخلي عنها، فالنسبية أولاً وإن بدأت نظرية علمية فيزيائية أطلقت عام ١٩٠٥م على يد عالم الفيزياء المشهور «اينشتاين» لكنها اليوم فلسفة وقاعدة عامة تمتد إلى كل شؤون العلم والفكر والحياة، تعبر عن اكتشاف حقيقة عميقة في الكون والحياة.

التحولات والبيئة المحيطة بالخطاب الإسلامي:

يصعب الإحاطة بالتحولات الجارية في العالم وتؤثر في الوقت نفسه على الخطاب الإسلامي، فهذا موضوع يستحق دراسات مستقلة، ولكن ما يعنينا في هذا المقام هو استحضار أهم التحولات لربطها بالأفكار والاعتبارات المقترحة لتحديد ملامح ومؤشرات الخطاب الإسلامي القادم.

فقد تبدت في هذه التحولات أولويات واحتياجات جديدة غيرت كثيراً من واجبات وطبيعة الجهود الإصلاحية، وظهر أيضاً كثير من الإنجازات والمكاسب التي تحققت والتي يجب إدراكها ومراجعة العمل في مجالها لتوجيه الجهود والموارد نحو ما لم يتحقق بعد، وبالطبع فإن ثمة تحديات وعيوباً كثيرة رافقت العمل الإصلاحي يجب الالتفات إليها.. ويمكن في هذا السياق الإشارة إلى مجموعة من التحولات والمشاهد:

١- الصحوة الإسلامية الكبرى، التي عمت العالم الإسلامي، وتحولت إلى مكون أساس من مشهد العالم الإسلامي الذي يجب أخذه بالاعتبار عند التفكير بالإصلاح والعمل.

٢- تفرد الولايات المتحدة الأمريكية بالهيمنة على العالم، وانهيار التوازن العالمي الذي كانت تستفيد منه دول العالم وأممه، وعلى أية حال فإنه تفرد مؤقت قد لا يدوم أكثر من عشرين إلى خمس وعشرين سنة، ليدخل العالم في مرحلة تعددية قطبية وتوازن عالمي من جديد، ستكون أهم أطرافه الفاعلة والمؤثرة، أوروبا والصين وروسيا والهند، وشرق آسيا.

وهنا يفرض سؤال نفسه، ويجب مناقشته والتفكير بتداعياته على الخطاب الإسلامي، وهو: هل يمكن أن يكون العالم الإسلامي قوة عالمية؟ أو هل يمكن أن يكون طرفاً فاعلاً ومؤثراً على الخريطة العالمية في السنوات الخمس وعشرين القادمة؟

٣- تصاعد العنف المنتسب إلى الإسلام (جماعات وحركات العنف والتطرف) وما صحب ذلك من أحداث وتداعيات على العالم الإسلامي، كان من أهمها العودة العسكرية الاستعمارية للولايات المتحدة والغرب إلى العالم الإسلامي، واحتلالها لأجزاء من العالم الإسلامي مثل أفغانستان والعراق وتهديدها لدوله وموارده، وقد انعكست هذه الأحداث، وبخاصة مهاجمة برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك في ١١/٩/٢٠٠١م على العلاقة بين المسلمين والغرب، وفتحت المجال واسعاً وفي جميع المسارات لإعادة الصراع ومحاولة الفهم والحوار والتهديد والاحتلال.

٤- موجة المعلوماتية والاتصال والتي غيرت من وجهة الحضارات والمجتمعات، وبدلت في الموارد والقوة والضعف، وجعلت العالم متداخلاً (العولمة).

إن دراسة تداعيات المعلوماتية والاتصال وفهمها سيؤدي بالتأكيد إلى صياغة خطاب إسلامي جديد يأخذ بالاعتبار هذه التحولات التي صنعت عصراً جديداً، وحولت البشري إلى مرحلة جديدة هي الأهم في مسارها على مدى التاريخ بعد مرحلتي الزراعة والصناعة.

تحولات الخطاب الإسلامي المكافئة

١- من السياسة إلى الإصلاح:

بدأ العمل الإصلاحي بمبادرات ومشروعات نهض بها مصلحون ومفكرون مثل محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية، وجمال الدين الأفغاني في مصر والدولة العثمانية، ومحمد عبده ورشيد رضا في مصر، وعبد الرحمن الكواكبي في الشام، ومحمد بلحسن بلحجوي وعلال الفاسي في المغرب، وعبد الحميد بن باديس ومالك بن نبي في الجزائر، والطاهر عاشور في تونس، أو في حركات تحرر من الاستعمار تمزج بين الصوفية والجهاد مثل السنوسية في ليبيا والمهدية في السودان والمريدين في القفقاس، والنورسية في تركيا.

ثم استوعبت هذا التراث الإصلاحي والنهضوي حركات إسلامية منظمة وشعبية مثل الإخوان المسلمين بقيادة حسن البنا، تلميذ الشيخ رشيد رضا، والجماعة الإسلامية في القارة الهندية، والحركة الإسلامية الشيعية في إيران.

وتطور مشهد العمل الإسلامي اليوم إلى خريطة معقدة وشاملة تشمل دولاً قامت على أساس حركات وأفكار إسلامية أو متأثرة بها مثل السعودية وإيران والسودان وأفغانستان، أو على أساس قومي للمسلمين مثل باكستان، أو على أساس الانتخابات النيابية التي تشارك فيها الحركات الإسلامية، مثل حزب الرفاه ثم العدالة والتنمية في تركيا، والجبهة الإسلامية وحركة مجتمع السلم وحركة الإصلاح في الجزائر، والحركة الإسلامية في اليمن والأردن، وحركات مقاومة للاحتلال مثل حماس والجهاد وحزب الله، وأحزاباً سياسية تشارك في الحكم والحياة السياسية

والعامة، ومؤسسات إسلامية كالمنظمات الدولية والإقليمية والجامعات والبنوك والشركات ومنظمات الإغاثة ومراكز الدراسات والصحف والمجلات ومحطات الإذاعة والتلفاز.

وكان من أهم خصائص المشهد الجديد انتقال مسؤولية الجهود الإصلاحية من الرواد أو الحركات المنظمة إلى حالة مجتمعية، تنهض بها شبكة من الحكومات والمؤسسات والجماعات والأفراد، ويقتضي هذا التحول إعادة النظر والتفكير في مسارات العمل الإصلاحي لتناسب المشهد الجديد وأولوياته واحتياجاته وتحدياته وفرصه.

يعتبر كثير من المؤرخين والمفكرين حرب عام ١٩٦٧ بداية لتحول كبير في مشهد الأمة الإسلامية، فقد بدأت بالتشكل صحوة إسلامية شاملة، وبالطبع فقد كان لهزيمة حزيران آثار كبيرة في الوجدان والاتجاه العربي بخاصة والإسلامي بعامة، ويعتبر الدكتور محمد جابر الأنصاري في كتابه «مساءلة الهزيمة» أن حرب ١٩٦٧م كانت أقسى هزائم العرب، وجعلت الفكر والعقل العربي خلال الثلث الأخير من القرن العشرين «فكر تحت الحصار»، وتعد برأيه أم الهزائم التي لحقت بالعرب في القرن العشرين، التي مازالت جراحها مفتوحة وغائرة في الأعماق والتي يبدو أن العرب دخلوا القرن الحادي والعشرين وهم يحملون أعباءها الثقال و لم يتخلصوا بعد من آثارها المضنية، وتبدو عبارة «إزالة آثار العدوان» التي رفعها عبد الناصر غداة الهزيمة عبارة حبلى ومثقلة بالآلام والظلال.

كانت، كما وصفها رجاء النقاش، «انكسار الروح»، و لم يحدث أن هزت العرب مصيبة مثلها، وشخص نديم البيطار الهزيمة بقوله: «كانت هزيمة لعمارة المجتمع العربي ولبنيته المادية والعقلية معاً، وكشفت عن تأخره السياسي والاقتصادي والتقني

والثقافي، فضلاً عن تأخره العسكري» وقد جعلت المفكرين والمبدعين العرب يقومون بمراجعة قاسية للذات والأفكار، وبعضهم ينتحر مثل الشاعر اللبناني خليل حاوي والأردني تيسير سبول.

وكانت الثورية العربية واليسار أولى ضحايا الهزيمة، وكتب المفكر «القومي السوري» هشام شرابي محللاً للهزيمة: «و لم تدم نشوة الثورة طويلاً، وأدركت أن الأمر ليس سهلاً، وأن التغيير لا يحصل لمجرد إيماننا بضرورة حصوله، وبدأت أعي أن التحول أمر معقد للغاية، ومنذ ذلك أخذ تفكيري اتجاهاً جديداً يدور حول واقعنا الاجتماعي وأسباب فساده، وأخذت أتساءل حول تركيب مجتمعنا العربي وطبيعة السلوك فيه»، وهكذا لم يكن من مفر أن يتحول التشخيص من إلقاء اللوم على صفقة الأسلحة الفاسدة (عام ١٩٤٨م) إلى تحميل «التركيبة الفاسدة» كلها مسؤولية الهزيمة.

وتوارى اليسار بسرعة أمام صعود إسلامي كاسح، وبرغم أن الصحوة الإسلامية تجلت بقوة في أوائل السبعينيات فإن كتاب سيد قطب «معالم في الطريق» الذي صدر عام ١٩٦٥م إرهاصاً لتحولات إسلامية كبرى أو «المنفستو» الأول للحركة الإسلامية الراهنة على امتداد الأفق الإسلامي من مصر إلى الجزائر إلى أفغانستان، وربما كان سابقاً لأوانه، مقارنة بالمنفستو الشيوعي (١٨٤٨م)، ولكنه على الصعيد الإسلامي كان كذلك، حتى أن غازي القصيبي، الكاتب والشاعر والسياسي السعودي، وصف الكتاب في روايته «العصفورية» معبراً عن تفاعلات المرحلة على لسان أحد شخوص الرواية: أنه أهم كتاب صدر في خلال القرون الخمسة الأخيرة.

ثمة اتجاه فكري وتاريخي سائد أن جمال الدين الأفغاني هو مؤسس الحركة الإسلامية المعاصرة، وأن جهده الفكري والإصلاحي، الذي حمله معه ومن بعده

تلميذه الشيخ محمد عبده، أثر في جيل كامل من المسلمين، وكان له نفوذ وتأثير في مختلف أنحاء العالم الإسلامي التي طاف بها، من أفغانستان إلى إيران والهند وفرنسا ومصر والعراق وتركيا، وكان له عبر تلاميذه وبخاصة محمد عبده تأثير على المفكرين والمثقفين في مصر وبلاد الشام، وبخاصة إصلاح مؤسسات التعليم كالأزهر والمحاكم، وامتد هذا التأثير إلى رشيد رضا الذي كان لمجلته «المنار» صدى وتأثير في كل أنحاء العالم الإسلامي، وكان حسن البنا على صلة قوية برشيد رضا، وقد استأنف لبعض الوقت مجلة المنار بعد وفاة الشيخ رشيد رضا.

وتعد سلسلة جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، رشيد رضا، حسن البنا، سيد قطب، من أكثر المسارات دلالة على تطور وتنوع الحركات الإسلامية وتعددها واختلافها والمراحل التي مر بها العمل الإصلاحي، وهي نموذج متكرر في كل أو معظم البلدان العربية والإسلامية، ولكن النموذج المصري يساعد كثيراً على التعميم والفهم لثراء التجربة نفسها وحرية المعرفة حولها، وقد يستدرجنا التسلسل الزمني والعلاقات الظرفية إلى فهم مضلل عن علاقات الحركات ببعضها، والصحيح أن منظومة البيئة المحيطة بالعمل الإصلاحي والعام، وحراك الأمة والمؤثرات المحلية والظروف الخارجية والتقدم والإنجاز والفشل الذي تحقق، كون مشهداً معقداً من الحالات والأعمال والمواقف والأفكار غير المتسلسلة عن بعضها بالضرورة.

يميز عبد الإله بلقزيز في كتابه «الإسلام والسياسة: دور الحركة الإسلامية في صوغ المجال السياسي» بين اتجاهين أو تيارين إسلاميين هما الإصلاحي النهضوي الذي يعبر عنه جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا، وعبد الرحمن الكواكبي، ومحمد بلحسن الحجوي في المغرب؛ وتيار الصحوة الإسلامية ويعبر عنه

حسن البنا، وسيد قطب، وعبد السلام ياسين في المغرب، وتقي الدين النبهاني (حزب التحرير الإسلامي).

وقد حدثت قطيعة كبرى بين التيارين فاشتغل الثاني منهما بالسياسة، والأول لم ينغمس بها ولكن المفارقة المثيرة، كما يلاحظ بلقزيز، أن وعي الإصلاحيين كان إلى الوعي السياسي أقرب من وعي«الصحويين» برغم أنهم (الإصلاحيون) تمسكوا بموقعهم الفكري كدعاة إلى مشروع إصلاحي مجتمعي، لم تكن مطالبهم متواضعة ولكنها واقعية، ومحكومة بمراعاة حقائق التحول الكوني الجديد الناشئ في امتداد ميلاد المدنية الغربية . وأما «الصحوية» فقد ظلت مثالية غير معنية بالبحث عن الممكنات في مضمار البناء الفكري والاجتماعي و لم تقدر على التحرر من وهمها الإرادي في اجتراح المعجزات رغم أنف الواقع.

لقد كانت حركة «الإخوان المسلمين» بقيادة مرشدها حسن البنا، تلميذ رشيد رضا، محاولة في التعبير السياسي عن الفكرة الإصلاحية الإسلامية، غير أنها انتهت في هذه المحاولة من التعبير عنها في مشروع سياسي حزبي إلى إجهاضها كمشروع فكري، فقد أدت اتجاهات الأجيال التالية المرتكزة إلى أفكار أبي الأعلى المودودي إلى نشوء بنى سياسية متطرفة أساءت استخدام فكرة الجهاد وفتحت المجال السياسي والاجتماعي (التكفير والهجرة، وجماعة الجهاد،...) وقد جاءت تجربة المقاومة الأفغانية للاحتلال السوفياتي لتعطي زخماً لهذه الحركات على صعيد قدراتها المادية الضاربة بعد أن زودتها الثورة الإيرانية بالطاقة الفكرية والنفسية.

وقد حاولت بعض الاتجاهات في الحركة الإسلامية استعادة طبيعتها الإصلاحية، إدراكاً لخطورة التطرف والعنف في مجتمع وسطي معتدل كالمجتمع العربي، وفي ظل توازنات قوى مختلفة لصالح السلطة، والعودة إلى أفكار المؤسس حسن البنا منطلقاً

فكرياً وسياسياً كما حدث في السودان بقيادة الترابي وفي تونس بقيادة راشد الغنوشي، الّذَيْن مثّلا أعلى حالات الانفتاح والاجتهاد في الفكر الإسلامي «الصحوي» المعاصر، ولكن الترابي سقط سريعاً في الإغراء الانقلابي العسكري ناقلاً ميدان الدعوة من مؤسسات المجتمع المدني إلى السلطة، مغامراً بتصفية تراثه الفكري الاجتهادي.

وثمة مثقفون إسلاميون كثيرون ينتمون إلى مدرسة وتيار الإخوان المسلمين، مثل محمد الغزالي، ومحمد سليم العوا، وطارق البشري، يؤمنون بالعودة إلى مشروع الفكر الإصلاحي واستئنافه، وتطوير الوعي الإسلامي بمتغيرات العالم.

يلاحظ المفكر الإسلامي أحمد كمال أبو المجد أن الحركات الإسلامية التي ظهرت في مطلع القرن العشرين وحتى أواسطه كانت لها أهداف سياسية متطابقة تماماً مع الأهداف السائدة في المجتمع حتى تكاد تكون موضع إجماع جماهير الناس، وكانت في غالبها أهداف تحرير وطني ومقاومة للنفوذ والتسلط الأجنبي، وبهذا وبسببه دخلت جميع تلك الحركات تاريخ بلادها السياسي باعتبارها حركة تحرير وطني قومي ثقافي.

والأستاذ طارق البشري يرى أيضاً أن الدعوات الإسلامية كانت قبل ظهور الدعوات العلمانية المتأثرة بالغرب مندمجة في حركات التحرير الوطني عامة، وفي الدعوات العامة للإصلاح والنهوض، فلما انفرزت حركة علمانية وطنية تدعو للاستقلال بصورة للمجتمع المستقل مستعارة من نماذج الغرب وأسسه الشرعية، لما حدث ذلك ظهرت الدعوة الإسلامية تؤكد أن الإسلام دين ودولة.

وبدأ الموقف السياسي التحرري للفكر الإسلامي وللحركات الإسلامية يتغير منذ النصف الثاني للقرن العشرين متجهاً بتلك الحركات إلى موقف المعارضة الحادة

للنظم السياسية وللحكومات القائمة.. ودافعاً بالطرفين إلى مواجهات ومصادمات غير مسبوقة وإلى اتجاه كثير من حكومات الدول العربية والإسلامية إلى السعي في تصفية الحركات الإسلامية سياسياً وجسدياً، وقابل ذلك اتجاه بعض الحركات الإسلامية لزعزعة الاستقرار السياسي لتلك الحكومات، وانتقلت إلى العمل خارج الإطار السياسي و «الشرعية القانونية» وتحديث الحركة الإسلامية والفكر الإسلامي من قوة نهضة إلى مصدر خطر على استقرار المجتمع وعقبة تهدد مسيرته نحو النمو والرخاء، وإلى مشكلة أمنية مزمنة يكاد حلها يستعصي على العقلاء والحكماء، وبسيادة هذه النظرة الأمنية فقد وقعت أضرار جسيمة، وفات على الأمة بكل طوائفها خير كثير.

وقد ساهم في هذا التحول المتسارع، وبخاصة في السنوات العشر الأخيرة، ظهور تحالف ثلاثي جديد من الغرب.. أولاً الذي يرى في الإسلام عدواً بديلاً للشيوعية، وخطراً يهدد المصالح الغربية، ومنافساً للحضارة الغربية والحكومات؛ ثانياً التي سيطرت على أكثرها رؤية ومنهجية أمنية غلبت منهج الساسة العقلاء والحكماء ولا ترى طريقاً للعمل سوى العقاب وعدم الحوار والتفاهم؛ ونخب العلمانيين فريق ثالث من الكتاب والمثقفين والسياسيين الذين تهدد الصحوة الإسلامية مصالحهم ومكاسبهم وشهواتهم.

وساهم في ذلك أيضاً ظهور الجماعات التي ترفض مجتمعاتها وتتهمها بالكفر والجاهلية وتورطها في أعمال عنف عشوائي ضد المجتمع والغرب، وعزز ذلك الاعتقاد والتحليل الذي يرى أن العمل الإسلامي والفكر الإسلامي يحمل بذور العنف والتطرف حتى في صيغته المعتدلة.

الحركة الإسلامية وقياداتها الواعية المعتدلة تملك المبادرات ومفتاح حل الأزمة الناشبة مع الغرب والحكومات والتيارات العلمانية، وذلك بتحديد حاسم لمنهجها ورؤيتها نحو العنف والتكفير بوضوح يميز بينها وبين تلك الجماعات، وبإعلان واضح ومفصل ومؤصل لمواقفها السياسية والفكرية تجاه الديمقراطية والتعددية والأقليات والمواطنة والمرأة، والحريات العامة والسياسية والتوسل بالعنف لأجل الوصول إلى الحكم.

إن المستقبل القريب يؤشر على تنامي الاتجاه الإسلامي في الشعوب والمجتمعات إلى درجة تؤكد أن الإسلام هو طابع الحكم والإدارة في العالم العربي والإسلامي، وقد يكون ذلك بالحركات الإسلامية القائمة اليوم أو بدونها.

ويستند التطرف وجماعاته على خطاب فكري فيه تشوه وغلو وانحراف لكنه يتضمن كثيراً من الأسس والقواعد الصحيحة التي يساء فهمها والاستنتاج المتعلق بها، ويحمل أعضاء هذه الجماعات دافعاً فكرياً وعقيدياً قوياً تجاه تطبيق ما يدعون إليه ويعتقدون بصحته، وستكون المواجهة بعنف وسيلة غير مجدية، وربما تزيد هذه الجماعات تمسكاً بقناعاتها وآرائها وتزيدها تطرفاً وعنفاً، ولكن الحوار الفكري المتواصل مع قادة وأعضاء هذه الجماعات سيؤدي إلى التصحيح ويحرم التطرف والإرهاب من روافده الأساسية من الشباب المتحمس حسن النية، الذين يبحثون عن الصواب وقد يخطئون في طريق الوصول إليه ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (الكهف:١٠٤).

ويقترح د. أبو المجد قائمة من شروط النهضة الإسلامية للتكليف المحسوب مع حقائق العصر تكيفاً محكوماً بالثوابت الأخلاقية المستمدة من أصول الثقافة العربية الإسلامية، وذلك بتفعيل القواعد والأفكار الإسلامية الحضارية التي تصلح إطاراً

جامعاً للمسلمين والناس جميعاً، مثل حرية الفكر والرأي، والإلحاح على القضايا المشتركة مع الأمم والناس جميعاً، وتصحيح علاقة المسلمين بسائر الأمم والشعوب وتواصلهم مع سائر الحضارات والثقافات، وتوظيف الأدوات التي اشتمل عليها الإسلام لتحقيق الاستجابة مع تغير الأمكنة والأزمنة والأحوال، والاهتمام بالجوانب الإسلامية التي استحدث الناس منها ألواناً وصوراً لم تكن معروفة للفقهاء الأوائل أو كانت أصولها معروفة لديهم ولكن صورها المعاصرة صارت تحتاج إلى فقه جديد، والكف عن تضخيم جوانب صارت معروفة لكل المسلمين (كالعبادات) أو أخرى يحيا ويموت معظم المسلمين دون أن يتعاملوا معها (الحدود والجنايات).

ويدعو إلى التيسير في الفتوى تخفيفاً عن الناس، ومراعاة الأولويات عند مخاطبة الناس، ووضع النظم والتشريعات، والاستئناس بتجارب الأمم الأخرى، والالتفات إلى قيمة الحرية في الحياتين السياسية والثقافية، والكف عن تصور الخلافة الإسلامية صورة محددة من صور الحكم غابت بسقوط الخلافة العثمانية، فالعبرة بمبادئ العدل، ومسؤولية الحكام وتقيدهم بالقانون، واستمداد التشريعات من مبادئ الشريعة الإسلامية، واحترام حقوق الإنسان وحرياته، وأما ما عدا ذلك فترتيبات وتراكيب يجتهد المسلمون لإقامتها بمثل ما يجتهد غيرهم.

إن امتداد العمل الإصلاحي إلى العمل السياسي جعل الحركة الإسلامية الواحدة تشتغل بالمشاركة السياسية والنيابية والعمل النقابي والدعوي والخيري، وهذا أدى إلى فساد واستبداد، واحتكار للعمل العام، وصدام مع الحكومات بدلاً من التنسيق، وضياع الجهود وتكرارها، وتوظيف للعمل العام لأغراض ومصالح حزبية وشخصية، وأفقد الحركة الإسلامية مصداقيتها ونزاهتها.

فالانتشار الإسلامي يجب أن يكون مصحوباً بالامتداد الأفقي للأمة والمجتمعات بأسرها حتى لا يرهن العمل الإسلامي لصراعات ومصالح ورؤى صغيرة، وأن يتحول العمل من تنظيمات وجماعات إلى أمة ومجتمعات.

والحركة الإسلامية مدعوة لمبادرة ذاتية تقوم بها بنفسها قائمة على شبكية العمل الإسلامي وليس هرميته، ومجتمعيته وليس تنظيميته، فتجري انسحاباً لمشاركة غيرها وفصلاً تاماً وحقيقياً في القيادة والعمل بين العمل السياسي الحزبي وبين العمل النقابي والخيري والعمل الدعوي، ولا يعقل أن تقع قيادات الحركة الإسلامية فيما يفترض أن تكافح من أجل محاربته من احتكار وسيطرة، فترى القائد قائداً في العمل الخيري والدعوي والسياسي والنيابي.

وقادة الحركة الإسلامية بسلوكهم هذا لا يقعون في زلل الاستبداد والاحتكار فقط ولكنهم أيضاً يجعلون الحركة الإسلامية هدفاً معزولاً يسهل إصابته وتصفيته، ويجعلون مغانمهم الشخصية قضية الأمة أو قضية إسلامية ينتظرون من الناس أن يؤيدوهم بها، ويسهلون على الحكومات ضرب العمل الإسلامي تحت غطاء محاربة التجاوزات القانونية والسياسية.

إن هذا الفصل الإجرائي في التطبيق بين المجالات المختلفة للعمل من سياسي ونقابي وخيري ومؤسسي وحكومي يحول ملكية العمل الإسلامي وخبراته وتجاربه إلى المجتمع بأسره أو أكبر قدر ممكن منه، ويقلل من عقلية الاحتكار والوصاية وعدم الثقة بالآخرين، ويحمي الحركة الإسلامية من العزلة، ويجعل الحالة الإسلامية أكثر تجذراً وانتشاراً في المجتمع وليست مسألة تخص تنظيماً أو جماعة بعينها.

فمسؤولية العمل والدعوة والإصلاح منوطة بكل مسلم بل جميع المواطنين وليست حكراً على أفراد أو فئة من الناس، ووظيفة الحركة الإسلامية أن تحشد جميع

الناس والفئات في مشروعها الإصلاحي وليس منافستهم المغانم والمواقع والفرص، وكلما تراجعت المصالح الذاتية والتنظيمية تزيد المصداقية والقبول.

وقد أدت التحولات الكبيرة في المجتمعات، ودور الدولة، والنمو الكبير للصحوة الإسلامية، إلى أولويات ومجالات جديدة للعمل الإسلامي، قد يكون تقرير التنمية البشرية للأمم المتحدة وتقرير التنمية الإنسانية العربية من مؤشرات اتجاهاتها، مثل تحريك الدوافع الثقافية والخبرات المجتمعية في التنمية والنهوض وإعادة تنظيم المجتمعات والمؤسسات باتجاه تحقيق الاحتياجات الأساسية، كالعدل والمساواة والأمن والغذاء السليم والدواء والمأوى والتعليم والتعليم المستمر والانتماء والمشاركة بأقل التكاليف الممكنة وبأفضل مستوى، والتعامل الصحيح مع مرحلة الخصخصة وتغير دور الدولة وربما مفهومها، وهذا يجب أن يدفع العمل الإصلاحي إلى أوعية جديدة وأولويات تتفق مع هذه المتغيرات والاحتياجات، وكما كانت الحركات الإصلاحية مرتبطة بمقاومة الاحتلال والتحرر والاستقلال انسجاماً مع أولويات المرحلة، فإنها في هذه المرحلة مدعوة إلى بذل الجهد والاهتمام بالتنمية الإنسانية والاحتياجات الأساسية، وبخاصة أنها أعمال وبرامج وأولويات تتفق مع خبراتها وإمكاناتها.

٢- العالم الإسلامي هل يمكن أن يكون قوة عالمية:

هل يمكن للبلدان الإسلامية أن تكون كياناً دولياً أو قوة جديدة توازي في عناصرها التكوينية القوى الدولية الموجودة حالياً؟ ليس مهماً أن نقدم إجابة استراتيجية واضحة للسؤال، ولكنه سؤال يمثل تحدياً للخطاب الإسلامي ليكون مثل قرون الاستشعار التي تبحث عن المعالم المطلوبة للبحث عنها والتفكير فيها وجعلها أهدافاً عملية قابلة للتحقق، أو على الأقل حلماً يوجه الأجيال.

ربما يبدو السؤال غير واقعي، ويطرح في سياق واقع يخلو ظاهرياً من عناصر القوة الضرورية التي ينبغي على العالم الإسلامي أن يمتلكها لكي يشكل هذا التكتل الدولي القوي المفترض، ويجئ توقيته في لحظة تاريخية تبدو فيها الدول الإسلامية رازحة تحت سلسلة من الضغوط والإشكاليات الداخلية التي لا يمكن إيجاد حلول لها في الأمد المنظور.

ولكن اللحظة الراهنة تبدو عند النظر في السياق التاريخي مرحلة مؤقتة وإن كانت لا تعزز أي توقع مستقبلي إيجابي بأن العالم الإسلامي سينهض من جديد.

وكما تخطط الإدارة الأمريكية والغربية سياساتها العامة واستراتيجياتها على أساس أن العالم الإسلامي كتلة جغرافية وحضارية وجغرافية سياسية واحدة برغم إصرارها عند التنظيم الإجرائي على اعتبار العالم الإسلامي دولاً مختلفة، فيجب الاستمرار في النظر والتفكير والتحليل على أساس أن العالم الإسلامي كتلة واحدة، والمحافظة على هذه الفكرة ثقافياً وسياسياً، لأنها هي الأصل ولا تلغيها المرحلة المؤقتة التي تمر بالعالم الإسلامي، وربما يستحيل فهم الأحداث والتفاعلات الجارية اليوم فيما يخص العراق وإيران وتركيا وسورية والخليج وأفريقيا إلا عند الأخذ بالاعتبار الرؤية الاستراتيجية التي ترى العالم الإسلامي كتلة واحدة والتعامل معه على هذا الأساس عند أمريكا والغرب.

استقر مفهوم العالم الإسلامي جغرافياً منذ الدولة الأموية، و لم تغير التوسعات الجغرافية اللاحقة في مفهومه الجغرافي، ويقع قلب الوعاء الجغرافي للعالم الإسلامي في الوطن العربي ثم إيران وأفغانستان وباكستان وتركيا.

واليوم، فإن منظمة المؤتمر الإسلامي تضم في عضويتها ٥٦ دولة إسلامية، ويوجد تجمعات إسلامية كبيرة في دول ليست إسلامية مثل الهند، وكذلك في أفريقيا وفي أوروبا وأمريكا.

ويمتلك الإسلام (ديناميكية) مؤثرة في السلوك والقيم وبعداً تكوينياً نفسانياً في المجتمعات الإسلامية، وكانت الخصوصية الدينية العامل الأساسي لتحفيز وانطلاق معظم حركات التحرر الوطني للشعوب الإسلامية.

وشهدت السبعينيات موجة عودة فكرية وثقافية إلى الدين وتراجعاً للأفكار والتنظيمات القومية والاشتراكية، وبدأت مرحلة إعادة صياغة للمجتمعات والعلاقات يمثل الإسلام مكوناً مهماً فيها، وبدأت الحركات الإسلامية تنال نصيباً مهماً في المقاعد النيابية والبلدية والنقابية وتؤثر في وتقود معظم الأعمال الأهلية المجتمعية والتطوعية والعامة.

كما شكلت الحركة الإسلامية العمود الفقري لعمليات مقاومة الاحتلال في فلسطين وأفغانستان ولبنان، وحركات الاستقلال والدفاع عن الذات في كشمير وآسيا الوسطى وروسيا والفلبين وبورما وغيرها من الأقطار والأقاليم.

وبدأت أيضاً تقوم تجمعات إسلامية قائمة على تشكيل استراتيجي أيديولوجي للعالم الإسلامي مثل منظمة المؤتمر الإسلامي، التي انبثق عنها أو يعمل بموازاتها منظمات إسلامية متخصصة مثل المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم، ورابطة العالم الإسلامي، ومنظمة الإذاعات الإسلامية، والبنك الإسلامي للتنمية.

ولكن الوحدة الحضارية والثقافية في العالم الإسلامي لم تمنع التعددية العرقية والإثنية وتأثيرها الحاد في بعض الأحيان في البلد الواحد أو على مستوى العالم

الإسلامي، وقد ساهم الاستعمار الغربي في تغذية الصـــراعات القوميـــة والعرقيـــة وتشجيعها وتوظيفها، وهذا الرأي يمكن اقتباسه من كتاب غربيين، ويمكن الاستدلال على سبيل المثال بكتاب «الجغرافيا السياسية للعالم المعاصر» لمؤلفيه «بيتر تيلـــور» و«كولن فلنت».

إن القراءة السياسية الاقتصادية للأرقام والإحصائيات الاقتصادية والتجاريـــة في العالم الإسلامي تكشف عن حالة صعبة من التبعية للغرب، وتظهر ضعف التنســـيق والعمل الاقتصادي بين دول العالم الإسلامي.

والمشكلة الأخرى في العالم الإسلامي هي التباعد في السياسة الخارجية والأنظمة السياسية بين دوله، وقد أدى هذا التباعد إلى تبني سياســـات ومواقـــف خارجيـــة متناقضة زادت من حدة التشتت بين الدول والمجتمعات الإسلامية.

ولكن يستطيع العالم الإسلامي أن يكون قوة عالمية اقتصادية واستراتيجية دون موارد وشروط إضافية إلى ما هو قائم ومتحقق بالفعل، فما يلزم العالم الإسلامي هو إرادة سياســـية وتوظيف معقـــول لموارده وإمكانياته، ولا يلزمه في الوقت الحاضر قوة عسكرية وتكنولوجيا إضافية، ولا أن يخوض حروباً وصـــراعات ومغـــامرات عسكرية وسياسية.

فالعالم الإسلامي كيان جغرافي ممتد في ثلاث قارات تتجاوز أهميته «الجيوبولوتيكية» أي كيان عـــالمي آخر مثل الولايات المتحدة أو روسيا أو الصين أو فرنسا أو ألمانيا أو أوروبا مجتمعة، ويبلغ عدد سكان العالم الإسلامي حوالي مليار وثلاثمائة مليـــون نسمة بالإضافة إلى تجمعات إسلامية كبيرة في أفريقيا وآسيا وأووربا وأمريكا.

ويمتلك العالم الإسلامي ثروات بترولية وزراعية وتعدينية تفوق ما لدى الكيانـــات الأخرى، ويمتلك عمقاً تاريخياً وحضارياً وثقافياً وتعددية عرقية وثقافيـــة غنيـــة جـــداً، وفاعلية اجتماعية لدى الأفراد والمجتمعات تؤهل العالم الإسلامي للاحتمال والنهوض.

ويقدم الإسلام رصيداً معنوياً كبيراً يجمع المسلمين ويوحدهم ويحفزهم للعمل والنهوض ويمدهم بثقافة محركة للعمل والتعلم.

وستكون نهضة العالم الإسلامي سريعة لا تحتاج إلى زمن طويل بسبب توافر المؤهلات والشروط اللازمة، ولكن المشكلة ستبقى في الابتداء الفعلي والإرادة والرغبة، هذا بالإضافة بالطبع إلى التخلص من الهيمنة الاستعمارية، التي تعي ربما أكثر من المسلمين هذه القوى والموارد الكامنة.

٣- من المطلقية إلى النسبية:

امتدت النسبية في تأثيراتها وتداعياتها من الفيزياء والعلوم إلى الفلسفة والحياة، فهل تغير أيضاً من فهمنا وتفسيرنا للنصوص الدينية، وتفكيرنا الديني؟

لم يعد العلم قائماً على الحقائق الثابتة، كما كان طوال الحقب السابقة للنسبية؛ والمعلوماتية التي تسم المرحلة الحاضرة في المعرفة والتقنية قائمة على النسبية والاحتمالات أكثر، والرؤى الفلسفية لم تعد تنشد الحقائق والأفكار المطلقة؛ لأنها ليست موجودة في عالم البشر، فالمطلق في الحقيقة والصواب والعدل هو الله وحده، وأما البشر فهم يجتهدون دائماً في الاقتراب من الصواب والعدل، ولا يصلون أبداً للغاية النهائية.. قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ (التوبة: ١٢٤) فلا حد للإيمان، ولا يمكن بلوغ الكمال فيه، ويظل مطلوباً من الإنسان مراجعة إيمانه وصيانته وحمايته من النقص.

النسبية تصلح لتطوير الفهم والعمل ومراجعتهما وتطويرهما باستمرار، وربما تتفق مع جوهر الإيمان؛ لأنها عملية بحث مستمرة، واعتقاد دائم متواصل أن

هناك ما هو أفضل وأكثر صواباً، وأن الصواب والعدل في حدهما النهائي المطلق لله لا ينازعه فيهما أحد، ومن ثم فإن ادعاء الصواب المطلق والعصمة للرأي يتنافى مع الإيمان، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء:٨٥)، وفي الهدي النبوي: «...لَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِي لَهُ...»[١]، أي أن الرسول ﷺ قد يعطي في الحكم أحداً غير حقه، وقد يضيع على صاحب الحق حقه لضعف حجته، ومن ثم فإن الصواب والعدل في المجهود البشري هما هدفان يسعى إليهما الإنسان، ويحكم بموجبهما، لكنه قد يبتعد عنهما أو يقترب منهما، لكنه لا يدركهما.

وفي ذلك حكمة كبرى، ليتواصل الجهد والبحث والتطوير بلا توقف أبداً، فيتراكم العمل مشكلاً حالة جديدة تجري مراجعتها باستمرار لتصل الجهود الإصلاحية إلى حالة أفضل، فتتحول هذه مرة أخرى إلى حالة سابقة تخضع من جديد للمراجعة والتصويب، أو هي دائرة متصلة يلخصها الدكتور سيد دسوقي في «التراكم والاستيعاب والإبداع»، الذي يتحول فوراً إلى تراكم يجري استيعابه من جديد، وهكذا.

٤- من الدولة الإسلامية إلى دولة المسلمين:

تتخذ حركات إسلامية شعار إقامة الدولة الإسلامية هدفاً أساسياً لعملها ونضالها، ويبدو أن الخطاب الإسلامي السياسي شغل كثيراً بجدوى هذا الشعار وأهميته وتقويم محاولات تطبيقه، من دون أن يشغل نفسه بما هو أكثر بداهة وأساسية في التفكير والسؤال، مثل: ما هي الدولة الإسلامية؟ هل هي قائمة بالفعل في العالم الإسلامي أم ليست موجودة؟ أم أنها قائمة على نحو متفاوت ومختلف بين دولة وأخرى وباختلاف في مستويات تطبيقها ومفاهيمها ونسبيتها؟

---

(١) أخرجه مسلم.

ماذا نعني بالدولة الإسلامية؟ فمنظمة المؤتمر الإسلامي تضم في عضويتها ستاً وخمسين دولة «إسلامية» وهي دول قائمة بالفعل وتعتبر نفسها إسلامية، وتنص دساتيرها في الغالب على أن دين الدولة هو الإسلام، وأنه مصدر رئيس للتشريع.

إن صفة الإسلام (أو عدمه) لا تطلق على هيئات أو مؤسسات أو دول أو حكومات أو جمعيات، فالإسلام أو الكفر يتعلقان بالأفراد فقط، ومن ثم فإن تسمية «الإسلامية» التي نشأت في العقود الأخيرة وصارت تطلق على الدول والجماعات... وحتى المستشفيات (!!) والشركات التجارية والاستثمارية لا تعني أبداً نقيض الكفر أو أن ما سواها ليس مسلماً أو كافراً.

ومصادر الفقه في التراث الإسلامي تصف الدول بدار الإسلام أو دار الكفر أو دار الحرب أو دار الذمة، أي دولة المسلمين أو دولة غير المسلمين، والفرق واضح وكبير بين المصطلحين.

بل إن بعض المفكرين يدعو إلى استخدام مصطلح الفكر السياسي لدى المسلمين وليس الفكر السياسي الإسلامي باعتبار أن المسلمين يجتهدون في اختيار وسائل الحكم والإدارة، ويقتربون بذلك من الإسلام أو يبتعدون ولكن ذلك لا يعني أن ممارساتهم هي الإسلام، كما لا يعني مجانبتهم الصواب أنهم ليسوا مسلمين.

فالدول الإسلامية بالمفهوم الاصطلاحي قائمة بالفعل، والحديث عن العمل على إقامتها هو سعي إلى تحقيق ما هو محقق.

ولكن هذا لا يعني أبداً الحكم على جهود الحركات والدول والمجتمعات الإسلامية نحو إقامة الدولة الإسلامية بأنه تكرار أو وهم وعبث... ولكنه في معظمه محاولة لتطبيق الشريعة الإسلامية وزيادة الاقتراب من الإسلام، فالحديث إذاً هو عن تطبيق الشريعة الإسلامية في الحياة والحكم.

والدول الإسلامية القائمة اليوم تطبق الشريعة الإسلامية، بمعنى اعتبارها مصدراً للتشريع وانسجام الأحكام معها، إلا في حالات تقل أو تزيد من بلد إلى آخر، ولا ينفي عن دولة أو حكومة صفة الإسلام إن لم يطبق القائمون عليها أو حكامها بعض أحكام الشريعة الإسلامية إلا إذا كان الامتناع عن تطبيقها نتيجة اعتقاد أو فعل ليس له تفسير إلا الكفر. ولم يحدث بالفعل (ولن يحدث) أن طبقت الشريعة الإسلامية على نحو تام وكامل في التاريخ والجغرافيا منذ وفاة الرسول ﷺ، ذلك أن فهم أحكام الشريعة وتطبيقها يتضمنان قدراً كبيراً من الاجتهاد والتقدير لا بد من أن يحتملا الخطأ والتقصير يدل عليه الاختلاف بين الفقهاء والحكام والمذاهب الفقهية والفكرية.

وهكذا، فإننا نجد في التاريخ والجغرافيا نماذج متعددة ومختلفة للدولة الإسلامية، ففي المشهد المعاصر نرى السعودية وإيران والسودان وتركيا (تجربة حزب الرفاه وحزب العدالة والتنمية) إضافة إلى النموذج التقليدي السائد للدولة الإسلامية المختلف عن النماذج السابقة، مثل الأردن والكويت وباكستان وإندونيسيا وسائر الدول الإسلامية.

وقد اشتط بعضهم في تفسير الآيات والأحاديث وتوصل إلى أحكام عن الدول والحكومات تخالف إجماع الأمة الإسلامية، فذهبوا إلى تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (المائدة:٤٤)، وقوله تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (المائدة:٥٠)، بأن الحكومات والدول (وأحياناً المجتمعات) القائمة اليوم هي كافرة لأنها لا تحكم بما أنزل الله، وهو حكم متسرع لا يأخذ بالاعتبار معنى «الحكم» في الآية واللغة، ولا ينسجم مع الفهم الذي استقرت عليه الأمة، وأجمعت عليه طوال تاريخها، فالحكم و«الجهل»

مسألة قضايا لا تخص الحكم والسياسة فقط، ولكنها تشمل جميع الأفعال والأقوال، والكفر له أحكامه وشروطه.

واعتبار الحكومات والدول الإسلامية القائمة اليوم كافرة فيه شطط وتناقض واعتساف، فهل هي مثل إسرائيل أو بريطانيا على سبيل المثال؟؟ وهل يعني عدم تطبيق أي حكم أنزله الله كفراً، فتكفر إذاً جميع الدول التي قامت بعد وفاة الرسول ﷺ، لأنه ما من حاكم إلا و لم يطبق حكماً أنزله الله، فالكمال والعصمة مستحيلان، والحكم أيضاً يشمل كل الأفعال كالقضاء والإدارة والتدريس، فهل يكفر كل من يخطئ أو يخالف الشريعة الإسلامية في أعماله؟ إن أخطأ في تصحيح ورقة امتحان، أو في اختيار الموظفين والمفاضلة بينهم، أو لم يعدل بين أبنائه؟ فهي أفعال وغيرها كثير، هي «حكم»، وعندما تفهم الآية ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم... ﴾ بأنها تعني الحكومات والدول فمن يكفر؟ هل هو رئيس الدولة أم الوزراء؟ أم النواب؟ أم القضاة؟ أم جميعهم؟ بل إن الحكم يشمل كل موظفي الحكومة والدولة حتى أئمة المساجد ومؤذنيها؟!

ويبقى السؤال قائماً ومشروعاً لا تلغيه المقاربة السابقة: هل يمكن تطبيق الشريعة الإسلامية اليوم في أنظمة الحكم والإدارة العصرية؟ وهل يتعارض النظام الإسلامي، أم يتوافق، مع مفاهيم الدولة الحديثة ومع حقوق الإنسان المتعارف عليها؟

إن النظام الإسلامي ليس أحكاماً جاهزة تطبق ولكنه قواعد عامة ومقاصد كلية وأهداف وغايات وفلسفة يسعى المسلمون إلى تطبيقها، ولهذا فقد اختلفت النماذج الإسلامية في الحكم اختلافاً كبيراً، كان بعضها متقدماً في تحقيق الحريات والحقوق العامة، وبعضها الآخر يبالغ في الظلم والتسلط، ولا أحد يستطيع أن ينفي صفة

الإسلام عن أي من هذه الأنظمة... وما يمكن اعتباره هنا هو ما قاله ابن القيم في كتابه «الطرق الحكمية في السياسة الشرعية»، من أن السياسة الشرعية مدارها العدل، ولو لم ينص عليه وحي، ذلك أن الله أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل الذي قامت به السماوات والأرض، فإذا ظهرت إمارات الحق وأسفر وجهه بأي طريق كان فثمة شرع الله ودينه؟ وعرف السياسة بأنها «ما كان فعلاً يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يضعه رسول ولا نزل به وحي، فأي طريق استخرج بها العدل فهي من الدين».

وربما يكون لافتاً أن جماعة الإخوان المسلمين، التي أسسها حسن البنا عام ١٩٢٨م وصارت كبرى الحركات الإسلامية في الوطن العربي وانبثقت منها حركات إسلامية أخرى، وتأثر بها العمل الإسلامي في العالم الإسلامي، لم تنص في أهدافها الأساسية على إقامة الدولة الإسلامية، ولم يرد هذا المصطلح في قانونها الأساسي، إذ نصت أهداف الجماعة كما في قانونها الأساسي الذي أقر عام ١٩٤٨م على أن «الإخوان المسلمون» هيئة إسلامية جامعة تعمل لتحقيق الأغراض التي جاء بها الإسلام وما يتصل بهذه الأغراض: شرح دعوة القرآن الكريم، وعرضها وفق روح العصر، وجمع القلوب والنفوس على المبادئ القرآنية، وتقريب وجهات النظر بين الفرق الإسلامية المختلفة، وتنمية الثروة القومية وحمايتها وتحريرها، والعمل على رفع مستوى المعيشة، وتحقيق العدالة الاجتماعية، والتأمين الاجتماعي لكل مواطن، والمساهمة في الخدمة الشعبية، ومكافحة الجهل والفقر والمرض والرذيلة، وتشجيع أعمال البر والخير، وقيام الدولة الصالحة، ومناصرة التعاون العالمي، والمشاركة في بناء السلام والحضارة الإنسانية، وتحرير وادي النيل والبلاد العربية والوطن الإسلامي من كل سلطان أجنبي.

ويعتمد «الإخوان المسلمون» في تحقيق هذه الأغراض، كما ينص نظامهم الأساسي وسائل الدعوة، طريق النشر والإذاعة والكتابة والصحف والكتب والمطبوعات، والتربية، والتوجيه بوضع المناهج الصالحة في كل شؤون المجتمع والتقدم بها إلى الجهات المختصة والوصول بها إلى الهيئات النيابية والتشريعية والتنفيذية والدولية، والعمل على إنشاء مؤسسات اقتصادية واجتماعية وعلمية وصحية وخيرية.

كان ثمة اختيار واع لهذا النهج الإصلاحي للجماعة بأهدافها ووسائلها، فلم تذكر عبارة «الدولة الإسلامية» وإنما الدولة الصالحة، و لم يختر «البنا» أسلوب العمل السياسي الحزبي، وكان معتمداً، و لم يحاول الحصول على غالبية برلمانية، وكانت مشاركته في الانتخابات النيابية رمزية فقط، وقد ترشح البنا بنفسه عام ١٩٤٢م ثم انسحب في صفقة مع حزب الوفد الحاكم مقابل مكاسب أخرى في العمل العام، وربما لم يترشح غيره من «الإخوان» في الانتخابات النيابية على رغم أن الفرصة كانت متاحة للمشاركة الواسعة ولدخول البرلمان والمشاركة في الحكم بتشكيل الحكومة منفردين أو بالائتلاف مع الأحزاب القائمة كما كان يحدث بالفعل في مصر في الثلاثينات والأربعينات، و لم يختر «البنا» أن يؤسس حزباً سياسياً كما الأحزاب التي كانت قائمة وتعمل بحرية وتتنافس في الانتخابات النيابية وتشكل الحكومات كالوفد والأحرار الدستوريين.

لكن الانسحاب من هذا المجال في العمل كان اختيارياً لأن «البنا» لم يكن يرى جماعة «الإخوان» حزباً سياسياً يسعى إلى الحكم، ولكنه يسعى في إصلاح وتغيير المؤسسات والأوضاع القائمة، لتكون الأمة بأسرها مسؤولة عن الدولة والحكومات القائمة، ولتكون مسؤولية تطبيق الشريعة وتحقيق المصالح العامة منوطة بالمجتمع بجميع

أفراده وليست برنامجاً لحزب أو جماعة، وكان خروج «الإخوان» من المغانم والممارسة اليومية فرصة للرقابة والمصداقية والنزاهة، وأن تكون حكماً ومرجعية للأفراد والسياسيين وموضع تنافس من جميع الأطراف على كسب تأييدها، وهي بخلوها من الأغراض والمنفعة المباشرة وحيادها كانت أقدر على التوفيق والإصلاح والدعوة ومساعدة المجتمعات على الاختيار. فهو يرى أن الدولة الإسلامية قائمة ولكنها تحتاج إلى إصلاح، وإلا فلماذا كان يحجم عن السعي لإقامة حكومة أو العمل على تحقيق تغيير جذري في نظام الحكم؟

وربما كان من المفارقات اللافتة أن تقرير التنمية الإنسانية العربية الصادر للمرة الأولى عام ٢٠٠٢م استخدم المصطلح نفسه الذي استُخدم في النظام الأساسي للإخوان «الدولة الصالحة» أو الحكم الصالح الذي يراه تقرير التنمية الإنسانية أحد المداخل المهمة لتحقيق التنمية والإصلاح.

والخلاصة: أن المسلمين يجتهدون في إقامة دولتهم وأنظمتهم العصرية بما يحقق ما يرون أنه عدل وصلاح وحرية، وينتقون من أنظمة الحكم والانتخاب والإدارة ما يقترب بهم من ذلك، وينجحون أو يفشلون، ويتفاوتون في النجاح والفشل.

٥- من الجماعات إلى المجتمعات:

نشاهد اليوم لدى الأمة الكثير من المظاهر والإنجازات التي تدل على إمكانية نقل الدعوة والإصلاح والهم العام من نخبة إسلامية إلى الأمة كلها، فالمساجد اليوم تمتلئ بالرواد من الناس الذين لا تنسق وجودهم في الصلوات والدروس جماعة ما كما كان الأمر قبل عشرين سنة أو أكثر حين بدأت الصحوة الإسلامية بالنمو والانتشار، ولكن الإقبال على المساجد حالة مجتمعية عامة، والأمر نفسه ينطبق على رحلات

الحـــج والعمرة والحجاب والأشرطـــة «الكاسيت» والإعلام وغيرها من الـــبرامج التي بدأت نخبوية تقوم عليها وتنسقها جماعة إسلامية منظمة وصارت اليوم حالـــة مجتمعية عامة.

وامتدت الصحوة الإسلامية إلى دول وأقطار ليس فيها وجود لجماعات إسلامية منظمة، كما شملت فئات من المجتمع ليس من بينها في العـــادة مـــن ينتظمـــون في الجماعات الإسلامية.

وقامت مؤسسات استثمارية تجارية لا علاقة لها بحكومة أو جماعـــة مســـتمدة أســـاساً من إقبال النـــاس ورغبتـــهم بتطبيـــق الشريعـــة الإســـلامية، مثل البنوك الإســـلامية التي تزيد موجوداتهـــا على المـــائة وخمسين مليار دولار، وشـــركات التأمين الإسلامية.

عصر المجتمعات:

نشأت في السنوات القليلة الماضية تحولات وتحديات وفرص كـــبيرة وجديـــدة تضيف، إلى ضرورة وجود مجتمعات فاعلة وقادرة على تحقيق توازن عادل يحمـــي الديمقراطية والحقوق الاقتصادية والاجتماعية للمواطنين، أهمية قصوى تتعلق بمصـــير الاحتياجات والحقوق الأساسية كالتعليم والرعاية الصحية والاجتماعيـــة والعمـــل والسكن والانتماء والمشاركة والثقافة الوطنية والمجتمعية.

ومن أهم هذه التحولات تغير دور الحكومات والدول، وإســـناد كـــثير مـــن الخدمات الأساسية التي كانت تؤديها الدولة، مثل التعليم والصـــحة والاتصـــالات والبريد والمياه والكهرباء وإدارة موارد الدولة، إلى شركات استثمارية، يجعل من هذه الخدمات سلعة تجارية لا تتاح إلا لمن يقدر على دفع ثمنها، وتعصف أو تهدد كـــثيراً

من مؤسسات ومكتسبات الرعاية الصحية والاجتماعية، وبخاصة لفئات من المواطنين تحتاج إلى رعاية فائقة وخاصة، مثل كبار السن وذوي الاحتياجات الخاصة والفقراء وسكان المناطق البعيدة والتجمعات قليلة العدد من السكان التي لا يحقق توفير خدمات أساسية لها كالبريد والكهرباء والاتصالات والمياه عائداً ربحياً.

وفي الوقت نفسه فإن التحولات والتغيرات العالمية، القائمة على أساس المعرفة والمعلوماتية والاتصالات، تعطي المجتمعات والطبقة الوسطى فرصاً جديدة، تجعلها قادرة على التحرك وفرض إرادتها.

وتتكون اليوم أدوات جديدة لفهم المجتمعات، واستقرارها، وتسييرها، تختلف عن السيطرة والتفاهم مع النخب والقيادات السياسية والاجتماعية ورشوتها، فالمعرفة المتاحة، والشبكية الإعلامية والمجتمعية والاقتصادية الناشئة تغير كل شيء في حياة وعلاقات الناس والمجتمعات والدول.

وهي بالمناسبة موجة لم تصنعها الولايات المتحدة، وإن كانت تحاول فهمها وتوظيفها والتكيف معها، وسيؤدي الانشغال المبالغ فيه بالنقاش حول مسألة الإصلاح وعلاقته بالولايات المتحدة الأمريكية والغرب إلى استدراج تمارسه السلطات السياسية المنتفعة بالأوضاع القائمة والقلقة من تململ المجتمعات وتحولاتها، والتي تسعى إلى التهرب من مواجهة الموجة القادمة.

وتستطيع المجتمعات والجماعات الإصلاحية استباق الخسائر وتحويلها إلى مكاسب عظيمة إن بدأت فوراً بالسؤال المؤدي إلى الفهم، والاقتراب من التفاعل مع اللحظة، فما يجري في العالم لا يستثني مجتمعاً أو دولة ما.

عدالة اجتماعية تقدم حلولاً وأفكاراً جديدة:

تدور حركات المجتمعات وتحولاتها حول مجموعة من الأسئلة عن الحريات والإصلاح والديمقراطية الاجتماعية والتي تفضي إلى حالة شراكة مع السلطة أو بديل لها في بعض الأحيان في إدارة الاحتياجات والخدمات التي تخلت عنها الدول والحكومات، وفي تحويل الديمقراطية والحريات إلى عقد اجتماعي تقوم عليه مصالح المجتمعات وتنظم علاقة المواطنين بالسلطة، وعلى نحو لا يجعل الديمقراطية والإصلاح هبة من السلطة والنخب يمكن أن تنزعها في أي وقت تشاء.

كيف ستدبر المجتمعات شؤونها بعد فترة من الزمن حين لا يكون هناك وزارات للثقافة والإعلام والتعليم والزراعة والصحة وسائر الخدمات؟ كيف ستواصل المجتمعات العمل الثقافي ورعاية الحركة الثقافية بعد وزارة الثقافة، وكيف ستحافظ على الغابات والمراعي والبوادي وتنميها في غياب وزارة الزراعة؟ كيف ستتدبر التعليم الجامعي والثانوي عندما يتحول إلى خدمة تجارية تقدمها شركات استثمارية؟ وهناك عشرات بل مئات الأسئلة تتعلق بمصالح بعيدة المدى يجب الاستعداد لها، وتأهيل المجتمعات لتكون قادرة على إدارتها وتنظيمها بدون رعاية أو دعم من الحكومات.

كيف يكون الإصلاح حالة مستمرة ودائمة لا يمكن التراجع عنها؟ كيف يمكن حماية الديمقراطية من مزاجية النخب والحكومات ومصالحها؟ وكيف تتحول من هبة تمنح إلى عقد اجتماعي، ومنظومة من المصالح والعلاقات، وشبكة مجتمعية، ومرجعية حاكمة للمجتمع والدولة؟

العدالة الاجتماعية هي الإجابة التي عبرت عنها المجتمعات في مواجهتها مع العولمة الليبرالية الاقتصادية ومع السلطات المتحالفة مع شركات الاستثمار، التي باتت تسيطر على إدارة خدمات وموارد الدول والمجتمعات، وفي سعيها نحو الحرية والإصلاح.

مجتمعات تسعى للديمقراطية الاجتماعية:

الديمقراطية الاجتماعية تعني تمكين المجتمعات من تنظيم نفسها، وإدارة مواردها وحقوقها واحتياجاتها الأساسية، والقدرة على التأثير والمشاركة في الحكم على النحو الذي يوسع خياراتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ويجعل مؤسسات الحكم والإدارة أمينة وقادرة على التعامل مع التفويض، الذي منحه المواطنون لها للتصرف بالموارد والضرائب العامة وفق مصالح المواطنين واتجاهاتهم، وتمكينهم من تحقيق توازن مع السلطات والمؤسسات ومن محاسبة هذه المؤسسات ومراقبتها وتوجيهها وعزلها إن لزم الأمر.

فالديمقراطية في العالم الثالث ما زالت فوقية تتدافع حولها النخب السياسية، وليست عقداً اجتماعياً تقوم عليه مصالح والتزامات الحكومات والمجتمعات والمؤسسات، وهذا سيجعلها خاضعة لمصالح النخب السياسية، ويعطيها فرصة تصميمها وضبطها والسيطرة عليها وتوجيهها وإجهاضها وخنقها.

والأزمة القائمة اليوم بين المجتمعات والسلطة مردها إلى أن الحكومات والنخب مازالت تتجاهل دور المجتمعات الأهلية والطبقة الوسطى، التي أضعفتها في المرحلة السابقة التحولات السياسية والاقتصادية، وتغولت عليها الحكومة والطبقات الجديدة الطارئة والمعزولة، وتنامي التطلعات الاستهلاكية وزيادة الأسعار والضرائب، ولا يبدو أن ثمة برامج حقيقية لاستعادة دور هذه المجتمعات والطبقات وإعادة إنتاجها وتفعيلها.

وحتى تترسخ الديمقراطية والإصلاحات المرغوب بها فإنها تحتاج أن ترتبط بها مصالح الناس واحتياجاتهم وحقوقهم الأساسية؛ كالعمل والتوظيف، والعطاءات والعقود، والتعليم، والإسكان، والانتماء، والمشاركة، والضرائب، والأجور، وتنظيم

المهن وتطويرها، والقضايا والتجمعات العمالية، والمشروعات والاستثمارات التعاونية، والنفع العام، وتنظيم المجتمعات في مواجهة الشركات وفي مواجهة السلطة...

والإصلاح تنشئه منظومة اجتماعية، وشبكة من العلاقات والمصالح، والديمقراطية تترسخ وتزدهر بتنظيم المجتمعات على أساس أهدافها المباشرة والعملية، والانتخابات والتشريعات يجب أن تعكس المصالح والثقافة الراسخة في المجتمع والدولة.

وانتفاضة المجتمعات القائمة اليوم في دول عدة تعبر عن الهواجس والتفكير بالاقتراب من أو الوصول إلى مشروعات وطنية اجتماعية تعيد تنظيم المجتمعات على أساس حماية مصالحها، وتؤسس لثقافة مجتمعية وطنية تعكس الاحتياجات الإصلاحية والتنموية والتحولات الكبرى الجارية، والتي تغير من أدوار وطبيعة أدوار المجتمع والدولة، وتنشئ أيضاً دوراً جديداً متنامياً وواسعاً للمجتمعات وللثقافة المجتمعية في العملية الإصلاحية والتنموية والتي لم تعد اكتشافاً نخبوياً أو نضالياً، ولكنها تحولت إلى موجة مجتمعية عالمية لا تستثني مجتمعاً أو بلداً في العالم.

فتحتاج المجتمعات أن تنظم نفسها على نحو يمكنها من مواجهة الشركات التي تدير احتياجاتها الرئيسية، فحين تسهل الحكومة للمستثمرين امتلاك البنى الأساسية للدولة وإدارتها واستثمارها فإن المجتمعات تحتاج إلى أن تنظم نفسها على نحو يعينها على الضغط على هذه الشركات والاستثمارات لتحصيل وحماية حقوقها وأجزاء من الأرباح التي تجنيها، ويجعل التشريعات التي تنظم العمل والعلاقة بين العمال وأصحاب العمل عادلة في توفير الأجور والرعاية والضمان والتظلم والسلامة.

وتحتاج المجتمعات أن تدفع الحكومات إلى إعادة توجيه الإنفاق وإدارة الموارد التي تجمعها من الضرائب باتجاه يرفع من مستوى المعيشة للفقراء في المجتمع، فإذا كان

الإنفاق العام في بلد يشكل ٢٥% من الناتج المحلي الإجمالي، وكانت نسبة الفقراء في هذا البلد تساوي ٢٠% وتنال ٥% من الدخل - وهذه أرقام واقعية، فقد أظهر تقرير الأمم المتحدة للتنمية البشرية أن الجزء الأكبر من الموارد يوجه لتحسين معيشة الفئة الغنية في المجتمع فقط - فإن إعادة تخصيص ما يقارب ١٠% من الموازنة لهذه الفئة ستزيد دخلها بمقدار ٥٠%.

وقد أظهرت الدراسات أن إعادة توزيع الدخل في معظم دول أوروبا الغربية، وتحقيق العدالة الاجتماعية، تحقق من خلال الإنفاق العام لأغراض مساعدة الفئات على تحقيق احتياجاتها الأساسية كالإسكان والتعليم والتأمين الصحي والضمان الاجتماعي، وقد أنفقت هذه الدول ٤٠% - ٥٠% من الإنفاق العام على الاحتياجات الأساسية.

ومما يحدث في الدول العربية أن الضحية الأولى دائماً لانخفاض الإيرادات تكون هي النفقات التنموية، فهي أول ما يشطب أو يخفض حين تفكر الحكومة بتقليل نفقاتها. وتؤجل الحكومات دائماً مواجهتها ومعاركها مع الفئات الغنية والمتنفذة، أو لا تفكر فيها إطلاقاً، وتتجرأ على الفئات والحلقات الضعيفة في المجتمع ودورة الاقتصاد والإنتاج كالمزارعين وصغار التجار والعمال، ويلاحظ على سبيل المثال أن النقابات العمالية التي تغطي مجالات الزراعة والنقل والحرف هي شكلية وهامشية ولا تعمل حتى في الخدمة الاجتماعية والمهنية لمنتسبيها، وأظهرت دراسات أن نسبة عالية من منتسبي النقابات العمالية لا يتمتعون بضمان اجتماعي ولا تأمين صحي ويعملون في ظروف بالغة السوء دون أن تسعى نقاباتهم لتحقيق أدنى حق لهم في هذا المجال.

المجتمع الأهلي الحيوي والقوي والفاعل، والذي تنسق حراكه طبقة وسطى ممتدة ومبادرة لا أحزاب ومنظمات ونخب متداعية ومعزولة وآيلة للانقراض وأنشأتها ظروف واعتبارات لم تعد موجودة، هو القادر على التعامل الصحيح مع العولمة وتغير مفهوم ودور الدولة.

مجتمعات في مواجهة السلطة والشركات:

أدى انتشار التعليم وسيادة المعرفة ومرحلة المعلوماتية والاتصال إلى نشوء طبقات وسطى واسعة وممتدة، تؤهلها لإنشاء شبكة من البنى الأساسية للحكم والإدارة والتنظيم، تكون قادرة على التحول والتحرك باتجاه أهداف المجتمع وأولوياته واحتياجاته الأساسية.

وما كان ينقص هذه الطبقة الوسطى إعادة تنظيم شبكية ومجتمعية (وليس منظماتية ومؤسساتية أو حزبية) على نحو يدرك المصالح البعيدة والقريبة المدى، وقد كشفت مواجهات هذه المجتمعات مع العولمة الليبرالية في أوروبا وأمريكا وإلى حد ما في آسيا وأفريقيا أن هذه المجتمعات قادرة على إعادة تنظيم نفسها على نحو ليس هرمياً تسيطر عليه قيادات ونخب ومنظمات، ولكنه شبكي عملاق ينتظم ملايين الأعضاء والجماعات والمنظمات.

فالاتحاد الأوروبي للنقابات العمالية، والذي كان أهم شبكة عالمية تواجه مؤتمرات دافوس ومنظمة التجارة العالمية، يضم عشرات الملايين من الأعضاء الذين كانوا يتحركون بفعل الإنترنت والموبايل والفضائيات كما لو أنهم منظمة صغيرة.

و«الأممية الفلاحية» تضم حوالي خمسين مليون عضو من اتحادات وجمعيات المزارعين حول العالم، كانوا يتحركون معاً لمواجهة منظمة التجارة العالمية والشركات العملاقة والسلطات المتحالفة معها لتنفيذ سياسات تضر بصغار المزارعين وبإنتاجهم.

فالسوق العالمية اليوم تقوم على داروينية اجتماعية لا تلقي بالاً للفقراء والمحتاجين والمجتمعات، والعملية الاقتصادية هي تنافس في غابة لا ترحم ولا مكان فيها للتعامل الأخلاقي، وهي بالمناسبة حالة تهدد جميع المجتمعات، بما في ذلك الغربية الراعية للاقتصاد الشركاتي المعولم والمهيمن، فأنظمة الرفاه الاجتماعي والضمان والتقاعد والتأمين الصحي والادخار والمؤسسات الصغيرة والمتوسطة في أوروبا والولايات المتحدة باتت مهددة على نحو لا يختلف كثيراً عن التهديد والمعاناة القائمة في العالم الثالث.

وفي مقابل العولمة الرأسمالية المصممة للهيمنة والاستنزاف والنهب ظهرت شبكة عالمية مجتمعية مضادة من المنظمات غير الحكومية والاجتماعية، فقد شارك حوالي ربع مليون متظاهر احتجاجاً أمام اجتماع الثمانية الكبار (G8) في جنوا بإيطاليا في تموز ٢٠٠١م، ويمثلون ألف حركة شعبية ومنظمة ونقابة منتشرة في ٨٢ بلداً. وتظاهر أكثر من ٦٠٠ ألف شخص في البرازيل أمام المنتدى الاجتماعي العالمي أوائل عام ٢٠٠٢م، وكانوا يمثلون القارات الخمس وتنتظمهم ألفا حركة شعبية ونقابية.

يتكون المجتمع العالمي الجديد من مجموعات وجبهات عدة من المنظمات العمالية والنقابية، والحركات الفلاحية، والمنظمات النسائية، والمجتمعات المحلية والمجموعات السكانية المختلفة مثل الهنود الحمر، والحركات الاجتماعية والمنظمات غير الحكومية، مثل (أتاك) التي تهدف إلى استقطاع ضرائب على الصفقات المالية بهدف مساعدة المواطنين، وهي شبكة من الجمعيات واللجان والمكاتب والمؤسسات المتخصصة والداعمة، ومنظمة «يوبيل ٢٠٠٠»، المنظمة المسيحية التي تناضل لإلغاء الديون الخارجية على الدول الفقيرة، وقد جمعت ١٧ مليون توقيع على عريضة مطالبتها، ومنتدى الفقراء في تايلندا وهي منظمة الفلاحين التي تضم في عضويتها حوالي نصف

مليون شخص، وشبكة العالم الثالث في ماليزيا التي تنسق بين المنظمات النضالية المختلفة، بالإضافة إلى منظمات متخصصة بالأطفال والغذاء والإغاثة، وغير ذلك. وتتعاون مع هذه الشبكة منظمات دولية وإقليمية ووطنية لا تتحالف معها مباشرة، مثل منظمة العفو الدولية.

إن مشكلات الفقر وغياب العدالة الاجتماعية ليست في الخصخصة تماماً ولكنها في التحالف الذي ينشأ بين الحكومات والشركات ورجال الأعمال «تحالف المال والنفوذ» والذي يؤدي إلى منظومة برامج ودورات اقتصادية وتشريعات تذبح الفقراء وتستنزف المجتمعات لصالح فئة قليلة.

ولا تحاول المجتمعات والطبقات الوسطى، لكي تصحح هذا الوضع، أن تعود إلى سابق وضعها الذي كانت عليه وبخاصة في السبعينيات، وحتى منتصف الثمانينيات «دولة الرفاه أو نموذج الدولة الرب الأكبر للعمل» ولكنها تسعى في دور جديد للمجتمعات يشكل توازناً مع الدولة والشركات التي تدير احتياجات هذه الطبقات الرئيسية، فحين تسهل الحكومة للمستثمرين امتلاك البنى الأساسية للدولة وإدارتها واستثمارها وتمنع في الوقت نفسه فئات المجتمع من تنظيم نفسها على نحو يعينها على الضغط على هذه الشركات والاستثمارات لتحصيل حقوقها وأجزاء من الأرباح الباهظة التي تجنيها، وتصدر تشريعات تنظم العمل والعلاقة بين العمال وأصحاب العمل على نحو يضع في الاعتبار فقط مصالح المستثمرين والشركات دون مراعاة لحقوق العمال والموظفين فإنها تعين هذه الشركات على أن تبتز أبناء المجتمع وطبقاته وتحرمهم من حقوقهم واحتياجاتهم، وقد حدث بالفعل أن حكومات عربية استخدمت في اجتذاب المستثمرين أوضاع العمل التي فرضتها من محاصرة العمل

النقابي، وعدم فرض حد أدنى للأجور، والتساهل في الضمان الاجتماعي والتأمين الصحي وإجراءات السلامة للعمال والموظفين، وحق المخاصمة والتظلم.

إن الدولة ظاهرة حديثة، وقد سبقتها المجتمعات بكثير، وهي أعرق وأرسخ، وتواجه الدولة اليوم تحديات كبرى تعيد النظر استراتيجياً في دورها ووجودها، وقد فتحت السنوات الماضية في تحولاتها الكبرى سؤالاً عن النهايات، نهاية التاريخ، نهاية الوظيفة، نهاية الدولة.

والكلام على النهايات يملأ العالم، وسيكون جائزاً على نحو يستدعي القلق مادامت نهايات العصور غالباً ما تثير شعوراً بالرهبة، وهذا يطرح أسئلة صريحة وقاسية يتحتم على المجتمعات والدول مواجهتها لتنظيم مصالحها البعيدة المدى.

٦- من الإسلام السياسي إلى الإسلام:

بدأت الحركات الإسلامية هامشية في مجتمعاتها، ولكنها تطورت وأصبحت مؤثرة وفاعلة في المجتمعات، وبقيت عضويتها غالباً في الطبقة الوسطى وسكان المدن، و لم تكسب قطاعاً ذا شأن من كبار الملاكين ورجال الأعمال؛ وبدأت في شبه القارة الهندية في الطبقة الوسطى واتخذت توجهاً صفوياً حافظت عليه مما جعل أثرها الشعبي محدوداً، ثم امتدت الموجة الجديدة من جماعات العنف والتطرف في أوساط الفقراء والشباب غير المتعلم منتجة نمطاً جديداً من السلوك و التدين.

واستطاعت الحركة الإسلامية الوصول إلى الحكم في إيران والسودان وفي تركيا، و لم تتمكن برغم تنامي شعبيتها من الوصول إلى الحكم في البلدان الأخرى، وقد تحقق لبعضها مشاركة في الحكم مثل الأردن والجزائر وتركيا واليمن والكويت وماليزيا وباكستان والسودان في السبعينيات والثمانينيات، أو دخول البرلمان في مصر

ولبنان والجزائر وسوريا في الخمسينيات والستينيات، و لم تتطور المشـــاركة إلى دور أكثر فاعلية في الحكم.

لقد نشأت الحركة الإسلامية رد فعل على أزمة أرادت الخروج منها، وانتـــهت إلى أزمة خلقتها هي بوجودها وعجزها عن تحقيق الحسم، ولكنه فشل تقع مسؤوليته على الأمة كلها.

وتعكس الحركات الإسلامية واقع مجتمعاتها من حيث هي نتاج لتأثير الحداثة في هذه المجتمعات أولاً، وتعبير عن بنية هذه المجتمعات؛ ولهذه الحركات جذور فكريـــة وتاريخية تستند إلى مفاهيم عقائدية في الإسلام، وتنتسب إلى تراث حركات تاريخية وفكرية ومازالت تتمتع بنفوذ وقبول، والظاهرة تتعلق بالمجتمعات المعنية كونها متأثرة بالعقيدة الإسلامية، وليس بكونها تعاني من مشكلات عارضة، فالأزمات التي تعانيها الحركات الإسلامية لم تنهها، بخلاف الحركات الفاشية أو الشيوعية علـــى ســـبيل المثال، بل إنها لم تخلف أثراً بعد زوالها، وتجاوزتها المجتمعات التي كانت تحت هيمنتها، أما في البلدان الإسلامية فإننا نجد حتى في البلدان التي تعتبر فيها هذه الحركات أصغر أثراً فإن الحكومات والجهات المهيمنة تتصرف كما لو كانت تلك الحركات هـــي المهيمنة في البلاد بينما الحكومات هي المعارضة التي تجاهد لتتحرر من قبضة هـــذه الحركات، فالأزمة عامة تواجهها الأنظمة العلمانية والتي تصف نفسها بأنها تتمسك بالشريعة الإسلامية وتواجهها أيضاً الحركات الإسلامية.

يبدو المشهد القادم للأمة الإسلامية خالياً من الحركات والجماعات الإســـلامية المعتدلة منها، فقد استنفدت أغراضها و لم تعد قادرة علـــى اســـتيعاب التحـــولات

الإسلامية والمجتمعية، والمتطرفة التي ستتعرض لملاحقة وتصفية بلا رحمة بل ستكون مطاردتها للأنظمة السياسية كلها مثل رحلة صيد ممتعة!

ولكن الإسلام سيبقى حاضراً يصوغ المجتمعات ويساهم في تشكيل مستقبلها، فالدين كان باستمرار كما يلاحظ حسن حنفي (الإسلام السياسي بين الفكر والممارسة) وسيلة للتغيير الاجتماعي والسياسي والثقافي وحركة اجتماعية تعبر عن قوى اجتماعية مضطهدة أو مهمشة في المجتمع ضد قوى التسلط والطغيان، وكان الدين أداة لتحرير الشعوب مثل تحرير اليهود من قبضة فرعون، وكان وسيلة لجمع القبائل وتأليفها كما في الجزيرة العربية. فمقولة: «لا دين في السياسية ولا سياسة في الدين» هي قول سياسي تطلقه الأنظمة السياسية لتفعل ما تشاء طبقاً لمصلحة النخبة السياسية دون مراعاة لشريعة أو قانون.

وقد نشأ علم الكلام نشأة سياسية حول موضوع الخلافة والحكم؛ ونشأ التصوف سياسياً كرد فعل على التكالب على الدنيا وحياة البذخ والترف؛ ونشأ علم أصول الفقه نشأة اجتماعية للتعامل مع الوقائع الجديدة؛ ونشأت علوم الحكمة بفضل الدولة في عهد الخليفة العباسي المأمون، وكانت علوم الفقه والحديث والتفسير والسيرة بدوافع اجتماعية وسياسية أيضاً؛ وقد ظهرت السيرة السياسية واضحة في السيرة المعاصرة في كتابي «حياة محمد» وفي «منزل الوحي» لمحمد حسين هيكل، وكذلك في «على هامش السيرة» لطه حسين، و«السيرة الاشتراكية في كتاب محمد رسول الله» لعبد الرحمن الشرقاوي، والسيرة السياسية في كتاب «فترة التكوين في حياة الصادق الأمين» لخليل عبد الكريم.

ونشأ الإصلاح الديني بدافع سياسي تمثل في ضعف الخلافة العثمانية واحتلال أراضي الأمة وتجزئتها وتخلفها عن المدنية الحديثة، وكان أكبر ممثل للإسلام السياسي رائد الحركة الإسلامية الحديثة «جمال الدين الأفغاني» الذي صاغ الإسلام السياسي، الإسلام في مواجهة الاستعمار والقهر ومن أجل تحرير أراضي المسلمين وحريتهم، وكانت الحركة الوطنية في مصر منذ محمد عبده ومصطفى كامل مرتبطة بالإسلام السياسي، كما أن الأفغاني هو الذي صاغ وحدة وادي النيل ووحدة مصر والسودان.

وفي المغرب العربي، ارتبطت الحركة الوطنية بالإصلاح الديني، علال الفاسي مؤسس حزب الاستقلال في المغرب، ومالك بن نبي وابن باديس في الجزائر، والفاضل والطاهر بن عاشور والثعالبي في تونس، والسنوسيين وعمر المختار في ليبيا، وفي سورية عبد الرحمن الكواكبي، والمهدية في السودان، والقسام والحسيني ثم حركة حماس والجهاد في فلسطين. وكان حسن البنا تلميذ محمد رشيد رضا، تلميذ محمد عبده، تلميذ جمال الدين الأفغاني، فأنشأ جماعة «الإخوان المسلمين» التي أصبحت أقوى التنظيمات الإسلامية في مصر والوطن العربي، ودخل الإخوان في أتون العمل الوطني وشاركوا في حرب فلسطين عام ١٩٤٨م وعارضوا النظام الإقطاعي الاستبدادي للإنجليز والقصر وأحزاب الأقلية.

ويلاحظ عبد الإله بلقزيز أن الإسلام يسجل حضوراً متجدداً في ميدان العلاقات الاجتماعية والسياسية في البلاد العربية المعاصرة كفاعل كبير في صوغ مشهدها العام وفي توليد ديناميات جديدة فيها، و لم تعد السياسة تملك أن تعبر عن نفسها في العقود الثلاثة الأخيرة بمعزل عن الدين: تماهياً كلياً أو توظيفاً جزئياً، ليس فقط بالنسبة إلى الذين أتقنوا دائماً الصلة بينهما كالإسلاميين، بل حتى بالنسبة إلى الذين جربوا باستمرار فك تلك الصلة دفاعاً منهم عن دهريتهم السياسية.

لقد كرست تجربة الدولة العربية الحديثة في فترة الاحتلال ثم الاستقلال عملية إزاحة صريحة للدين من المجال السياسي، وكرست أيضاً حكم نخبة حديثة غربية الولاء الثقافي، وأحرزت الحداثة الاجتماعية والسياسية والثقافية نجاحات هائلة في المجتمع العربي المعاصر، وهي نجاحات مست نظام القيم، ومنظومة الأفكار، وترشح تيار كوني جارف يعظم المادة على حساب الروح، وفجأة انهزمت الحداثة أمام التقليد في الدولة والمجتمع.

ولكن موجة الحداثة والعلمانية لم تستطع – وإن طغت- حجب وقائع وحقائق راسخة في التكوين الثقافي للمجتمع العربي، الذي تحتل الفكرة الدينية فيه موقعاً مميزاً في منظومة الأفكار لم تغيره موجة التحديث.

والمسألة السياسية كانت دائماً جوهرية في الإسلام، لم تفتعلها الحركات الإسلامية المعاصرة، فالتاريخ الإسلامي يشهد تلازماً بين السياسة والدين، ويصدق ذلك على العصر الحديث، فقد تداخلت عوامل الدين والوطنية في تشكيل وجدان سياسي عام، وبالتأكيد فإن غياب الحريات السياسية سيؤدي إلى استثمار الدين في المواجهة أو في البحث عن مجالات بديلة للعمل.

إن الإسلام – بالتعريف – عقيدة وثقافة وحضارة، وأما الحركات الإسلامية فهي حركات سياسية بلا زيادة أو نقصان، فلا مساهمة لها فعلية في التراكم الفقهي، و لم تقدم نفسها بوصفها مدارس معرفية جديدة بل بحسبانها تيارات سياسية، ولو نظرنا إلى إسهاماتها الفكرية، قياساً بمساهمة الإصلاحية الإسلامية في القرن العشرين، لوجدنا أن الفارق يمنع القياس من كل الوجوه.

وهذا لا يعني تجاهل إنجازات الحركة الإسلامية المعاصرة وتضحياتها، فقد بذلت وحققت الكثير في صون هوية الأمة، وتحرير الأرض من الاحتلال، ومواجهة الاضطهاد والتهميش، ثم هي قوة سياسية رئيسة بين الشعب العربي استعادت بعض توازنات علاقات الصراع الداخلي بين المجتمع والسلطة.

وأضافت الحركة الإسلامية إلى العمل القومي والسياسي والإصلاحي بعداً دينياً استنهض طاقات الأمة وعبأها، وكسرت احتكار الدين الذي كانت تمارسه السلطة السياسية لتجعله، عملياً، شعبياً واسع النطاق، واستعادت الأمة هذا الكنز الروحي المُصادر، وأعادت حيويته الوظيفة الاجتماعية والتحررية للإسلام، ليكون سلاح المستضعفين في مواجهة الطغيان والاستضعاف.

واستطاع الإسلاميون تحقيق نجاحات كبيرة في كل انتخابات تجرى في العالم العربي، نيابية أو نقابية أو بلدية.. وشبكة المد الإسلامي اليوم تشمل الحكومات والمجتمعات ومؤسسات وشركات تجارية وأعمال مجتمعية وفردية والتعليم والعمل الاجتماعي والثقافي والسياسي، فالمد الإسلامي اليوم تحولٌ شاملٌ يؤثر في المجتمعات والدول الإسلامية ولا يخص أفراداً أو جماعات محددة.

وبالطبع فإن اختفاء الحركات الإسلامية القائمة اليوم -إن صح هذا التقدير- لن يكون مفاجئاً أو يتم مرة واحدة، ولكن الجيل القادم سيعتبرها على الأغلب تراثاً أو تجربة تاريخية، كما ينظر جيلنا على سبيل المثال إلى الحركات اليسارية والقومية وكما ينظر إلى رموزها وقادتها الباقين على قيد الحياة! ومن ثم فإن الحديث عن مستقبل الحركة الإسلامية يبقى وجيهاً وقائماً ومطلوباً.

إن سؤال الحركة الإسلامية يكاد يكون الأهم والأكثر حضوراً عند التفكير في مستقبل البلاد العربية والإسلامية، وقد زادته أحداث ١١ أيلول حضوراً وقوة، وبرغم الاتجاه الظاهري إلى محاولة استئصال الحركة الإسلامية وتهميشها وإقصائها عن الحياة السياسية العامة فإن الموقف الحقيقي أن الحركة الإسلامية هي التي تحاصر الحكومات وليس العكس، وهي التي تفرض نفسها على المجتمعات، وتساهم بفعالية في صياغتها وتقرير مستقبلها، وما تفعله الحكومات والأنظمة السياسية هو تأجيل للمشكلة وهروب من الأزمة وليس حلاً لها.

ومن القضايا المستقبلية، التي طرحتها دراسة مهمة لمركز الإمارات للدراسات الاستراتيجية، حول مستقبل الحركة الإسلامية، وشارك في مناقشتها باحثون، مثل رضوان السيد وفواز جرجس وأحمد الموصلي، التساؤلات المستقبلية التالية:

جدل الشرعية واللاشرعية:

ثمة أربعة أنماط للعلاقة بين النظم السياسية والحركات الإسلامية: الأول هو البرلماني، الذي يسمح بشرعية الحركات الإسلامية ويعتبرها جزءاً من النظام السياسي أو إحدى فصائل المعارضة مثل لبنان؛ والنمط الثاني يسمح للحركة الإسلامية بالعمل طبقاً لذكاء عملي لتحقيق الاستقرار السياسي والاجتماعي وتحقيق أمن الدولة، كما في الأردن والمغرب واليمن والكويت؛ والنمط الثالث يحظر الحركات الإسلامية بقوة كما في الكثير من الدول؛ والنمط الرابع قائم على التوتر والصراع المسلح.

إن دمج الحركة الإسلامية في نظام سياسي ديمقراطي تشارك فيه أو تكون معارضة شرعية هو الطريقة الوحيدة لتحقيق الاستقرار السياسي والاجتماعي، وبغير ذلك فإن الدول تدفع بنفسها إلى الصراع والحروب الأهلية.

العنف والتطرف:

يجب التمييز بين العنف والتطرف، فقد يكون التطرف فكرياً غير مرتبط بالعنف، وقد يكون بعض التطرف مطلوباً للالتزام الأيديولوجي وزيادة الفاعلية والقدرة على التأثير؛ ويجب التفرقة بين العنف كأسلوب طارئ قد تستدعيه ظروف معينة وبين كونه جزءاً من فكر الحركة وأيديولوجيتها المنظمة.

ويرجع العديد من المحللين جذور التطرف الديني إلى فكر «سيد قطب» وحكمه بارتداد المجتمع عن الإسلام وتردي هذا المجتمع في الجاهلية لرفضه حاكمية الله، واستخدمت فئة من الشباب هذه الفكرة أساساً لتغيير الواقع ورفضه والعمل على تغييره بالقوة.

وبرغم تنامي الحركة الإسلامية فإن واقع الخريطة السياسية للدول العربية والإسلامية لا يعكس هذا الحجم والحضور الشعبي، فتسعى بعض الأنظمة السياسية إلى تجاهل الحركات الإسلامية وتهميشها، مما يؤدي إلى صراع وعنف متبادل وحالة خلل وعدم استقرار.

وإذا كان اتجاه الحركة الإسلامية إلى الاعتدال يمثل رغبة حقيقية وجادة، فإن ذلك يعتمد على النظم السياسية والمجتمعات إضافة إلى الحركات الإسلامية نفسها.

العلاقة مع أنظمة الحكم:

هل تبادر النظم السياسية العربية إلى فك حالة الاشتباك القائمة مع الحركات الإسلامية وتسعى إلى استيعابها واستصحابها في عملية النهوض الوطنية، أم أنها ستبقي الوضع على ما هو عليه والمتمثل في القمع السياسي وانتهاك حقوق الإنسان وكبت الحريات؟

إن القيادات الإسلامية تحاول جدياً إعادة صياغة المشروع الإسلامي على أسس جديدة تعتمد على المشاركة السياسية السلمية ورفض العنف، وتحاول تأصيل فكـر فقهي ونظري من أجل تشكيل الأحزاب السياسية والتعددية، ولا يبدو حتى الآن أن النظم السياسية القائمة تملك الرؤية الاستراتيجية البعيدة المدى التي تأخذ المعطيات الجديدة بالاعتبار، وتبني مواقفها وأفكارها على أساس المواجهة فقط، ولكن هـل تملك الحركات الإسلامية مشروعاً نهضوياً يقدم تغيراً حقيقياً ويختلف عـن بـرامج الحركات الاجتماعية القائمة؟

وتظهر الأحـداث التي تجري في العالم في مواجهة العولمة ومنظماتها الاقتصادية، والأحـداث التي جرت في جورجـيا وأوكرانـيا وأوزبكسـتان وقيرغيزستان ثم في لبنان ومصـر، دوراً جـديداً متنامياً للمجتمعـات في الإصلاح السياسي وفي مواجهة السلطة يتجاوز النخب والأحزاب السياسية التقليدية، وأظهرت الانتخابات النيابية والبلدية التي جرت في دول عربية عدة تلاشي الأحزاب السياسية وضـعف تأثيرها وشعبيتها.

الخطاب الإسلامي المعاصر
دعوة للتقويم وإعادة النظر

الدكتورة منى حداد يكن (*)

> إن التوجّه الذي انطلق منه الإسلام، وحّد بين الأجناس والألوان، وحفظ للجنس البشري مكانته بعيداً عن التمييز والاستعباد. وإن الحركات النضالية اليوم، والعاملين في مجال حقوق الإنسان يبحثون عن ذلك من جديد، وهنا تكمن أهمية إبراز هذا التوجه وخطاب الناس من خلاله.

أهمية الخطاب الديني بين الشكل والمضمون:

الخطاب الديني ليس كأي خطاب آخر، فهو الخطاب الأقدم عبر التاريخ، وربما الأكثر تأثيراً بكافة أشكاله، سماوياً كان أم وثنياً. ولا يزال حتى يومنا هذا يشكل عنصراً مهماً من عناصر تكوين الأمم وثقافاتها وممارساتها، كل الأمم المتقدمة والنامية. إنه الخطاب الذي ما يلبث أن يخبو حتى يبعث من جديد، وهذا ليس حكراً

(*) رئيسة جامعة الجنان.. (لبنان).

على أمة من الأمم بل أضحى شاملاً لكل الأمم قاطبة، وما الأحـــداث التاريخيـــة المتواصلة إلا دليلاً يشير إلى ذلك: فسقوط الاتحاد السوفياتي رافقه عودة ســـريعة إلى الدين (المسيحي والإسلامي) رغم سنوات الإلحاد المفروض من قبـــل الســـلطات. والتحولات الجيوسياسية في المنطقة العربية رافقها صحوة إسلامية كـــبيرة. وحـــتى الحروب الأميركية الحديثة بدأت تستغل الخطاب الديني، وما ورد على لسان الرئيس الأميركي عن حربه الصليبية على المنطقة العربية إنما هو لاستفزاز الشـــعور الـــديني المسيحي. وليس بعيداً عن ذلك الخطاب الديني اليهودي، والصهيوني بالتحديد. فقد طوعت الصهيونية الخطاب الديني اليهودي لمصالحها، وكذلك بعض الفئات المسيحية التي تأثرت بها، وما بات يعرف بالمسيحية - الصهيونية التي تتبنى الأحلام والتنبؤات اليهودية حول مصير العالم ونهاية الأمم. وقد ساد هذا الخطاب الديني إبـــان الغـــزو الأمريكي للعراق، وأثر بعمق في تكوين الرأي العام الأمريكي.

إذن أهمية الموضوع تكمن في أهمية الخطاب الديني وكبير أثره، وسوف نتنـــاول حصراً الخطاب الديني (الإسلامي) بإشكالياته التي ظهرت، ودور الخطاب الإسلامي الجديد في حل تلك الإشكاليات.

ثم إن معرفة إشكالية الخطاب الديني تستدعي بداية معرفـــة هـــذا الخطـــاب، مضمونه، مكوناته، وهي خطوات أولية لا بد مـــن التبحـــر فيهـــا. وإن معظـــم الإشكاليات التي تقع في طريق الباحثين هي أن معظمهم يبحثون في ظاهر الخطـــاب دون الخوض في مفرداته، ودون التعاطي مع الظروف الموضوعية التي أنشأته، وهنا يبدو قصر النظر في معالجة الموضوع الذي يبقى دون حل، بل ربما يتفاقم إلى درجة يصعب معها الإحاطة به، فللخطاب الديني مضمون وظروف من جهة وموقع مـــن جهة أخرى، وكلاهما مرتبط بالآخر.

الدين والخطاب الديني- العربي:

تجدر الإشارة إلى أن الخطاب الديني هو غير الدين، بمعنى أن الدين بما يشكل من عقيدة وشريعة هو الأصل وهو المعيار الصحيح الذي تقاس عليه الأمور، وهذا ما يعتقده المسلمون.

أما الخطاب الديني فيتجسد بإلقاء الضوء على بعض الجوانب في الدين وإبرازها أكثر من غيرها بحسب ما تمليه الظروف، وهذا الخطاب يمكن أحياناً أن يُجتزأ من التصور الديني العام، أو أن يغالي في بعض الجوانب مما يشكل تشويهاً للدين. وفي أحيان أخرى يمكن أن يشكل خطاباً دينياً موجهاً من بعض الفئات المحلية أو الإقليمية أو الدولية من أجل تحقيق مصالح خاصة بغطاء ديني تمويهي يسهِّل من عملية التأثير والسيطرة، كالخطاب الديني الجهادي في أفغانستان والشيشان الذي حُضر له لأهداف دولية، وقد أتقن فيه استغلال الخطاب الديني، مما أساء إلى الدين نفسه. ويمكن أن نفهم ذلك إذا ألقينا الضوء على المرحلة اللاحقة بحيث تغير الخطاب الديني من خطاب جهادي ضد السوفيات إلى خطاب تبريري توافقي مع الاحتلال الأمريكي الجديد.

إذن، الخطاب الديني هو استعمال للدين واستغلال له في بعض المواقع لخدمة أغراض خاصة.

أما على صعيد منطقتنا العربية فإن الخطاب الديني وموقعه في الساحة الفكرية لا يمكن تحديده إلا من خلال الظروف العامة المحيطة التي تؤثر في تكوينه.

وقد مر الخطاب الديني-العربي بعدة مراحل منذ فترات الاستقلال يمكن تلخيصها بما يلي:

- خطاب ينظر إلى أوروبا بداية ثم أمريكا على أنها دول إمبريالية.
- خطاب ينظر إلى أوروبا ثم أمريكا على أنها دول متقدمة يجب اتباعها.
- خطاب يرى النهوض من خلال التقليد للغرب.
- خطاب يرى النهوض من خلال العودة إلى التراث.

والخطاب الديني - العربي له عدة مصادر ومرجعيات، منها المرجعيات الرسمية المتمثلة بمراكز الإفتاء، ومنها المرجعيات المتمثلة بالحركات الإسلامية، وكذلك المرجعيات الثقافية للمفكرين والأساتذة. وكل منها له خطابه الخاص، ونادراً ما تلتقي تلك الخطابات في ضمة واحدة.

لقد تعاقب الخطاب الديني في المنطقة صعوداً وهبوطاً عبر محطات أساسية وحاسمة، أثرت فيه قضية فلسطين تأثيراً مباشراً، وكذلك الحروب الإسرائيلية - العربية. فكان الخطاب القومي - العربي المعادي لإسرائيل، ثم أتت هزيمة حزيران (١٩٦٧م) فتغير معها الخطاب، إلى أن وقّع الرئيس المصري السابق أنور السادات (١٩٧٩م) اتفاقية كمب دافيد فانقسم الخطاب الديني والرسمي إلى عدة خطابات متنافرة ومتصارعة، خطاب الجهاد والحرب وخطاب السلام والتطبيع. ثم خطاب السلام الذي انقسم بدوره إلى السلام العادل والشامل مقابل خطاب سلام الأمر الواقع. ونتج عن ذلك اتجاهات واضحة التباين منها:

الاتجاه الذي يرى ضرورة العودة إلى الإسلام بعد سقوط مختلف التجارب الأخرى (الخطاب السلفي-الحركي)،

والاتجاه الذي يدعو للانقطاع عن التراث والانطلاق نحو الغرب،

والاتجاه الذي يقع بين الاثنين، وهو اتجاه توفيقي تلفيقي.

ورغم تعدد الاتجاهات فإن كلاً منها يتضمن أكثر من خطاب؛ لأنه من الصعب التحدث عن خطاب ديني واحد.

الخطاب الإسلامي الجديد ودوره أمام الاستفزاز الغربي:

ويمكن القول: إن دور «الخطاب الإسلامي» الجديد في حل إشكاليات الخطاب الديني دور صعب ومتشابك، وإن السيطرة على الخطاب الديني وحسن توجيهه في الإطار والهدف الديني الصحيح أمر في غاية الصعوبة، حيث إن الواقع ممتلئ بالحساسيات التي تستفز هذا الخطاب وتفعّله (بعلم ممن يتبناه أو دون علمه). فقيام دولة إسرائيل في فلسطين والدعم الأمريكي المتواصل لها، يساعد على خلق خطاب ديني متطرف إلى أقصى الحدود. وهذا الخطاب بالرغم من أنه مستمد من الواقع إلا أن التأثيرات الخارجية هي التي استفزته وحرضته. فالعلاقة الأمريكية - الصهيونية المتميزة هي المسؤولة عن هكذا خطاب وعن تداعياته، فالتمييز الأمريكي أمر واضح، وقد سبق وعبّر عنه نائب الرئيس نيكسون للأمن القومي «روبرت كرين» عندما قال: «الواقع أن أمريكا تُقاد من قبل الصهيونية»، ولذلك فهم يعتقدون بأن استعمال أية قوة ضد اليهود أو ضد المصالح الأمريكية هو إرهاب. كما يعتبرون بأن كل إنسان يجابه إسرائيل (إرهابياً)[1].

وليس بعيداً عن ذلك ما قاله الجنرال الأمريكي «وليام بويكن» نائب وكيل وزير الدفاع الأمريكي لشؤون الاستخبارات في حشد في كنيسة (الراعي الصالح) في «ساندي - أوريغون» في ٢١ كانون الأول ٢٠٠٣م: «فيما نسأل أنفسنا لماذا يكرهوننا كثيراً؟ (أي المسلمون والعرب) الجواب أننا أمة مسيحية، لأن أساسها وجذورها هي المسيحية اليهودية... هذا يعني أن لدينا التزاماً أمام إسرائيل.. هذا يعني أن التزامنا لها غير قابل للانتهاك».

---

(١) روبرت كرين، الإسلام- الخطاب العربي وقضايا العصر، ط١ (سوريا: فُصلت للدراسات والترجمة والنشر، ٢٠٠٠م) ص٧٩.

وليس أخيراً ما قاله رئيس الوزراء البريطاني طوني بلير في خطاب ألقاه أمام قواته في العراق تناولته كافة وسائل الإعلام، حيث اتهم ما سماه فيروس التطرف الإسلامي بتهديد الأمن الدولي.

إن هذا الخطاب الغربي الآحادي الجانب والنظر، يؤثر في خلق الخطاب الديني المضاد، خطاب ردة الفعل الناتج عن الفعل الغربي المتمسح بالدين المسيحي من حين إلى آخر رغم مناداته ورفعه لشعار العلمنة.

لا شك أن الخطاب الديني- العربي في محنة، فهو مُسْتغل إلى أبعد حدود، حتى بات في بعض الأحيان مصطنعاً من قبل بعض الجهات الداخلية أو الخارجية لتحقيق مآرب خاصة.

من هنا تأتي صعوبة وضرورة حل إشكاليات هذا الخطاب الديني. وهنا نتساءل عن دور الخطاب الإسلامي الجديد في القدرة على حل تلك الإشكالية؟

يمكننا القول: إن الخطاب الإسلامي الجديد لا يزال يتكوّن ويقوى، وهو آخذ في التشكل، ولكن من الصعب أن نحكم بوجود خطاب إسلامي جديد واحد، فقد يوجد أكثر من خطاب، ولكن المأمول أن يتحلى أي منها بخصائص ثابتة لكي يكتب له النجاح والاستمرار. وفي هذا المضمار يمكن الاستفادة من تجارب الآخرين وما يرونه في الخطاب الإسلامي الجديد المرجو، فبرأي «روجيه جارودي» أن مستقبل «الخطاب الإسلامي» يتوقف على:

«١- مجهوداته من أجل أن يعيد مرة أخرى نشر جميع الأبعاد، التي صنعت في الأزمان الغابرة عظمته وانتشاره، وبعده العالمي، كونه لم يقتصر على هذا التقليد والعرف أو ذلك السائد في الشرق الأدنى أو على ماضيه، بل إنه انفتح على جميع الثقافات، وأقر التكافل العظيم بين الشرق والغرب للديانات المنزلة.

٢- بعده الداخلي وحب الآخرين.

٣- بعده الاجتماعي، مستثنياً غابة المصالح المتناحرة وتراكم النـــزوات في بؤرة المجتمع وعدم ترك البؤس للآخرين»[١].

هذا الرأي استقيناه من مفكر عالمي فرنسي الجنسية اختار الإسلام، وهو منظـــر سابق للحزب الشيوعي الفرنسي، وذلك لإمكانية رؤيتـــه للخطـــاب الإســـلامي ومستقبله من منظور غربي-اشتراكي.

وفي ذات التوجه يحدثنا «روبرت كرين»، وهو مفكر وسياسي أمريكي ســـابق اختار الإسلام وله خطابه الإسلامي ونظرته للمستقبل، يقول: «في اعتقادي أنه يجب التركيز على بناء فكر عالٍ للمفهوم الإسلامي بين الشباب بشكل خاص، يجـــب أن يفهموا العالم الحديث، ويجدوا ردوداً إسلامية لكل المشاكل المطروحة في المجتمـــع. ومن جانب آخر يجب أن ننمي ونطور قيادة فكرية بين المسلمين، وفي كل حقـــول المعرفة، ويكون الهدف من كلا الأمرين هو تدعيم العدل والعدالة في العالم. وهـــذا يجعل الإسلام قوة إيجابية تنطبق على الغرب كما تنطبق على العالم الإسلامي»[٢].

مواصفات الخطاب الجديد والمعوقات أمامه:

إن الخطاب الإسلامي الجديد والمقصود، هو الخطاب المنبثق من جوهر الـــدين، البعيد عن الفعل وردة الفعل، الخطاب الموضوعي الوســـطي، البعيـــد عـــن الغلـــو والتطرف. إنه الخطاب الذي يجسد حقيقة الإسلام. وربما هناك سعي واتجاه نحو هذا الخطاب، إلا أنه لا يقدر أن يمنع الخطابات الأخرى أو أن يحد منها، لذلك لا بد من احتضانه وتبنيه، لأنه يشكل نقطة التوازن، ويجب حمايته وإيجاد الظروف المســـاعدة والملائمة له، واحترام من يحمله وعدم التعرض لهم.

---

(١) روجيه جارودي، المرجع السابق، ص ٦٧-٦٨.

(٢) فاروق عبد الحق، المرجع السابق، ص٧٦.

فكلما اقترب الخطاب الإسلامي من جوهر الإسلام وقضاياه الكبرى، كلما زادت قدرته على حل إشكاليات الخطاب الديني. إنه فعل إيمان بدور الرسالة الإسلامية من جديد، وإظهارها على مستوى العالم، أي إبراز الخطاب الإسلامي العالمي.

فعندما انتشر الإسلام في العالم:

- كان **إسلاماً عالمياً موجهاً لكل الناس**، ويجب أن يعود خطابه اليوم كذلك، لا أن يتقوقع على نفسه بل ينفتح على كل العالم بما فيه الغرب، الذي بدأ يشهد تحولات ملحوظة نحو الإسلام بالرغم من مختلف الحروب الإعلامية وسواها عليه. وطبيعة الخطاب الإسلامي العالمية تُعتبر ضمانة لانتشاره واستمراره، وهذه حقيقة جوهرية في الإسلام يجب التنبه لها وخاصة في عصر الانفتاح العالمي الذي تشهده الكرة الأرضية. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

لقد كان الخطاب الإسلامي بكل نواحيه الدعوية والاجتماعية والسياسية نابعاً من معين صاف هو كتاب الله وسنة المصطفى ﷺ، حيث يشكلان معاً وحدة متكاملة تتحرك بحركة الحياة وتعالج مشكلاتها، وكلما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية وتعددت أطرافها، كلما كانت الحاجة أكبر إلى خطاب إسلامي يخترق الألباب والعقول ويحقق الآمال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال:٢٤). ذلك أن الله تعالى خالق النفس البشرية ويعلم ما يصلح لها وما يكون سبباً في هلاكها: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ (الشمس:٧-٨)، يقول تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (الملك:١٤).

فالإسلام هو ذلك الدين السماوي الجامع: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران:٥٢)، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ﴾ (آل عمران:١٩) أما رسول الله ﷺ فيقول: **«إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي كَرَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَكْمَلَهَا وَأَحْسَنَهَا إِلا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَدْخُلُونَهَا وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْهَا وَيَقُولُونَ لَوْلا مَوْضِعُ اللَّبِنَةِ»**[1].

- **الوحدة في الإنسانية**، حيث يجب إظهار هذا التوجه في الخطاب الإسلامي، إنه التوجّه الذي انطلق منه الإسلام، حيث وحدّ بين الأجناس والألوان وحفظ للجنس البشري مكانته بعيداً عن التميز والاستعباد. وإن الحركات النضالية اليوم والعاملين في مجال حقوق الإنسان يبحثون عن ذلك من جديد، وهنا تكمن أهمية إبراز هذا التوجه وخطاب الناس من خلاله، وهو خطاب ثابت في الإسلام، قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات:١٣). فمن أهم المبادئ التي أقرها الإسلام وشرعها مبدأ الشراكة، وأن الناس جميعاً شركاء، شاؤوا ذلك أم أبوا، والله وحده يقرر من هو قريب منه ومن هو بعيد عنه، وأجره وحسابه على الله تعالى دون أحد من الناس.

إن معرفة هذا المبدأ الأساسي السامي يخفف من حدة وغلو وخطاب أولئك الذين نصبوا أنفسهم حماة للدين وللعقيدة. وهذا أمر خاص بالله تعالى، الذي بيده مقاليد كل شيء، وهذه هي اللبنة الأولى لبناء المجتمع التعددي، والله لا يسمح فيه،

---

(١) أخرجه الترمذي: ٢٧٨٩.

حتى للمسلم، بالبغي والحاكمية الخالصة، حتى رسول الله ﷺ يخاطبه الله تعالى في أكثر من موقع: ﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ (البقرة:٢٧٢). ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (الأعراف:١٩٩)، بيان واضح لمهمة الرسول، وخط منهجي واضح أراده الله لرسوله ﷺ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ (القصص:٥٦). فالمطلوب والحالة هذه التذكير بالتي هي أحسن، والدعوة إلى الله تعالى بكل رفق ولين: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (آل عمران:١٥٩)، ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ (الغاشية:٢١-٢٢).

- الحوار وتقبل (الآخر)، وهذه سمة من سمات الحضارة الإسلامية، وعلى الخطاب الإسلامي الجديد إعادة إحيائها، وتلك السمة ساعدت على دخول الأمم والشعوب في الإسلام وقد بقيت على عهدها، رغم ما تعرضت له لاحقاً من قهر وجور. وبالمقابل حافظ الإسلام على سائر الأقليات الدينية والعرقية في الدول العربية- الإسلامية، وهذا دليل عملي على تقبل (الآخر) والحفاظ على خصوصياته ضمن احترام متبادل. هذا الخطاب ساد مع الراغبين في الحياة الإنسانية، أما الذين ظلموا منهم وعادوا فكان لهم شأن آخر، قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت:٤٦)، الإشكالية الحاصلة هي فهمهم الآحادية وضرورة تطبيقها، بينما يطرحون التعددية، والتي هي سنة كونية، وراء ظهورهم دون أي مقاربة بين هذه وتلك، وهنا مكمن الخطر.

إن في تاريخنا الإسلامي الشاهد الأكبر على التعددية، رغم أن الإسلام كان المرجعية الكبرى لأهم القضايا، ولكن قوة الكلمة ورقة الخطاب كانا الفيصل في العديد من المنازعات، حيث كان يجد غير المسلم في ظل هذا الخطاب المتوازن ما يريح صدره ويضمن استمراريته وحريته.

– **الحريات**، وهو خطاب قديم جديد يجب إحياؤه في ظل خطاب إسلامي متقدم، رفع لواءه الإسلام منذ القدم حيث أعلن أنه ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ (البقرة:٢٥٦)، وأن الناس يولدون أحراراً. وقد سادت هذه الروح من الحرية لفترات طويلة من زمن الدولة العربية- الإسلامية، وأدى ذلك إلى إبداع أبناء جميع الأديان والإثنيات والقوميات.

إن الإسلام بما فيه من سعة ومرونة يحتم على الدعاة إعادة النظر في أسلوب دعوتهم، وبخاصة أولئك المغالين، الذين جعلوا من الإسلام عناوين لبضاعة كاسدة، ألحقت الضرر بالأمة الإسلامية، وتبعهم في غيهم الكثير من الغوغاء، الذين حسبوا الدعوة غلظة وقيومية على الناس، ابتدعوها ما أنزلها الله تعالى.

لقد كان الفتح الإسلامي للكثير من الأمصار والدول، إنما هو بالكلمة الطيبة والمعاملة الحسنة. ولا عجب أن يجعل المعلم الأول، ﷺ، الدين كله في كلمة واحدة هي «**السمحة**»، إذ يقول: « **أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ**»[1].

– **التجديد ومواكبة التطور العلمي**، وما يحققه من خير للأمم، من أي جهة أتى، وقد شهدت الدولة العربية- الإسلامية مظاهر عديدة للتطور العلمي الذي أفاد العالم. وحتى الآن يشارك المسلمون في العديد من مراكز البحث العلمي في العالم

(١) أخرجه البخاري.

الغربي، والخطاب الإسلامي ينحو هذا الاتجاه من خلال الدعوة إلى العلم والتعلم والأخذ بالحكمة، قال رسول الله ﷺ: « **طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**»[1]، و« **الْكَلِمَةُ الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا** »[2].

إذن التجديد أمر مطلوب، خاصة في هذه الأيام، حيث الهجمة الشعواء من الداخل والخارج. والتجديد في الخطاب ليس معناه التجديد في الإسلام، ذلك أن الإسلام لا يتغير ولا يتبدل، وهذا ما فعله الأئمة المجددون، كالإمام الغزالي وابن تيمية والكواكبي ومحمد عبده وغيرهم من مجددي العصر الحديث، الذين وجدوا في الخطاب الدعوي الإسلامي سعة ومرونة، انطلقوا منها إلى مجالات أوسع وأرحب.

إن التجديد في الخطاب الدعوي الإسلامي يفرض علينا النظر في هذا الدين من جديد لنستخرج كنوزه، وهذا هو المطلوب، إعادة قراءة وفهم هذا الدين كي لا يكون النسيان سبباً في سخط الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ (الأنعام:٤٤).

- **خيرات هذه الأرض ليست ملكاً لأحد**، وهذا وجه ثانٍ لشراكة الناس فيها. فلا يمكن لأحد، مهما كان سلطانه، أن يخرج أياً منها، ذلك أن الأرض لله يرثها من عباده من يشاء، ورسول الله ﷺ يوضح هذه الشراكة ومفرداتها بقوله: «**ثَلاثٌ لا يُمْنَعْنَ: الْمَاءُ وَالْكَلأُ وَالنَّارُ**»[3] فلا تتعطل قيمة المجتمع الإنتاجية وإن اختلفت الأفكار والاتجاهات.

---

(١) أخرجه ابن ماجة، ٢٢٠.
(٢) أخرجه الترمذي، ٢٦١١.
(٣) ابن ماجه، ٢٤٦٤.

ضرورة ارتكاز الخطاب الإسلامي على الحوار الحر:

إن المطلوب هو البحث عن الأدبيات الإسلامية والقيم الإنسانية وعوامل الرقي والحضارة، لا البحث في مسائل عفا عليها الزمن، وهي أصلاً محل خلاف بين الأئمة الأعلام ولكن في ظل ما يجمع. والأرض الثابتة التي تبنى عليها الدعوة الحقة لا مجال فيها للمصلحة والدعاية والشخصانية والكذب والغرور والجهل. من هنا كان الثراء الفكري للثقافة والحضارة الإسلامية، والتي وجدت نتيجة تراكمات وتلاقح أفكار وحضارات وشعوب.

من أجل هذا كانت التعددية عامل إثراء وإغناء، كما كان الحوار الحر عامل سعة ونمو عقلي واستخراج للطاقات الفكرية.

ولقد اتسع الإسلام بسبب عوامل المرونة والحيوية، التي أوجدت فيه مكاناً لكل المذاهب والملل والأديان واللغات والآداب والحضارات والشعوب والممالك، حتى تلك التي لم تصمد أمام قوته وعظمته كالفرس والروم. و لم يحقق الإسلام هذا بالقوة العسكرية وحدها بل كان هناك ما هو رديف لها كقوة الكلمة، وقوة الفكرة، وقوة الخطاب المقنع المفقود عند كثير من الدعاة اليوم.

إلا أن هناك وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر (أيلول) إحساساً متعاظماً لدى مفكري هذه الأمة ومثقفيها، من أنها قد أُوتيت من مأمنها، وأن غياب الخطاب الإسلامي الواقعي الهادف والبناء، قد فتح الأبواب على مصراعيها لعُصب من الجَهَلة أتيحت لها فرص الحياة والنمو في غياب الخطاب الرشيد، و لم تتقن هذه العصب إلا خطاب الموت والدم وتفجير احتقاناتها بالاتجاه الخاطئ، فكانوا وبالاً على الإسلام

وسبة على المسلمين، وقدموا خدمات مجانية لأعداء الأمة، بل كانوا سبباً في ضياع الكثير من الشباب. ولا ندري أنظن بهم خيراً، بحيث إن هذه هي ثقافتهم، أم نظن بهم السوء، للضرر العظيم الذي ألحقوه بالإسلام والمسلمين؟

إنه مصداق حديث رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ لا يَنْزِعُ الْعِلْمَ بَعْدَ أَنْ أَعْطَاكُمُوهُ انْتِزَاعًا، وَلَكِنْ يَنْتَزِعُهُ مِنْهُمْ مَعَ قَبْضِ الْعُلَمَاءِ بِعِلْمِهِمْ فَيَبْقَى نَاسٌ جُهَّالٌ يُسْتَفْتَوْنَ فَيُفْتُونَ بِرَأْيِهِمْ فَيُضِلُّونَ وَيَضِلُّونَ**»[1].

ولكن عدالة «الخطاب الإسلامي» ووضوحه، لا تخرج بنا إلى أمر أضل وأدهى. فالكثير من المتذللين الخائفين الواقفين على أعتاب (الغير)، بلغ بهم الرعب مبلغاً عظيماً، فوصل بهم الانهزام النفسي لأن يصبحوا أبواقاً للمتربصين بهذا الدين، بل ويزايدون عليهم، فيعبثون بالنصوص والمناهج الثابتة وتاريخ الأمة، فيقدمون ويؤخرون، ويظهرون ويبطنون، ويسوّقون أفكاراً بعيدة عن عزة الأمة وكرامتها، ثروتهم الملق وزادهم النفاق.

إن الخوف من التنوع المجتمعي والحوار الحر والبناء، إنما هو خوف لا مبرر له. اللهم إلا إذا كان المنهج منهجاً قد بُني على شفا جرف هارٍ. أما المنهج المبني على دعائم سليمة، يمد الخطاب المتجدد بكل عوامل الحياة، من وجوب تنادي الدعاة والمفكرين والمثقفين إلى قراءة جديدة للإسلام، تتماشى مع روح العصر والتجديد في أساليب الدعوة واستغلال كل الطاقات البشرية والتكنولوجية، لإيصال رسالة الإسلام نقية خالصة من كل الشوائب، والأخذ على أيدي المرجفين الخائرين والمتفيهقين الضالين كي لا يعيثوا في دنيا الإسلام فساداً.

---

(١) أخرجه البخاري، ٦٧٦٣.

خاتمة

أخيراً، إن هذه العناوين للخطاب الإسلامي تنقله إلى الواجهة، وتجعل منه خطاباً حياً فعّالاً عاماً وشاملاً، ويمكنه أن يصبح جزءاً من الظاهرة والطرح الحضاري الراهن، «إنه الاختيار الصحيح والصعب، وهو أن نكون جزءاً من الظاهرة الحضارية الراهنة دون أن نفقد هويتنا الثقافية وخصوصيتنا التنموية، أي تنمية الخاص دون القطيعة أو الانقطاع عن العام. نعيش العصر، نمتلكه معرفياً، نمتلكه عقلياً»[1].

هذا الخطاب الإسلامي المتطابق مع الأصل أصبح ضرورة حيوية؛ لأن المقابل والبديل المطروح هو التقزيم والمسخ أمام الغزو الفكري الثقافي الآتي من كل حدب وصوب والذي يحمل معه طلائع استعمار جديد يصعب الفكاك منه.

وإذا كانت تلك هي معالم الخطاب الإسلامي الجديد المأمول، فالمطلوب هو أن نعيش اللحظة المستقبلية، نخطط لها ونحدد الأهداف ونعمل بجد وصمت. فالأمر ليس بالسهل، فالضغوطات الخارجية تضغط باتجاه الخطاب المتطرف. والحصار الذي يفرضه الغرب على الأمة الإسلامية تمادى وتعاظم بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، وتحوّلت المعركة ضد الإسلام. وقد تجرأت تلك الضغوطات ومن وراءها لتتدخل مباشرة بالقضايا الخاصة فضلاً عن القضايا العامة: من مناهج التعليم إلى الأحوال الشخصية والأسرة، إلى قضايا المرأة، إلى

(١) محمود أمين، العالم الإسلامي، الخطاب العربي وقضايا العصر، م.س، ص ١٧١.

الاتهامات بحيازة أسلحة الدمار الشامل، وممارسة الضغوطات على الدول والتعدي على سيادتها واستقلالها.

مفارقة صعبة أن يتهمك الآخرون بالإرهاب في خطابهم السياسي- الديني وأنت تفتح لهم سبل الحوار والتعارف. صورة الإسلام، في الغرب ووسائله، صورة مزيفة تستفز الخطاب الديني المتطرف، وقدر الخطاب الإسلامي الجديد أن يبقى محافظاً على مواصفاته الأصلية ومطابقته للأصل، ولا بد للخطاب المنفتح في هذا العالم أن يستجيب لصوت العقل والمعرفة. إنها قضية خيار ومنهج، وليست قضية حماسة وردة فعل.

التعددية الفكرية والحوار في المجتمع المسلم

الدكتور محمد عبد الغفار الشريف(*)

هناك تطرف سياسي كالنازية والدكتاتوريات الأخرى، وتطرف اقتصادي كالشيوعية والمبالغة في الرأسمالية، وتطرف اجتماعي كالإباحية والفجور الأخلاقي، وتطرف إعلامي كأذية أسماع الناس وأبصارهم باسم الحرية... إلخ.. وبعد بحث طويل، وجدت أن أكثر من ٨٠% من أسباب التطرف الديني مرده إلى الجهل بمبادئ الدين وأحكامه.

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، والصلاة والسلام على أنبياء الله وجميع المرسلين، وأخص خاتمهم محمداً بأزكى الصلاة وأتم التسليم.. وبعد:

فإن الإسلام دعا أتباعه إلى الحوار بالحسنى، ومجادلة (الآخرين) بالأدب، فقال الله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ

(*) الأمين العام للأوقاف، العميد السابق لكلية الشريعة والدراسات الإسلامية.. (الكويت).

أَحۡسَنُۚ ﴾ (النحل:١٢٥)، وقال الله عز وجل: ﴿ ۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ (العنكبوت:٤٦).

والملاحظ أن القرآن الكريم لم يرتض لأتباعه المنهج الحسن في الحوار، بل المنهج الأحسن.

يقول الإمام القشيري، رحمه الله، ينبغي أن يكون منك للخصم تبيين، وفي خطابك تليين، وفي قبول الحق إنصاف، واعتقاد النصرة- لما رآه صحيحاً- بالحجة، وترك الميل إلى الشيء بالهوى[1].

ويقول العلامة ابن عجيبة الحسني، رحمه الله، التي هي أحسن، أي ألطف وأرفق؛ وهي مقابلة الخشونة باللين، والغضب بالكظم، والمشاغبة بالنصح، بأن تدعوه إلى الله برفق ولين، وتبين له الحجج والآيات من غير مغالبة ولا قهر.[2]

بل طالب القرآن الكريم من المسلمين أن يكون هذا منهجهم في حوارهم وحديثهم كله مع (الآخر)، يقول الله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴾ (الإسراء:٥٣).

يقول العلامة ابن عجيبة، رحمه الله: من أوصاف أولياء الله أنهم هينون لينون كلفة الحرير، لا ينطقون إلا بالكلام الحسن، ولا يفعلون إلا ما هو أحسن، ويفرحون ولا يحزنون، وينبسطون ولا ينقبضون، من رأوه مقبوضاً بسطوه، ومن رأوه حزيناً فرحوه، ومن رأوه جاهلاً أرشدوه بالتي هي أحسن، وهم متفاوتون في هذا الأمر، يفضل بعضهم على بعض في الأخلاق والولاية؛ فكل من زاد في الأخلاق الحسنة زاد

(١) لطائف الإشارات، ١٠٠/٣.
(٢) البحر المديد، ٣١٧/٥.

تفضيله عند الله، وفي الحديث: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ الْخُلُقِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ النهار، القائم الليل**»[1].

والسبب في ذلك أن دين الله جاء للناس كافة، والناس يختلفون في أذواقهم وآرائهم، تبعاً لاختلاف بيئاتهم ونشأتهم.

١- الاختلاف سنة ربانية:

يقرر القرآن الكريم أن الخلاف بين الناس سنة ربانية جبلوا عليها، يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ ﴾ (هود:١١٨-١١٩).

قال الشاطبي، رحمه الله، فأخبر سبحانه أنهم لا يزالون مختلفين أبداً، مع أنه قد خلقهم للاختلاف، وهو قول جماعة من المفسرين.

قال مالك، رحمه الله: خلقهم ليكون فريقاً في الجنة، وفريقاً في السعير[2]، فالضمير في خلقهم عائد على الناس، فلا يمكن أن يقع منهم إلا ما سبق في العلم، وليس المراد هنا الاختلاف في الصور والألوان والأشكال، إنما المراد الاختلاف في الآراء والنحل والأديان والمعتقدات المتعلقة بما يسعد الإنسان به أو يشقى في الدنيا والآخرة، ويوضح ذلك قوله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ ﴾ (البقرة:٢١٣).

وهذا هو المراد من الآيات التي كرر فيها الاختلاف الحاصل بين الخلق[3].

---

(١) البحر المديد، ١٠١/٤ بتصرف يسير، والحديث رواه أحمد في المسند، ١٣٣/٦؛ والحاكم في المستدرك، ٦٠/١.
(٢) الاعتصام، ١٦٥/٢؛ ابن كثير، ٤٦٥/٢؛ البغوي، ٢٥٩/٣.
(٣) انظر الاعتصام، ١٦٥/٢.

٢- الانطلاق من القضايا المشتركة:

حاول الإسلام بشتى الوسائل الانطلاق في حواره مع (الآخـــر) مـــن أرضـــية مشتركة يتفقان عليها، يقول تعـــالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران:٦٤).

قال الأستاذ الإمام محمد عبده، رحمه الله: المعنى أننا نحن وإياكم على اعتقاد أن العالم من صنع إله واحد، والتصرف فيه لإله واحد، وهو خالقه ومدبره، وهو الذي يعرفنا على ألسنة أنبيائه ما يرضيه من العمل وما لا يرضيه، فتعالوا بنا نتفق على إقامة هذه الأصول المتفق عليها ورفض الشبهات التي تعرض لها، حتى إذا سلمنا أن فيمـــا جاءكم من نبأ المسيح شيئاً فيه لفظ ابن الله خرجناه جميعاً على وجـــه لا يـــنقض الأصل الثابت العام الذي اتفق عليه الأنبياء. فإن سلمنا أن المسيح قال إنه ابـــن الله، قلنا: هل فسر هذا القول بأنه إله يعبد؟ وهل دعا إلى عبادته وعبادة أمه أم كان يدعو إلى عبادة الله وحده؟ لا شك أنكم متفقون معنا على أنه كان يدعو إلى عبـــادة الله وحده والإخلاص له بالتصريح الذي لا يقبل التأويل[١].

ولم ينهج هذا النهج مع أهل الكتاب فقط، بل مع كـــل الأديـــان الســـماوية وغيرها، فقال رسول الله ﷺ: « **إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مكارم الأخلاق**» [٢].

قال المناوي، رحمـــه الله: الأنبياء بعثوا بمـــكارم الأخلاق، وبقيت بقية فبعثت بما كان معهم وبتمامها، أو أنها تفرقت فيهم فأمر بجمعها لتخلقه بالصفات الإلهيـــة،

---

(١) تفسير المنار، ٣/٢٦٨.

(٢) أخرجه أحمد في المسند، ٢/٣٨١؛ قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد، رقم ١٣٦٨٣) .

قال بعضهم: والمعرفة في مكارم الأخلاق وطهارة القلب، فمن نال ذلك وصل إلى الرب، وإذا وصل دان له الخلق[1].

وقال رسول الله ﷺ: « **شَهِدْتُ حِلْفَ الْمُطَيَّبِينَ مَعَ عُمُومَتِي وَأَنَا غُلامٌ، فَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي حُمْرَ النَّعَمِ وَأَنِّي أَنْكُثُهُ** » [2].

قال المناوي، رحمه الله: «أي ما يسرني أن يكون لي الإبل الحمر، وهي أعز أموال العرب وأكرمها وأعظمها والحال أني أنقضه».

وأصل ذلك: اجتمع بنو هاشم وزهرة وتيم في دار ابن جدعان في الجاهلية، وجعلوا طيباً في جفنة وغمسوا أيديهم فيه، وتحالفوا على التناصر والأخذ للمظلوم من الظالم فسموا المطيبين. [3]

٣- تجنب استثارة مشاعر العداء لدى (الآخر):

قال رسول الله ﷺ: « **لا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ** » [4].

وجاء في حديث للبخاري[5] عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: «بَيْنَمَا يَهُودِيٌّ يَعْرِضُ سِلْعَتَهُ، أُعْطِيَ بِهَا شَيْئًا كَرِهَهُ، فَقَالَ: لا وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ.. فَسَمِعَهُ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَامَ فَلَطَمَ وَجْهَهُ، وَقَالَ: تَقُولُ وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ وَالنَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا؟! فَذَهَبَ إِلَيْهِ فَقَالَ: أَبَا الْقَاسِمِ، إِنَّ لِي ذِمَّةً وَعَهْدًا،

---

(١) التيسير للمناوي، ٢/٤٥٥.

(٢) قال الهيثمي: رواه أحمد وأبو يعلي والبزار، ورجال حديث عبد الرحمن بن عوف رجال الصحيح، وكذا مرسل الزهري (مجمع الزوائد، رقم ١٣٥٨٢).

(٣) فيض القدير، ٤/٤٦٤؛ التيسير، ٤/١٢٢.

(٤) أخرجه البخاري، رقم ٣٢٣١.

(٥) أخرجه البخاري، رقم ٣٤١٤.

فَمَا بَالُ فُلانٍ لَطَمَ وَجْهِي؟ فَقَالَ: لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ؟ فَذَكَرَهُ؛ فَغَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى رُئِيَ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ: لا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَيَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ، فَإِذَا مُوسَى آخِذٌ بِالْعَرْشِ فَلا أَدْرِي أَحُوسِبَ بِصَعْقَتِهِ يَوْمَ الطُّورِ أَمْ بُعِثَ قَبْلِي».

وإنما نهى النبي ﷺ عن ذلك:

أ- ليعلم أمته الأدب والتواضع، وحسن التعامل مع الناس، وإن تعلق التخاصم بأمر من أمور العقيدة.

ب- لأن مثل هذا التفضيل يؤدي إلى الجور، وانتقاص الآخرين قدرهم، وقد يكون فيهم أصحاب فضل ودرجة، مثل الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام.

ج- لما في التفضيل والمقارنة من استثارة الآخرين، وإثارة عصبيتهم، وفي ذلك ما فيه من إثارة الفتن.[1]

بل نرى الإسلام لا يرتضي لأتباعه أن يتعدوا بالسب على آلهة المشركين، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (الأنعام:١٠٨).

نهى الله تعالى في هذه الآية الكريمة المؤمنين عن سب أوثان المشركين، لأن ذلك يؤدي إلى استثارة عصبيتهم فيسبون الله، بغير علم، وينفرون من دعاة التوحيد.[2]

(١) الفتح الرباني، ٣٦/٢٠.
(٢) انظر تفسير القرطبي، ٤١/٧.

٤- الحوار العقلي والعلمي:

يقول الله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ (النحل:١٢٥).

قال المفسرون: الحكمة المقالة المحكمة الصحيحة، والحجج القطعية المفيدة لليقين، ولا يكون ذلك إلا باعتماد القواعد العقلية المتفق عليها بين الناس، والشواهد الكونية العلمية المحسوسة(١).

ولذا نرى القرآن لما دعا الناس إلى التوحيد لجأ في دعوته إلى الحجج العقلية والدلائل العلمية.

يقول تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (الأنبياء:٢١-٢٢).

يقول المفسرون: في الآية دليل على برهان التمانع العقلي الذي يحتج به علماء العقائد، وذلك أنا لو فرضنا إلهين، فأراد أحدهما شيئاً وأراد الآخر نقيضه، فإما أن تنفذ إرادة كل منهما، وذلك محال لاستحالة الجمع بين النقيضين في الزمان والمكان الواحد – وهذه قاعدة عقلية متفق عليها – وإما أن تنفذ إرادة واحد منهما دون الآخر فيكون الأول الذي تنفذ إرادته هو الإله، والثاني عاجز فلا يصلح أن يكون إلهاً.

فالله تعالى جمع في الآية السابقة بين البرهان العقلي المتفق عليه والبرهان العلمي المشاهد، فهو يخاطب المشركين بما يلي:

١- هل تستطيع آلهتكم إحياء الموتى ؟! وهو استفهام إنكاري، مبني على معلومات ضرورية.

---

(١) فتح القدير للشوكاني، ٢٠٣/٣ وبتصرف.

٢- انظروا إلى الكون هل ترون فيه اختلافاً، أو فساداً في نظامه؟! وهو لفت لأنظارهم للتفكر في ملكوت الأرض.

ألا يدلكم ذلك على وحدانية الله تعالى[١].

وهذا مثل قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون: ٩١).

ولذا أكثر القرآن الكريم من دعوة أتباعه للاستفادة من كتاب الكون المنظور، كما يستفيدون من كتاب الله المسطور، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٦٤).

بل دعاهم إلى الاستفادة من الدروس التاريخية للاعتبار بعاقبة الظلمة والمتكبرين، يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ (غافر: ٨٢).

وضرب لهم أمثلة عملية من أصحاب السلطة كفرعون والنمرود وغيرهما، ومن أصحاب المال والجاه كقارون والوليد بن المغيرة وغيرهما حتى تكون هذه الدروس عظة وعبرة لهم على مر الأيام.

---

(١) انظر الفتح القدير، ٤٠٢/٣، صفوة التفاسير، ٢٥٨/٢.

٥- التعاون في المتفق عليه:

يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات:١٣).

ولذلك سعى نبي الإسلام، عليه أفضل الصلاة والسلام، منذ أن كون دولته في المدينة المنورة إلى التعاون مع سكان المدينة من اليهود، جاء في وثيقة المدينة المنورة، والتي تعتبر أول دستور للدولة الإسلامية:

«إن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين؛ وإن يهود بين عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يُوتِغُ[1] إلا نفسه وأهل بيته؛ وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف؛ وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف؛ وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف؛ وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف؛ إلا من ظلم وأثم فإنه لا يُوتِغُ إلا نفسه وأهل بيته؛ وإن البر دون الإثم[2]؛ وإن موالي ثعلبة كأنفسهم؛ وإن بطانة يهود كأنفسهم، وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ وأنه لا ينحجز على ثار جرح؛ وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم؛ وإن الله على أبر هذا[3]؛ وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم؛ وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم؛ وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم؛ وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين؛ وإن

(١) يوتغ: يهلك.
(٢) أي أن البر والوفاء ينبغي أن يكون حاجزاً عن الإثم.
(٣) أي أن الله وحزبه المؤمنون على الرضى به.

يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة؛ وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم؛ وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها؛ وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ؛ وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره؛ وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويَلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه؛ وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم؛ وإن يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة؛ مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة؛ وإن البر دون الأثم، لا يكسب كاسب على نفسه؛ وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره؛ وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم؛ وإنه من خرج آمن وقعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم؛ وإن الله جار لمن بر واتقى ومحمد رسول الله ﷺ».

إن هذه المعاهدة تحوي على خمسة أمور رئيسية:

١- اعتبار اليهود مواطنين في الدولة الإسلامية، لهم حريتهم الدينية، تحميهم الدولة وتدافع عنهم.

٢- على اليهود أن يساندوا الدولة الإسلامية في رد العدوان عنها.

٣- على اليهود النصح للدولة الإسلامية، فلا يتآمرون عليها، ولا يخفون نبأ من يعلمون منه الكيد للدولة الإسلامية.

٤- تفرض الإقامة الجبرية على اليهود، ولا يجوز مغادرة أماكنهم إلا بإذن من الدولة الإسلامية.

٥- السيادة للدولة الإسلامية، وإليها يرجع اليهود في فصل الخصومات التي تنشب بينهم وبين المسلمين[١].

وقد آثرت أن أورد ما يخص اليهود من وثيقة المدينة بنصها، دون تصرف لنرى مدى حرص الإسلام على التعاون مع (الآخر)، وما حصل بعد ذلك من إيقاع العقوبة باليهود إنما جراء ما ارتكبوه من مخالفة للعهد بينهم وبين المسلمين[٢].

وحدد القرآن معياراً للتعاون: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴾ (المائدة:٢)، فالتعاون يكون في سبيل الخير والرشاد، ولا تعاون في العدوان والظلم والمعاصي.

٦- التسامح في المختلف فيه:

وأكبر دليل على تسامح الإسلام مع أصحاب الديانات الأخرى، قوله تعالى في محكم تنزيله: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ ﴾ (البقرة:٢٥٦).

قال ابن عباس، رضي الله عنهما: نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم ابن عوف يقال له الحصين، كان له ابنان نصرانيان، وكان هو مسلماً، فقال للنبي ﷺ: ألا استكرهما، فإنهما قد أبيا إلا النصرانية؟ فأنزل الله الآية.

وفي بعض التفاسير أنه حاول إكراههما، فاختصموا إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أيدخل بعضي النار، وأنا أنظر؟

ولابن جرير عدة روايات في نذر النساء في الجاهلية تهويد أولادهن ليعيشوا، وأن المسلمين بعد الإسلام أرادوا إكراه من لهم من الأولاد على دين أهل الكتاب على الإسلام، فنزلت الآية، فكانت فصل ما بينهم.

---

(١) محمد رواس، قراءة جديدة للسيرة النبوية، ص١٤٦.

(٢) انظر المنصور فوري، رحمة اللهم للعالمين، ٣/٤٦٤.

هذا هو حكم الإسلام واضح جلي في أنه لا يجوز حمل الناس على اعتناق ما لا يؤمنون به، لأن الدين هو إذعان النفس، ويستحيل أن يكون الإذعان بالإلزام والإكراه، وإنما بالبيان والبرهان، لذا قال تعالى بعد نفي الإكراه: ﴿ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾[1].

وعلم من هذه الآية الكريمة أن سيف الجهاد المشروع في الإسلام، والذي لا يبطله عدل عادل، ولا جور جائر، لم يستعمل في يوم من الأيام للإكراه على الدخول في الدين ولكن لحماية الدعوة الإسلامية، ولنشر العدل بين الناس، ولإخراج العباد من عبادة أمثالهم إلى الحرية المطلقة[2].

جاء في خبر وفادة ربعي بن عامر على رستم قائد الفرس أنه سأله: ما جاء بكم؟ فقال ربعي، رضي الله عنه: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام... »[3].

وهذا يدلنا على أن المسلمين يعتقدون أنهم أصحاب رسالة، وأمانة يجب عليهم إبلاغهم إلى الناس، فمن قبلها فهو أخوهم، كائناً من كان، ومن رفضها فلا إكراه في الدين، ولكن لا يجوز أن يقف بين الناس وبين الاستماع إلى صوت الحق فإن لهم عقولاً، فإن قبلوا فبها، وإلا فهم في أمان وسلام في دار الإسلام، إذا التزموا بشروط المواطنة.

وهل هناك تسامح أكبر من أن يفرض الإسلام على أتباعه احترام دين الزوجات، ومن هم تحت سلطتهم؟ فمما ذكره فقهاء المسلمين من حقوق الزوجة الكتابية، جاء في كتاب المغني لابن قدامة (٢٢٣/١٠) ما يلي:

---

(١) تفسير المنار، ٣١/٣.
(٢) القاسمي، ٦٦٥/٣ بتصرف.
(٣) البداية والنهاية، ٣٩/٧.

١- ليس للمسلم إجبار زوجته الذمية على الاغتسال عند مالك والثوري ورواية عن أحمد والشافعي، لأن الوطء لا يقف عليه.

٢- وإن أرادت شرب ما يسكرها، فله منع المسلمة، لأنهما يعتقدان تحريمه، وإن كانت ذمية لم يكن له منعها منه — نص عليه أحمد- ؛ لأنها تعتقد إباحته في دينها.

٣- وقال أحمد في الرجل تكون له المرأة أو الأمة يشتري لها زناراً؟ قال: لا، بل تخرج هي تشتري لنفسها، ليس له أن يمنعها من لبس الزنانير، وإن لم يجز له هو أن يلبسها.

إذن نرى أن الإسلام يحترم الديانات الأخرى، حتى لو كانوا ممن تحت سلطة المسلمين، وعلى هذا الأساس عاملوا الذميين.

وأنقل هنا ما كتبه «آدم متز» المستشرق الألماني في كتابه القيم الحضارية الإسلامية (١/٧٥)؛ يقول «متز»: إن أكبر فرق بين الإمبراطورية الإسلامية وبين أوروبا، التي كانت على المسيحية في العصور الوسطى، وجود عدد هائل من أهل الديانات الأخرى بين المسلمين، وأولئك هم (أهل الذمة)، الذين كان وجودهم من أول الأمر حائلاً بين شعوب الإسلام وبين تكوين وحدة سياسية.. وقد ظلت كنائس اليهود والنصارى وأديرتهم أجزاء غريبة، واستند أهل الذمة إلى ماكان بينهم وبين المسلمين من عهود، وما منحوه من حقوق، فلم يرضوا بالاندماج في المسلمين، وقد حرص اليهود والنصاري على أن تظل دار الإسلام غير تامة التكوين، حتى إن المسلمين ظلوا دائماً يشعرون أنهم أجانب منتصرون، لا أهل وطن، وحتى إن الفكرة الإقطاعية لم تمت، بل كان وجود النصارى بين المسلمين سبباً لظهور مبادئ التسامح عند المسيحيين، التي ينادي بها المصلحون المحدثون. وكانت الحاجة إلى المعيشة

المشتركة، وما ينبغي أن يكون من وفاق، مما أوجد أول الأمر نوعاً من التسامح، الذي لم يكن معروفاً في أوروبا في العصور الوسطى، ومظهر هذا التسامح نشوء علم مقارنة الأديان، أي دراسة الملل والنحل على اختلافها، والإقبال على هذا العلم بشغف عظيم.

٧- نبذ العنف:

يقول تعالى مخاطباً نبيه الكريم ﷺ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران:١٥٩).

وقد قعد رسولنا الكريم ﷺ هذا الأمر بقوله وعمله، فقال: « **إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ** »[1].

وتمثل ذلك في سيرته العملية، التي نُقلت إلينا بالتواتر، من ذلك ما روته عائشة، رضي الله عنها: « اسْتَأْذَنَ رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ[2].. فَقُلْتُ: بَلْ عَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ.. فَقَالَ: **يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ**.. قُلْتُ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ: **قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ**»[3].

ومنه ما رواه أنس، رضي الله عنه: « كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى

(١) متفق عليه، التاج الجامع للأصول، ٥/٥٨.
(٢) أي الموت.
(٣) أخرجه البخاري، رقم ٣٢٣١؛ ومسلم، ١٧٩٥.

صَفْحَة عَاتِقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الْبُرْدِ، مِنْ شِدَّة جَبْذَته.. ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ.. فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ ضَحِكَ ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ»(١).

وعلى هذا، فإنه من الظلم الكبير ما ينسب زوراً وظلماً إلى الإسلام من أنه يدعو أتباعه إلى الإرهاب، والاعتداء على الدماء والأعراض والأموال، بل الإسلام يدعو أهله إلى خلاف ذلك، قال رسول الله ﷺ: « **الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ**»(٢)؛ وأخرج الترمذي (وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ): «**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ**».

بل دعا الإسلام إلى الإحسان إلى الحيوان الأعجم، قال رسول الله ﷺ: «**دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا، فَلَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ**»(٣).

ونبذ العنف لا يختص به الإسلام وحده، بل جاءت الرسالات السماوية بالحب والتعاون، والرحمة والصلة، ولكن مما يؤسف له أن نجد الكثير من أتباع الديانات ينحرفون عن تطبيق مبادئ أديانهم السامية لأسباب كثيرة.. وبعد بحث طويل قمت به، وكان مدعوماً من جامعة الكويت، وجدت أن أكثر من ٨٠% من أسباب التطرف الديني - لأن هناك تطرفاً سياسياً كالنازية والدكتاتوريات، وتطرفاً اقتصادياً

(١) أخرجه البخاري، رقم ٥٨٠٩؛ ومسلم، ١٠٥٧.
(٢) أخرجه البخاري.
(٣) أخرجه البخاري.

كالشيوعية والمبالغة في الرأسمالية، وتطرفاً اجتماعياً كالإباحية واللاأخلاقية، وتطرفاً إعلامياً كالتعدي على أعراض الناس وأذية أسماعهم وأبصارهم باسم الحرية... إلخ.

أقول: يعود أكثر التطرف الديني إلى الجهل بمبادئ الدين وأحكامه، وقد حذرنا رسولنا الكريم ﷺ من ذلك، فقال: «**إِنَّ اللَّهَ لا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالاً، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»[1].

ولذا يعتبر عندنا، نحن المسلمين، من أشد الجرائم الدينية التكلم في مسائل الدين بدون علم، يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف:٣٣).

أي تفتروا عليه في التحليل والتحريم، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (النحل:١١٦).

هذه هي بعض منطلقات الحوار ومبادئ الوفاق بين أصحاب الحضارات كلها.

نسأل الله أن يعيننا على فهمها على أحسن وجه، والعمل بما علمنا.

والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه البخاري.

الخطاب الإسلامي ومنهجية المقاصد

الأستاذ رياض أدهمي (*)

الناظر إلى ما في الحياة من مشكلات وإلى محاولات الخطاب الإسلامي للمعالجة يرى كثيراً من العجلة وقليلاً من الصبر على مكابدة الواقع وفهمه، استناداً إلى عمومات وشعارات نزعم لها الإطلاق والشمول، ومن ثم تأتي النتائج فجة لا تساهم في صلاح فكر ولا تزكية واقع ولا صياغة خطاب يضع الشريعة كما أرادها الله رحمة للعالمين.

مقدمة:

تعيش أمة الإسلام أزمة، ويكثر الحديث عن مظاهر هذه الأزمة في حياة الأمة بكل جوانبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية. ويكاد الحديث عن مظاهر الأزمة أن يصل إلى حالة مَرَضية يظن الناس فيها أن الشكوى والتذمر والاحتجاج هو أقصى ما يمكن فعله، أو هو ما تسقط به تبِعَة الرضى بالخطأ ويرتفع به إثم الإقرار بالظلم والفساد.

(*) باحث في الشأن الإسلامي.. (أمريكا).

وفي هذا الوضع المتأزم تتطلع الأمة إلى دينها وقرآنها وسنة نبيها لتجد المخرج والعلاج، ولكن المفارقة المحزنة حقاً أن الخطاب الإسلامي وهو يحاول أن يتبوأ مكان المنقذ بتوظيف رصيد الأصالة والمرجعية متورط في الأزمة بكل أعراضها ومظاهرها، وكأنه جزء من المشكلة لا يستطيع أن يقدم بديلاً أو توجهاً يعود بالأمة إلى الصلاح والرشاد.

فالخطاب الديني في استجابته للظروف والتحديات متورط في الانفعال الذي تغيب معه الروية الموضوعية، ومتورط بطرح جزئيات وفرعيات تغيب معها الرؤية الكلية الجامعة، حيث تختزل الأمور إلى تبسيط مُخِل، وتغيب الأولويات، ويتبدى الجهل بالواقع والتيارات الفاعلة فيه، ويكثر الهروب إلى الماضي والوقوف على الأطلال.

ورغم هذه المظاهر المتعددة لأزمة الأمة أحسب أن أزمة الخطاب الإسلامي - بكل تجلياتها - يمكن أن تتلخص في أمرين متداخلين:

- فشل في فهم مواطن التزكية في الشريعة.

- وفشل في فهم الواقع، وعناصره، وملابساته، ومآلات الأفعال والتصرفات فيه.

فالفهم الحرفي للنصوص، والالتزام بالأشكال والطقوس، والارتهان لأقوال السلف الماضين أحال الشريعة إلى أغلال وآصار. فغابت معاني التشريع وروح الأحكام، وانكفأت التزكية إلى نمطية شكلية قاتلة لا تحس ضرورة التغيير في شيء ولو اختلفت أحوال الزمان والمكان والظروف والعوائد. أما الواقع وعناصره والتيارات التي تصوغ توجهات الناس في هذا الواقع، فالخطاب الديني يتجاوزه ويقفز فوقه ولايلمس منه عندما يحاوره ويتعامل معه إلا المظاهر والأشكال. وفي كلا

الأمرين يتوقف العقل عن العمل، ويحس من يحاول أن يتعامل مع الواقع المحزن للأمة، بما يمليه العقل والمنطق، أنه غريب محاصر متَّهم في إيمانه وولائه، تطوله أسلحة الإرهاب الفكري التي يشهرها الخطاب الديني على المخالفين.

وقد حاول كثير من الكتّاب والباحثين معالجة الفجوة بين العقل والواقع في الخطاب الإسلامي، وجاؤوا في ذلك بمعالجات قيمة وأبحاث مفيدة، ولكنها لم تترك أثراً عميقاً في الحياة الفكرية وتوجهات الصحوة الدينية، التي ما زالت تنظر إلى العقل والعقلانية بتوجس وارتياب. وما يزال الباب مفتوحاً لمزيد من المحاولات والمعالجات للوصول بالخطاب الإسلامي إلى القدرة على طرح حقائق التدين وعقيدة التوحيد لإحياء الأمة ولتزكية واقعها والنهوض بأحوالها وأداء دورها بعيداً عن الغلو الذي يفسد الحياة ويخرج الدين عن مهمته ووظيفته، وللوصول بالخطاب الإسلامي إلى القدرة على تجنيد الأمة – بكل فئاتها – لتتكامل أدوار العاملين وتنمو قدرتهم على التحاور والتعاون. فالخطاب الذي يعني نفسه بشريحة واحدة من الأمة ويحتكر إمكانيات النهوض في فئة أو توجه لا يستطيع أن يقدم شيئاً ذا بال .

وفي العقود الأخيرة، وجدتْ الدعوة إلى إحياء منهجية مقاصد الشريعة صدىً طيباً في أوساط الدراسات الشرعية والأكاديمية، وصدرت دراسات كثيرة تعنى باستخراج معالم هذه المنهجية في تراث العلماء الأقدمين، ابتداءً من عصر الصحابة والتابعين ومروراً بالإمام الجويني والإمام الغزالي والقرافي والعز بن عبد السلام، وانتهاءً بالإمام الشاطبي وابن عاشور وعلال الفاسي.

وأرى أن منهجية – مقاصد الشريعة – تحمل كموناً وقدرة على معالجة أزمة الخطاب الإسلامي، إذ تقدم الأدوات التي يستخدمها العقل ليربط بين الشريعة

- بنصوصها وأحكامها وتراث علمائها - وبين وظيفتها في تزكية الواقع ورفع الضنك والشقاء، وتأصيل الحياة الطيبة، ونشر الرحمة للعالمين. ولكن هذه الدعوة المباركة ما تزال متأثرة بطبيعة الخطاب الديني الذي يُغرَم بالجزئيات والإجرائيات، ويميل إلى التاريخ، ولا يستطيع تفعيل الأدوات المعرفية لتشكيل خطاب جماهيري يلف الأمة بكل شرائحها وفئاتها.

وسأحاول في هذا البحث رسم بعض معالم منهجية المقاصد، وتوسيع آفاقها، بما يضمن توظيف إمكانيات هذه المنهجية في معالجة الشق الأول من أزمة الخطاب الإسلامي وتجليات فشله وقصوره عن اكتشاف كنوز الشريعة وآفاق تزكيتها للنفس والعقل وأحوال الأمة. ثم أتوقف عند قضية فهم الواقع، محاولاً إعادة الاعتبار لمقدمات هذه القضية لسد بعض الثغرات في فهم العلاقة بين الشريعة والواقع وبما يعين على استكمال الخطاب الإسلامي لمقومات التأثير والفعل والتحريك.

- منهجية المقاصد لتصويب الفهم:

وأول ما أود أن ألفت النظر إليه في منهجية المقاصد أنها تربط بين العقل والشريعة والواقع برباط ينطلق وينضبط بما حددته الشريعة ذاتها من أهداف ومقاصد وضوابط، والتي تشكّل المنطق الداخلي المتماسك الذي نتحاكم إليه لتصويب الفهم وتقييم الوسائل. وبهذا المدخل نأمل أن نمهد الطريق لحل عقدة التوجس من العقل والعقلانية في الخطاب الديني، إذ أننا ندعو إلى التحاكم إلى منطق القرآن وكليات القرآن وما حدده الوحي من أوصاف للشريعة الخاتمة أو مقاصد للتشريع.

وهنا أرى أن من المفيد أن نشير إلى أن الدلالة اللغوية وحدها للمصطلحات والعناوين لا تستقل بتشكيل المعاني وتحديد ردود الفعل والاستجابة لمصطلح أو عنوان. فلا بد من استحضار المخزون الثقافي التي تحمله المصطلحات، ولا بد من

اعتبار السياق الثقافي والحضاري، الذي أحاط بالمصطلح، لنتمكن من تقدير فرص النجاح لنقل المضمون المراد دون استدعاء ظروف وملابسات تفتح أبواباً من سوء الفهم أو الخلط بين المفاهيم.

فمصطلحات التخلف والتأخر والتقدم والنهضة والحضارة والانفتاح وغيرها تحمل عبئاً ثقيلاً من ذكريات العهد الاستعماري في بلاد المسلمين، إذ يقفز إلى المخيلة الثقافية للشعوب السياق الأليم الذي صاحب طرح هذه المصطلحات، وما تستبطنه من فوقية وهيمنة ومرجعية يصبح فيها الغرب المستعمِر - بكل شراسة وعنصرية علاقته بالشعوب - القبلة والوجهة والمعيار. فلا عجب، والحال هذه، أن لا تتفاعل الأمة مع هذه المصطلحات، وأن تتوجس من استعمالها، وبذلك تضيع جهود المصلحين وتضيع أوقاتهم في بيان فك الارتباط بين ما يريدون بالأمة من صلاح وبين ما تستلزمه مصطلحاتهم في أذهان الناس وذاكرتهم الثقافية.

وأرى أنه لا بد من بذل الجهود لاستثمار وتفعيل وتأصيل مصطلحات تراثية مفيدة ومرتبطة بأمجاد حضارة المسلمين وصلتهم الغضة بتراث النبوة ومحكمات القرآن، وذلك مثل التجديد، والإتقان، والوهن، والكفاية، والتزكية، والشورى، والإجماع، وغيرها، بما يضمن طرح معاني التغيير المطلوب بقالب لغوي ذي رصيد إيجابي وفعالٍ.

ومن هنا فإن ما نأمله من منهجية المقاصد هو أن تكون قادرة على تفعيل العملية العقلية اللازمة للربط بين الشريعة وتزكية الواقع بمصطلحات ومعالجات لا تحمل العبء الثقيل للمعارك الكلامية بين الفرق وما آلت إليه من استقطاب وتحزّب ووقوع في ثنائيات العقل والنقل، أو الدين والرأي، أو الشريعة والحكمة، أو غير

ذلك، ولا تحمل كذلك عبء المواجهات التي صاحبت عهد الاستعمار والهيمنة الغربية بكل ما حملته هذه الحقبة من التمسك بكل قديم، الذي أصبح رمزاً للمقاومة والدفاع عن الهوية، والنفور عن كل جديد إلى حد الغلو والتطرف.

وعند مراجعة الطرح التاريخي لمنهجية المقاصد من خلال ما كتبه الذين تحدثوا عن مقاصد الشريعة من علماء أقدمين أو معاصرين، يبدو أنهم يحصرون هذا العلم بالمشتغلين بالفتوى والاستنباط من علماء الشريعة. وقد صرح الإمام محمد الطاهر ابن عاشور أن علم مقاصد الشريعة هو مما يختص بحملة الشريعة وعلمائها، فإن الأصل في العامي أن يتلقى الشريعة بدون المقصد؛ لأنه لا يحسن ضبطه ولا تنزيله، ثم يتوسع للناس في تعريفهم بالمقاصد بمقدار ازدياد حظهم من العلوم الشرعية.

فهل يسوغ في منطق الشريعة الخاتمة أن يبقى المكلفون بمعزل كامل عن منهجية المقاصد؟ وكيف يتم الوصول إلى التدين الصحيح بقيم الشريعة وأحكامها؟ وكيف سيكون أمر الأمة وعلاقتها بالشريعة إذا بقي العلم بالمقاصد بعيداً عن الحياة اليومية لجمهور المتدينين والملتزمين؟

وللإجابة عن هذا الأسئلة سأذكر بعض ما نقله العلماء مما له صلة بالموضوع، ثم نخلص إلى استفادة بعض النتائج:

- ذكر الإمام الشاطبي في كتاب المقاصد من «الموافقات» قاعدة شرعية مهمة، وهي أن كل من قصد بالفعل المشروع غير ما قصده الشارع من تشريع ذلك الفعل فعمله باطل. ويظهر من كلام الإمام أن معرفة ما قصد الشارعُ تحقيقَه في حياة الناس من أحكامه وشرائعه أمر ضروري لكل مكلف، حتى لا يقع فيما يحبط عمله ويبطل سعيه، وأن هذه المعرفة لا تختص بمن يفتي أو يقضي بين الناس، بل تجب معرفة

مقاصد الأحكام في كل ما يمارسه الفرد المكلف من أمور حياته اليومية، لتتم المطابقة بين أعماله ومقاصدها ومآلاتها وبين مقاصد الشارع فيها. فالالتزام بالأوامر الشرعية دون معرفة لمقاصدها في تزكية الحياة وتحقيق العدل ونشر الرحمة، سرعان ما يختزل الشريعة إلى أشكال ورسوم، ويمسخ الشريعة إلى أغلال وقيود يتحين الناس الفرص للتفلت منها وطرحها لأدنى شبهة أو سبب.

- تحدث كثير من العلماء عن التحيل وعن الحيل في الدين. وبينوا أن استحلال محارم الله بأفعال وأعمال لها صورة الأعمال المشروعة هو مخادعة لله ومكر وتلبيس. وقد حرر الإمام ابن القيم الكلام في الحيل فجاء بكلام نفيس وأمثلة كثيرة، وجعل الكلام في الحيل شرحاً وتعقيباً على القاعدة الشرعية: «العبرة في الشريعة بالمقاصد والنيات» فقال، رحمه الله: «وقد فصل قوله ﷺ: « **إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**»[1] الأمر في هذه الحيل وأنواعها، فأخبر أن الأعمال تابعة لمقاصدها ونياتها، وأنه ليس للعبد من ظاهر قوله وعمله إلا ما نواه وأبطنه لا ما أعلنه وأظهره».

ويعجب المرء من انتشار مرض الحيل والتحيل، ولا يكاد يرى له سبباً إلا الحرفية والطقوسية التي سيطرت على صياغة وفهم الفقه والتي أبعدت الأمة عن الوعي بالمقاصد وعن الاهتمام بالنيات والنظر إلى مآلات الأفعال عند التدين بالأحكام الشرعية ومحاولة تنـزيلها في واقع الناس. وقد أورد الإمام ابن القيم عند كلامه عن الحيل أكثر من مائة مثال من الأحكام التي يتحيل المتحيلون لإبطالها، وكل الأمثلة هي تصرفات مكلفين في أعمالهم وأحوالهم ومعاشهم، وفي كل مثال يصدق الكلام عن وجوب فهم مقاصد الشارع في أحكامه على المكلف العادي في خاصة نفسه وعلى من يستفتي في هذه المسائل على حد سواء.

---

(١) أخرجه البخاري.

- كتب الإمام الغزالي كتابه المشهور «إحياء علوم الدين» الذي شرح فيه كيف يتدين المسلم في أعمال العبادات والمعاملات، والكتاب كله يدور حول المقاصد والنيات، وكيف يعمل المسلم ليجعل من صور عباداته ومعاملاته وأشكالها ورسومها أعمالاً فيها روح الخضوع والخشوع وحقائق المنافع والمصالح فلا يخرجه التمسك بالأشكال إلى الوسوسة والعنت. وربع العادات من الكتاب طافح بذكر المقاصد وبيان مراد الشارع من الأحكام وكيف تجب المحافظة على الحلال مع بقاء مصالح الدنيا ودوامها واستقرار تبادلها.

- ذكر الإمام الشاطبي في كتاب الاجتهاد من «الموافقات» أن الاجتهاد في تحقيق المناط لابد منه لكل مكلف، ليستقيم تدينه بالأوامر الشرعية التي تعلمها، فقال رحمه الله: «... فالحاصل أنه لابد منه إلى كل ناظر وحاكم ومفت، بل بالنسبة إلى كل مكلف في نفسه، فإن العامي إذا سمع في الفقه أن الزيادة الفعلية في الصلاة سهواً من غير جنس أفعال الصلاة، أو من جنسها، إن كانت يسيرة فمغتفرة وإن كانت كثيرة فلا، فوقعت له في صلاته زيادة فلا بد له من النظر فيها حتى يردها إلى أحد القسمين، ولا يكون ذلك إلا باجتهاد ونظر، فإذا تعين له قسمها تحقق له المناط فأجراه عليه... فلا بد من هذا الاجتهاد في كل زمان، إذ لا يمكن حصول التكليف إلا به، فلو فرض التكليف مع إمكان ارتفاع هذا الاجتهاد لكان تكليفاً بالمحال وهو غير ممكن شرعاً».

وذكر الإمام الشاطبي في موضع آخر عند شرح متطلبات الاجتهاد لتحقيق المناط فأثبت ضرورة معرفة المكلف بمقاصد الأحكام التي يجتهد في تنزيلها وتحقيق مناطها في واقعه فقال: والحاصل أنه يلزم في هذا الاجتهاد المعرفة بمقاصد المجتَهَد فيه.

- ذكر الإمام الشاطبي في كتاب الاجتهاد من «الموافقات» أنه لا بد عند التدين بالأوامر والنواهي الشرعية من النظر إلى مآلات الأفعال، وأن هذا النظر أمر ينبغي لكل مكلف معرفته في خاصة نفسه لما ينبني عليه من سد الذرائع ومنع التحايل. ويبدو جلياً من استعراض الأمثلة التي ساقها الإمام أن هذا النظر في مآلات الأفعال لا ينحصر بمن يتصدى للفتوى والقضاء. والنص في هذه المسألة هو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (الأنعام:١٠٨)، وهو نص له صفة العموم والشمول لكافة المكلفين بالشريعة وأحكامها، فالنظر إلى عواقب الأمور ومآلاتها هو أمر في صلب قضية النظر إلى المقاصد والمعاني التي تطلب الشريعة تأصيلها في الحياة.

- صنف الإمام «الجويني» كتابه «غياث الأمم في التياث الظلم» وشرح في نهايته ما يجب على المكلفين فعله إذا خلا الزمان عن المفتين ونقلة مذاهب الأئمة الماضين، وقد بين سبب كتابته في هذا الموضوع فقال: «... وعاينت في عهدي الأئمة ينقرضون ولا يخلفون، والمتسمون بالطلب يرضون بالاستطراف ويقنعون بالأطراف، وغاية مطلبهم مسائل خلافية يتباهون بها أو فصول مغلفة وكلم مزيفة في المواعظ يستعطفون بها قلوب العوام والهمج الطغام، فعلمت أن الأمر لو تمادى على هذا الوجه لانقرض علماء الشريعة عن قرب وكثب ولا يخلفهم إلا التصانيف والكتب». وحاصل كلام الإمام في هذه المحاولة هو إرجاع تفاصيل الشرائع والتكاليف إلى الكليات والمقاصد والأصول، التي لا يصعب معرفتها على كافة الناس.. وقال في آخر محاولته: فجمعت هذه الفصول، وآملت أن تشيع منها نسخ في الأقطار والأمصار، لو عثر عليها بنو الزمان لأوشكوا أن يفهموها؛

لأنــها قواطع، ثم ارتجيت أن يتخذوها ملاذهم ومعــاذهم فيحيطوا بما عليهم مــن التكاليف في زمانهم».

وعند النظر في هذه المحاولة الرائدة للإمام الجويني نجد أنها تمثل تأصيلاً لمنهج في الخطاب بتكاليف الشريعة وأحكامها يبدأ بالكليات والمقاصد، التي تمثــل المعــاني الأساسية للدين والتي يسع كل الناس فهمها ومعرفتها، ثم يتوسع للناس في التفاصيل والفروع حسب ما تسمح به ظروفهم وحاجاتهم وأوضاعهم. ويبدو أن هذه المحاولة الرائدة لصياغة الفقه -بمعناه الاصطلاحي- تضع المقاصد وفهم المقاصد والكليــات الشرعية في مكانها الصحيح على سلم الأولويات في تعليم الناس وتلقينهم حقــائق الشريعة وما يجب عليهم معرفته، وبهذا يخرج الناس من حرج الوهم بوجوب البــدء باستظهار الفروع والتفاصيل فلا ينحل تمسكهم بالشريعة ويستسهلون الهجوم على مخالفتها لاعتقادهم أن الترتيب المنكوس للأولويات هو الواجب في حقهم وهو غير ممكن لأكثر الخلق.

- يؤكد العلماء أن من أهم شروط الفتوى في الدين معرفــة الواقــع بقرائنــه وعوارضه وأحواله، وأن أهم موارد الاختلاف بين العلماء هو مدى معرفتهم بالواقع ومآلات الأفعال فيه. وقد شرح ذلك الإمام ابن القيم في «إعلام الموقعين»، فقــال رحمه الله: ومن أفتى الناس بمجرد المنقول في الكتب، على اختلاف عرفهم وعوائدهم وأزمنتهم وأمكنتهم وأحوالهم وقرائن أحوالهم، فقد ضل وأضل.

وفي كتاب عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، إلى أبي موسى الأشعري، رضــي الله عنه، في القضاء: «الفهم الفهم فيما أدلي إليك، فإنه لا ينفع التكلم بحق لا نفــاذ له». وقد قال الإمام ابن القيم عند شرح ذلك: «لا يتمكن المفتي ولا الحاكم مــن

الفتوى والحكم إلا بنوعين من الفهم: أحدهما فهم الواقع والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات، حتى يحيط به علماً، والنوع الثاني فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر».

وفي عصر «الانفجار المعلوماتي» حيث أصبح كل فن وكل عمل وكل مهنة، اختصاص له فروع متشعبة من التطبيقات لا يكاد يستوعب آحادها جماعات المتفرغين المتخصصين، انتهى عصر العلماء الموسوعيين، الذين يحسنون القول ويستطيعون استخراج الفتاوى والأحكام بفهم عميق للواقع وما يجري فيه في كل مجال وفن وكل اختصاص. ولا مخرج من هذه الأزمة إلا بنشر الوعي بالمقاصد والكليات من القواعد الشرعية بين المتخصصين والعاملين في كل فرع من فروع المعرفة أو ضروب الأعمال والتجارات والخدمات أو الكفايات من جمهور الأمة، وعندها فقط يمكن الحوار بين علماء الشريعة وبين أصحاب العلم بالواقع من المسلمين، لتكون نتيجة الحوار وتبادل الرأي والمشورة إثبات حيوية المسلمين وقدرتهم على الحياة بهدي دينهم وشريعتهم الخالدة ومقاصدها الكلية الثابتة.

إن التجديد الذي يعيد نضارة وحيوية الدين للأمة، التي أشقتها متاهات التجارب البشرية، لا يمكن إلا بجناحين: علم الشريعة وعلم الواقع، ولا يمكن أن يتم الحوار المجدي بين الطرفين إلا أن يكون علم المقاصد هو اللغة التي يفكر بها عالم الشريعة فيخرج من حرفية النصوص وشكلية الفهم، ويتقنها كذلك كل عامل في حرفته ومجال علمه وخبرته ليرى كيف يوجه الواقع ليحقق مقاصد الشريعة

في مهنته ومجاله، ويقترح من خلال فهمه للواقع طرقاً ووسائل لتحقيق الخدمات وتأمين الكفايات بفهم المسلم وانتماء المسلم وضوابط شريعته ومقاصدها. وعند ذلك فقط يمكن أن يكون للتجديد معنى، ويمكن أن تترجم الشعارات إلى واقع ممكن يستمد عطاءه ووجوده من جمهور عريض من أصحاب الكفايات والخبرات من المسلمين الملتزمين.

إن كليات الدين وأساسيات الشريعة والمفاهيم المرجعية والعقدية هي موضع اتفاق بين المسلمين على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم، وغالباً ما يقع الخلاف في وسائل تحقيق وتنزيل القيم والمفاهيم. وفي أكثر الأحيان يمكن إعادة الخلاف إلى تباين في فهم الواقع ودراية حقيقة ما يجري فيه. فإذا بدأنا بتقرير الكليات والأساسيات، وشملت دعوة الاجتهاد والتجديد كل مسلم ليدلي بدلوه في المساهمة في فهم الواقع وحقيقة ما يجري فيه، فيما يتعلق بمهنته وعمله والكفاية التي يتولاها من أمور الأمة، فإننا بهذا نكون قد أعدنا الدين وهدايته إلى المكان الطبيعي من حياة الفرد والأمة.

وعندما تبدأ الأمة هذا التوجه يتحرك كل مسلم مهما كان نصيبه من العلم والثقافة على محورين: الأول منهما يتمثل في محاولة فهم الكليات والأساسيات، وذلك عبر تلقٍ وحوار دائم مع علماء الشريعة ومصادر التشريع ، ويتمثل الثاني منهما في محاولة إتقان وفهم واقع المهنة والحرفة والكفاية التي يشارك في القيام على تأمينها في الأمة. ومن خلال هذين المحورين يحاول كل مسلم، بالتشاور مع زملاء مهنته وشركاء خبرته، أن يبحث عن وسائل تنزيل الكليات والأساسيات وطرق تحقيق المصلحة العامة ورفع الفساد.

فإذا علم المرء أن من كليات الشريعة في العقود والمبادلات رفع الغرر والغشّ والخداع مثلاً ، فليس هناك من هو أقدر على معرفة وسائل تحقيق هذه الكلية الشرعية في واقع أية مهنة ممن يزاول هذه المهنة ويتعاطى مداخلها ومخارجها كلّ يوم، ابتداءً من البائع البسيط ومروراً بالتاجر والصانع والإداري والعامل والعالم إلى آخر هذا الطيف الواسع من المهن والحرف والخدمات والصناعات. وإذا علم المرء أن من المقاصد الشرعية للعقود والمبادلات الوضوح والابتعاد عن كل جهالة تؤدي إلى الخلاف، تحرى من وسائل الضبط والتوثيق ما يتناسب مع واقع مهنته وما يثق بفعاليته في توضيح الأمور وإزالة الإيهام.

إن هذا التوجه يعيد الأمور إلى نصابها في تصور الإسلام رسالة خاتمة تقرر المبادئ والقيم والكليات الأساسية وتترك الباب مفتوحاً لتجدد الوسائل وتغير الأساليب. ومتى استقرت هذه الحقيقة غدا تاريخ المجتمعات المسلمة، منذ عصر الرسالة إلى اليوم، محاولات نستلهمها ونضعها في سياقها من الزمان والمكان لنفهم كيف حاول المسلمون عبر العصور تمثل قيم الدين ومبادئه، فيغدو التاريخ مثالاً ونموذجاً تطبيقياً وليس بديلاً عن القيم نحاول أن نعيده ونعيشه مرة أخرى كما هو بتفصيلاته ووسائله بكل ما تحمله هذه المحاولة من عنت وما تؤدي إليه من إحباط.

إن هذا التوجه يعيد الثقة إلى المسلم بأنه المسؤول عما استرعاه الله من كفايات ومهارات وخبرات، وأنه المكلف أصالة عن إقامة وتمثيل القيم الشرعية في مجاله وليس هناك من ينوب عنه في هذا، كائناً من كان.

إن هذا التوجه يرفع الحرج عن علماء الشريعة، ويعفيهم من الظن أن عليهم أن يقرروا التفاصيل ويعالجوا كل المسائل فيحملهم ذلك على التكلف والتنطع والقول فيما لا يحسنون. فأمور الحياة قد أصبحت على درجة من التوسع والتعقيد لا يمكن

معه تناولها باقتدار وإتقان إلا من أصحاب الخبرة والممارسة والدراية. أما المبادئ والقيم والكليات والأساسيات والضوابط فهي مجال علماء الشريعة، يستلهمونها من النصوص الكلية والتراث ونجاحات التجارب التاريخية لمجتمعات المسلمين. وتبقى قضية معالجة الواقع وتزكيته، وتنزيل القيم بكل ما تحتاج إليه، مجال سجال وحوار وتشاور وتعاون بين طبقات الأمة وقادة الرأي والخبرة فيها في كل مجالات النظر والعمل والمهن والحرف والخدمات وجميع وجوه الارتفاق والمصالح.

إن هذا التوجه في الانطلاق من المقاصد والكليات لتحديد الوسائل وترتيب الأولويات يعطي أصحاب الفكر والناشطين من أهل الحركة بصيرة واضحة لمعرفة نقاط الاتفاق، ومجالات الافتراق، والتمايز بعيداً عن مجرد الاعتراض لتأكيد الحزبيات والعصبيات التي تستهلك الطاقات وتدفع بالأمة إلى التشرذم والتفرق.

وعند ذلك تعود ثقة الأمة بدينها، ويتمكن المسلم من أداء دوره في تزكية الحياة وترقية أحوال الأمة، سواء كان في أعلى درجات المسؤولية الاجتماعية والسياسية أو في قضايا التنزيل والتطبيق، حيث يكون قادراً على استلهام روح القانون ومقاصد التشريعات، وقادراً على التحاور وإبداء الرأي والنصح عندما يلاحظ ما يند عن تحقيق المصلحة في عمله ومجال خبرته على الوجه المقبول.

ومن المفيد أن نذكر أنه لم يعد مقبولاً في ممارسة مهنة الطب والعلاج الطبي أن يبقى المريض في معزل عن القرار الذي يراه الطبيب، وأصبح من واجب الطبيب أن يشرح للمريض بلغة بسيطة يفهمها كل ما يعين المريض على الفهم لمراحل العلاج ومتطلباته وأثره على صحته وإنهاء معاناته وآلامه، ويشجعه على التعاون وتحمل نصيبه من المسؤولية.

- وعلم المقاصد، الذي نرجو له التأصيل والانتشار، هو العلم بالقواعد الكلية الضابطة للنظر في كل باب من أبواب التصرفات والعقود، بحيث يتجلى الفرق بين الوسائل والمقاصد، وبين المعاني الكلية المتفق عليها وبين الفروع والجزئيات التي تحتمل التنوع والاختلاف، وبين قيم الشريعة الخالدة وبين صور تطبيقاتها في امتداد الزمان والمكان.

فلا بد من فهم التصرفات في سياقها وعلاقاتها بالنموذج الحضاري والسلوك الذي تستدعيه أو توصله، فإن الفتوى – في القضايا المالية مثلاً – والتي تتجاهل وظيفة المال في الأمة أو نموذج التوزيع للثروة كما حددها القرآن الكريم: ﴿ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾ (النساء:٥)، ﴿ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾ (الحشر:٧)، لا يمكن إلا أن تكون قاصرة مبتورة عن القيم التي نزل القرآن الكريم لتحقيقها وتأسيسها مهما اجتهد المفتون في محاولة تحقيق معنى النصوص الجزئية التي يستندون إليها. فعند معالجة أية قضية لا بد من جمع كل النصوص والأخبار المتعلقة بالقضية المدروسة ومحاولة الخروج بفهم كلي للمسألة في ضوء خصائص الشريعة العامة ومقاصدها الكلية، وذلك بمحاولة اكتشاف المعنى الجامع لآحاد الجزئيات بظروفها وملابساتها وقرائنها، وبذلك نتخلص من الفهم الجزئي المبتور الذي يستند إلى آحاد النصوص والأدلة .

وقد حاول الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور هذا التأصيل لعلم المقاصد في كتابه «مقاصد الشريعة الإسلامية» وعقد فصولاً مهمة في آخر الكتاب عن مقاصد أبواب من العقود والمعاملات، وجاءت محاولته عملاً رائداً يمثل توجهاً تجديدياً في صياغة فقه المعاملات والذي نأمل أن يكثر فيه المساهمون والدارسون لإعادة التفاعل بين الحياة الواقعية ومناهج صياغة ونشر قيم الوحي وهدايته.

إن منهجية المقاصد في بعدها – الجماعي – الجمهوري، الذي يجمع عالم الشريعة وكافة شرائح الأمة في المسؤولية عن إقامة الدين وتزكية الحياة به – كما نحاول تأصيله – هي الرد على من يخشى أن تختلط المقاصد التي نريد تحريرها وتأصيلها بالمصالح الفردية الأنانية. وليس مستغرباً على الخطاب الديني التقليدي أن يتوجس من الطرح المقاصدي ويرتاب، فالفقه قلما اهتم بالبعد الجماعي للتشريع وغالباً ما انحصر في القضايا التكليفية الفردية. وعندما قام الإمام ابن عاشور بإدخال واعتبار بُعد الأمة – أي البُعد الجماعي – بدلاً من الانحصار في اعتبار المكلف الفرد عند النظر في التشريع، نحسب أن هذه الإضافة النوعية هي التي قدمها الإمام الشيخ الطاهر بن عاشور حول مقاصد الشريعة على ما قدمه الإمام الشاطبي في هذا الباب.

إن إضافة بُعد الأمة عند ابن عاشور مكّنهُ من حل أكثر من مشكلة في آنٍ واحد. فمن الأسطر الأولى في مقدمة كتابه «مقاصد الشريعة الإسلامية» يقرر الإمام ابن عاشور أن «مصطلحي إذا أطلقتُ لفظ التشريع أني أريدُ به ما هو قانون الأمة ولا أريد به مطلق الشيء المشروع، فالمندوب والمكروه ليسا بِمُراديْنِ لي»[1]. وبهذا فهو يقررُ أن علم مقاصد الشريعة علمٌ يتناول الموضوعات العامة ذات الصبغة الجماعية، وأن الأحكام التي يأمل أن يؤسس قواعدها هي أحكامٌ تتناول المجتمع والأمة والجامعة الإسلامية، ثم إنه يتابع قائلاً : «كما أرى أن أحكام العبادات جديرةٌ بأن تُسمى بالديانة ولها أسرارٌ أخرى تتعلق بسياسة النفس وإصلاح الفرد الذي يلتئم منه المجتمع»[2].

---

(١) ص٨ .

(٢) ص ٨.

وأحسب أن هذا المدخل الذي أصَّلَهُ ابن عاشور، رحمه الله، قادرٌ علـــى حـــل مشكلةٍ كبرى في تاريخ الفقه والأصول تتعلق بالمقابلة بين فكرة التعبد وبين معقولية التكليف. وتظهر ملامح هذا الحل عند مقارنة طرح ابن عاشور بما قدَّمهُ الشاطبي في هذا الباب .

فلقد مزج الشاطبي، رحمه الله، في كتابه «الموافقات» تعريفه للمقاصد الضرورية بين الدنيا والآخرة لأن بُعدَ الأمة لم يكن حاضراً في كتابته. أما ابن عاشور فإنه يقرر بوضوح: «فالشرائع كلها، وبخاصةٍ شريعة الإسلام، جاءت لما فيه صلاح البشـــر في العاجل والآجل، أي في حاضر الأمور وعواقبها، وليس المراد بالآجل أمور الآخرة؛ لأن الشرائع لا تُحددُ للناس سيرهم في الآخرة، ولكن الآخرة جعلها الله جزاء على الأحوال التي كانوا عليها في الدنيا»[1]. ومن هنا لا نرى غرابةً في أن الشاطبي يكتب للفرد ويُحددُ مقصد الشريعة بأنه إخراج العبد عن داعيةِ هواهُ ليكـــون عبـــداً لله، ويمزج بين الدنيا والآخرة، ويتكلم عن التكاليف بأن منها ما هو معقول المعنى – أي أن باستطاعة البشر إدراك المعاني والحِكَمْ الكامنة وراء تكليفهم بها – ومنها ما هـــو غير معقول المعنى.

أما ابن عاشور، فحيث إنه وضع الأمة كإطارٍ للبحث في المقاصد، فقد كان من المناسب تماماً أن يفصل بين الحديث عن المقاصد وبين أحكام الآخرة، لأن الآخـــرة هي جزاءٌ للأفراد: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾ (مريم:٩٥). وهـــو لـــذلك يكتب عن الأمـــة، والجزاء الجمـــاعي للأمـــة هـــو في الدنيا، كما أن المســـؤولية

(١) ص ١٠.

عما تتورط فيه الأمة مسؤولية جماعية: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ ﴾ (الأنفال:٢٥)، ومن الصعب إدخال النيات ومقاصد الأفراد في صياغة الأحكام الجماعية. ولذلك فقد وصف ابن عاشور التشريع بأنه «قانون الأمة».

وإن من الواضح أنه عندما يكون الحديث عن الأفراد كإطار للمقاصد (كما فعل الشاطبي) فإن من الطبيعي أن تتوسع دائرة التعبد أو غير معقول المعنى، لأن الفرد مُطالبٌ بمخالفة الهوى، ومُطالبٌ بإصلاح النية والقصد والتوجه ولو لم يعلم على التفصيل حكمة ما طُولِبَ به من عبادات وشعائر ونُسك وأوامر ونواه. وكلما تجاوز الأمر الشرعي الفرد المكلف ودلت صيغة الأمر على موضوع يمس الأمة والجماعة ضاقت مساحة غير معقول المعنى، وتوسَّع العلماء في الحديث عن المصالح والحِكَم. ولا تجد من ينكر المعاني والمصالح الكامنة وراء اجتماع المسلمين للصلاة والجمعة والأعياد والزكاة والصدقات وصلة الأرحام وعيادة المرضى والمواساة وغير ذلك من الأمور .. حتى إذا وصل الأمر إلى ترتيب مصالح المسلمين العامة في الدنيا كان من الطبيعي أن تضيق بل تنتهي دائرة غير معقول المعنى؛ لأن ذلك ألصقُ بطبيعة التدين الفردي الذي مال ابن عاشور إلى تسمية أحكامه بالديانة تمييزاً لها عن التشريع الذي خصّهُ بمجال الأمة.

فالأصل في القضايا العامة وإطار الأمة أن تضيق مساحة ما يدعى «غير معقول المعنى» لأن أمر الأمة في الدنيا مبنيٌ على المصالح ، والمصالح في الدنيا بطبيعتها معقولة المعنى، يتسلطُ عقل الإنسان عليها بالفهم والترجيح والموازنة، ويسترشد بضوابط الوحي المعقولة في إجراء ذلك الترجيح وتلك الموازنة.

- المقصد الأعلى للشريعة:

- من استقراء آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن الأمة ومهمتها، يمكن أن نستخلص تعريفاً للمقصد الأعلى للشريعة ، يُدخل فيه بُعد الأمة والتكاليف الجماعية المنوطة بها والذي يمكن صياغته على أنه :

- «إنشاء أمة متمثلة لمقتضيات الإيمان، قادرة على الحضور الذي يمكّن من الشهادة ويقيم الحجة ويبعث على الاحترام ويغري بالاقتداء، أمة قادرة على عمارة الأرض وتسخير الكون لتكون الحياة على الأرض طيبة لا عسر فيها ولا ضنك، تحكمها.الرحمة والتخفيف والسماحة، وتتوجه إلى البناء والعمران والتواصل والتعارف».

و مجمل المعاني الواردة في هذا التعريف نجدها في كلام ابن عاشور، رحمه الله، إلا أنه لم يجمعها في تعريفه المحدد الذي قدمه، وإنما كانت متناثرة في مواضع مختلفة وتحت عناوين متنوعة. ووفقاً لهذا التعريف، فإن الحياة الطيبة ممكنة إذا هيمنت عليها قيم الإيمان، التي تضع الإنسان في مكانه الصحيح من خالقه ومن الكون من حوله، والحياة الطيبة ممكنة باستقرار واستمرار الوجود الإنساني القادر على التواصل والتعاون والتسخير والإعمار.

ولا يظهر الدين إلا بوجود أمة قادرة على استحضار منهج الإيمان في التعامل مع الكون والحياة بوضوح يقيم الحجة، وفعالية تمكن من الشهادة، وجدية تبعث على الاحترام وتغري بالاقتداء، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيٍّ عن بينة.

وعند فهم مقصد الشريعة على هذا النحو، تصبح التكاليف الفردية والجماعية انعكاساً لمتطلبات تكوين الأمة بالمواصفات القرآنية، ابتداءً من عقدة الإيمان في القلب

«لا إله إلا الله»، وانتهاءً بآخر مقتضيات الخير في القلب «إماطة الأذى عن الطريق» والذي يعكس الطبيعة الجماعية لمقتضيات الإيمان. وعندما يتضح المقصد الأعلى للشريعة، تصبح الإنسانية كلها والكون كله بؤرة اهتمام المسلم، ينظر إلى ما يخصه من التكاليف من منظار كوني عالمي، يعرف موضع مشاركته وواجبه من الصورة الإجمالية، فلا يحقر صغيراً ولا يتجاهل ما حوله وهو يؤدي واجبه في الإعداد.

إن فهم الشريعة في هذا الإطار الجامع، الذي يعطي الأهمية للهدف العملي والآثار الواقعية المرتقبة لكل ما يجب اعتقاده أو الالتزام به من الأوامر والأحكام هو الضامن، بإذن الله، لإخراج الخطاب الإسلامي من الدوائر النظرية والحرفية التي انحصر فيها، ففقد القدرة على التأثير والإثارة، وفتح بهذا باب الفتنة بالزخرف وبالغرور من القول والعمل.

- البصيرة في النظر إلى الواقع:

أما الشق الثاني من تجليات أزمة الخطاب الإسلامي والمتمثلة في الفشل في فهم الواقع والتعامل معه، فلا بد من البيان لإزالة الوهم الذي يتطرق إلى بعض الأذهان فيحملها على التسوية بين الدعوة إلى فهم الواقع وبين الدعوة إلى اتخاذ الواقع الراهن في عصر من العصور مقياساً للصواب والحق مع الإنكار لوجود قيم مطلقة ذات مصدر علوي. إن هذا الوهم هو الذي صبغ الخطاب الإسلامي بصبغة المثالية والتحليق في الأبراج العاجية والحديث عما يجب، مع التأثم من معاناة الواقع كما هو، بعقلية يغلب عليها الانتقائية والجزئية والإقصاء والإنكار والتجاهل. إننا ندعو إلى النظر إلى الواقع كما هو، لتحري وسائل تنزيل القيم فيه وتزكيته والارتقاء به إلى الحياة الطيبة التي تعيش وترتبط بالقيم.

وهنا أستعرض بعض النقاط التي تساعد على اكتساب البصيرة الشرعية في النظر إلى الواقع والتعامل معه:

- **إن طريقة القرآن في عرض الأحكام تدل على واقعية صارمة،** لا تتجاهل أحوال المخاطبين أو تقفز فوقها. فليس في القرآن الكريم تشريع أو تكليف مقطوع عن الظروف والملابسات، بل كان اعتبار الواقع والظروف هو الأمر الذي لم تنفك عنه الأحكام.

فآيات الصيام اتصلت بدون إمهال لبيان الحكم عند طروء السفر والمرض: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ (البقرة:١٨٤).

وفي آيات الحج جاء بلا تراخ حكم شعيرة الحلق عند المرض: ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ (البقرة:١٩٦).

وجاءت الآية التي تبين وجوب أداء الصلاة على وقتها في سياق الاستثناء الذي تمثله آية صلاة الخوف: ﴿... فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۚ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾ (النساء:١٠٣)

وبيان المحرمات من الأطعمة تبعه مباشرة، في أكثر من موضع، أمر باعتبار ظروف التطبيق : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ... فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (المائدة:٣).

فطريقة القرآن في كل هذه الأمثلة توجه المؤمن لأخذ الظروف والملابسات بعين الاعتبار والبعد عن التجاهل والتجاوز. فليس من التقوى والورع أن ندير الظهر للواقع

الذي نتعامل معه ونبني صورة عن المجتمع ليس لها من الحقيقة نصيب، بل إن هذا هو بطر الحق، الذي يحمل أرباب الخطاب الديني على التورط في الكبر والترفع على الناس.

- ومن الخصائص المهمة للشريعة **التدرج في تطبيق الأحكام**، هذا التدرج الذي توضحه الآيات التي نتلوها ونحن نعلم أنها لا تمثل الحكم النهائي في موضوعها، مما يوضح صبغة واقعية مهمة وبياناً لأهمية اعتبار حال الناس وأوضاعهم عند الأخذ بيدهم للوصول إلى الحالة السوية التي تبينها الأحكام النهائية. وما أحكام الخمر والميسر والميراث والقصاص والجهاد إلا أمثلة واضحة لطريقة القرآن في التدرج واعتبار الواقع وعدم تجاهله وإقصائه عند محاولة تنزيل القيم .

- أوضح الإمام الشاطبي في المقدمة الثالثة عشرة من «الموافقات» أن من أمارات الحكم الشرعي المعتبر أن يطابق الواقع، وأن كل ما لم يجر على استقامة واطراد مع الواقع فلا يمكن اعتباره أصلاً شرعياً، وأن من لم يلاحظ هذا التطابق لم يأمن الغلط. وقد جاء للدلالة على هذه القاعدة بأمثلة لطيفة تبين طريقة فهم آيات القرآن وتأويلها حتى لا نقع في التناقض بإثبات ما يتعارض مع الواقع، وحتى يقع الاطراد في معنى الآيات وما يلزم منها. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ (النساء:١٤١)، فقال: «إن حمل معنى الآية على أنه إخبار لم يستمر مخبره (أي لم يصح معناه) لوقوع سبيل الكافر على المؤمن كثيراً بأسره وإذلاله، فلا يمكن أن يكون المعنى إلا على ما يصدقه الواقع ويطرد عليه وهو تقرير الحكم الشرعي، فعليه يجب أن يحمل» (أي لا تجعلوا للكافرين عليكم سبيلاً).

وذكر الشاطبي مذاكرة بينه وبين أحد شيوخ عصره، فقال: كتب إليَّ بعض شيوخ المغرب في فصل يتضمن ما يجب على طالب الآخرة النظر فيه والشغل به،

فقال فيه: وإذا شغله شاغل عن لحظة في صلاته فرغ سره منه بالخروج عنه ولو كان خمسون ألفاً كما فعله المتقون. فاستشكلت هذا الكلام وكتبت إليه بأن قلت: أما أنه مطالب بتفريغ السر منه فصحيح ، أما أن تفريغ السر بالخروج عنه واجب فلا أدري ما هذا الوجوب. ولو كان واجباً بإطلاق لوجب على جميع الناس الخروج عن ضياعهم وديارهم وقراهم وأزواجهم وذرياتهم وغير ذلك مما يقع به الشغل في الصلاة. وإلى هذا فقد يكون الخروج عن المال سبباً للشغل في الصلاة أكثر من شغله بالمال. وأيضاً فإذا كان الفقر هو الشاغل فماذا يفعل؟ هذا ما لا يفهم. وعقب الشيخ الشاطبي على ذلك بقوله: «فلما وصل إليه ذلك كتب إليَّ بما يقتضي التسليم فيه وهو صحيح؛ لأن القول بإطلاق الخروج عن ذلك كله غير جارٍ في الواقع على استقامة لاختلاف أحوال الناس، فلا يصح اعتماده أصلاً فقهياً البتة».

وفي موضع آخر من «الموافقات» قرر الإمام الشاطبي في كتاب «الاجتهاد» أن النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعاً. فلا يصح إطلاق القول بمشروعية عمل إذا أدى استجلاب المصلحة فيه إلى مفسدة تساوي المصلحة أو تزيد عليها. وكذلك لا يصح إطلاق القول بعدم مشروعية عمل إذا أدى دفع المفسدة فيه إلى مفسدة وضرر يساوي المفسدة أو يزيد عليها.

وقد ذكر الشيخ العز بن عبد السلام، رحمه الله، في «قواعد الأحكام» كلاماً نفيساً عن اختلاط المصالح والمفاسد وأحوال اجتماعها وكيف تتغير الأحكام بغلبة المصلحة أو المفسدة على التصرفات، حسب الأحوال والقرائن.

وكل ذلك يتطلب معرفةً وبصيرة بالواقع ومآلات الأفعال فيه. فالعلم بالواقع والبصيرة فيه ومعرفة نتائج وعواقب أي فعل في البيئة والعرف السائد أمر لازم،

ولايجوز إهماله، حتى تحقق الأفعال والتصرفات غاياتها من المصالح أو درء المفاسد.

- وذكر العلامة ابن خلدون في مواضع كثيرة من مقدمته أهمية الرجوع إلى طبائع العمران والأشياء للتحقق من صدق الأخبار والروايات. ومن ذلك قوله: «فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار، بالإمكان والاستحالة، أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران، ونميز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه وما يكون عارضاً لا يعتد به وما لا يمكن أن يعرض له. وإذا فعلنا ذلك كان لنا ذلك قانوناً في تمييز الحق والباطل في الأخبار، والصدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه».

وذكر ابن خلدون في سياق آخر أن من الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام، وهو داء شديد الخفاء إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة، فلا يكاد يتفطن له إلا الآحاد من الخليقة؛ وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو الاختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال. وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول، سنة الله التي قد خلت في عباده.

والناظر في هذا الكلام يدرك أن المنهاج الذي أسس عليه العلامة «ابن خلدون» علم الاجتماع أو علم العمران، يعتمد بشكل كبير على المعرفة بالواقع والبصيرة بتبدل أحواله، والثابت من طبائعه، وما بث الله سبحانه فيه من نواميس وسنن وأسباب ووسائل. وهذا منه، رحمه الله، فهم لأهمية الاتصال بالواقع عند محاولة التأثير

فيه، وفي ذات الوقت، رفض ورد للمنهج التاريخي الحرفي الذي لا يتصل بالواقع عند محاولة الفهم لدروس وعبر التاريخ وقفز فوق خصوصيات الزمان والمكان.

- ذكر الإمام الغزالي أن الشيء في الوجود له أربع مراتب : حقيقته في نفسه، وثبوت مثال حقيقته في الذهن، وتأليف صوت بحروف تدل عليه وهو العبارة الدالة على المثال الذي في النفس، وتأليف رقوم تدرك بحاسة البصر دالة على اللفظ وهو الكتابة.

وقال: اعلم أن من طلب المعاني من الألفاظ ضاع وهلك، وكان كمن استدبر الغرب وهو يطلبه، ومن قرر المعاني أولاً في عقله ثم اتبع المعاني الألفاظ فقد اهتدى.

وقد علَق الأستاذ جودت سعيد في كتابه «اقرأ» على ذلك بقوله: «هذا معنىً شريف يحسن أن نبحثه مرة أخرى بأسلوبنا وحسب طاقتنا، وذلك بأن نشرح المرتبة الأولى من مراتب الوجود الذي سماه الغزالي حقيقته في نفسه، أو الوجود الخارجي أو العيني، حسب تعبير ابن تيمية. فالرعد مثلاً له وجود خارجي يظهر في الجلجلة التي نسمعها بعد وميض البرق في السحاب، فهذا الوجود الخارجي هو حقيقة الرعد. أما ما يحصل عند الناس من صور ذهنية عن الرعد والبرق أو الشمس والنبات والحيوان متفاوت تفاوتاً كبيراً عريضاً طويلاً وعميقاً. فلهذا نختار أن نقول: إن الوجود الخارجي لكل من الفيزياء والمجتمع له حقيقة واقعة، أما تصور الناس لها فهو الذي يتفاوت الناس فيه، فكل يرى حسب خلفيته الفكرية، وهذا ما يميز الناس عن آلة التصوير والتسجيل ويجعلهم يختلفون في فهم الأمور على مر العصور. هذه هي العلاقة بين الوجود الخارجي والصور الذهنية، فالوجود الخارجي هو الثابت الذي

كلما اختلفنا في تفسيره رجعنا إليه ودققنا النظر والبحث والتعامل معه لنصحح الصورة الذهنية. وهذا ما أردنا إثباته هنا في حديثنا عن كلام الإمام الغزالي في هذا الموضوع».

وعند التأمل في هذا الكلام نجد تطابقاً في النظرة إلى الواقع كمعيار لصدق وصحة فهمنا للنصوص، مع ما قدمه الإمام الشاطبي، رحمه الله، في هذا الموضوع. فمن طلب المعاني من الألفاظ ضاع وهلك، فلا يجوز حمل معاني النصوص على ما لا يصدقه الواقع ولا يطّرد ولا يستقيم فيه. فلا بد من التوسط والتكامل ولا بد من فقه بالواقع لتبدأ رحلة التزكية من أساس متين.

- وذكر الإمام ابن القيم، رحمه الله، في «إعلام الموقعين» تعليقاً على قول سيدنا عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في رسالته لأبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، في القضاء: «الفهم الفهم فيما أدلي إليك». قال ابن القيم: «ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والقضاء إلا بنوعين من الفهم: أحدهما فهم الواقع، والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علماً؛ والنوع الثاني هو فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر».

ومن مجمل هذا العرض نخلص إلى حقيقة التجديد، الذي ندعو إليه، للخروج بالخطاب الإسلامي من أزمته وتجليات فشله:

إنه لابد من تقرير القيم والمبادئ الشرعية الخالدة في القرآن والسنة، ولابد من فهم التطبيقات العملية لهذه القيم والمبادئ في عهد النبوة، من خلال الإلمام

والاستيعاب لظروف وأحوال عصر النبوة، ولابد من استنباط فقه التنزيل الذي أصَّله النبي ﷺ وصحابته والتابعون من بعده، وذلك ببيان المنهجية العملية الواقعية المقاصدية للربط بين القيم والمبادئ وبين واقع عصرهم وزمانهم.

وبعد التمكن من هذه المنهجية - الوظيفية - المقاصدية في فهم النصوص والتعامل مع التراث، لا بد من فهم عميق لواقع عصرنا وأحواله ومداخله، لتتم عملية تنزيل القيم، وتتم محاولة تزكية هذا الواقع من أرض البنية الواقعية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، لا من الخيال والأوهام.

فالخطاب الذي يقوم بمهمة البلاغ المبين هو الخطاب الذي يصدر عن عقلية واقعية مقاصدية منضبطة في النظر إلى النصوص والتراث والواقع، والتجديد كذلك هو الجهد المبدع لاستنباط الوسائل المؤثرة المناسبة لتزكية الواقع بمبادئ الوحي الخالدة.

أما محاولة شد ومد أقوال الأقدمين للخروج بها من نسبيتها وبشريتها لتغطي - بزعمنا - ما استجد من أحوال وأوضاع، والقفز بذلك فوق حقائق ومعطيات واقع الحياة، فلن يأتي إلا بالإحباط والخيبة.

والناظر إلى ما تطرحه الحياة من مشكلات، وإلى محاولات الخطاب الإسلامي والفكر الإسلامي لمعالجة هذه المشكلات، يرى كثيراً من العجلة وقليلاً من الصبر على مكابدة الواقع وفهمه بأبعاده وأعماقه، استناداً إلى عمومات وشعارات نزعم لها الإطلاق والشمول، ومن ثم تأتي النتائج فجة، لا تساهم في صلاح فكر ولا تزكية واقع، ولا تساهم كذلك في صياغة خطاب يضع الشريعة الخاتمة كما أرادها الله تعالى: للناس كافة، رحمة للعالمين.

إن التعامل مع الواقع بالطريقة التي أشرنا إليها غير ممكن إلا أن يتولى هذا الأمر في كل شأن من شؤون الحياة من يحسنه ويتقنه. أما علماء الشريعة، فلا بد من الإشارة إلى أن الإعداد العلمي والعملي لطلاب كليات الشريعة في أنحاء العالم الإسلامي يشكو من البعد عن الاتصال بالواقع وتاريخية التوجه والانفصال عن مكابدة قضايا الحياة.

وإذا كان العلماء يقررون أن من شروط التصدر للفتوى والقضاء العلم والدراية بالواقع وأحوال الزمان، أفليس من الطبيعي أن نتساءل عن: آليات ووسائل فهم الواقع التي تلقاها من درس الشريعة وتدرب عليها أثناء رحلة التأهيل العلمي في المعاهد والجامعات؟

وإذا كان الجواب عن هذا التساؤل المشروع هو النفي المطلق - على لسان من يدرس في كليات الشريعة من الأساتذة والعلماء - فلا بد من إعادة الثقة بجمهور المؤمنين من أهل الكفاية، فليس كل من لم يدرس الشريعة بالطريقة التقليدية عوام وطغام، أو مما هب ودب، بل الأمة كلها بكل فئاتها وما أقامها الله فيه من أعمال هي معيار مناسبة الخطاب الإسلامي، ومعيار قدرة هذا الخطاب على تحريك كوامن الانتماء وتحمل مسؤوليات هذا الانتماء.

الخطاب الإسلامي المعاصر
بين التجديد والتبديد

الأستاذ محمد صياح المعراوي (*)

اليوم نحن مستضعفون ونواجه خصماً عنيداً، لا يريد حواراً يوصل إلى قناعة مشتركة مستمدة من الدليل الأرجح والحجة الأبين؛ يفرض حواراً يؤدي إلى نتيجة موضوعة سلفاً، وهذا أبشع ألوان العبث بقواعد الفلسفة والمنطق السليم، فالنتيجة إنما يتم الوصول إليها بالمحاكمة العقلية الصريحة، لا بأساليب الضغط القبيحة.

أولاً: المقدمة:

تتالى في الآونة الأخيرة – وبإلحاح مضطرد- الدعوة إلى (تجديد الخطاب الديني). والمقصود من هذه الدعوة هو (الخطاب الإسلامي) تحديداً وإن كان الموضوع يطرح بصيغة (الخطاب الديني) بشكل عام.

القضية ليست جديدة على الساحة الفكرية الإسلامية، فهي كانت تطرح بشكل أو بآخر منذ أمد بعيد، ولعلي أقدم – بل أذكّر – بمحاولات جرت أواخر القرن

(*) محام وباحث.. (سوريا).

التاسع عشر وبداية القرن العشرين حيث نرصد:

١- محاولات الشيخ جمال الدين الأفغاني وتلميذه الشيخ محمد عبده.

٢- محاولة الشيخ علي عبد الرازق في كتابه (الإسلام وأصول الحكم).

٣- محاولة قاسم أمين في كتابه (تحرير المرأة) و(المرأة الجديدة).

وغير ذلك من مثل هـــذه المحـــاولات، التي قاربت الصواب في بعضها وجانبته في جلها.

بعد ذلك مضى السعي للتجديد وئيداً حتى ما بعد النصف الثاني مـــن القـــرن العشرين حيث عاد الموضوع ليطرح من جديد وبأسلوب جديد، ولعل مرد ذلـــك كان الاستفادة من تجربة الذين سبقوا إلى ذلك وإعادة صياغتها صياغة مختلفة.

أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كان الناس لا يزالون على إسلام موروث تأصل من عواطفهم وعقولهم مما يجعل من أية محـــاولة لإعادة قراءة الخطاب - على هدى من مراجعة الإرث المعرفي الذي صاغه وكونه - محاولة محفوفة بالشك والريبة سلفاً، ومدفوعة برفض تلقائي من مجتمع لم يكن قد تأهل بعد لتقبـــل نقـــد للتراث، سليماً كان النقد أم وخيماً. لذلك كانت محاولات الأفغاني ومحمد عبـــده مقبولة مع قليل من المعارضة أو التحفظ، وكانت محاولات علي عبد الرازق وقاسم أمين مرفوضة مع قليل من الرضى والقبول.

على أن الأمر لم يستمر على نفس النظرة إليه بسبب عوامل شتى تســـربت إلى المجتمع، منها ما كان فيها للناس هدى وجلاء بصيرة، ومنها ما كان فيها ميل عـــن الصواب وانحراف نحو الزيغ فتنة وتأويلاً.

وما كان ذلك ليتم لولا أن صيغاً من ثقافة (الآخر)، غير الإسلامي، قد تسربت إلى الحالة المعرفية التي كنا عليها، فأثرت في ثقافتنا تأثيراً ظاهره التنوير وباطنه ترسيخ

منهج مقصود لذاته، يجعل بيننا وبين إسلامنا حالة من (عدم الفهم) السليم، ومن ثم التمكن من إقصائنا عن «الخطاب الإسلامي» أو إقصائه عنا، وتشكيل العقل المسلم تشكيلاً جديداً يرى أن التقدم نحو الحضارة والابتعاد عن حالة التخلف – ونحن في حالة من التخلف لا ننكرها – إنما يكمن في إقصاء الله عن التأثير في حياتنا الدنيا، وقصر مهامه على شؤون الحياة الآخرة لمن يؤمن بالأيلولة إليها.

ثقافة (الآخر) تلك تمثلت في المنهج (السيكيولاري) للحياة، الذي اصطلحوا على تعريبه تعريباً- ربما كان متعمداً – لا دلالة فيه على مضمونه حين اختاروا له لفظ (العلمانية).

بدهي أن (العلمانية) ترجع إلى جذر ثلاثي هو (علم).

بدهي أيضاً أن هذا المنهج – ويعرف ذلك أهله – لا علاقة له بالـ (علم) لا من قريب ولا من بعيد، وإنما هو منهج أفرزته المعركة بين رجال السياسة والكنيسة في أوربا بسبب من النزاع بينهما على سلطة كل منها في الإشراف على شؤون الحياة، حيث كانت الكنيسة – دون تشريع لديها يتضمنه الإنجيل الذي ترعاه وتهتدي بهديه – تحاول الاستمرار في قيادة السلطتين، الدينية والدنيوية، وكان رجال السياسة ينكرون عليها هذا الحق في القيادة، ويرون أن سلطتها يجب أن لا تتعدى شؤون الحياة الآخرة، وأن شؤون الحياة الدنيا إنما هي لأهلها دون تدخل فيها باسم (الله)؛ لأنه لم يرسل تشريعاً للحياة الدنيا ينظم أمورها، وكل ما في الأناجيل التي تم اعتمادها في مجمع (نيقيا) عام (٣٢٥م) إنما تحفل بالعظات والوصايا وسيرة السيد المسيح، دون أي تعرض لتنظيم علاقات البشر بعضهم مع بعض أو مع السلطة الحاكمة خارج نطاق الوعظ والتوجيه نحو فعل الخير، حتى أن الأناجيل المعتمدة تؤكد على حث الناس على عدم التدخل فيما يخص سلطة الحاكم (القيصر) حين تقول للناس: «دعوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله».

بهذا الأسلوب من التستر على المنهج بألفاظ لا تدل عليه دلالة سليمة، تسربت إلى ثقافتنا صيـــغ الدعوة إلى التخـــلي عن كل ما هو (غيبـــي) والأخذ – فقط – بما يفرزه (العلم بالمادة) مع العمل على الإيحاء غير المباشر – والمباشر أحياناً – بأن ثمة تعارضاً بين (الدين) و(العلم) على اعتبار أن (الدين) ذو مرجعيه إلهية غيبية، بينمـــا يعتمد (العلم) على مرجعية الحس والمشاهدة وفق قوانين للمادة محكمة.

ضل القوم أصحاب هذا المنهج، أو لأقل: أضلوا، فهم إما لم يطلعوا على النظام المعرفي للإسلام فراحوا يسقطون حالة الصراع بينهم وبين الكنيســـة علـــى الحالـــة الإسلامية، أو أنهم اطلعوا لكنهم لا يريدون أن يروا للإسلام تميزاً علمياً وحضـــارياً وتشريعياً ليس لديهم ما يساويه أو يدانيه.

من خلال هذه الحالة الطارئة على ساحة الفكر الإسلامي وثقافته فقد أصبح من اليسير أن يحـــاجَ «الخطاب الإســـلامي» بتقدم العلوم المادية وتطورها المتســـارع بينما يقف الإسلام بـــ(خطابه) وبـــ(العلوم المتعلقة بهذا الخطاب) عند غابر مـــن الزمن وماض من التاريخ، الأمر الذي أدى إلى تخلف المجتمع الإسلامي عن اللحـــاق بركب الحضارة الحديثة.

فرية ما بعدها فرية، وفي أحســـن الأحـــوال يمكن القول: إنه جهل بالإســـلام ما بعده جهل، ذلك أن لـــ(التخلف) – ونحن في حالة من التخلف لا ننكرهـــا – أسباباً لا علاقة لها بـــ «الخطاب الإسلامي» سواء في نصه أو في فهمه.

لو أن بين «الخطاب الإسلامي» والتقدم العلمي المادي في العالم الغربي علاقـــة تأثر وتأثير متبادل لما شهدنا النموذج (الماليزي) في تقدمه في مجالات متعددة علـــى العالم الغربي وخاصة في صناعة المعلوماتية، التي أضحت سمة التقدم في عالمنا الحديث، ولا شهدنا النموذج (الباكستاني) الذي استطاع اعتلاء المنصة النووية بجدارة رغـــم

كل المعوقات التي وضعت في طريقة. ولو أردت تعداد المشاهد الإسلامية المتقدمة لما اتسعت صفحات وصفحات.

«الخطاب الإسلامي» ليس دروساً وشروحات في الرياضيات والكيمياء والفيزياء والطب، وإن حث على ذلك كله على وجه الفرضية العينية في حالات والكفائية في حالات أخرى.

«الخطاب الإسلامي» تنظيم لعلاقات البشر مع خالقهم ولعلاقتهم بعضهم مع بعض، وعلاقاتهم مع الكون الذي يشهدونه ويستخدمونه ويعيشون في أرجائه ينهلون من خيراته، عطاءً من خالقه وخالقهم على وجه التكريم والتسخير، وفي هذا كله دفع للناس نحو التقدم والتطور بما يتيحه لهم من النظر فيه واكتشاف كوامنه المشهودة والمخبوءة، والتعامل معه وفق قوانين أودعها فيه الصانع المبدع وحثهم على التعرف إليها واستخدامها على الوجه الذي يحقق الخير والسعادة للناس كافة.

للتخلف والتقدم أسباب أخرى أتيت عليها في كتاب أعده في هذا الموضوع أرجو أن يتاح لي إصداره في وقت غير بعيد، إن شاء الله تعالى، وهي أسباب لا يتسع المجال في هذه الدراسة على بسطها إلا بشكل مختصر، والاختصار في مثل هذه الدراسة لا يؤدي الغرض وربما لا يفيد.

أردت بهذه المقدمة أن أبث إشارات وأضع ملامح يمكن من خلالها فهم الدعوة إلى «تجديد الخطاب الإسلامي» في وجهيه، الوجه المطلوب بالمنهج الإسلامي نفسه والوجه المطروح عليه من خارجه، وشتان بين اثنين أولهما يحقق التجديد وثانيهما يحقق - بعلم أو بغفلة- أبشع صور التبديد، ما يمنع من ذلك إلا وعد الله، صاحب الخطاب: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:٩)، ﴿ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ﴾ (الحج:٤٧).

ثانياً: التعريف بالمصطلحات:

في موضوع له من الأهمية البالغة ما لـ «الخطاب الإسلامي» باعتباره مسعى يمس حالة من حالات القداسة المتأصلة في نفوس أتباع هذا «الخطاب» السائرين على هداه تديناً به، وإخباتاً لصاحبه، فإن اللبس في فهم المصطلح الدال على مضمونه قد يوقع كلاً من الباحث في التجديد والمتلقي لـ (خطاب التجديد) نفسه في مواجهة - لا يمكن ضمان عدم حدوثها - تتعلق بحصول التطابق بين الدلالة التي يحملها (نص الخطاب) ويقصد إيصالها إلى المتلقي الذي يوجه إليه «الخطاب» من جهة و(فهم الخطاب) على الوجه الذي يحمله النص والدلالة التي يطلقها من جهة ثانية، أو عدم حصول هذا التطابق، بسبب من الاختلاف في سلامة (بناء النص) وتحميل دلالته المقصودة منه ألفاظاً قادرة على حملها، وكذلك سلامة (فهم دلالة النص) من خلال الألفاظ الحاملة له، فكلما كانت الصياغة مؤهلة لحمل الدلالة حملاً محكماً وسديداً وكلما كان فهم الدلالة من هذه الصياغة إنما يستند إلى وعي صحيح بهذه الدلالة وفهمها على الوجه المطلوب منها فإن مصطلح «الخطاب الإسلامي المعاصر» يكون قد أدى غرضه دون أي لبس أو غموض.

وهذا يفرض علينا أن نحدد بدقة المعاني المحمولة على ألفاظ المصطلحات التي نطلقها في هذه الدراسة، وكما يلي:

١- مصطلح «الخطاب الإسلامي المعاصر»:

في هذا المصطلح نحن أمام خطاب موصوف بأنه (إسلامي) من جهة و(معاصر) من جهة أخرى. وبهذا فإن أول دلالة تميز هذا الخطاب إنما تتجلى في:

أ- أنه «الخطاب الإسلامي» دون غيره من الخطابات الدينية.

ب- أنه «الخطاب الإسلامي- المعاصر» دون غيره من الخطابات التي تنسب إلى السلف، وفي هذه الدلالة على الوجه المبسوطة آنفاً يبرز الأشكال ويظهر الخلل في صياغة التعبير المقصود.

وبيان ذلك هو أن «الخطاب الإسلامي» واحد لا يختلف في الزمان حتى يصح وصفه بـ(المعاصر) أو بـ (السالف والغابر)، فـ«الخطاب الإسلامي» يتميز بل يتفرد عن غيره من الخطابات أنه إنما يتمثل في (الوحي الإلهي) الموحى إلى محمد ﷺ كتاباً، وفي بيان محمد لهذا الكتاب فيما يعرف بالحديث الشريف والسنة النبوية، وبيان الرسول ﷺ بعض (نص الخطاب) بدليل قوله تعالى: ﴿... وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل:٤٤)

ومثل هذا الخطاب أبدي الوصف، وبذلك لا يخضع لمعايير الزمان والمكان ليصح نعته بهذه المعايير كأن نقول فيه: «الخطاب الإسلامي- المعاصر» أو «الخطاب الإسلامي – اللاحق» أو ما شابه ذلك.

على أن هذا التعبير يستعمل عادة - وفي هذا الاستعمال خطأ يوقع في اللبس- للدلالة على «فهم الخطاب الإسلامي» أو «خطاب الفقه الإسلامي» أو «خطاب علماء الإسلام في شرحه وبيانه» والفرق واضح بين هذا وذاك.

وإذا كان مصطلح «الخطاب الإسلامي» إنما يدل - إن أردت منه دلالة سليمة سديدة - على (مرجعية إلهية)، فإن المصطلحات الأخرى التي سقناها آنفاً إنما تحمل دلالة على (مرجعيه بشرية) فـ (فهم الخطاب) - رغم ضرورة بنائه على دلالات الخطاب نفسه وهو خطاب إلهي - لا يمكن أن يكون إلا (فهماً بشرياً) يتأثر بعوامل بشرية من مثل مستوى التمكن من لغة الخطاب - وهي العربية في أرقى مستوياتها - وأهلية استنباط الأحكام من أدلتها في (نص الخطاب) قرآناً وسنة.

وغير ذلك من مقومات الفهم وأدواته، لذلك نرى تعدد المدارس الفقهية أمراً طبعياً ليس فيه غرابة، ذلك أن فهوم الأئمة وإن اتحدت في غالب الأحكام والشروح فإنها تباينت في بعضها، بسبب من الاختلاف في التكوين المعرفي لكل واحد منهم وفي قدرته على التحليل والتركيب والمقارنة بين دلالة تعبير وآخر يحاكيه ويماثله أو يتعلق به، وهذه كلها عوامل بشرية أودعها الله في عباده حتى يأتي الاختلاف في الفهم بين الأئمة رحمة للناس بما يجعل بين أيديهم من أجوبة مرنة ومتعددة على كثير من قضاياهم ترفع عنهم الحرج وتحررهم من العنت ضمن سعة (الخطاب) الواحد الذي لا يتغير ولا يتبدل.. وبهذا الفهم للمصطلح، يغدو وصف (المعاصرة) مقبولاً لأنه يعني (فهماً بشرياً) يتأثر بعوامل الزمان والمكان.

والقضية التي ترافق هذا المصطلح، أعني «الخطاب الإسلامي»، هي قضية (تجديد) هذا «الخطاب الإسلامي» والدعوة بإلحاح إلى النهوض بذلك، بحيث هذا المصطلح في كتابات المفكرين والباحثين – تحت مظلة (المعاصرة) – يطرح بتعبير «تجديد الخطاب الإسلامي المعاصر» وأحياناً يطرحونه بشكل مختلف عن طريق استبدال (الديني) بـ (الإسلامي) ولكن القصد في أغلب البحوث والطروحات إنما يتجه نحو (الخطاب الإسلامي) تحديداً، وهذا يقتضي منا أن نتعرض لمفهوم مصطلح (التجديد).

٢- مصطلح التجديد:

أ- مدخل إلى بيان المصطلح:

بدهي القول: بأن كل شيء يوجد – أول ما يوجد- جديداً ، ثم تأتي اللحظات التالية لوجوده والأيام والشهور والسنون فيضحى بالنسبة لها حاملاً لوصف آخر يدل على أنه صار (قديماً).

هذا من حيث (الزمان)، فـ (الجديد) و(القديم) إنما هما تعبيران يدلان على (زمان) بحيث يظهر التغاير بينهما بسبب من سبق الوجود.

وبدهي أن تتالي الأيام والشهور والسنين يعرض (الموجود) إلى عوامل تضيف إليه ما لم يكن فيه يوم وجد ولا منه، أو تستر وتخفي بعض ما كان فيه ومنه، فيصبح بذلك غير الذي كان، حيث يطرأ بعض الزور على الصورة الأولى، ويعتريها شيء من التغير والتبديل فلا يرى فيها الرائي ما كان قد رأى، ولا يفهم من إيحاءاتها ما كان قد فهم حتى ليظنها أمراً آخر وقضية أخرى.

للموجود – لحظة يوجد – غاية تحققها جدته في الوجود، وتدل عليها صورته التي صور بها ليدل على ذاته دون سواه.

على أن للعربية من (الجدة) و(الجديد) و(التجديد) دلالة مختلفة، و(الجديد) من (الجدة) بمعنى (القطع)، و(الجديد من الشيء) (المقطوع)، فأين تكون نقطة التلاقي بين (الجديد) في الزمن المغاير لـ (القديم) و (الجديد- المقطوع)؟

المتعارف عليه بين أهل الخطاب بالعربية استعمالهم لفظ (الجديد) وهم يعنون به (الحديث)؛ و(الحديث) في العربية هو (كون الشيء لم يكن) من قبل، فأصبح بالتكوين (حدثاً) وهذا مطابق لمعنى قولنا آنفاً: (بأن كل شيء يوجد- أول ما يوجد – جديداً) أي أنه (يحدث – أول ما يحدث – بتكوين لم يكن عليه من قبل).

ومن هذا التلاقي في دلالة مصطلح (التجديد) مع مصطلح (الحداثة والتحديث) يتضح أن القوم- أعني دعاة التحديث والتجديد – إنما يعبرون عن دعوتهم إلى ذلك ودعواهم فيها بأحد هذين اللفظين لا يخرجان عنهما.

ب- المصطلح بين التخصص والتعميم:

بعد هذا البيان للمصطلح، هل تصح الدعوة إلى تجديد «الخطاب الإسلامي» بعيداً عن عمومية «الخطاب الديني»؟

كنت ذكرت آنفاً في شرح مصطلح «الخطاب الإسلامي» أن بعض الكتاب والمفكرين ربما خلطوا بين (الخطاب) الذي يعني (النص الإسلامي المقدس) المتمثل

في القرآن والسنة المبينة له في أحاديث الرسول ﷺ من جهة و(فهم الخطاب الإسلامي) أو (خطاب الفقه الإسلامي) أو (خطاب علماء الإسلام في شرحه وبيانه) من جهة أخرى.

أما (الخطاب) بالمعنى الأول: فهو (خطاب إلهي) لا يخضع لوصف (الجدة) أو (الحداثة) ولا تجوز عليه عبارات (التجديد) و(التحديث) فهو (قديم) في الوجود قدم صاحبه، لأنه كلامه، وكلام الله ليس (جديداً) ولا(حادثاً) ، وإلا كان (مخلوقاً) كما توهم (المعتزلة) وأوهموا بذلك، وفتنة القول بـ (خلق القرآن) معروفة وهي من القضايا الفلسفية الكبرى التي امتُحن بها علماء المسلمين وأئمتهم منذ عصر المأمون، وما يزال بعض آثارها منبثاً فينا إلى الآن، وما تزال قلة من المفكرين المخلصين لله وكتابه وللرسول وبيانه يرصدون ظاهرة الارتداد إلى زمن الفتنة تحت طروحات ودعاوى مختلفة تخترق بها ساحة الإسلام في نظامه العقدي، ويحاول المخترقون قدر طاقتهم الكتابة في ذلك وإلقاء المحاضرات والمشاركة في المناقشات والحوارات لتثبيت طروحاتهم ودعاواهم بكل ما أوتوا من إمكانيات في مختلف وسائل الإعلام والنشر والأندية.

ومما يؤسف له أن الكثرة ممن آتاهم الله سعة في العلم والمعرفة وأقامهم ورثة لأنبيائه، يحملون بعدهم مهمة تبليغ (خطابه) وبيانه، يعزفون عن الخوض في هذه الظاهرة ودحضها، ولست أدري لذلك – على وجه مقبول – سبباً.

وأما (الخطاب) بالمعنى الثاني: فإن طلب (تجديده) يشكل مطلباً أساسياً في منهج تكوين الفكر الإسلامي بالحث على تنمية البحث والتفكير والنظر والتقييم عصراً إثر عصر وجيلاً إثر جيل.

على أن ما يحاولون – أعني بعض دعاة التجديد والحداثة – بثه والعمل بإلحاح ودأب على ترسيخه كأداة من أدوات (فهم الخطاب) هو أن «الخطاب الإسلامي

إلهي في أصله قبل إنزاله بشري بعد إنزاله» يحاولون بذلك اختراق ثـــابتي (قداســـة النص) و(خروجه عن مفهوم الزمان).

بعد ذلك كله آن الأوان لبسط مفهوم (الخطـــاب الإســـلامي) والـــدعوة إلى (تجديده) من المنظور الذي أسس له الإسلام في أصول منهجه لإعادة النظر والتقييم بشكل دائم ومستمر.

ثالثاً: منهج الإسلام في التجديد:

يقوم منهج الإسلام في التجديد على أساسين:

الأساس الأول: مستمد من القرآن الكريم، وهو يتمثل في الدعوة والحث علـــى ممارســـة الأنشطـــة التي تجعل (الخطاب) المتمثل في النص الإلهي وبيانه مـــن قبـــل الرسول ﷺ (خطاب حقائق) ثابتة تؤيدها أدوات البحث العلمي، التي لا تقبل نتيجة علمية بدون استخدامها.

ذلك أن ظاهرة لا يمكن فهمها إلا من خلال استخدام هذه الأدوات التي تبـــدأ بالنظر وإعادة النظر مراراً وتكراراً تحاشياً من الوقوع في وهم أو خطأ، لتمـــر عـــبر محاكمات عقلية تقارن الظواهر وتستخلص النتائج الراجحة بعد تدبر واف وتفكـــير كاف، لتنتهي بعد ذلك كله إلى ما يتقرر لدى الباحث أنه الحقائق.

ولئن كان هذا مطلوباً لفهم المشهود من الظواهر الكونية فإن المستور منها إنما يتم الوثوق بحقيقة وجوده من خلال الثقة الكاملة والمطلقة بـــ «الخطاب الإســـلامي» في نصه المقدس وبيانه بعد أن أثبت النظر في مقولاته أنها حقائق، بالأدوات التي أشرنا إليها.

و«الخطاب الإسلامي» لا يكتفي بما ثبت من حقائق - في عصر من العصـــور- على أنه يمثل الحقيقة التي تغني عن إعادة النظر فيها، وإنما تضمن حثاً وإلحاحاً علـــى

ديمومة القيام بمهام البحث والنظر، عصراً بعد عصر وجيلاً بعد جيل؛ وأسوق بين يدي ذلك كله بعض آيات النص الإلهي على سبيل المثال لا الحصر:

١- ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾

﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف:١٨٥).

هل هنالك حث على النظر أبلغ من هذا؟ فإن لم ينظروا — والنظر أداة المعرفة الأولى بالحقائق - فإنهم لن يؤمنوا بأي بحث عن أي حقيقة.

٢- ﴿ كَانَتْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴾ (المؤمنون: ٦٦)

﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ (المؤمنون:٦٧).

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (المؤمنون:٦٨).

هل من نعي أبلغ من هذا على من يفضلون السمر واللهو وإنفاق الوقت بلا فائدة على أن يتدبروا أيات الله تتلى عليهم؟

٣- ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (آل عمران:١٩٠)

﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (آل عمران:١٩١)

ولئن كان في الآيات الآنفة الذكر من (الأعراف) و(المؤمنون) ما يصور حال ومآل فريق من الناس لا ينظرون في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله ويفضلون السمر واللهو وإنفاق الوقت عبثاً فإن المؤمنين بالله وكتبه حقاً وصدقاً يذكرون الله في كل حال يكونون عليه بالتفكير (في خلق السموات والارض)

ليصلوا بعد هذا التفكير إلى أن الله عز وجل إنما خلق ذلك لغاية وغرض ولم يخلقه لهواً و عبثاً، فيجهرون بهذه الحقيقة التي توصلوا إليها ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

إنه تصوير ما مثله تصوير، وبيان ما مثله بيان، حيث تم ربط (مفهوم الذكر) بـ(مفهوم الفكر) بـ(مفهوم الإقرار والإيمان) بـ(مفهوم الخشية من عذاب النار) فيما لو ضلوا عما وصلوا إليه من حقائق هذا الكون بالنظر والتدبر والتفكير.

٤- ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الجاثية:٣).

﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (الجاثية:٤).

و﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الجاثية:٥).

أما تلاحظون معي ارتقاء بلاغه (الخطاب) في هذا النص ذي الآيات الثلاث من حيث افتراقها في (تعيين المخاطب) واتفاقها في (تحقيق أغراض الخطاب)؟

الآية الأولى: موجهة للمؤمنين بأن في السموات والأرض آيات إيمان تصديق وتسليم.

الآية الثانية: موجهة لقوم يؤمنون بأن خلقهم وخلق كل ما يدب في الأرض دليل على الخالق.

الآية الثالثة: موجهة لقوم يعملون عقولهم في فهم اختلاف الليل والنهار وإنزال الغيث من السماء حياء الأرض بذلك الغيث بعد موتها وتصريف الرياح فيهتدون إلى الفهم السليم بدلالة (العقل) الذي هم من أهله.

والغرض من ذلك كله هو (إيصال الخطاب) إلى (المخاطبين) به حاملاً لدلالته بشكل سديد وسليم فيتلقوها بالفهم كما أريد منها، حيث توافقت الإرادات، (إرادة المخاطب) و (إرادة المخاطب) ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأنعام:١٤٩).

الأساس الثاني: مثل حرف الأساس الأول، مستمد من بيان الرسول ﷺ للنص الإلهي، وفي هذا البيان :

أ- تأكيد على استمرار عمليه النظر وإعادة النظر للحفاظ على «الخطاب الإسلامي» - إن في نصه أو في فهمه - جديداً لا يلحق به ما ليس منه، ولا ينقص منه ما هو ثابت فيه، مع الوعد الإلهي بديمومة هذه العملية إلى يوم الدين.

ب- وضع منهاج وخطة عمل لهذه العملية حتى لا تتعرض للعبث ولا تستغل في غير ما يراد منها؛ وأسوق بين يدي هذا الأساس حديثين للرسول ﷺ فيهما جماع الأمر كله.

الحديث الأول: عن أبي هريرة، رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**»[1].

في هذا الحديث تأسيس للتجديد وإعادة النظر، ليس مرهوناً برغبة البشر واختيارهم، بل لعل في صياغة هذا الحديث ما يشعر بأن القضية مقدرة بالعناية الإلهية فهي واقعة لا محالة.

وليس من الفطنة في شيء أن ننظر إلى (السنة) بمعناها الحسابي وإنما علينا أن ننظر إليها بمعناها الدلالي، الذي يشير إلى فترات في مسيرة المجتمعات أشير لها بـ(مائة سنة)

---

(١) أخرجه أبو داوود والحاكم والبيهقي.

للتقليل لا للتحديد، كما يشير استخدام تعبير (على رأس) في صياغة الحديث إلى أنه ما تمر مئة سنة إلا ويكون قد أرسل لهذه الأمة من يجدد لها دينها، والله اعلم.

إن (مائة سنة) حتى لو كانت للتحديد افتراضاً لا تعني مدة بعيدة في عمر المجتمعات وبنائها الفكري وتكوينها العقائدي، بل إنها ما تكاد تكفي لأكثر من أن يتلقى المعرفة وليد عن والده وطالب علم عن شيخه.

أضف إلى ذلك أن الحديث لا يفيد تحديداً بـ (واحد) فقط يبعث لهذه المهمة على رأس المائة سنة، وكلما تزايدت الأمة واتسعت في الزمان والمكان كلما كانت الحاجة أكثر لعدد أكثر، ونص الحديث لا يمنع من ذلك بل لعل في دلالة حرف الجر (من) ما يشير إلى عدد يكفي لأداء المهمة لا إلى واحد فقط.

والمهمة المطلوبة من هذا المبعوث العتيد واضحة ومحددة، ليس فيها أي لبس أو غموض، ألا وهي أن (يجدد لهذه الأمة دينها).

وعلى فهم وإدراك دلالة (التجديد) الواردة في هذا الحديث الشريف تترتب آثار في غاية الأهمية من حيث تأثيرها على مسار التفكير الإسلامي، ومن قبيل البيان والتوضيح نقول:

أ- إنه لا يجوز بحال من الأحوال فهم العبارة الواردة في الحديث (يجدد لها دينها) بما يسمح بنشوء (دين جديد) فلا الحديث يهدف إلى بث مثل هذا الفهم ولا اللغة العربية في أصولها من النحو والصرف تسمح بذلك، ولا عمل الصحابة والتابعين والأئمة الأعلام في الأمة فهموا الأمر على هذا النحو في يوم من الأيام، إلا قلة ممن يحاولون اختراق (الخطاب الإسلامي) بنصه وبيانه تحت ستار الدعوة إلى التجديد وهم يهدفون إلى الإتيان بـ (دين جديد) وبثه، بدعوى أن (نص الخطاب) أصبح بإنزاله على محمد ﷺ (نصاً بشرياً) ففقد بذلك صفة (النص الإلهي)[1].

---

(١) انظر: نصر حامد أبو زيد في كتابه (مفهوم النص) ود. محمد شحرور في كتابه (الكتاب والقرآن وأمثالهم من الكتاب) وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك.

- إن مناقشة مثل هذه الدعوى ودحضها أمر يسير، إلا أن البحث فيه هنا يأخذ مساحة تطغى على مواضيع أخرى فيه، وعلى من يريد المزيد من المناقشة والإطلاع على هذا الموضوع ودحضه مراجعة كتابنا (الماركسلامية والقرآن) حيث فيه الرد الوافي والكافي على ذلك كله — فيما نعتقد-.

ب- إن (التجديد) بالمعنى السليم له إنما يعني - كما أسلفنا قبل - إعادة الشيء جديدا كما كان عليه الحال يوم وجد، وذلك بإزالة ما زاد عليه مما ليس منه وما نقص مما هو منه.

- على أن المسألة التي تطرح من قبل دعاة الاختراق بدعوى التجديد هي مسألة العلاقة بين (التجديد) من جهة و(التراث) من جهة أخرى، وأنك تجد كتاباقم لا تخلو من الربط بين الأمرين بشكل يكاد يوحي بأن التراث أشد الأمور إعاقة لعملية (التجديد)، وهذا طرح إن دل على شيء فإنما يدل على جهل بمفهوم التراث، وعجز عن تسويق (التجديد) بلا اصطناع هدف معاد حتى يكون للدعوى مبرر وللطرح سبب.

- التراث يشكل ذاكرة الأمة - أية أمة - في شتى المناحي التي تدخل هذه الذاكرة وتستقر فيها، وهو أحد أهم الصفحات التي تقرأ فيها ملامح التكوين الحضاري للأمم، وبدهي أن تكون فيه سمات سلبية وسمات إيجابية لا تخلو حضارة أمة وتراثها منها أبداً.

والنظرة السليمة للتراث أن يفهم على أنه (ليس بالصنم الذي يعبد)، وفي نفس الوقت (ليس بالثوب المتسخ البالي) الذي تعاف أمة التراث أن تلبسه وتكتسي به مظهراً تقرأ فيه ذاكرها الحضارية، التي تبرر لها وتفسر ما أنتجته هذه الحضارة من ثقافة وأدب وقانون وفن.

وفي الحالة الإسلامية، فإن التراث أحد القضايا التي تخضع لمنـــهج الإســـلام في التجديد والذي وضع بيانه محمد ﷺ في الحديث الثاني التالي:

الحديث الثاني: عن معاذ بن رفاعة عن عبد الرحمن العذري أن رســـول الله ﷺ قال: « **يحمل هذا العلم من كل خلف عُدُولُه، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**»[1].

ذلك أن أظهر الأمور التي تطرأ على (الخطاب الإسلامي) في نصه الإلهي وبيـــان الرسولﷺ لهذا النص إنما تتأتى عن أحد هذه المحاور الثلاثة على الأعـــم الأغلـــب، وربما صدر ذلك عن الغالين أو المنتحلين أو الجاهلين بحسن نية وشدة غيرة وحـــرص على الإسلام، وربما صدر بقصد الميل عن الهدى واختطافه إلى حيث التيه والضلال، ومسيرة الإسلام شهدت ألواناً من الحالتين.

لقد كان في موقف (الخوارج) من قضية التحكيم بين علي ومعاوية، رضـــي الله عنهما، أكبر شـــاهد على ذلك، فلا أحد يمكنه أن يتهم (الخـــوارج) في تدينـــهم وقيامهم بالتكاليف التي أتى بها الإســـلام، ســـواء فيما أمر به أو فيما نـــهي عنـــه بـــ (النص) أو بـــ (البيان)، إلا أن (فهمهم) للنص وبيانه معاً أدى بهم إلى المغالاة في التمسك بـــ (حرفية النص)، الأمر الذي أوصلهم إلى نوع من (تأويله) أقـــرب إلى الجهل بدلالته من العلم بها، وقد كانت نتيجة ذلك ما هو معروف من فرقـــة بـــين المسلمين ما نزال نعاني منها حتى الآن.

ولئن كانت (المغالاة) تؤدي إلى (الانحراف بـــ بفهم الخطاب) في نصه وبيانه عـــن سواء السبيل، فإن هذه الظاهرة أوضح من أن تخفى وأيسر من أن تستتر، كذلك فـــإن

---

(١) أخرجه الحافظ العلائي في بغية الملتمس، والإمام أحمد عن معاذ عن القاسم بن عبد الرحمن وحققه الألباني في (مشكاة المصابيح).

(الغالين) ما أن يظهروا في زمن حتى يتم الرد عليهم ودحض مواقفهم وإظهار الحجة عليهم في الزمن نفسه، ومن معاصريهم، فتخف حدة الغلو وتعود الأمور إلى الجادة القويمة، وتتم محاصرة الغلاة والغلو في أضيق الحدود بغلبة (سواء السبيل) على ما انحرف منه، ولو أردت سرد أمثلة على ذلك لملأت صفحات، وفي مثل (الخوارج) كفاية.

وفي المعركة بين إسلام (النص وبيانه) من جهة والراغبين بإخراج (الخطاب الإسلامي) عن مرجعيته الإلهية وإدراجه في (مفهوم النص البشري) والنظر إليه على أنه كذلك من جهة أخرى يكثر المؤيدون والمعارضون لهذا الفريق أو ذاك، بالحق وبالباطل، فترى أناساً ينتحلون فهم الإسلام والعلم به، بل والضلوع في هذا العلم وهم لا يكادون يتقنون قراءة أية من نصه قراءة سليمة، بله فهمها على الوجه الصحيح واستنباط دلالتها، بل لو أنك سألتهم عن مسألة يسيرة في فقه أو نحو أو ما شابه ذلك مما لابد منه لطالب علم قبل أن يكون عالماً لرأيت في وجوههم الإنكار وفي ردهم العثار، فلا يملكون إلا التمول بسرد الأعذار، ومع هذا يدلون بدلوهم فيفتون دون أن يستفتوا، ويشهدون دون أن يستشهدوا، ولقد حذر الرسول ﷺ في أمثال هؤلاء، حين تجف منابع العمل بين الناس بقبض الله العلماء «...**حَتَّى إِذَا لَمْ يَتْرُكْ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالاً، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»[1] فكيف بنا إذا تصدر لذلك وبرز من هم على هذه الشاكلة، مع وجود العلم والعلماء، كما هو الحال في زمننا هذا؟

ولله در عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، كما أفادتنا قراءة التاريخ، عندما وثق وجود أمثال هؤلاء في عصره حين قال: «لقد عشنا برهة من دهرنا وأن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد ﷺ فنتعلم حلالها وحرامها،

(١) أخرجه مسلم.

وما ينبغي أن يوقف عليه منها، ولقد رأينا اليوم رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يدري ما آمره ولا زاجره ولا ما ينبغي الوقف عنده منه»[1]. ومع هذا ترى أمثالهم في عصرنا هذا يتصدرون المجالس لينظر الناس إليهم على أنهم حملة القرآن وأهله، وهم - في تصدرهم المجالس - فرحون بأن ينظر إليهم على أنهم كذلك، فيتخذون صفة أهل العلم انتحالاً، ويبثون بين الناس، عن حسن قصد أو سوئه، أباطيل ما أنزل الله بها من سلطان.

على أن أخطر هذه الفئات هم أهل التأويل، الذين مُنعوا من ذلك بنص صريح في الآية السابعة من آل عمران ولم ينتهوا، بل ركبوا متن التأويل، وتأويل المتشابه بالذات، فأساءوا إلى «الخطاب الإسلامي» بشكل أبلغ أثراً في نصه وبيانه وفهمه، وبما لم يحققه أي سبيل من سبل الإساءة الأخرى وأساليبها، ذلك لأن أثر التأويل إنما يخدم الهدف منه وهو إحداث الفتنة؛ من باب التأويل تفرق المسلمون شيعاً، وظهرت الحركات الباطنية، سواء بلباس التصوف أو الفلسفة، ولم يمنع المؤولين وصفهم بالزيغ في آية آل عمران السابعة.

لقد كان باب التأويل أوسع الأبواب للانحراف بالإسلام انحرافاً خطيراً، ولو كان المؤولون يفقهون القرآن على حقيقته - وهم مؤمنون - لما أولوا، ولكنهم على الأغلب جهلة بدلالاته، أو جاحدون لهذه الدلالة منكرون لها في قلوبهم وعقولهم فيتخذون التأويل ساتراً لهم في محاولتهم اختراق «الخطاب الإسلامي».. وإنني لا أبالغ في القول: إن زعمت أن سيرة «الخطاب الإسلامي» عبر التاريخ مرت بالمراحل التالية:

---

(١) السيوطي،الإتقان، ٢٥٨/١.

- مرحلة القرآن المنـــزل على محمد ﷺ وبيانه لهذا القرآن بوحي وإلهام إلهيين.
- مرحلة القرآن المؤول، الذي ألقى على «الخطاب الإسلامي» مـــن الأثقـــال والأحمال ما تكاد وأن تبوء به الجبال.
- مرحلة القرآن المبدل: التي نحن على أعتابها إن لم يصرفها عنا كونه إلهي، نحـــن اليوم أحوج إليه من أي يوم مضى، لسعة أهل التأويل وقلة حيلة أهل التنـــزيل ودعاة التمسك به والزود عنه بكل وسيلة مهما ضعفت ووهنت، والله غالب على أمره.

وعلى مارسمه الحديث الثاني فإن مهمة المبعوث الذي يشـــير إليه الحديث الأول إنما هي في أساسها للتصدي إلى الفئات الثلاثة: (الغلاة) و (المنتحلين) و (المـــؤولين) لنفي آثار (الغلو) و(الانتحال) و (التأويل) عن «الخطاب الديني» بمجمله من (نص) و(بيان) و (فهم) ليعود كما كان جديداً لم يمسه غبار و لم يتراكم عليه.

ولئن كان «الخطاب الإسلامي» في (نصه وبيانه) يشكل تأسيســـاً لا يعتريـــه تغيير ولا تبديل فإنه في (فهمه) بشـــري يخضع لظروف البشر ومعاييرهم في الفهم، وما كانت الحاجة ماسة وملحة إلى التجديد أصلاً في المنهج الإسلامي - كما أثبتنا ذلك في الحديثين السابقين-إلا بســـبب من (بشرية الفهـــم)، وما كان (الغـــــلو) و(الانتحال) و(التأويل) إلا وصفاً لتصرفات بشرية قاد إليها فهم بشري، بريئاً كـــان هذا الفهم أم مغرضاً.

لذلك كان (فكر التجديد) من أسس المنهج الإســـلامي لحمايـــة «الخطـــاب الإسلامي» وصيانته من العبث، وإبقائه جديداً إلى أن تقوم الساعة، باعتباره (خطاباً إلهياً) لا تخضع جدته لمقاييس (الزمن في مفهوم البشر)، وبالتالي فهو (جديـــد كـــل عصر)، وهو (جديد في كل عصر)، وســـتبوء بفشل ذريع شنيع كل محاولة لإنشاء ونشر (إسلام جديد) مهما استترت بأردية لا تفيد ســـتراً، من مثـــل الـــدعوة إلى

«تجديد الخطاب الإسلامي»، وذلك أن هذا الخطاب يحمل أدوات تجديـده معـه وبشكل دائم ومستمر.

على أن الأمر الذي يجب التنبه إليه دائماً وأبداً هو أن الإسلام دين، وأن الدين عندما يكون إلهياً موحى به إلى البشر عبر الرسل، فإنه يتكون من منظومة معرفية تم تكوينها على عدة مراحل، وبالتالي فإن عملية تجديده يجب أن تأتلف مع طبيعة هذه المراحل ومضامينها.

بالنسبة للخطاب الإسلامي فإنه لابد من معالجة الأمر على أساس من النظر في هذه المرحلية وأخذها بعين الاعتبار.

رابعاً: مراحل تكوين الخطاب الإسلامي:

لقد مر «الخطاب الإسلامي» بالمراحل التالية:

١- **مرحلة (إنزال النص)**: الذي يمثل كلام الله عز وجل عن طريق الإيحاء بـه إلى الرسول ﷺ نصاً بلفظه ومعنـاه ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ ...﴾ (آل عمران:١-٤) .

٢- **مرحلة تكليف الرسول ﷺ بإبلاغ (النص المنـزل) إلى البشر كافـة**: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (المائدة:٦٧).

٣- **مرحلة تكليف الرسول ﷺ** بمهمة أخرى هي **مهمة (بيان) النص المنـزل والمبلغ**، وشرحه للناس، والكشف عما يكون قد التبس على بعضهم فهمه، وهو بيـان

موصى به أيضاً من الله تعالى لكنه لا يوصف بأنه كلامه وإنما هو كلام النبي ﷺ وحديثه وسنته أفرغ فيها (البيان الموصى) ليقدم للناس وفق ضرورات الحاجة إلى البيان: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل:٤٤)

٤- مرحلة (فهم النص) المنزل: وهو فهم يختلف بالضرورة وفق معايير الزمان والمكان التي أنتجت وأظهرت ثقافة (جيل ما) في (مجتمع ما)، بعناصرها المعنوية والفلسفية والمادية، وما إلى ذلك من مكونات تماثل ماهو موجود في ثقافة أخرى أو تغايرها في قليل منها أو كثير.

في هذه المرحلة الأخيرة، مرحلة (فهم النص)، يظهر أثر المنهج الإسلامي في (تجديد خطابه)، سواء في إعادته لقراءة ما قد سلف من هذا الفهم مكوناً لـ (تراث) الأمة، أو في قراءة ماينزل في الأمة أو يفد إليها من ظواهر وأحداث لم تكن فيها من قبل، وإمعان النظر في هذه النوازل المستحدثة للحكم عليها بهذا الوصف الإسلامي الذي تقع في دائرته أو ذاك مما يحدد للأمة - جماعة وأفراداً - الموقف الإسلامي من الحدث، قبولاً أو رفضاً.

خامساً: النظر في خطابي (التراث) و (جديد الأحداث):

١- خطاب التراث:

إن (إعادة النظر) في (خطاب التراث) لا يمكن أن تهدف إلى (إعادة صياغته)، مهما كانت دوافع إعادته الصياغة نبيلة فرضاً، لأن في ذلك تشويهاً لوصفه بأنه (تراث)، فهو من إنتاج أهله، في زمن أهله، وحسب مقتضيات وحاجات أهله، ضمن الظروف والمعطيات التي أحاطت بأهله فأدت بهم إلى (فهم النص وبيانه) على الشكل الذي نقل عنهم وامتد أثره وتطبيقه في الزمان مادامت الظروف والمعطيات

التي أنتجته قائمة لم تتغير، وكانت الحاجات ذاتها، رغم استمرارها عبر أزمنة لاحقة، لزمن ظهورها، لم تتطلب معالجة أفضل - بل لأقل لم تظهر لها معالجة أفضل - ذلك أنه ليس من التجديد في شيء أن نعيد صياغتها ونستبدل بها حلولاً قد لا تعطينا مفاعيل أفضل وأنضج.

وحتى مع اختلاف الظروف والمعطيات وتخلف الحاجة إلى حل مشكلة ما، وغياب هذه الحاجة، فإن إبقاء حلها في (تراثنا الثقافي) كما صاغه أهله أوفى للأمانة على التراث، باعتباره سجلاً أميناً يوثق ذاكرة الأمة الحضارية والثقافية والتاريخية، وهي - لدى كل الأمم والمجتمعات - تشكل ثروة لا تقدر بقيمة أو تقوَّم بثمن، سواء تبين فيما بعد موافقتها للتطور العلمي اللاحق أو مخالفتها له، لأن ذلك شأن آخر له مكان آخر في دراسة التاريخ المقارن.

ولا يصرفنا عن هذا المنهج في النظر إلى التراث محاولات (آخرين) تدفعهم (أيديولوجيات أخرى) يختلف خطابها مع «الخطاب الإسلامي» اختلافاً جذرياً يبدأ من الأصول - أن يضعوا أيديهم على التراث انتزاعاً له واغتصاباً من أيدي أهله وأصحابه وليعلنوا على لسان أحد دعاتهم ومنظريهم - توفيق سلوم - في كتابه (نحو رؤية ماركسية) وبشكل صريح أن أنصار المادية التاريخية (يطمحون لأن يكونوا - حسب تعبير لينين - هم الحافظين للتراث والأكثر أمانة له)، في حين يروج آخر من نفس هذه المدرسة ومنظريها - سمير أمين - إلى الأخذ بما يكون في التراث ذا طابع تقدمي مثل ابن رشد وابن خلدون، ورفض ما هو ذو طابع رجعي مثل الغزالي؟[1]

(١) للإطلاع على المزيد من هذا الموضوع راجع كتابنا: الماركسلامية والقرآن (بيروت: المكتب الإسلامي) ص ٢٣٤ وما بعدها.

على أن موقف المنع من (إعادة صياغة التراث) يجب أن لا يفهم بأي حال من الأحوال على أنه منع من محاولة (تقويمه)، ذلك أن عملية التقويم ضرورية وفاء لـ(منظومة التراث) ذاتها في أسس تكوينها من جهة، ووفاء لـ (تاريخ التراث) من حيث ضرورة التحقيق في صحة الوقائع المنسوبة إليه، لتتشكل من كل ذلك (وجهة نظر) تضاف إلى هذه (المنظومة الموروثة)، من قبيل تسليط الأضواء على إيجابيات الحلول السابقة وسلبياتها، وكذلك تصحيح الوقائع الموروثة بعد دراستها دراسة تؤكدها أو تنفيها، كل ذلك دون (إعادة الصياغة)، وبحيث يبقى ما وصلنا كما وصلنا مضافاً إليه تقييمنا له، وبذلك تتحقق أمور أربعة:

الأمر الأول: الوفاء للتراث، بعدم تحريفه، سواء رضينا عما يحمله أم لم نكن راضين.

الأمر الثاني: أمانة النقل، سواء كان المنقول صحيحاً في حدوثه على الوجه الذي نقل أم لم يكن.

الأمر الثالث: النهوض بمسؤولية التحقيق في صحة الحدوث، حتى يتم تأكيد الحدث كما نقل أو تأريخه مجدداً – وبعد التحقيق - كما يثبت أنه حدث، دون أي محو لما كان قد نقل.

الأمر الرابع: وهو الأهم، إنما يكن في التعرف على ما لا يزال يشكل الحلول المناسبة والأفضل، وتلك التي لا بد من إعادة البحث عن بدائل لها بسبب من تغيير وسائل (فهم الخطاب) على صورة أكثر ملائمة أو بسبب تغيير في مكونات الحل التراثي، وبسبب أن هذا الذي طرأ من التغيير لو كان حاصلاً قبل صياغة (الحل الموروث) لكان صنع بشكل آخر ووصلنا إرثاً آخر.

وحتى لا يبقى الموضوع نظرياً بحتاً فإنني سأسوق أمثلة سريعة على المراحل الأنفة الذكر.

فمثال (الوفاء للتراث) بعدم تحريفه، رضينا به أم لم نرض، نجده في ما نقل لنا في فقه السلف فيما يخص من كتب الله عليه أن يؤسر في الحرب بين المسلمين والكفار من أحكام، حيث الفقه في هذا (فقه – وهو فقه أقر العدل بأسمى صوره – أوصاف لهذا الأسير مثل العبد) و (الرقيق) و (الآبه) و (المملوك) وما شابه ذلك. حتى ليكاد المرء أن يظن بأن (نظام الرق) إنما هو مما أتى به الإسلام وأسس له القواعد وأقام له المسوغات والمبررات.

لست أدري لماذا تتردد هذه الأوصاف بهذه الألفاظ في (الفقه الموروث) مع أن الإسلام لم يأت بـ (نظام الرق) أبداً، وليس هو المسؤول عن هذا النظام، وإنما أتى الإسلام و (الرق شرعة الأمم من قبله) ويقوم على أساس (المعاملة بالمثل).

لم يكن أمام الإسلام والمسلمين – وهم يخوضون الحروب مع أعدائهم، يؤسر منهم ويأسرون، يغنم منهم ويغنمون – أن يقبلوا بأدنى من نظام (المعاملة بالمثل) حتى يكون ذلك ورقة بيدهم يفاوضون عليها أو يرهبون أعداءهم باستعمالها مقابل استعمال الأعداء لهذه الورقة.

لكن الإسلام مع كل ذلك لم ينظر إلى هذا الذي قُدِر عليه الأسر إلا على أنه بشر، له كل الحق في المطالبة وفي السعي لأن يحيا كما يحيا كل البشر، أحراراً من كل عبودية إلا لله، فأقام وأسس لـ (نظام العتق) بحيث يغدو من اليسير على من قدر عليه ذلك أن ينال الحرية، يكفيه لذلك أن يقع وليه في معصية من المعاصي الخفيفة التي لا يكاد ينأى كثير من الناس عن ارتكابها حتى تكون كفارة هذه المعصية (عتق رقبة).

لست أدري كيف فهم أسلافنا المسألة بشكل مختلف أوقعهم في تناقض بين النص وبيانه، فهم في ماصنفوه في هذا الباب أدركوا المسألة إدراكا سليماً حيث أدرجوها تحت (باب العتق)، وهذا في منتهى الدقة في التعبير والصدق في توجيه الدلالة. فالقرآن الكريم لم يأت على ذكر لفظ (الرق) بالراء المكسورة المشددة ولو مرة واحدة، ولكنه حفل كثيراً بألفاظ الـ (عتق).

إلا أن هؤلاء الفقهاء الكبار عندما يفصلون الأمر ويشبعونه بياناً – وهم في صدد استنباط الأحكام المتعلقة بهذه الفئة من الناس – فإنهم لا يحرصون على إدراج مفردات النص ويستبدلون بها من الألفاظ والمفردات ما قد يؤدي إلى فهم آخر.

إنني من على هذه الصفحات أوجه النداء إلى الفقهاء المعاصرين، وأدعوهم إلى استعمال ألفاظ أخرى تدل على معنى (العتق) ولا توقع في منطقة أن الإسلام أتى بـ(نظام الرق).

أما عن (**أمانة النقل**) و (**مسؤولية التحقق من صحة الحدث**) فإنني أسوق مثالاً على ذلك قصة (التحكيم بين علي ومعاوية) رضي الله عن كل منهما، بما هو أهل له.

ما تزال هذه القصة تنقل إلينا وكأن (أبا موسى الأشعري) رضي الله عنه، كان من الغفلة والسذاجة بحيث استطاع (عمرو بن العاص) رضي الله عنه، أن يلتف على ما اتفقا عليه فيعلن (تثبيت صاحبه معاوية) بعد أن قام أبو موسى بـإعلان (خلع صاحبه علي) فينتهي الأمر على هذا، وجمهرة المسلمين الذين حضروا لسماع إعلان نتيجة التحكيم شهود على ذلك، راضون بطريقة الإعلان وبالحكم المعلن من أحد المحكمين دون المحكم الآخر.

فلئن كان في (أبي موسى) غفلة وسذاجة جدلاً – وهو يقيناً ليس كذلك – فهل كان باقي المسلمين الذين شهدوا الإعلان مثل ذلك؟

ولئن كان (عمرو بن العاص) على هذا المستوى من المكر والخديعة والتحايل في أمر خطير النتائج على مسيرة الإسلام والمسلمين في حاضرهم ومستقبلهم جدلاً - وهو يقيناً ما كان كذلك - فهل كان باقي المسلمين الذي شهدوا الإعلان ليتقبلوا ذلك؟

ثم، هل كان الإمام علي، رضي الله عنه، وأرضاه، ليذعن لخديعة ومكر وتحايل وهو من هو فطنه وذكاء وعلماً؟

هل كان (الخوارج) أكثر وعياً وأشد حرصاً على الإسلام والمسلمين في حاضرهم ومستقبلهم من علي، رضي الله عنه، وسائر الصحابة المعاصرين للحدث وجماهير المسلمين فهبوا وحدهم لرفض التحكيم ونتائج التحكيم؟

أما ترون أن القصة كما نقلت لنا في روايات نسبت إلى السلف وأصبحت جزءاً من (تراثنا) إنما هي مثار مئات من التساؤلات التي تحتاج إلى إجابات مقنعة؟ إنني من على هذه الصفحات أيضاً - أوجه النداء للعمل على إعادة النظر في الروايات المنقولة لهذه القضية، لا بقصد محوها من (منقول التراث) وإنما لبيان حقيقة الحدث كما حدث، وضمه إلى الرواية المنقولة، لكي يكتمل مخزون التراث، بعرض ما كان صادقاً منه وتصحيحاً لما لم يكن كذلك.

٢- خطاب النوازل وجديد الأحداث:

لعل هذا الخطاب - بمضمونه المشحون بالكثير من الأفكار والطروحات، سواء ما تعلق منها بوضع الصيغ المطلوبة لما يمكن أن نصفه بأنه (خطاب الحال) الذي يسعى أهل الخطاب من جهة وأولئك الذين يحاولون اختراقه، بل وحتى اختطافه من أهله بهذه الحجة أو تلك من جهة أخرى، وكذلك ما يمكن أن نصفه بأنه (خطاب المستقبل والمآل) الذي تحاول التأسيس له كل المدارس الثقافية التي يعنيها أمر هذا

الخطاب، أو ما تعلق بوضع النظريات التي يرى كل فريق أن يبني (مضمون الخطاب) على أساس من حمل أفكاره وتسويقها - هو أخطر وأهم مافي هذا البحث، ولذلك علينا أن نبسطه بقدر كاف من الصراحة التي تمنع من التفريط بـ «الخطاب الإسلامي» تحقيقاً لأعذار ومجاملات لا طائل تحتها ولا فائدة منها من جهة، ويقدر كاف من الحذر يمنع من استنفار (الآخر) وتحفيزه لمبادلة الشجار بالحوار، والتباغض بالتعاضض، والتشاحن بالتعاون، بحيث لا يحقق من حيث النتيجة مصالح مبنية على القناعة المتبادلة ولا أهدافاً قائمة على الثقة بحسن المقاصد والنوايا من جهة أخرى.

ولكي يكون بحثنا مجدياً فإننا يجب أن نعالج الأمر من وجهيه، الوجه المتعلق بـ«الخطاب» في نظر أهله، والوجه المتعلق به في نظر (الآخر)، وبيان موقع هذا (الآخر) في «الخطاب الإسلامي» .

أ- في خطاب الحال:

وهو مادرج الباحثون والمفكرون على وصفه وتسميته بـ (الخطاب المعاصر)، وأفضِّل من ناحيتي أن يسمى (خطاب الحال)، ذلك أن (المعاصرة) ترتبط بالخطاب سواء كانت لهذا التجديد دواع تدعو إليه أم لم تكن؛ بينما (الحالية) ترتبط بمستوى المواءمة بين «الخطاب» كما هو عليه قبل النظر في الحاجة إلى تجديده والحالات المستجدة، التي لم تكن زمن صياغة الخطاب، وفيما إذا كان هذا الخطاب:

- صالحاً للإجابة عن المسائل الجديدة، وتقديم التوصيف الديني السديد لها.
- أو أنه ينوء بحمل هذه المهمة وأدائها.

باعتبار أن (الحالات) هي التي تطلق الحاجة إلى الإجابة (دون الارتباط بأي زمن) وكذلك (ليس لمجرد مضي زمن) والتزين بوصف (المعاصرة)، فمثل هذه الأمور - والتي ليس فيها سوى البريق اللفظي - لا تعني «الخطاب الإسلامي» في شيء.

على أن مائة سنة - على سبيل المثال - مظنة لتغير (الأحوال) ونشوء حاجات جديدة، الأمر الذي لوحظت مراعاته في حديث الرسول ﷺ: « **إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا** » والذي سقناه آنفاً.

وعلى أية حال، فإن «الخطاب الإسلامي» -كما أسلفنا- هو جزء من المنظومة الفكرية لـ (الدين الإسلامي)، التي تتشكل من (نص الخطاب) و(فهم الخطاب) معاً.

و(فهم الخطاب) ليس له أن ينفك عن نصه؛ لأنه يشكل حالة امتداد له في أدائه لمهماته وأغراضه، سواء في تنظيم العلاقات بين الناس، بعضهم مع بعض، أو بين الناس والسلطة، أو بين أولئك كلهم وخالقهم، على الوجه الذي يستمد مشروعيته من النص.

إلا أن المسلَّم به — كما أسلفنا - أن الفرق بين الأمرين هو الفرق بين قداسة (الإلهي) وحرمته بما يحصنه من التغيير والتبديل، وعدم تمتع (البشري) بمثل هذه الحصانة.

ومن المسلَّم به أيضاً أن (النص الإلهي)، المتمثل في القرآن الكريم وبيانه، قد صيغ بإحكام يسمح بإطلاق دلالات تواكب وتوائم احتمالات نماء (الفهوم البشرية) بشكل مستمر، بسبب من تطور (البحث عن الحقائق الكونية واكتشاف قوانينها التي أودعها المبدع المهمين القدير في ما خلق من الأكوان)، هذا التطور الذي لا يمكن له أن يصل إلى نهايته في زمن واحد حتى يصح أن تتجدد (عوامل الفهم) بصيغة واحدة. بل إن البحث عن الحقيقة سيبقى قائماً إلى أن تقوم الساعة، حيث يتم الوصول إلى الحقيقة النهائية، وذلك حين تكون الحياة الدنيا قد استنفدت أغراضها وآل البشر إلى أولى مراحل الحياة الآخرة، وهذا ما يستفاد على وجه اليقين من ديمومة (النص

الإلهي) بما فيه من حث على النظر في آلاء الله وآياته وكيف بدء الخلق: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ (العنكبوت: ٢٠)، وهذا نص في الخطاب سيستمر توجيهه للناس حتى قيام الساعة، بما يدل على أن اكتشاف قوانين الأرض والتعرف عليها لن ينتهي قبل ذلك.

وسيكون لكل حقبةٍ من سيرورة الكون فهمٌ يستمد مكوناته من حوادث هذه الحقبة وتطور ما يتم التوصل إليه من جوانب الحقيقة؛ وسوف يجد هذا الفهم متسعاً في ما يطلقه النص الثابت من دلالات.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن (فهم الحالة) التي لم تكن موجودة في مكونات فهم سابق للنص تستدعي (إعادة النظر) في دلالاته واستنطاق هذه الدلالات التي لن تكون عاجزة - ومحال عليها العجز - عن إعطاء الإجابة، سواء بإدخال (الحالة) ضمن فهم كان من قبل لحالة مماثلة في مكوناتها ومقاصدها، أو إطلاق فهم جديد يعطي (الحالة الجديدة) حكمها من الرفض أو القبول، وهكذا يمكن فهم عبارة (الخطاب الإسلامي المعاصر) وفي إطار هذه الحدود.

ب – في آلية صياغة الخطاب:

بعد هذا الذي أسلفناه، من الضروري جداً أن نظهر التمايز في آلية (صياغة الخطاب) بين النظام المعرفي الإسلامي والأنظمة المعرفية الأخرى، في الأمم والمجتمعات غير الإسلامية.

في تلك الأمم والمجتمعات فإن (الحدث الجديد) إذا ما اتسع وجوده وألفه الناس فللمجتمع (وجهة النظر) التي يجب أن تظهر في خطابه عبر القوانين التي تنظم حياة هذا المجتمع.

أما في المجتمع القائم على الإسلام فإن (الحدث الجديد) يكون (موضوعاً للنظر) فيه على ضوء (ثوابت النص) وضمن دائرة الدلالات الممكنة فيه، لا يخرج عنها، وإلا لم تصح نسبته إلى هذا المنهج ومنحه الوصف الذي يظهر هذه النسبة[1].

فإذا ما ظهر أن الحدث مقبول بدلالة ممكنة في النص، صيغ الخطاب بما يضفي على الحدث مشروعية الوصف الإسلامي، وإلا منعت عنه هذه المشروعية، وصيغ الخطاب بما يظهر هذا المنع.

مرد ذلك كله في النظام المعرفي الإسلامي أن لهذا النظام مرجعية ثابتة، تجمع بين عدة عناصر لا تتوفر لأي نظام معرفي آخر، لأي أمة خارج النظام الإسلامي، من أبرزها:

- إنها غير خاضعة لزمان أو مكان، ولا تختص بأمة دون أمة، ولا مجتمع دون آخر، فالناس، كل الناس، أنّى وأين كانوا من الزمان والمكان، هدف لها تسعى سياستهم بما يصلح شؤونهم وينأى بهم عن الفساد ما استجابوا لها.

وهي من السعة في مضمونها، بحيث يجد كل جيل - مهما تتالت الأجيال - إن تدبر ثوابتها حق التدبر، وفهم أغراضها حق الفهم، وقرأها قراءة الجزء من خلال الكل، استبانة واستعانة وقراءة الكل استيعاباً لدلالات الجزء وإحاطة بها. وفي هذه الحالة فإنه واقع - لا محالة - على الإجابة السليمة والحكم الشرعي المنشود.

- إن استكناه دلالات مضامينها مهما تطاول الزمان وتناءى المكان لا يعني تعارضاً مع ثبات نصها وعصمته في التغيير والتبديل، كما أنه لا يعني تيهاً في دلالات مفتوحة لا حدود لها، وإلا كانت إلى إمكانية التغيير والتحريف أدنى من الثبات،

---

(١) انظر كتابنا: الماركسلامية والقرآن، مرجع سابق.

ولكنه يعني أن الله، عزت قدرته، أودع فيها من الدلالات ما يكفي ويسد حاجات الأجيال منها، وما يكون السعي إلى الإجابة في مرجعيات أخرى إلا وجهاً من وجوه الخروج من النور إلى الظلمات، ذلك أن من الحقائق الثابتة في هذا المرجعية الـدور الإلهي في مواجهة الأدوار البديلة: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ ﴾ (البقرة:٢٥٧)

- إن هذه المرجعية توضح دور المنهج الإسلامي في التعامل مع الحدث، حيث يقوم هذا المنهج بدور الفاعل في الحدث لا بدور المنفعل فقط[١].

هذه كلها تشكل بعضاً من ضوابط المنهج الإسلامي في اعتبار الحدث (موضوعاً للنظر) لا (واضعاً لوجهة النظر)، حيث يكون الوصف الإسلامي للحدث بأنه مشروع أو ممنوع تالياً للنظر فيه.

على أن هذه الآلية في صياغة الخطاب لا يمكن ضبطها وإظهار آثارها بمجرد ذكر مزاياها، فإن من الضوابط الضرورية لاعتماد (صياغة هذا الخطاب) بعد إعادة النظر والتقييم، سواء بالإبقاء على الخطاب كما هو أو تجديده، أن يقوم بكل ذلك، المؤهلون لهذه المهمة:

- بمالهم من غزير العلم بالخطاب، في نصه وبيانه، وما لهم من معرفة واسعة بـ (لغة الخطاب)؛

- وما لهم من عميق المعرفة بـ (لغة الخطاب) التي هي اللغة العربية عندما ارتقت ذروة الفصاحة والبلاغة مما أهلها لتكون اللغة القادرة على حمل دلالاته ومعانيه

(١) راجع كتابنا: الماركسلامية والقرآن، مرجع سابق.

واستيعابها بجدارة ظهر فيها النص بدلالاته المكنونة[1] فيه كأظهر ما يكون في لفظ من القدرة على أداء معان حملها، وأبلغ ما تتوالد معان منه لم يكن لغيره من الألفاظ أن يحملها، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود:١).

- وما هم عليه من صدق الإيمان بالله، في سرهم و علانيتهم، والتبتل إليه والخشية منه، وزهدهم في الدنيا، وسعيهم لكسب ثواب الآخرة، وهم في كل جيل من القلة والندرة بحيث وصفوا بأنهم ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ (الواقعة:١٣-١٤).

- وما ذلك إلا حفظاً للخطاب من العبث به من كل مدع علماً وهو إلى الجهل بـ (الخطاب الإسلامي) أدنى وأقرب، ومنعاً لتسلل أصحاب الغرض والهوى من تبديل مقاصد الخطاب بتقديم فهمٍ له ليس له من الدلالات ما يشير إليه من قريب أو بعيد، وقد كثر أمثال هؤلاء في زمننا هذا، حتى أصبحنا نرى أدعياءً ولا نرى دعاة، ونشهد مؤولين ولا نشهد مبينين، حتى لتكاد الساحة أن تمتلئ بمن يتبعون المتشابه من (نص الخطاب) ويلحون على هذا الاتباع، وهم لا يكادون يفقهون في هذا نهياً ولا تحذيراً وكأنهم لم يسمعوا قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ (آل عمران:٧).

---

(١) المرجع السابق.

أو أنهم – وعلى هذا أغلبهم – سمعوا وتغافلو تحقيقاً لمآرب لهم وأهداف، لعلهم – تحت ستار من دعوى التجديد – يحققون هدف الوصول إلى (صياغة دين جديد) ينسبونه إلى الإسلام بهتاناً وزوراً، حتى إنك ليحزنك أن تشهد خلو الساحة من الذين نيط بهم عبء البيان أو تكاد، فلقد غلب على هؤلاء فهم حديث رسول الله ﷺ الذي رواه أبو الدرداء: «**إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ**»[1] على وجه ما أظن أنه ﷺ كان يعنيه في هذا الحديث أو يقصد إليه، الأمر الذي يدعوني إلى وقفة أتحدث فيها إليهم حديث طالب العلم مع أستاذه وشيخه من خلال حبه له وحرصه عليه من أن يُرى منه خطأ مهما صغر، فما بالك إن كان واقعاً في تطبيق المنهج؟

ج – العلماء ومسؤولية صياغة الخطاب:

وأمهد لبسط هذا الموضوع بالتذكير بما يلي وعلى سبيل المثال لا الحصر والإحصاء:

– قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ (فاطر:٢٨).

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ (آل عمران:١٨٧).

﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:٤٢).

– قوله ﷺ: «... **وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا، وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»[2].

---

(١) الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة، الملا علي القاري، تحقيق محمد الصباغ (بيروت: المكتب الإسلامي) ص ١٤٧.

(٢) أخرجه أبو داود.

- عن أبي هريرة: « **مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ عَلِمَهُ ثُمَّ كَتَمَهُ أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ**» [١]

- هذه بعض آيات من النص الإلهي في «الخطاب الإسلامي» وبعض بيانها في أحاديث الرسول ﷺ، يعلم العلماء بالإسلام حق العلم، من فقهاء ومفسرين ومحدثين، أنها تلقي على عاتقهم مسؤوليات جسام للحفاظ على المرجعية الإلهية (في النص وبيانه) من أي محاولة لاختراقه والانحراف به عن مقاصده وأهدافه والخروج به عن قداسة وصفه، وكذلك الحفاظ على سداد (الفهم البشري) له من خلال القيام - وبشكل دائم - بمواجهة حالة استمرار المطابقة بين هذا (الفهم للنص) من خلال تفاعله مع سيرورة الحياة وما يطرأ ويحدث من حالات لم تكن معروفة من قبل، ذلك أن «الخطاب الإسلامي» يمتاز بأنه نص لا ينأى عن مسيرة الحياة، وإنما هو راصد يقظ لها، متفاعل معها، تفعل فيه فعل المستقرئ له، ويفعل فيها فعل الحاكم المهيمن عليها الناظم لحركاتها، سواء منها ما كان كاشفاً لقوانينها المادية المودعة فيها بالإرادة الإلهية أو ما كان ناظماً - بالعدل - لعلاقات الأمم فيها والمجتمعات من أي لون وفي أي مكان وزمان، جماعات وأفراداً، كل ذلك من خلال بيان رسول الله ﷺ في حديثه الشريف: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفعون عنه:**

- **تحريف الغالين.**
- **وانتحال المبطلين.**
- **وتأويل الجاهلين.**

وقد ذكرنا هذا الحديث في صفحات سابقة.

---

(١) أخرجه الترمذي، وقال: حديثٌ حَسَنٌ.

وهذا يرتب على هذه الفئة من أهل العلم أموراً ليس لهم أي خيار في عدم النهوض بها:

الأمر الأول: حمل مهمة البلاغ والبيان بشكل دائم، وفي كل الظروف، وبمختلف الوسائل المشروعة، التي تظهر أن طهر الوسيلة من طهر الغاية والهدف.

الأمر الثاني: رصد حالات التحريف والانتحال والتأويل، ذلك أن هذه الحالات تشكل أبرز المداخل لإخراج «الخطاب الإسلامي» عن مساره وتقديمه بصورة تمنع من فهمه فهماً سديداً كما أريد لدلالاته أن تكون.

الأمر الثالث: المساهمة بشكل دؤوب وفعال في عملية مراجعة دائمة للتعرف على مدى نجاح الصياغة المتداولة بتقديمها وإبرازها (الفهم البشري) لـ (النص الإلهي) في أداء مهمتها على الشكل المطلوب، أو فشلها في ذلك، مهما كان مستوى هذا الفشل، من أجل الثبات على هذه الصياغة كلما كانت تعرض العلم بشكل متطابق مع دلالات النص دون أي خروج عنه، تحريفاً أو انتحالاً أو تأويلاً، أو من أجل إعادة النظر في هذه الصياغة كلما لوحظت حوادث من شأنها أن تجعل التطابق بين (الفهم) و(النص) غير تام بحيث تبدو الصورة بينهما وكأن خللاً ما طرأ عليها أثر بشكل أو بآخر إما على (قدرة الصياغة) على حسن الأداء أو على (قدره الفهم) على سلامة الاستيعاب، وهذا أسوأ ما يعرض (الخطاب الإسلامي) إلى حالة من الشك يتيح (للآخر) صاحب الهوى والغرض أن يستغلها أبشع الاستغلال.

الأمر الرابع : الإقدام بشكل فاعل وسديد على طرح الصياغة الأدق مطابقة، بعد اعتماد (الحادث) من الأمور، عنصراً واجب الاعتبار في (تشكيل الخطاب الجديد).

الأمر الخامس: بذل الجهد في محاولة التجمل بأخلاق النبوة، فهذا يشير إلى فهم سليم وسديد لحديث الرسول ﷺ: «... **وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ...**» على أساس من أن تركة الأنبياء ليست مالاً ولا متاعاً وإنما هي متابعة مهام (البلاغ) و(البيان) و(نشر الإسلام) وما يقتضيه ذلك من طرح للفهم المبتدع من أن العلماء وإن لم يورثوا مالاً ومتاعاً لكنهم ورثوا مهابة النبي ﷺ واحترام الناس وتعظيمهم له، ذلك أن الرسول ﷺ كان مثال التواضع مع الناس، ملحاً على نهي الناس عن التعامل معه كما كان يتعامل الآخرون مع ملوكهم، فإن فعل العلماء ذلك كانوا موضع ثقة الناس بهم وسماع (خطابهم) والاقتداء بـ (فهمهم للخطاب)؛ لأنهم يجدون القول مقترناً لديهم بالتطبيق والعمل، وبدون ذلك لا يستطيع العالم بالإسلام أداء حق التركة التي آلت إليه إرثاً عن النبي ﷺ بشكل صادق وأمين.

وفي كل الأحوال فإن توقير العلماء وإن كان أمراً حسناً - اعترافاً بفضلهم وتقديراً لجهودهم - إلا أن ذلك لا يكون بالطلب، فما بالك إن صار هدفاً عند بعضهم وغاية؟

د- العلاقة بين الخطاب وحامله:

على أن كل ما أوردناه آنفاً لا يمكنه أن يؤدي الغرض المطلوب إلا من خلال (حامل الخطاب) إلى الناس، فكلما كان الخطيب حاذقاً ومتمكناً من إيصال (مضمون الخطاب) إلى المتلقي فإن الأهداف المبتغاة تكون على أقرب ما تكون من التحقيق، أو بالعكس فإن فشل الخطيب في ذلك يحدث نوعاً من التباعد بين (مضمون الخطاب) و(المتلقي له)، وهذا أسوأ ما تتعرض له الحالة الإسلامية من خلل ناشىء عن سوء الأداء لا من خلل في الخطاب نفسه، ذلك أن أغراض (الخطاب الإسلامي)

متعددة، فمنها مايهدف إلى تمكين عقيدة المسلم، ومنها ما يهدف إلى دعوة غير المسلم إلى الإسلام، ومنها ما يتعلق بتدريس العلوم الإسلامية البحتة من فقه وحديث وتفسير... إلخ من العلوم، التي لا يمكن فهم الإسلام فهماً متكاملاً إلا من خلالها.

إن كلاً من هذه الأغراض يتطلب طريقة في الأداء تختلف عن الأخرى، فلا يصلح للتدريس المنهجي لعلوم الإسلام أسلوب الخطابة أو الوعظ والإرشاد، ذلك أن المدارسة تحتاج إلى أناة في القراءة والمقارنة والاستنباط، تجعل الدارس إلى التأمل والتدبر بصمت أحوج منه إلى الحديث المتدفق المثير للعواطف في محاولة للاستحواز على القلوب والمشاعر، فهذا أسلوب يصلح - بل هو الأسلوب المفضل - للواعظ والداعية.

وفي حين تكون عدة الداعية لساناً طرياً وصوتاً شجياً ومعرفة بالسيرة والقصص والشعر والأمثال، مع آيات وأحاديث تهز المشاعر ولا تربك العقول، فإن العلم الغزير بالفقه وأصوله والتفسير وطرائقه واللغة في نحوها وصرفها ليس له من الضرورة عند الداعية ماله عند العالم المجتهد المستنبط للأحكام من أدلتها، فذاك خطاب وهذا خطاب.

إن من أسوأ المشاهد التي تباعد بين الخطيب والخطاب من جهة والمتلقي للخطاب من جهة أخرى، أن ترى خطيب جمعة يهاجم بعنف الحاضرين بين يديه لأداء صلاة الجمعة، وكأنهم عصاة تاركين الصلاة، أو تراه يعيب بشدة ويزدري بلا مبرر شاباً؛ لأنه يؤدي الصلاة حاسر الرأس أو ما شابه ذلك.

إن على (حملة الخطاب) أن يكونوا على وعي دائم بأساليب بث الخطاب ونقله إلى الناس نقلاً يؤدي إلى قبوله والالتفاف من حوله.

وإذا كان هذا هو الحال في (الخطاب الإسلامي) الموجه إلى المسلمين، أهل الخطاب، فإن الأمر يختلف مع غيرهم ممن اصطلح في زماننا على وصفهم بـ(الآخر) الذي يدين بغير الإسلام، الأمر الذي يقتضي إفراده بالحديث عن العلاقة معه وكيفية إيصال الخطاب إليه.

سادساً: «الخطاب الإسلامي» و(الآخر):

لا نكون على شيء من المبالغة، مهما قل وندر، إن نحن أعلنا أن أية حضارة أو أية ثقافة عبر التاريخ قد وجهت اهتماماً ما بـ (الآخر) يقارب في أرفع مستوياته أدنى المستويات التي حملها الإسلام.

مرد ذلك بكل بساطة أن الإسلام في أساسه دين إلهي، ومنهج حياة للبشر، كل البشر، فما أُرسل محمد ﷺ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (سبأ:٢٨).

و«الخطاب الإسلامي» في صورة (النص الإلهي) حفل بشكل ملفت للنظر ومستوجب للتأمل والتقدير بنداء متميز الأداء لإظهار هذا لكل الفئات حتى (الذين كفروا) به منهم، وكان نداؤه دائماً: الهدف والقصد (يأيها الناس) و (يا أيها الإنسان) و (يأيها الذين أوتوا الكتاب) و (يأيها الذين كفروا) و (يأيها الذين آمنوا) .

ولا غرابة في ذلك، بل الغرابة تحصل لو أن (النص الإلهي) خاطب محمداً وعشيرته من قريش فقط، إذا ذاك يفقد ختم النبوة والرسالة به ﷺ مبرراته.

لكن الإسلام رسالة تمتد امتداد الحياة البشرية، ترفدها بالضوابط والنظم، وتحميها من طغيان المصالح النفعية الخاصة بما يؤسس إلى طغيان مصالح الأقوياء،

ولو كانت فاسدة ضارة بالأمة والمجتمع، على مصالح الضعفاء ولو كانت مطلوبة لإقامة المجتمع على أساسٍ من العدالة والمساواة.

و(الآخر) في المنهج الإسلامي، سواء في نصه أو بيانه أو فهمه، هدف يسعى إليه لأداء مهمة(التبليغ) من جهة ولإجراء الحوار معه ودعوته إلى (كلمة سواء) يجتمع عليها الناس فلا يتفرقون أعداءً خصوماً:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾ (المائدة:٦٧)، وبدهي أن التبليغ إنما هو لـــ(الآخر) الذي لم يصله نبأ الرسالة بعد.

- ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ (العنكبوت:٤٦)؛ لأن الهدف الذي يرتجى التوصل إليه هو الذي يأتي عن قناعة، والقناعات لا تتكون بالإساءة والمشاحنة.

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۢ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ (آل عمران:٦٤).

وهكذا لو أردت أن أبسط كل الآيات التي تدعو إلى (الحوار مع الآخر) والسعي إليه لتبليغه كتاب الله عز وجل وبيانه، لسطرت في ذلك عدة صفحات.

على أن القضية - أعني قضية التعامل مع (الآخر) - أصبح لها في الزمن المعاصر، الذي نحياه الآن، أوجهاً أخرى غير تلك التي كانت أيام محمد ﷺ والقرون الأولى التي تلته، حيث لم تكن هذه القضية تواجه من التحديات ما تواجهه اليوم، السبب بسيط هو أن الإسلام كان - إذ ذاك - الأقوى، وسمة الإسلام الصفح والمسامحة عندما يكون قوياً متماسكاً متيناً.

واليوم نحن – أعني المسلمين – مستضعفون ونواجه خصماً عنيداً، لا يريد حواراً يوصل إلى قناعة مشتركة مستمدة من الدليل الأرجح والحجة الأبين، وإنما يريد بل ويفرض حواراً يؤدي إلى نتيجة موضوعة سلفاً، وهذا أبشع ألوان التلاعب والعبث بقواعد الفلسفة والمنطق السليم، فالنتيجة إنما يتم الوصول إليها بالمحاكمة العقلية الصريحة، لا بالفعلية وأساليب الضغط القبيحة، والمحاكمات العقلية تقوم على مقدمات مسلم بها من أطراف الحوار هي إلى البدهيات أقرب، وعلى هذا يقوم نظام (المنطق الأرسطي) الذي ساد الفلسفة ومايزال – نظرياً – حتى يومنا هذا، إلى أن بدأ زحف (فلسفة القوة) و(منطق الطرف الأوحد)، فإذا بنا أمام منطق يفرض المقدمات التي تحقق النتيجة المطلوبة سلفاً، وفي هذا أبشع أنواع التعدي على سلطة العقل ومنهج التفكير السليم. وأمام هذا الوضع فإن على حاملي «الخطاب الإسلامي» أن يعملوا على محورين أساسيين:

المحور الأول: الحفاظ على ثوابت المنهج بالسعي إلى (الآخر) وإيصال الخطاب إليه والحوار معه فيه و(بالتي هي أحسن)، وعدم التواني في حمل هذه المهمة تحت أي ظرف كان ومهما كان موقف (الآخر) من الإسلام .

المحور الثاني: الإلمام بوسائل الحوار المجدية، ذلك أن عملية الحوار تحتاج إلى مؤهلات ومواهب قد لا تتوفر لكل من حمل الدعوة ولو كان في الذروة من العلم، فالعلم ضروري للحوار لايجوز إجراء محاورة دون أن يكون المحاور المسلم متمكناً منه، ولكنه لوحده غير كاف إن لم يكن حامله من الحاذقين في فن الحوار، فالحوار أولاً وأخيراً، فن خاص له قواعده وأصوله، كل ذلك يقتضي منا أن نعرض لهذه القضية بشيء من التفصيل:

أ- التعرف إلى (الآخر):

وهذا أمر جوهري، ذلك أن (الآخر) قد يكون في الأساس من الباحثين عن الحقيقة، فإن وقع عليها أخذها فأصبحت له ديناً ومذهباً، وإلا تابع بحثه وسعيه وراءها، وخير مثال لهذا الصنف من الناس إبراهيم، عليه السلام، قال تعالى:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام:٧٦-٧٩)

وقد يكون (الآخر) من الجاحدين المعاندين حتى لو أقمت له من البراهين على صوابك وخطئه ما هو من القوة والثبات ما لا يحجبه سواد الليل مدلهم.

وربما كان (الآخر) يمثل فئة ثالثة هي على الإسلام ديناً، لكنها ضلت - لهذا السبب أو سواه - عن سواء السبيل.

ب- معرفة ما عند (الآخر):

ومن الأهمية بمكان كبير جداً وقبل (إيصال الخطاب) إليه والحوار معه فيه، أن تعرف ما عند (الآخر) من منطلقات ثقافية وحضارية ومرجعيات تستند إليها، وتستند عليها حجته وبرهانه لإقامة البينة عليك ودحض حجتك. فإن ذلك – أعني معرفة ما عند (الآخر) - ييسر لك عملية الإيصال، ويرسم لك الطريقة الأمثل لإدارة الحوار، ذلك لأن لكل من فئات (الآخرين) سبلاً في الحوار تختلف عن السبل الأخرى.

ج- منهج الحوار مع (الآخر) :

ولأن (الآخر) ليس واحداً في ثقافته وعلمه واعتقاده، فإن هذا يفرض أوضاعاً تحتاج إلى التعامل معها بشكل مختلف في كل حالة عن الحالة الأخرى. وأهم هذه الحالات وأبرزها والتي تحتاج إلى التنبيه إليها هي حالة (الآخر) الذي (لا مشترك) معه، أو بشكل أوضح هو (الآخر) الذي لا يؤمن بمرجعية إلهية منذ البداية، منكراً للقضية الإلهية، جاحداً بها وبما يتبعها من كتب تتنزل على رسل يوحى إليهم وهم مكلفون ببيان هذه الكتب للناس، وما يتبع ذلك ويتعلق به.

مثل هذا (الآخر) هو بمفهوم «الخطاب الإسلامي» موصوف بأوصاف بالغة الأثر في التقييم، بما يفترض التباعد بين حامل الخطاب المكلف بإيصاله ومن يُسعى إليه لإبلاغه بالخطاب.

ومع هذا، فإن الإسلام لم ييأس من افتراض اتباع هذا اللون من (الآخرين) للحق بعد تبليغهم الخطاب، بحيث يؤتي التبليغ والبيان ثمرته.

ويكفي لمعرفة منهج الإسلام في ذلك أن نتأمل ونتدبر الآيات (البقرة:٢٥٥-٢٥٧) حيث إن الحوار كان قائماً فيها بين فريقين متباعدين رغم البينات الواضحة، وإليك ذلك :

- تبليغ اسم الله الأعظم وأوصاف قدرته :

﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾، ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾، ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾؟

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾، و﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾، ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾، و﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ﴾، و﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ (البقرة:٢٥٥).

- الإعلان عن حرية الاختيار ونتائجه:

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾

﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ ، و﴿ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ ، ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ (البقرة:٢٥٦)

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (البقرة:٢٥٧).

صورة من صور الحوار الحر بلا أي إكراه، بعد البيان الواضح للخطاب المحمول إلى (الآخر).

ولئن كان ذلك زمن نزول الخطاب وحياً إلى محمد ﷺ والقوم المخاطَبون على جهالة – باستثناء أهل الكتاب – بأي منظومة فكرية أخرى، فإننا نصادف اليوم (آخرين) لهم ثقافات بديلة لها أصولها وفلسفتها، فكيف يكون (الحوار) معهم ؟

مع هؤلاء لن يجدي الاحتجاج بآية من الكتاب الموحى به، ولا بحديث عن الرسول المكلف بإبلاغه وبيانه، لأن كل ذلك موضع إنكار لدى هؤلاء. هنا تبرز أهمية معرفة القوم (الآخرين) أولئك معرفة تامة، والعمل على دحضها من داخلها ومن قواعد منهجها والاحتجاج عليها بمسلماتها.

ولا يظنن أحد أن الأمر سهل ويسير بدون التمكن من معرفة ما عند هؤلاء (الآخرين) وإلا كانت النتيجة غير مرضية، لا بسبب صحة منهجهم وفلسفتهم وإنما بسبب من عجز المحاور حامل «الخطاب الإسلامي» عن فهم (خطاب الآخر) وتحري مواضع الخلل فيه.

وعلى سبب المثال، فأنا لا أستطيع محاورة (الآخر الماركسي) إن لم أكن أكثر إحاطة بهذه الفلسفة ومعرفة منطلقاتها وجوانب الجدل فيها من حامليها ومن خصومهم.

إن أي فلسفة مادية (بشرية الإنشاء) تحمل سمات عجزها معها، وتتضمن وسائل سقوطها في أسسها، وما على الباحث إلا أن يمعن النظر فيها لاكتشاف هذه السمات والوسائل واستخدامها.. وفي قصة إبراهيم، عليه السلام، مع الذي حاجَّه مثال يحتذى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾ ؟

﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾.

﴿ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ﴾.

﴿ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾

﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾.

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (البقرة:٢٥٨)

لقد عرف إبراهيم أن نقطة الضعف عند (الآخر) الذي يحاوره هي الاعتماد على المحاكمة العقلية فقط مدعومة بالظواهر الكونية المادية، فاستخدم معه نفس الوسيلة حيث تجلت المحاكمة العقلية عند إبراهيم في التحدي الكوني المادي:

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ ﴾ (ظاهرة كونية مادية).

﴿ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾ (طلب تسمح به المحاكمة العقلية المجردة).

﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾ (وانهارت حجته).

٣- خطاب العولمة:

على أن أحدث ما طرأ على مناخ (التخاطب) بين الأفراد والأمم هو منهج (العولمة) وهو منهج حري بالإشارة إليه:

(العولمة) مطلب في «الخطاب الإسلامي»، فهذا الخطاب في الأساس إنما أتى للناس كافة، وعلى حامله العمل على إشاعته وبثه في كل أنحاء العالم، وإيصاله إلى كل شعوبها، والعمل على إقناعهم باتباع أوامره ونواهيه.

على أن وسيلة «الخطاب الإسلامي» في الوصول إلى كافة أنحاء العالم شعوباً وقبائل إنما هي وسيلة الدعوة والتبليغ مع ضمان حرية الاختيار، أما ما نشاهده اليوم من (عولمة) آتية من قبل (الآخر) فهي تقوم على الفرض والإجبار والإكراه.. إن حاملي (الخطاب الإسلامي) لا يخشون (عولمة الآخر)، وهم لا يرون أن حقه في ذلك أقل من حقهم في (عولمة خطابهم)، وهم جاهزون، ويجب أن يكونوا جاهزين دائماً لإجراء (حوار حضارات) مع (العالم الآخر)، أسلوبه التكافؤ في الفرص، والتحرر من الضغوط التي تؤدي إلى استبدال مفهوم (إملاء الحضارات) بمفهوم (حوار الحضارات)؛ فهل دعاة (العولمة) الوافدة من (الآخر) مستعدون لذلك؟

هذا سؤال كبير يشكل لهم تحدياً كبيراً، وما أراهم قادرين على الإجابة عنه إلا بمزيد من وسائل الضغط والإكراه، وما علينا إلا الثبات مهما كانت الهجمة علينا أشرس، فلقد:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ :

﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ

﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ (النور:٥٥).

إعادة بناء المفاهيم ... وتأصيل المصطلحات

الدكتور عبد الرزاق قسوم(*)

إن الدلائل الماثلة للأعين تؤكد فشل الخطاب السياسي في تحقيق مطامح الأمة.. كما تؤكد عجز الفكر الإسلامي - بمنهجه السائد - عن الوصول بخطاب الأمة إلى مستوى طموحها العميق، لذلك بات من المسلم به أنه لا مناص من تجديد منهج الخطاب الإسلامي، لتحقيق ما عجز عنه الخطاب السياسي الخاضع لضغوطات خارجية شتى.

مقدمة:

لا يزال الخطاب الإسلامي اليوم - وهو يعيش في دنيا الحداثة والعولمة - يبحث له عن موقع ذي محددات دقيقة، يمنحه الملامح المفقودة، ويضفي عليه الخصوصيات الثقافية المنشودة.

(*) أستاذ الفلسفة والفكر الإسلامي.. جامعة الجزائر (الجزائر).

إن اضطراب تموجات خطابنا الإسلامي المعاصر، في عالم ينشد الدقة المنهجية، ووضوح الرؤية الفكرية، قد ضاعف من ضبابية هذا الخطاب، وجعله فاقداً لتعريف جامع مانع، وهو ما أسقطه في عالم التيه، حتى إنه ليصح القول: بأن أدق تعريف له هو «أن لا تعريف له».

فكيف آل خطابنا الإسلامي إلى هذا الدرك من المواقع فصار تتجاذبه التجزيئية الأيديولوجية، والطائفية الإقليمية، والغثائية العقدية، والاتباعية القطيعية ؟

إنه ليشق على الدارس المدقق الوقوف على ربوة صلبة « ذات قرار ومعين» يرصد من خلالها عوامل الاضطراب في الخطاب الإسلامي، ويحدد أسباب التيه، ويرسم طريقة التجاوز، وطريق الخلاص.

ففي الخطاب الإسلامي اليوم نزوع إلى الانفتاح على المجهول، وحَدْوٌ نحو الانغلاق على الماضي، ودعوة ساذجة إلى التقليد المشوب، وهذه كلها هي التي تمثل ما أصبح يعرف بالمدارس الفكرية في الخطاب الإسلامي المعاصر.

فهل من الفكر العلمي الانطلاق نحو المجهول، وكل شيء يوحي بضرورة التخطيط، وحتمية الوضوح، والتأكد من أرضية المنطلق ؟

وهل من العلمية الإسلامية – في شيء- السير إلى الأمام بعيون مشدودة إلى الخلف، أو النظر إلى الماضي بنظارات رانت عليها عتمة الجهل، أو غشيتها ضبابية بيت العنكبوت ؟

وهل من الوعي بمقومات الذات الخروج من دائرة هذه الذات الحضارية، للاندفاع نحو وثبة ذهنية القطيع، للتقليد، والذوبان، ومحو الذات؟

أسئلة كثيرة، بالغة التعقيد، يخرج بها الراصد لمواقع الخطاب الإسلامي المعاصر، فتزيده حيرة، وتدفعه إلى ضرورة إخضاع هذا الخطاب للتقويم، وإعادة النظر، وذلك

بالتشخيص العلمي المدقق، والتحليل الموضوعي المحقق، ولعل هذا ما تطمح إليه هذه الورقات على ما يحيط بالموضوع من تشابك في الظواهر، وتقاطع في المظاهر، وهي الصعوبة المنهجية الكبرى في محاولة صياغة عناصر الإشكالية ليتم بعد ذلك فك رموزها وتجاوز ألغازها.

إنه لا مناص إذن، في محاولة القيام بعملية الاستبطان الذاتي للخطاب الإسلامي المعاصر، من البدء أولاً، بعملية إحصاء – بعد تشخيص – لجوانب القصور أو الإعاقة عن الإبداع والفاعلية في أداء هذا الخطاب.. ومثل هذا يتطلب غوصاً في أعماق المكونات، ودرساً لمحددات الذات.. ولعل من مسلمات هذا التشخيص، وهذا الإحصاء، القيام بالتعرف على أدوات البناء في الخطاب الإسلامي، وتأصيلها، ليمكن التعامل معها بكل طمأنينة، ثم الإحاطة – بعد ذلك – بمصطلحات (الآخر) للقيام بمقارنة سليمة، والتطلع إلى إيجاد حوار حضاري مبني على علم يسنده فهم، وهو ما يمكّن من تحقيق التحاور على أساس الندية، التي من متطلباتها البحث عن القناعة، وليس الانطلاق من أحكام مسبقة، تمثل سجناً فكرياً ينغلق داخله المُحاور الباحث.

ولئن كنا نسلم جميعاً بوجود الهوة السحيقة التي تفصل بين حضارتين، وثقافتين، ورؤيتين مختلفتين للكون وللإنسان، فإن ما ينبغي التأكيد عليه هو أن الخطاب الإسلامي بالنسبة لثقافتنا الإسلامية المعاصرة يمثل جسر الاتصال، وحلقة الوصل فيما يسمى بحوار الثقافات والحضارات، والديانات.. ولكي يضطلع خطابنا الإسلامي بهذا الدور يجب أن يحاط بكل مقومات التكوين، وعوامل الإقناع، ومتطلبات الفعالية والإشعاع.

وسنحاول من خلال ما سنقدمه في هذا البحث تفصيل الإيجاز، والإلمام بعناصر التحقيق والانجاز.

١- ضبابية التعامل مع النص في الخطاب الإسلامي:

هل يمكن اعتبار الخطاب الإسلامي المعاصر، بجميع توجهاته العقدية، والأيديولوجية، خطاباً منقطعاً عن جذوره، منفصلاً عن أصوله الأساسية؟ ربما اعتبر هذا النوع من التساؤل بمثابة التحدي للعقل المسلم وللفكر الإسلامي بوجه عام.. غير أن ما يفرزه التأمل الفاحص لمضامين الخطاب الإسلامي، وما تفضي إليه نتائجه، من تضاد، وتناقض، وما نلاحظه من اتجاهات متقاطعة ومتعاكسة داخل مدارس هذا الخطاب، كل هذا يجعلنا نسلم بمثل هذه المنهجية في الطرح، مما بات يلقي علينا مسؤولية فك الإشكال القائم، للوصول إلى رؤية أوضح.

فإذا كان من المسلم به أن الخطاب المعبر عن ثقافتنا هو – نظرياً – خطاب إسلامي في مرجعيته، إنساني في أحكامه ومردوديته، فإن تجسيد ذلك لا يخلو من ضبابية في كيفية التعامل مع النص المرجعي، وطريقة الاستفادة منه ليتم نشره داخل الثقافة الإسلامية وخارجها.

لا غرابة –إذن– أن نجد داخل الخطاب الإسلامي مجموعة انتماءات، كل منها يحاول الإمداد بسبب إلى النص المرجعي، فيما يصدر من أحكام، وما ينتهي إليه من نتائج.

فدعاة الحداثة من المفكرين داخل الخطاب الإسلامي يستبد بهم هاجس غريب قادهم إلى استنتاج فكرة خاطئة، هي اصطناع صراع مفتعل بين العقل والعقيدة، وصدام مصطنع بين العلم والدين، وفصل مخترع بين السلطة الروحية والسلطة السياسية.

إن هؤلاء يعانون من أزمة خطيرة هي أزمة التأصيل، وقد تولدت لديهم هذه الأزمة من عقدة بالغة الخطورة، هي عقدة الانسلاب العقلي، الناجم عن الصدمة

الاستعمارية التي صادفت خواء فكرياً، فتمكنت، وعششت، وألقت ببذور جرثومتها الخبيثة داخل الجسم كله. وإن هذا هو سر الضبابية المغلفة لعقول دعاة الحداثة في خطابنا الفكري الإسلامي في نظرتهم إلى النص الديني.

وفي مقابل هؤلاء، يقف دعاة الأصالة والأصولية في الثقافة العربية الإسلامية .. وهؤلاء أيضاً يعانون من عقدة معاكسة، هي الانغلاق، والانحباس داخل النص المرجعي مع إضفاء فهمهم الخاص على أحكامه، وتحريم أي فهم أو تفسير للنص خارج فهمهم وتفسيرهم .. ومعضلة هؤلاء أنهم «يغنون خارج السرب الإنساني» فيعلنون، العداء -باسم الأصالة- لكل مظاهر الحداثة، حتى أحسن جوانبها وهي القيم الإنسانية النبيلة «فلا يجوز» هي مفتاح حل كل ما يواجههم من مشاكل الحداثة.

إن مشكلة الجمود على النص، وسجن العقل داخل محيط هذا الجمود، هو ما أسقط على العقل هذه الضبابية التي يرفعها الأصاليون -- عن غير قصد — لحماية الذات الحضارية من الغزو الموهوم.

بين الجمود والجحود — إذن — ضاع الخطاب الإسلامي وخفت بريق إشعاعه، وتعتمت صورة إبداعه فتبددت وحدته، وضاعت عهدته وعدته.

أفي عالم العولمة الزاحف، الذي «يبشر» برفع القيود، وهدم الحواجز والسدود، و«تحرير» المؤمن من المعتقدات والعهود، يمكن لخطابنا الإسلامي المكبل بقيود الحداثة المبتدعة، والأصالة المصطنعة أن يواجه شلال العولمة، وأن يحمي الإنسان المسلم من فيروس وباء فقد المناعة الحضاري الذي تحمله هذه العولمة ؟

هل يمكن لخطاب إسلامي، تعددت منابع تكوينه، وتباينت طبائع نصوص تدوينه، أن يثبت وجوده في ساحة المعرفة العالمية، التي تعج بالأيديولوجيات، وتضج من التهديد بصدام الحضارات وإعلان الحرب على الخصوصيات ؟

لقد بات من أولوية الأوليات، في واقعنا الفكري الإسلامي، العمل على إيجـــاد الأمة الممتلئة بذاهّا، كي ينشأ فيها ما يسميه المفكر المغربي عبد السلام ياسين «القوة الاقتحامية»[1] وأن القوة الاقتحامية هي القوة المستوحاة من عناصر القوة المبثوثـــة داخل النص الإسلامي المقدس.. الذي يرفض الجمود والجحود، لأهما سبب ما ران على العقل المسلم من غشاوة الجهل، ومن ضبابية الفهم. فالوســـطية، والاعتـــدال، والتسامح مع (الآخر)، هي مقومات النص المرجعي الإسلامي، ولكن هذه المقولات، إن أريد لها أن تسود، فلا بد من أن تنطلق من قاعدة صلبة هـــي الـــذات المؤمنـــة بعقيدهّا، الواعية بحضارهّا، الداعية إلى سمو إنسانيتها...

فعلى دعاة الحداثة في خطابنا الإســـلامي أن يستعـــيدوا وعيهم المفقود، بخلع ما لبسهم من هاجس الانسلاب الثقافي الغربي إذا أرادوا أن تتحول اللغة التي اكتسبوها في مخابر الغرب، والثقافة التي اقتبسوها من منظري أي حزب، تتحول عندهم إلى قوة عقلية ونفسية يستخدموهُا ولا تستخدمهم، ويستعملوهُا ولا تستعملهم.

فالثقافة الإسلامية لا تضيق بأي مفكر من أبنائها، شريطة أن لا يكون حـــاملاً لفيروس وباء فقد المناعة الحضاري.

وبالمثل فإن دعاة الأصالة، وهم القوة الكامنة والمتأصلة في ثقافتنـــا الإســـلامية، هؤلاء هم أيضاً مدعوون إلى تطعيم فكرهم ببعض عناصر التطعيم السليمة التي تزيد ثقافتهم نماء، وفهمهم للنص وضوحاً وجلاءً.. إن الأصاليين منا هم المرابطون علـــى ثغرتي الجغرافيا والتاريخ، وخطورة موقعهم ودورهم تكمن في الحفاظ على صـــحة النص وسلامته، وحسن تقديمه للناس، وإلا أوشكوا أن يتحولوا بجمودهم، وضبابية

---

(١) عبد السلام ياسين، العدل (مطبوعات الأفق، ٢٠٠١م) ص ٣٣٣ .

فهمهم إلى أسوأ محامين عن أعدل قضية، ويكون مسعاهم كمسعى من وصفه القرآن بقوله تعالى : ﴿ كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ﴾ (الرعد:١٤).

إن ضبابية النص في رؤية دعاة الخطاب الإسلامي على اختلاف مدارسهم وتوجهاتهم، آفة منهجية تنخر صميم الخطاب.. وما لم يع الجميع ضرورة إزالة هذه الضبابية، بالعلم، والفهم، والوعي فإن الخطاب الإسلامي المعاصر، بهشاشته يوشك أن يزول، وفي ذلك زوال لوجودنا الحضاري، وكياننا الثقافي، وتلك هي الطامة الكبرى.

٢- تخصيب المنابع .. لا تجفيفها:

أرأيت الذي يعمد إلى منبع عذب رقراق فيكدر صفوه، وإلى نهر ثرّار فيحول مصبه ؟ أرأيت أنكى ممن يأوي إلى واد ذي زرع خصيب، ينشر الخضرة والنماء حوله، فيعمل على تحويل خصوبته إلى جفاف، وخضرته ونمائه إلى يبس حيث لا ماء ولا اخضرار ؟ إن ذلك هو حال شرذمة من بني قومنا، «السابحين ضد التيار»، الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم فيعلنوها حرباً على الحرف العربي باسم العصرنة، وحملة على التدين باسم محاربة «الأصولية»، وعدواناً على النصوص المقدسة باسم التقدمية والثورية.

إنهم لينتشرون في أرضنا الخصيبة، كخلايا الطحالب، «يفسدون في الأرض، ولا يصلحون» متجلببين بشعارات مظلومة «كالعلمانية» و«الحداثة» و«التقدمية» و«الثورية»، عرفناهم بسيماهم، وعرفناهم في لحن القول، وشذوذ السلوك، فوصفناهم «بالاستئصاليين»؛ لأن ديدنهم استئصال كل تدين، وكل قيم، وكل إسلامي.

لقد بلوناهم في محنة الجزائر الدموية – على سبيل المثال – فكانوا دروعاً واقيات للأعادي، وسهاماً قاتلة ضد المؤمنين في الحواضر والبوادي، يعملون على إخفات كل نبضات الحياة في الصحوة الإسلامية.

ومنهج هؤلاء منهج مزدوج، فهو منهج عاجل يتمثل في إخماد كل صوت ينادي بتأصيل الخطاب الإسلامي للحيلولة دون تبوئه موقعاً متميزاً في الحياة الوطنية العامة. أما منهجهم الآجل فهو التضييق على سبل الخيرات التي تنشر الخُلُق الإسلامي تربوياً، وتلقن الناشئة القرآن علمياً وتنشئ المدارس الإسلامية وقيمها اجتماعياً.

كما تهرول لتطبيق «الإصلاحات» الوافدة للتضييق على الممارسة الدينية بإخضاعها لمنهج انتقائي، يقتطع منها كل ما هو حكم تشريعي يتعلق بالجهاد كدفاع عن الذات، أو بالمعاملات، كالزواج، والميراث، أو العلاقات مع غير المسلمين، وكل ذلك بزعم إعداد المسلم لأن يعيش عصره «متحرراً» من قيود الدين.

إن هذه العوامل الموسومة بتجفيف المنابع هي التي تجسد شعار أهل الحداثة، ممن يمثلون «الطابور الخامس» في مسيرتنا الثقافية والسياسية.. على أن المنهج المعاكس لتجفيف المنابع، والذي هو التخصيب، لا يقل أهمية عن سابقه، فإذا كان التجفيف، كما رأينا، يتم بالبتر والاختزال عند العلمانيين، فإن تجفيفاً آخر للمنابع نعيش أثره، وهو ما يقوم به دعاة «الأصالية»، ممن يحنطون النصوص، ويجففون الجهد العقلي لفهمها، ويحيلون أصول شرعنا وتشريعنا إلى مفاهيم ثابتة لا تُغير ولا تتغير، وذلك هو التجفيف المضاد.

مأساة الخطاب الإسلامي المعاصر اليوم تتمثل في معاناته من خطر مزدوج، تشمله فلسفة معان لعقول منحرفة أو ضائعة.

أما العقول المنحرفة في فلسفة المعنى هنا، فيمثلها خريجو المدرسة الاستعمارية، فمدرستهم هي التي دفعت إلينا بمحترفي منهج الشك والتشكيك في قدرة ثقافتنا على مواكبة العصر، ومعايشة تطوره.. وهم فيما يزعمون، أن العلة الأولى تكمن في «قيود وهمية» وضعها الدين وكبل بها المؤمنين به، فحال دون انطلاقهم؛ ولا يمكن

للإنسان المسلم أن ينطلق – وفق هذا التحليل الساذج – إلا بفك قيود الـدين .. ومن هنا جاءت سلسلة محاولاتهم بدءاً بتجفيف المنابع وانتهاءً بتطبيـق الإصـلاح الانتقائي الاختزالي.

فإذا عدنا إلى العقول الضائعة في فلسفة المعنى، كما ذكرنا، فإننا نجد لوناً آخـر من الضياع تمثله عقول صنعها رد الفعل المعاكس للتيار الأول، ويمثله صـنف مـن المثقفين على اختلاف اختصاصهم وتكوينهم، علماء، وفقهاء، ومؤرخون، وأدبـاء، وكلهم يقفون تحت مظلة الدفاع عن الإسلام وحمايته من البدعة والانحراف، وشرور الفلسفة العقلية.. الوافدة مع الحداثة ودعاتها.

ولئن كان منطلق هؤلاء منطلقاً يتسم بنية طيبة، فإن هذا لا يبرر النتائج الخاطئة التي أفضى إليها منهجهم، فقد ضيقوا – في الإسلام – واسعاً، وجففـوا مخصـباً، وحرّموا جائزاً.. فجسدوا بذلك الدعوة إلى العنف العملي، بعد العنـف اللفظـي، عندما أغلقوا كل باب للحوار مع (الآخر) على أساس القاعدة القرآنيـة: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (الكافرون:٦) وقوله تعـالى: ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (سبأ:٢٤)

من هنا جاءت الدعوة إلى تخصيب المنابع بدل تجفيفها، والإسلام بكتابه وسنته وعمل السلف الصالح من أتباعه، لخير مثال للمنبع الخصب الذي يشـيع الخصـوبة الفكرية، والنماء العقلي، بالحوار، والدعوة بالتي هي أحسن في مناخ خصيب بعيـد عن القحط والجفاف، والتشنج، والانغلاق على أحادية الفهم، للنصوص.. وهنـا تكمن مسؤولية الراسخين في العلم الإسلامي الموكول إلـيهم عمليـة التخصـيب الفكري، لتحقيق الإشعاع الإسلامي المنشود.

٣- توحيد المنطلق.. والمصب:

إن البحث عن قاعدة فكرية صلبة، يتخذها الجميع منطلقاً لخطابنا الإسلامي اليوم، ما تزال حلماً يراود كل المشتغلين بالفكر الإسلامي، على اختلاف قناعتهم العقدية، وانتماءاتهم الأيديولوجية.

وإن هشاشة المنطلق في الفكر الإسلامي قد أحدثت بالمقابل تحولات في المصب، نتجت عنها هذه الحيرة النفسية، والبلبلة العقلية، والتيه الأيديولوجي، وهو ما يعبر عنه المفكر المغربي عبد السلام ياسين بمصطلح: «السراب الميتافيزيقي».

لذلك فإن «عنكبوتية» المنطلق، و«سرابية» المصب أو الهدف، هي المعضلة المنهجية التي يتخبط فيها العاملون في الحقل الإسلامي على اختلاف نزعاتهم، وتناقض اتجاهاتهم.. فما يزال النفَس مشدوداً أملاً في صياغة مرجعية موحدة الأحكام والنصوص، تحظى بتوافق الجميع. فمن دعاة إضفاء القداسة على النص الموحى به، إلى أنصار تحرير كل النصوص، ومروراً بالروحانيين من ممارسي النصوص، إن الجميع يستبد بهم هاجس الوقوف على عقيدة صحيحة، أو قناعة صلبة ينطلقون منها لبلورة مشروع مجتمع إسلامي يستلهم أحكامه من الوحي ويتعايش - بيسر - مع حداثة العصر.

ويتساءل البعض منا في عناد ومكابرة: «كيف نطبق حلولاً عتيقة، يقترحها كتاب عتيق، على مشاكل جديدة، في نظام عالمي متطور؟»[1].

إن مثل هذه السطحية الفكرية، والسذاجة العقلية اللتين خرج بها علينا فلاسفة «ميثولوجيا التقدم»، داخل ثقافتنا الإسلامية لتترجم درجة التيه لعقل، هذا إنتاجه،

---

(١) عبد السلام ياسين، كتاب العدل، ص ٣٤٩ .

كما يحكم بتهافت مقولات نشاز يلفظها فقه ثقافتنا الإسلامية، ويرفضها منطق الفكر الإنساني.. وذلك هو الدليل القاطع على جهل هؤلاء بواقع فكرنا، وضحالة مبلغهم من علمه.. فما كان التخلف والتقدم محكومين بعتاقة كتاب ما، أو تجديد حكم كتاب آخر.. وإن أصحاب مثل هذا الحكم ليقولون منكراً من القول في فقه الأحكام، وخللاً من المنهج في فلسفة المعنى.

ولعل السر في علة هذا التيه الفكري، إنما يكمن في مكونات العقل وقوالبه لدى دعاة الحداثة عندنا ممن يتبنون مثل هذا الطرح.. فعقدهم، ونقطة الضعف في منهجهم، أنهم يحاولون تطبيق مفاهيم ومصطلحات جاهزة، صنعت خصيصاً لثقافة الغرب بخصوصيتها «اليهودية النصرانية» وما نتج عن ذلك من تأزم في العلاقات وتوتر في المعاملات بين الكنيسة والمجتمع، يحاولون تطبيق هذا التناقض على دين وفي مجتمع لا مجال فيه للفصل بين «القرآن والسلطان».

من هنا بدأت المفاهيم تهتز في البحث عن منطلق لخطاب إسلامي محدد السمات، واضح المعالم والقسمات.

وما هو البديل – إذن – لتخليص خطابنا من هذه الذبذبة الفكرية والاضطراب المنهجي ؟ هل يمكن تقديم الطرح الآخر السائد في فكرنا الإسلامي، والمتمثل في الخطاب المحافظ على القيم، والأصالة، وقدسية النص كبديل، وكخطاب مضاد ؟

صحيح أن هذا الطرح، يتميز بقوة الاعتزاز بالذات، واتخاذ هذه الذات، بكل مقوماتها، قاعدة أساسية، ومنطلقاً صحيحاً، لفكرنا، إلا أن هذا الطرح، لا يخلو – هو الآخر – من خلل منهجي.

فالعودة إلى الذات، والعمل على حمايتها من كل أنواع فيروسات الأوبئة المفقدة للمناعة الحضارية، لا تعني – أساساً – معاداة (الآخر)، كل (الآخر).. كما أنها لا تعني غلق الأبواب والنوافذ التي تطل منها على العالم الإنساني.. لذلك فإن كل دعوة للتقوقع داخل مفاهيم خاصة، وكل محاولة لوضع الكمامة على الأعين، أو سد الأنوف، إنما هي محاولة تصطدم بجوهر معتقدنا، الذي هو دين العالمية، والإنسانية، والشمولية. إن هذه العالمية بجميع مقوماتها التي تميز الخطاب الإسلامي، هي أحسن درع نواجه به الدعوة العولمية التي تعمل على نزع خصوصيتنا ومقومات هويتنا.

في ضوء هذه المحددات التي تطبع منطلق خطابنا المنشود، يمكن تلمس الرؤية التي تحدد ملامح المصب لنهر الخطاب الإسلامي العالمي، غير أن عقبات، وصعوبات ما تزال مزروعة في طريق تحديد ملامح أهداف الخطاب الإسلامي المعاصر.. وأبرزها:

أ- **عدم اتضاح الرؤية للعاملين في الحقل الثقافي الإسلامي**.. فماذا يريدون بهذا الخطاب أن يحقق ؟ هل هو خطاب تبشيري يتوجهون به إلى غير المسلمين، لحثهم على الدخول في الإسلام ؟ أم هو خطاب تبريري، يحاولون به دفع تهم عن الإسلام، وكأنما الإسلام في قفص الاتهام ؟ أم أنه لا هذا ولا ذاك، ولكنه خطاب دعوي رسالته تمكين العقل من فهم المعاني العميقة للإسلام، بالكشف عن أسرارها، وإزالة كل لبس في فهمها فهماً صحيحاً؟

ب- **عقدة (الآخر)** .. إن مما يستبد بخطابنا الإسلامي المعاصر، النظرة إلى (الآخر)، وكيفية التعامل معه، فهل هي عقدة نقص إزاء (الآخر)، أم عقدة تفوق؟

هل نتعامل مع (الآخر) من منطلق نظرته إلينا كمجسدين للتخلف، نعاني الإعاقة الفكرية في الإبداع، وانعدام القوة والحجة في إدارة الحوار والصراع ؟ أم أننا ننظر إلى هذا (الآخر) كما لو كان إنساناً فقد إنسانيته، ولفظ روحه، وتاه في عالم الحيوانية المتوحشة، ومهمتنا هي مساعدته على استعادة إنسانيته، وروحانيته ؟

ج- **معضلة الأداتية** .. كيف يكون موقف خطابنا الإسلامي من أدوات العلم والبناء، التي يستخدمها (الآخر) في عملية نمائه وتقدمه، والتي نحن مجبرون على استخدامها، والتعامل معها ؟ هل يمكن اعتبار هذه الأدوات أدوات محايدة، العبرة فيها بمن يستخدمها، وبما تحققه لمستعملها من نفع وفائدة ؟ أم أن هذه الأدوات – حتى في طابعها التقني – لا تخلو من تأثير أيديولوجي على مستعمليها، فوجب اتخاذ الحيطة والحذر أثناء التعامل معها ؟

إنها أسئلة كثيرة ومتنوعة، يصطدم بها خطابنا الإسلامي المعاصر في محاولة رسمه لأهدافه، تماماً كتلك التي يحاول بها رسم منطلقاته.

إن المطلوب اليوم، هو البحث عن صيغة تمكن من توحيد المنطلق والمصب لعقل إسلامي لا يزال يعاني القلق، والاضطراب في بحثه عن موقع لإثبات وجوده .. ولن يتحقق ذلك إلا بالوعي بجوانب النقص، لإيجاد الحوافز المساعدة على تجاوز أعراض التأزم في خطابنا الإسلامي.

٤- معوقات التقويم في الخطاب الإسلامي المعاصر:

إذا كان لابد للراكض في حلبة السباق، من إلقاء نظرة ذكية، يقيس بها بُعد المسافة بينه وبين منافسيه، وبُعد المسافة المتبقية لتحقيق الهدف قصد ضبط خطواته، فإن التجربة الإنسانية في جميع مجالاتها، المادية والمعنوية، لا بد لها – هي الأخرى – من لحظة تأمل ذكية تزن بها موقع مسيرتها مما يدور حولها في حلبة التنافس الإنساني والتسابق الحضاري.

والفكر الإنساني، في مختلف مراحل تطوره ولا سيما الفكر الواعي بتخلفه عن مسيرة الركب الحضاري، كالفكر الإسلامي، مدعو أكثر من أي فكر آخر، إلى القيام بعملية تقويم لخطابه العاكس لخطوه، والمعبر عن مدى تطوره.

غير أن إخضاع الخطاب الإسلامي المعاصر لعملية التقويم هذه يتطلب التزود بجملة من الأدوات الضرورية التي تمكن من القيام بعملية التقويم بأحسن الطرق الممكنة.

فضبط الرؤية الفاحصة، والحصول على قدر معين من الوعي بالكينونة، والإلمام بواقع المحيط الإنساني وما يحتويه من تقدم، كل ذلك يمثل أدوات ضرورية لإنجاح عملية التقويم، وإعادة النظر.

لكن العملية التقويمية في مجملها لا تخلو من بعض المعوقات، التي إن لم يتم التنبه إليها، و لم يمكن تجاوزها، توشك أن تتحول إلى عوامل إحباط، يكون ضررها أكثر من نفعها.

ويمكننا تسليط الضوء – في عجالة وبإيجاز شديد – على بعض المعوقات التي تمثل عقبات منهجية أمام عملية تقويم الخطاب الإسلامي المعاصر، وأبرزها:

أ- الصدمة الاستعمارية:

لئن كنا لا نقر المنهج التبريري الذي يتشبث به عدد كبير من العاملين في دائرة الخطاب الإسلامي، الذي يلقون بكل مسؤولية لتبرير ما نحن فيه على (الآخر)، الذي هو الغرب، وهو المستعمر، وهو الصهيونية... إلخ ، فإننا لا يمكن – مهما حاولنا – أن نتجاهل مؤثرات الاستعمار، ونفاذ جراثيم أوبئته إلى كياننا، وما أحدثته هذه الجراثيم في كينونة ثقافتنا وشخصيتنا.

إن الصدمة الاستعمارية المذهلة التي أحدثها الغزو الاستعماري بجميع ألويته، من احتلال الثكنات والحقول، إلى غزو الملكات والعقول هي التي جعلت ثقافتنا الإسلامية ما تزال تترنح من شدة الإصابات التي تلقاها كياننا، والتي هو من هولها، يحاول أن ينهض فتصده حواجزها وعقباتها مما يجعله يفقد فعاليته ومردوديته.

ويكفي أن يتأمل الدارس المحقق واقع خطابنا الإسلامي ليدرك هول ما فيه من تمزق، واغتراب، وإعاقة.

وما هذا الانبهار الذي يطبع الخطاب الإسلامي، والذي جعله يتأرجح بين الصدمات الاستعمارية المتتالية، وبين جاذبية كنوز تراثه، إلا الدليل القاطع على تحقيق الصدمة الاستعمارية لأهم غاياتها وهي الحيلولة دون بلوغ الخطاب الإسلامي مستوى الإبداع العالمي، وإحداث الهوة السحيقة بينه وبين عالمية الخطاب الثقافي الإنساني.

نحن – مفجوعون إذن – بواقعنا المتردي، وإن كنا لم نع بعد علل وأسباب هذه الفجيعة، وما نتج عنها من صدمات، فما زلنا نتعامل مع ثقافة جاهزة، بمفاهيمها ومصطلحاتها، المعدة لغيرنا، لنتخذها ركائز لبنائنا العقلي، وإبداعنا الفكري، بحجة أنها ثقافة (الآخر)، الذي بَزّنا في التقدم، والتطور .. وما درى معظمنا أن هذه المفاهيم والمصطلحات الثقافية المستوردة، قد كانت لها نتائج عكسية على مستعمليها؛ لأنها طبقت بحذافيرها، في أرض غير أرضها، وعلى إنسان غير إنسانها.

والحقيقة أن أخطر ما أصاب العقل المسلم هو هذه الانسلابية التي جعلته يعيش في المنفى الثقافي بين ذويه، وبني قومه. فلا اللغة المستعملة، ولا التعبئة العقلية السائدة، ولا خصوصيات الصراع الديني أو الأيديولوجي الذي يطبع الثقافة الغربية، بالذي

يمكن أن ينطبق على واقعنا المعرفي. فلا يوجد في مجتمعنا صراع بين السلطة الروحية والسلطة السياسية، حتى نستورد قوالب هذا الصراع ونطبقه على واقعنا.. ثم إن هذه اللغة التي تحمل إلينا ألواناً من الموسيقى الراقصة التي لا تعرف أجسامنا كيف تتمايل معها، إن هي إلا ثقافة (الآخر) والتي لا تعنينا في شيء.

فإذا أضفنا إلى كل ذلك، ثقافة العنف، وثقافة تحلل الأنساب، وفقدان الرابطة الزوجية، وفلسفة الخيانة الأسرية، أدركنا إلى أي حد نحن نعيش معصومي العقول والعيون، في عالم لا نراه إلا في تلفزيون الآخرين.

إن هذه السلوكات الشاذة إن هي إلا نتائج فاسدة لمقدمات خاطئة، وهي بالتالي الأوبئة الفتاكة التي ورّثتنا إياها الصدمات الثقافية الاستعمارية الغازية.

لقد أخطأ الاستعمار في تحقيق مأربه عندما غرس في أرضنا الفتية بذور «فياغرا» تصلح لمن بلغوا سن اليأس عندهم، والحال أن مجتمعنا مجتمع يتمتع بخصوبة الشباب، وقوة الفتوة، ولكنه - أي هذا الاستعمار- نجح عندما سرب إلينا حبوب منع الإخصاب الذاتي فكرياً وثقافياً فجعلنا لا نرى إلا ما يرى، ولا ننظر إلى الحياة إلا بمنظاره الخاص.

وليت شعري، لماذا أخفق الاستعمار بصدماته هناك، في الهند، وفي اليابان، وفي الصين، وفي ماليزيا، ونجح - فقط - في بلادنا العربية الإسلامية؟

هل أننا وحدنا نملك القابلية للاستعمار؟ وما السر في وجود هذه القابلية عندنا نحن فقط؟

ذلك هو ما يجب النظر إليه بعمق، إذا أردنا القيام بعملية التشخيص السليم، والعلاج القويم؟

إن تحلّلنا من مقومات كينونتنا الحضارية ممثلة في المعتقد القائم على الفهم الصحيح وفي اللسان المبني على الأداء الفصيح، وفي الاعتزاز بالنسب الصريح، إن هذا التحلل من مقوماتنا هو الذي جعل من خطابنا الإسلامي خطاباً مهتز البناء، عديم الأداء، فاقداً لكل انتماء.. وفي هذا يكمن الخلل، ومن هنا يبدأ الحل.

ب - غثائية الحداثة:

إذا كنا نسلم بأن من معوقات التقويم العلمي للخطاب الإسلامي تلك القابلية الذاتية للاستعمار المركوزة فينا والتي هي إحدى صدمات الاستعمار الرئيسية، فإننا يجب أن نسلم أيضاً، بأن من عقبات التقويم هذا الشلال المسلط علينا من القوالب الحضارية، كالعلمانية واللائكية، والحداثة، وما أشبهها.. وهي مفاهيم تلتقي كلها حول ما يسمى بفلسفة الحداثة.. فماذا تعني الحداثة بالنسبة لمجتمع كمجتمعنا الإسلامي يعاني التخلف واضطراب التربية والتقشف وسوء التغذية؟

إن مما لا شك فيه، أن الحداثة، كمفهوم جذاب إذا ما قورن برفاهية الحياة، ووفرة الملذات، سيكون لها وقعها الخاص على من يعيش الفقر المدقع، والظلم المفجع، والتخلف المفزع.

لكن غاب عن مستوردي المفاهيم المظلومة أن الحداثة مصطلح ظاهره فيه الرحمة، وباطنه من قبله العذاب.

فعن أي حداثة يتحدثون؟ وهل الحداثة وصف زمني لمجتمع بعينه ذي خصوصية ثقافية معينة، وذي بعد تاريخي أو جغرافي بذاته؟ إننا نظلم الحداثة عندما نختزلها في مفهومها الزمني الشامل الذي يشمل كل إنسان في أي مجتمع .

فما نعرفه هو أن الحداثة مرحلة زمنية، توضع في مقابل الزمنية المنصرمة. كما أن الحداثة تطور حتمي يفرضه واقع الإنسان الثقافي والاجتماعي والاقتصادي. وما ينجم عن ذلك من منتوج علمي وتكنولوجي، يخفف معاناة الإنسان، ويرفه عنه في جميع مجالات حياته.. لكن تحديدنا العلمي للحداثة، لا يشمل الجانب المادي وحده من حياة الإنسان، هذا الكائن الكلي الذي لا يتطور في جانب معين، ويبقى متخلفاً في جانب آخر.

إن الفهم الحقيقي لمعنى الحداثة هو أن يعيش الإنسان عصره، بكل متطلباته.. فالتقدم العلمي والتكنولوجي لابد له من ضامن يصون إبداعه، ويحمي أوضاعه وذلك ما يقدمه التدين في أسمى مدلولاته، والسلوك الخلقي في أنبل مجالاته، فإذا بتر من الحداثة جانبها الروحي العرفاني وانتزع منها السلوك الخلقي الإنساني فتلك هي غثائية الحداثة، ولعل ذلك هو ما اقتبسناه من معانيها.

إن الحداثة في جوهرها وحقيقتها مفهوم نسبي ومصطلح زمني، شمولي.. فهذا المفهوم لا يخص منطقة بعينها، أو شعباً خاصاً، أو حضارة ما، إن لكل زمن حداثته، والحداثة بهذا - المعنى - توضع في مقابل القديم.. على أن القديم لا يعني بالقوة السيء من الأزمنة، كما أن الحديث لا يعني - منطقياً - الأفضل في كل شيء. فالقديم كان حديثاً، والحديث سيصبح قديماً، وكلا المفهومين ينطبقان على كل العصور، وعلى كل الحضارات؛ فلم - والحالة هذه - تركن حضارات بأكملها ضمن التراثية، وتصنف ثقافات أخرى بكاملها ضمن الحداثية ؟

ثم لماذا يقدم تراثنا من طرف البعض منا، على أنه قديم كله غث، وغثاء، وتقدم الحداثة، عند غيرنا، على أنها كلها منهجية للتقدم والتطور، والنماء ؟

حقيقتان مغبون فيهما كثير من الباحثين والمفكرين وتستحقان الكثير من التجلية والإيضاح، لذلك وجب البدء بالكشف عن مظاهر السلب في هذه الحداثة الجذابة عند البعض، والتحذير من أنها بالرغم من كل ما تحتويه من جوانب مادية إيجابية شملت حياة الإنسان، ووفرت له المزيد من الرفاهية؛ لكنها، أي هذه الحداثة، قضت على الجوانب المشرقة في الإنسان وأهمها إنسانيته.

ففي الوقت الذي كفر فيه مبدعو الحداثة بهذا الاختراع الحضاري الغريب، وأصبحوا يطالبون بتجاوزه إلى ما بعد الحداثة، وبينما هم يطالبون بأن تبقى الحداثة إنتاجاً مقصوراً على الإنسان الغربي فيضعونه في مقابل الإنسان المتخلف، نجد المنسلبين منا، المنفيين وسط ثقافتنا يستميتون تشبثاً بما تخلى عنه أهله، وأخطر من ذلك أنهم يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير؛ فيتغافلون عن كنوز القديم، الحداثي في ثقافتهم وحضارتهم، ويطالبوننا بإلغائه وتجاوزه، ويلزموننا بتبني حداثة الآخرين وإن كانت تعيدنا إلى عصر الحيوانية المتوحشة حيث يسود قانون القوي المستبد بالضعيف، والغني المذل للفقير، والظالم المتحكم في المظلوم.

إن أخطر ما في هذه الغثائية الحداثية أنها تصادر حقيقة تاريخية مهمة ووظيفة عقلية تامة، وهي حقيقة المساهمة في إبداع المصطلح الخاص النابع من الذات ووظيفة الإبداع العقلي الذي هو أعدل الملكات حضوراً في صنع الحضارات.

ثم ما بال أقوامنا يكفرون بخطابهم الإسلامي وهو الواقي لهم من كل ألوان التيه والضياع، ويؤمنون بما يكفر به العقلاء من صناع فكر الحداثة الأوروبية ؟ أو ما دروا أن غثائية الخطاب الحداثي الغربي هي التي طوقتنا – على حد تعبير المفكر الجزائري محمد البشير الإبراهيمي – بأطواق من حديد، وسامتنا العذاب الشديد، وأخرجتنا من زمرة

الأحرار إلى حظيرة العبيد، وورثت بالقوة، والكيد، والصولة والأيد، أرضنا وديارنا، واحتجزت في بنوكها أموالنا، وفي شركاتها خيرات وطاقات ومعادن أوطاننا[1].

لقد تبين لكل ذي عقل في خطابنا الإسلامي المعاصر أن الحداثة هذه الغثائية الفكرية، هي الفصام النكد، بين الإنسان، الإنساني الفلسفة الروحاني الأيديولوجيا، الأخلاقي السلوك في المجتمع العربي، وهي القيم التي تفتقر إليها الحداثة في خطابها اليوم، وبالتالي فهي لا تصلح نموذجاً لخطابنا الإسلامي، التواق إلى العدل، المتطلع إلى الروح، المتسامي نحو الحب .. إن كل تقويم لخطابنا يجب أن يبدأ من إزالة هذه الألوان من الإعاقة التي تمثل ضبابية أمام رؤيته والتي تحول دون صياغته للوقائع صياغة محددة المعالم واضحة المقومات؛ وذلك هو التأصيل الحقيقي للمفاهيم والمصطلحات .

جـ- الاتباعية .. بدل الإبداعية:

في استعراضنا، لمسيرة الخطاب الإسلامي المعاصر تبرز أمامنا جملة من العلامات المميزة لخطابنا والتي غالباً ما تقف حاجزاً أمام إشعاعه المطلوب، ومن هذه العلامات، وجود ما أصبح يعرف في خطابنا الإسلامي – اليوم – بالإنسان ذي العاهات الفكرية مثل المثقف «المطموس الفطرة»، أو «العبثي العابث» أو « الساكن في ضفة الثقافة الأخرى» إن هذا اللون من الإنسان المثقف الحامل لمظلة الخطاب الإسلامي تجاوزاً هو المنتمي إلى فئة «المثقفين المغرّبين»، كما يصفهم عبد السلام ياسين، فيقدمهم لنا على أنهم «ذوو عقول قذرة، ينبغي عزل أطفالنا وشبابنا عنهم حتى لا تلوث عقولهم الفطرية، النقية البيضاء»[2].

---

(١) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي؛ دار الغرب الإسلامي، الجزء الثالث، ص ٤٨٣ .

(٢) عبد السلام ياسين، العدل، ص ٥٧٠ .

إن هؤلاء هم الاتباعيون الذين يصنفون أنفسهم ضمن الإبداعيين، وما دروا أنهم بمنهجهم الاتباعي هذا، إنما يكرسون أخطر أنواع التبعية وهي تبعية الفكر والعقيدة.

ولعل من أبرز من تصدى لهذا اللون من التبعية المفكر الجزائري مالك بن نبي .. فقد كان هذا الرائد للخطاب الإسلامي المعاصر من أوائل من شخص «مرض التبعية» وقدم لنا الوصفة الناجعة لعلاجنا، فأطلق عليها وصف «النزوة الثقافية»..

يقول مالك بن نبي: «إن تبعيتنا لهم، ليست تبعية استهلاك فقط، ولكنها تبعية إنتاج أيضاً.. فتبعية الاستهلاك هي أن تستهلك ما ينتجون أما تبعية الإنتاج فهي أن تنتج على شاكلة ما ينتجون دون مراعاة لاحتياجاتك الخاصة وظروفك المحلية»[1].

وكيف الخلاص إذن من هذه الاتباعية ولا سيما الاتباعية الفكرية، التي أوصلتنا إلى الحضيض الحضاري؟ لقد حاول المفكر الجزائري مالك بن نبي أن يقدم لنا علاجاً لتجاوز هذه العاهة الفكرية، فقال: إن طريق الخلاص هو فك التبعية بجميع أشكالها عن الحضارة الغربية.. إنها الفك أو الفصل التام للتبعية العقدية بشكليها الجزئي والكلي في الحال وفي الاستقبال وعلى مدى الدهر... ولن يتأتى هذا إلا بالإرادة الحضارية، والنية العقدية، والإمكان الحضاري (كشرط مادي)[2].

على أن المنطلق الحقيقي لأرضية الاتباعية إنما هو القابلية للاتباعية أو كما يسميها مالك بن نبي La conolisabilité[3] أي القابلية للاستعمار لكن ما ينبهنا إليه بن نبي هو أن الاتباعية هذه التي يجسدها التخلف الفكري، لا تعني أننا

(١) مالك بن نبي، شهادات واستشراف (آخر حوار للأستاذ مالك بن نبي) إعداد إبراهيم عاص، ٢٠٠٠ .

(٢) المرجع السابق، ص ١٩.

(٣) انظر كتاب مالك بن نبي بالفرنسية La conolisabilité (الجزائر: دار الحضارة ، ٢٠٠٣م).

وحدنا نعاني آفة التخلف، فللمجتمعات المتقدمة هي أيضاً تخلفها الذي يطبعها، ومن هنا كما يقول مفكرنا الجزائري «إن المجتمعات المتقدمة متخلفة في مجال الإنسان.. لذلك فإن مهمة الإنسان المسلم اليوم تتمثل في تحقيق هدفين:

١- رفع الإنسان المسلم - اجتماعياً - إلى مستوى الحضارة.

٢- رفع الإنسان الغربي - أخلاقياً - إلى مستوى الإنسانية..

ذلك أن العقيدة أو الروح يمكن أن توجد علماً، أما العلم فلا يمكن أن يوجد عقيدة، ولا روحاً، ومتى انتهى الإنسان من داخله، انتهى فيه كل شيء، ولا يغرنك الظاهر»[١].

والنتيجة التي نخرج بها من هذا الوصف، وذلك التحليل، هو أننا نحن المسلمين في ضيق من الحياة وهم أي الغربيون في ضيق من النفوس .. فإما أن نُغَيِّر وإما أن تغير[٢].

نحن جميعاً متخلفون، فالحداثيون يعانون هم أيضاً تخلفاً، وربما كان تخلفهم أخطر أنواع التخلف ولذلك يتضاعف تخلفنا باتباعيتنا لما هم فيه.

فإذا كانت مشكلاتنا نحن المسلمين، هي مشكلات تخلف ناتج عن مشكلات اجتماعية واقتصادية حادّة جداً، وهي نتائج ظروف، وليست جوهرية، فإن مشكلات المجتمع المتقدم هي مشكلات نفسية حادّة جداً وهي مشكلات أساسية وجوهرية[٣].

فهل بعد هذا كله تبقى الحداثة، بمفهومها الغربي، هي خيارنا الوحيد لتجديد خطابنا الإسلامي كما يطالبنا به بعضهم؟ يقول محمد جسوس بهذا الخصوص: «إن

(١) مالك بن نبي؛ شهادة واستشراف، ص ٢٤.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٩ .
(٣) المرجع السابق، ص ٣٦ .

الخيار الوحيد المطروح على الشعب العربي هو خيار يعتبر الحداثة والاندماج في التاريخ خياره الوحيد، وأي اختيار خارجه هو الموت والتهميش»[1].

هذا – إذن – نموذج لدعاة أحادية الحل الحداثي لمشكلة المجتمع الإسلامي في خطابنا المعاصر؛ وليس هو الوحيد، فعلى منواله يسير حسن صعب، حين يعلن بإصرار بأن التحديث طريق ثوري إلى التقدم، وفي نفس السياق يذهب نديم البيطار فيخرج علينا بهذا الحكم القاتل: « قبل أن يبني العربي مصيره الجديد، عليه أن يخسر تماماً ثقته بكفاءة الوجود العربي التقليدي على الاستمرار، ويشعر بأنه أصبح غريباً عنه، ويحس بحاجة عميقة إلى تجاوزه وإلغائه»[2].

بهذه الدعوات المتمردة على التراث العربي والإسلامي، يكرس نفاة الإبداع عن عقلنا الإسلامي، الدعوة إلى اتباعية الحداثة كمنهج وحيد للخروج من المأزق الحضاري المزعوم للخطاب الإسلامي، والحقيقة هي أن دعاة الاتباعية هم الذين يوقعوننا في مأزق حضاري خطير، هو مأزق الحداثة.

٥- إشكالية الخطاب الإسلامي المعاصر:

يمكن بقليل من العناء – إذن – تلمس عناصر الإشكالية المنهجية في تصوير مقومات الخطاب الإسلامي المعاصر .. إنها عناصر تكاد تلتقي كلها حول حالتين سائدتين في ذهنية الإنسان العربي وهما :

١- الانفعال الحدثي والأيديولوجي غير العميق في التعامل مع قضايا الحداثة الغربية، والتي أفرغت العقل المسلم من قيمه ومضامينه و لم تمكنه من التزود بزاد الحداثة الحقيقية.

---

(١) محمد جسوس، الدين في المجتمع العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، السنة ٥، العدد: ٥، ديسمبر ١٩٨٨م.
(٢) نديم البيطار، الأيديولوجية الثورية (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨٢م) ص ٨٣٥.

٢- الحساسية المفرطة من كل نسمة تهب على العقل الإسلامي، على اعتبار أن كل ما هو خارج الذات المسلمة، هواء ملوث، ينبغي حماية هذه الذات منه، حتى لا تصاب بالانفلونزة الأيديولوجية الحدثية القاتلة.

بين الانفعال التفريطي والحساسية الإفراطية ضاع الخطاب الإسلامي المعاصر، وسط مهيع لم تتحدد معالم أهدافه، وتلك هي إشكالية هذا الخطاب.

كيف يمكن - في ضوء هذا الصراع داخل الذات المسلمة - تشخيص أعراض التأزم الذي تطرحه إشكالية الخطاب الإسلامي ؟

هناك أعراض كثيرة تطبع هذا التأزم، وهي إن لم يقع التصدي لها، قد تقود إلى القضاء على وجود الخطاب الإسلامي من خارطة الفعالية الحضارية الإنسانية.. ولعل أبرز ما يمكن رصده كمؤشرات للظاهرة المرضية الفكرية، ما يمكن وصفه بالانسلابية والانحباسية، وبالصراع بين عالمية الإسلام وعولمية الحداثة، وحدود الصراع بين الجغرافيا والتاريخ في البناء الحضاري، وقبل هذا وبعده، البحث عن الأدوات المعرفية المستخدمة في هذا الصراع، وهل هي نابعة من إنتاج ذاتنا الحضارية، أم هي مصطلحات مستوردة ؟

إن هذه الأسئلة هي التي نتخذها كممهدات لإبراز عناصر الإشكالية في الخطاب الإسلامي اليوم.

أ- الانسلابية.. والانحباسية:

حالتان مَرَضيتان، تصيبان العقل الإنساني فتفرغانه من شحنته، وتبعدانه عن سحنته.

أما الحالة الأولى فهي تلك التي تخرجه عن الذات، فتجعله متعلقاً بسراب يحسبه كل شيء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.. إنها ظاهرة الانسلابية alienation التي تجعل

الإنسان ثقافياً أو عقدياً يعيش خارج ذاته وخارج العالم المحيط به .. أي أنه بسبب وجوده داخل ثقافة ما أو داخل تاريخ معين فقد السيطرة عليهما، يلجأ إلى ثقافة أخرى أو معتقد آخر، حيث يعيش مشدوداً إلى صور مجردة.. وانعكاسات هذه الانسلابية على الصعيد النفسي أو الفكري، تتجسد في حدوث توتر نفسي وسلوك غريب يؤدي إلى عدم تواؤم بين الفرد والحياة المجتمعية هو مدعو إلى العيش داخلها، فيتحول بذلك إلى أجنبي عن أمثاله.

تلك إذن هي انسلابية الفكر عند بعض مفكرينا في الخطاب الإسلامي المعاصر، الذين ضاقوا بثقافتهم ومعتقدهم، على سعتهما، فلجأوا إلى ثقافة (الآخر) ومعتقده ينشدون التقدم المزعوم ويبحثون عن الطمأنينة النفسية التي لم يعودوا يجدونها.

أما الانحباسية في الفكر claustramanie فهي على العكس من الانسلابية، يمثل المصاب - بما هو الآخر - مرضاً نفسياً، قد يتطور ليصبح مرضاً ثقافياً وعقدياً وهو ما يسمى بمرض العزلة أو الانحباس claustration حيث يحبس المثقف نفسه داخل ثقافة معينة لا يبرحها، أو ضمن تاريخ لا يؤمن بسواه، مما يجعله يرفض الثقافات الأخرى، ويعلن الحرب عليها.

وخطابنا الإسلامي يعاني من تطرف الفئتين، ومن رفضهما لبعضهما .. فإذا كان المنسلب الذي يعاني الاغتراب داخل تراثه وثقافته فيكفر بقدرتهما على تحقيق التقدم والتطور، فإن المنحبس الذي يعيش عزلة فكرية حبيس الماضي باسم ما يسمى بالسلفية تارة، أو الأصالية تارة أخرى، نجده هو الآخر يُبَدّع كل منتوج غربي، ويُكَفّر كل من يؤمن بالحداثة ويحاول تطبيقها في واقعنا الإسلامي.

وهكذا ضاع الخطاب الإسلامي بين جامد وجاحد، بين عقدة التقزم الذاتي وتحقير الذات الإسلامية وبين عقدة التفوق والتعالي، وكلها عقد، يجب على خطابنا أن يعمل على التخلص منها، وتجاوزها للوصول إلى قاعدة الاعتدال بإيجاد حلقة وصل متينة تربط الماضي التليد، بالمستقبل السعيد، وهو ما ينتج عنه إبداع الحداثة الذاتية بمفهومها الإسلامي، الذي يأخذ بعين الاعتبار الواقع التاريخي، والحاضر الثقافي، وهو ما يمثل قاعدة سليمة للإبداع العقلي بعيداً عن ضغوط الحداثة المزيفة، وجاذبية الأصالة المزخرفة.

كم يفتقر خطابنا الإسلامي إلى أصالة متكاملة البناء، بأدواتها المعرفية الذاتية، ومقوماتها التاريخية الأصلية التي تمكّن من إبداع حداثة إسلامية ينتجها عقلنا، وتنمو وسط مناخنا، وتتغذى من الجيد في تراثنا، والإنساني في حداثة الآخرين.

ولن يصبح العقل الإسلامي قادراً على إنتاج هذا اللون من الإبداع الحداثي الخاص، إلا بعد تحريره من الاتباعية الماحقة المذلة، ومن الانحباسية العائقة المخلة.

إن الخلاص مما يعانيه خطابنا الإسلامي من تمزق واغتراب، ومن تشدد وتجدد، إنما يبدأ من إزالة العصابة عن العيون، والكمامة عن الألسن والعقول، إذا ما أراد عقلنا أن يعيد إلى الذات المسلمة الحياة الإبداعية المفقودة، وأن يمكن هذه الذات من تحقيق الوثبة الحضارية المنشودة .

ب- عالمية الخطاب الإسلامي.. وعولمية الحداثة:

إذا كان الخطاب الإسلامي نزاعاً في منهجيته الأساسية إلى دعوة إنسانية، تبشر بقيم عليا، يسلم بها كل عقل سليم، ويطمئن إليها كل إنسان سوي أياً كان جنسه أو لونه، وإذا كان هذا الخطاب يحمل لواء العالمية، يهدم حواجز اللون، والعرق، والفئة، على قاعدة الإيمان الذي يجعل الناس سواسية لا فضل فيهم لعربي على

أعجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، دونما إكراه أو تعسف، فإن العولمة في طابعها الحداثي، هي على العكس من ذلك مذهب وضعي يتخذ من القوة الاقتصادية وسيلة للهيمنة، ومن التسلح العسكري أداة للاستيلاء على خيرات الشعوب، والعمل على تغيير أنظمتها بالقوة، وإخضاعها للنفوذ السياسي الأحادي الاتجاه.

والعولمة في دعوتها هذه لا تتورع عن استخدام كل وسيلة لنشر نفوذها في العالم، بإزالة كل عنصر للمقاومة يقف في طريق زحفها، سواء أكان ذلك تحت غطاء الحفاظ على سيادة الوطن، أو حماية الخصوصية الثقافية، أو صيانة الهوية الحضارية والعقدية.

إن العولمة إذن، تستند – في زحفها الأيديولوجي على مفاهيم براقة، وإن كانت هزيلة المحتوى، كالإصلاح، والديموقراطية، والحداثة، وهي كلها مصطلحات تستخدم في مواجهة، المفاهيم الذاتية الأصيلة، كالتدين، والشريعة، والحكم بما أنزل الله.

من هنا بدأ الصراع بين خطاب عالمي في توجهه يدعو إلى التمكين لشرع الله الذي يرفع الإنسان من درجة البهيمية والحيوانية إلى مستوى الإنسانية في أرقى صورها، وبين عولمة تخاطب في الإنسان جانبه المادي، فترخي العنان فيه لكل ما يخلصه من قيمه الروحية، وثوابته الوطنية كي يسهل بعد ذلك بعثه في منهجية العولمة التي تجعل منه جسراً مديداً، للتمكين لبسط النفوذ السياسي، وسيطرة الاستغلال الاقتصادي، والتبشير بعصر العولمة الثقافي.

هي معادلة، غير متساوية في عناصر تشكيلها.. فإنسان العالمية الإسلامية قوي بمنهجه الروحي، الذي يسمو به إلى جنب حواريي السلام، والأخوة، والمحبة،

مع ضعف في مادياته، وبين إنسان العولمة المتوحشة التي تسقط الإنسان في فخ الغطرسة المادية القوية بجيوشها، المتسلطة بشلالها الإعلامي، الناشرة لفلسفة الانحلال، والميوعة، والذوبان الحضاري، مع ما يمثله ذلك من ضعف معنوي في هذا الإنسان.

إن صخب العولمة الناجم عن قرع أجراس الحرب ضد المعارضين والتهديد بنسف هوية المستضعفين، قد أدى إلى تكوين إنسان مريض بماديته، معقد بمنهج عولمته؛ كما أحدث هذا الصخب العولمي رد فعلي عنيف لدى (الآخر) هو ما يتجلى في هذه المقاومة الشرسة التي تبديها شعوب الحضارات الأخرى، من أجل إثبات وجودها، وحماية حدودها، وتثبيت عناصر معتقدها وخلودها.

فعالمية الإسلام تعمل على تركيز عنصر الإيمان المفقود في العولمة، في قلب الإنسان المسلم، فتزوده بأهم خصائص الحضارة الإسلامية، لتكون له زاداً ودرعاً لوقاية نفسه من مخاطر الاضمحلال التي تنشرها العولمة، فتنمي فيه خاصية الانفتاح على العالم، وعلى الجسم البشري انطلاقاً من الآية القرآنية: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (فصلت:٥٣).

كما أن الدعوة الإسلامية تمد إنسانها بمفاهيمها الأصيلة فتنشئه على حقيقة ثابتة هي أن «الإنسان هو خلاصة عالمين: عالم الغيب وعالم الظاهر، وأنه مادة وروح، وجسم وعقل»[1].

إن عالمية الحضارة الإسلامية، وفق هذا المنهج الإنساني السامي، «هي في جوهرها حضارة وسطية. فهي بهذا المعنى ترفض كل أنواع الغلو والتطرف (داخلياً وخارجياً)،

(١) هاني رمضان l Islam et la derive de l'Occidentl ot. Ed. ENNOUR . PARIS 2001، ص ٨١-٨٦ .

كما أنها - وهي القائمة على التوحيد - لا تضع العقيدة في مواجهة العقل، ولا الدين في مواجهة العلم، ولا السلطة الدينية في مواجهة السلطة الدنيوية».[1]

وتبقى معضلة التأصيل، ونقل هذه المفاهيم في دنيا الإنسان المسلم من عالم القول إلى عالم الفعل، وبعث ذلك كله واقعاً معيشاً في دنيا الناس، تلك المعضلة المنهجية الكأداء التي ما تزال تعتم على عالمية الإسلام، وما تزال تزين للآخرين عولمية الحداثة الغربية، بالرغم من خلل الموازين بين الاتجاهين وهوة القوانين بين الدعوتين.

جـ- حدود الصراع بين الجغرافيا.. والتاريخ:

تمثل نهاية التاريخ، وبداية الجغرافيا عند بعض فلاسفة التاريخ، المفتاح الحقيقي، والعلة الأولى للصراع بين شعوب لا تاريخ لها وتعمل جاهدة على ابتداع تاريخ، وبين شعوب تملك التاريخ والجغرافيا معاً، وهاجسها الأكبر هو كيفية المحافظة عليهما، بوصفهما عاملي إثبات وجود، في معركة استئصال الهوية، وإزالة الحدود، التي تخوضها العولمة المتوحشة الزاحفة.

وإذا كان الوجود الإسلامي يتميز، من حيث البعد التاريخي بعمق زمني مديد، ومن حيث الجغرافيا بحضور اقتصادي واستراتيجي فريد، مكنا من فرض الوجود الحضاري والاقتصادي في العالم، كمعادلة صعبة لا يمكن تجاهلها أو القفز عليها، فإن الخارطة الإسلامية المرسومة على صفحة الكون قد جعلت من الخطاب الإسلامي - معنوياً - عاملاً أيديولوجياً توضع له الخطط، للتعامل معه، والعمل على احتوائه، بكل الوسائل الممكنة.. كما جعلت من الاقتصاد الإسلامي، طرفاً حيوياً ومؤثراً في الاقتصاد العالمي، عليه يتوقف كل مشروع للتنمية وكل تطور صناعي، مدني أو عسكري.

---

(١) السابق، ص ١١٦ .

فالمسلمون قد جعلهم الله سدنة النفط، والنفط هو عصب الاقتصاد العالمي اليوم، وهو ما يضفي على جغرافية العالم الإسلامي هذه الأهمية التي تضاف إلى القيمة التاريخية للخطاب الإسلامي.

وانطلاقاً من هذه الاستراتيجية الجغرافية والتاريخية للعالم الإسلامي، نشأت هذه «القارونية الرأسمالية» على حد تعبير عبد السلام ياسين، فتكونت لها أنياب – هي اليوم – أكثر حدة من أي وقت مضى، وأكثر تلهفاً على ما في أرض المسلمين من هذه الثروة الغزيرة ثروة النفط.[1]

هكذا بدأ الصراع الحاد بين التاريخ والجغرافيا كما يتجلى لنا في المعركة الدائرة بين الخطاب الإسلامي الدفاعي المستميت، وبين خطاب الحداثة العولمية الهجومي المدمر المقيت.. إنه صراع يستخدم الجغرافيا في جوانبها العسكرية، والاقتصادية، والاستراتيجية، للقضاء على التاريخ في أبعاده الحضارية، والثقافية، والسياسية.

فوجدنا الخطاب الحداثي العولمي يوظف الجغرافيا في الاستخدام الأيديولوجي للأرض، بتلوين المواقع الجغرافية ذات الانتماء الإسلامي بلون أحمر هي ما يطلق عليه أطروحة «الخطر الإسلامي» فيضع المتاريس، والفيتوات المعيقة في وجه الخطاب الإسلامي التاريخي من أجل سد منافذ هذا الخطاب، وإن هذا لهو بؤس الأطروحة الأيديولوجية العولمية.

لقد أقحمت الجغرافيا السياسية والاقتصادية في نشوب الصراع ضد التاريخ الحضاري والثقافي فكان التوطيد لثقافة الاحتلال، التي من مضامينها احتقار المستضعفين، وبسط الهيمنة الاقتصادية على خيراتهم، والنفوذ السياسي على أنظمة

(١) عبد السلام ياسين، كتاب العدل، ص ٣٤١ .

حكمهم؛ وتلك هي المهمة التي يقوم بالتمكين لها دهاقنة فلسفة الحداثة والعولمة من أمثال فرنسيس فوكوياما الذي يشغل مهمة الموظف الاستعماري.

وإن الراصد لأحداث كوكبنا، ليدرك – دون عناء – أن هذه النظرية العولمية، التي توظف الجغرافيا للقضاء على التاريخ، لا تقتصر على عالمنا الإسلامي وحده، وإن كانت تمنحه أولوية السبق، وإنما تحاول تمديد ذلك إلى مجالات أخرى في باقي أنحاء العالم، كمجال الرياضة المسيّسة.

فقد عشنا تجارب انتصرت فيها الجغرافيا على التاريخ، عندما حوبيت ألمانيا البيضاء في تنظيم كأس العالم على حساب جنوب أفريقيا السمراء، لا لشيء إلا لتفضيل الألوان البيضاء على الألوان السوداء وتقديم الجغرافيا الأوروبية على التاريخ الأفريقي.

إن أنصار الإسلاموفوبيا، هؤلاء الذين يخلطون في استراتيجيتهم بين كل الألوان، التي توضع كلها في مواجهة اللون الأبيض، الذي يتم إعلاؤه جغرافياً وتاريخياً على حساب كل الألوان مجتمعة، إنما يكرسون معركة اللون الواحد ضد الكل.. ومهما يكن فإن ممارسي هذه النظرية هم أسارى عقد وحبيسي تأزم.

«لقد حلل الاستعمار الغربي معادن النفوس – كما قال المفكر الجزائري محمد البشير الإبراهيمي – قبل أن يحلل معادن الأرض من الأوطان. فوجد أكثرها من ذلك الصنف الذي يلين أناسه للعاجم، وتدين عروبته للأعاجم».[1]

فما موقع خطابنا الإسلامي من كل أعراض التأزم هذه، التي لم تسلم ثقافتنا وحضارتنا من شظايا نارها ؟

---

(١) محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام الإبراهيمي، الجزء الثالث، ص ٤٤٩.

هل يمكن القول: بأن خطابنا، وهو يتقهقر أمام شلال الزحف العولمي، إنما يعاني ذلك بسبب افتقاره إلى مفكرين ذوي كفاءة فكرية عالية، يملكون القدرة على إدارة الحوار المقنع، ودحض أطروحة الغرب المزعومة، والحكم بتهافت نظرية أطروحته القائمة على أسطورة: الخطر الإسلامي؟

إن خطابنا الإسلامي – بمختلف قناعاته وتوجهاته – ما يزال يتأرجح بين صراع الجغرافيا والتاريخ كما يديره الغرب، حيث تسود نظرية «الألماني النازي»، و«الأميركي الغازي»، وحيث تتجسد حقيقة «الدم الأحمر المراق، والذهب الأصفر البراق، ذلك للتضحية والفداء، وهذا للبذل والإغراء»[1].

إن حدود الصراع بين الجغرافيا .. والتاريخ، قد جسمتها – إذن – فلسفة الدم والذهب، ونظرية معادن النفوس، ومعادن الأرض، وأيديولوجية الأقدام والأقلام وتبقى الوقاية الذاتية للخطاب الإسلامي من ويلات هذا الصراع، وتداعياته إنما تكمن، في وعي خطابنا، بفعالية الأداء المعرفي ونجاعة الإبداع الثقافي.

٦- العلاج القويم:

بعد التشخيص السليم في مأثورنا العربي الإسلامي، مثلٌ سائر ذو دلالة دقيقة، مدلوله من كتم داءه قتله.. وهو ذو حكمة بالغة يسندها العلم العقلي، ويسايرها الفهم النقلي.

وهذا المثل إذا أطلق ينصرف إلى ما هو مادي وإلى ما هو معنوي. فالإنسان العليل يموت بعلته إذا هو لم يبادر إلى حكيم يشخص داءه، ويحدد دواءه، ويخفف ألمه وعناءه.. والثقافات، والمجتمعات، كالإنسان، تصاب – هي الأخرى – بأدواء مبيدة،

(١) المرجع السابق، ص ٤٥١.

قد تكون سبباً في الإعاقة، وتؤدي إلى فقدان الإبداع والعراقة، إن لم يقيض الله لها - من صلبها - طبيباً عالماً بأمراض الشعوب والحضارات يدفع عنها اليأس والبأس، فيؤهلها لإصدار خطاب مؤهل لحوار الثقافات، محصّن بمصل حماية الهوية والذات.

وخطابنا الإسلامي اليوم، في ضوء ما نعانيه من واقع متردد، على أكثر من صعيد، مدعو إلى إخضاع خصائصه ومقوماته لعملية تشخيص سليم، للوصول إلى العلاج القويم.

وإن التشخيص المخبري الدقيق، والتحليل الاستبطاني العميق، ليفرز مجموعة من الأعراض أصبحت لصيقة بخطابنا الإسلامي ومضامينه يمكن إجمالها في جملة من العلامات لعل أبرزها:

- **خضوع خطابنا** - على اختلاف مستوياته وتوجهاته وقناعاته - **لأعنة إعاقة كابحة**، تحكمت في مصير الخطاب الإسلامي فكانت سبب إضلاله وإذلاله، فضاع هذا الخطاب بين الداهية والداعية، وبين الديناصور والدكتاتور.

- أزمة الوجود .. وفتنة الحدود:

أزمة الأزمات فيما يعانيه الخطاب الإسلامي اليوم، سقوطه من علياء مبادئه ممثلة في التمكين لواسع الوجود، وتحصين الثابت الموجود، والوقوع بدل ذلك في فخ التجزيئية، والإقليمية، ولعبة ترسيم الحدود.

فبعد أن كان الخطاب الإسلامي، خطاباً وحدوياً، شمولياً، إنسانياً، تحول، تحت ظروف الأعنة الكابحة والتيارات الجانحة الجامحة، إلى خطاب دفاعي تبريري، متزلف يخوض مع الخائضين، ويسير في بطانة الحاكمين، فاقداً بذلك مصداقيته، ومتخلياً عن ثوابته وخصوصيته.

- **اللامذهبية .. هي المذهب:**

إن الغثائية التي أصبحت تطبع الخطاب الإسلامي المعاصر والتي أكسبته خفة في الوزن، وهشاشة في المتن، وضبابية في اللون، إنما نبعت من مذهبية هجينة ومشينة هي اللامذهبية.. فطغيان المصالح الخاصة، وتفشي ألوان شتى من المغريات، قد أدخلت العقل المسلم في دوامة من القلق، والذبذبة.. نسجت لديه هذه اللامذهبية التي اتخذت شكل مذهب. وهو ما يمثل درك السقوط والتردي.

وحتى يتجاوز خطابنا هذا التأزم الخطير، نعتقد أنه مدعو إلى القيام بتدابير إسعافية عاجلة يمكن حصرها في الخطوات التالية:

أ- الوقاية من الذبذبة النفسية الغربية:

عندما يوزن الخطاب الإسلامي بميزان كفة النظر العقلي الإيماني، وكفة التحديث العقلاني العلماني، ترجح الكفة الثانية لثقلها وتخف الكفة الأولى لغثائية مفهومها، وما ذلك إلا لخفة في وزن خطابنا الإسلامي بعد أن أفرغ من جوهره، وحاد به أهله عن مخبره، فانتقلت إليه عدوى الذبذبة النفسية الغربية، التي فقد إنسانها كل صلة له بالإيمان، وتعرى من كل وازع حقيقي لمعنى الإنسان.

إن تشخيص الداء في مضمون الخطاب الإسلامي تكشف عنه عدة أعراض يجسدها هذا القلق المنهجي، والاضطراب النفسي، والتذبذب الأيديولوجي، وقد تنبه لخطورة ذلك منذ القديم علماؤنا وحكماؤنا، فحذرونا من مغبة الاكتواء بعواقب الذبذبة التي نعاني اليوم نارها، لأننا لم نع - في وقتها - الدرس المطلوب فهمه.

فهذا - علامة الجزائر - محمد البشير الإبراهيمي يرسم لنا صورة لأعراض ذبذبة العقل المسلم فيقول: «وأفكر في قومي المسلمين، فأجدهم قد ورثوا من الدين

قشوراً بلا لباب، وألفاظاً بلا معان، ثم عمدوا إلى روحه فأزهقوها بالتعطيل، وإلى زواجره فأرهبوها بالتأويل، وإلى هدايته الخالصة فموهوها بالتضليل وإلى وحدته الجامعة فمزقوها بالمذاهب، والطرق، والنحل، والشيع».(١)

إن التجزيئية - وهي إحدى الأعراض الرئيسية لخطابنا الإسلامي - هي التي تجزئ كل شيء، فالدين يوضع في مقابل العنف، والتدين في مقابل التسامح، والأدب النسائي في مواجهة الأدب الرجالي، والصراع بين أجيال الشباب والشيوخ والتقدميين والرجعيين، والأصوليين والعلمانيين.

ويبقى السؤال المهم المطروح: ما هو المصل الواقي لنا من هذه الذبذبة التي ورثناها من ثقافة الغرب التي لم نحسن التعامل معها ومن القابلية فينا لتلقي العدوى، بسبب هشاشة في تركيبتنا العقلية والنفسية ؟

إن مما لا شك فيه أننا ورثنا عن الغرب ما زهد فيه هذا الغرب، بشهادة عقلائه.

فقد وعى حكماء هذا الغرب «أن العقلية الأوروبية بليدة رغم نضجها العلمي؛ إنما تفتقر إلى الحدس الذهني، الذي يستشف ما وراء الأشياء».(٢)

وإلى جانب التجزيئية التي تطبع الذبذبة النفسية، التي أصيب بها الإنسان المسلم فانعكست على خطابه الإسلامي، نجد الفصل بين اللغة والمعنى في تعامل خطابنا معها.

فمحنة هذا الخطاب أنه يعمد إلى ما عند (الآخر) من مصطلحات ومفاهيم صيغت على قد العقل الغربي، وما يثقلها من معان دينية، وثقافية، وسياسية، فيستعيرها

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٨٢.

(٢) مالك بن نبي، شهادة .. واستشراف، ص ١٧ .

ليجعلها واقعاً في ثقافتنا ذات الخصوصية العربية الإسلامية وهو ما يحدث في عقلنا تمزقاً نفسياً يتفجر في شكل ذبذبة، واضطراب، وقلق . وهو هذا الواقع المشين الذي يعانيه خطابنا الإسلامي اليوم، وهو ما أوقعنا في هذا الحضيض الحضاري الذي تردينا فيه.

نحن مطالبون – إذن – بضرورية اتخاذ تدابير الوقاية من هذه الذبذبة النفسية التي تفشت في الغرب، وهي تتسلل إلينا عبر قنوات شتى.

ولعل أولى تدابير الوقاية تبدأ من تطعيمنا بمصل التحصين لنا من مصل مضاد، هو التلقيح الاستعماري، وهو مادة من خصائصها تعقيم الخصائص الحضارية في المجتمع الإسلامي.

إن المصل الواقي المطلوب توفره في خطابنا الإسلامي اليوم، هو المصل المتعدد المضادات الأيديولوجية، الذي يبدأ بالعلم الصحيح، والعودة إلى الذات، وينتهي بالإيمان بقيم هذه الذات، وقدرتها على الإبداع الحضاري، كي يسهل تحقيق النماء الذاتي السليم، والتعامل مع الآخرين على أساس الفهم القويم، والخير العميم.

ب – تحرير الذات .. من ذهنية الثكنات:

«محال لبدن عبد أن يحمل فكراً حراً» هذه مقولة خرج بها علينا الماهدون الأولون في الفكر الإسلامي الجزائري، وما تزال صلاحيتها ممتدة، وتزداد تجذراً في الواقع الإنساني.

وما دمنا قد انتهينا في بحثنا هذا إلى وجود ذبذبة ثقافية داخل مجتمعنا الإسلامي، وإن هذه الذبذبة هي العاكسة لواقع الخطاب الإسلامي بمختلف ألوانه الأيديولوجية، فإن الحاجة تصبح ماسة اليوم، إلى العناية أكثر بالذات الإسلامية في ظل ما تعانيه هذه الذات من تناقضات، أبرزها الخضوع للكبت، والقمع والحرمان.

إننا لا نبالغ إذا قلنا بأن المجتمع الإسلامي واقع تحت كماشتي رحى هما التسلط الداخلي بمختلف أثقاله من جوع، وخوف، وظلم، والضغط الخارجي ممثلاً في الغزو الثقافي، والشلال الإعلامي، ومحاولات إفراغ الذات من مضامينها الحضارية، وخصوصياتها الثقافية.

بين الضغط الداخلي، والتحدي الخارجي، يجد الإنسان المسلم نفسه يناضل من أجل البقاء متحدياً أساليب القمع الداخلي الذي حول الأوطان إلى ما يشبه الثكنات التي مهمتها الأساسية إصدار الأوامر والتعليمات، دون انتظار مناقشة أو مراجعة.

إن ذهنية الثكنات التي تطبع معظم أجزاء المجتمع الإسلامي، هي التي لونت الخطاب الإسلامي بلون الاتباع والإخضاع فعاقه ذلك عن كل فعالية أو إبداع.

وإذا كانت القواعد العسكرية الأجنبية تتمثل مهمتها في مراقبة وسائل الإنجاز، والتصنت على كل كبيرة أو صغيرة من سياسة الدولة، اقتصادياً واجتماعياً، فإن أنظمة الحكم الداخلية تحاول إحكام قبضتها على المواطنين بفرض «سلطان الخوف». وأنظمة الحكم الداخلية إذ تقوم بفرض ذهنية الثكنات على عقل مواطنيها، فإنما تفعل ذلك حفاظاً على وجودها واستمراريتها، وهي في سبيل القيام بذلك، لا مناص لها من تقديم تنازلات ثقافية، ودينية، مقابل غض الطرف عن ممارساتها التعسفية.

لذلك وجدنا معظم هذه البلدان ذات الحكم التسلطي، تقبل بإدخال ما يعرف بالإصلاحات وهي إصلاحات تتجه إلى تغيير البنية الاجتماعية للوطن، بدءاً بإعادة النظر في القوانين الاجتماعية كتنظيم الزواج والطلاق، والميراث، وصياغة محتوى المنظومة التربوية «بتطهيرها» من كل ما يتعارض والنظام العولمي الجديد، في النصوص الدينية، بحذف التربية الإسلامية من المناهج التعليمية؛ لأنها في زعمهم

مدعاة للغلو والتطرف، إلى جانب مراجعة المواد التاريخية، بحذف كل ما يشير إلى الاستعمار والصهيونية.

إن الهدف من هذه الإصلاحات هو إبعاد المواطن عن وسائل إيقاظ الوعي فيه، والإبقاء عليه خارج الذات الواعية، التي تتصدى لكل ألوان الاحتلال، والقهر، والظلم سواء في الداخل أو في الخارج .. والخطاب الإسلامي بوصفه المؤتمن على رسالة بث الوعي الحضاري، والعاكس لواقع الأمة هو المؤهل للاضطلاع بمهمة قيادة الأمة وتحديد سبل خلاصها، والتصدي لمهزلة الإصلاح الانتقائي الذي يعمد إلى الكتب المنزلة، وإلى الدساتير، المطبقة، فيختزلها ويخضعها لتحليل مخبري، ينزع منها كل التعاليم والقوانين التي تقف عائقاً دون احتلال الأوطان، وإخضاع الإنسان.

لا مندوحة إذن في كل عمل حضاري يقوم به الخطاب الإسلامي المعاصر، من أن يبدأ أولاً بتحرير الذات الحضارية في الإنسان من ذهنية الثكنات العسكرية المكبلة لإرادة الأوطان.

إنها المعادلة الفكرية التي يصعب حلها، ولكن لابد من فكها، لإزالة كل الحواجز المعيقة للخطاب الإسلامي، في هذه المرحلة الحاسمة من التقديم وإعادة النظر، حتى يتمكن هذا الخطاب من الانطلاق نحو الإشعاع والإبداع.

جـ - ملء الذات الحضارية:

لابد للذات الحضارية – في عملية الأداء المعرفي – من عملية إخلاء ثم إملاء.. وعملية الإخلاء والملء، قاعدة منهجية نادى بها فلاسفة العقلانية بقيادة ديكارت في بداية عصر النهضة الأوروبي .. ولكن الديكارتيين لم يكن لهم قصب السبق في هذا الإبداع المنهجي .. فقد سبقهم إلى ذلك دعاة الخطاب الإسلامي الصوفي، إذ أرسى المتصوفة المسلمون قاعدة التخلية والتحلية في عالم السلوك المعرفي .

وعمليتا «الإخلاء والإملاء»، والتخلية والتحلية، تلتقيان كلتاهما على جامع مشترك هو إفراغ الذات مما علق بها من أفكار فاسدة سابقة، قبل شحنها بالأفكار السليمة.. والقاعدة الصوفية المنهجية في السلوك العقدي تستمد أسسها من القرآن الكريم حيث عاب القرآن تشبث الجاهليين بأفكار آبائهم الفاسدة حين قال على لسانهم : ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ (الزخرف:٢٢) فيرد عليهم بآية أخرى قائلاً: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة:١٧٠).

و«الخطاب الإسلامي المعاصر»، في حاجة إلى تجديد هذا المنهج، بالتركيز على الذات الحضارية التي هي مركز هذا الخطاب، فيخضعها لعملية التحرير أو الخلاص أو التخلية، ليفرغها من الآلات الفكرية الضارة، كالانسلاب، والانحباس، والغلو، والتطرف، والعلمنة، والاتباعية... إلخ، ليعيد شحنها بقيم عقلية سليمة وطاقات عقدية قويمة.

إن الذات الحضارية المسلمة، في حاجة شديدة اليوم إلى ملئها بعد الإخلاء بفكرة التصالح مع الماضي، في عمل فكري يقوم على الفهم، والاستنباط، لإزالة كل ضبابية، والنظر إلى العصر بمرآة صافية شفافة - تمكن من تحقيق مبدأ التأصيل على الواجهة الحديثة، فإذا تم ذلك منهجياً، أمكن تزويد ذاتنا الحضارية بفقه الاعتدال الذي من دلالاته التيسير، والتسامح، وحسن التعامل، وهذا ما يمكن وضعه ضمن مشروع تثقيفي في نطاق حضاري شامل .. وهو ما من شأنه إعادة الحياة المفقودة إلى الذات الحضارية المسلمة.

إن مما لا شك فيه أن عملية الملء الحضاري عموماً والثقافي على الخصوص، من شأنها أن تركز في هذه الذات مبدأ العقيدة الصحيحة التي تبعث في عقلها قوة مادية ومعنوية تؤهله لاكتساب الحصانة المطلوبة المانحة للقدرة على الإبداع والفعالية؛ وعلى حسن الاستجابة لتحديات العصر والتعامل معها من منطلق حضاري ذاتي.

إن تزويد الذات بهذه المقومات الضرورية للبناء والتنمية من شأنها أن تمكن الذات الإسلامية من فك كل قيود التبعية والتقليد التي تكبلها، وأن تمدها بالخصوصيات التي تساعدها على تجاوز الروح الانهزامية لتحقيق الانتصار الحضاري.. فتجاوز الروح الانهزامية هو القاعدة الصلبة لرفض كل احتلال للحقول أو العقول، مما يمكن من تحقيق استقلالية القرار الوطني، في الدفاع عن ثوابت الخطاب الإسلامي التي تمنح العقل المسلم حيوية تجعله يتعامل مع مختلف المصطلحات والمفاهيم الوافدة بمنهج نقدي، كوسيلة للفرز والانتقاء ولإبداع المصطلح الحضاري النابع من مقومات هويتنا، وخصوصيات ثقافتنا.

من هنا تبدو أهمية ملء الذات الحضارية في إزالة بعض العوائق المنهجية التي يصطدم بها الخطاب الإسلامي وفتح المهيع الواسع أمام هذا الخطاب لتحقيق الإبداع، والفعالية، والإسهام في صنع الحضارة الإنسانية.

د- الوصل .. بدل الفصل بين التدين والوطنية:

إن من العقبات المنهجية المصطنعة الموضوعة في طريق الخطاب الإسلامي المعاصر، افتعال الخلاف بين التدين والوطنية، فالرفض المتبادل بين هؤلاء وأولئك هو رفض لا يستند إلى دليل، ولا يدعمه أي واقع سليم .. وحتى مقولة «الدين لله والوطن للجميع» التي يتذرع بها بعض القوميين فيرفعونها شعاراً لرفض التدين، إن

هذه المقولة لا يدعمها علم، ولا يؤيدها تاريخ .. فإذا كانت الوطنية هي التشبث بالأرض، فقد وجدنا هذه القاعدة هي التي تطبق على أرض الواقع الفلسطيني حيث إن كلاً من المسلم، والمسيحي، واليهودي يرفع شعار الدفاع عن فلسطين، استناداً إلى التاريخ الديني.

وإذا كان التدين هو الدفاع عن الحق، فإن هذا هو ما جسدته الثورة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي، التي رفعت مبدأ تحرير الوطن من الاحتلال باسم الجهاد كدفاع عن الحمى.. وقد نجح هذا الشعار في تجنيد الجماهير الشعبية، تحت لواء «الله أكبر» وتحت شعار «تحيا الجزائر».

إن الذين يحاولون الفصل بين الدين - التدين والوطنية هم إما جاهلون بحقيقتي التدين والوطنية وإما مدسوسون في صفوف هؤلاء وأولئك، فالتدين الصحيح هو السمو بعقل الإنسان وقلبه إلى أن يتسع لقبول متطلبات الوطنية، والواجبات الدينية.

فليس من قبيل الصدفة أن يقول رسول الإسلام محمد ﷺ عن وطنه مكة: **«والله إنك لأحب بلاد الله إلى قلبي»**.. أو نجد في الأثر الإسلامي: «حب الوطن من الإيمان» فلا إيمان لمن لا وطنية له، ولا وطنية بدون إسلام. إن التمازج بين الوطنية والتدين قد كان دوماً – عبر التاريخ – هو قاعدة البناء الحضاري، وما خالف ذلك فهو نشاز من الفكر، وألغاز من الذكر.. وكل تطرف أو غلو باسم التدين أو الوطنية يتهافت على أرض الواقع، لا يعتد به، ولا يحسب له أي حساب.

فعندما نجد في الخطاب العربي الإسلامي من يتعصب للوطنية على حساب التدين، نعتبره لغواً من القول، وتقزيماً لمفهوم الوطنية.

لئن كنا نعتبر الإسلام هو القبة السامية التي تفيئ إليها من الزيغ والظلم والضلال، فإننا – بالمقابل – نتمثل الوطنية دماً يجري في عرق الكيان البشري، متمثلين في ذلك بقول شاعر العروبة الواقعي:

بلادي هواها في لساني وفي دمي ... يمجدها قلبي، ويدعو لها فمي

ولا خير فيمن لا يحب بلاده ... ولا في حنين الحب إن لم يتيم

بهذه التكاملية بين الوطنية والتدين يمكن بناء إنسان، متوازن نفسياً، متكامل عقلياً، متسامح أخلاقياً.. كما أن خطابنا الإسلامي القوي يجب أن يستمد قوته من هذا التمازج بين التدين والوطنية.

إن كل خطاب ينشد رسالته خارج هذه المقدمة الفكرية السليمة سينتهي إلى نتائج سلبية وخيمة العواقب، هي التجزيئية، والانقسام، والتنابز بالاتجاهات، وتلك هي مظاهر الإعاقة في خطابنا الإسلامي المعاصر اليوم، مما يتطلب تقويماً وإعادة نظر في مبناه ومعناه.

الخاتمة

لئن حاولنا من خلال الورقات السابقة، أن نرسم واقع الخطـاب الإسـلامي المعاصر، فنشخص أعراضه، ونحدد معالم تأزمه، ونبحث عـن مظـاهر الإعاقـة، لتجاوزها وعلاج عللها وأسبابها، ولئن عملنا على إيجاد وقفة تأملية تمكن من رصد تموجات خطابنا المضطربة المتأرجحة، فإن رائدنا في كل ذلك إنما هو إدخال الخطاب الإسلامي المريض إلى مخبر التحـليل الفكري ووضعه على طاولة المشرحة، لتحديد ما يعانيه من عوامـل التأزم التي عاقتـه عن الإبداع الحضـاري الذاتي، والإسهام - بنجاعة - في مسيرة الفكر الإنساني.

ولقد تجلى لنا من خلال عملية التشـخيص، مستوى التدهـور الفكري الذي آل إليه خطابنا وهو ما يمثل نكسة كارثية حادت بفكرنا عن دوره الإنساني الرائـد الذي تميز به عبر العصور فترك بصماته في مختلف مجالات العلوم والمعارف.

إن هذه النكسة العقلية التي مني بـها الفكر الإسـلامي، يجب أن يتصدى لها - بكيفية استعجالية - «كونسيرتو» من أخصائي الفكر الحضاري عندنا، عـالمين بأمراض الشعوب، خبراء بعلل التقدم الإنساني، لإعادة توازننا الفكري المفقود.

وما يمكن تسجيله في هذا المستوى من التشخيص هـو أن أسـباب النكسـة، وعوامل الإعاقة لا تعود إلى قصور ذاتي في العقل الإسلامي الـذي سـبق وأن أدى دوره كاملاً غير منقوص في عملية التقدم الإنساني، كما أن معيقات التقدم لا ترجع إلى طبيعة الثقافة التي نحملها، أو نوعية الحضارة التي ننتمي إليهـا، وإنمـا العلـل والأسباب تعود إلى عوامل خارجية هي سبب ما نعانيه، وليس هذا من باب مبـدأ «الذرائعية» التي تتّخذ الـ«هُوَ» مشجباً لتعليق عيوب «الأنا».

فالحقيقة التي لا ينكرها إلا معاند هي أن ضربات كثيرة تتالت على فكرنا الإسلامي، بدءاً بالصدمة الاستعمارية المدمرة، وانتهاءً بمخاطر العولمة، التي ناءت بكلكلها على أرضنا فهيمنت على خيراتنا، وسلبت حرية إرادتنا، وهمشت مراكز القرار في مجتمعاتنا.

لذلك نعتقد أن الاستجابة ستكون في مستوى قوة التحدي والصدمة .. ويبدأ ذلك بفك قيود وعلائق، وتجاوز محطات وعقبات للوصول إلى الهدف المنشود .. ومن بين المراحل التي يجب قطعها، والعقبات التي ينبغي تجاوزها، تبرز ظاهرة الصراع بين الجغرافيا والتاريخ في أرفع مستوياتها، والاحتكاك بين العالمية الإسلامية والعولمية الحداثية، والصدام بين الاتباعية والانحباسية، وأعراض التقزم الذاتي، والذبذبة النفسية والغثائية الفكرية .. كيف يمكن تحقيق ذلك ؟ من الموكول إليه الاضطلاع بهذه المهمة ؟ هل القضية من اختصاص القرار السياسي ؟ هل هي رسالة علماء ومفكرين؟

إن الدلائل الماثلة للأعين تؤكد فشل الخطاب السياسي في تحقيق مطامح الأمة.. كما تؤكد عجز الفكر الإسلامي - بمنهجه السائد - عن الوصول بخطاب الأمة إلى مستوى طموحها العميق، لذلك بات من المسلم به أنه لا مناص من تجديد منهج الخطاب الإسلامي، لتحقيق ما عجز عنه الخطاب السياسي الخاضع لضغوطات خارجية شتى.. ولن يتأتى ذلك إلا بتبني منهج تجديدي يستمد ينابيعه من كنوز فكرنا السليم، ويأخذ بعين الاعتبار أبرز ما في الفكر الإنساني من تراث قويم .

كما يستمد المنهج التجديدي لخطابنا المنشود خصوصيته من دعوته إلى الوحدة بأوسع مدلولاتها، وإلى الأخوة بمختلف خصوصياتها، مع ضرورة التنسيق، والتكامل في جميع المجالات العقلية.. وذلك هو ما يطمح إليه كل بحث تقويمي لمقومات الخطاب الإسلامي المعاصر وإعادة النظر في بنيته ومنهجه.

نحو خطاب إسلامي راشد

الدكتور محمّد الفاضل اللاّفي (*)

دور المرأة الرسالي كبير، إذ الحياة في جميع جزئيّاتها شراكة بينها وبين الرّجل، فكان من الصحابيات الشيخة المعلّمة والطبيبة والفارسة، يشاركن في الحياة بكلّ فاعلية وإيجابية. فلم يكن أمر مشاركة المرأة في أدوار الحياة بالقضية المطروحة أو الإشكال المستعصي، فهي تقوم بدورها الطبيعي في الحياة، مؤدية أمانة الاستخلاف، متحمّلة مسؤولية التبليغ.

تمهيد:

يعتبر الخطاب الديني الإسلامي المعاصر من القضايا الحديثة التي فُرِضت على المثقفين الإسلاميين، فقد كان الأمر سابقاً في الدائرة الإسلامية لا يتعدى التوجيه والإرشاد والتنبيه والتحذير، بعيداً عن التنظير المقعّد لقضايا الخطاب الديني، والذي يعتبر من المسائل المستحدثة والمفروضة نتيجة ضغط الواقع، الذي كثيراً ما نستحي من الخوض فيه والاعتراف بتقصيرنا تجاهه، حتى ننتبه تحت صدمة الأحداث وهول

(*) باحث.. مركز البحوث والدراسات، المعهد الأوروبي للعلوم الإنسانية (فرنسا).

المصيبة، فنجد أنفسنا أمام إلزامات (الآخر) واستحقاقات الواقع، فنحاول المسك بزمام المبادرة ومعالجة الأزمة بخطاب مؤقّت في انتظار صياغة مشروع أكثر عمقاً وأمتن بناء، في ضوء معارف الوحي وتقدير متطلبات الواقع، وعلى هدي من تجربة المصلحين الذين أسهموا في ترشيد مسيرة الأمّة وتحريرها من أسباب الغفلة والتقاعس.

وقد سارعت أغلب المؤسّسات الإسلامية الدولية والإقليمية، إن لم أقل جميعها، إلى عقد ندوات وملتقيات وحلقات بحثية[1]، تدور كلّها في فلك الخطاب الديني، حتى تشابهت عناوينها وتماهت محاورها وتكرّرت الوجوه المدعوّة، وهو دليل إمّا على عدم معرفة سابقة بمثل هذه القضايا أو الترفّع عنها والانشغال بمسائل هي أقرب إلى الترف الفكري إن لم تكن إلى الاجترار. ونتائج ذلك ما نحصد اليوم من الحَصْرم ونتجرّع من مرارة المضايقة والمحاصرة، فأضحى المسلم في الغرب أو كلّ من له ملامح شرقية محلّ شكّ وريبة، عرضة لصنوف الاتّهام، تُغذّي كلّ ذلك حركة الإعلام المشبوه الذي يستعدي المجتمعات الغربية على المسلمين، ويثاقفهم وفق نزعة

(١) من ذلك المؤتمر الدولي السابع عشر للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية التابع لوزارة الأوقاف المصرية والذي عقد تحت عنوان «إنسانية الحضارة الإسلامية» أيّام ١٧ - ٢٠ إبريل ٢٠٠٥م، وبمشاركة ٦٤ دولة: ١٩ دولة عربية، و١٢ دولة إفريقية، و١٣ دولة آسيوية، و١٤ دولة أوربية، و٥ دول من أمريكا الشمالية والجنوبية وأستراليا، إلى جانب ٧ منظمات دولية: المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم الثقافة (إيسيسكو)، وجامعة الدول العربية، ورابطة الجامعات الإسلامية، والمجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، وجمعية الدعوة الإسلامية، والجمعية الخيرية الإسلامية العالمية، وبحضور ٩٨ شخصية من مختلف أنحاء العالم، منهم ٢٢ وزير أوقاف، و١٣ مفتياً، و٥٣ مفكراً إسلامياً، بالإضافة إلى مفكرين من ٦ دول غربية هي: فرنسا، وألمانيا، والفاتيكان، وإنجلترا، والنرويج، والمجر، وقد بلغ عدد الأبحاث التي وصلت للمؤتمر ٧٤ بحثاً، منها ٤٥ بحثاً من خارج مصر.

ويستهدف المؤتمر مواجهة الحملة التي يتعرض لها المسلمون في العالم بطريقة مختلفة عن المألوف، والتعريف بقيم الإسلام العالمية، وحضارته الإنسانية، وتمّ اختيار «إنسانية الحضارة الإسلامية» عنواناً للمؤتمر لسببين؛ «الأول توجيه رسالة للمسلمين في كل مكان لإعادة النظر في مواقفهم والالتفات لقيم الإسلام، والسبب الثاني هو توجيه رسالة للعالم الخارجي لإعادة النظر في مواقفهم إزاء الإسلام والمسلمين».

عدائية حاقدة، فكأنّها تستدعي رواسب قديمة سنحت الفرصة لتصفيتها على حساب المواطنة والسلم الاجتماعي.

وأشدّ خطورة من ذلك أن يتصدى للتحدّث باسم الأمّة أنصاف المتعلّمين أو من اتّسخت أيديهم بدماء الأبرياء، في حين يتخلّى رجل العلم والداعية الممتاز عن دوره الخطير، هذا إلى جانب المؤامرة الإعلامية الخطيرة القائمة قصداً على انتقاء المتحدّثين باسم الإسلام وأهله، ممّن يجهل حقائق الدّين أو من رموز العلمانية التي تعاد الدّين جملة واحدة وتستخفّ بمعتنقيه. لذلك كان لزاماً أن يتصدّى لأمر التأصيل المعرفي ومعالجة قضايا الخطاب الديني أهل العلم والتجربة، ممّن عايشوا حركة الوعي الإسلامي وشهدوا تفاعلات الساحة الفكرية المتشابكة، بعيداً عن «وعي اللّحظة» وليد الأزمة، الذي لا يصلح شفاء لسقم الأمّة، على مستوى الفرد والجماعة، سواء أكان ذلك في ديار الإسلام أو بين المسلمين المواطنين في بلاد الغرب خاصّة وحيثما وجدوا عامّة.

وليس لنا من سبيل إلى تدارك الأمر والخروج من الدائرة المفرغة، إلاّ أن نأخذ الكتاب بقوّة ونعيد تشكيل العقل الإسلامي الرّسالي، وفق معايير وضوابط شرعية صحيحة متينة واضحة غير متناقضة، تجمع بين تربية المسلمين على قيم الدين الحنيف وتجاوز الخلل والتقصير وبين الكشف عن حقائق الدين وما يبشّر به من خير عميم للبشرية جميعاً بلا استثناء، كما تحاور (الآخر) بكلّ ندية واعتزاز في ضوء قيم التعارف والتدافع بالتركيز على المشترك الإنساني، وتجنّب الاستفزاز والتحريض والاستخفاف، مستحضرين في كلّ ذلك همّة الداعية وأخلاق الرسالي الذي يشفق ويحن على الآخرين، فيقاسمهم هذا الخير الذي أنزلت به الكتب وأرسلت به الرّسل.

لذلك فإنّ الوعي الإيجابي محدّد رئيس لحركة التفاعل المجتمعي المؤثّر، الذي ينتقل بالإنسان من خانة الاستهلاك السلبي إلى دائرة الفعل البنّاء، المنتج صور التنافع

والتشارك والتقاسم العادل على قاعدة التناصح والتواصي بالخير، والبحث عن ثغوره والتسابق نحو النّهل من معينه، كلّ على قدر آلته ووعائه. والمسلم الواعي أحكام دينه اجتماعي بطبعه، لأنّه صاحب رسالة في الحياة، وأصحاب الرّسالات لابد لهم من الاتّصال بالنّاس؛ يخالطونهم ويبادلونهم الأخذ والعطاء. بل المسلم عنصر نفّاع من الطراز الأوّل، بما لقن من أحكام دينه وبما تمثّل من أخلاقه الإنسانيّة الرّفيعة[1] التي بشّر بها الإسلام، فدعا لها عبادة، وأمر بها سلوكاً، وندب إليها تأسّياً واقتداءً بالمثال النّبوي الذي كان خُلقه القرآن.

فالمسلم مدعوّ بنصّ الدّين إلى التزام حدود الله في سلوكه الاجتماعي ومعاملته للنّاس، وعلى هذا الأساس فقط يمكن فهم طبيعة الأخلاق الاجتماعيّة الإسلاميّة التي يقيم في ضوئها المسلم الصادق والنافع علاقات التواصل الاجتماعي ويبشّر بها بديلاً عقديّاً لمألوف النّاس، حتى تنضبط وَفقها مختلف تصوّراتهم الذهنيّة وممارساتهم العمليّة، فتصير الأخلاق والبحث عن المنفعة المشتركة وشتّى صور التّواصل قُربى لله يعبده بها، بعدما كانت التزاماً مجرّداً تفرضه طبيعة الانتماء للمجتمع والانتظام في عقده، لأنّ فعل الخير يؤدّي بالضرورة إلى الفلاح ﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩﴾ (الحج:٧٧).

فالمسلم يسارع إلى فعل الخير واثقاً بمثوبة الله له في كلّ عمل ابتغى به مرضاته وسلمت فيه نيّته إخلاصاً وبذلاً لله وحده، هكذا علّمنا الرّسول الكريم ﷺ أنّ كُلّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ « **تَعْدِلُ بَيْنَ الاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ**

(١) محمّد علي الهاشمي، شخصيّة المسلم كما يصوغها الإسلام في الكتاب والسنّة، طبعة الاتّحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلاّبية، ١٩٨٣م، ص٢٢٦ بتصرّف.

عَلَيْهَا أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ.. وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلاةِ صَدَقَةٌ، وَتُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ» [1]. وخير المسلمين في المجتمع من يُرجى خيره ويؤمنُ شرُّه: « **خَيْرُكُمْ مَنْ يُرْجَى خَيْرُهُ وَيُؤْمَنُ شَرُّهُ، وَشَرُّكُمْ مَنْ لا يُرْجَى خَيْرُهُ وَلا يُؤْمَنُ شَرُّهُ»** [2]، بل من أسباب زوال النّعم وحلول النّقم بالمرء البخل على النّاس بما أنعم الله به عليه وتفضّل.. «**ما من عبد أنعم الله عليه نعمةً فأسبغها عليه، ثمّ جُعِل من حوائج النّاس إليه فتبرّم، فقد عرّض تلك النّعمة للزّوال**» [3].

وقد كان من جوامع كلمه ﷺ المطابق قَول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (فصلت: ٣٠) قوله لسفيان بن عبد الله الثقفي: « **قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ فَاسْتَقِمْ**» [4]، وهو ما حدا بالإمام مسلم أن يسمي باب الاستقامة (باب جامع أوصاف الإسلام)، ففي الاستقامة المنبثقة عن الإيمان بالله تتجمّع الفضائل كلّها، وتلتقي مكارم الأخلاق، ومن الاستقامة تتشعّب خصال الخير، وتتفرّع الأعمال الصّالحات. فالوجه المبتسم الصّبوح والقلب المنشرح المشفق على الآخرين والانشغال بهموم النّاس برغم اختلاف الدّين والأصول والمشارب كلّ ذلك من أصول الدّين الحنيف، فكثيراً ما يجد المريض في الغرب المستشفى الذي يضمّه، والطبيب الذي يسعفه ويداويه، ولكنّه قلّما يجد اللّمسة الحانية، والكلمة

(١) أخرجه مسلم.
(٢) أخرجه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح.
(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط وإسناده جيّد.
(٤) أخرجه مسلم.

الشّافية، والبسمة المنعشة، والدّعوة المخلصة، والمشاركة الوجدانيّة الصّادقة[1]، فيكون ذلك باب خير ينفتح للمسلمين لينتشروا بدعوتهم ويخاطبوا النّاس عن قرب في دورة للتّعارف جديدة، قائمة على قاسم للإنسانيّة مشترك جامع لمعاني التواصل والتعاون، فالرّسول ﷺ وهو يعود الغلام اليهودي المريض لم تفته دعوته للإسلام، إذ كان يدرك وقع زيارته الشريفة في نفس الغلام وأبيه اللّذين غمرهما بكرمه وفضله ولطفه وحسن تأتّيه[2]، كما أنّ التحوّلات الجارية في العالم قد غيّرت كثيراً من أساليب وطرق التكافل الاجتماعي التلقائي، وأعطت لمعاني التسامح أبعاداً جديدة كالتعارف، والتفاهم، والتعاون، وتقبّل (الآخر)، والتعايش.

قِيَم التعارف والتدافع:

إن المسلم في اعتقاده وسلوكه إنّما يصدر عن الدّين الحنيف المبنيّ في جوهره على مقاصد تنتظم جميع أحكامه وإرشاداته، وهذه المقاصد هي مصالح تحقّق للإنسان الخير والسعادة. ومن هذه المصالح ما هو منصوص عليه على وجه الوضوح، ومنها ما هو غير منصوص عليه، ولكنّه مبثوث في واقع تصرّفات الدّين في صياغته للأحكام[3]. والإنسان في جميع ذلك يتقلّب بين التصديق والتطبيق، أي بين الاستيعاب الواعي للنّصوص المجرّدة والانتشار بها عملاً منتجاً للخير، وذلك هو الإيمان الصّادق.

إن كل سلوك إنساني إرادي لابد أن يقوم على عنصرين أساسين هما شكل ظاهري ودافع، ولئن كان الشكل هو العمل المعيّن في الوقت المعيّن كحركات

---

(١) محمّد علي الهاشمي، مرجع سابق، ص٣٥٥، بتصرّف.

(٢) انظر: يحي بن إبراهيم اليحي، نفحة عبير من سيرة البشير النذير ﷺ، ط١ (دار القاسم، ١٩٨٩م) ص٧٨ .

(٣) عبد المجيد النجّار، فقه التديّن، فهماً وتنزيلاً (الزيتونة للنّشر والتوزيع، ١٩٩٥م) ص ٨٢ .

الصلاة عند الصلاة والإحسان إلى الفقير، فإنّ الدافع هو الشعور بوجوب تطبيق الأمر الإلهي. وهذا الشعور إنّما هو حصيلة للإيمان الجازم الرّاسخ بوجود الله سبحانه، الذي أرسل الرّسل وأنزل الكتب بقصد تحقيق سعادة البشر في الدّارين، وبذلك تكون العقيدة هي الدّافع إلى السلوك في التصوّر الإسلامي[1]، وهو معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنعام:١٦٢).

فأعلى مراتب الإيمان حصول كيفيّة من ذلك الاعتقاد القلبي الموافق للّسان وما يتبعه من العمل مستوليّة على القلب، فيستتبع الجوارح، وتندرج في طاعتها جميع التصرّفات، حتى تنخرط الأفعال كلّها في طاعة ذلك التصديق الإيماني[2].

إنّ تصوّر المسلم لمعنى التّعارف ومضمونه إنّما ينبع من مصدره المعرفي المعياري المُطْلَق الذي يحاكم إليه تصوّراته الفكريّة وممارساته السلوكيّة، والذي يحدّد تلك العمليّة الحضاريّة في أربعة اتّجاهات كبرى يتضمّنها النصّ القرآني على النّحو التّالي:

أ - **الاستخلاف في الأرض:** جعل الإسلام غاية الإنسان في الحياة إقامة الخلافة في الأرض على الوجهة التي تحقّق مقصد وجوده، وتكفل مناط التكليف، وتعطي معنى للتّشريف الذي أُكرم به، وللتّسخير الذي خُصّ به، لا غيبة أو عجزاً من المستخلِف فذلك منتف في حقّه تعالى، وقد سمّاه الله خليفة لأنّه يخلف الله في الحكم بين المكلّفين من خلقه[3]، فالخليفة آدم وخَلَفِيَّتُهُ قيامُهُ بتنفيذ مراد الله تعالى من تعمير الأرض بالإلهام أو بالوحي وتلقينُ ذريته مراد الله تعالى من هذا العالم الأرضي،

(١) عبد المجيد النجّار، العقل والسلوك في البنية الإسلاميّة (تونس: منشورات مطبعة الجنوب مدنين، ١٩٨٠م) ص١٤٨ وما بعدها بتصرّف .

(٢) عبد الرّحمن بن خلدون، المقدّمة (القاهرة: دار الشعب) ص ٤٢٦ .

(٣) الفخر الرّازي، التفسير الكبير، مفاتح الغيب (لبنان: دار الفكر، ١٩٩٥م) م١/٢/١٨٢ .

وممّا يشمله هذا التصرّف تصرّف آدم بسنّ النّظام لأهله وأهاليهم على حسب وفرة عددهم واتّساع تصرّفاتهم، فكانت الآية من هذا الوجه إيماء إلى حاجة البشر إلى إقامة خليفة لتنفيذ الفصل بين النّاس في منازعاتهم، إذ لا يستقيم نظام يجمع البشر بدون ذلك[1]، وهو ما أومأ إليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٣٠)، فغاية حياة الإنسان إذن في نطاق عقيدة الخلافة أن يقوم بحركة تعمير في الأرض وفق أوامر الله ونواهيه، بحيث يكون في كلّ منشط مادّي أو معنوي متّجهاً إلى الله تعالى يستجلي مراده ويتحرّاه، ويبتغي مرضاته، ويجدّ في الفوز بها[2].

ب - **الاجتماع البشري وأصول التعارف**: وهو ما يقتضيه الاستخلاف في الأرض بما أنّ حياة الفرد لا تستقيم إلاّ في جماعة النّاس تحقيقاً لسنّة التدافع، بالتكاثر والتنافع الإيجابي والصّالح بما يحقّق شرط الاجتماع ويوفّر شروط استمراره. فكان ذلك أصل الدّين وأسّه وغاية الشرائع التي بشّرت بخير الإنسانيّة وأهدتها مشكاة الفوز وعيّنت لها طُرق الفلاح القائمة على التقوى والورع والترقّي في سبل العبادة الموصلة إلى مرضاة الله، فكان ذلك مقياس الخيريّة ومدار التّكريم مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات:١٣)، فنُودُوا بعنوان «النّاس» دون المؤمنين

---

(١) محمّد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (تونس: الدار التونسيّة للنّشر) ٣٩٩/١ .

(٢) عبد المجيد النجّار، فقه التحضّر الإسلامي، ضمن سلسلة الشهود الحضاري للأمّة الإسلاميّة، ط١ (لبنان: دار الغرب الإسلامي،١٩٩٩م) ٥٢/١.

رعياً للمناسبة بين هذا العنوان وبين ما صُدِّر به الغرض من التذكير بأنّ أصلهم واحد، أي أنّهم في الخليقة سواء، ليتوسّل بذلك إلى أن التفاضل والتفاخر إنّما يكون بالفضائل، وإلى أنّ التفاضل في الإسلام يكون بزيادة التقوى[1]، فكان هذا التقسيم الذي ألهمهم الله إيّاه نظاماً محكماً لربط أواصرهم دون مشقّة ولا تعذّر، وفي ذلك نكتة بالغة وهي أنّه لما كانت السّخريّة واللمز والتنابز مما يحمل عليه التنافس بين الأفراد والقبائل جمع الله ذلك كلّه في هذه الموعظة الحكيمة التي تدلّ على النداء عليهم بأنّهم عمدوا إلى هذا التشعيب الذي وضعته الحكمة الإلهيّة فاستعملوه في فاسد لوازمه وأهملوا صالح ما جعل له بقوله: ﴿ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ ثمّ تبعه بقوله: ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾ أي فإن تنافستم فتنافسوا في التقوى، كما قال تعالى: ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ (المطففين:٢٦) ومن معنى الآية ما خطب به رسول الله ﷺ في حجّة الوداع، إذ قال[2]: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ: أَلا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلا لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلا لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلا بِالتَّقْوَى**»[3].

كما لم تخل هذه الخطبة التاريخيّة من التأكيد الجازم على حقّ الجار، فقد اعتصر فيها الرّسول ﷺ أهمّ ما ينبغي قوله للمسلمين في ذلك، حتى ظنّ بعض الصحابة أنّه سيورّثه، لقول أبي أمامة ﷺ : «سمعت رسول الله ﷺ، وهو على ناقته الجَدعاء في حجّة الوداع يقول: **أوصيكم بالجار** حتّى أكثر، فقلتُ: يُوَرِّثُهُ »[4]. بل جَعَل

(١) انظر: سيّد قطب، معالم في الطريق، ط٤ (الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظّمات الطلاّبية، ١٩٨٥م) ص١٠٩.

(٢) محمّد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ٢٥٨/٢٦ وما بعدها، بتصرّف.

(٣) أخرجه أحمد.

(٤) أخرجه مسلم.

الإحسان إليه، والتنزّه عن أذاه، علامةً من علامات الإيمان بالله واليوم الآخر، ونتيجة حتميّة من نتائجه الحسان: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ**»[1]، وقوله ﷺ: «**ما آمن بي من بات شَبْعانَ، وجارُه جائعٌ إلى جنبه، وهو يعلمُ**»[2]. فالمقصود من التعارف ليس مجرّد تعرّف هويّة الجار من الأسماء والأصول، وإنّما التعارف الذي نعنيه هو التواصل الإيجابي النافع، الذي يجعل من أفراد المجتمع كتلة موحّدة فاعلة، تتجاوز الخصائص التكوينيّة الذاتيّة في سبيل بناء أرحب وأعمق، يجعل من خصوصيّات الهويّة المميّزة لكلّ أمّة عامل تنوّع وثراء لصياغة نمط للمجتمع جديد، يستوعب الأفراد والجماعات ويقدر على فهم عواملها التكوينيّة.

وبناء على هذا الفهم يُعمل بالمتّفق، ويُضمن حفظ الخصوصيّة الذاتيّة، التي تضفي على البناء الثقافي والحضاري لذلك المجتمع سمة تعدّدية التنوّع لا الاختلاف والتناقض والقطيعة، وهو ما أشارت إليه الآيات القرآنيّة السّابقة التي اعتبرت التعدّد شعوباً وقبائل من آيات الله يوظّف في الصّالح العام ولا يُتّخذ مطيّة للتفاخر والتنابز ضرباً من العنصريّة المقيتة التي ساهمت بأقدار متفاوتة في تفكيك بناء مجتمعات كثيرة، ووجد كثير من ضحاياها ضالّته في الإسلام الذي جعل النّاس سواسيّة لا يتفاوتون إلاّ في العمل الصّالح؛ أي بقدر نفعهم لمجتمعاتهم تحقيقاً للتكافل والتعاون والنُصرَة وتوفيراً للأمن والسلامة لأفراده، فلا يشعر أحدٌ فيه بغربة أو حاجة أو مَظلمة، تتكافأ حقوقهم وواجباتهم ويجمعهم صدق الولاء لقضاء مصالح الوطن، ويضربون بيد من حديد على يد الباغي الذي يفسد عليهم أمنهم واستقرارهم، مهما كان دافعه: غطاء دينيّاً زائفاً أو نزعة عرقيّة عدوانيّة جامحة أو تبريراً أيديولوجيّاً يفرض قناعته على النّاس رهبة

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه الطبراني والبزّار.

لا سلماً وقناعة، حتى وإن كان يبرّره ديمقراطيّاً؛ لأنّ الديمقراطيّة في أرقى صورها الحضاريّة هي حفظ حقّ الآخرين وإن كانوا قلّة. وبناء على هذا التصوّر فقط يمكن الحديث عن التعارف الحضاري الذي هو في فكرنا العقدي الإسلامي عبادة يُتقرَّبُ بها إلى الله تعالى، إذ أنّ علاقة المسلمين بغيرهم علاقة تعارف وتعاون، وبرّ وعدل[1].

ج – **غاية الخلق وحفظ العهد:** إنّ الهدف والغاية من خلق الجنّ والإنس أن يقوموا بعبادة الله تعالى وحده، وإذا كان الأمر كذلك فإنّه يلزم عليه أن تكون العبادة شاملة للدّين كلّه؛ لأنّ تفسير العبادة ببعض تكاليف هذا الدّين يجعل الغاية من خلق الثقلين منوطة بها دون التكاليف الأخرى، وقد يترتّب على هذا الخطأ في الفهم تعطيل بعض أمور الدّين[2]. وقد بيّن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦)، فللعبادة في العقيدة الإسلاميّة مفهوم خاصّ يتّصف بالشّمول، فالله تعالى تعبّد الإنسان في كلّ شؤونه، كبيرها وصغيرها؛ إذ شملت الأوامر والنّواهي كلّ تلك الشؤون[3]، فلا عمل يفرض، ولا حركة ولا سكون يُدَّعى، إلاّ والشّريعة عليه حاكمة، إفراداً وتركيباً[4].

فالعبادة هي اسم جامع لكلّ ما يحبّ الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، من غير اقتصار على شعائر دون غيرها، فقد نهى عبد الله بن مسعود ﷺ جماعة من أهل الكوفة عن اتّخاذهم مسجداً في الصحراء بقصد اعتزال النّاس والتفرّغ للعبادة، بل وما تركهم حتى قلع أبنيتهم وردّهم، كما بعث عبد الله ابن المبارك إلى الفضيل بن عياض رسالة يعرّفه فيها معنى العبادة، وممّا جاء فيها:

(١) السيّد سابق، فقه السنّة، ط٤ (بيروت: دار الفكر، ١٩٨٣م) ١٣/٣.
(٢) عبد العزيز بن عبد الله الحميدي، الرّسائل الشموليّة (مكّة المكرّمة: دار عيون المعرفة، ٢٠٠٠م) ص ١٧٩.
(٣) عبد المجيد النجّار، قيمة الإنسان، ط١ (الرباط: دار الزيتونة للنّشر، ١٩٩٦م) ص٣٣.
(٤) الشّاطبي، الموافقات، ط١ (الجيزة: دار ابن عفّان، ٢٠٠٠م) المقدّمة٩، ١٠٨/١.

يا عابد الحرميـــن لو أبصـــرتنا لعلمت أنّك بالعبـــادة تلعـــب
من كان يخضب جيده بدموعه فنحورنـــا بـــدمائنا تتخضّـــب
أو كان يتعب خيلـــه في باطل فخيولنا يوم الصـــبيحة تتعـــب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنـــا رهج السنابك والغبار الأطيـــب
ولقد أتانا من مقـــال نبيّنـــا قول صحيح صادق لا يكـــذب
لا يستوي وغبار خيـــل الله في أنف امرئ ودخان نار تلـــهب
هذا كتاب الله ينطق بيننـــا ليس الشهيد بميّـــت لا يكـــذب

ولقد أدرك الفضيل بن عياض خطأه وتقصيره، فبكى حينما سمع هذه الرّسالة، فأيّ أنواع التعبّد أفضل؟. أجاب عن ذلك الإمام ابن القيّم رحمه الله [1] بأنّ لأهـــل مقـــام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ في أفضل العبادة وأنفعها وأحقّها بالإيثار أربع طرق، ولعلّ أهمّها رأي الصنف الثالث الذين رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها ما كان فيه نفع متعدّ، إذ هو أفضل من ذي النفع القاصر. ومن ذلك أنّهم رأوا خدمة الفقراء، والاشتغال بمصـــالح النّـــاس وقضاء حوائجهم، ومساعدتهم بالمال والجاه والنّفع أفضل. فتصدّوا له وعملـــوا عليـــه واحتجوا بقول النبي ﷺ : «**الخلق كلّهم عيال الله، وأحبّهم إليه أنفعهم لعياله**» [2].

إنّ لزوم أنواع العبادة المتعدّدة الأوجـــه واجـــب الاتباع، عهداً أخذه الله مـــن بني آدم يحفظونه ويسألون عنه مصداقاً لقولـــه تعـــالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (النور:٥٥)، فقد وعـــد الله

(١) مدارج السّالكين (القاهرة: مطبعة السنّة المحمدية).
(٢) أخرجه أبو يعلى.

سبحانه الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأن يستخلفهم في الأرض، وذلك بأن يمكّنهم من الهيمنة عليها ليعمروها على قواعد شريعة الله، وجعل المؤهّل لهذا الاستخلاف هو عبادة الله وحده، وهو بيان واضح على شمول العبادة لكلّ نواحي الحياة[1]، حتى يسير النّاس في جميع أفكارهم وأعمالهم على مقتضى ما شرِع لهم، فالعبادة على هذا تشمل كلّ عمل مشروع أريد به وجه الله سواء كان من أعمال القلوب أو من أعمال الجوارح[2].

د - **أمانة الشهادة على النّاس:** وجّهت سور كثيرة من القرآن الكريم نداءً عاماً إلى الطوائف كلّها بوصف الإنسانيّة العام ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ الذي جعل عنواناً في الخلق والتقدير على العقل والنظر والتدبّر، رجاء التخلّص مما يفسد عليهم إنسانيّتهم التي تقضي باعتناق الحقّ والعمل بمقتضاه، والتمتّع بلذّته والاهتداء بهديه ونوره، فكان مدار دعوة الحق وأصول الدين:

- التوجّه إلى الله وحده بالعبادة.
- الإيمان بالرّسل بلا استثناء.
- الإيمان بدار البعث والجزاء.

وقد عُبّر عن ذلك بلفظ البرّ الذي هو جماع الخير، الذي بما يشمل من المعاني النفسيّة، والأخلاق الحسنة، وما ينشأ عنهما من أعمال صالحة طيّبة يتقرّب بها العبد إلى ربّه، وأمّا بالنسبة إلى الله فهو الثواب والرضا والمحبّة الإلهيّة، فهو لا يرتبط بشيء من المظاهر والصور والأشكال، وإنّما يرتبط بالحقائق ولبّ الأمور وروح التكاليف، وهو أنواع ثلاثة جامعة لكلّ خير:

---

(١) انظر: سيّد قطب، المستقبل لهذا الدّين (الاتّحاد الإسلامي العالمي للمنظّمات الطلاّبية، ١٩٨٨م) ص٢٥.

(٢) عبد العزيز بن عبد الله الحميدي، مرجع سابق، ص ١٨٧ وما بعدها.

- **البرّ في العقيدة:** وجوهره الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيّين.

- **البرّ في الخُلُق:** ويتمثّل في مبدأين؛ مبدأ القيام بالواجب وفاء بالعهد، ومبدأ مقاومة الطوارئ والتغلّب على عقبات الحياة؛ صبراً في البأساء والضرّاء وحين البأس.

- **البرّ في العمل:** ببذل النّفس والمال ابتغاء مرضاة الله، وهناء خلق الله. إذ العمل مدد العقيدة، فهو إيمان قراره القلب ومسالك تصديقه وتنميته وحفظه هو العمل الصالح[1]، الذي ينتفع به الخلق كلّهم بلا استثناء، وهو جوهر دعوة الإسلام الذي يوجب العدل ويحرّم الظلم، ويجعل من تعاليمه السامية وقيمه الرّفيعة من المودّة والرحمة والتعاون والإيثار والتضحية وإنكار الذات، ما يلطّف الحياة ويعطف القلوب ويؤاخي بين الإنسان وأخيه الإنسان[2].

ولئن كان في القرآن الكريم خطاب عامّ موجّه للنّاس كافّة، ففيه كذلك خطاب خاص موجّه للّذين آمنوا وصدّقوا بأن ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ (الإسراء:٣٤)، لاعتبار أنّ الإنسان عابد لله على كلّ حال: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأنعام:١٦٢) فكان التسخير ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية:١٣)، تسهيلاً لمهمّة العبادة والإحاطة بجميع صورها الشعائري منها والسلوكي، لتحقيق معنى الاستعمار الإيجابي: ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (هود:٦١)، وتحصيل درجة الشهادة على النّاس: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا

(١) محمود شلتوت، تفسير القرآن الكريم، ط٨ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٨١م) ٧١/١ وما بعدها.
(٢) سيّد سابق، فقه السنّة، ٧/٣.

شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾ (البقرة:١٤٣)، فلئن كانت هذه الآية في مقام التنويه بالدّين الذي جاء به الرّسول ﷺ [١] متّصفاً بالوسطيّة [٢] في التصوّر والاعتقاد والتنظيم والتنسيق والتفكير والشعور والارتباطات والعلاقات[٣]، فإنّ الشهادة تمثّل منهجاً متكاملاً في التعامل الحضاري للمسلمين مع الآخرين من النّاس، قائماً على أسس العلم والبيان والتبليغ والعدل في كلّ ذلك، حتى تكون الشهادة مفضية إلى نفع المشهود عليهم[٤]، فهي شهادة على النّاس بشهادة العلم بحقائق الدّين والكون والنّاس، ثمّ شهادة على النّاس بتبليغ تلك الحقائق تبليغ إنقاذ وإصلاح ونشر للخير، شهادة عدل في الموقع الوسطي بين المتطرّفات في الأفكار والسلوك، ليكون ذلك الموقع مثوبة لمن ترهق فطرته مسالك التطرّف، وشهادة عدل في الحكم بين النّاس بالتعامل المتساوي معهم، وبردّ جائرهم عن مظلومهم، ونصرة المستضعفين والمقهورين[٥].

الحوار ومبرّراته:

إن العلاقة بين الأفراد والجماعات لا ينتظمها السلم الاجتماعي، وتتخلّص من حالة الجمود والانغلاق والحذر الدائم من الآخرين، إلاّ إذا بُنِيت على أُسُسٍ من التواصل والتحاور متينة، تبني جسور التواصل الراشد وترسّخ الثقة مبدءاً وقيمة، فيصبح ذلك ثقافة ضرورية تشكّل وعي المجتمع في علاقاته البسيطة ومؤسّساته المركّبة. وعندما يعيش السلام في الضمير ويقوم السلام في البيت ويعلو السلام في

---

(١) محمّد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٣٥٢/١٧.
(٢) المرجع السابق، ٢٠/٢.
(٣) سيّد قطب، في ظلال القرآن، الطبعة الشرعيّة الخامسة عشرة (القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٨م) ١٣١/١.
(٤) عبد المجيد النجّار، فقه التحضّر الإسلامي، ص٨٤.
(٥) نفس المرجع السابق، ص١٢١.

أحضان المجتمع، بمعنى أنّه عندما تترجم مبادئ الأخوّة والمساواة والعدالة إلى أعمال حيّة، وتزول حواجز التعصّب ويزول الظلم[1] والشعور بالغبن والقهر المقنّن، فإنّ السلام المجتمعي ينشر ظلاله ويستوعب «الكلّ» بلا تمييز أو اصطفاء جائر على أسس من الدّين مغلوطة أو تقديرات بشريّة قاصرة ممّا من شأنه أن يكون مُؤذناً بخراب العمران، على رأي الاجتماعي المسلم عبد الرحمن بن خلدون[2]. وبناء على ذلك فقد وُجدت مبرّرات حقيقيّة للحوار دافعة نحوه ومشجّعة عليه، بعضها مشترك يلتقي فيه كلّ النّاس على اختلاف نِحَلِهم ومِلَلِهم، وبعضها اختصّ به المسلمون راجعاً إلى طبيعة اعتقادهم وأمر دينهم، فثقافة الحوار ملزَمة لاعتباره:

١ - **ضرورة شرعيّة**: على اعتبار أنّ ما لا يتمّ الواجب إلاّ به فهو واجب، وعلى خلفيّة أنّ تبليغ الدّين لا يكون إلاّ بمخاطبة النّاس ومخالطتهم والتعرّف عليهم عن قرب وما يصحب ذلك من تحاور وتبادل للرّأي، فمن مقتضيات الدعوة التبليغ، ومن شروط التبليغ المخاطبة، ومن ضروريات المخاطبة المخالطة، استجابة لأمر الله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ (النحل:١٢٥). وحذراً من العاقبة التي أنذرنا الرسول ﷺ: «**كم من جار متعلّق بجاره يوم القيامة، يقول: يا ربِّ هذا أغلق بابَهُ دُونِي، فمنع معروفَهُ**»[3]، فالمسلم الرّاقي في إسلامه لا يدّخر وسعاً في إسداء المعروف لجاره، فيفتح له باب الرعاية والودّ والإكرام على مصراعيه، محاذراً أن يقصّر في واجبه نحوه، فينتهي إلى محاذير الحديث.

(١) مهدي فضل الله، مع سيّد قطب في فكره السياسي، ط١ (بيروت: مؤسّسه الرسالة، ١٩٧٨م) ص١٦٦.

(٢) مقدّمة كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ط١ (بيروت: دار الكتب العلميّة، ٢٠٠٠م) ص٢٢٣.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

٢- **ضرورة عمليّة:** إذ أنّ حياة النّاس لا تستقيم إلاّ بالتواصل والتعارف، وكسر الحواجز النّفسية المكبّلة لإرادة مبادرة الآخرين لمعرفتهم والاقتراب منهم، بما يحقّق التآلف والتكاتف والتعاون وقضاء المشترك بينهم من الضرورات، وتجاوز عقدة الانكماش والالتفاف حول الذات، وتلك هي طبيعة المسلم الذي يتّجه بكلياته نحو النّاس؛ يبشّرهم ويحفّزهم ويبعث فيهم روح الاجتماع من جديد، تحرّكه عقيدته ويهديه الوحي الخالد، مستوعباً دروس السيرة العطرة، ومطّلعاً على تجربة الإسلام الرائدة. كما أن حياة المسلمين لا يستقيم أمرها إن هم بقوا في غربة وبمعزل عن النّاس، فالضرورة العمليّة تكمن كذلك في كسر حاجز العزلة، وأن يقدّموا أنفسهم على أساس أنّهم جزء من المجتمع فاعل، وشريك حقيقي في تكوين المجتمع وإدارة أمره، لا مجرّد أرقام سلبيّة أو عناصر مُستهلِكة. وذلك رصيد من التاريخ والتجربة يتّصل برصيد تاريخي قديم، قدّم فيه المسلمون مثالاً لتجربة المجتمع العادل الذي يستوعب الاختلاف ويحترمه، بل ويعتبره من آيات الله في تنوّع الخلق: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾ (الروم:٢٢)، ثمّ يحوّله إلى قوى منتجة ويعدّه عامل إثراء وسبباً للتدافع في الحياة الدنيا.

إنّ الحياة كلّها تأسن وتتعفّن لولا دفع الله النّاس بعضهم ببعض، ولولا أن في طبيعة النّاس التي فطرهم الله عليها أن تتعارض مصالحهم واتّجاهاتهم الظاهريّة القريبة، لتنطلق الطاقات كلّها تتزاحم وتتغالب وتتدافع، فتنفض عنها الكسل والخمول، وتستجيش ما فيها من مكنونات مذخورة، وتظلّ أبداً يقظة عاملة، مستنبطة لذخائر الأرض مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة[١] فيتحقّق بذلك مقصد الاجتماع، وتنبني

(١) سيّد قطب، في ظلال القرآن، ١/٢٧٠.

فيه روابط المجتمع على أسس ثابتة ويشارك كلّ على قدر جهده أو على قدر أهليّة مشاركته، لا يفاضل بينهم إلاّ العمل الصالح النّافع، وذلك بالنسبة للمسلم عبادة يثاب على فعلها ويحاسب إن تهاون فيها.

٣- **ضرورة وجوديّة**: إذ يرتبط الحوار بمستقبل الحضور الإسلامي الواعي في أوروبا وتخومها، فبقدرة المسلمين على التحاور وتقديم رؤيتهم للكون والحياة والدين والتعايش... يمكن لهم محو الصورة التّاريخيّة المغلوطة التي يحملها الغرب عن الإسلام وأهله. فالذي يهمّ المسلمين اليوم أكثر من ذي قبل هو التوجّه مباشرة إلى عامّة النّاس، دون الاقتصار دائماً على الالتفات إلى النّخب التي يغلب على طبعها عادة الأحكام المسبقة والقناعات الأيديولوجيّة المُغلقة، بل والعداوات المرتبطة بإرث قديم من الحملات الصليبيّة وحروب الاسترداد وحركة الاستعمار وما رافقها من حركات للتحرّر الوطني.

فالمشاركة الواعية تبدأ لا محالة بتعريف النّاس عمليّاً على ما نكتنزه من خير ونتوفّر عليه من نفع يعمّ الجميع بلا استثناء، حتى إذا تعرّفوا على ذلك حقيقة ظاهرة مالوا بطبعهم إلى ما يحقّق سعادتهم الأبديّة، وتلك هي طبيعة الإنسان في مسيرة بحثه عن النّافع من الكسب المؤدّي إلى الأمن في مختلف ضروب الحياة والاطمئنان في النّفس.

إلاّ أنّ ذلك يتوقّف على قدرة المسلمين على الإقناع بوجاهة رأيهم في توفّر الإسلام على **خصائص موضوعيّة** تؤهّله لإضافة معنى جديد لحياة النّاس، منها:

أ- **الشمول والتكامل والعالميّة**: ونقصد بها قدرة استيعاب الإسلام لمختلف شؤون الحياة ومظاهرها، فهو الحَكَمُ على جميع أفعال الإنسان، والمبيّن لمنهج سلوكه في الحياة، والمحدّد لعلاقة الإنسان بالله وبالآخرين، مهما اختلفوا وتنوّعوا في أعراقهم وأديانهم وألوانهم. يمثّل بنظامه الفريد المتميّز منهجاً متكاملاً لتنظيم الحياة العقديّة

والقانونيّة والسياسيّة والاقتصاديّة بما يستوعب أطراف الحياة المختلفة ويستجيب لحاجيات النّاس المتعدّدة والمتناقضة أحياناً كثيرة، ممّا أكسبه صفة العالميّة في أحكامه ومبادئه وتوجيهاته، فهو رحمة للعالمين: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، وهداية للنّاس كافّة: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ (سبأ:٢٨).

ب- **الوسطيّة والتوازن**: وهي من الصفات الجامعة، التي تعني الاعتدال والسماحة وعدم التفريط أو الإفراط في أي شيء. فلقد وصف الله سبحانه وتعالى أمّة الإسلام بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة:١٤٣)، وهي صفة وطيدة الصلة بخاصية الشمول المتوازن، الحافظة من الاندفاع والغلو والتصادم الذي لم تسلم منه التصورات الفلسفيّة الوضعية وكثير من التصوّرات الدينية التي شوهتها التصوّرات البشريّة، بما أضافته إليها أو نقصته منها، أو أوّلته تأويلاً خاطئاً وأضافت هذا التأويل الخاطئ إلى صلب العقيدة وهو جوهر الآية الكريمة: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ﴾ (الملك:٣)، توازن بين طلاقة المشيئة الإلهية وثبات السنن الكونيّة[1].

جـ- **الإيجابية والواقعيّة**: الإيجابية الفاعلة في علاقة الله عزّ وجل بالكون والحياة والإنسان، والإيجابية الفاعلة كذلك من ناحية الإنسان ذاته في حدود المجال الإنساني. وواقعيّة في التعامل مع الحقائق الموضوعية لا مع تصوّرات عقليّة مجرّدة. فالمنهج الإسلامي منهج واقعي من حيث مراعاته:

(١) سيّد قطب، خصائص التصوّر الإسلامي ومقوّماته، القسم الأول، ط٣ (الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلاّبية، ١٩٨٣م) ص١٩٨.

- واقع الكون كما هو حقيقة مشاهدة تدل على حقيقة أكبر وعلى وجود أسبق.
- الحياة باعتبارها مرحلة حافلة بالخير والشر وتنتهي بالموت وتمهّد لحياة أخرى.
- الإنسان كمخلوق مزدوج الطبيعة فيه نفخة من روح الله في غلاف من الطين[1].

حدود علاقة الخطاب النظري بالواقع العملي:

يستمد الخطاب عادة مسوغاته من مدى تنـزيله على واقع النّاس، وهل يصمد أمام التجريب والاختبار؟ إلاّ أنّنا على مستوى الخطاب الإسلامي أمام أرضيتين مختلفتين، هما: الأرضية الإسلامية التي تستجيب للتنـزيل الكلي للخطاب العقدي الإسلامي، وأرضية غير إسلامية ولكنّها معنية بالخطاب الكوني لعلتين: الأولى لعموم الخطاب الديني الإسلامي وما فيه من نفع لعامّة النّاس، والثانية لوجود أعداد كبيرة من المسلمين المواطنين في الغرب، يسعهم ما يسع غيرهم من حقوق المواطنة التي لا تتجزأ. كما أنّنا أمام حقيقة معيارية وهي: صلاحية الإسلام لكلّ زمان ومكان. وفي ضوء ذلك قامت العديد من المحاولات الجادة تستهدف التنـزيل العملي للإسلام على مستوى تجربة الدولة، بما هي مشروع حضاري شامل يستوعب نواحي الحياة كلّها.

وفي ضوء ذلك طرح رئيس وزراء ماليزيا داتو سري عبد الله أحمد بدوي مشروعًا لنهضة الأمة على هدي تعاليم الإسلام؛ من أجل استعادة دور الحضارة الإسلامية، سمّاه «الإسلام الحضاري Islam Hadhari /Civilizational Islam»، وهو اصطلاح يقصد به المنهج الحضاري الشامل لتجديد الإسلام في ماليزيا، ويستخدم كمحرك للأمة نحو التقدم والتطور والريادة الإنسانية. ويهدف هذا المشروع لتقديم الإسلام بمنظوره الحضاري باعتباره دينًا يشمل كافة جوانب الحياة الاجتماعية

---

(١) انظر: محمد عقلة، الإسلام مقاصده وخصائصه، ط١ (عمان: مكتبة الرّسالة الحديثة، ١٩٨٤م) ص٦٣.

والسياسية والاقتصادية، ويلبي متطلبات الروح والبدن والعقل، ويعالج قضايا الفرد والجماعة والدولة. كما يعرض هذا المشروع منهجاً شاملاً ومتكاملاً للعمل بالإسلام على نحو يميزه عن مناهج الدعوة والعمل الإسلامي كالصوفية والحركات الإسلامية السياسية، فضلاً عن جماعات العنف والتكفير[1].

فيصف مشروع «الإسلام الحضاري» بأنه: «جهد من أجل عودة الأمة إلى منابعها الأصيلة، وإعطاء الأولوية للقيم والمعاني الإسلامية الفاضلة لكي توجه الحياة وترشدها».. ويحدد ملامحه في المبادئ العشرة التالية:

١- **الإيمان بالله وتحقيق التقوى:** وذلك لأن الإيمان بالخالق هو العامل الأساسي في الاستخلاف وعمارة الحياة، بينما تقوى الله تفضي إلى جليل الأعمال وأحسن الأخلاق وأعدل العلاقات بين الناس. وبالتالي لا يقتصر دور هذا المبدأ الإيماني على تزكية الروح وتنقية المعتقد وتصحيح العبادة، وإنما يتعداه إلى العناية بالسلوك وأعمال الجوارح.

٢- **الحكومة العادلة والأمينة:** التي جاءت عن طريق الشورى والاختيار الحر دون قهر أو إكراه، وتعمل على بسط العدل ونصرة المظلومين وردع الظالمين، وترد الحقوق إلى أهلها، وترعى مصالح الأفراد على اختلاف أعراقهم ومعتقداتهم، كما تقوم على قضاء حوائجهم بأمانة وتجرد وإخلاص.

٣- **حرية واستقلال الشعب:** إن الحرية هي القيمة الكبرى في الحياة الإنسانية، وهي الحافز للعمل والإبداع، وبها يكون الإنسان مستقلا وحرًّا في قراراته؛ وقد خلع عن رقبته طوق العبودية والتبعية.

٤- **التمكن من العلوم والمعارف:** فالعلم هو المرتكز الأساسي لنهضة الأمة، والوسيلة التي يستعان بها على عمارة الأرض، وتسخير ما فيها، وترقية الحياة، والانتفاع بالطيبات من الرزق.

---

(١) محمد شريف بشير، الإسلام الحضاري.. مشروع النهضة الماليزي، موقع إسلام أون لاين، بتاريخ: 2005/03/02، بتصرف.

٥- **التنمية الاقتصادية الشاملة والمتوازنة:** التي تعني التنمية بكامل أبعادها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والروحية والمادية والثقافية والحضارية، وتجعل صلاح الإنسان غاية وهدفاً لها.

٦- **تحسين نوعية الحياة:** وتعني سلامة الحياة واستقرارها وجودتها وتوفير متطلباتها الضرورية.

٧- **حفظ حقوق الأقليات والمرأة:** رعاية حقوق الأقليات العرقية والدينية، وكذلك احترام المرأة وتقدير مكانتها وتعزيز دورها الإيجابي في المجتمع.

٨- **الأخلاق الحميدة والقيم الثقافية الفاضلة:** العناية بالأخلاق الفاضلة والقيم المعنوية السامية في كل المجالات والجوانب، وأن تكون هي الأساس لتربية الأجيال.

٩- **حفظ وحماية البيئة:** العمل على حماية البيئة والحفاظ عليها ومنع ما يهددها من عوامل التلوث والآفات والإهلاك.

١٠- **تقوية القدرات الدفاعية للأمة:** وذلك للحفاظ على سلامة ووحدة أراضي الدولة وحماية المصالح العليا لشعوبها والمحافظة على استقلالها وسيادتها.

ويعتبر أنّ «الإسلام الحضاري جاء لنهضة وتقدم المسلمين في الألفية الثالثة، ومن أجل المساعدة على دمجهم في الاقتصاد الحديث»، كما يصلح أن يكون «الترياق للتطرف والغلو في الدين»، وذلك لأنه «يشجع على التسامح والتفاهم والاعتدال والسلام». وفي بلد متعدد الثقافات والأعراق فإن الإسلام الحضاري يهدف لمصلحة الجميع على اختلاف عقائدهم وأديانهم وأعراقهم، وأننا كمسلمين يجب أن نعامل غير المسلمين بالحسنى والإنصاف»، وسوف يؤدي هذا المشروع إلى الامتياز والتفوق، وسيكون مصدرًا للفخر والاعتزاز ليس للمسلمين وحدهم، وإنما لغير المسلمين أيضًا.

وبناء عليه، فإنّ مشروع الإسلام الحضاري، بحسب تصوره، يقوم على عشرة عناصر أساسية ينبغي على المسلمين أفرادًا وجماعات العمل على تحقيقها، وهي:

١- **التعليم الشامل:** الذي يجمع بين معارف الوحي وعلوم العصر، ويغطي فروض الكفاية والأعيان ويؤدي واجبات الوقت دون تقصير.

٢- **الإدارة الجيدة:** التي تحسن إدارة الموارد البشرية والمادية وتوظيف الاستخدام الأمثل لها.

٣- **التجديد في الحياة:** بمعنى ترقية أساليبها من ناحية التمدن والحضارة.

٤- **زيادة جودة الحياة:** بتوفير متطلبات الحياة الكريمة على أجود هيئة وأكمل حالة.

٥- **قوة الشخصية:** من حيث الإخلاص والأمانة؛ فالإخلاص أساس الأقوال والأعمال، بينما الأمانة عماد المجتمع والدولة، وبغيرهما لا يمكن إيجاد الإنسان الصالح والمجتمع الصالح. وهي أخلاق تقوم عليها الحضارات، وبغيابها تزول وتغرب.

٦- **الحيوية والنشاط:** من حيث استجابته للمتغيرات وإدراكه لمتطلبات الحياة المتجددة ومسائلها المتشعبة.

٧- **الشمول والسعة:** يقوم المشروع على الفهم الشمولي للإسلام؛ فهو لا يركز على جانب دون آخر، ولا يأخذ تعاليم الإسلام مجزأة. ويعتبر الإسلام منهج حياة كاملاً؛ فهو عقيدة وعبادة، وأخلاق ومعاملة، وتشريع وقانون، وتربية وتعليم، ودولة ونظام، يتناول مظاهر الحياة كلها، ويحدد منهاجًا للسلوك البشري في كافة أطواره.

٨- **العملية والواقعية:** لا يجنح إلى المثالية المجردة؛ فهو منهج عملي واقعي من حيث مراعاته واقع الحياة وطبيعة الإنسان وتفاوت الناس في استعداداتهم ومداركهم وحاجاتهم ومطالبهم.

٩ - **الاستقلالية وعدم التبعية للأجنبي:** سواء كانت تبعية فكرية أو ثقافية أو اقتصادية وسياسية.

١٠- **تعزيز المؤسسة الأسرية:** فالأسرة هي اللبنة الأساسية في المجتمع، وبصلاحها يصلح المجتمع وتترابط علاقاته وتتوحد مشاعره.

وقد قدّمنا في نهاية البحث مقترح خطّة عمل قابلة للتطوير، نجعلها منطلقاً موضوعياً لحوار أشمل وأعمق، على طريق النقد الذاتي والمصارحة والتصحيح.

من القطيعة إلى الحوار:

تميّزت العلاقات الإسلاميّة الغربيّة في مرحلة سابقة بالتوتّر المبرّر تاريخيّاً، منذ الحروب الصليبيّة وما غلّفها وقدّم لها من غطاء أيديولوجي، مروراً بالحملات العسكريّة والاستغلال الاقتصادي المجحف، وصولاً إلى الدعاية الإعلاميّة المغرضة والموجّهة، من طرف جماعات مهاجرة، تقاتل بجميع الوسائل حفاظاً على مواقعها، والتي ترى أنّها أصبحت مهدّدة من الجيل المسلم الجديد والمتجذّر في آن واحد؛ الذي يخالفها عقائديّاً ويتناقض معها هدفاً، إذ رسالة المسلم هي التبشير بالخير وإشراك النّاس فيه بلا استثناء، بينما أهداف الآخرين التحصيل المادّي مهما كانت مسالكه، والعيش في أطر مغلقة ممنوعة عن غيرهم، ممّا أسّس للأحكام المسبقة، فعامل الغربُ الطرف الإسلامي بازدراء واحتقار، الأمر الذي جعل هذا الطرف في وضع الدّفاع عن نفسه مستخدماً آلية الدّفاع ونوعاً من التحصين لجبهاته، برفض (الآخر) ومحاولة تأكيد القطيعة معه والتوجّس منه. أضف إلى ذلك جملة من مواقف الغرب السلبيّة تجاه بعض قضايا التحرّر الوطني وخاصّة القضيّة الفلسطينيّة، ممّا أكّد اعتقاد المسلمين في أن الغرب «المادي والملحد» لا يبيّت للمسلمين إلاّ الشرّ، وأنّه طرف أصيل في كلّ المصائب التي تحلّ بهم، وأنّه لا يُنتَظَرُ منه خير[١].

(١) راشد الغنوشي، حوارات قصي صالح درويش (لندن:خدمات خليل الإعلامية KHALIL MEDIA SERVICE، ١٩٩٢م) ص ١٥٠، بتصرف.

إنّ الأزمة حقيقيّة بين الطرفين، والمستفيد غير الطرفين، إذ الحقيقة الحضارية والاجتماعيّة والتّاريخيّة للإسلام أو للغرب هي حقيقة متعدّدة ثريّة، تحمل في رحمها بشارة اللّقاء والاستعداد المبدئي لمدّ جسور التواصل الرّاشد على أساس النديّة والتقدير الحضاري الإيجابي لمخزون (الآخر)، لم لا وهما يستندان إلى جذر ديني مشترك، وينتميان إلى أب حضاري واحد. كما أنّ تراث العقلانيّة قَدَرٌ مشترك بين حضارة الإسلام وحضارة الغرب[1]، وهو ما أعاد صياغته بموضوعيّة كبيرة ابن رشد، وابن سينا، والخوارزمي، والرّازي، في تعاملهم مع التراث اليوناني، ممّا أهّلهم لأن يكونوا في مرحلة لاحقة من رموز عصر النّهضة الأوروبيّة، بل من البناة الحقيقيّين للتّاريخ الأوروبي. فالمسلم ليس عنصراً مهاجراً دخيلاً على البلاد الأوروبيّة، وإنّما يضرب بجذوره في أعماق التّاريخ، ويجدّد مشاركته كلّ حين في بناء أوروبا بشرياً، وحفظ أمنها وتطوير اقتصادها، وخير شاهد على ذلك فيالق المجنّدين الذين ذادوا عن التّراب الفرنسي في وجه الجيش الألماني، يوم أن تآمر بعض من الفرنسيّين ومجموعات مهاجرة على سيادة فرنسا وأمنها[2].

وبالنتيجة فإنّ الخطاب المتشنّج الذي عمّر طويلاً لا يستند إلى خلفيّة تاريخيّة موضوعيّة بل لا يخدم المصلحة المشتركة، وإنّما هو صورة خاطئة أنتجها نافخ الكير الذي يخشى كلّ تقارب بين العالَمين. وبرغم محدوديّة وعي الجيل الأوّل من المهاجرين

---

(١) انظر: محمّد قطب، شبهات حول الإسلام، ط٣ (طبعة الاتّحاد الإسلامي العالمي للمنظّمات الطلاّبية، ١٩٨٥م) ص١٦٩.

(٢) يذهب عبد الوهاب المسيري إلى أنّ الخطاب الإسلامي الجديد اكتشف أن الانفتاح على الحداثة الغربية ودراستها بشكل نقدي خلاق، قد يفيد في تنمية الوعي النقدي؛ فمن خلال معرفة (الآخر) والتعمق في معرفته سندرك الطريق المسدود الذي دخله، وحجم الكارثة التي يعاني منها، فنزداد معرفة وثقة بأنفسنا، وإدراكاً لذاتنا بكل أبعادها، وسيساعدنا هذا الموقف المنفتح النقدي التفاعلي على اكتشاف الإمكانات التوليدية الخلاقة داخل المنظومة الإسلامية. المرجع: إسلام أون لاين، مقال بعنوان: معالم الخطاب الإسلامي الجديد، بتاريخ: ٢١/٠٣/٢٠٠٢م.

- الذين ما أخرجهم من ديارهم إلاّ طلب العمل والتحصيل المادي المحدود، خروجاً من دائرة الخصاصة وتخلّصاً من مخلّفات النّهب الاستعماري المجحف - فإنّهم كانوا يحملون معهم صورة التديّن البسيط الذي من جملته حب الخير للكلّ بلا استثناء، وكره الصفات السلبيّة التي نبّه إليها الدّين وممّا تعارف النّاس عليه منكراً تأباه نفوسهم.

إلاّ أنّ ذلك مثّل بذراً للوعي المنتج، الذي بدأت ملامحه الأولى تبرز للعيّان مع حركة الهجرة الجديدة: طلاباً ومثقّفين، وسواعد عمّال أخذوا حظّاً من العلم غيّروا به نسبياً الصورة الشائعة عن مخيمات العمّال التي تعتبر صورة جديدة للقهر المقنّع، وتقترن دائماً بمنطق السخرة والاضطهاد والمعاملة المخزية، والتي تغذّيها فكرة مقيتة في اللاّوعي مختزنة ترتبط بالاستكبار الاستعماري والحنين إلى منطق سيادة (الأنا)، والذي تغيب معه كلّ إمكانيات التواضع الأخلاقي والتعامل على أساس النديّة.

أمّا المرحلة الثانية لتغيّر خارطة المشاركة الإسلاميّة في الحياة، وتخطّيها منطق «الاندماج المشبوه» إلى حيّز المواطنة، فإنّها ترتبط بظهور الجيل الثاني وبداية بعث المؤسّسات الإسلاميّة ذات الأهداف المتعدّدة: اجتماعيّة وثقافيّة ودينيّة وتجاريّة... وإلى غيرها من الجمعيات التي بدأت تعبّر عن رغبة صادقة في المشاركة الهادفة، تخلّصاً من الشراك المفروضِ قهراً على كمّ هائل يريد نفع وطنه الذي فيه وُلِدَ ونشأ وتعلّم، ليقيم بذلك ما تحطّم من جسرٍ للتعارف الحضاري كان ممتداً في التاريخ ما بين الضفّتين.

إنّ وجود ملايين من المسلمين في الغرب هو رصيد تواصل بين الإسلام والغرب، ورصيد حوار بينهما؛ لذلك ينبغي على كلّ المسلمين أن يعتبروا أنفسهم مسؤولين في الإحسان لدينهم ولمواطنيهم الغربيّين، وأن يحسنوا لهذه الأوطان التي يقيمون فيها ويرعوا أمنها ومصالحها لاعتبارهم مواطنين يسعهم ما يسع غيرهم، وأن لا يختاروا العزلة والسلبيّة في قطيعة غير مبرّرة تكرّس بالضّرورة مشروع أعداء التعايش، أو أن

يأخـــذوا مكان المتفرّج الذي لا يعنيه ما يحـــدث شـــامتاً بأمراض الغرب يعدّدها ولا يبحث لها عن حلّ، في حين بعث الرّسول ﷺ رحمة للعالمين، و لم يعتبر أنّ مهمّته هي تقويض أركان المجتمع الجاهلي كلّها وإنّما قال: «**إنّما بعثت لأتمّـــم مكـــارم الأخلاق**»، وهكذا ينبغي للمسلم أن يعتبر نفسه متمّماً لما في الغرب من أوجه تقدّم، ولو لم يكن في الغرب أوجه تقدّم فلماذا نحن موجودون هنا؟[1].

إنّ الحضـــور الإســـلامي في الغرب اليوم لم يعد حضور مهاجرين عـــابرين، وإنّما هو حضور مواطنة، أي أنّ الإســـلام اليوم أصبـــح حقيقـــة ثابتة و لم يعد أمامنا إلاّ العمل على ترشيد مسيرة حياة المسلمين ليعيشوا حياة إيجابيّة على جميع المســـتويات، ترفض فيها مصطلحات مشبوهة حمّالة لمعاني غامضة، تريد الإبقاء على الحالة الإسلاميّة في وضعيّة عدم الاستقرار، لإقصائها من المشاركة الفاعلة كمكوّن رئيس للمجتمعـــات الغربيّة، في إطار تقدير التنوّع ورعايته وتأهيل أفراده ليكونوا مواطنين صالحين.

ولضمان فاعليّة واستمرار الوجود الإسلامي لابدّ من إســـناده بعمـــل علمـــي منهجي هادف مضبوط، توفيراً لحظوظ المشاركة العقلانيّة الواعيّة.. فهـــذا العمـــل العلمي من شأنه أن يعرّف المسلمين بطبيعة وجودهم، وييسّر لهم سبل التحرّك المريح من دون الوقوع في الإحراجات الفقهيّة الشرعيّة التي من الممكن أن تعرقل مســـيرة حياتهم أو تفتح الباب «للاجتهادات المرتجلة»، فينجر عنها فهم مغلـــوط وممارســـة خاطئة، فلا الدّين احترموا ولا الخير أصابوا.

وقد قدّم المفكّر الإسلامي المعاصر عبد المجيد عمر النجّـــار مشـــروعاً علميّـــاً متكاملاً، خصّصه لقضيّة البحث العلمي في الشأن الإسلامي بأوروبا، يعتبر خطّـــة

(١) راشد الغنوشي، مرجع سابق، ص١٥٤ وما بعدها، بتصرّف.

عملٍ مؤصّلة وجدّ متطوّرة، على خلفيّة أنّ مهمّة التفاعل الحضاري أصبحت من الجسامة بحيث تقتضي منهجاً جديداً للبحث العلمي المؤسّس، يقوم على التقصّي الشّامل والاستشراف المستقبلي وتهيئة السبل النّاجعة لتحقيق تلك المهمّة، تجاوزاً في ذلك للفتاوى الجزئيّة والحلول الظرفيّة، وذلك ضمن منتظمات جماعيّة جامعة (من مراكز الدراسات المستقبليّة، ومعاهد الاستقراء والرصد والإحصاء، ومجامع للفتوى والاجتهاد...)، ضوابطها الشورى والتعاون والعمل المشترك، ومهمّتها إدارة العمل باستشراف الآفاق ووضع الخطط والإشراف على الإنجاز وتوجيه ثماره لتحقيق النفع العام.

وتتمثّل ملامح هذا المشروع في النقاط التّالية:

- **يستمدّ البحث العلمي هويّته من علاقته الوطيدة بالشأن الإسلامي الأوروبي**، المصطبغ بالصفة العلميّة، مرجعيّة ومنهجاً وموضوعاً، بعيداً عن التطرّف والتعصّب أو السذاجة والخرافة، أو كلّ ما يهدم الأصول ويخلّ بصفتي المرونة والثبات، ملتزما الأصول الإسلاميّة المعتمدة مرجعاً، والمقاصد الدينيّة المعتبرة أساساً للنّظر، ومصلحة الوجود الإسلامي بأوروبا غاية، بما يحقّق المساهمة الإيجابيّة للإسلام والمسلمين بأوروبا في البناء الحضاري الإنساني المشترك.

- **يهدف البحث العلمي في الشأن الإسلامي بأوروبا إلى تيسير حياة للمسلمين منضبطة بحقائق الإسلام، عقيدة وشريعة**، متفاعلة مع حياة مجتمعهم الأوروبي، للإسهام في التنمية المجتمعيّة والحضاريّة بأسس إسلاميّة في كنف التعاون الإنساني العام، باستيعاب مكوّنات واقعهم، وفهم الأحكام الشرعيّة في مختلف أوجه العبادات والمعاملات ذات العلاقة بالأقلّيات المسلمة، فهماً مؤصّلاً يؤهّلهم للمشاركة الواعية، ويعدّهم لغد أفضل.

- **يشترط في البحث العلمي المتعلّق بالوجود الإسلامي بأوروبا جملة قواعد نظريّة منهجيّة وأخرى تتعلّق بالمرجعيّة والهويّة**، باعتبار أنّ الوجود الإسلامي بأوروبا

ليس ظاهرة منعزلة، وإنّما هو حلقة ضمن دوائر متشابكة تمتدّ إلى الماضي الإسلامي وتتّصل بالحاضر الأوروبي وتتطلّع إلى مستقبل التفاعل الحضاري المشترك، وهو ما يفرض تجاوز المعالجات الظرفيّة والحلول الفرديّة والفئويّة، والفتاوى الجزئيّة، ويمتدّ نحو الانشغال بالقضايا الحضاريّة الكبرى، فتُتناول بالعلاج من منظور إسلامي مؤصّل، يستفيد من مكتسبات العلم الحديث جرياً على سنّة في الثقافة الإسلاميّة قديمة في مزاوجتها بين الرّصيد العلمي المعرفي الإنساني وبين الأحكام والقيم الإسلاميّة.

- **يتطلّب البحث العلمي جهداً كبيراً، وتنوّعاً في الوسائل، وتضافراً بين مختلف التخصّصات العلميّة، وتوحّداً للطّاقات المبذولة،** فمهما يكن للبحث الفردي من أهمّية على مستوى العمق في التحليل، إلاّ أنّ المشاركة الجماعيّة في مثل هذا العمل ضروريّة، لما يستلزمه من تخصّص شرعي ديني من جهة، ومعرفة دقيقة بالشأن الأوروبي ثقافة ولغة ومنهجاً من جهة أخرى، وما لها من دور في تحديد الأولويّات، وتقديم رؤى شبه متكاملة قادرة على تشخيص القضايا المزمع معالجتها وتوجيه الجهود إليها، حتّى تؤثّر نتائجه في الوضع الإسلامي بأوروبا، فترتقي به نحو أهدافه المقرّرة [(١)].

فلابدّ أن تتضافر جهود الفكر والساعد والمال، لتحقيق الخير والنّفع للنّاس كافّة: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ (سبأ:٢٨).

إنّ العقليّة الإسلاميّة النّاضجة، تبقى أقدر على التحرّك في مجال النّصوص، وقادرة على الفهم والاستنباط وتنزيل الأحكام، خدمة لمصلحة الأمّة واستجابة لضغط الواقع الذي نقدر على التفاعل معه من دون تقصير أو تفريط أو حتّى شبهة تنازل، فالمسلم الذي يؤمن برسالة سيّدنا محمّد ﷺ، يسعى للتحاور والمحاجّة وتبليغ الآخرين

---

(١) عبد المجيد عمر النجّار، البحث العلمي في الشأن الإسلامي بأوروبا، ط١ (باريس: ٢٠٠٢م) بتصرّف.

رسالته، لا لفرضها عليهم قسراً بل لتجديد الدّين في النّفوس، لأنّه يتكلّم بالشّيء المشترك، والتّاريخ الدّيني المشترك بين الرّسالات التي يؤمن بأنّ رسالته ختام تسلسلها، وهو ينظر إليها كلّها بالقواسم المشتركة في قيم وعادات وقوانين وسلوكيّات، وهي ذات المعاني التي عبّر عنها المفكّر الإسلامي حسن عبد الله التّرابي، وأعدّها ضمن تصوّر متكامل لمبدأ الحوار مع (الآخر)، والبحث معه عن المشترك النّافع، والنّظر إلى ذلك من خلال نافذة أوسع في إطار حوار الحضارات، أو مشروع حوار الإسلام و الغرب، حيث رسم خطّة استراتيجيّة للحوار تقوم على الخصائص التّالية:

أوّلاً: الحوار ومبرّراته: يعتبر الحوار ضرورة شرعيّة لتبليغ الرّسالة وحمل أمانة الدّعوة، كما هو ضرورة عمليّة يفرضها الواقع العالمي القائم على الاتّصال والتّفاعل بين الأمم والشّعوب والجماعات والحركات، ممّا يوجب علينا فهم الآخرين وتفهّم واقعهم، ومعرفة الحقائق للتعامل معها.. فبناء مستقبل الأمّة يدعونا إلى الانفتاح على قواعد تأخذ بعين الاعتبار خلاصة التّجارب الإنسانيّة والسّعي إلى تأصيلها، وهي الصورة المثلى لفهم مقاصد الدّين، وتجسيد روح التديّن الحقيقي.

ثانياً: إطار الحوار وطبيعة العلاقة: أي العلاقات النظريّة والعلاقات الدّوليّة، وكذلك العلاقات الواقعيّة بصورها المختلفة ومراحلها ونماذجها.

ثالثاً: قضايا الحوار: والتي تستوعب الخطاب الثقافي الحضاري، والخطاب السياسي الاقتصادي، والخطاب الإعلامي الاجتماعي بجميع صوره وتفاصيله.

رابعاً: وسائل الحوار: يمكن تحقيق ذلك من خلال بناء النّماذج العمليّة والعلميّة، حتّى تعطي القدوة الحسنة، إلى جانب تكثيف وتنويع أساليب الخطاب ومنابره، وتعبئة شعاب الاتّصال كافّة لإدارة مسالك لحوار شامل، وراء أغراض التّجارة والسياسة والرياضة والفنّ، والتبادل العلمي والثّقافي والاقتصادي، والتوجّه إلى إنشاء مراكز إسلاميّة ومساجد، لنشر العقيدة والثقافة الإسلاميّة في الغرب، وتنسيق المبادرات

لتعديد الاتّصال والنّشر والحضور المستمر في الإعـلام الغـربي، وتنظـيم معـارض ومهرجانات ودورات لتعليم اللّغة العربيّة، تساهم في انتشار الإيمان وثقافة الإسلام.

خامساً: إجراءات الحوار[1].

إنّ مشروعيّة الحوار الإسلامي الغربي، جزء من فهم لنُصوص الدّين تدعو للانفتاح على (الآخر)، بكلّ منطلقاته وتكويناته، من أجل الكسب لصالح الإسلام، لاعتبارنا أصحاب رسالة وأمّة دعوة، وهو جوهر الخطاب الديني الإسلامي الواعي. وقد قامت في بلاد الغرب محـاولات كثيرة، أكاديميّة وثقافيّة وشعـبيّة، منظّمـة أو مجهودات فرديّة، تهـدف إلى التّعريف بالدّور الحضـاري والتّـاريخي لإسـهام الإسلام والمسلمين في حركة التفاعل الثقـافي في هذه البلاد، وكلّها يستهدف أحد أمرين أو هما معاً:

أ- كشف النّقاب عن وجه الإسلام الحقّ المشرق، وعن عقيدتـه وإسـهاماته لتعزيز القيم الإنسانيّة في العالم.

ب- تشجيع الأبحاث الرّامية إلى إظهار أهميّة الإسهام الذي قدّمته الثقافة غـير الغربيّة إلى الثقافات الجامعة، إلى جانب إتاحة المجال لإجراء حوار بين الأشـخاص ذوي الثقافة والإيمان، الواعين أهميّة ومستقبل التعايش المشترك.

شروط بناء الثقة:

إنّ الحوار الحضاري الهادف لا بدّ وأن يقام على أسس مـن العدالـة والنديّـة واضحة، تحترم خصائص (الآخر) وتقدّر دوره المهمّ في بناء المجتمع المتعدّد الأعـراق والأديان واللّغات، والتخلّص من رواسب التّاريخ المظلم المحكوم بدمويّـة الحـروب الصليبيّة ومذابح محاكم التّفتيش، وأنّ ذلك لن يكون إلاّ بالاعتراف بالخطأ التّـاريخي

(١) حسن عبد الله الترابي، أطروحات الحركة الإسلاميّة في مجال الحوار مع الغرب، مجلّة دراسات إفريقيّة، عـدد ١٠، ديسمبر ١٩٩٣م، ص ٣٤.

الذي ارتكب في حقّ المسلمين والاعتذار لهم، لِم لا وقد أدخلوا على أوروبا أنماطاً حضاريّة شرقيّة يرفدها الدّين، وأضفوا عليها معنى للحياة جديد، بقصد المشاركة الفعّالة وتحقيق شروط المواطنة الإيجابيّة، يستمدّون كلّ ذلك من أصول دينهم الحنيف الذي يوجب التّعمير والإحياء، ويحرّم التّخريب والفوضى وهدر الثروات بغير حق[1].

إنّ الخطأ التّاريخي الذي ارتكبه الغرب - وبخاصّة فرنسا - بحقّ المسلمين، مواطنين ومهاجرين، أنّه لم يحاول الاستفادة منهم كعنصر أصيل داخل المجتمع، وإنّما يتعامل معهم بحسب حاجياته الخاصّة، ممّا جعل منهم ركاماً هامشيّاً مبعثراً، في ظروف حياتهم وسكنهم ومستوى تعليمهم، وفي دوائر تجمّعهم وإقامتهم، حيث رتابة الإجراءات الإداريّة وتخلّف الخدمات الاجتماعيّة، وتنامي الرّوح العنصريّة العدائية لدى قطاع كبير من معارضي الهجرة والمهاجرين.

إنّ شروط بناء الثقة بين كلا الطّرفين تمرّ بالضّرورة عبر النّقاط التّالية:

أوّلاً: ضرورة الاعتذار التّاريخي من طرف الغرب للمسلمين على التّقصير الذي ارتكب في حقّهم، وتبرئتهم من كلّ التّهم التي تلصق بهم، وتنويههم عن أوصاف النّقص التي تلحق بهم قصداً.

ثانياً: الكفّ عن استثناء المسلمين والتّعامل معهم كتركيبة اجتماعيّة ثانويّة، وإنّما ضرورة اعتبارهم مكوّناً حقيقياً للمجتمع الغربي، بل لا يتمّ تكوينه إلاّ بهم، لما لهم من رصيد حضاري تاريخي ولما يحملونه من مشاريع الخير والصلاح، تؤهّلهم للمشاركة الإيجابيّة والفاعلة في الإطار الإنساني العام، وإعطاء القدوة الحسنة لباقي

(١) انظر: عبد المجيد عمر النجّار، قضايا البيئة من منظور إسلامي، فصل: التصوّر الإسلامي لحقيقة البيئة، ط١ (قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٩٩٩م) ص٨١ .

المسلمين حتّى ينهضوا بدينهم ويتحرّكوا به واقعاً بين النّاس، فينتفع به البرّ والفاجر كما أراد الله ذلك من خلال إرساله نبيّه المصطفى ﷺ رحمة للعالمين.

ثالثاً: ضرورة مراجعة كلّ البرامج الدّراسية التّربوية في جميع المراحل التعليميّة، وتنقيتها من كلّ نفس عنصري أو مجانب للحقيقة وما يدعو إليه الإنصاف، وإسناد أمر إعداد البرامج المتعلّقة بالإسلام، ديناً وحضارة وتاريخاً، إلى أهل الاختصاص من المسلمين ممّن تتوفّر فيهم الأهليّة العلميّة والنّزاهة الموضوعيّة والتديّن الصحيح.

رابعاً: فتح باب الإعلام ووسائل الاتّصال الجماهيري أمام المسلمين، ليبلّغوا كلمتهم للنّاس كافّة، ويؤطّروا أبناءهم وأتباعهم ويرشدوهم إلى الصّلاح؛ توجيهاً وتثقيفاً، وعدم جعل ذلك حكراً على فئة دون أخرى، أو التعرّض للإسلام إلاّ بما يسيء إليه وينتقص منه، ومساواة جريمة التعرّض إليه بسوء كالعقاب المسلّط على من يقع في شبهة التعرّض لبعض الجماعات الدينيّة أو العرقيّة، أو ما اصطلح عليه بمعاداة السامية، ويُجعَل سيفاً مسلولاً في وجه كلّ من حاول قراءة التّاريخ أو نقد الممارسات العنصريّة أو اللاّ أخلاقية الّتي ترتكب في حقّ الشّعوب باسم الدّين والحقّ التّاريخي المقدّس.

خامساً: عدم توظيف الأهواء الشخصية والحسابات الفئويّة الضيّقة وكذلك المواقف والفهومات الدّينية الخاصّة المعادية للإسلام، أو التصرّفات الخاطئة وغير المؤسّسة لبعض أفراد المسلمين، واعتمادها كأدلّة كافية لعزل المسلمين ورفضهم والحكم عليهم بالإقصاء والاستثناء. فتاريخ أمّة ما لا يمثّله شخص برأسه أو فئة بعينها، ولا تؤاخذ جماعة بجريرة فرد أخطأ فيها، وليست كلّ الجماعات مبرّأة ومنزّهة عن الخطأ إذ العصمة للأنبياء وحدهم، أمّا جماعات النّاس وأفراد المجتمع

يجري عليهم القانون الإنساني العام من الخطأ والصواب، وتبقى المراجعات الفكريّة والعلميّة هي الحكم والفيصل لتحديد الأصلح والأحسن للمجتمع في أفراده وبنائه ومؤسّساته.

سادساً: ضرورة قبول المسلمين كوحدة اجتماعيّة حقيقيّة، بخصوصيّة عقائدهم وشعائرهم، ولباسهم الشخصي، وأماكن عبادتهم وتجمّعهم الدّيني، مثل غيرهم من الجماعات الدينيّة، وعدم تخصيصهم بقوانين ظالمة، ليس لها أيّ سند قانوني حقيقي إلاّ نزعة التشفي والإقصاء، تحت لافتة حماية العلمانية أو قيم الجمهورية أو خصائص المجتمع، وخير دليل على ذلك ما عُرِف في فرنسا بقانون «الرموز الدينية» والذي يقصد به حقيقة منع ومحاصرة ظاهرة التديّن بين الشباب المسلم بفرنسا وخاصّة أبناء الجيل الثاني والثالث، بل ولم يتجرّأ أيّ مسؤول حكومي أو سياسي على مجرّد التفكير في مسألة تهمّ الجالية اليهودية بفرنسا، مخافة أن يسلّط على رقبته سيف «معاداة السامية».

إنّ الذي يريد أن يقيم حواراً حقيقيّاً لا بدّ وأن يمرّ من معبر المصارحة والموضوعيّة، وأن يلتزم أخلاقيّة العدل والنّزاهة، ويلزم نفسه المبادئ الإنسانيّة الكبرى التي بشّرت بها الرّسالات السماويّة قبل المواثيق الدّولية المجحفة، والتي تحتمل وجوهاً للتّأويل والتّفسير كثيرة، تَذهب بمقاصدها وتهتك ستر الآخرين في ضوئها[1]. إنّ حاجة الإنسانيّة اليوم أكيدة لإعادة قراءة وثيقة المدينة من جديد، وقبل ذلك أن يعرّف المسلمون النّاس بطبيعة هذه الوثيقة، وما ضمنته من حقوق للأقليّات: دينيّة وحضاريّة ثقافيّة وتاريخيّة واقتصاديّة واجتماعيّة وسياسيّة، أي ضمنت للآخرين حقّ

(١) انظر: عبد المجيد النجار، الأفاق الحضارية للوجود الإسلامي بالغرب، ط١، ٢٠٠٥م، ص ١٠١ .

الحياة الإيجابيّة من دون استثناء أو تمييز، بل جعل الإسلام ذلك ديناً يُتعبّد به وحرّم على الذين لم يفوا بذمّة الله ورسوله ريح الجنّة، لنصّ حديث الرّسول ﷺ على ذلك «... **فَقَدْ أَخْفَرَ بِذِمَّةِ اللَّه، فَلا يُرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ**»[1]، وكذلك «**أُوصِيكُمْ بِذِمَّةِ اللَّه، فَإِنَّهُ ذِمَّةُ نَبِيِّكُمْ وَرِزْقُ عِيَالِكُمْ**»[2]، وجعل العدل واجب لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة:٨).

وبناء عليه، فإنّ قضيّة الحوار الحضاري مطلب حتمي يوجبه الدّين ويقتضيه الواقع، لما له من صلة وثقى بالتعايش المشترك عامّة بين الضفتين، وبوجود مواطنين مسلمين في الغرب بصفة خاصّة، كما ترجى ثماره القريبة والبعيدة وتعطي معنى لحياة التنوّع والتعدّد داخل سور المجتمع الواحد، فينعكس ثراءً في التكوين، وتجدّداً في روح الأداء ونفعاً لعامّة النّاس بلا استثناء. فتُتجاوز حالة الاستثناء وتنتهي القطيعة ويردّ الاعتبار لأبناء المجتمع الواحد على أساس النديّة وبقصد تبادل النّفع المشروط بتوفّر أسباب الوعيّ المنتج، وهو ما يحتّم على المسلمين النّهوض بهذه المسؤوليّة والسير قدماً في اتّجاه عقلنة مشاركتهم وإعطاء معنى لوجودهم، فالحياة تدافع هادفٌ وتنافس شريف، وشراكة عادلة، والأفضليّة فيها للمخلصين وإن اختلفت ألوانهم وأصولهم.. إنّ التنافع والتقارب الحضاري في إطار المجتمع الواحد ضرورة وجوديّة، يوجبها الدّين ويحتّمها الواقع.

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الديات، وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجزية والموادعة، باب الوصاة بأهل ذمّة رسول الله ﷺ .

نحو خطاب إسلامي راشد

«شروط التجديد»

إنّ الحديث عن رؤية جديدة «للخطاب الإسلامي المعاصر»، بما هو بحث في الشروط اللاّزمة لذلك، يستوجب التوقّف عند القضايا النّظرية المبدئية التي عرضنا لها سابقاً، وجعلها مادّة أوّلية رئيسيّة في متناول المسلم، يدين بها ويتعبّد، فتصدر حركاته وسكناته عن تلك القناعات العقائديّة الثّابتة، فيكون ولاؤه التّام للدّين، وأنّه بدون ذلك لا يمكن الحديث عن خطاب ديني إسلامي، فنحن نتّجه بالخطاب الإسلامي بما هو ثوابت الدّين إلى النّاس كافّة، المؤمن منهم والكافر، من تجمعنا به مبادئ الإيمان الكبرى ونختلف معه في التفاصيل، لذلك لا بدّ أن نراعي اختلاف وعي النّاس وتركيبتهم وحاجتهم، وقبل ذلك تحديد طرائق خطابهم، إلاّ أنّه من الثّابت أنّ مضمون الخطاب في جوهره واحد لا يختلف، إذ هو المعبّر عن حقيقة الدّين ومقاصده، وهو ما نعنيه من خلال قولنا ضرورة تجديد الخطاب الديني، أي تجديد المنهج، وتحديد الأولويّات، وتعيين المواضيع والمحاور، أي الكشف عن طبيعة هذا الدّين الذي نريد أن نتوجّه به إلى النّاس، والسّعي الدؤوب لإبرازه للنّاس على صورته الحقيقيّة، بعيداً عن السطحيّات والشّعوذة والخرافة، وتخليصاً له من كلّ انتهازية وغرض شخصي ومقصد عارض قريب.

إنّ المؤسّسات الإسلاميّة بالغرب عامّة وبأوروبا خاصّة؛ من مساجد ومصلّيات، وجمعيّات أهلية ومنتديات فكرية، وتنظيمات شبابية ورابطات نسائيّة، ومدارس تعليم اللّغة ومبادئ الدّين الإسلامي ومعاهد عليا، وكذا محطّات شبكة المعلومات الدّولية «الإنترنت»، والجرائد والمجلاّت والنشريات، لا بدّ وأن تعتبر نفسها مجنّدة لخدمة مهمّة انبعاث خطاب إسلامي جديد مستنير بهذه البلاد، يعمّق إيمان المؤمنين

ويثبّتهم، ويخاطب الآخرين ويحاورهم على أرضية من الفكر مشتركة[1]، كما يــردّ أباطيل المنحرفين ويدفع شبهاتهم ويدحض افتراءاتهم، ويعلن الإســلام بــين غــير المسلمين، عملاً بحقّ الدّعوة والتّبشير، فيعرّف (الآخر) على مبادئ ديننا الحنيــف، ويدعوه إلى أن يستظلّ بظلّه، وأنّ ذلك لا بدّ له من جهد كبير وتخطيط محكم وتدبير رصين، بقصد خدمة رسالة تجديد الخطاب الدّيني الإسلامي من خلال خطّة للعمل منضبطة كالتّالي[2]:

أوّلاً: تأصيل الأبعاد الجديدة لمسؤولية الإمام: لم تعد مهمّة الإمام منحصرة في إمامة الناس في الصلاة وتجهيز الميّت والسعي في الإصلاح بين المتخاصمين، وهــي الترتيبات التي عهدها الناس إلى وقت قريب، وإنّما أصبحت وظيفة الإمام ذات أبعاد أخطر وأكبر، فهو المبلّغ للرّسالة عن ربّ العالمين، فهو الموجّه والمرشد، وهو المسؤول عن المضامين الدعوية والمحدّد للصورة النهائية لما يجب أن يكون عليه سمت المســلم وخلقه، وما يتديّن به من معتقد وينشر من قيم ومبادئ.

لذلك كنّا قد اشترطنا في الإمام الأهلية العلمية الأصيلة والكافية، تخوّله القيــام على مهمّة الإمامة في معانيها العميقة، وبما يفرضه الواقع الذي لم يعد فيــه مجــال للاجتهاد الفردي والتقدير المتهافت. فالإمام هو الذي يقود الناس في الصلاة، وهــو الذي يقوم على تربيتهم وحسن توجيههم، وهو من يمثّل صوت الإسلام ومضامينه الحضارية الراقية في ديار الغرب. أمّا تلك الصور التقليدية القديمة التي عمرت لفتــرة من الزمن وأدّت مهمّتها المنوطة بها، لم تعد صالحة لواقع جديد مغاير، إذ أصــبحت توصف بالسذاجة والبدائية، لا لكونها باطلة في حدّ ذاتها، وإنّمــا لأنّهــا لم تعــد

---

(1) انظر كتابنا: تأصيل الحوار الديني، مبحث المشروعية .

(2) انظر: رابطة الجامعات الإسلامية، الإسلام وتطوير الخطاب الديني، ضمن سلسلة فكر المواجهة، ط1 (القــاهرة: دار البيان، 2002م) ص 42 وما بعدها.

تستجيب لمتطلّبات الخطاب الحديث، على مستوى الآلية والمنهج وطرائق تقديم المضمون، الذي سمته الثبات والأصالة، لا يطاله التبديل والنسخ والتحريف.

ثانياً: تحديد هويّة الخطاب الديني الإسلامي المعاصر وضبط مرجعيّته: بأن يتميّز عن غيره من صور الخطاب عموماً، بل وعن صور الخطاب المشوّهة التي تتلحّف عباءة الإسلام، وتتمعّش من امتيازات الانتماء إليه. فهو خطاب متميّز له مرجعيته وضوابطه ومقاصده. يلتزم بشكل صارم أصول الاعتقاد، ويثبت للإنسان قيمة التكريم، ويحترم فيه قيمة العقل، الذي جعله الله تعالى مناط التكليف وسبب تحمّل المسؤولية. كما أنّه خطاب جامع بين القراءتين، النصية والكونية، بأن يجعل الوحي المنطلق المعياري والحقيقة الكاملة المطلقة، وأن يكون الكون الصورة الظاهرة للقدرة الإلهية، توجّه الإنسان إلى التفكر والتدبّر وفهم سنن الخلق والحياة.

ثالثاً: تحديد مقوّمات الخطاب الإسلامي المعاصر:

١- **النظر العقلي والتفكير العملي:** بتحرير العقل من عقاله وإعطائه فرصة توظيف طاقاته، لفهم الواقع ومعرفة مشكلاته وقضاياه وامتلاك لغته وأدواته، حتى يحصّل المسلمون أسباب الشهود الحضاري واللحاق بركب التقدّم العلمي، ويحقّقوا الاستقرار السياسي والاجتماعي، ويأمنوا الجوع والخوف: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ (العنكبوت:٤٣).

٢- **التواصل اللّغوي:** اللّغة العربية هي الوعاء الحضاري للأمّة الإسلامية، وقد نزل القرآن الكريم بلغة العرب، إلاّ أنّ ذلك لا يعني منعاً للانفتاح على اللّغات العالمية وإتقانها وتوظيفها في الخطاب الإسلامي، فنحن أمّة تبليغ مطلوب منّا عرض الإسلام على النّاس كافّة وبلغاتهم المختلفة، فرقعة الدّولة الإسلامية الأولى اتّسعت حتى استوعبت أمماً وشعوباً لم تختلف عاداتهم وتقاليدهم فحسب بل تعدّدت لغاتهم ولهجاتهم، فلم يقف

ذلك مانعاً أمام تبليغ الإسلام وشرح معانيه، حتى بلغ عدد المسلمين من غير العرب أضعافاً مضاعفة، والمثال الماليزي والأندونيسي خير مثال على ذلك.

وحري بالدعاة في أوروبا اليوم أن يتقنوا لغة الأقوام الذين يعيشون معهم ويتعرّفوا على أدقّ خصائصها، حتى يفلحوا في مهمّتهم العبادية ويؤتي عملهم أكله، فلا أعظم من أن يخاطب المسلم من يريد دعوته من النّاس بلغته الأم، فيسهل عليه فهم مضمون الخطاب ويتفاعل معه إيجابياً. فمجال الدعوة رحب يستوعب، إلى جانب التعريف بالدين الإسلامي، الكثير من المناشط الفكرية والثقافية والفنية والرياضية والإبداعية، يحسن بنا أن نُشرك فيها من نريد تعريفهم على هذا الدين القويم، فيتعرّفون عليه نماذج عملية قبل أن يتلقوه مبادئ نظرية، وهذا هو مقصد الدّين العظيم، كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تصف الرّسول ﷺ: «كان خلقه القرآن»، وقد انتشر الإسلام سلماً في أمصار آسيا عن طريق التجار المسلمين الذين بلّغوا الإسلام بأخلاقهم الرفيعة وسلوكهم القويم.

٣- **التفاعل الثقافي وسعة الأفق:** بأن لا يعتزل المسلم المجتمع وإنّما يخالط النّاس ويشاركهم أوجه الحياة، فيتبادل معهم الخبرات ومختلف المعارف والعلوم، وفي كلّ الحالات يقدّم الخبرة الإسلامية التاريخية والحديثة، ولا يسعى بطبعه إلى نفي (الآخر) وإلغائه، فلو «سألنا التاريخ الإسلامي الطويل، المفعم بعظائم الأحداث وجلائل الوقائع، لم يحدّثنا مرّة واحدة أنّ الإسلام قد حاول أدنى محاولة أن يحطم مدنية أمة من الأمم التي فتحها، ووضعها تحت إمرته، وأخضعها لرايته، وإنّما كان دائماً يطبعها بطابعه ثم يهضمها ويحولها إلى غذاء صالح يفيد أتباعه»[1]. فالدعاة يتحقّق نجاحهم بقدر سعة ثقافتهم وقدرتهم على إفراز أفكار وآراء تؤكد على العطاء

---

(١) محمّد غلاّب، الإسلام من خلال مبادئه التأسيسية (المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٦٣م) ص٥٨-٥٩ .

الحضاري الإسلامي في كافّة مجالات الحياة. والمدرسة العلمية والأدبية والإنسانية الأوروبية على إطّلاع ومعرفة بكثير من أوجه التحضّر الإسلامي، فعلينا توسعة مداركهم المعرفية في ما يخصّ تفاصيل ودقائق الحضارة الإسلامية التي أسهمت بأقدار كبيرة في التجربة الإنسانية الجامعة.

٤- **لغة الحوار واحترام (الآخر) وتقديره:** الحوار الهادف من أبرز سمات الإسلام، فقد استخدم القرآن الكريم الحوار أسلوباً من أساليب الدعوة إلى الحق، لاعتباره طريق الإقناع والقبول الاختياري الأمثل، بعيداً عن الإكراه والإلزام. فوضع لذلك قواعد صارمة، منها:

أ - أن يكون الحوار قائماً على الصدق وتحري الحقيقة، بعيداً عن الكذب والسفسطة والأوهام، ومثاله ما دار بين موسى عليه السلام وبين فرعون(١).

ب- التزام الموضوعية للوصول إلى الحقيقة وتحقيق النتائج المرضية، ومثاله حوار نوح عليه السلام وقومه(٢).

ج- التزام الحجة البالغة والدليل الواضح والبرهان الصادق والمنطق السليم، ومثاله ما جاء في القرآن الكريم عن الحوار الذي دار بين إبراهيم، عليه السلام، ونمرود بن كنعان(٣).

د- أن يقصد الداعية المحاور أن هدفه إظهار الحق والصواب.

هـ- التواضع والبعد عن التجريح والاتّهام والاستفزاز.

و - إفساح المجال للمناقشة وتبادل الآراء وتمكين المحاور من إبداء وجهة نظره بكلّ حرية(٤).

(١) سورة طه: الآيات ٤٢ / ٥٤ .
(٢) سورة الأعراف: الآيات ٦٠ / ٦٢ .
(٣) سورة البقرة: ٢٥٨ .
(٤) انظر: محمد السيد طنطاوي، أدب الحوار في الإسلام (القاهرة: دار النهضة، ١٩٩٧م) ص ٣١/١٦ .

إضافة لتلك الضوابط الأخلاقية توجد جملة من القواعد الموضوعية لازم توفّرها في المتحاورين، منها:

أ- فهم (الآخر) كما يريد أن يكون مفهوماً.

ب- أن يزداد الشخص تفهماً لدينه كي يستطيع عرضه على (الآخر) بأسلوب مقنع مقبول.

ج- الإيمان الأصيل بالمطلق فإن ذلك يخرج الإنسان من عزلتــه، ويــدعوه إلى علاقة أكثر قرباً واتصالاً بباقي البشر.

د- الممارسة العملية، فإن هدف الدين ليس مجرد المعرفة المجردة ولكن التطبيــق والممارسة[1].

٥- **إظهار وسطيّة الإسلام:** ونعني بذلك عدالته في ما جاء به مــن أحكــام ومبادئ ومُثل، وكونه قواماً بين الأطراف، وميزاناً للتعديل يرجع إليه النّاس في معرفة الخير والشر، والحق والباطل، والصلاح والفساد، والاستقامة والاعوجاج والقصــد والغلو، إن هذه الوسطية هي التي جعلت المسلمين شهداء على النّاس[2] وجعلتهم أمة لها طابع الاعتدال[3]. ومن هنا لا يختلف الناس على ضرورة أن يتضــمّن الخطــاب الإسلامي المعاصر هذه المفاهيم موضحاً للناس مظاهر وسطية الإسلام، ومنها:

أ- المزاوجة في طبيعة الإنسان بين الروح والجسد.

ب- الاعتراف بالواقع البشري.

ج- مسايرة الفطرة وتهذيب الغرائز.

د- بساطة العقيدة ويسر التكليف.

---

(١) انظر: وليم سليمان، الحوار بين الأديان (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦م) ص ١٦٨/١٧٧ .

(٢) سورة البقرة: آية ١٤٣ .

(٣) محمد محمد المدني، وسطية الإسلام، سلسلة دراسات في الإسلام، العدد ٤، يصدرها المجلس الأعلى للشــؤون الإسلامية في مصر، ١٩٦١م، ص ٧-٨.

هـــ- تحديد الوضع الاجتماعي لكلّ من الرّجل والمرأة[1].

رابعاً: الإسلام والتفاعل الحضاري: لقد جاء الخطاب القرآني عامـــاً، مـــذكّراً النّاس أصل الخلق آمراً لهم بالتعارف، ومبيّناً أسس التفاضل وأنّ التقوى هي ميـــزان الخيرية، فتنحني بذلك أسباب التفاوت الطبقي والاجتماعي، المادي منها والسلطاني، ويُستثنى الإكراه وتُستبعد طرقه، مؤكّداً في الآن نفسه على أنّ سنّة التدافع هي أرفع وأنبل قيمة يأخذ بها الجميع مهما اختلفت أصولهم ومنطلقاتـــهم ومعتقداتهم. وهو ما أطلقنا عليه مصطلح التفاعل الحضاري، بأن يتمازج الناس ويتواصلون لتحقيـــق التنافع المشروع، الذي تبنى على قواعده السليمة لَبنة الاجتمـــاع البشـــري الأولى، معترفة بالتمايز وصور التنوّع الثري، الذي يسهم لا محالـــة في عمليـــة التعـــارف الحضاري الواعي والهادف. والإسلام بمبادئه السامية ومقاصده النبيلة يستوعب هذا الاختلاف التكويني ويجعل منه عوامل إيجابية تقوي بناء المجتمـــع، وتســـتفيد منـــه مؤسّسات الدولة في ثراء التجربة وتنوّع مصادرها، ولعلّ دولة المدينة الأولى خـــير مثال على ذلك، بما تجمّع فيها من تكوينات دينية وقبلية ولغوية وعرقية، فلم تضجر منهم الدّولة بل جعلت بينهم عهدة واتفاق مبادئ ينظّم علاقاتهم ويجعل حماية ذلك التزاماً يُسأل عنه كلّ فرد يعيش تحت سلطان الدّولة. وتلك هي رسالة الإسلام إلى أتباعه المواطنين في ديار الغرب، أن يجعلوا مختلف صور تقلّبهم في الحياة وقفاً علـــى خدمة تلك المقاصد السامية والأغراض الشريفة.

خامساً: العلاقة مع غير المسلمين: تقوم العلاقة بين المسلمين وغير المســـلمين على أسس العدل والسلم والتعاون المشترك، تجمعهم قيم الإخاء الإنساني ومبـــادئ

---

(١) سعيد مراد، الخطاب الإسلامي المعاصر ومقوّماته، بحث ضمن كتاب «الإسلام وتطوير الخطاب الديني»، صادر عن رابطة الجامعات الإسلاميّة، ضمن سلسلة فكر المواجهة (٣)، ط١ ، ٢٠٠٢م، ص ٤٢ وما بعدها.

الولاء الوطني، وهو شعار الإسلام الذي يحث أتباعه لا على مجرّد الاحترام والتقدير وإنّما ببذل أقصى درجات الإحسان فسمّاه برّاً، وتكريس قيمة العدل فدعاها قسطاً: ﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الظَّٰلِمُونَ ﴾ (الممتحنة:٨–٩).

وقد ورد النهي عن مواددة المحارب الباغي المعتدي ممّن تآمر على المسلمين وأرادهم بسوء، أو اتّخاذهم أولياء من دون المؤمنين. وبرغم الأذى الذي من الجائز أن يمسّ المسلم في حياته، فقد وجّه القرآن الكريم المؤمنين إلى طلب العدل وعدم الميل إلى الجور تحت تأثير وقع الاعتداء، وذلك لما تميل إليه النفس البشرية من حبّ الانتقام المضاعف عندما تتعرّض للأذى، فأمر الله تعالى عباده: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾.

سادساً: تفعيل دور المرأة المسلمة: المرأة نصف المجتمع والحاضنة لنصفه الثاني، فهي المجتمع بأكمله، ودورها الرسالي كبير، ومسؤوليتها جسيمة، إذ الحياة في جميع جزئيّاتها شراكة بينها وبين الرّجل، فكان من الصحابيات الشيخة المعلّمة والطبيبة والفارسة ورئيس الشرطة القائم على أمر الحسبة، يشاركن في الحياة بكلّ فاعلية وإيجابية. فلم يكن أمر مشاركة المرأة في أدوار الحياة بالقضية المطروحة أو الإشكال المستعصي، فهي تقوم بدورها الطبيعي في الحياة، قائمة على أمانة الاستخلاف، متحمّلة مسؤولية التبليغ.

وأمام الجمود الذي أصاب دور المرأة وشلّ حركتها، كان لزاماً على طلائع الشباب الإسلامي الواعي أن تتحرّك في اتّجاه تغيير الصورة السلبية التي لازمت المرأة المسلمة

لعقود طويلة، حتى لكأنّها أصبحت أصلاً تجب المحافظة عليه بل ومقاومة أي تغيير من الممكن أن يطال البنية المعرفية للمسلمين، فكثير من أصحاب هذا الاتجاه يتمعّش من تلك الصور المتخلّفة المحزنة، ويغالي في ضرب القيود على تحرير المرأة وانطلاقها نحو البناء والتعمير الحقيقي، بعيداً عن شتى صور الخداع والوهم الكاذب الذي وقعت فيه المرأة بالغرب، فأضحت بضاعة رخيصة تستهلكها الدعاية والإشهار.

وأمام تحديات الدعوة والتبشير بخير الإسلام وتعميماً لنفعه، لا بدّ وأن تبدأ المرأة المسلمة الحركية دورة للفعل جديدة، وتسهم في توعية جمهور النساء وتحسيسهن بأهمية دورهن، في النوادي والعمل والشارع والمنتزهات، وحيثما كانت المرأة، حتى تستبدل وظيفة السلبية والإغراء والميوعة بمهمّة تحمّل أعباء تربية أفراد المجتمع في خلقهم الفردي وسلوكهم الجمعي، موظّفة بذلك سلطان الأنوثة وتوجيهه الوجهة السليمة، بعيداً عن الرذيلة والامتهان الظالم لكرامة أُمّ المجتمع ومدرسة الأجيال، وقطعاً مع ثقافة الجمود والفقه التقليدي الذي ساد ومدّ نفوذ سلطانه حتى حين بدعوى أنّ المرأة عورة وأفضل مكان لها الركن القصي من البيت.

وأمام التردّد المستمر نحو تعريف جديد لدور المرأة وإعطائها فرصة في المشاركة الإيجابية، على هدي من تعاليم الدّين الحنيف، بدأت ترتفع شعارات وافدة تنادي بتحرير المرأة وتخليصها من قيود التخلّف، والذي يعنون به أساساً الإسلام في عقيدته وشريعته. فكان أولى بطلائع الوعي الإسلامي أن تتخلّص من المواريث الاجتماعية السلبية التي تراكمت واستحكمت فيهم، ويلتفتوا من جديد إلى رصيدهم المعرفي المتين، لإعادة تشكيل وعيهم في ضوء تعاليمه، وبذلك فقط تدبّ الحياة في نصف المجتمع الثاني، ويقدر على التفكير الناضج والمشاركة الإيجابية والفعل المنتج الواعد، حتى يقطع الطريق أمام المتاجرين بشعارات تحرير المرأة، الذين أوردوها المهالك وتاجروا بجسدها وعرضها تحت لافتات شتى.

سابعاً: إعادة النظر في الخطاب التّربوي: يجب في البدء التأكيد على مسلّمة بدهية وضرورية ألا وهي أنّ العملية التربوية هي مجموعة من الإجراءات التنفيذية التي تستهدف بناء إنسان بمواصفات معيّنة، وهي بهذا المعنى لا بدّ أن ترتكز إلى تصوّر كلّي يحدّد هذه المواصفات، وقبل ذلك يحدّد الهدف من بناء هذا الإنسان، ثمّ يوجّه النّظر إلى كيفية نقل هذه المواصفات من مستوى التصوّر والأمل الكلّي العام إلى حالة عملية تنتج إنساناً يمتاز بجملة من المواصفات هي عينها ثمار العملية التربوية.

وممّا تجدر الإشارة إليه في هذا المقام هو وجود أزمة حقيقية على مستوى الخطاب التربوي الإسلامي، تتمثل في ندرة الاهتمام بقضايا ومشكلات الواقع التربوي، وأنّ ذلك يستدعي لا محالة الحرص على التخلّص من هذه السلبية؛ فبقدر اهتمام الخطاب التربوي الإسلامي بالهموم التربوية المعاصرة والمستقبلية، بقدر ما يكسب شرعية وجوده وأهلية حمله للصفة الإسلامية المعيارية، فيكتسح القلوب ويلامس مواطن الخلل ومكامن الداء، فيكون جماهيرية يعتنقه الجميع. إذ الوقوف على الماضي والحديث عن التاريخ وحده لا يشخّص الأزمة ويقدّم الحل، بقدر ما يضيف إشكالية الارتهان إلى الماضي دون الاستفادة منه، فيكون سجناً للأفكار ومكبّلاً لإرادة الانطلاق.

إنّ السقف المعرفي الذي انتهت إليه تجربة سابقة لا يصلح أن يكون أداة لإصلاح الواقع المعاصر، لأنّه ابن بيئته ووليد تجربة معيّنة نستفيد منها على مستويات طرائق التفكير والبناء المعرفي ولكن لا نستطيع إسقاط أحكامها الحرفية على الواقع، وقد كان ابن تيمية وغيره من المصلحين، رحمهم الله، ممّن صارع ثقافة التقليد والتربية المنسوخة، فأحرجت آراءه كثيرا من التقليديين الذين فصلوا بين التربية الدينية والتربية المدنية، و لم يأخذوا الحياة بجدية وإنّما سلكوا طريق التقليد والنسخ المشوّه. لذلك اعتُبِر ابن تيمية مؤسّساً فعلياً لإسلامية المعرفة بدون تعقيد أو ترميز. وذلك من خلال تناوله للحقائق العلمية والحياة عامّة من منظور إسلامي تأصيلي.

وقد استهدف ابن تيمية بعمله هذا صميم التربية المعرفية، من خلال مصنّفاته الموسوعية التي صاغ من خلالها الإجابة الشافية عن جملة إشكالات مفصلية في الفكر الإسلامي، خاصّة على مستويات علاقة النقل بالعقل في كتابه الموسوعي «درء تعارض العقل والنقل»، وعلى مستويات الردود الإسلامية في مجال إثبات حقائق الاعتقاد في كتابه المعيار «الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح ». فقد حرص من خلال ذلك على تحقيق جملة مقاصد تربوية، تعتبر مفاتيح مسلكية نحو أيّ محاولة للإصلاح المجتمعي ومن دون المسّ بمؤسّسة السلطان، الذي حاول دون جدوى محاصرة الفكر التنويري الذي بشّر به ابن تيمية، ودفع ثمنه زهرة حياته بأن مات، رحمه الله، في سجن القلعة بدمشق، فكان عمله ثلاثي الأبعاد في آن، حيث أعاد:

- صياغة وعي النخبة من خلال المصنفات المعيارية والمجالس العلمية التي فاضت بالأصيل والجديد.
- تعريف وتحديد دور النخبة في مجتمع سيطر عليه التقليد وتحالف دعاته مع السلطان.
- تعريف دور المسلم والداعية بصفة أدق.

وبرغم تراخي الزمن وتدلّي الأيّام بقيت تلك الملامح الاجتهادية التجديدية قادرة على مواكبة الأنساق المعرفية الحديثة، وذلك لأنّ سقفها المعرفي لم يرتبط باللّحظة التاريخية ويخضع لآلة التقليد القاتلة، وإنّما ارتبطت في أصولها النظرية ومرجعيتها التأصيلية بالوحي، فكانت أكثر قدرة على التجدّد والمواكبة، وهو ما نعنيه بمصطلح «الخطاب التربوي الإسلامي المعاصر».

ثامناً: إحياء التّعليم الذّاتي: التعليم الذاتي أسلوب للتعليم تتاح فيه الفرصة للمتعلم للمشاركة في جوانب العملية التعليمية كلها أو بعضها، وفقاً للإمكانيات المتاحة وللتقدم في عملية التعلم، معتمداً أساساً على ذاته، ومستفيداً من البدائل التربوية وتكنولوجيا التعليم المتاحة، طبقاً لإمكانياته المتعدّدة، وبإشراف وتوجيه من المعلم، على أن يتحمل المتعلم نتائج اختياراته، يقوِّم نفسه بنفسه، وصولاً إلى الأهداف السلوكية المحدّدة[1].

والتجربة الإسلامية ثرية في مجال التكوين العصامي، بأن يأخذ المسلم الأمر بعزم وجد ويبدأ في بناء شخصيته العلمية، وفق منهج متكامل متناسق، يجمع بين التنويع والترتيب الموضوعي، منطلقاً من الأيسر إلى الأعمق ومن المبادئ الأولية إلى الدراسة الموسوعية، مستفيداً في ذلك كلّه ممّا حواليه من الوسائل التعليمية والأدوات التربوية، فيُحسن استعمالها بما ييسّر له التلقي والفهم، خاصّة في زماننا الذي كثرت فيه وسائل الاتّصال وشبكات المعلومات الدولية ووسائط نشر العلم والمعرفة بجميع أفرعها الدينية والمدنية.

ومن شروط ذلك حسن اختيار المراجع المعتمدة الموثّقة، حتى لا يقع الدارس في لُبس يذهب بمقاصد التعلّم والتحصيل، إلى جانب طلب المشورة والتوجيه نحو ما يفيد ويرجى خيره، لتجنّب السقوط في الغث والمكرّر، أو الوقوع في الرّموز المبهمة والمباحث الكلامية الجافة. فالتعليم الذاتي هو عملية تربوية تعليمية يهدف من خلالها الدارس إلى تحصيل العلوم بالوسائل المتاحة عند غياب التعليم المدرسي حقيقة

(١) إعداد أساتذة جامعيين: رؤية جامعة قناة السويس في الخطاب الإسلامي التربوي المعاصر، ضمن كتاب: الإسلام وتطوير الخطاب الديني، ص١٧١.

أو حكماً، فهو خيار يسلكه صاحبه لاكتساب وتمتين ثقافته الشخصية. وممّن كتب في التعليم الذاتي برهان الإسلام الزرنوجي أو برهان الدين الزرنوجي، الذي وضع كتاباً قيّماً بعنوان: «تعليم المتعلّم طريق التعلّم» أو «تعليم المتعلّم في طريق التعلّم»، وقد عاش في النصف الثاني من القرن السادس الهجري وأوائل القرن السابع الهجري بمنطقة خراسان.

تاسعاً: ترشيد عمل المؤسّسات الفكرية والدّعوية الإسلاميّة: تتحمّل المؤسّسات الإسلامية، الفكرية والدعوية، مسؤولية كبرى في حركة الوعي الإسلامي، خاصّة بأوروبا حيث يقلّ التوجيه ويستقلّ كلّ فرد برأيه، أضف إلى ذلك غياب المؤسّسات الملزمة وكثرة الجماعات والمؤسّسات غير المنضبطة بدقائق التوجيه الإسلامي السليم. لذلك لا بدّ من توفّر المؤسّسات المسؤولة والمسيّرة من طرف من يوثق بهم من أهل العلم والإخلاص والصلاح، حتى يُسهموا في حركة التوجيه والتأطير وترشيد الممارسة الدعوية، وأنّ ذلك لا يمكن بلوغه إلاّ بتفعيل دور هذه المؤسّسات ووضع خطط عمل واقعية هادفة، يسهر على تنفيذها أهل الاختصاص، بعيداً عن الفوضى والاجتهادات المرتجلة، في توافق تام بين الدعاة المؤهّلين والمسلمين المبلّغين، حتى يتحالف العلم مع الإمكانيات المادية فتتوفّر بذلك شروط العمل الناجح، والتي من أهمّها تفريغ بعض الطاقات الإسلامية المتميّزة حتى لا تتشتّت جهودها وتتبدّد بين الحاجات الخاصّة ومتطلّبات الدعوة.

ومن أهمّ شروط ترشيد المؤسّسات قطعها مع الصراعات الوهمية والحسابات التنظيمية الضيّقة، التي أربكت إلى حدّ ما سلامة الأداء واستثنت كثيراً من الطاقات ظلماً، ووقع تقريب أشباه العلماء والدعاة بسبب الولاء التنظيمي الحزبي لا غير. إنّ

الجماعة المسلمة الواعية يجب أن تحرص كلّ الحرص على التأليف والتقريب وحصر الطاقات الفاعلة وتدبير طرائق الاستفادة منها، مقاييسها العلم والأمانة ومخافة الله في عباده. وبذلك فقط يقع القطع مع الممارسات الموروثة، التي استصحبها الجيل الأوّل من بيئة غير التي نعيش بها، مرتبطة بأخلاقيات منحرفة وغير شريفة.

عاشراً: تطوير الإعلام الإسلامي وتفعيله: تعتبر سلطة الإعلام، مقارنة بغيرها من وسائط التثقيف والتوعية، على درجة كبيرة من الخطورة والأهمية، فهي تلج البيوت من غير إذن، وتبادر الأُذن من غير سابق إعلام، وتصل إلى الأيدي بأيسر الطرق. وللإعلام سلطان قاهر على التوجيه وتشكيل الوعي، وخطورته في استقراره بيد غير أمينة، وهو واقع الحال. إلاّ أنّ ذلك لا يعدم البديل الإعلامي الإسلامي برغم تواضعه، والرّاجع أساساً إلى قصور التجربة وعجز الإمكانيات المادية، لذلك فإنّ تطوير الإعلام الإسلامي بما يستجيب لتحديات الواقع مطلب ضروري، حتى تتكامل جهود التوعية وتتحالف وسائطها بين إعلام محلي يُعنى بقضايا المسلمين بالغرب وفضائيات متنافسة تحتوي على برامج إيجابية كثيرة يرجى خيرها ويُتوقّع نفعها. ومن شروط التطوير أن يتولى الأمر أهل الاختصاص، ويقع ترتيب المادّة الإعلامية وإعدادها بما يعبّر عن قضايا المسلمين التي تشغل اهتماماتهم.

حادي عشر: توجيه صناعة الكتاب الإسلامي وتحرير مادّته من التقليد والعبث: غلبت على الكتاب الإسلامي نزعة التكرار والمحاكاة، وغابت في ثنايا ذلك المواضيع الجادة ومعالجة هموم المسلمين إلاّ ما قلّ وندر.. ومع اتّساع رقعة الجهل، وتولّي بعض ممّن تلقى تكويناً شرعياً متواضعاً أمر المسلمين في التوجيه والإرشاد، انتشرت ثقافة الشعوذة والسحر، ووجدت كتبها رواجاً، حتى طغت على كتب

العقيدة والفقه والتزكية، فانقلبت مهمّة طباعة الكتاب ونشره إلى همّ تجاري وغاية ربحية بحتة. ولتجاوز حالة الركود والانحراف حري بالنخبة الرسالية أن تبادر إلى تأسيس مشروع الكتاب الإسلامي البديل، ليس على مستوى المواضيع المنتخبة للنشر فقط بل على مستوى الطباعة والترويج، إلى جانب محاولة ترشيد ممارسة باقي الناشرين وإرشادهم على محاور كثيرة من الممكن أن يلتفتوا إليها توفّر لهم الرّبح وتسهم في حركة الوعي الإسلامي في جميع أبعاده[1].

ثاني عشر: تأسيس معجم حضاري متكامل ومستقل: يدرك الخطاب الإسلامي الجديد أن مفردات المعجم الغربي ليست جزءاً من معجم لغوي فحسب، وإنما هي جزء من معجم حضاري متكامل، فكلمات مثل «التقدم» تجسد مفاهيم، وتوجد داخل سياق حضاري مركب يحدد مضمونها ومعناها، كما أنّ مصطلح «العقل» في سياقه الحضاري الغربي الذي يرتبط بإرث فكري بلوره صراع مرير بين الكنيسة والعلم، له دلالاته المغايرة لما هو متعارف عليه داخل المنظومة الفكرية الإسلامية. وأنّ هذا التأسيس ليس بالعمل الفردي الاجتهادي، وإنّما تتبنى ذلك جهات علمية تقوم على مسائل التأصيل المعرفي، مع الوضع في الاعتبار العديد من المحاولات الفردية المتميّزة والجادّة، من الممكن أن تتّخذ منطلقاً لعمل أكاديمي طويل المدى.

والحمد لله ربّ العالمين.

(١) لمزيد من التفصيل انظر كتابنا: الخطاب الديني الإسلامي، المبادئ النظرية وشروط التجديد.

تعثر الخطاب الإسلامي المعاصر

الدكتور أحمد عيساوي(*)

هذه دراسة تاريخية تحليلية نقدية، تؤسس لبعض معالم القراءة الواعية للخطاب الإسلامي، مبينة أسباب وعوامل غموضه، محللة دواعي تعثره وتراجعه في عصر طغيان جبروت الوسيلة، مترسمة خيوط الأمل والعمل الناجع في سبيل نهضته من كبوته وعثاره المزمن.

مصطلح الخطاب

تمهيد:

انتشر استخدام مصطلح (الخطاب) في الأدبيات الفكرية والثقافية والأدبية والدينية والإعلامية والسياسية بين النخب الفكرية والأكاديمية العربية والإسلامية، ولاسيما في العقود الثلاثة الماضية من القرن الميلادي المنصرم والقرن الهجري الحالي، بحيث أصبح مصطلحاً مقصوداً وملفتاً للانتباه، فلا تكاد تخلو النتاجات الفكرية والثقافية والأدبية

(*) أستاذ الدعوة والإعلام والفكر الإسلامي المعاصر.. جامعة باتنة (الجزائر).

وغيرها منه، على الرغم من كونه مصطلحاً قرآنياً بحتاً، ورد في العديد من الآيات القرآنية بمعاني وصيغ وبناءات شتى، وذات مقاصد وغايات متعددة[(١)].

كما تردد هذا المصطلح (الخطاب) كثيراً - وبشكل ملفت للنظر - في كتب ومصادر أصول الفقه الإسلامي بشكل خاص، عند تعريف الأصوليين الحكم وأقسامه وأنواعه، الخاص بخطاب المكلفين: التكليفي والوضعي[(٢)].

غير أن النخب العربية والإسلامية المعاصرة باتت تستعمله - اليوم - بكثرة في أدبياتها الثقافية والعلمية الأكاديمية متأثرة - بشكل أو بآخر - بكثرة استعماله في الأدبيات الأجنبية، والذي هو مرادف لمصطلح (DISCOURS)[(٣)]، أو بفاعلية وروحانية بعث وإحياء المصطلحات القرآنية وإعادتها لواقع التأليف والتخاطب الفكري العربي الإسلامي.

وسيان كان أمر شيوع هذا المصطلح بفعل عوامل البعث والإحياء، أو التأثير والتأثر الفكري، أو الإثنين معاً، فإننا نرى من ضوابط الموضوعية العلمية والمنهجية إعادة تأصيله من الناحية اللغوية والاصطلاحية أولاً، ثم إعادة إحيائه وبعثه من الناحية الدينية الخالصة ثانياً[(٤)].

---

(١) ورد هذا المصطلح في القرآن الكريم في العديد من المواضع الكريمة، وبمعاني وبناءات وصيغ وتراكيب نحوية وبناءات صرفية متعددة، وهو من صميم مباحث علم الأشباه والنظائر، وعلم دراسة المصطلحات القرآنية (الإجرام، الإصلاح، التفكر، عربي، الخبر..) في القرآن الكريم، وسبق أن نشرت ثلاث دراسات حول مفهوم مصطلح (الإرهاب، الإصلاح، عربي) في مجلة (الوعي الإسلامي) الكويتية سنة ١٤٢٦هـ، ومجلة (الخفجي) السعودية سنوات (١٤٢١ و ١٤٢٢هـ).

(٢) انظر مثلاً: محمد محدة، مختصر علم أصول الفقه الإسلامي، ط٤ (الجزائر: شركة الشهاب، ١٩٩٠م) ص ٣٢٦.

(٣) مجموعة من المؤلفين، المنجد الفرنسي العربي (بيروت: دار المشرق، دون طبعة وتاريخ) ص ٢٦٦، مادة (DIS).

(٤) على سبيل المثال لا الحصر فقد حضر هذا المصطلح بقوة في كتاب (أزمة العقل المسلم) للأستاذ الدكتور عبد الحميد أبو سليمان، ط١ (واشنطن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م)، ص ١٩١-١٩٨. كما حضر بكثافة عند غيره، بينما ظهر بقوة وكثافة عند كتاب تيار الحداثة تأثراً بالوافد والمستورد الغربي الجاهز.

- الخطاب لغة:

تفيد المادة اللغوية للفظ (خَطَبَ . يَخْطُبُ . خِطْبَةً . خُطْبَةً . خِطَابًا . خِطَابٌ) المعاني التالية:

١ - تكلم وتحدث في القوم، يقال: (خَطَبَ الخاطِبُ في القوم على المنبر خِطابَةً وخُطْبَةً، أي: تكلم فيهم كلاماً يسمى خُطْبَةً)[١].

٢ - اسم لما يُتكلم به في القوم، يقال: (الخُطبة: هي الكلام المنثور أو المسجوع ونحوهما)[٢].

٣ - الخطبة مصدر الخطيب، يقال: (خطب الخاطب على المنبر)[٣]، (رجل خطيب، أي: حسن الخُطبة والخطابة. خطب على القوم خُطبة)[٤].

٤ - المحاورة والمخاطبة: مفاعلة من الخطاب ومشاورة (فأنت من الذين يخطبون الناس ويحتوهم)، ومراجعة الكلام، يقال: (خاطبه بالكلام مخاطبة وخطاباً، وهما يتخاطبان) قال تعالى: ﴿ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴾ (هود:٣٧)[٥].

٥ - الفصل في الكلام، بينه وما بين سابقه، أو الفصل في الكلام بين الحق والباطل، يقال (فصل الخطاب) الواردة في الآية (٢٠) من سورة (ص): «الحكم والفقه والتبيين والقضاء بين الحق والباطل»[٦]. قال ابن عاشور: «.. وفصل الخطاب: بلاغة الكلام وجمعه للمعنى المقصود، بحيث لا يحتاج سامعه إلى زيادة تبيان»[٧]. وقال الزمخشري:

---

(١) انظر: الفيروز آبادي، القاموس المحيط (دمشق: مكتبة النوري، دون طبعة وتاريخ) ١/ ٦٣ . مادة (خطب).
(٢) القاموس المحيط، ٦٣/١ .
(٣) المرتضى الزبيدي، تاج العروس (بيروت: دار مكتبة الحياة، دون طبعة وتاريخ) ٢٣٧/١و ٢٣٨. مادة (خطب).
(٤) القاموس المحيط، ٦٣/١؛ تاج العروس، المرتضى الزبيدي، ٢٣٧/١ و ٢٣٨.
(٥) تاج العروس، ٢٣٨/١.
(٦) تاج العروس، ٢٣٨/١-٢٣٩؛ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله محمود بن عمر الزمخشري، (بيروت: دار المعرفة، دون طبعة وتاريخ) ٣٦٥/٣.
(٧) محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ط١ (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م) ٢٤/ ٢٢٩.

«..فمعنى فصل الخطاب: البيِّن من الكلام الملخص الذي يتبينه من يخاطَب به لا يلتبس عليه، ومن فصل الخطاب وملخصه أن لا يخطىء صاحبه مظان الفصل والوصل، فلا يقف في كلمة الشهادة على المستثنى منه، ولا يتلو قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ إلاّ موصولاً بما بعده، ولا ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ﴾ حتى يصله بقوله و﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ ونحو ذلك، وكذلك مظان العطف وتركه، والإضمار والإظهار والحذف والتكرار.. ونحوه..»[1].

ومن خلال هذه المقاربة اللغوية نتبين معاني عديدة لمفهوم الخطاب، فهو:

١ - مجموعة الرسائل اللغوية والرمزية والإيحائية والصوتية والرقمية الصادرة عن الجهة المرسلة، باتجاه الجهة المستقبلة . وقد تكون الجهة المرسلة فرداً أو هيئة أو منظمة أو مؤسسة، فيما تكون الجهة المستقبلة أيضاً أفراداً أو جماعات أو مجتمعات أو أمماً.

٢ - وهو نسق ثقافي واجتماعي رمزي معقد ومتشابك بين طرفين متقابلين.

٣ - كما هو شكل من أشكال التواصل والتفاعل الاجتماعي المباشر وغير المباشر أيضاً، عبر الوسائل والوسائط الاتصالية والإعلامية المختلفة .

٤ - وهو أيضاً نمط من أنماط التواصل بين نسقين اجتماعيين متماثلين أو مختلفين غير مباشرين.

٥ - وهو جملة المعاني المختلفة المراد زرعها أو نشرها أو ترسيخها عبر وسائل مختلفة باتجاه فئات أو مجموعات معينة في المجتمع.

٦ - وهو مجموعة الرسائل المقصودة الوجهة والهدف، المراد تحقيقها في الواقع الإنساني المعني بتلك الرسائل [2].

---

(١) جار الله محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف، ٣/٣٦٥.

(٢) تتعدد التعريفات وتتنوع بالنظر إلى أدوات الباحث وإمكانياته وتراكماته ومنهجه وزاوية التناول التي يتعامل بها مع المفهوم.

وعليه يمكننا ضبط مفهوم الخطاب، من الناحية اللغوية، بالتركيز على جملة من الأمور الأساسية فيه، وهي:

١ - الخطيب - الجهة أو الهيئة المرسلة للخطاب - وظروفه الزمانية والمكانية والكيانية والإمكانية.

٢ - المخاطَبين - الجهة المستقبلة - وظروفهم وأحوالهم أيضاً الزمانية والمكانية والكيانية والإمكانية.

٣ - بنية الخطاب ومضامينه وموضوعاته ومكوناته وعقيدته ووجهته الأساسية والثانوية.

٤ - الوسائل المستخدمة في تبليغ الخطاب: (قديمة، حديثة، حداثية).

٥ - الغايات والأهداف المقصودة من الخطاب (صورية اعتقادية، سياسية، اجتماعية، تربوية..).

٦ - الآثار والنتائج المتوقع حصولها من تأثيرات الخطاب: (قريبة، بعيدة) (استراتيجية، عادية) (مباشرة، غير مباشرة) (فعالة، غير فعالة) (سلبية، إيجابية، بينهما)..

٧ - ردود الأفعال ورجع الصدى المتباينة والمرجوة من الجهة المستقبلة للخطاب .

ويُعد كل ركن من هذه الأركان السبعة الأساسية المكونة لأبعاد هذا المصطلح (الخطاب)، فضاء علمياً وفكرياً ومعرفياً مستقلاً عن غيره من الناحية المنهجية والبحثة البحتة، يجب أن يضطلع به الدارسون على حدة، بغية توفيته حقه - العلمي والواقعي - من الدرس والبحث والاستقصاء والنظر، بهدف معرفة قيمته وأهميته في الموضوع المطلوب متابعته واقعياً، كي تستفيد منه الجهة المهتمة به.

فركن الخطيب فضاء معقد وعميق ودقيق في حد ذاته، فضلاً عن الظروف الزمانية والمكانية والكيانية والإمكانية المحيطة به، يحتاج إلى تعمق كبير في تحليل مكوناته، وتفتيت عناصره، وتذرير جزئياته، ثم إعادة بنائها وتركيبها مجدداً لمعرفة أهميته وخطره في الواقع،

ومن ثم تقدير مكانته لدى الجهة المستفيدة منه. وهكـــذا ســـائر الأركـــان الأخـــرى (المخاطبين، البنية، الوسائل، الغايات، الآثار، رجع الصدى وردود الأفعال)[1].

- الخطاب اصطلاحاً:

وبناء على ماسبق يمكننا تعريف الخطاب بأنه : ذلك البناء المعرفي المعقد والمتشابك والدقيق، المحكوم والمضبوط بجملة من الأنساق: الفكرية والثقافية والأدبيـــة اللغويـــة والتاريخية، يصدر من جهة أو هيئة أو مؤسسة أو فرد نحو جهة مستقبلة مقصودة، عبر وسائل ورموز متنوعة، لتحقيق غايات تريدها الجهة المرسلة مـــن المســـتقبلين، تتفـــق ومقاصدها الخفية أو المعلنة، مستغلة الفضاءات الزمانية والمكانية والكيانية والإمكانية.

وعليه فمكونات مصطلح (الخطاب)، هي مكونات في البنية الأساسية للمفهـــوم وللمعنى المراد منه نظرياً وعمـــلياً وواقعياً، فقد تكون البنية الأســـاسية فيـــه: معرفية، أو علمية، أو فلسفية، أو دينية، أو غيرها. وهي محكومة ومحددة ضمن نسق منسجم من الضوابط والمسلمات المتعارف عليها لدى فصيل من الناس. تبذل الجهة المرسلة جهـــداً معتبراً باتجاه الجهة المستقبلة يتوقف على طبيعة الأهداف والغايات المرجوة منها. وتتولى الرموز المتنوعة (الرقمية، اللغوية، الصوتية، الإيمائية، الحركية، التوضيحية، التعليميـــة، التربوية، السياسية، التاريخية، الأيديولوجية..) عامل التوصيل الفاعـــل بـــين الجهـــتين المتقابلتين أو المتباعدتين، فتلتف وتتقابل - وفق أنساق وأنماط التواصل المتعارف عليها - حول الرموز والأنساق الثقافية أو الدينية أو غيرها لبلوغ الغايات المرجوة بتلقائيـــة ومباشرة، أو بالتواري وراء الوسائل الاتصالية والإعلامية المختلفـــة، وذلـــك ضـــمن محددات عملية التواصل الاجتماعي، الزمانية والمكانية والكيانية والإمكانية.

---

(١) انظر: أرسطو طاليس، الخطابة، تحقيق وتعليق عبد الرحمن بدوي، ط١ (بيروت: دار القلـم، ١٩٧٩م) ص٣-٩ و ص٨٠-٨٢، و ١٨١ و ٢٠٤ .. ٢٠٧.

- الخطاب الإسلامي اصطلاحاً:

ومنه يمكننا تصور مفهوم «الخطاب الإسلامي» مرتبطاً بقيم الإسلام المقدسة والخالدة (الكتاب والسنة)، والمرتبطة بالفضاءات الزمانية والمكانية والكيانية والإمكانية. فيتعدد هذا الخطاب ويتنوع مثلاً بتعدد الأزمنة، فنقول: (الخطاب الإسلامي المعاصر، والخطاب الإسلامي الحديث، والتاريخي والتراثي..) . ويتعدد ويتنوع بتنوع الأمكنة، فنقول: (الخطاب الإسلامي المحلي والعالمي والإقليمي والدولي..). ويتعدد ويتنوع بتعدد وتنوع الوسائل والرموز، والأهداف، والغايات، ونوعية الجهات المستقبلة.. ونحوها، ولكنه يبقى خطاباً إسلامياً يحتوي على ثلاثة أركان مهمة، هي:

١ - الركن المقدس الخالد: وهما (القرآن الكريم) و(السنة النبوية المطهرة).

٢ - الركن الاتباعي والتراثي السلفي: وهو التراكم التراثي المبجل والمحترم، بدءاً من عمل الصحابة، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، ثم عمل وفهم التابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، من عدول خلف هذه الأمة أيضاً، عملاً بالمبدأ الإسلامي التراثي والسلفي العظيم: « **إِنَّ خَيْرَكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»[1]، والمبدأ التجديدي الفاعل: «**إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**»[2]، وعملاً بالمبدأ الإسلامي العظيم: «**الخير فيَّ وفي أمتي إلى يومِ القيامة**»[3]، والمبدأ الإسلامي: «**إِنَّ أُمَّتِي لا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلالَةٍ، فَإِذَا رَأَيْتُمُ اخْتِلافًا فَعَلَيْكُمْ بِالسَّوَادِ الأَعْظَمِ**»[4].

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه أبو داود في الملاحم.

(٣) انظر كشف الخفاء، ١/٣٩٦؛ الأسرار، ١٩٥؛ الدرر، ٢٢١؛ الفوائد للكرمي، ٧٤؛ التمييز، ٧٥؛ راجع المقاصد الحسنة للسخاوي، ٢٤٩.

(٤) أخرجه ابن ماجه وأحمد والترمذي والحاكم بألفاظ متقاربة.

٣ - الركن الاجتهادي الفاعل والمتحرك ضمن دوائر المقدس، ومروراً ببوابات الفهم السلفي والتراثي للمقدس، كبوابات عبور واستئناس وتدبر لصيرورة فهم المقدس من قبل الأجيال الأولى عملاً بالمبدأين الإسلاميين العظيمين: « **إنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**»[١] و« **الخير فيَّ وفي أمتي إلى يومِ القيامةِ** ».

وعليه فمفهوم مصطلح (الخطاب الإسلامي) هو: ذلك البناء الاهتدائي الشرعي، المتشابك والدقيق[٢]، المحكوم والمضبوط بجملة من الأنساق: الفكرية والثقافية والأدبية اللغوية والتاريخية الشرعية، يصدر عن جهة أو هيئة أو مؤسسة أو فرد مسلم متخصص، نحو الجهة المستقبلة المقصودة عبر وسائل ورموز شرعية متنوعة، لتحقيق غايات تريدها من المستقبلين، تتفق ومقاصدها، مستغلة الفضاءات الزمانية والمكانية والكيانية والإمكانية في زمني التغيير والبناء.

وبعد أن تمهد لنا مصطلح (الخطاب) لغة واصطلاحاً من الناحية المعرفية المجردة، وحاولنا تأسيس أرضية معرفية ابتدائية له في التصور الإسلامي[٣]، يجدر بنا أن ننتقل لتبيان مكوناته وأسسه، وقبل أن نتعرض لتحديد مكوناته وأسسه وأركانه، يجدر بنا - ابتداءً - التعريج بقراءة تأصيلية تحليلية تاريخية وصفية لحركية تطور الخط البياني للخطاب الإسلامي منذ بعثته إلى عتبات القرن الرابع عشر الهجري [٤].

(١) أخرجه أبو داوود في الملاحم.

(٢) يكون بناء الخطاب الإسلامي: معرفة، أو علماً، أو حقيقة، أو قيمة، أو تصوراً، أو سلوكاً، أو أمراً، أو نهياً، أو مبدأ، أو توجيهاً، أو رغبة، أو صفة، مصدرها التوجيه الإلهي أو النبوي، أو التوجيه الاجتهادي أو الإجماعي، أو غيره من مصادر التشريع الإسلامي.

(٣) لم أعثر على دراسة تأصيلية حول مصطلح الخطاب عموماً، والخطاب الإسلامي خصوصاً، اللهم إلاّ ما ينتجه الأدباء والنقاد فقط .

(٤) حاول العديد من الدارسين تقديم قراءاتهم وتحليلاتهم حول نشأة ومسيرة الخطاب الإسلامي، غير أن ما كتبه الشيخ محمد الغزالي، رحمه الله، في كتابه القيم (الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر) يعتبر قراءة تاريخية لأهم معالم ومميزات مسيرة العمل الدعوي الإسلامي، واضعاً مبضعه حول بعض القضايا الدقيقة التي ميزت كل عصر سياسي وموقف دولة الخلافة من الإسلام والدعوة إليه.

قراءة تاريخية وصفية لحركية الخطاب الإسلامي

- واقع الخطاب الإسلامي عصر انطلاقته:

تبلورت أسس وقيم ومكونات ومناهج واتجاهات وأهداف الخطاب الدعوي الإسلامي، التصورية والواقعية والنظرية والعملية، بلورة نهائية على يد رسول الله محمد ﷺ خلال مسيرته الدعوية بين القبائل العربية، وغيرها من القبائل اليهودية، وبعض متنصري العرب، ومتحنفيهم في أرجاء الجزيرة العربية؛ ومع سائر القوى الوثنية والكتابية المجاورة في الشمال والجنوب من الجزيرة العربية (الروم. الفرس. الأحباش) على مدار جهاد ومكابدة سنين الدعوة والدولة في مكة المكرمة والمدينة المنورة؛ وأثناء تكوينه وتدريبه وإعداده لجيل التغيير المنشود يومها من صحابته الكرام، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، الذين شكلوا منارات اهتداء إضافية في مشهد الخطاب الدعوي الإسلامي الرشيد، وقبسات نور معلمية واقعية في أنحاء شتى من جزيرة العرب [1].

وقد أسس رسول الله ﷺ بشكل نهائي لمكونات ومناهج الخطاب الرباني للبشرية قاطبة، واضعاً بذلك التأسيس الدعوي الرشيد والمتقن الحد الدقيق لكل الجهود النبوية السابقة له، والتي شكلت على مدار قرون الدعوة السابقة تراكمات التعاليم الربانية لهذه البشرية الضالة عن منهج ربها، ومُؤَصِّلاً في الوقت نفسه لقيم ومنطلقات وممارسات الخطاب الدعوي الرشيد، ضمن أنساق ومسارب من التصورات الربانية السليمة، التي تنهض - بقوة - بالبنى الداخلية لكل عناصر التغيير الأساسية في أعماق الفرد المسلم،

---

(١) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ط٥ (بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٠هـ -١٩٨١م)؛ وصفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، ط١ (الجزائر: شركة الشهاب، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٩م)، وغيرها من مصادر السيرة الإسلامية الكبرى؛ كسيرة ابن هشام؛ ومراجع السيرة كفقه السيرة للغزالي؛ وفقه السنة للبوطي؛ والمنهج الحركي للسيرة النبوية لمحمد منير الغضبان .

وتعرج به عالياً لرسم معالم خطاب التغيير وإحداثاته المركزية للذات و(للآخر)، هـــذا الفرد المُشَكِّلُ للمحور الرئيس في هذه العملية التغييرية الشاقة والمعقدة، بكل تشكيلاته وأبعاد نفسيته العقلية والروحية والوجدانية والسلوكية والإنجازيـــة الواقعيـــة، وذلـــك بالتعامل القيمي الواعي والهادف مع مجموعة العناصر الأساسية في هذه العملية الدعوية.

وقد تنبه الخطاب الدعوي الإسلامي منذ بداية انطلاقته الدعوية الجهرية إلى أهميـــة هذه العناصر الديناميكية والأساسية في عملية التغيير الحضارية، لنقل أمة العرب بدايـــة من المتردي والراهن الوثني، باتجاه الأفضل المثالي والواقعي الرباني، تمهيداً لنقل البشـــرية كلها، الرازحة تحت قرون الوثنية، وأغلال الجبروت والظلم، ونير الطغيان والعبودية .

وقد سعى رسول الله ﷺ أثناء عكوفه على صناعة وصياغة جيل التغيير المنشـــود مـــن الصحابة، رضوان الله تعالى عليهم، إلى تفاقه وتدارس رشيد وعميق لمكونات هذه العناصـــر التغييرية، عبر تغذية وتنمية الوحي الإلهي لمصادر ثقافته وفهمه وإدراكه، وذلك عبر إمدادات الوحي الإلهي المقدس، وتعاليمه القرآنية الرشيدة، وقيمها اليقينية المطلقة، وحقائقها القيميـــة الأكيدة القطع، المختزلة لمعطيات ولتجارب ولأحاديث القرون الوثنية العجاف، ولأحـــداث السنين البائدة في التعامل مع معطيات ومكونات المنهج الرباني، والمبلورة لسائر جهود الأنبياء والرسل الأكرمين العظيمة، عليهم الصلاة والسلام، في صناعة وصياغة الخطـــاب الـــدعوي الإسلامي الرشيد، والملائم لتبليغ تلك التعاليم الربانية لأممهم.

وعلى الرغم من تعدد التصورات والملل والنحل في جزيرة العرب (أحنـــاف. يهـــود. نصارى. دهريين. مشركين. وثنيين)، وتأسُسِ عادات الحياة العربية عليها، وترسُـــخِها في نفوس وواقع وحياة الكثيرين منهم، وقدرتِها على صنع خريطة فسيفسائية تصورية وعقدية في جزيرة العرب، الأمر الذي ينبه المتوســـم المعتبر إلى اســـتحالة قيام أي وحدة تصـــورية أو شعورية أو وجدانية أو واقعية بين سكانها، وهي صورة الواقع العربي الجاهلي يومها.

إلاّ أن رسول الله ﷺ استطاع - بفضل تأييد وتثبيت وتعليم الله لـه ثم بجهـده البشري العظيم - أن يدرك أهمية هذا العنصر التصوري الداخلي الـدقيق في عمليـة التغيير، فوجه غاية جهده، وأقصى طاقته لمعالجته بشتى الوسائل والطرق، شاغلاً الحيـز الأكبر من اهتمامه ووقته نحوه، بحيث دام طيلة سنين الدعوة والدولة الإسلامية كلها، واستمر إلى أن أسلم رسول الله ﷺ روحه الطاهرة إلى خالقه بريئة صافية مـن كـل مسؤولية بشهادة خالقه ومرسله سبحانه وتعالى حين أثنى عليه وفاءه بواجـب حمـل وتأدية أمانة الرسالة فقال: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾ (المائدة:٣)، مركزاً مبضعه، عليه الصلاة والسلام، في معالجتـه الدعوية تلك على مسلك العبور لحظيرة الإسلام بنطق الشهادتين اللساني، وعشـقهما القلبي والوجداني، وترجمتهما السلوكي والعملي، وعلى فريضة الصلاة كرمـز قيمـي محوري قائم، وكإطار مركزي جامع، ومُفعِّلٍ ومترجم لسلامة تلك القـيم الربانيـة والتصورات المرجعية المقدسة في النفسية الإسلامية السوية، القابلة للتعامل والتفاعل مع كل خطاب دعوي إسلامي رشيد.

ولتبليغ هذا العنصر التوحيدي الرئيس في عملية التغيير التي أحدثها رسول الله ﷺ بين جيل التغيير أولاً، ثم بين القبائل العربية وغيرها في الجزيرة ثانياً، وما جاورها مـن الأقاليم ثالثاً، ولضمان استمرارية التدفق القيمي الرباني للسيل الدعوي خارج الجزيـرة العربية، حتى من بعد وفاته ﷺ عبر أصحابه الكرام، رضوان الله تعالى عليهم، - وهو الذي حصل بالفعل مع صحابته الكرام من بعده - استجمع رسول الله ﷺ مع طليعة جيل التغيير المنشود كل عناصر التغيير المهمة، الروحية والواقعية، ووظفها بكفاءة بالغة التأثير في خطابه الدعوي الإسلامي الرشيد، الآني والمستقبلي، المحلي والإقليمي والعالمي،

والمتمثلة في القراءة الدقيقة والرشيدة للتفاعل القائم بين مختلف العناصر (العقل. الوجدان. الواقع.) أثناء تلقيها للخطاب الدعوي، وتفاعلها معه، وتأثرها به آنياً، أو تأثيرها فيه مستقبلياً.

وقد ركز رسول الله ﷺ على مَحلِّيَة وكيانية ومكانية وزمانية ووسيلة إلقاء متن الخطاب الدعوي، مفَعِّلاً - قدر الإمكان - فهمه الدقيق لتفاعل هذه العناصر والمكونات مع بعضها، لإنجاح فاعلية الخطاب الرباني في التأثير في عمق النفوس العربية المتلقية له، وعلى وجه الخصوص في نفسيات النخبة.

ولم تقف وسائل التبليغ - بالرغم من بساطتها وتلقائيتها ومباشرتها - يومها مانعاً في حمل ونقل مضامين الخطاب الدعوي لمشركي الجزيرة العربية، كما أنها لم تمنعهم من الاتصال المباشر بصاحب الحنيفية السمحة لسماع خطابه، ومن ثمة الحكم عليه، كما أنها لم تحجزه البتة عن تمرير ما يريده من التواصل معهم حيال مضامين الخطاب الرباني الأصيل، ونجح في مهمته التوصيلية تلك بمعية طلائع التغيير التنويرية من الصحابة والصحابيات، رضوان الله تعالى عليهم، على الرغم من طنين ذبذبات التشويش والإرجاف والدعاية المغرضة التي كان يحدثها فصيل المنافقين المندسين وأحبار يهود وبعض المرجفين من مشركي قريش خصوصاً والعرب عموماً[١]

والملاحظ على منهج صاحب الحنيفية السمحة ﷺ أنه تدرج معهم عبر عناصر الخطاب ومكوناته، وعبر دوائر إيصال الخطاب، الفردي فالجمعي فالجماعي فالاجتماعي فالأممي، وعبر بِنيات الخطاب، البسيطة فالمركبة فالمعقدة فالمرئية فالمبهمة فالمعقولة فالغيبية؛ وعبر أماكنه القريبة والبعيدة والنائية والمجهولة، في مجاهيل البر،

(١) انظر مثلاً: ترجمات أصحابه رضوان الله تعالى عليهم في المصادر التاريخية الإسلامية الأساسية، كأسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، والإصابة في تمييز الصحابة، وصفة الصفوة لابن الجوزي، وغيرها .

وطلاسم البحر، وآفاق الجو؛ وعبر رموزه ودلالاته وأدواته المألوفة والمعروفة والمستحدثة والغريبة: لغة، وبناءً، وتركيباً، وبلاغة، وبياناً، ومقصداً؛ مقدماً بذلك أدق وأبلغ تركيبة دعوية، وأجمل منظومة هندسية خطابية مقنعة، تتضافر طرفاها البنيوي والوسيلي في سبيل تبليغ التعاليم الربانية المطلقة [1].

فنجح الخطاب الدعوي الإسلامي في عصر تواضع وتلقائية وبساطة الوسيلة الدعوية، وصار يحقق بعض مواطىء الأقدام في الجزيرة العربية، بدءاً بمكة، ثم بالمدينة وما جاورها من أحياء القبائل العربية واليهودية، إلى أن صار أوجه وأقدر خطاب مقنع ومجيب وموجه لمختلف المشكلات الغيبية والواقعية القائمة يومها، يدفع برفق وبثقة ووضوح كل خطابات الإرجاف والتشويه والتعتيم والإرباك الوثنية، من قبل أحبار يهود وسيول مكرهم وأراجيفهم التي لا تنقطع، ومن قبل حيرة قسس النصارى ورهبانيتهم الطوباوية الحالمة، ومن قبل ظلامية سدنة الوثنية العربية في مكة.

وظل هذا الخطاب الدعوي الإسلامي الرشيد يزاحم هذه الخطابات الوثنية والكتابية المحرفة، ويتوسع على حساب الباطل والزيغ الكامن فيها، ويقلص من قدرتها على الاحتواء والمواجهة، إلى أن تبوأ مكان الصدارة بشكل نهائي في جزيرة العرب، وأرهص ببعض التطلعات الآفاقية العالمية - وهكذا منهجه - نحو القوى والكيانات الكبرى المجاورة المستعبدة لشعوبها بالقيود والأغلال.

ولعل أهم نجاحاته الاستراتيجية المحسوبة له - بالإضافة إلى نجاحاته العديدة الأخرى - تمثلت في صناعة جيل رباني، وصياغة جيل اهتدائي واقعي ومثالي معاً، قادر

---

(١) انظر: عبد اللطيف حمزة، الإعلام في صدر الإسلام، ط١ (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٧٠م) ص ١٤-١٦؛ إبراهيم إمام، أصول الإعلام الإسلامي (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٧٨م) ص ٣٦ ؛ علي العويني، الإعلام الإسلامي الدولي؛ سيد محمد سيد، المسؤولية الإعلامية في الإسلام... وغيرها .

على حمل وترجمة رموز ومفردات هذا الخطاب الرباني في الواقع، باتجاه الذات والأنا أولاً، وباتجاه (الآخر)، المحلي والإقليمي والعالمي ثانياً وثالثاً ورابعاً.

لخص هذا الجيل الرباني المتميز بعبارات قليلة موجزة رسالة الإسلام في أول اتصال مباشر له مع طواغيت الأرض.. فربعي بن عامر، رضي الله تعالى عنه، رسولُ رسول الله ﷺ لكسرى عظيم الفرس، استطاع بجملتين قصيرتين موجزتين أن يكون رسولاً حكيماً، ومبلغاً أميناً، وداعياً رشيداً عن رسالة الإسلام، وعن رسول الله ﷺ الذي أحسن اختياره، حين قال: «**جئنا نخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى رحمة الإسلام**»[1].

- واقع الخطاب الإسلامي عصر عالميته:

انطلق الخطاب الدعوي الإسلامي الرشيد من عقاله بالجزيرة العربية باتجاه (الآخر) المجاور بعد أن صفت له كينونة الذات، واستقر له الأمر السوي في قواعد الانطلاق؛ مغرياً بمضامينه اليقينية وقيمه الربانية المطلقة هذا (الآخر)، المتعب من ظلم وثقل السنين وحيرتها، المتعطش للمعرفة المطلقة، التي حرم منها قروناً عديدة؛ مُبْهِراً - في الوقت نفسه - عقل (الآخر) المجاور، بما يحمله له من نباهة وفطنة وذكاء واقتدار؛ وَمُفحِماً (الآخر) أيضاً بما يقدمه له من باقات الصفاء وصنوف الطهارة ورياحين الأخوة والتوادد والسلام، في حوار حضاري غير مسبوق في أحداث التاريخ، قام بين خطابين دعويين متمايزين، لانتزاع بني البشر من واقعهم المعيش، باتجاه واقع آخر أكثر أمناً، وأرغد عيشاً، وأفضل يقيناً، وأرحب أفقاً، وأضمن مصيراً وغاية.

---

(١) عن محمد الغزالي، الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر (الجزائر: دار الهدى، دون طبعة وتاريخ) ص ١٣-١٥؛ ولمزيد من التوسع انظر: محمد بن عمر الواقدي، فتوح الشام (بيروت: دار الجيل، دون طبعة وتاريخ) ص ١٨٥.. وكتب المغازي.

انطلق هذا الخطاب الدعوي الإسلامي الرشيد بنفس الوسائل الدعوية التلقائية، مُعَزِّزاً في نفوس أصحابه والأمناء عليه بالقدرة على التأقلم مع (الآخر) ومع معطياته الجديدة، وبالقدرة على قابلية التفاعل والتعامل مع الواقع الجديد، وبالتالي امتلاك القدرة على حسن فهمه، وابتكار الوسائل الجديدة القادرة على ترقية إيصال مكونات ومضامين خطابه الرشيد إليه.

ووجد (الآخر) في هذا الخطاب ما يشفي غليله حيال قضايا روحية وواقعية كثيرة، ظلت غامضة ومبهمة عليه طيلة قرون الفترة الماضية، فأقبل عليه إقبال المتعطش النهم، فارتوى من معينه المطلق بكل صدق وأريحية، ثم انبرى كأحد الأمناء الصادقين المدافعين عنه، يصول ويجول في راهنه وذاته وواقعه ينافح عن هذا الخطاب الرباني، موسعاً – في الوقت نفسه – آفاقية وسائله الإيصالية بما يعود بالفائدة على هذا الخطاب الدعوي المتميز.

وقد تمدد هذا الخطاب الدعوي الإسلامي حتى شمل العديد من الأعراق والشعوب والمجتمعات والأمم في زمن حضاري قياسي، أكسبه مزيداً من الدعم والتأييد والتوسع، كما عاد عليه بإضافة قدرات تجريبية موروثة عن الآخر، وضعته سريعاً في إطار القيادة العالمية الحضارية، على الرغم من قدرة ونباهة أعدائه على التلون وابتكار وسائل التعويق والتشويش والإرجاف الخفية من (دس. مكر. خلط . تزوير . تشويه . وضع. تدليس . حذف . استدراك..)، بعد فشل وسائل المواجهة التقليدية.

ولم يكن لهذا الخطاب الدعوي الإسلامي الرشيد أن يكتسب رقعاً من التمدد الروحي، ويحظى بمساحات واسعة من التنوع العرقي، ويطوي أزماناً من التاريخ الدعوي، لولا قدراته اليقينة المطلقة، ولولا مؤهلاته الحقيقية الرشيدة، ولولا مصداقية نخبته وطليعته الدعوية الفريدة، ولولا مبادئ وقيم مرجعيته الربانية الصادقة، القادرة على استيعاب الواقع الراهن، ورسم معالم وآفاق المستقبل الآتي.

ولعل أهم عامل استراتيجي أكسبه سرعة التمدد وقياسية الانتشار تَضَمُّنُ مرجعيته المقدسة على أسس ومبادئ الحرية والعدل والأخوة والمساواة والتوادد والسلام والطمأنينة لكل لمؤمنين به، ومنحه الاختياري لحقوق المواطنة الإسلامية العادلة والمطلقة لكل الداخلين فيه، وتأمينه الشامل لهم في أنفسهم ودمائهم وأعراضهم وأموالهم ومكانتهم، فأعطاهم من الحرية والمكانة بحسب مواهبهم، فحموا الدين، وحملوا علومه عن جيل الصحابة الكرام، حتى صار الدين لا يؤخذ إلاّ عن أعلام الأمم المفتوحة [1].

فاخترق بهذه القيم الربانية الفاضلة الحدود المرئية المتجهمة على النفوس وفي الآفاق، وتسرب عبر السدود الخفية يعلن في الملأ الأعلى والأدنى أن عصر الرشاد والهدى هو هديته للبشرية الضالة .

- واقع الخطاب الإسلامي عصر تعثره:

استمر هذا الخطاب الدعوي الإسلامي الرشيد يمد البشرية قاطبة بمدد من التعاليم اليقينية، عبر وسائله التقليدية والمستحدثة طيلة قرون التنوير الإسلامية السبعة الأولى، واستطاعت نخبه وطلائعه الوارثة لعلوم النبوة من سائر الأمم المفتوحة أن ترتقي به، وتجدده كلما طرأت عليه عاديات الران، وشوائب التدليس، وتخليطات المتطاولين، فتدفق باجتهادها العلمي والمنهجي في شرايينه دماء التجديد، وروح مواكبة العصر، محققين فيهم شهادة رسول الله ﷺ حين قال: « **إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**»[2]، وذلك بقراءاتها، وتحليلاتها، وفهوماتها... حتى استأنس كثير من علمائه وأمنائه ودعاته إلى قدرته - بصورته الدعوية تلك - على احتواء مشاكل الناس وتطلعاتهم الحضارية، ناسين أو متناسين أن واجبات ومناطات التطوير

(١) انظر على سبيل المثال: أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ط٢ (القاهرة: طبعة دار الفكر العربي، ١٩٨٢م).
(٢) أخرجه أبو داود في الملاحم.

والتجديد والتحديث الدائمة لبنيته ومنهجه ووسائله هي السبيل الوحيد لبقائه حياً وفعالاً لقيادة الجماهير المسلمة، والمرجع الأساس لتوجيه سائر شؤون حياتها.

وصار الطابع الملحوظ عليه بعد قرون الخيرية الثلاثة الأولى أن طغت عليه روح التقليد بداعي التأسي والاقتداء بخير القرون « **إِنَّ خَيْرَكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»[1]. الأمر الذي صاغ أجيالاً من المؤمنين به ممن يركنون إلى نمط التقليد، وممن يستكينون للدعة والتغني بالمجد الغابر والماضي الدعوي التليد .. بحجة واهية، تختزلها المقولة الركونية التالية: «أنه ما ترك الأول للآخر من شيء»، فلِمَ الابتداع ؟ ولِمَ الابتكار؟ ولِمَ بذل الجهد والاجتهاد ؟ ولِمَ التحقيق والنظر في أمور قد سبق إليها الأولون ؟

واستمرأ الخاص والعام استنشاق نسمات الركود، واستأنس الناس تنسم عبير التقليد، حتى عدّوا كل محاولة للاجتهاد والتجديد ضرباً من الابتداع المذموم، ونمطاً من البدعة المحرمة، الواجب وقفها والضرب على أصحابها بيد من حديد، وتحرك غلاة المذهبية يشوهون روح الإبداع والابتكار والتجديد، ويشنعون على أصحابها عند العامة والحكام، بحجج المحافظة على تراث السلف، وإنقاذ ما تبقى من علمهم الصحيح من أقلام وعقول التطاول والابتداع، فتعرض العلماء للسجن والتعذيب والإبعاد والنفي والقهر والحرمان والقتل جراء فتن المغالين وغيرهم في المشرق والمغرب والأندلس.

كما تحركت يد التهديم الخفية، التي واصلت نشاطها التقويضي في جسد الأمة الإسلامية بسيول من خطابات التعويق والإرجاف الداخلية منذ هزيمتها الأولى في القادسية ونهاوند وإجنادين واليرموك، واستطاعت أن تحدث شرخاً كبيراً في الخطاب الدعوي

(١) أخرجه مسلم.

الإسلامي الرشيد، كما استطاعت أن تشغب قدراً مهماً من الطاقات الإبداعية والاجتهادية القادرة على تطوير الخطاب الدعوي ووسائله الإيصالية، لتوجه كبير جهدها واجتهادها نحو هذه الجبهة التهديمية الخفية، فخسر بذلك الخطاب الدعوي الإسلامي الرشيد والوسطي والمتوازن سيولاً من الإمدادات العلمية والمنهجية والوسيلية لترقيته والنهوض به، ليواكب قضايا العصر يومها، ويجيب على مختلف تطلعات الجماهير المسلمة.

كما تحرك غلاة المذهبية يوغرون صدور الخاصة والعامة والحكام على التصوف والمتصوفة، وعلى الفلسفة والفلاسفة، فطورد المتصوفة وعذبوا وقتلوا صبراً، ولوحق الفلاسفة وشردوا ونكل بهم شر تنكيل .. حتى وصل العداء المذهبي والطائفي إلى الاستنجاد بملوك الفرنجة والصليبيين والمغول، حتى تهاوت صريعة - جراء التفتت والتعصب المذهبي - عواصم العالم الإسلامي ومناراتها المشرقة في المشرق والمغرب، فسقطت طليطلة وقرطبة وبلنسية وإشبيلية، ثم سقطت بخارى وسمرقند ومملكة خوارزم شاه، ثم بغداد ودمشق وحلب، وتهدد المغول مصر، بعد أن تهددها الصليبيون مراراً، ومعها سقطت دولة الأمويين في الأندلس ودولة العباسيين والفاطميين في المشرق ودولة الموحدين والمرابطين في المغرب، وورثتها كيانات ضعيفة وتابعة، لم تستطع أن تحمي بيضة الإسلام [(١)].

وغرق العالم الإسلامي في خطاب دعوي جهادي، يغلب عليه طابع الآنية والعجالة لاستدراك ما فاته من تراجع وأفول، ولتحويل الهزيمة العسكرية والحضارية إلى نصر آني سريع، وتم له ذلك بالفعل خلال القرن السابع والثامن والتاسع الهجري، ولكنه كرس معه روح التقليد والتعصب المذهبي، الذي أفضى إلى حالة من الركود الدعوي والوسيلي، أرخت بسدولها الباهتة على متن الخطاب الدعوي الإسلامي الرشيد، فصار خطاباً دينياً

(١) انظر على سبيل المثال: ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب؛ وابن كثير البداية والنهاية؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة؛ السيوطي، حسن المحاضرة، والاعتبار لأسامة بن منقذ؛ وغيرها، ففيها بسط شامل لأوضاع الأمة الإسلامية .

تقليدياً سكونياً تخديرياً، مهد للحملة الاستعمارية الصليبية الحديثة بعد سقوط آخر حصون الممانعة العربية والإسلامية في غربي البحر المتوسط في غرناطة سنة ٨٩٧هـ- ١٤٩٢م.

وفي ظل هذه السنوات الإسلامية العجاف على الخطاب الدعوي ووسائله الإيصالية تقدم (الآخر) خطوات جبارة في ميدان الوسيلة، وتجاوز عتبات نقل المعرفة وترويج الخطابات المختلفة عبر وسيلة المشافهة والخط، فعرف العالم يومها اختراع آلة الطباعة على يد الألماني «يوحنا جوتنبرج، ١٥٣٤م»، التي سرّعت انتشار الوعي لدى (الآخر)، فدشن طباعة الكتاب المقدس «العهد الجديد» باللغة العربية، مروجاً لخطاب ديني منافس ومشوش، ومُعَكِّر لمتون وقوالب ونقولات وشروح ومنظومات ما تبقى من بقايا الخطاب الدعوي الإسلامي الباهت يومها، والمشوه بترهات الحلولية وبدع الاتحادية، والمشبع بشطحات الصوفية، والمدجج بقلادات التقليد والجمود.

وعلى الرغم من تجدد الدماء الحضارية في الجسد الإسلامي، بعد سقوط بغداد وقرطبة ممثلة في الخلافة العثمانية سنة ٧٣٥هـ، إلاّ أن الخطاب الدعوي ظل يحمل معه مورثات التقليد وجينات الجمود، مع تخليط صوفي ووسيلي هجين ولّد حالة من التداعي القيمي والعلمي والفكري والأدبي، غطت عليها انتصارات سلطان البرين والبحرين في اسطنبول لقرون هجرية ثلاثة (٩ و ١٠ و ١١)، سرعان ما انكشفت تلك الحالة المرضية التي اعترضت الكيان الإسلامي عموماً، ومست الخطاب الدعوي الرشيد خصوصاً، بسبب تداعي وتراجع فاعلية الخطاب الدعوي الرشيد. فسقط العالم الإسلامي فريسة سهلة بيد القوى الصليبية المتحفزة، ولم تسعفه خطاباته الدعوية الجهادية تلك من إنقاذ كيانه من الاستعمار، على الرغم من صدقه وحماسته الجهادية ضد الحملات الصليبية؛ لأن المرض كان قد استشرى عميقاً في سائر الجسد الإسلامي [١].

---

(١) انظر على سبيل المثال: الشيخ محمد الغزالي، الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، ط١ (الجزائر: دار الهدى، ١٩٨٧م) ص ٤٤.

- واقع الخطاب الإسلامي الحديث عصر انطلاقته:

حدثت أن استكملت الدورة الحضارية السننية دورتها، ومرت سنون السبات على العالم العربي والإسلامي، وتفاعلت عوامل ومسببات البعث والتجديد الحضاري فيه، التي أسفرت في مطالع القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر ميلادي، عن بوادر نهضة حضارية إسلامية وعربية جديدة، بشرت بمناخ واقع نهضوي راق، كان قد مهَّدَ له خطاب دعوي تجديدي ناهض، صدح به رجال الإصلاح والتجديد الديني الإسلامي في بقاع شتى من العالم العربي والإسلامي.

انبعث هذا الخطاب التجديدي الناهض من بين ركامات وأنقاض ماضوية ثقيلة، كان من أهمها:

خطابات تركة الماضي التقليدي المتعثر، التي شكلت طبقة من الران على العصر الذهبي السابق لها؛ وخطابات الواقع المحلي المثقل بروح الهزيمة، والمشبع بمعوقات التخلف والتراجع؛ وخطابات التحدي الخارجية المتسنفرة بقوة تدميرية هائلة لاسترجاع الماضي الغابر لها [1].

انبعث هذا الخطاب التجديدي الناهض، وخاض معركة متعددة الجبهات، مع مختلف خطابات الإرجاف والتشويه والتعتيم والتحدي، مدفوعاً بغيرة دينية إسلامية صادقة، وبحماسة إيمانية خالصة، وبقوة روحية أصيلة، هدفت بالأساس إلى كشف ورفع كل حجب الظلام القائمة من جراء عبث وتعتيم وخلط الخطابات التشويهية السابقة، وسعت أيضاً بكل ما أوتيت من وسيلة إلى تخليص العقل المسلم من كل ما علق به من ران التشويه والتضليل والخلط، يحدوها في خطابها التجديدي الناهض

(١) أحمد محمد جاد عبد الرزاق، فلسفة المشروع الحضاري، ط١ (واشنطن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤٠٤هـ/ ١٩٩٥م) ٢١١/١ .

ذلك صورتان متباينتان، إحداهما: تعود لأمجاد ماض إسلامي وعربي عريق وزاهر، وثانيهما: تقود لواقع عربي وإسلامي مزرٍ متخلف [1].

وشكّلت عملية نقل الأمة العربية والإسلامية المتخلفة إلى صورة الماضي السعيد محوراً رئيساً لكل خطابات التجديد والإصلاح الديني الحديثة، وتنوعت تلك الخطابات التجديدية بحسب عوامل ودوافع وأسباب وأهداف انطلاقتها، مكررة في الوقت نفسه صيغ التجديد وفلسفته من اتجاهات خطابات الفكر الإسلامي الأولى، ببنيات خطاب فلسفي مكرور، وبصيغ خطابية أكثر حداثة وملاءمة للواقع الدعوي الجديد، ومتأرجح بين مدرسة سلفية سنية، وصوفية سنية، واجتهادية مذهبية، واجتهادية تجديدية حضارية. وسنحاول إلقاء نظرة مختزلة ومركزة على منطلقات وأسس وبنيات هذه المدارس التجديدية الحديثة[2].

١ – المدرسة السلفية السنية :

شكلت المدرسة (الوهابية والشوكانية) في شبه الجزيرة العربية في مطالع القرن الثالث عشر الهجري، الثامن عشر الميلادي، حركة نمطية لمدرسة التجديد الاتباعية السلفية، وتبعتها حركات التجديد الاتباعية السلفية الأخرى في العالمين العربي والإسلامي في القرن الرابع عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي، ففي العراق مثلاً تحركت هذه المدرسة السلفية على يد العلامة الثائر محمود شكري الألوسي

---

(١) انظر: السيد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، ط١ (القاهرة: مطبعة الحلبي وشركاه، ١٣٢٩هـ)؛ عباس محمود العقاد، الإمام محمد عبدة، ط١ (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٠م)؛ محمد عبده، جمال الدين الأفغاني ورسالة الرد على الدهريين، دون طبعة (الجزائر: دار الشهاب، دون تاريخ)؛ محمد عبده، رسالة التوحيد، ط٥ (بيروت: دار النفائس، ١٩٧٨م)؛ محمد عمارة، الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده، ط٢ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠م)؛ محمد عمارة، الإمام محمد عبده مجدد الإسلام، ط١ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨١م)؛ علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، ط٣ (بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٨٠م) .

(٢) انظر: محمد طهاري، مفهوم الإصلاح بين جمال الدين ومحمد عبده، ط٢ (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٩٤م)؛ أحمد محمد جاد، فلسفة المشروع الحضاري، ١/٢٠٤؛ محمد الغزالي، علل وأدوية، ص ٨٣-٨٤ و١٠٠-١٠٦ .

(ت ١٨٣٩م)، مقدمة خطاباً دعوياً سنياً وسلفياً متشدداً، لا مجال فيه للتسامح مع الرأي المخالف، ولا مجال فيه أيضاً لأي تطلع مدني عصري محتمل. فكانت بداياته محفوفة بنهايته المصيرية المحتومة نظراً لجمود خطاباته، وتوقف نجاحها على العودة إلى ما كان عليه السلف الصالح من الأمة فقط، من دون الاستفادة من منجزات المدنية المعاصرة في فتوحاتها واكتشافاتها المفيدة، مخلفة أحداثاً وفتناً دامية لمدة قرنين في جزيرة العرب، وملقية بظلالها وتأثيراتها وخطاباتها المتشنجة بين الحين والآخر على قطاعات مهملة من جمهور المدعوين في العالم الإسلامي[١].

٢ – المدرسة الصوفية الجهادية :

وقد شهد العالم الإسلامي في الفترة نفسها ظهور المدرسة الصوفية الجهادية، ممثلة في الحركة السنوسية التي تزعمها الشيخ محمد بن علي السنوسي الجزائري الكبير في الصحراء الإفريقية الكبرى، وفي الحركة المهدوية ممثلة في تنظيم الشيخ محمد المهدي الصوفي في السودان وجنوبي النيل، وحركة الأمير عبد القادر الجزائري الصوفية الجهادية ضد الاستعمار الفرنسي (١٨٣٢-١٨٤٧م)، وكذلك حركة علماء المغرب الأقصى (الشيخ القندوز والكنوني والخطابي) ضد الوجود الاستعماري الصليبي . وحركة علماء الهند بدءاً من سنة ١٨٥٧م والثورة ضد الإنجليز المحتلين سنة ١٨٥٨م، التي تطورت لاحقاً لتقدم خطاباً وحركة إسلامية أكثر نضجاً وتغييراً وتأثيراً [٢].

---

(١) خميس بن عاشور، الإمام الشوكاني مصلحاً، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، قسم أصول الدين، سنة ١٤١٠هـ- ١٩٨٩م، ص ٨٨؛ محمد البهي، الفكر الإسلامي في تطوره، ط١ (بيروت: دار الفكر، ١٩٧١م) ص ٧٧؛ محمد خليل هراس، الحركة الوهابية، ط١ (مكة: مؤسسة مكة للطباعة والإعلام، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م) ص ٢٠-٢٩.

(٢) انظر مثلاً: أحمد صدقي الدجاني، الحركة السنوسية نشأتها نموها في القرن التاسع عشر، ط١ (بيروت: دار لبنان للطباعة والنشر، ١٩٦٧م) ص ١٥٠؛ أنور الجندي، يقظة الفكر العربي في مواجهة الاستعمار، ط١ (القاهرة: مطبعة الرسالة، ١٩٧١م)، ص ٧٩-٨١؛ محمد فؤاد شكري، السنوسية دين ودولة، ط١ (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٤٨م) ص٢٠ ؛ محمد عزة دروزة، نشأة الحركة العربية الحديثة، ط٢ (بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٧١م) ص ٧٦؛ محمد البهي، الفكر الإسلامي في تطوره، ص ٩١-٩٢؛ علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، ص ٥٥؛ أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية (١٨٣٠- ١٨٧٢م)، ط١ (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٩٢م) ج ١ و ج ٢ .

وقد تميز خطاب هذه المدرسة بالاتزان الروحي، والاعتدال الديني، والتنظيم الواقعي والحياتي والجهادي بهدف الحفاظ على آخر ما تبقى من حصون الحضارة العربية الإسلامية الآفلة في المؤسسات والزوايا والمدن والتحصينات الروحية التابعة لتنظيمات هذه الزوايا الصوفية الجهادية، مستبعدة بشكل مطلق من تنظيمها الاتجاهات الصوفية التنويمية والتآمرية، التي مهدت لدخول الاستعمار، وساعدته على بسط نفوذه في العالمين العربي والإسلامي، كما حصل مع بعض رجال الطرق الصوفية الجزائرية بعد تدجينها وتطويعها[1].

٣ – المدرسة الصوفية التربوية:

عرف العالم الإسلامي بروز المدرسة الصوفية التربوية ممثلة في حركة النور بقيادة الشيخ الصوفي والمصلح (بديع الزمان النورسي، ت ١٩٦٠م)؛ بسبب الظروف القاسية، التي أملتها وقائع وقوانين القهر الاستعماري، والكيد والقمع الاستبدادي معاً على أجزاء كبيرة من العالم الإسلامي ممثلاً في قطبه السياسي الآفل عن ظلال الخلافة العثمانية الراحلة، في تركيا الكمالية العلمانية الحديثة، وفي أجزاء كثيرة من العالم الإسلامي كالهند وإفريقيا الغربية [2].

(١) انظر: أحمد حماني، الصراع بين السنة والبدعة، ط١ (قسنطينة: مطبعة البعث، ١٩٨٤م) ٢/٢٣١-٢٣٢ ؛ أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية ١٩٠٠- ١٩٣٠م (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٧٠م) ٣/٧١؛ عبد الكريم أبو الصفصاف، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ١٩٣١-١٩٥٦م، ط١ (الجزائر: مطبعة متحف الجهاد، ١٩٩٢م) ص ١٢؛ جمال قنان، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، دون طبعة (الجزائر: منشورات المتحف الوطني للمجاهد، ١٩٩٤م) ص ١٢٧، وص ١٣٤ ؛ أحمد الخطيب، حزب الشعب الجزائري، ط١ (الجزائر. المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٦م) ص ٦٧-٦٨؛ يحي بوعزيز، الاتجاه اليميني في الحركة الوطنية الجزائرية، ط١ (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٨٧م) ص ١٧-١٨ .

(٢) انظر: إحسان قاسم الصالحي، بديع الزمان سعيد النورسي، ط٢ (استانبول: مطبعة مركز بحوث رسائل النور،١٩٨٧م) ص ١٩ .

وقد أبدعت المدرسة الصوفية التربوية في ابتكار طرق ووسائل حافظت بها على الرمق الأخير من بقايا العربية والإسلام في قلوب وضمائر مريديها . مُشكّلَةً تراكماً ثقافياً وحضارياً ينضاف لأمجاد العقل المسلم في العصر الحديث.

٤ – المدرسة التجديدية المذهبية :

وقد مثل هذه المدرسة سائر علماء وفقهاء ودعاة العالم الإسلامي الرسميين والشعبيين، ممثلين في علماء القرويين والزيتونة والأزهر والحرمين والنجف وقم وبغداد ودمشق، وسائر حواضر العالم الإسلامي العلمية والدينية الأخرى.

وقدمت هذه المدرسة الشرعية العلمية الرسمية والشعبية خطاباً دينياً يومياً متزناً وهادئاً ومفيداً، وقادت جمهور المسلمين – بهدوء واتزان – للحفاظ على قيم دينهم قدر استطاعتهم، مراعية في ذلك ظروف وملابسات وأحوال الواقع العربي والإسلامي ومعطياته الراهنة والمتسمة بالانهيار والتراجع، وبين سطوة ومراقبة القوى الاستعمارية المهيمنة على تسيير وجهة العالم، التحكم في مصائر الشعوب عامة، والأمة الإسلامية خاصة، وقهرها وتوجيهها، والتحكم فيها عبر بوابات المؤسسات الدولية، وبين قمع وقهر وتجاهل الأنظمة العربية والإسلامية لتطالعات شعوبها في عودة الإسلام لتوجيه الحياة .

٥ – المدرسة الاجتهادية التجديدية :

انطلقت هذه المدرسة الاجتهادية التجديدية من بين خطابات مدارس التجديد الإسلامي المختلفة في العصر الحديث على يد حكيم الشرق الفيلسوف والمصلح السيد (جمال الدين الأفغاني، ت ١٣١٥هـ/١٨٩٧م) بمصر في العقدين الأخيرين من القرن الثالث عشر الهجري، الموافق للعقدين السابع والثامن من القرن التاسع عشر الميلادي، من تصور عصري وصحيح للأطر المرجعية المقدسة، والتي ترى صلاحية هذه الأطر المرجعية

المقدسة للإقلاع والبعث الحضاري للأمة الإسلامية، شريطة توفر الفهم السليم والصحيح لها من قبل المؤمنين بها، وإدراكهم لمعاني الخلودية والمطلقية في ثوابتها المقدسة، وفي مقدار حدوديتها، ولمعاني الصلوحية الزمانية والمكانية والكيانية والإمكانية لمتغيراتها، ومراعاة مشمولات الخلودية المطلقة في ثوابتها، والمرونة والحركية في متغيراتها[1].

ووجد خطاب المدرسة الاجتهادية التجديدية - الرصين والمتطلع - عمقاً واستجابة في وجدان وقلب وعقل الواقعين العربي والإسلامي المتخلفين والرازحين تحت نير الاستعمار الصليبي الحديث، كما وجد كل حوافز المد والانتشار في جناحي العالم الإسلامي، نظراً لآفاقية وتحررية خطابه المتميز، وامتدت جذوره وفروعه في مصر وسائر الشرق مع مدرسة المنار ممثلة في مجلة المنار ومكتوباتها، وعبر مجدديها الشيخ (محمد عبده، ت ١٩٠٥م) والشيخ (السيد رشيد رضا، ت ١٩٣٦م) [2].

وتطورت المدرسة في شكلها التنظيمي الدقيق مع جماعة الإخوان المسلمين بقيادة الشيخ حسن البنا (ت ١٩٤٩م)، وسائر فروعها في العالم الإسلامي، وحركات البناء الحضاري الفردية والجمعية أيضاً (مالك بن نبي، ت ١٩٧٣م) و (إسماعيل راجي الفاروقي، ت ١٩٨٦م) و (جودت سعيد) ...

وفي المدرسة الدستورية في تونس بقيادة الشيخ (عبد العزيز الثعالبي، ت ١٩٤٤م) وتنظيمه حزب الدستور التونسي، وفي المدرسة الباديسية بالجزائر على يد أقطابها الشيوخ (عبد الحميد بن باديس، ت ١٩٤٠م) والشيخ (محمد البشير الإبراهيمي،

---

(١) انظر: لوثروب ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، ترجمة عجاج نويهض، تذييل الشيخ شكيب أرسلان، ط١ (القاهرة: مطبعة البابي الحلبي، ١٩٣٦م) ٢٥٩/١ .. ٢٦٦؛ أحمد محمد جاد عبد الرزاق، فلسفة المشروع الحضاري، ط١ (واشنطن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤٠٤هـ- ١٩٩٥م) ٢٩٤/١.

(٢) أحمد محمد جاد عبد الرزاق، فلسفة المشروع الحضاري، ٢١١/١؛ أنور الجندي، يقظة الفكر العربي في مواجهة الاستعمار، ط١ (القاهرة: مطبعة الرسالة، ١٩٧١م) ص ٩٧-٩٨.

ت ١٩٦٥م) والشيخ (العربي التبسي، ت ١٩٥٧م) والشيخ (الطيب العقبي، ت ١٩٦٠م) والشيخ (مبارك الميلي، ت ١٩٤٥م)، وفي المدرسة الخطابية بالمغرب مع حركة حزب الاستقلال بقيادة الشيخ المجاهد (عبد الكريم الخطابي، ت ١٩٧٣م) والشيخ (علال الفاسي) [(١)].

كما وجدت لها امتداداتها بين علماء الشام، وعلماء ومجاهدي فلسطين بقيادة المجاهد الشيخ (عبد القادر الحسيني) والشيخ (أمين الحسيني) والشيخ (عز الدين القسام، ت ١٩٣٦م). ومع علماء ومجاهدي العراق وثورة رشيد علي الكيلاني سنة ١٩٤٠م؛ وبين علماء فارس وحركة مقاطعة شركات التبغ، وفتاوى تحريم التعامل مع الإنجليز. وبين علماء ومجاهدي جمهوريات أواسط آسيا السوفياتية الإسلامية، وفي شبه القارة الهندية ممثلة في (ندوة العلماء)، وفتاوى تحريم التعامل مع شركة الهند الشرقية وثورة صد المحتلين

(١) للتوسع انظر: عبد الكريم أبو الصفصاف، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (١٩٣١-١٩٥٦م)، ص ٥٥-٥٧؛ جمال قنان، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، ص ١٣٤؛ أحمد الخطيب، حزب الشعب الجزائري، ص ٦٨؛ يحي بوعزيز، الاتجاه اليميني في الحركة الوطنية الجزائرية، ص ١٩-٢٠؛ أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية (١٩٠٠- ١٩٣٠م)، ٣/٨٨ و ٨٩ ؛ البشير بن الحاج عثمان الشريف، أضواء على تاريخ تونس الحديث (١٨٨١-١٩٢٤م)، ط١ (تونس: دار بوسلامة للطباعة والنشر، دون تاريخ) ص ٥ وما بعدها؛ شارل أندريه حوليان، المعمرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي، تعريب: محمد مزالي والبشير بن سلامة، دون طبعة (تونس: الشركة التونسية للتوزيع، دون تاريخ) ص ٤٨؛ شارل أندريه حوليان، أفريقيا الشمالية تسير، ترجمة: محمد مزالي والبشير ابن سلامة، ط١ (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٧٦م) ص ٤٤؛ محمد خير الدين، المذكرات، دون طبعة (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، دون تاريخ) ١/٧٠؛ أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، ط١ (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٧٨م) ج١، ج ٢، وج ٣؛ حسن حسني عبد الوهاب، مختصر تاريخ تونس، ط٤ (تونس: دار بوسلامة للطباعة والنشر، ١٩٧٧م) ٢/٦٥؛ حفناوي عمايرية، فجر التنوير العربي الحديث الصلات الثقافية والفكرية بين تونس وأقطار المشرق (١٨٦٤- ١٨٨١م)، دون طبعة (تونس: دار نقوش عربية، دون تاريخ) ص ١٤٨؛ محمد الصالح المراكشي، تفكير محمد رشيد رضا، ط١ (تونس: الشركة التونسية للنشر، ١٩٨٧م) ص ٦٠٠، محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة، ط١ (دمشق: المطبعة التعاونية، ١٩٦٥م) ١/١٢٦؛ عمار طالبي، آثار الشيخ عبد الحميد بن باديس، ١/١٢٨؛ محمد ناصر، المقالة الصحفية في الجزائر (١٩٠٠-١٩٣٠م)، ط١ (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٦م) ٢/٢١٨؛ محمد الفاضل بن عاشور، أركان النهضة الأدبية بتونس دون طبعة (تونس: الشركة التونسية للنشر، دون تاريخ) ص ١٣؛ محمد الصالح الجابري، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس (سنة ١٩٠٠-١٩٦٠م)، ط١ (تونس: الشركة التونسية للنشر، ١٩٧٥م) ص ٢١؛ أبو القاسم الغالي، محمد الطاهر بن عاشور، ص ٢١ ؛ محمد الفاضل بن عاشور، الحركة الأدبية والفكرية في تونس، ط ٣ (تونس: الشركة التونسية للنشر، ١٩٨٣م) ص ٧٠ ؛ الطاهرالحداد، التعليم الإسلامي وحركة الإصلاح بجامع الزيتونة، ط ١(تونس: الشركة التونسية للنشر، ١٩٨١م) ص ٢٤؛ محمد الطاهر بن عاشور، أليس الصبح بقريب، ط٢ (دون مدينة: دون دار، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م) ص ١١٤.

الإنجليز سنة ١٨٥٧م، وفي جهود التنوير الإقبالية (نسبة لمحمد إقبال، ت ١٩٣٢م)؛ وفي جهود حركة الجماعة الإسلامية في الهند بقيادة المرحوم (أبو الأعلى المودودي، ت ١٩١٩م)؛ وفي الجنوب الشرقي من المحيط الهادي في جاوة والفلبين وماليزيا[١].

وعلى الرغم من الامتدادات الجغرافية والديمغرافية التي حققها هذا الخطاب الدعوي في العصر الحديث، إلاّ أنه تعثر بسبب عدة عوامل تعويقية كيدية، داخلية وخارجية، وتصدت له كل قوى الكيد الداخلي والتآمر الخارجي، لأنه سعى بكل وسائله إلى تنوير الجماهير المسلمة، وتبصيرها بواقعها الأليم، وحاضرها ومستقبلها، وعمل على سحب ولائها من تلك القوى، وتحويله لله سبحانه وتعالى، وكذلك كان الأمر بالنسبة لسائر الخطابات الدعوية لمختلف المدارس التجديدية الإسلامية، سعي لتحويل ولاء الأمة نحو ربها، وسعي لتحويل الاحتكام لشريعة الإسلام، وسعي لمجابهة القوى الاستعمارية الباغية.

وظل - وسيظل إلى يوم الدين - هذا الخطاب الدعوي الرباني الأصيل في صراع عقدي دائم، وجهاد مرير مع هذه القوى الظلامية الباغية حتى تتمكن من تدجينه، أو يتمكن هو من الانتصار عليها، أو تتمكن هي من الغلبة عليه، ولكن صدقت حكمة الله العظيم حين قرر منذ الأزل بأنه : ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ (النساء: ١٤١).

---

(١) انظر: محمد إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ترجمة عباس محمود، مراجعة عبد العزيز المراغي، والدكتور مهدي علام، د. ط. (بيروت: دار آسيا، ١٩٨٥م) ص ١-١٩؛ سكينة قدور، رسالة المشرق لمحمد إقبال، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة، قسم الحضارة، إشراف الدكتور: حربي أمين سليمان، سنة ١٤١١هـ، ص ١٤-١٥ ؛ عمار طسطاس، أبو الأعلى المودودي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، قسم أصول الدين، إشراف الأستاذ الدكتور عبد السلام الهراس، سنة ١٩٩١م ١٤١١هـ، ص ٢٧-٢٩؛ أبو الحسن علي الحسني الندوي، المسلمون في الهند، ط١ (دمشق: دار ابن كثير، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م) ص ١٢٩-١٣٠، ص ١٧٧.

هندسة الخطاب الإسلامي ومكوناته

- دوائر انتشار الخطاب الإسلامي وآفاقه:

تبلور الخطاب الديني الإسلامي - قبيل انقطاع الوحي - في صورته التوقيفية المقدسة الخالدة، التي جسدها ومثّلتها الأطر المرجعية المقدسة (القرآن الكريم ، السنة النبوية)، والتي توارثتها الأمة الإسلامية - نظرياً وعملياً - عن المجتمع الأمثل الذي كان عماده ممارسات الرسول ﷺ وتطبيقات صحابته الكرام، رضوان الله تعالى عليهم، في المجتمع الرباني الأفضل في الأرض، بعد أن قطع هذا الخطاب الرباني الإسلامي المتميز - بجهد وثبات وعقلانية وواقعية - كل دوائر ومراحل الانتشار العشائري، فالقبلي، وحدودهما المحلية، لينتقل إلى الجهوية التجاورية وحدودها الوطنية، وصولاً إلى دائرة القومية وآفاقها الوحدوية الضيقة، التي كانت بالنسبة إليه محطة الانطلاق الحقيقية والأولى لتجسيد معاني التعاليم الربانية العالمية - المختزلة فيه - في الواقعين الجغرافي والديمغرافي، إلى أن تشكّل - نهائياً - وفق مستواه العالمي الشامل، الذي احتضن العالم القديم - وتراكماته العقدية والفلسفية والتصورية - بين تعاليمه الآفاقية في أقل من قرن.

وقد تدرج هذا الخطاب مع تلك الدوائر والمراحل زمانياً ومكانياً وكيانياً وإمكانياً بعمق ودقة متناهية، كانت تُكلل دائماً بالنجاح والتوفيق في تحقيق الانتشار الجغرافي والديمغرافي، وتوسيع بُؤر الولاءات لتعاليمه العالمية، على الوجه المشرق الذي نقلته إلينا المصادر التاريخية الإسلامية الأولى .

وما كان هذا الخطاب ليحظى بمثل ذلك التوفيق، لولا توفر جملة من العوامل المضبوطة والمدروسة فيه بدقة متناهية، بحيث انسجمت فيه - منطلقاً وتوجهاً وتأثيراً وغاية ووسيلة - الحقيقة والتعليمة الربانية أوالنبوية المراد تبليغها وإيصالها لجمهور المدعوين الحقيقيين والمرتقبين مع جملة من المستويات والأطر والدوائر الواقعية في محيط

المدعوين والمستقبلين لها، إن على المستوى المعرفي والتصوري والعقلي النظري لهم، أو على مستوى الانسجام والتقبل الوجداني لهم، أو على مستوى التعامل النفسي والشعوري الداخلي لهم، أو على مستوى الصدود والنكران الوجداني الداخلي لهم، أو على مستوى التعويق والتحدي الخارجي والواقعي لهم .

كما انسجمت فيه أيضاً صلاحية تعدد وتنوع مستوى خطاباته الجزئية، لتحتوي سائر الفروق الفردية في التلقي والتقبل والتأثير بين مختلف الأفراد، وتحاصرها وتطوقها في شكلها الإيماني الجديد ضمن نطاق الأفراد، ولتجمع أكبر قدر من التصورات الجمعية وتهيكلها، ولتبلور المخيال الجماعي لجمهور المدعوين وتشكّله، ولتحقق وتصنع لهم أرضية الوحدة التصورية والوجدانية الجماعية، التي هي أساس وأرضية كل خطاب إسلامي عالمي.

كما انسجمت فيه طبيعة وحجم إشعاع التأثير المنبعث من تعاليمه باتجاه جمهور المدعوين، فتراهم يخبتون إليه أو ينفرون منه بقدر أرضية التلقي التي شُكّلوا عليها، نفسياً وروحياً ووجدانياً وعقلياً.

وضمن هذه الدوائر الديمغرافية تنقل الخطاب الديني الإسلامي النظري والتطبيقي - معاً - واثقاً مطمئناً، ومتمكناً شيئاً فشيئاً من بقايا وحطام الأديان الأخرى الوضعية والسماوية، حتى بلغ مشارق العالم القديم ومغاربه، مهيئاً نفسه للتعامل مع سائر الطروحات المعارضة والمخالفة له، نظراً لتضمنه أسس وآليات التعامل مع (الآخر) السوي والمتأزم، وتضمنه قواعد تقبّله والتعايش معه، والاعتراف بوجوده قوياً ومتماسكاً ضمنه، مستنداً في هذا كله إلى تعاليمه الربانية الدقيقة، والتي ورد في شأنها الكثير من قواعد التعامل مع الآخر المسالم والمعادي، كقوله تعالى : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ (البقرة:٢٥٥)، وقوله تعالى: ﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴾ (الكافرون:٦) .

بل يذهب - ومازال يذهب لخلوديته الزمانية والمكانية والكيانية - إلى أبعد من ذلك بكثير عندما يتسامق من أس فضيلة الاعتراف بشرعية وجود (الآخر)، وأس شرعية ضمان حقوقه وحرياته العامة له، إلى بُعد إشراكه في صناعة وصياغة وتشييد وبناء منظومته الحياتية الراشدة، مستفيداً من إيقاعات الفضيلة والحق والخير والرشاد المتبقية في خطابات الأديان والملل والنحل الأخرى، وهذه - حسب قراءتي وتصوراتي المتواضعة - أعظم مزية تضمنها الخطاب الديني الإسلامي العالمي، والتي ضَمن بها تذكرة الفوز والمرور إلى مستوى العالمية الحضارية، وظل متبوءاً سدتها طيلة القرون الهجرية الخمسة الأولى.

ولعل - من باب القياس مع الفارق - أس فضيلة الاعتراف والتعايش والانسجام والتقبل (للآخر) أقل - من حيث القيمة الأخلاقية والفاعلية الواقعية - من أس فضيلة إشراكه في عملية التشييد والبناء الراشدة، وذلك باستثمارها وتوظيفها لما بقي عنده من الفضائل في موروث خطابه الديني القديم، وهي الفضيلة والأرضية الأساسية التي تفتقدها خطابات الآخرين باتجاه الآخرين عامة، وباتجاه الخطاب والكيان الإسلامي خاصة، بما فيهم الخطاب الغربي العولمي الوثني المعاصر والمستقبلي.

- هندسة الخطاب الإسلامي ومكوناته:

المتمعن في ظاهر وروح التعاليم الدينية سيجد - من غير عناء - الأبعاد العالمية الكامنة فيها، من ذلك قوله جل وعلا : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف:١٥٨) وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سبأ:٢٨)، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ (الأحزاب:٤٥-٤٦)، ولقوله عليه الصلاة والسلام:

«أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ؛ وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ فَلْيُصَلِّ؛ وَأُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي؛ وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ؛ وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً» (١).

- معطيات المعادلة ودلالات النجاح:

وقد تدرج رسول الله ﷺ بهذا الخطاب مع صحابته الكرام، رضوان الله تعالى عليهم، ضمن إطار المجتمع المسلم، من المنطلق الأبجدي لهذا الخطاب، حتى أعطاهُ بعده الشمولي العالمي، وفق مكونات المعادلة التالية:

نص كريم (قرآن، سنة)+زمان دعوي + جهد (نبوي، دعاة)+كيان اجتماعي + فهم حقيقي للنص+ تقنيات توصيل دعوية وواقعية للنص+ تطبيق تقريبي لمراد ومقصد النص = **مكونات الخطاب الديني.**

وتحكم أطراف هذه المعادلة ضوابط معرفية وفكرية وثقافية شرعية صارمة، هي التي تضمن له صيغ النجاح والسداد، وتمنح لكل مكوناته أبعاداً خطابية مؤثرة، بحيث تُفَعِّلُ هذا الخطاب كي ينتقل من مستوى الوطنية والقومية إلى مستوى العالمية الشمولية، عبر صيغ خطابية دقيقة ومؤثرة وفاعلة، مبتدؤها الخطاب التطهيري كحجر أساس في تخليص الوجدان والعقل المدعو من براثن الوثنية وران الجاهلية، عبّر عنه الفاروق عمر، رضي الله عنه، بقوله: **«كان رسول الله ﷺ يُفرغنا من الجاهلية ويملؤنا بالإسلام».** وعطفها بالخطاب التنويري اللازم للأنفس المظلمة بأدران الجاهلية، عبّر عنها الكثير من الصحابة، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، عندما وصفوا نعمة الإسلام لأنفسهم ولغيرهم بقولهم: « .. كنا أهل جاهلية، يقتل بعضنا بعضاً، ويستعبد بعضنا بعضاً،

(١) أخرجه البخاري.

ويتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، نقطع الأرحام، ونـأتي المنكـر، ونسـتحل الحرمات، ونشرب الخمر، ونأكل الربا.. حتى منّ الله علينا بهذا النبي، فأخرجنـا مـن الظلمات إلى النور..»[1].

ثم إتباعـها مباشرة بالخطـاب الإحيائي الفاعل، الذي يحي النفوس بعد مواتهـا: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ (الأنعام:١٢٢) ممزوجاً بالخطـابين الإيحـائي والتلقـيني، بحسب ما تقتضية الظروف الزمانية والمكانية والكيانية والإمكانية لجمهور المدعوين.

ومن أهم هذه الضوابط التناغم القائم بين مستوى الخطاب وقوة الطاقة التفعيليـة والتأثيرية فيه، بحيث تضمن له التوزع السوي والكافي والمؤثر في العقـول والضـمائر والنفسيات أولاً، وعلى مستوى المساحة الواقعية الجغرافية والديمغرافية المنشودة ثانياً.

كما تحتاج كل دائرة انتشار – الوطنية، القومية، العالمية الشمولية - إلى مسـتوى وحجم وقوة وطاقة تأثيرية وتفعيلية خاصة به، ومختلفة عن غـيره مـن المسـتويات، يتضمنها الخطاب ضمن مكوناته، كما يدركها ببداهة القائمون - بصدق وإخلاص - على توصيله للمدعوين، ويستشعرها بتلقائية وصدق وحرارة وجدانية جمهور المستقبلين المتعطشين للإيمان.

- دلالات نجاح خطاب الأصالة والحضارة:

ظل العالم الإسلامي طيلة القرون الماضية يستقي أصول خطابه النظري والـواقعي من معين محددات الأطر المرجعية المقدسة، التي شكّلت له طيلة القرون الهجرية الماضية منابع للقيم وللمعايير وللقواعد وللأصول وللمبادىء التصورية والوجدانية والسـلوكية والواقعية، الفردية والجمعية والأممية، المحلية والإقليمية والعالمية.

---

(١) انظر وصف الصحابة لإسلامهم، ابن كثير، السيرة النبوية، ٤٨٩/١؛ خطبة جعفر بن أبي طالب فـي حضـرة النجاشي في هجرة الحبشة، ابن كثير، السيرة النبوية، ١٠/٢.

كما كانت أيضاً مصدر إلهام وإمداد وبعث ورقي حضاري داخلي وخارجي، عمل العقل المسلم المبدع - يومها - على تصدير قيمه ومثله ومبادئه وسلوكاته وأخلاقه من واقع الحياة المحلية والإقليمية الإسلامية إلى الآفاقية العالمية الدينية والوثنية.

ووجد العالم القديم يومها نفسه في حالة إفلاس - وتلك هي حقيقته - وتراجع حضاري شامل أمام عطاءات وفتوحات القيم الإسلامية الراشدة، فانبهر بمبادئه وقيمه السامية، وسرعان ما انخرطت الشعوب طواعية في منظومته التشريعية كمؤمنين أوائل بها، ففسحت لإبداعاتهم ولمواهبهم ولقدراتهم ولعقولهم ولهممهم المجال واسعاً، فأقبلوا منكبين بحرارة يُرقُّونها ويُثرونها ويُضيفون إليها كوامن الخير والفضيلة والصلاح والإبداع... المتبقية في مخزونهم التراثي، والتي لم تستطع يد الوثنيات القديمة أن تغيرها أو أن تمسها فيهم بسوء.

ومنذ القرن الأول والعالم الإسلامي في حلقة تدبر مسجدية وعلمية ومدرسية واعية وناشطة، وفي حالات وتشوقات وتشوفات للفهم والعظة العقلية والروحية والوجدانية حول منابع الوحي المقدس (القرآن، السنة)، يعبُّون منها النور، ثم يعكفون به على واقعهم ليُحيلوه - بجهدهم وبتضافر إراداتهم الصادقة، وبتوفيق من قياداتهم الراشدة - حضارة عربية إسلامية راشدة، تصهر جميع أمم الأرض على اختلاف أعراقهم ومنابتهم وبلادهم، لتصنع بمحصلة إراداتهم حضارة إسلامية عربية راقية، أنارت بها دياجير ظلمة الوثنيات في العصور الوسطى المسيحية وغيرها.

واستطاع هذا الخطاب في جانبيه، المقدس (الكتاب، السنة) والاجتهادي، أن يلبي بتوازن وثقة وسخاء كل تطلعات وحاجات الفرد والجماعة والمجتمع والأمة الحضارية، الآنية والمستقبلية منها، دون أن يُحدث ذلك التطوير والتفاعل الحي بين الإنسان

ومضامين الخطاب الإسلامي المقدس أي اختلال أو إخلال بنظام ونواميس الكون والطبيعة والحياة والإنسان والبيئة، كما هو الشأن في واقع المدنيات الوضعية الحديثة والمعاصرة، التي أتت بوحشية – ولا عقلانية متناهية – على كل النواميس الضابطة لصيرورة الكون والطبيعة والحياة والإنسان والبيئة.

وقد نقلت لنا الحقائق التاريخية عن أوضاع المسلمين الراقية وغيرهم، في ظل الخطاب الديني الإسلامي الأصيل مقارنة بغيرهم من الأمم الأخرى، التي كانت تعاني من أردأ وأسوأ وأفظع الخطابات العنصرية والأنانية والقهرية، الدينية منها والوضعية أيضاً على حد سواء.

ولذلك فقد شكّل العالم الإسلامي – كنقطة جغرافية واسعة، وكامتدادات ديموغرافية راشدة – مناطق جذب وإثارة واستقطاب لمختلف شعوب الأرض، التي كانت تطمح بحثاً عن الحرية والانعتاق، والهدى والحياة الكريمة، وذلك طيلة القرون الهجرية الماضية. ولم يكن أحد من المسلمين، أو من غيرهم يتبادر إلى نفسيته أدنى شعور في تدني مكانته أو مكانة حضارته وأمته الإسلامية عن غيرها من الأمم الأخرى. بل كان الشعور العام السائد يومها في العالم الإسلامي منطلقاً من المبدأ الإسلامي العظيم، من قوله تعالى: ﴿... وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (المنافقون:٨)، ولم تُسوِّغ لأحد من المسلمين – كان – تكذيب، أو تضليل نفسه، أو تخطيئها بما يتمتع به هو وغيره من المسلمين وأهل الذمة من مستوى معيشي وحياتي وحضاري راق في ظل الخطاب الإسلامي الأصيل.

وهكذا قدمت الحضارة العربية الإسلامية الإجابات المقنعة والحلول المقبولة لمعضلات البشرية التائهة يومها، بواسطة عطاءات الخطاب الإسلامي الأصيل في جانبيه المقدس والاجتهادي. وظل أمرها كذلك حتى تنكب عقلها الرسالي عن الجادة التنويرية المنوطة به

استخلافياً، وتخلى عن أقدس مهامه الرسالية، المتمثلة في رسم معالم الطريق الراشدة للبشرية التائهة في ظل الوثنيات والفلسفات والأديان المحرفة، فحل بهذا التنكب والعمى مرض خطير في العقل المسلم، أثر - بالضرورة - على وجدان وسلوكات ومواهب وعطاءات الفرد والعقل المسلم المبدع، التي انسحبت آثاره الخطيرة أيضاً على واقع الحياة العربية والإسلامية، وصار غير قادر على مد وتزويد حضارته العربية الإسلامية بالقراءات والحلول والإجابات المقنعة لحلولها ومشاكلها وتطلعاتها الحياتية، فضلاً عن أن يجيب غيرها من الأمم المجاورة، التي كانت لقرون خلت معجبة بعطاءاتها وعالة عليها، إلى أن وصل أمر تراجعه وأفوله إلى أخطر من ذلك عندما صارت الأمة الإسلامية عرضة لرياح التأثير والتغيير الوثنية القادمة عليها، المستغلة لحالة المرض، والتخلي الرسالي، والفراغ الإبداعي التي مني بها عقلها المسلم لتملأ بركام قراءاتها وتحليلاتها الوضعية المادية حاجة العجز التي آل إليها، مما ألهب حماس الغيورين من علماء وفقهاء ومفكري ودعاة الأمة لتحريكها من غفوتها، والعودة بها إلى وضعها الطبيعي بين الأمم .

وطُرح يومها السؤال الآتي: كيف ولِمَ ومتى وأين وبماذا يمكن النهوض بها ؟

ولم يجد القائمون على العمل النهضوي أي التباس وغموض لمعرفة نوعية الخطاب النهضوي الإسلامي التغييري الصالح بها، لاعتبارات كثيرة، على رأسها قناعتهم بقدسية الأطر المرجعية المقدسة من جهة، وثراء التجربة التاريخية الإسلامية من جهة ثانية، وخلودية الخطاب الديني الإسلامي الآفاقية والمستقبلية من جهة أخرى، وإدراكهم وإيمانهم العميق في أصالة وصدق وفاعلية الخطاب الإسلامي، وقدرته الدقيقة للخروج بهذه الأمة من تخلفها ووصعها على طريق النهضة والتقدم الأصيل.

وينضاف إلى ذلك محاولات رجال الإصلاح والدعوة والفكر الحثيثة للتحكم في وسائل الاتصال والإعلام المؤثرة والفاعلة، القادرة على تحويل أبجديات مشروع الخطاب الإسلامي ونقله وترجمته إلى عامة المستقبلين الحقيقيين والمرتقبين والمعادين.

تعثر الخطاب الإسلامي في عصر الوسيلة

- تناغم الخطاب الإسلامي مع الوسيلة:

انطلق الخطاب الدعوي الإسلامي في صدر بعثته قوياً ودقيقاً وهادفاً ومتنوعاً ومقنعاً، بفضل الجهود الدعوية والتنويرية المتميزة التي بذلها رسول الله ﷺ تجاه جمهور المدعوين في جزيرة العرب، على الرغم من اختلاف ديانتهم ومعتقداتهم (وثنيين، دهريين، ملحدين، مشركين، نصارى، يهود، أحناف)، وتنوع ظروف معيشتهم وحياتهم، كقبائل وعشائر متناحرة ومتقاتلة على الكلأ والماء والمعاش، وتباين مستويات عقولهم ودرجات وعيهم وتبصرهم كجاهليين وأميين متخلفين .

وقد نجح هذا الخطاب الدعوي الإسلامي المتميز في بداية تفاعلاته الاتصالية الاجتماعية نجاحاً باهراً في ترجمة مضامين تعاليم السماء الربانية، وفق مسارب عقلية ووجدانية ولغوية وروحية وقيمية تنسجم وعقل العربي ووجدانه. كما نجح أيضاً في نقل وإيصال تلك التعاليم الربانية الصافية إلى صميم الوجدان والعقل العربيين، المتململين والحائرين يومها، واللاهثين بين ركامات الأساطير والخرافات الجاهلية، التي لا يجد معها رواءً، ولا شفاء لأسقامه الفكرية والروحية والوجدانية.

وعمل رسول الله ﷺ بعظيم جهده وبعظيم تفانيه المثالي، لاختيار أفضل الوسائل الإيصالية والإعلامية والدعوية، لغرض تبليغ داعي الله للناس، ونجح ﷺ بشهادة خالقه ومرسله، الذي أثنى عليه ثناءً جماعياً، عندما طلب من الملائكة والمؤمنين على مر الدهور والعصور ليصلوا عليه، ثم يسلموا عليه تسليماً، جزاءً لأعماله الجليلة في خدمة التعاليم

الإلهية، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ (الأحزاب:٥٦) في تنويع أساليب الخطاب، وفي تنويع دوائر الخطاب والتأثير، وفي تنويع وسائل وأدوات الخطاب، وفي تنويع أزمنة الخطاب، وفي تنويع أمكنة وكيانات ومستويات الخطاب، في إطار مهمته الدعوية المنسجمة بإحكام.

وقد سعى رسول الله ﷺ- بهدي الوحي وكمال منطقه وتمام عقله - لتوفير عناصر الانسجام والتناسق بين متون ومضامين الخطاب الدعوي الرباني من جهة، وبين الطريقة والأسلوب والوسيلة الحاملة له من جهة ثانية، في عملية تناغم دعوي تأثيري متميز في نفوس جمهور المدعوين المناوئين من يهود وكفار ومشركي قريش والعرب، أو من المدعوين المرتقبين ممن كانوا يشكلون له عيبة نصح بين العرب كقبيلة خزاعة، أو من جمهور المدعوين الحقيقيين من صحابته الكرام، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

وقد أبدع رسول الله ﷺ أيّما إبداع في ترصيع أدق الصفحات والأساليب الإعلامية والاتصالية مع جمهور المدعوين، كما أبدع عليه الصلاة وأفضل التسليم في حسن اختيار أدق وأنفع الوسائل الدعوية ليضيفها في سجلات آداب الدعوة والتبليغ عند الأنبياء والمرسلين.

وتبين الإبداع النبوي الكريم واضحاً في مجال تنويع أساليب الخطاب، بحسب المستوى والظرف المحيط بمخاطبيه، وبحسب مقتضى حال المستمعين، وبحسب المسألة التي يريد تبليغها. فكان إلقاؤه البيان إلقاءً متميزاً، لا يدانيه فيه أفصح العرب لساناً، ولا أبلغهم بياناً، ولا أدقهم فهماً، فيعد السامع كلماته عداً، ويحصيها علماً وفهماً

ولفظاً ومعنى، ويحفظها السامع لتكراره ﷺ إلقاءها، مقدماً أدق تفاصيل آليات البيـــان الاتصالي بـــ(الآخر) السوي والمتأزم، ومنوعاً في أساليب الكلام وأفانينه.

كما تبين الإبداع النبوي الكريم في مجال تنويع دوائر الخطاب والتـــأثير الجغرافيـــة والديمغرافية، لا بحسب الأبعاد والمسافات والأمكنة، التي قدم فيها أروع الأمثلة في بذل الجهد البدني، بل بحسب دوائر الأمل المرجوة في قبول رسالته والإيمان بها. فالطـــائف كانت مسافتها قريبة منه في حدود سبعين ميلاً، فسافر إليها سفرة مســـطرة بالـــدماء والألم والمعاناة في مصادر السيرة النبوية، ولكنها نفرت من دعوته نفرة الحمر المستنفرة الفارة من قسورة، والمدينة كانت بعيدة بخمسة أضعاف بعد الطائف، ولكنها قبلـــت دعوته برداً وسلاماً، وجاءت نتيجة لجهودات دعوية نبوية غير عادية، استغرقت زمنـــاً دعوياً متميزاً دام أكثر من سنتين دعويتين.

فضلاً عن ترصيعه أمهر الدروس الاتصـــالية في توزيع الخطاب الإســـلامي عـــبر دوائر الانتشار المكانية: الأقرب فالأقرب، والأبعد فالأبعد. والكيانية: الفرد، فالإثنين، فالجماعـــة، فالفخذ، فالبـــطن فالعشـــيرة، فالقبيلة، فالقبائل العربيـــة، فاليهوديـــة، فالممالك المجاورة .

كما تبين الإبداع النبوي الكريـــم في مجـــال تنويع وســـائل وأدوات الخطـــاب، فهذا خطـــاب فردي، وذاك خطـــاب جمعي، وذلك خطـــاب أسري، وجمـــاهيري، وقومي – من القوم لا من القومية –، وسري، وعلني، وفئوي، ووعظي، وإرشـــادي، وتبكيتي، وجدلي، وتبهيلي – من المباهلة –، وتبهيتي، وتعليمي، وتربوي، وتثقيفـــي، واجتماعي، وسياسي...

كما تبين الإبداع النبوي الكريم في مجال تنويع أزمنة الخطاب، بحسب مقتضيات وظروف كل مرحلة زمنية، إبداعي في خطاب اليوم وفتراته، وخطاب الليل وسكناته، وخطاب الأسبوع وأوقاته، وخطاب الشهر ومميزاته، وخطاب السنة ودوراته، وخطاب العمر كله وتأثيراته. وخطاب الحياة وقسماته، وخطاب ما بعد الممات ولوعاته، وخطاب الأمل والسعادة واليقين وحسن الخاتمة وإشراقاته، وخطاب العاقبة وسوء المصير وعذاباته؛ مفضياً ﷺ إلى بلورة تعاليم وأسس مدرسة إسلامية متكاملة في طريقة وفنية .

الخطاب الإسلامي المتميز، وفي وضع أسس وأطر الاتصال بـ(الآخر)، وفق أنوار هذه المبادىء، كقوله ﷺ: « **أُمِرْنَا أَنْ نُكَلِّمَ النَّاسَ على قَدْرِ عُقُولِهِم**»[1]، وقول ابن مسعود، رضي الله عنه: «مَا أَنْتَ بِمُحَدِّث قَوْمًا حَدِيثًا لا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إلاَّ كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً »[2]، وقول الإمام علي، رضي الله عنه: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ»[3].

واستمرت هذه التعاليم تعلو في سماء الحياة الإسلامية في عصورها الأربعة الزاهرة الأولى، وتوهج العقل المسلم بأنوارها، يستقي منها مبادئه السامية في الاتصال بـ(الآخر) السوي والمتأزم، وعكف خلال قرون النهضة والتفوق الحضاري يجدد ويطور ويرقي وسائل فهم وتوصيل الحق من قبل الأجيال الوارثة لعلوم النبوة، الأمثل فالأمثل.

---

(١) انظر: كشف الخفاء، حديث رقم ٥٩٢، والتمييز، ٣٢؛ والدرر، ٣٥؛ وتدريب الراوي، ٣٧٠.
(٢) أخرجه مسلم.
(٣) أخرجه البخاري في كتاب العلم.

- عوامل نجاح الخطاب الإسلامي التراثي:

استطاع الخطاب الإسلامي تحقيق النجاحات، وتثبيت مواطىء الأقدام في العالم القديم بفضل أخذه بالعوامل والأسباب التالية:

١ - الفهم العميق، والهضم الدقيق لمضامين ومكونات الخطاب الإسلامي في أبعاده: المقدس والتراثي والاجتهادي. وذلك بفقه الأطر المرجعية المقدسة، وفقه الواقع، وفقه المواقع، وفقه التموقع الدعوي الرشيد، الذي يصلح منه توجيه الخطاب السديد.

٢ - القراءة الدقيقة وال شيدة للتفاعل القائم في نفسية المدعوين بين مختلف العناصر (العقل، الوجدان، الواقع) أثناء تلقيها للخطاب الدعوي، وتفاعلها معه، وتأثرها به آنياً، أو تأثيرها فيه مستقبلياً.

٣ - الفهم العميق والدقيق لمضامين ومكونات الخطاب الإسلامي في بُعديه المحلي والعالمي وحدودهما الفاصلة بينهما، بنية وتوجهاً وتأثيراً .

٤ - الفهم العميق والدقيق لمضامين ومكونات الخطاب الإسلامي في إطار سياقه التاريخي التجريبي من خلال سيرة رسول الله ﷺ، وتطبيق صحابته الكرام، رضوان الله تعالى عليهم.

٥ - فقه المعطيات الواقعية المحلية والإقليمية، والعالمية منها بشكل أخص وأدق، والتمييز بين ما يجب أن يوجه للمدعوين المحليين الأسوياء والمتأزمين، وبين ما يجب أن يوجه (للآخر) المتعدد عالمياً.

٦ - عدم إهمال التراكمات الإنسانية الحضارية الأفقية والعمودية، في جانبيها النظري: «العلمي، المعرفي، الفلسفي، الثقافي، الفكري والتنظيري»، والتطبيقي: «المهني، الفني، الوسيلي».

٧ - تقديم قراءة واعية ودقيقة عن (الآخر) المتعدد، بهدف ضمان صيغة وبنية خطاب ملائمة لوسطه ومناخه .

٨ - توفر جيل من الدعاة المخلصين، الصادقين المضحين بالغالي والنفيس في سبيل نصرة الإسلام، أمثال: خبيب بن عدي، وعاصم بن ثابت، ومصعب بن عمير، والأمثل فالأمثل، من أمة محمد ﷺ، محققين فيهم قول رسولهم الكريم ﷺ - المتشوف، والمتشوق لرؤية أحبابه، بعد أن تمتع ﷺ برؤية وصحبة أصحابه-: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدُولُه، ينفون عنه تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، وتحريف الغالين**»[١].

٩ - العمل على استغلال كافة وسائل الاتصال التقليدية والحديثة المؤثرة في جمهور المدعوين.

- تعثر الخطاب الإسلامي في عصر الوسيلة:

اجتمعت جملة من العوامل: الداخلية، والخارجية، والكيدية، والتآمرية، والقهرية، النظرية والواقعية على تراجع الخطاب الديني الإسلامي الأصيل من حكم وتوجيه حياة وواقع العرب والمسلمين في القرن الرابع عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي، بالرغم من مقاومته الشديدة لكل عوامل التفتيت الداخلي والغزو الخارجي، مما أدى إلى نزوح - عبر فلول المستغربين والمستشرقين - خطاب وثني وضعي، قوامه التمرد والثورة والعصيان والانقلاب على مضامين الخطاب الديني الإسلامي الأصيل، وابتلي العالم العربي والإسلامي منذ القرن الماضي بتسرب الخطاب الوضعي الوثني إلى بعض عقوله المبهورة والمسحورة والمقهورة، التي أُعجبت به ورَوَّجَت له، ليحل بديلاً عن خطاب

(١) أخرجه البيهقي.

الأصالة الديني، بحكم مجموعة من التعلات والتبريرات الصورية، وصار معها الخطاب الديني الإسلامي الأصيل - بفعل عمليات القهر والتشويه والإبعاد - خطاباً منافياً للعقل وللتقدم وللتجديد وللتطور.. غير مقبول لدى الطبقة المثقفة، وليستحيل بعدها - حسب ادعاءات التيارات العلمانية والإلحادية - إلى خطاب لا يحظى إلاّ بتأييد العامة، أو بعض الرجعيين المخالفين لعجلة التقدم .

وبعد أن ابتلي العالم العربي والإسلامي بمثل هذا الخطاب التغييري الوضعي القادم من الغرب، وبعد أن مكنت له بعض الكيانات والأنظمة الحاكمة، بالقوة والقهر، وكممت على الخطاب الديني الأصيل كل منافذ الوصول والتأثير باتجاه الذات و(الآخر) معاً، وضَيَّقَت عليه منابر التحادث والتواصل والإبداع الأصيل، للنهوض بالفرد والمجتمع والأمة، لملم فلول الخطاب الوضعي قراءاته وتحليلاته وتصوراته المفككة، بدعاوى رفض الشمولية ونبذ الكلية، والدعوة للحرية والفردانية والإبداعية الذاتية، وتجرأ ليقدم نفسه بديلاً نهضوياً وتغييرياً عن الخطاب الديني الإسلامي الأصيل في دياره وبين أهله.

ودخل الخطابان، الأصيل والمتمرد، في صراع مصيري، وحساس في ديار العروبة والإسلام، بهدف الفوز بتذكرة المرور للصفوف التوجيهية والقيادية الأولى، وحسم الخطاب الوضعي - للأسف -مصير المنطقة جغرافياً وديمغرافياً لحسابه، وأبعد الأمة العربية والإسلامية عن توجهها الحضاري على الصعيدين المحلي والإقليمي، والنظري والواقعي، والآني والمستقبلي؛ شاغباً بهذه المعركة الجانبية على خطاب الأصالة، من أن يضطلع بدوره الرسالي المنوط به، ومفسحاً - في الوقت نفسه - الطريق واسعاً ليقلص من مساحات التأثير والفاعلية له في الساحة العالمية باتجاه (الآخر)، بعد أن شغبه وشغله

بنفسه وبذاته، ودفعه نحو ذاته المهددة لصياغة وصناعة خطاب داخلي قوي ومؤثر، يلملم به شمله الذاتي.

وبالرغم من حالات الانتصار والفوز الجزئية والجانبية التي حققها خطاب الأصالة جغرافياً وديمغرافياً، إلاّ أنه ظل دون المستوى الرسالي والاستخلافي المنوط به، والمرجو منه حضارياً، لأن تيار التمرد مازال يجره نحو الصدامات والاهتمامات الهامشية، فيلهيه ويشغله ويشغبه عن الاضطلاع بدوره الرسالي المحلي والعالمي.

وفي ظل هذا الصراع الضاري القائم بين تيار الأصالة المعادى والمطارد من قبل بعض الأنظمة والكيانات وُجل النخب المثقفة، وتيار التمرد والثورة والعصيان المدعومِ بمختلف قوى الهوى والشيطان محلياً وإقليمياً وعالمياً، انقسم الرأي العام العربي والإسلامي إلى اتجاهين متناقضين ومختلفين:

اتجاه، عريض وكبير وواسع، يؤيد خطاب الأصالة، ويضم سائر دعاة التدين والفطرة والصلاح والخير، مع أنه لا يملك من وسائل الاتصال والتأثير والدعاية غير القليل؛ واتجاه: فئوي جزئي ضيق، يضم أقلية متمردة عاصية، وأقلية ثائرة على عالم القيم والتدين والأصالة، بدعاوى الفردانية والحرية والانطلاق، ومدعومة من قوى الشر الظاهرة والخفية، ومستحوذة على وسائل التأثير والدعاية والاتصال.

وعمل دعاة هذا الاتجاه طيلة قرن من التجريب الأرعن لمستوردات خطاب التمرد الوثني في العالم العربي والإسلامي، وفرضوه بقوة عبر وسائلهم الدعائية والتأثيرية على أنه الخطاب التغييري الأمثل والخطاب الإصلاحي الأفضل، الذي يحقق لهذه الأمة درجات الرقي الحضاري.

وبرزت في هذا الاتجاه أسماء كثيرة في عالمنا العربي والإسلامي، توزعت الأدوار فيما بينها بنوع من الذكاء الماكر، واستفرغت ما عندها من حمولات وعطاءات قيم الخطاب الوثني المتمرد في جوانب الحياة النظرية والواقعية، فظهرت الفنون التحررية، والاتجاهات الفكرية والفلسفية التحررية، والمجالات الإنسانية التحررية البيئية والتربوية والاجتماعية والتعليمية والإعلامية، وغيرها.. لتوظف كل ما لديها من وسائل التأثير والفاعلية الدعائية لخدمته من جهة، وللتأسيس له - بقوة ومكر - في بلاد العرب والمسلمين من جهة ثانية، ولمطاردة خطاب الأصالة ودعاته ومنابره ووسائله من جهة ثالثة.

- أسباب فشل الخطاب الديني في عصر الوسيلة:

ظل هذا الخطاب الديني سائداً على ساحة الفكر الإسلامي منذ أن تحققت العالمية له بُعيد القرن الأول الهجري، وعلى ساحة الفكر العالمي أيضاً، ولكنه بُعيد القرن الخامس الهجري بدأت الأرض تمور من تحته، بسبب تخليه عن ممارسة بعض مهامه التوعوية والتأثيرية والتوجيهية في الواقعين الوجداني والحياتي للمجتمعات وللأفراد فضعف وتراجع عن صياغة وتشكيل الوجدان الفردي والجمعي لمركزه وأطرافه، ومار وماه ووقع في مستوى الضبابية واللاوعي، وفقد توازنه طيلة قرون التالية للقرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، فساده الضعف والجمود والتقليد، ودخل دورة التخلف والتراجع الحضارية، ففقد بهذا الوضع مكانته العالمية، مفسحاً الدور للطروحات الوضعية الأخرى، لتقدم نفسها بديلاً عالمياً للإنسانية التائهة.

وقد تنوعت أسباب فشل وتعثر الخطاب الديني الإسلامي في العصر الحديث واختلفت، فمنها ما هو داخلي، ومنها ما هو خارجي، ولعل أهمها ما يلي:

أولاً: العوامل الداخلية: وهي كثيرة ومتنوعة ومتميزة بكل مصر وعصر إسلامي، يجيء على رأسها الأسباب التالية:

١ - عدم استغلال وسائل الاتصال والإعلام والدعوة والدعاية الاستغلال العلمي والإعلامي والاتصالي والدعائي والدعوي الأمثل، على الرغم من الاستغلال الضعيف، وغير المؤثر والفاعل لها في بعض الأقطار العربية والإسلامية.

٢ - الصراع المذهبي الفروعي الضيق، والاختلاف الفرقي الأصولي المزهق والقاتل لكل آمال الوحدة والتجمع التأثيري الفاعل على الساحتين المحلية والعالمية، وترك العمل بالقاعدة الأصولية الحركية التي أطلقها رواد العمل الإسلامي في العصر الحديث: «لنعمل فيما اتفقنا فيه، وليعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه ».

٣ - التقليد الأعمى للغرب وللشرق الوثنيين، واستيراد التجارب الإصلاحية الغريبة عن روح الأمة، دون استبصار أمراض وآفات وعلل واقع الأمة الإسلامية والعربية المريضة، ونوعية الأدوية والعلاجات المناسبة لها.

٤ - غياب روح التجديد والابتكار والإبداع والاجتهاد عن العقل المسلم، وتخبط العقل المسلم في دوامة التخلف، وعدم الاعتراف بواقع التخلف المرير، على حد ما ذهب إليه الباحثان الجليلان الأستاذ الدكتور عبد الحميد أبو سليمان في كتابه «أزمة العقل المسلم»، والأستاذ الدكتور برهان غليون في كتابه «اغتيال العقل».

٥ - غلبة روح اليأس والقنوط على روح ووجدان وضمير وعقل الفرد والمجتمع المسلم، ودخوله في حالات من الوهم والخيال الحضاري الساحر، فيتزين له - بفعل الدعاية الوثنية السوداء - عبادة الأشخاص، وتقديس الرموز، وتمجيد التماثيل الفكرية

والثقافية والتاريخية المتنوعة.. والتمحور الحركي الأرعن حول وثنيات آلهة عصر العولمة، باسم مختلف الشعارات والدعاوى.

٦ – سيطرة أنظمة الحكم الاستبدادي الفردي والدكتاتوري على العقل المسلم، الأمر الذي جعله أسير العبودية والتخلف والتقليد، ومنعه من الإبداع والابتكار والخلق.

٧ – واقع التخلف والتردي الانهزامي، الذي آل إليه الفرد والمجتمع المسلم، والذي صار في حكم القضاء والقدر المُسَلَّمُ به، والذي صار الفكاك منه أمراً مستحيلاً، بفعل تأثيرات الدعاية الوثنية المضادة التي تبث فيروساها المرضية والقاتلة باستمرار، لتمنع العقل المسلم من استرداد عافيته والتماثل للشفاء، فتضعه – بفضل زخاها الإعلامية والدعائية والإعلانية والثقافية والفنية والأدبية... المتواصلة والقاتلة – في حالة مرض مزمنة يصعب الشفاء منها.

٨ – فقدان أو تضاؤل أو تواني روح التضحية الرسالية من القائمين على توجيه الخطاب الإسلامي تجاه الذات أو (الآخر) السوي أو المتأزم.

ثانياً: العوامل الخارجية: وهي كثيرة ومتنوعة، ومتميزة بكل مصر وعصر إسلامي، يجيء على رأسها الأسباب التالية:

١ – غلبة روح الاستكبار العالمي المرضية، وحجزها لكل التطلعات الحضارية والنهضوية من الأمم المتخلفة عامة، والأمة العربية والإسلامية خاصة، لاعتبارات استكبارية وتاريخية وتآمرية كيدية حيال العرب والمسلمين، واستفحال مرض داء المركزية الغربية المسيطرة على الأطراف، وعدم السماح بانتقال مركزية المدنية باتجاه (الآخر) عامة والعرب والمسلمين خاصة.

٢ - تسخير الهيئات والمنظمات والمؤسسات والوكالات والمحافل الدولية - بحق أو بباطل- للحيلولة دون تمكين العرب والمسلمين من اختراق حواجز التحكم في العلوم والتكنولوجيا، ولاسيما النووية والإلكترونية منها.

٣ - تسخير كافة وسائل الإعلام والدعاية والتأثير، الكاذبة والمضللة والمشوهة للحقائق، بدقة وبفاعلية دعائية عالية المستوى والنفاذ، ولاسيما فيما له علاقة قريبة أو بعيدة بقضايا العرب والمسلمين، عبر مختلف أساليب التضليل المباشرة وغير المباشرة، الملونة والمسموعة والصامتة والضوئية واللامعة والإيمائية، وكل ما توصل إليه العقل الغربي في مجال تكنولوجيا الاتصال والمعلوماتية، وفي مجال الأدب والنقد والمهرجانات والجوائز الأدبية، والمسرح، والسينيما، والفن والموسيقى والغناء، والآثار والبحث التاريخي، والصحافة، والإعلان، والدعاية، وصناعة الرأي العام، وترويج الفسلفات والأيديولوجيات والخرافات والأوهام والآراء والأفكار والتقليعات والرؤى الشاذة، وعبر تدفقات الشبكة المعلوماتية الرهيبة، وما تبثه من الأخبار والمعلومات والمعارف والأرقام والإحصاءات والتوجيهات، وما تعلنه عن ميلاد أديان وملل ونحلل عبر شبكاتها، وما تبثه من صنوف وأطباق الرذائل، وتضخه من الطقوس السدومية والعامورية الوثنية المختلفة عبر ملايير الرسائل الإعلامية والاتصالية والعنكبوتية العملاقة وشبكات الاتصال والإعلام المكتوب والمسموع والمرئي والإلكتروني والرقمي .

٤ - خلق بؤر ثقافية، ونخب فكرية، وطلائع دينية، وفصائل دعائية ثقافية وفكرية ودينية.. موالية لها في بلاد العرب والمسلمين، تنوب عنها في تمرير ما تراه مناسباً لاستمرار الهيمنة عليها.

- عوامل نجاح الخطاب الإسلامي المعاصر:

حتى يستطيع الخطاب الإسلامي المعاصر تخطي عتبات القراءة التقليدية والماضوية لمضامينه، يجب أن يتحصن بالأسس والقواعد المنهجية التالية:

١ - الفهم العميق، والهضم الدقيق لمضامين ومكونات الخطاب الإسلامي في أبعاده: المقدس والتراثي والاجتهادي، وفق تراكمات وفتوحات الحقائق العلمية والمعرفية الحديثة، التي زادت في نورانية الفهم والعمق ولاسيما في المجال الطبي والصحي والحسابي والاتصالي والمعلوماتي.. وفي مجال ارتياد الأنفس والآفاق والطبيعة والكون والحياة.

٢ - الفهم العميق والدقيق لمضامين ومكونات الخطاب الإسلامي في أبعاده المحلية والإقليمية والعالمية والكونية، والحدود الفاصلة بينهما، بنية، وتوجهاً، وتأثيراً.

٣ - الفهم العميق والدقيق لمضامين ومكونات الخطاب الإسلامي في إطار سياقه التاريخي التجربي .

٤ - فقه المعطيات الواقعية المحلية والإقليمية، والعالمية والدولية منها بشكل أخص وأدق، والتمييز بين ما يجب أن يوجه للمدعوين المحليين، وبين ما يوجه للآخر المتعدد عالمياً.

٥ - عدم إهمال التراكمات الإنسانية المدنية والحضارية الأفقية والعمودية، في جانبيها النظري: «العلمي، المعرفي، الفلسفي، الثقافي، الفكري» والتطبيقي: « العلمي، التكنولوجي، الاتصالي الفضائي.. ».

٦ - تجاوز مرحلة وحالة الحنين والاستلطاف والإعجاب .. القائمة بين المعاصر والماضوي، ولاسيما فيما له علاقة بالتجربة التاريخية الإسلامية التي ترجمت المضامين العالمية للخطاب الإسلامي .

٧ - تقديم قراءة واعية ودقيقة عن (الآخر) المتعدد، بهدف ضمان صيغة وبنية خطاب ملائمة لوسطه ومؤثرة في كيانه، ومقبولة في مناخه وفضاءاته المتعددة.

٨ - محاولة تجسير الشروخات والرواسب الموروثة عن الفهم الماضوي لمضامين وبنية الخطاب الديني (للآخر)، وذلك بخلق حالة من التناغم والتلاقي والتسامع مع (الآخر)، وتحسيسه بالثقة المطلقة بالمراد التواصلي معه .

٩ - وضع (الآخر) في مجال التواصل، وإحداث القطيعة مع قناعات التلاغي الساكنة في موروثه الثقافي تاريخياً، ولو بالاتفاق العملياتي الآلي البحت، على مواجهة القضايا والمعضلات الملحة التي تعاني منها البشرية قاطبة، كمكافحة تعاطي المخدرات، والإجهاض، والسيدا، وزواج المثلين، والشذوذ الجنسي، والقضاء على نظام الأسرة، والانتحار، والجريمة المنظمة، والتجارة بالرقيق الأبيض.. الذي تنكره وتحاربه الكثير من الكنائس المسيحية، ومنظمات المجتمع المدني العلمانية.

١٠- الإحساس بالمسؤولية الملقاة على (الآخر)، من جراء الزهد في تحمل المسؤوليات الحضارية، وترك (الآخر) يقود العالم في قرن العولمة، والاستنكاف عن ضخ قيم البذل والعطاء المفروضة في الخطاب الديني الإسلامي نحو الذات و(الآخر) السوي أو المتأزم معاً على قدر سواء.

- الخلاصة:

إنه، وبمجرد توفر ضمانات حسن فهم وقراءة مكونات الخطاب الإسلامي، وضمان حسن توجيه وبث وتوسيل هذا الخطاب من الانطلاق من إساره نحو العالمية المعاصرة المفلسة والتائهة تحت تأثير فلسفة الحداثة وما بعدها وخرافة النهايات، والمتعطشة لمعارف الوحي وحقائق التنزيل القاطعة - شريطة تجاوزه أزمة التعامل مع الوسيلة - يكون قد ضمن تذكرة العبور نحو الرسالية الحضارية، وهذا أكبر مكسب - حسب قراءتي المتواضعة - لهذا الخطاب الديني الإسلامي المحلي والعالمي معاً، على صعيد التصورات النظرية والدينية لدى (الآخر) المتعدد في قرن العولمة.

وإن تأتّى لهذا الخطاب الديني الإسلامي العالمي الانفتاح على (الآخر)، وفتح منظومته الدينية لقراءة وفهم (الآخر) له، قراءة علمية ومنهجية - لا كقراءة المستشرقين والمستغربين - مع شيء من التدخل القوي منه في توضيح ما غمض (للآخر) - بحكم قضايا كثيرة لغوية وفكرية وتكوينية وتاريخية- من مضامين خطابه، يكون قد ضمن مفتاح الدخول إلى منظومة (الآخر)، الذي لن يجد شيئاً يقدمه لنفسه وللإنسانية أكثر مما قدمه لها عبر تكراراته واجتراراته لطروحات وثنياته الإغريقية واللاتينية، المزينة بورود وأزياء ومساحيق الحضارة الغربية المعاصرة .

وساعتها ستتأكد أصالة وصلاحية الخطاب الديني الإسلامي محلياً وإقليمياً وعالمياً، كما ستتأكد أيضاً أصالة وصلاحية نظرته (للآخر)، وصلاحية الأمر الإلهي - الذي نقر ونعتقد بصلاحيته مقدماً - وهو يطلب فتح الحوار مع الآخر بقوله الكريم: ﴿... ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (القصص: ٥٠)، والتي ستكون طريقه نحو العالمية الدعوية.

والله أعلى وأعلم وهو من وراء القصد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مواصفات الخطاب الإسلامي

الدكتور محمد منير حجاب (*)

من الحكمة والبصيرة في الدعوة أن تكون هناك سياسات وخطط وفقاً للأسس العلمية، وأن يكون هناك إعداد جيد للدعاة، وفهم موضوعي للجمهور، وإدراك لأساليب الخطاب المناسبة، وتوظيف لكافة الوسائل الإعلامية المتاحة، وتقويم للبرامج حتى تكون الدعوة على بصيرة.

تمهيد:

لتحديد الخصائص الذاتية للأمة الإسلامية، وتحقيق الوعي بالواقع الراهن، وبالإمكانات الذاتية للأمة، وتحديد طبيعة الحوار والتفاعل مع (الآخر)، والوعي بأهمية الموازنة بين الثوابت والمستجدات، وبطبيعة وحدود التجديد المرغوب للخطاب الإسلامي، لابد من التوقف قليلاً لتحديد مواصفات وسمات الخطاب الإسلامي المعاصر، والتعرف على خصائصه المختلفة، لتحريره منها وإكسابه الخصائص السليمة أو المرغوبة، كمحاولة للارتقاء بالوعي الإسلامي واسترداد الفاعلية والعافية للعقل المسلم وتجاوز حالة التشنج والعجز والتقليد.

(*) باحث أكاديمي.. رئيس قسم الإعلام.. جامعة جنوب الوادي (مصر).

والخطاب في مفهومه العام كلمة تطلق وتشير إلى نظام فكري يتضمن منظومة من المفاهيم والمقولات النظرية حول جانب معين من الواقع الاجتماعي بغية تملكه معرفياً... وبهذا المعنى فالخطاب هو المعرفة المنظمة الخاصة بجانب محدد عن الواقع أو عن ظاهرة محددة.. وعند الإضافة يتحدد مجال الخطاب... فنقول الخطاب التاريخي، والخطاب الفلسفي، والخطاب السياسي، والخطاب القانوني... أو نقول الخطاب الإسلامي، ونعني به الرؤية الإسلامية الشاملة، انطلاقاً من الكتاب والسنة، لكافة مناحي الحياة، الثقافية والفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية والإعلامية، خاصة وأن الإسلام قد اشتمل على حاجات البشر المادية والروحية كلها، فلم يفرط في كبيرة أو صغيرة تتصل بهذه الحاجات من قريب أو بعيد، قال تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ (الأنعام:٣٨).

وبهذه الرؤية يتميز الخطاب الإسلامي، من حيث مواصفاته، عن الخطاب المسيحي واليهودي والعلماني والشيوعي... إلخ.

والمتأمل لمواصفات الخطاب الإسلامي المعاصر مقارنة بالمواصفات الصحيحة لهذا الخطاب، التي تتحدد بموجب النصوص الشرعية في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة يلاحظ خللاً واضحاً.

ولذلك فإنه لتحرير الخطاب الإسلامي المعاصر من هذه المواصفات المختلة وتحديد ملامح المعالجة لابد لنا من:

١- تحديد المواصفات العامة للخطاب الإسلامي في ضوء المرتكزات الفكرية الإسلامية.

٢- تحديد مواصفات الخطاب الشرعي، أو خطاب الثوابت.

٣- تحديد مواصفات الخطاب الاجتهادي، أو خطاب المتغيرات.

أولاً: المواصفات العامة للخطاب الإسلامي
فى ضوء المرتكزات الفكرية الإسلامية

يتسم الخطاب الإسلامي، في ضوء المرتكزات الفكرية الإسلامية، بمجموعة من المواصفات هي:

١- الوحدة الفكرية للخطاب الإسلامي:

فالخطاب الإسلامي حصيلة تجارب الوحدانية من آدم إلى سيدنا محمد، عليهما الصلاة والسلام، وذلك لتأكيد أهمية وضرورة الاستفادة من التجارب التاريخية للدعوات السابقة. فالمسلم مطالب بالإيمان بكل الرسل والأنبياء الذين سبقوا محمد ﷺ.. وقد انعكس هذا على تاريخ الدعوة من عهد محمد ﷺ وحتى وقتنا الحاضر، حيث الوحدة الموضوعية للخطاب الإسلامي، التي تمثلت في الجوانب الآتية:

أ- **وحدة المضمون**: حيث يبدو الاتفاق وعدم الاختلاف واضحاً جلياً.. فنجد أن كل آيات القرآن الكريم وسوره تتطابق مع بعضها، ويؤكد بعضُها بعضَها الآخر لدرجة اعتبرت هذه الوحدة في حد ذاتها إعجازاً، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ (النساء:٨٢)، أي تناقضاً، كما هو الحال في المضامين المختلفة التي تقدمها وسائل الإعلام المعاصرة.

كما أخذت الوحدة الموضوعية شكلاً آخر داخل الخطاب الإسلامي نفسه وهو الاتفاق وعدم التناقض بين مضمون القرآن الكريم والسنة النبوية. وقد فسر لنا القرآن الكريم السر في هذا بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم:٣-٤).

ب-**ثبات المضمون:** فمحتوى الخطاب الإسلامي ثابت في الأصول منذ عهد الرسول ﷺ وليس هناك تناقض بين أقوال الدعاة رغم اختلاف الزمان، فأساسيات الخطاب الإسلامي ثابتة، اليوم وغداً وبعد ألف سنة وقبل ألف سنة، لا تتغير من حيث المبادئ الأساسية، دون تجديد أو تطوير أو تعديل أو تغيير. وهذه الوحدة العالمية تجعل من الدعاة مؤسسة عالمية للدعوة تجمعها رابطة واحدة هي رابطة الإسلام. الأمر الذي يعطي فرصة الاستفادة من الأثر التراكمي للدعوة عشرات ومئات السنين، ويجعلها في تقدم مضطرد، ويوفر لها صفة الرسوخ، وبذلك يتحقق قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات:١٠).

وهناك أيضاً الثبات رغم اختلاف الأماكن .. فالأصول الإسلامية واحدة، فما يدعو إليه القائم بالاتصال في الصين واليابان يتطابق مع ما يدعو إليه من هو في جنوب أفريقيا ومصر وأستراليا وفرنسا؛ لأن هناك مبادئ واحدة تتسم بالثبات، لأن مصدرها الله رب العالمين، بخلاف الرسالات الإعلامية الأخرى. وواجب الدعاة هنا هو النقل والتبليغ دون أية إضافة أو تحريف. ولهذا يجب أن يكونوا على أعلى درجات الصدق والحذر واليقظة التامة، قال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ (الشورى:٤٨)، وقال عز وجل: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ (الحاقة: ٤٤-٤٦).

جـ- **الوحدة الموضوعية داخل الفرد المسلم:** وذلك بالتطابق بين القول والفعل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (الصف: ٢-٣)، وأيضاً خلال الموازنة بين كافة المتطلبات النفسية والعاطفية والمعنوية والمادية للمسلم، الأمر الذي يهيء له الفرصة لتحقيق التكامل والسمو على أساس من الفطرة الخالصة والصدق الموضوعي مع الله والنفس والآخرين، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ (الشمس:٧-١٠).

٢- الطبيعة العلمية والثقافية للخطاب الإسلامي:

بدأ القرآن أول ما بدأ بالقـراءة والتعـليم والقلم، وذلك في قولـه تعـالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾ (العلق:١-٤).. وتكرار كلمة ﴿ٱقْرَأْ﴾ تحمل معنى الحرص على العلم والمعرفة والابتكار والتجديد والحياة العقلية والعلمية الكاملة. وكذلك قوله تعالى لرسوله في كتاب الكـريم: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ (طه:١١٤).

لقد أوجـب الإسـلام عـلى أتباعه أن يتزودوا بعلـمي الـدين والـدنيا، قـال رسول الله ﷺ: « طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ...»[(١)] كما نوه القـرآن بفضـل العلماء قال تعـالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ (فاطر:٢٨). وقـال ﷺ: «إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ »[(٢)].

٣- الذاتية الإسلامية للخطاب:

تعني الذاتية الإسلامية الموقف الذي يتضمنه الخطاب الإسلامي في كافة شؤون الحياة، سواء فيما يتعلق بجانب الفرد ونفسه أو بعلاقاته مع الآخرين أو بصلته بربـه.. أو بمعـنى آخـر مجموعة القيم والمبادئ التي جاء بها الإسلام.. وواجب الدعاة هو الاجتهاد لبيـان الموقـف السديد والرشيد للإسلام في مختلف مجالات الحياة السياسة والاقتصـادية، والاجتماعيـة، والثقافية، والفنية.. إلخ، وبالتالي فليس لهم أن يتلفتوا يميناً أو يساراً لاستيراد نظريـات غـير مناسبة يهتدون بها في حل مشكلات مجتمعاتهم. ولقد وضحت حدود هذا التوجه الدعوي

(١) أخرجه ابن ماجه.
(٢) أخرجه الترمذي.

منذ عهد الرسول ﷺ، فقد أخرج الإمام أحمد، رحمه الله، بإسناد صحيح، عَنْ جَابِرِ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكُتُبِ، فَقَرَأَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَغَضِبَ فَقَالَ: **«أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى ﷺ كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلا أَنْ يَتَّبِعَنِي»**.

٤- خطاب يعتمد المنطق والبرهان:

يحترم الخطاب الإسلامي العقل الإنساني، ويقدر الجهد البشري، ويضع الحجج العقلية والأساليب المنطقية كأساس للتفاهم والنقاش والجدل المفيد.. ويطالب الإنسان بالتفكير والتدبر فيما حوله من ظواهر طبيعية وحقائق علمية.. فالقرآن يدعونا لاستخدام العقل وتنميته بالفكر والاجتهاد ليكون سلوكنا متفقاً مع العقل السليم. وقد جاء ذكر (العقل) باسمه ومشتقاته في القرآن الكريم نحو (٥٠) مرة، ذكر ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي العقول، أكثر من عشر مرات، وقدم بذلك نماذج للدعاة للدعوة إلى النظر والتأمل في القوانين الكونية التي خلق العالم على مقتضاها، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (آل عمران:١٩٠).

كما دعا إلى الاحتكام إلى العقل في فهم الدين وبناء الإيمان وفي كل شيء، قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ (البقرة:١٧١).

٥- بساطة الخطاب الإسلامي:

يتسم محتوى الخطاب الإسلامي بالبساطة واليسر.. فالإسلام كما يقول المستشرق الإنجليزي «توماس آرنولد» في كتابه «الدعوة إلى الإسلام»: «يقوم على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وهذه العقيدة البسيطة لا تتطلب خبرة طويلة أو تجربة عميقة، ولا تثير أية مصاعب عقلية للفهم والاستيعاب، ويستطيع أي فرد حتى أقل الناس خبرة بالأصول النظرية لهذا الدين أن يستوعبها ويشرحها للناس، لأنها تخلو من التداخلات والحيل النظرية أو اللاهوتية.. وهذه البساطة للخطاب تعد من أهم العوامل الفعالة في مجال الاتصال الإسلامي».

وبفضل هذه البساطة انتشر الإسلام خلال سنوات قليلة من الفتح المكي إلى حدود الصين شرقاً والمغرب والأندلس غرباً؛ لأنه لا يحتاج لملكات ذهنية كبيرة ولا لمقدرة عقلية خاصة.. ويرجع الدكتور محي الدين عبد الحليم ذلك إلى أنه خطاب يخاطب فطرة الإنسان، ويتعامل مع ظروفه، ويلبي رغباته، ويعالج قضاياه، ويرد على تساؤلاته، ذلك أن الإسلام يربط في تناسق وانسجام بين ما يتضمنه من حقائق وبين واقع الناس. فمشكلات الناس وقضاياهم يجدها الإنسان معروضة بصورة بسيطة وسهلة الفهم والاستيعاب في القرآن الكريم وفي سُنة الرسول ﷺ.

٦- إعلاء الشأن الخلقي:

يعد الشأن الخلقي أحد أهم المقومات الأساسية للخطاب الإسلامي والغاية التي يسعى إلى تحقيقها.. وهذا ما حدده الرسول ﷺ بقوله: « **إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاقِ**»[١]. ثم فصلها في أحاديث أخرى في صدق الحديث، وإعطاء السائل، والمكافأة للصانع، وحفظ الأمانة، وصلة الرحم، والتذمم للصاحب، وإكرام الضيف، ورأسهن الحياء.

---

(١) أخرجه أحمد.

ومن أجل هذا ربط الخطاب الإسلامي بين عقيدة الإسلام وتشريعاته وبين المقومات الأخلاقية. فكلها وسائل لصقل النفس وتهذيبها وإقامتها على الصراط القوى.. فالعقيدة من إيمان بالله وتقديس له من شأنهما أن توقظ حواس الخير، وتنمي ملكة المراقبة، وتبعث على طلب معالي الأمور.

والله سبحانه وتعالى هو الكمال المطلق والرحمة الواسعة، ولا يدخل في جلال الله وقدسيته إلا من تخلق بأخلاقه واتصف بصفاته، وفي الأثر: **تخلقوا بأخلاق الله.**

وجميع العبادات والمعاملات وكل أوامر الله ونواهيه إنما تتجه هذا الاتجاه وتدور في هذا الفلك، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد:٢٥).

فالآية تقرر أن الغاية من إنزال الكتب وإرسال الرسل هو إقامة الحق والعدل في الأرض. كما أن مقياس الإيمان الخلق، يقول رسول الله ﷺ: «**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا**»[١]، ويقول: « **إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ**»[٢]، وأيضاً: « **مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ** »[٣].

وبذلك يؤكد الخطاب الإسلامي، من دعم هذه الصفة، على أهمية تنمية الجوانب الخلقية في الفرد المسلم، وتنمية كل فضيلة ترفع من قدره وتحفظ كرامته وتصون شرفه.. وقد تضمن لذلك كل الفضائل، التي يجب أن يتحلى بها، كما أنه لم يذم رذيلة إلا وحذر منها ووضع العراقيل في سبيلها ليصبح الفرد المسلم جياش العواطف، كبير

(١) أخرجه الترمذي وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.
(٢) أخرجه أبو داوود.
(٣) أخرجه الترمذي وقال: وهذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

القلب، متسامحاً، رفيقاً، رحيماً، صابراً، قال تعالى: ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ الزَّكَوٰةَ ﴾ (البقرة:٨٣)، وقال فيمن اتصفوا بهذه الأخلاقيات: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلَامًا ﴾ (الفرقان:٦٣).

ولصعوبة التربية الأخلاقية، وتوجيها للقائمين بالخطاب الإسلامي على الصبر والتدرج التربوي للمسلمين، يقيم رسول الله ﷺ في مكة ثلاثة عشر عاماً يدعو في جد وتدرج دون تعجل للنتائج ليربي أتباعه على المبادئ الإسلامية القويمة، حتى جعل منهم مثلاً عليا للدعوة ونماذج حية كان لها أثرها البالغ في نشر الإسلام بعد ذلك، وحتى يتطابق القول مع السلوك لتكون الكلمة الإعلامية كلمة طيبة، وتصبح كما وصفها تعالى: ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۝ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (إبراهيم:٢٤-٢٥).

٧- مصداقية الخطاب الإسلامي:

المصداقية صفة رئيسة من صفات ومواصفات الخطاب الإسلامي، فهي سمة القرآن الكريم، رسالة ودعوة وسمة الرسول الكريم محمد ﷺ وسمة المجتمع الإسلامي، ولذلك نهى القرآن الكريم عن الكذب، ولعن الله الكذابين في آيات كثيرة، يقول سبحانه وتعالى في سورة النحل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (النحل:١٠٤). كما أمر بتجنب الكذب، يقول تعالى: ﴿ وَاجْتَنِبُواْ قَوْلَ الزُّورِ ﴾. كما نهى الرسول ﷺ عن الكذب واعتبره إحدى علامات النفاق، يقول ﷺ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ »[1].

(١) أخرجه البخاري.

وللصدق في الخطاب الإسلامي مستويات عديدة:

– **صدق الأفعال:** ويعني أن يتطابق عمل الفرد مع قوله، أي أن يرتفع الفرد المسلم إلى مستوى التمثيل الحي لمبادئه، فلا يقول ما لا يفعل، قال تعالى نهياً عن ذلك: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ (البقرة:٤٤)، أي أن يبدأ الإنسان بنفسه قبل أن يدعو غيره ليكون قدوة حسنة (للآخر) وليكون أكثر قدرة على الإقناع والتأثير.

وهناك دراسات عديدة تبين أثر صدق القائم بالاتصال.. ومن الأبحاث التي أجريت حول هذه الصفة تبين أن مضمون الرسائل الموجهة من مصادر يقل تصديق الجمهور لها لا يعتد بها؛ لأنها تعتبر في نظره منحازة وغير موضوعية... ولهذا عُرف أنبياء الله كافة بالصدق، فلم يبعث الله نبياً إلا وشهد له قومه بالصدق قبل أن يبعث، ملثما حدث من مشركي مكة، فقد شهدوا لمحمد ﷺ بذلك ونعتوه بالصادق الأمين.

– **صدق الكلمة:** سواء أكانت خبراً أم حديثاً أم مقالاً أم تقريراً فلا بد وأن تتسم بالصدق والواقعية والتعبير عن الموقف، بلا تحريف أو حذف أو إضافة أو تحميل أو تأويل، يقول الرسول الكريم ﷺ توضيحاً لذلك: «**لا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ**»[1]، وللتغليظ في التدليل على أهمية الصدق، يقول ﷺ: «**رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي، قَالا: الَّذِي رَأَيْتَهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ فَكَذَّابٌ يَكْذِبُ بِالْكَذْبَةِ تُحْمَلُ عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ الآفَاقَ فَيُصْنَعُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»[2]. ويقول تعالى تأكيداً لأهمية مسؤولية الكلمة: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق:١٨).

صدق النيات: أي الصدق الذاتي، ويعني مطابقة ما يصدر عن الفرد من أقوال وأفعال لباطنه، أي صدق النية.. وهذا يجعل الفرد بقلبه وقالبه مع هذا القول أو العمل فيعكس أقصى درجات الإيمان والاقتناع .. فالإنسان قد ينافق بقوله فيقول ما لا يقتنع به، وقد

---

(١) أخرجه أحمد.
(٢) أخرجه البخاري.

يعمل عملاً على سبيل المجاملة أو الخوف.. ولكنه لا ينافق في النية أبداً؛ لأنها شيء داخلي بين العبد وربه ولا يطلع عليه سواهما.. والإنسان الذي يصدق في قوله وعمله ولا يتوافر له الصدق في النية لا يعتبر صادقاً.. كما أنه لا يصل أبداً إلى مرحلة الاقتناع الكامل والإخلاص للعمل. وبهذا تأتي أهمية هذا النوع من الصدق في الخطاب الإسلامي لضمان عدم التناقض بين القول والفعل، ولتجنب تناقض محتوى الخطاب الإسلامي نفسه، فلا نقدم اليوم ما يتناقض مع ما قدمناه بالأمس، بل إن الدعوة تصبح بذلك واقعاً حياً، إذ تصبح حياة الداعية كلها للدعوة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الانعام:١٦٢)، وبذلك يصبح الداعية قدوة حسنة للآخرين، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ (الأحزاب:٢١).

وانطلاقاً من هذا فإن مسؤولية القائمين على أمر الخطاب الإسلامي تتحدد في أن يتعهدوا أنفسهم بالصدق، حتى يصبحوا هم أنفسهم مضرب المثل والقدوة الحسنة.

٨- الوسطية في الخطاب الإسلامي:

الوسطية في الإسلام تنبع من قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (البقرة:١٤٣). ومن قوله ﷺ: «**خير الأمور أوسطها**»[1]، أي الالتزام بما جاء به القرآن الكريم وتضمنته السنة النبوية من فهم حقيقي للدين ولدوره في الحياة وفي بيان الرأي في كل ما يجد من مستجدات لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ (آل عمران:١٨٧)، وقال

(١) ذكره القرطبي (التفسير، ٢/١٥٤) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾ (البقرة:١٤٥)؛ انظر: محمد رضوان الداية، معجم الأحاديث المشتهرة، ص ١٤٩.

تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَـٰبِ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ﴾ (البقرة:١٥٩).

وللوسطية في الخطاب الإسلامي مستويات عديدة، هي:

أ- الوسطية الفكرية: فالخطاب الإسلامي الوسطي هو خطاب الفكر الإسلامي، الذي يجمع بين الأصالة والمعاصرة، أي بين العقيدة الإسلامية وثقافاتها وأبعادها الحضارية وبين إيجابيات الإنجازات الحديثة والمعاصرة في الفكر الإنساني، ويميل إلى التيسير في معالجة المشكلات الحياتية وبخاصة القضايا الجديدة ومما تتطلبه من آراء وفتاوى ومعالجات فقهية، ويدعو إلى فهم واستيعاب الإنجازات الفكرية الغربية الإيجابية، لما لها من منافع مثل آليات الديمقراطية والمؤسسات المدنية والتداول السلمي للسلطة، وينفتح على فكر (الآخر) من خلال المجادلة بالتي هي أحسن أو الحوار، ويرفض استخدام العنف والاقتتال داخل الأوطان الإسلامية، ويرفض العنف ضد غير المسلمين ما لم يكونوا محتلين للأوطان، ويهتم بالفنون والآداب والجمال في إطار الضوابط الأخلاقية الإسلامية، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ (النساء:٦٩-٧٠).

ب- الوسطية طبقاً لطبيعة الإنسان: وذلك من خلال التكامل بين الجانب النفسي والبعد الاجتماعي، فالخطاب الإسلامي يتوجه إلى الفرد باعتباره كياناً مستقلاً له ذاتية، وإدراكه المتميز للأمور، حتى في العقيدة له الحرية الكاملة في الاختيار بين الإيمان وعدمه.. وبين الخير والشر.. وله القدرة على تهيئة الطرق لإنماء القوى الموجودة لديه وتوجيهها نحو الخير، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ (الشمس:٧-١٠).

وجاءت العبادات في فلسفتها لتقوية هذا الجانب في الإنسان، ولذلك يقول الحديث القدسي: «**كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إلا الصِّيَامَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ**»[1] لأن الصوم ينمي الإرادة الذاتية والخوف من الله ويجعل للإنسان القدرة على السيطرة على شهواته ودوافعه الحيوانية، وهو نفس ما نادى به الرسول ﷺ بقوله: « **مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ**»[2]، وذلك لحث الفرد على تنظيم غريزة الطعام والتي تعد، باعتبارها أقوى الغرائز، المدخل للسيطرة على الغرائز الأخرى وبخاصة الغريزة الجنسية.. وفي حديث الرسول ﷺ للشباب ما يوضح هذه الحقيقة: «**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ**»[3]..

كما أن السيطرة على النفس تعني أيضاً تزكيتها وتطهيرها من الرذائل والصفات الذميمة والأخلاق الفاسدة وتزويدها بالأخلاق الصالحة النقية، قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ (الشمس:٩-١٠).

وهذا الاهتمام في الخطاب الإسلامي بالفرد المسلم، فقد أقر له الإسلام بحرية الاختيار، وبحرية العقيدة، وبحرية التملك والانتقال.

ولذلك في ظل هذا الإطار أخذ الإسلام بمبدأ التكامل الوجداني بين جميع أفراد المجتمع لتحقيق الوسطية بين الفرد والمجتمع من خلال صلة القلب بالقلب، والعقل بالعقل، والروح بالروح، لتسود في المجتمع الإسلامي روح المودة والمحبة بين جميع أفراد المجتمع.. وبذلك تتحول الكثرة العددية إلى كيان واحد متكامل عبر عنه رسول الله ﷺ بقوله: « **مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ**

---

(١) أخرجه البخاري.
(٢) أخرجه الترمذي، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.
(٣) أخرجه البخاري.

تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»[1] وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات:١٠).

وهذا المجتمع المتكامل هو الذي يتعاون أفراده على البر والتقوى، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ (المائدة:٢)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ (العصر:٣).

ولذلك فواجب الدعاة هو معايشة الناس ومخالطتهم ومشاركتهم حياتهم، ومواجهة احتياجاتهم المتجددة بالفكر الديني الصحيح والرأي الديني الصائب، قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ (الكهف:٢٨).

ج-الوسطية بين الجانب المادي والغيبي: استهدف الخطاب الإسلامي، من خلال التوازن بين الإنسان ونفسه وبينه وبين مجتمعه، تحقيق الإخوة الإنسانية بين البشر جميعاً بهدف دفع البشر إلى التعامل مع بعضهم بعضاً وفقاً للقيم الأخلاقية كالعدل، والتراحم، والصدق، والتعاون، بهدف إقامة مجتمع إنساني يشعر كل من فيه بالأمن على نفسه وماله وعرضه وأسرته.

ولأهمية الجانب المادي الغيبي في تحقيق الإخوة الإنسانية، باعتبارهما الإطار الذي يتعايش البشر جميعاً من خلاله، فقد تضمن الخطاب الإسلامي الحقائق الآتية:

- إن العالم المادي بكل محتوياته، من حياة نباتية وحيوانية ومادية كالجبال والأنهار والبحار والسهول والشمس والقمر، قد خلقها الله للإنسان لتكون في خدمته، وجعلها مسخرات له ومجالاً لبحثه ودراسته من أجل تمهيد الكون كله لما فيه خير الإنسان وسعادته، قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية:١٣).

---

(١) أخرجه مسلم.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (النحل:١٢).

- إن الإنسان، كما خلقه الله، من طين أي من مادة .. ومن عنصر آخر هو الروح والتي كرمه الله بها وطلب من ملائكته عند خلقه أن يسجدوا له ، قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾ (ص:٧٢).

ومن منطلق هذا التكريم حمله الله مسؤولية الاستخلاف في الأرض ليكون خليفة الله في الأرض ليعمرها وينشر فيها الخير ويصنع الحضارة، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود:٦١).

والعمارة هنا لا تقتصر فقط على العمارة المادية، أي الحضارة، وإنما عمارة الآخرة.. ولهذا دعا القرآن الكريم إلى الاهتمام بعمارة كل من الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ (القصص:٧٧)، أي التوازن بين المطالب المادية والمطالب الروحية. ولهذا فإن الإنسان مطالب بالإيمان بالله وبملائكته واليوم الآخر بكل ما فيه من الأمور الغيبية، التي لا نعرف عنها شيئاً كالجنة والنار والحساب والثواب والعقاب، إلا من خلال ما جاء به الوحي وما أوضحه لنا الرسول ﷺ عن جوانب العالم الغيبي المختلفة.

وتتركز فلسفة الخطاب الإسلامي في تعميق الإيمان بالعالم الغيبي وموازنته بالعالم المادي حول تأكيد الجانب الخلقي الإسلامي، لوضع الفرد المسلم في أقصى درجة من الإثارة النفسية، فمثلاً عندما يتضمن الخطاب الإسلامي الحديث عن اليوم الآخر وما فيه من أهوال يشيب لها الوليد وما فيه من نعم تتطلع إليها النفوس يصبح الإنسان في حالة فزع من هذا الهول، الذي يجعله يبحث عن وسائل النجاة، كما يثير في نفسه الطموح إلى النعيم المقيم، الذي ينتظره، فيبذل قصارى جهده في تحصيله وسلوك الطرق المؤدية إليه.

وهذا الشعور بالحساب الدقيق، الذي سيكون على مثقال الذرة، يجعل الإنسان في حياته دائماً قلقاً ومدققاً في عمله ويزن كل صغيرة وكبيرة قبل أن توزن عليه، قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ (الأنبياء:٤٧).

وبذلك يبتعد الإنسان عن التكالب على الماديات والظلم والحقد والأنانية ويحاسب نفسه لأنه سيحاسب، قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ ﴾ (التوبة:١٠٥).

د- وسطية الخطاب طبقاً للقدرات الفردية «مراعاة مقتضى الحال»: يوازن الخطاب الإسلامي في التعامل مع البشر بين طاقاتهم وقدراتهم الأساسية. وتتمثل الطاقة في كل ما خصّ به الإنسان من إمكانات لممارسة أنواع معينة من السلوك.. أما القدرة فتعني الأفعال والتصرفات التي يستطيع الإنسان القيام بها مثال ذلك أن الإنسان لديه طاقة لتعلم القراءة والكتابة، أما القدرة فتعني استطاعة القراءة والكتابة فعلاً.

وقد راعى الخطاب الإسلامي في التكليف هذا التوازن بين القدرات والطاقات المختلفة فجعل التكليف على قدرة الاستطاعة، قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ ﴾ (البقرة:٢٨٦).

وهذا التكليف ليس في كل الحالات وإنما في حالات القدرة فقط.. فالشخص المريض والنائم والناسي ليس محلاً للتكليف حتى يسترد طاقاته وقدراته، ولذلك كان تحريم الإسلام للخمر والمسكرات؛ لأنها تجمد هذه الطاقات والقدرات الفردية.

وفي إطار الممارسة الاتصالية اهتم الخطاب الإسلامي بمبدأ الطاقات والقدرات الأساسية، أي بمراعاة مقتضى الحال.. فالقدرة على الفهم والاستيعاب لدى الناس تختلف

من فرد إلى آخر.. قال رسول الله ﷺ: « **أُمِرْنَا أَنْ نُكَلِّمَ النَّاسَ على قَدْرِ عُقُولِهِم**»[1] أي أن أوازن بين لغة الخطاب ومحتواه وأساليبه وبين القدرات المختلفة للناس على الفهم والاستيعاب؛ لأن الفرد في نطاق الخطاب الإسلامي كيان مستقل متكامل، عليه مسؤوليات ولكن له حقوق، ومنها حق المعرفة والعلم والدعوة بالقدر الذي يتفق مع إمكانياته وطاقاته وقدراته المنطقية والعاطفية والروحية، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف:١٠٨). ومن البصيرة مراعاة مقتضى الحال حتى يحقق الخطاب الإسلامي أهدافه في الإقناع والتأثير.

هـ- وسطية الاتصال الخطابي الإسلامي: والوسطية في الاتصال الخطابي الإسلامي تعني الموازنة بين عنصري عملية الاتصال: المرسل والمستقبل، أو الداعية والجمهور.. فالقائم بالاتصال وهو يعد شروحه وتفسيره لقواعد الدين، أو وهو يقدم تحليلات لمشاكل الحياة، أو وهو يحدد أهدافه محكوم في الكفة الأخرى بجمهور يقف أمامه يتسم باليقظة والوعي لكل ما يقدم له، ومتنبه لأي خروج عن إطار الدلالة الإسلامي من قبل القائم بالاتصال ليوجهه ويرده.

فبهذه الوسطية أو التوازن الإعلامي، التي ضمنها الإسلام لخطابه، تتحقق وظائف الإعلام الإسلامي في المجتمع .. فيزود القائم بالاتصال الجمهور بالمعلومات الصحيحة والحقائق السامية وفقاً لمتطلبات الدين الإسلامي لا وفقاً لأهوائه وميول المؤسسات الإعلامية التي يعمل بها ويتحدد هدفه في الموضوعية الهادفة التي تحقق الاستقرار للمجتمع.

كما أنه في إطار هذا التوازن يتحقق اهتمام شعور الإنسان بذاته كعقل ووعي مستقل، فلا يفرض القائم بالاتصال عليه فكره وآراءه ويسوقه إليها سوقاً، كما تفعل الدعاية وكما تفعل وسائل الإعلام الحديثة، أو تستغل غرائزه وعواطفه لغرض

(١) انظر: كشف الخفاء، حديث رقم ٥٩٢، والتمييز، ٣٢؛ والدرر، ٣٥؛ وتدريب الراوي، ٣٧٠.

الإقناع والتأثير عليه؛ لأن شعار الخطاب الإسلامي في التعامل مع الفرد نابع من قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ (البقرة:٢٥٦).

وبهذا يصبح للجمهور المستقبل للرسالة الإعلامية حق المراجعة وحق الضغط الاجتماعي على القائمين بالاتصال إذا خرجوا عن الأهداف السامية المعلنة التي أقرها الإسلام.. ولذلك كان لإجماع الجمهور في الإسلام حق الحصانة، قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ أُمَّتِي لا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلالَةٍ**»[١].. فاجتماعها على أمر يدل على أنه صواب.

ومن ناحية أخرى فإن القائم بالاتصال يشعر، نتيجة لهذه الرقابة الاجتماعية، بواجب الرقابة الذاتية لنفسه حتى لا يقدم أخباراً أو حقائق خارجة عن النطاق الفكري الإسلامي خاصة وأنه يعرف أنه مرفوض مقدماً من الجماهير التي تستقبل رسائله على ضوء إطار الدلالة الإسلامي.

وانطلاقاً من هذا تتحقق صفة الجمهور الأساسية في الخطاب الإسلامي.. فهو كيان واع وقادر على التفكير وعلى اتخاذ القرار، ليس ككيان متكامل ... وإنما كأفراد مستقلين؛ وبحكم وحدة الإطار الدلالي الإسلامي الذي يتحركون في نطاقه فإن القرارات التي ينتهون إليها تكون متقاربة وتكون في مجموعها أساس الرأي العام في المجتمع المسلم... وهذا ما يتضح من دعوته سبحانه وتعالى لمنكري النبوة إلى التفكير والتأمل فرداً فرداً أو إثنين إثنين، قال تعالى: ﴿ ۞ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ ﴾ (سبأ:٤٦). فهذا التفكير دون فرض أو قهر أو سلطان خارجي يجعلهم يتوصلون إلى الحقيقة.. فرداً فرداً أو إثنين إثنين.. فيتحقق التوافق، وتتحقق الأغلبية الواعية، ويوجد الرأي العام المسلم القادر على التصرف بوعي ومواجهة كافة مشاكله بإيمان وحكمة.

---

(١) أخرجه ابن ماجه.

و- **وسطية البعد الزمني**: وتحقق الوسطية هنا في الخطاب الإسلامي بالموازنة بين الماضي السحيق للبشرية والمستقبل البعيد للإنسان ليترسم خطاه في الحياة على هدى الاستفادة من تجارب الذين سبقوه من الأمم والأجيال، فيتعرف على المسيئين وعلى عاقبة أمرهم فيتلافى أخطاءهم.. وعلى جزاء المحسنين ليترسم هداهم.. وليحدد لنفسه مستقبله المشرق مدفوعاً إلى الأمام في كل عمل يقدمه. والمتأمل لتراثنا الإسلامي يجد مصداقاً لهذه المعالجة الزمنية والتي بدأت بنشأة الخلق وخلق آدم والاستخلاف في الأرض ثم ما حكاه القرآن الكريم عن الأمم السابقة «الذين كذبوا الرسل والذين اهتدوا بهداهم في كثير من الآيات» ودعا المسلمين إلى التفكير والتدبر والسياحة في الأرض للتعرف على جوانب الماضي للعظة والعبرة.. والعودة إلى النهج القويم.

ودعوة القرآن والسنة لدراسة الماضي واستيعابه للعظة والعبرة لا تعني الجمود مثلما جمد بعض دعاة الخطاب، الذين تصوروا الخطاب الإسلامي في زاوية ضيقة موروثة، وعطلوا الفكر عن مواجهة ومواكبة مستجدات الحياة المعاصرة، وحصروا الإسلام في معالجة ما اعتبروه تصحيح انحراف العقيدة، غير ملتفتين إلى طبيعة العقيدة الإسلامية باعتبارها القاعدة والمنطلق لسائر أفكار وتصورات ومنطلقات الإنسان المسلم.. ولا إلى العقيدة باعتبارها رؤية كلية للخالق جل شأنه وللكون والإنسان والحياة والتي يجب أن تنطلق منها كل نظم الحياة في إطار تطوراتها المختلفة عبر الزمان والمكان.. متناسين طبيعة العلاقة بين الخطاب الإسلامي وخصائص الرسالة الإسلامية كلها.. والتي تضمنت الثوابت التي لا خلاف عليها، والاجتهادات أو المتغيرات التي تؤكد صلاحية الدين لكل زمان ومكان.

ولهذا وازن الخطاب الإسلامي البعد الماضوي بالنظرة المستقبلية، فانطلق بالإنسان نحو أقصى حدود مستقبلية ممكنة، ورسم له إطار هذا المستقبل حتى يظل مترسماً لخطاه

ومتحرياً الإخلاص في كل عمل يقدمه، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ (الحشر:١٨).

وفى ذلك يقول الحديث الشريف: «**اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً**»[١]، وبذلك تتحدد أبعاد المستقبل في اللحظة المقبلة حتى الحياة الآخرة، ويتحقق الربط بين المستقبل القريب والبعيد وبين الأعمال «الروتينية» اليومية للإنسان، وبذلك يكون نطاق التحرك للفرد المسلم في الحياة، مترسماً في العمل الجاد من أجل المستقبل المشرق الذي يرجوه لنفسه وللآخرين، وتتحدد من ثم حدود العمل للقائمين بالاتصال تجاه السعي الحثيث والهادف لبناء واقع جديد وتنمية الواقع الموجود فعلاً، وذلك بتنمية عقلية الجماهير وإعلاء ميولها والتسامي باتجاهاتها على نحو يحقق التوازن والاستقرار في المجتمع، ويبرز كل قوى الخير والبناء.

وبذلك فإنه طبقاً لفلسفة الخطاب الإسلامي يرفض الإسلام الانغلاق على فكر ماضوي متخلف، كما نلاحظ من تحليل الخطاب الإسلامي المعاصر، كما يرفض الاقتصار على زاوية فكرية واحدة، كما في الخطاب السياسي الذي يرى مشاكل المسلمين كلها منحصرة في عدم وجود خليفة أو منحصرة في مجرد الوصول للسلطة.. وكما في الخطاب التربوي الذي يرى المشاكل كلها في مجرد الانحرافات الخلقية، أو في مجرد التربية السلوكية كالخطاب الصوفي.. أو في مجرد الانتشار الأفقي والعددي كما في الخطاب الدعوي.

ورغم النوايا الحسنة لكل هؤلاء إلا أن فلسفة الخطاب الإسلامي تقتضي منا جميعاً الوقوف على الخصائص العامة لرسالة الإسلام، والانطلاق مما تضمنته من عناصر أساسية في العقيدة ودعائم حقيقية في الشريعة ومما ارتسمته من منهج للفكر ومنهج للبحث عن الحقائق للوصول إلى المنهج الرباني الشامل للحياة المعاصرة بكافة مقوماتها، شمول التوجيه والتربية والهداية، لا شمول التعقيد والتعطيل الذي أورثنا الفرقة والتشرزم والاختلاف.

---

(١) قال الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (المجلد الأول، ص٦٣): لا أصل له مرفوعاً، وإن اشتهر على الألسنة في الأزمنة المتأخرة.

٩- الحرية:

يتسم الخطاب الإسلامي بضمان الحرية لجميع الأفراد على السواء، كقائمين بالاتصال أو كأفراد أو مستقبلين للرسالة الإعلامية، على أساس إنها حق وواجب لكل إنسان.. وواجب على الآخرين رعاية هذا الحق الإنساني على أساس أن حق الفرد على المجتمع واجب وملزم للجماعة بأثرها.

وتأتي الحرية في الخطاب الإسلامي تتويجاً لمبدأين أخذ بها الإسلام وهما:

أ- المسؤولية.

ب- الواجب.

والمسؤولية، كما يقول الدكتور حسين فوزى النجار في كتاب الإسلام والسياسة: «ليست مسؤولية الضمير أو القانون، وإنما هي مسؤولية الإنسان أمام الله مباشرة»، وهي مسؤولية لا تقف عند الحدود الظاهرة من الأقوال والأفعال فحسب، بل تتناول النوايا وما تخفي الصدور، فالله سبحانه وتعالى عليم بكل شيء، ولا يغيب عنه جل جلاله صغيرة ولا كبيرة، في السموات ولا في الأرض ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٩). ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ (البقرة:١١٥).

فالإنسان مسؤول عن نواياه، ومسؤول عن أعماله أمام الله مباشرة، ولكل عمل جزاؤه، ولكل حسنة ثوابها، والجماعة الإنسانية مسؤولة عما تعمل مسؤولية الفرد سواء بسواء.

ومن هذه المسؤولية يبرز الواجب.. فما يعد حقاً للفرد أو المجتمع هو فرض واجب على الفرد للفرد، وعلى الفرد للمجتمع، وعلى الدولة للفرد والجماعة معاً.. فالجماعة الإسلامية كلٌ متكامل يلتقي فيها الفرد بالمجتمع في نطاق يحكمه الواجب الذي يرقى إلى درجة الإلزام.

ويفوق الواجب كل إرادة أخرى للفرد، وهو الذي يحدد معنى الحرية ومداها، وفي قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (البقرة:١٨٥) ما يفصح

عن حكمة التشريع الإسلامي، وهي سعادة الإنسان وأمنه دون غلو أو إسراف. فالشريعة تحكم علاقات الإنسان كما تحكم عقيدته الدينية، وهي التي تحدد مضمون الحرية.. فالحرية ليست مطلقة ولكنها تحمل في بذرتها القيود التي تحكمها. وهي هنا قيود الشريعة فقط.

وفي إطار هذا النطاق تتحرك الحرية الاجتماعية على أساس من الثقة في التزام الأفراد طواعية بمصلحة الفرد والمجتمع.. وهي في الوقت نفسه قيم الإنسانية ومبادئها في كل زمان ومكان.

وبذلك لا يكون هناك فرض أو رقابة بأي شكل في عمل القائمين بالاتصال سوى المسؤولية الذاتية أمام أنفسهم وأمام الله مباشرة وسوى الشعور بالواجب، كما أنه لا يوجد أي تدخل على حرية المستقبلين للرسالة الإعلامية، فهم يختارون بأنفسهم المواد التي يتعرضون لها؛ أما القيد الوحيد للحرية فهو قيد أخلاقي يستمد مقوماته من القيم النابعة من الدين الإسلامي.

وتساعد هذه الصفة للخطاب الإسلامي على حفز كافة القائمين بالاتصال على العطاء بلا حدود، وتكريس إمكاناتهم ومواهبهم من أجل نشر وتدعيم القيم الدينية من ناحية، ومن ناحية أخرى تهيئة الظروف التي تجعل جمهور المستقبلين للرسالة الإعلامية يتلقونها دون تحفظ، الأمر الذي يدعم ثقة الأفراد في أنفسهم وفي بعضهم بعضاً ويجعلهم على قدر من الصلابة والصمود لمواجهة التحديات التي تواجه المجتمع الإسلامي في كل عصر وأوان.

١٠- منهجية الخطاب الإسلامي:

الاتصال الخطابي الإسلامي ليس عمل ارتجالياً.. وليس مجرد أساليب أو وسائل.. وليس عملاً مؤقتاً، ولكنه فكر وبرنامج متكامل يتضمن التخطيط والأهداف والاستراتيجيات والأساليب والوسائل والمحتوى والجمهور والتوقيتات وأساليب التنفيذ وإجراءاته ومتطلباته المادية والفنية والبشرية، ويتضمن في الوقت نفسه المتابعة والتقويم الفوري والآجل لكل

أنشطة الاتصال الإسلامي، سواء أكانت على مستوى الداعية أو على مستوى المؤسسات الدعوية أو من خلال التكامل بين هذه المؤسسات ومؤسسات المجتمع الأخرى.

ولعل واقع الخطاب الإسلامي الآن يوحي بافتقاد النظرة العلمية للبرامج الدعوية.. ولعل المناقشات والمؤتمرات التي تعقد بين الحين والآخر لمناقشة قضايا الدعوة توحي بافتقاد الرؤية العلمية الشاملة في إعداد البرامج الإيجابية... كما أنها في كثير من الأحيان تتسم بالقصور والعجز عن الاستفادة من نتائج علوم الاتصال وما ابتكره الإنسان من تقنيات ووسائل وأساليب في إعداد البرامج الإيجابية.. وفي مجال الفكر فهناك عجز عن تقديم البرامج الصالحة لمعالجة تحديات العصر ومواجهة مشكلاته من خلال رؤية دينية، لمواجهة الفراغ والجهل الديني لدى قطاعات متعددة في المجتمع الإسلامي، كالشباب والأطفال والمرأة والأقليات المسلمة في المجتمعات الأجنبية.

إن افتقاد هذه البرامج من أهم عوامل تشتت الجهود وأهم أسباب انتشار الإحساس بالقلق والخوف من المجهول، والشعور بالضياع الروحي، والتمزق الفكري إزاء النهضة الحضارية المادية المذهلة في الجوانب المادية والتكنولوجية.

إن واقع الأمر في الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة، والدعوة على بصيرة، تحدد لنا منهجية الخطاب الإسلامي:

فمن الحكمة والبصيرة في الدعوة أن تكون هناك سياسات وخطط دعوية وفقاً للأسس العلمية، وأن يكون هناك إعداد جيد للدعاة، وفهم موضوعي للجمهور، وإدراك لأساليب الخطاب المناسبة والناجحة، وتوظيف لكافة الوسائل الإعلامية المتاحة، وتقويم لبرامجنا وإنجازاتنا الدعوية، والاعتماد في كل هذا على البحوث العلمية حتى تكون الدعوة على بصيرة.. بكافة مكونات الظرف الاتصالي.. وبكافة المعوقات الأخرى، التي نحرص على تلافيها لضمان النجاح والتأثير للدعوة ولتلبية متطلبات الدعوة في مواجهة الواقع المعاصر بكافة ظروفه ومتغيراته وملابساته.

ثانياً: موصفات الخطاب الشرعي «خطاب الثوابت»

- مفهوم الخطاب الشرعي ودلالاته:

الخطاب الشرعي، أو «خطاب الثوابت» بالمصطلح العصري، هو في حقيقة الأمر المنهج الإسلامي الذي ارتضاه الله للمسلمين.. قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (المائدة:٤٨).

وهذا المنهج هو المنهج الثابت: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ (إبراهيم:٢٧).

وهو المنهج الذي أمرنا الله سبحانه وتعالى بالتثبت به والالتزام بمبادئه، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام:١٥٣).

وواجب المسلمين هو الاتفاق على المنهج.. جاء في السنن: «**لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُمْ أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللَّهُ بَيْنَ وُجُوهِكُمْ**» إشعاراً بالوحدة والتكامل... وقد أوضح الرسول ﷺ مختلف جوانب هذا المنهج... روى الدارمي عن العباس، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ: «وَاللَّه مَا مَاتَ حَتَّى تَرَكَ السَّبِيلَ نَهْجًا وَاضِحًا، فَأَحَلَّ الْحَلالَ، وَحَرَّمَ الْحَرَامَ، وَنَكَحَ وَطَلَّقَ، وَحَارَبَ وَسَالَمَ».. وأوجب ﷺ على المسلمين أن يلينوا لبعضهم بعضاً وألا يتأبوا.. فالجماعة المسلمة توجه قياداتها ولو في الصلاة.. حيث يقول المأموم لإمامه أن نسي أو أخطأ: سبحان الله... وهذا للدلالة على أن المسلمين جميعاً يسيرون تحت سلطان الله الشرعي طوعاً وإذعاناً لله رب العالمين. وأن حجة الشرع هي الأعلى والأجدر بالطاعة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ۝ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (المجادلة:٢٠-٢١).

والمرجعية الأساسية لهذا الخطاب الشرعي أو لخطاب الثوابت هي القرآن الكريم، الذي حوى كل ما يخطر على بال الإنسان مما يتصل بالحياة الدنيا والآخرة من قريب أو بعيد، وحوى كل توجيه سام وكريم يحقق للإنسان أعظم قدر من السعادة والسلام، يقول تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل:٨٩).

أما المصدر الثاني لمرجعية هذا الخطاب فهو الرسول ﷺ الذي علمه ربه الكتاب والحكمة وأحاطه بكل ألوان المعرفة وأعده لتبليغ كلمة الله إلى الناس كافة، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى:٥٢)، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم:٣-٤).

وهذه المرجعية هي الأساس الفكري لخطاب الثوابت، وتمثل المعلوم من الدين بالضرورة والتي عليها الإجماع، ونعني به ذلك القدر الذي يمثل دين الإسلام ويمثل هويته وحقيقته بحيث لا يتصور إسلام بدونه.. ويسمى بخطاب الثوابت؛ لأنه يلازم حال واحدة وصورة واحدة لدى جميع المسلمين، في كل زمان ومكان، وعلى كل حال.

- مواصفات خطاب الثوابت:

ويتسم خطاب الثوابت بمجموعة من المواصفات أهمها:

١- الربانية:

فالصفة الأساسية لخطاب الثوابت الإسلامي هي الربانية .. والربانية تعني، كما يشير العلماء، أن يكون الأخذ من الله عز وجل.. أي الاعتماد في كافة الأمور على كتاب الله عز وجل والقرآن الكريم الذي أوحاه الله باللفظ والمعنى ... والأخذ عن سنة رسوله التي أوحاها

الله إلى رسوله ﷺ بالمعنى فقط فبلغها الرسول ﷺ بلفظ من عنده.. فهما المصدران الأساسيان للخطاب الإسلامي .. أما الإجماع والقياس والاجتهاد فبشرط عدم مخالفة الأصلين.

وفى إطار الربانية، كصفة للخطاب الإسلامي، تتحدد المسلمات الأساسية والمفاهيم والغايات لهذا الخطاب. وتأتي على رأس هذه المسلمات الإيمان بالله إلهاً واحداً لا شريك له في العبودية من هوى أو مال أو جاه أو سلطان.. فهذه كلها ما هي: ﴿إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ (يوسف: ٤٠). والإسلام برمته ليس إلا تفصلاً وافياً لمعتنقيه لأسباب هذا الأيمان ومقتضياته باعتباره المهيمن على مناشط الحياة والغاية العليا التي يتبعها الإنسان في مختلف تصرفاته وأقواله ونواياه بحيث تعد حياته كلها تسليماً وخضوعاً لرب العالمين، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٢-١٦٣).

وفى إطار هذه التصور الرباني تتحدد منطلقات الإنسان في الحياة على النحو التالي:

- **التكليف**، فهو كائن مكلف ومسؤول عن كل أفعاله وتصرفاته.
- **الاستخلاف**، خلقه الله لخلافته على هذه الأرض ومنحه السيادة الكاملة فيها.
- **التسخير**، كافة المخلوقات مسخرة لأمره لا ليصير عبداً لها .. وإنما ليقود الحياة في الاتجاه الصحيح.. عمارة أرض الله بمنهج الله.
- **العقل**، فهو إنسان مزود بالعقل ليتوصل بنفسه إلى معرفة خالق الكون وعبادته حق عبادته من خلال ما جاء من نصوص وما تضمنته الطبيعة في معرض الإبداع الإلهي من فرص وقدرات للتمتع النفسي والروحي والحسي، للوقوف على عظمة الخالق والشعور بالله وإمكانية الاتصال به وحمده.
- **العدل**، للإنسان مع نفسه ومع أسرته وأهله ومع المجتمع المحيط به ومع كافة البشر كأساس للشعور بالمسؤولية والاشتراك في الحياة الاجتماعية كمثالية دينية أساسية رغبة في

الشعور بالسلام والأمن والسكينة، وتوجهاً للسماح لتقبل التطهير والتقديس والخيرية ولإدراك الحق والخير والجمال كصور إلهية ممنوحة للبشر، مع رؤية القصور وأوجه النقص والإحساس بالذنب دعماً للإيجابية في البناء النفسي للمؤمن وتحركاً للكمال والخلاص.

- **الصبر**، الموقف المختار تجاه المحن والآلام بالصبر الواثق بالله والتحمل إلى حين كشف الغمة.. وللشعور بضرورة تجنب كل ما يمكن أن تسوء عاقبته.

- **الانفتاح على الحقيقة**، فالحق ضالة المؤمن.. والمنهج الواقعي لفلسفة الخطاب الإسلامي تقتضي الوقوف في كافة شؤون الحياة المتغيرة عند الكليات، كما أشرنا سابقاً، دون الفروع والجزئيات والتفاصيل والنظم والتنظيمات والتي فيها مجال الإبداع للعقل المسلم في ضوء المقاصد والكليات الرئيسية ووفقاً للمصلحة الشرعية.

ولهذا يمكن أن يتعدد الخطاب الاجتهادي في الأمور المتغيرة وفقاً لتفاعل فقه الشريعة مع فقه الواقع طبقاً لمصلحة العباد.

- وبهذا تعكس صفة الربانية في الخطاب الإسلامي حقيقة الدين، فهو ليس مجرد كلمات تتردد، ولا خطب تلهب مشاعر الناس، ولا فلسفة تخاطب العقول وليس لها من واقع الحياة شيء، وإنما هو دين عملي يبعث في أتباعه الحسن والحركة وينطلق في إطار هذه المعاني ليؤمن للناس ما تتطلع إليه عقولهم من راحة وطمأنينة في النفس وخير ورشاد في واقع الحياة.

٢- الشمولية:

يتسم خطاب الثوابت الإسلامي بنفس درجة الشمولية التي يتسم بها الإسلام كدين. فالإسلام نظام شامل لجميع شؤون الحياة ولكل سلوك الإنسان، أي أنه، كما قال أهل العلم، ينظم شؤون الحياة ويحكم سلوك الإنسان في مختلف مجالات حياته وفي كل ميادين النشاط البشري، كما يقول القرضاوي في معرض حديثه عن الخصائص العامة للإسلام.. فهو رسالة لمراحل الإنسان كلها، حملاً ورضيعاً وطفلاً وصبياً وشاباً وكهلاً وشيخاً.. وفي كل هذه الجوانب الحياتية للإسلام موقف.

وهذا الشمول يتجلى في العقيدة والعبادة والأخلاق والتنظيم؛ لأنه دين ودولة وعقيدة وسياسة وعبادة ونظام.

ولذلك تتسع أحكام الإسلام لتشمل كافة هذه المجالات.. وقد قسم الدكتور عبد الكريم زيدان في كتابه «أصول الدعوة» أحكام الإسلام بالنسبة لأفعال الإنسان إلى الأقسام الآتية:

١- أحكام العقيدة، وتتعلق بأمور العقيدة.

٢- أحكام الأخلاق، وتتعلق بما يجب أن يتحلى به الناس ويتحلى به المسلم.

٣- أحكام العلاقات الاجتماعية، وتتعلق بتنظيم علاقات الأفراد فيما بينهم وهي على أنواع:

- أحكام الأسرة: من نكاح وصداق ونفقة.. إلخ، وتسمى قانون الأحوال الشخصية.
- أحكام المعاملات كالبيع والرهن والإجارة، وتسمى القانون المدني.
- أحكام القضاء من دعوى وحكم وشهادة وبينة، وتسمى قانون المرافعات.
- أحكام الأجانب، أي غير المسلمين في بلاد الإسلام، وتسمى القانون الدولي الخاص.
- أحكام الحكم، نظامه وقواعده وصفات الحكم وشكل الحكومة وعلاقات الأفراد بها، وتسمى القانون الدستوري.
- أحكام الموارد والمصارف، بالنسبة للدولة الإسلامية، بين علاقاتها بأفرادها مالياً، وتسمى القانون المالي.
- أحكام الجرائم والعقوبات، لتحديد علاقة الفرد بالدولة بالنسبة للأفعال المنهي عنها، وتسمى بالقانون الجنائي.

والخطاب الإسلامي يتسع لكل هذا؛ لأن الإسلام رسالة لكل إنسان، روحه وجسده وعقله وأفكاره وعواطفه وضميره؛ ولأنه رسالة لكل الأزمنة والعصور، ليست مخصوصة بزمان مخصوص، ولكل الأمكنة غير محدودة بمكان مخصوص، ولكل الأمم غير مخصوصة بأمة خاصة.

وبهذه الشمولية للخطاب الإسلامي يتحدد نطاقه بكافة جوانب الحياة.. الإيمان والعبادات والمعاملات والنظام الاقتصادي والاجتماعي والعادات والعلاقات الشخصية بين الإنسان وأهله ومعارفه والآخرين، وأيضاً النظام السياسي والإداري والقضائي والدولي. ولابد للخطاب أن يتناول كافة هذه الجوانب ولا يقتصر على جانب دون آخر.. بل عليه أيضاً تلبية احتياجات الإنسان كعقل وقلب ورغبات وضوابط.. وروح.. والموازنة بينها وبين الإنسان ونفسه من حيث هو جسم وروح، وبينه وبين الأفراد الآخرين في المجتمع، ثم بينه وبين المجتمعات الأخرى وإدارة الصراع بين مختلف هذه القوى بصورة متوازنة، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ (البقرة:٢٥١).

وتلبية لتحقيق متطلبات شمولية الخطاب الإسلامي تضمنت الشمولية الإطار الاتصالي للخطاب الإسلامي نفسه، فهو يتسع ليشمل جميع المسلمين كقائمين بالاتصال، كل بقدر طاقاته وخبراته وثقافته. ولذلك لم تعد الدعوة حكراً لأحد فهناك الداعية المؤسسي المتخصص، وهناك الدعاة الأفراد، الطبيب الداعية والتاجر الداعية، والمهندس الداعية، والفرد المسلم العادي كداعية في نطاقه ووفقاً لخبراته.

٣- عالمية الخطاب الإسلامي:

من مواصفات الخطاب الإسلامي العالمية، بمعنى جعلها صالحة لكل زمان ومكان ومهيأة للبقاء والاستمرار.. ولذلك فهو منهج متكامل للناس جميعاً دون استثناء .. والناس جميعاً هدف لهذا الخطاب، ويجب أن تصلهم الدعوة على الوجه الصحيح، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ (النساء:١٦٥).

ومما يؤكد هذه العالمية قوله تعالى في آيات كثيرة: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (يوسف:١٠٤)، ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان:١)، ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (الأعراف:١٥٨).

وقوله ﷺ : «فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاء بستٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بالرُّعْب، وَأُحلَّتْ لِيَ الْغَنَائمُ، وَجُعلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسلْتُ إلَى الْخَلْق كَافَّةً، وَخُتمَ بِيَ النَّبيُّونَ»[1]، وفي حديث آخر: « وَبُعثْتُ إلَى النَّاس عَامَّةً»[2].

وهذه العالمية للخطاب الإسلامي بدأت منذ عهد الرسول ﷺ فقد توجه بدعوته إلى كل من عاصره وبمختلف الوسائل.. فاستخدم وسائل الاتصال الشخصي والجمعي، وانتقل إلى الناس في الأسواق، وقابلهم في المواسم، وهاجر إليهم، وعاهدهم وصالحهم، وغزاهم، وأرسل إليهم الرسل والبعوث والدعاة والكتب، وبخاصة إلى الملوك والأمراء بعد فراغه من الحديبية في آخر العام السادس للهجرة.

وبهذه العالمية للخطاب الإسلامي نسخت كافة الدعوات السابقة عليها، كما يقول الدكتور عبد الحليم محمود في كتابه «الإسلام دعوة عالمية»؛ لأن كل دعوة قبلها جاءت لتعالج ناحية من نواحي حياة الإنسان .. فجاءت دعوة موسى، عليه السلام، لعلاج الوثنية وتحويل الناس إلى توحيد الله .. وجاءت دعوة عيسى، عليه السلام، وقد أصبح الناس ماديين ولا شيء يقدسونه إلا المادة، فاهتمت بالناحية الروحية والخلقية، وغرست في نفوس أتباعها التسامح والوداعة والرحمة.. ثم جاءت دعوة محمد ﷺ وقد استوت البشرية على حال حتم عليها أن تسير في طريق يؤدي بها إلى دين متكامل الجوانب يعالج مشكلات الحياة كلها، ويرسم لها الحل السماوي السوي الذي لا حل سواه. ولذلك كانت الدعوة جديرة أن تلغي ما سبقها من الدعوات إلغاء تفصيلياً، مع الاعتراف بها من ناحية الإجمال. ودليل نسخها لغيرها من الشرائع كان في أنها لم تكتف بعلاج ناحية واحدة أو أكثر في حياة الإنسان وإنما عالجت كل حالات الإنسان، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (آل عمران:٨٥).

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه البخاري.

- مواصفات الخطاب الاجتهادي:

حقيقة الاختلاف في الخطاب الاجتهادي:

الاختلاف من طبيعة البشر، وقد أقر القرآن بوجود الاختلاف بين الناس، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ (هود:١١٨-١١٩)، وذلك لأن القدرات والطاقات متفاوتة بين البشر، ولذلك تفاوتوا في الفهم والاجتهاد كما يفهم من قوله تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾ (الرعد:١٧) إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها من يسع علماً كثيراً ومنها ما لا يسع الكثير من العلوم بل يضيق عنها، حتى بين الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام أجمعين، تفاوت في الاجتهاد، قال تعالى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ۝ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ (الأنبياء:٧٨-٧٩).

وقد اختلف الصحابة والتابعون، رضوان الله عليهم أجمعين، في كثير من الأمور.. لكنهم كانوا إذا تنازعوا في الأمر اتبعوا أمر الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (النساء:٥٩)، وكان يجمعهم جميعاً إخلاص النية في طلب الحق، لنتفق عليه ولا نختلف، والاعتراف للآخر بوجهة نظره مادامت مؤسسة على القرآن والسنة، مع بقاء الألفة والأخوة الإسلامية.

وللاختلاف أسباب عدة، كما أشار العلماء، منها:

١- عدم استيعاب العلماء للسنة كاملة، فيحكم كل بما علمه منها.

٢- الاختلاف في ثبوت النصوص، من حيث الضعف والقبول والرد، فيأخذ بها بعض العلماء ويتركها آخرون.

٣- اختلاف دلالة النصوص، وبخاصة عندما يكون النص خفي الدلالة أو تكون الدلالة محملة للوجهين كحديث ابن عمر، رضي الله عنهما: قال النبي ﷺ يوم الأحزاب: **«لا يصلين أحد العصر إلا في بنى قريظة»**[١].

ولكن هذا الاختلاف أفاد الفكر الإسلامي في زوايا عديدة، منها التدقيق والتحرير للمسائل والبحث والتصحيح، مما شجع الحركات الفكرية الإسلامية منذ العصر الإسلامي الأول، كما كان له الفضل، في وضع قواعد متينة لضبط الاجتهاد أسهمت في تضييق دائرة الخلاف.

لكن القاعدة الأساسية في الاختلاف هي عدم البغي والاتهام والتكفير للآخر المختلَف معه، مادام الارتباط بالنصوص الشرعية.

وقد دل القرآن على حمد الطائفتين ما لم يكن هناك بغى قال تعالى: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (الحشر:٥).

أما ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (المؤمنون:٥٣)، أي أن يصبح رأيهم هو الفيصل وهو النهائي والأصيل وينكر كل ما عداه، بل ويصير الأمر إلى درجة التعصب والاقتتال والتكفير.. فهذا ما لا يتفق مع طبيعة الخطاب الإسلامي العقلية التي تدعو إلى التفكير والتأمل والاجتهاد والوقوف على حكمة التشريع الإسلامي في اقتضاء الثبات على الأصول وفتح الباب واسعاً للاجتهاد والتفكير لمطابقة مقتضيات الشريعة لمقتضيات حال الناس في ظروفهم وأحوالهم المختلفة، حتى لا نكون كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ (آل عمران:١٠٥)، ونستجيب لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن

(١) صحيح البخاري مع فتح الباري (٤٠٧/٧-٤٠٨، رقم ٤١١٩).

تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ (النساء:٥٩)، أي الرجوع إلى مصدر الهداية، القرآن والسنة، وإلى فهم العلماء المجتهدين المخلصين القادرين على الاستنباط الشرعي، والمحافظة على وحدة الأمة الإسلامية، قال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ (آل عمران:١٠٣).

خطاب اجتهادي واحد أم خطابات:

توجد أفهام ورؤى واجتهادات يصل تنوعها إلى حد التناقض الكامل، حتى بتنا أمام إسلامات متعددة وليس إسلاماً واحداً...

والتساؤل هنا: هل كل هذه الرؤى والاجتهادات والتصورات في إطار دائرة الاجتهاد تمثل في مجملها الإسلام أم أن هناك إسلاماً واحداً وكل ما عداه باطل وضلال وانحراف.. وهنا لابد من العودة إلى الأصول .. إلى خطاب الثوابت .. الذي لابد لنا جميعاً من الالتزام بأسسه ومكوناته.. وبقبول (الرأى الآخر) ما دام يمثل اجتهاداً وتصوراً لتنزيل الأصول في ضوء متغيرات الواقع وذلك لتحقيق ما يلي:

١- لنتجنب التناقض المذهل بين الرؤى المختلفة والإيهام بغموض الإسلام وصعوبة تحديد جوهره.

٢- لتأكيد وجود حلول إسلامية متعددة متوافقة مع الظروف المختلفة للمسلمين في البلدان المختلفة والمجتمعات المختلفة، ما دامت جميعها متفقة مع الأصول الإسلامية الثابتة.

٣- الاتفاق على أن التصورات الاجتهادية للنصوص اجتهاد بشري قابل للمناقشة والتعديل، في ضوء التراكم المعرفي والفهم الواقعي للمستجدات والظروف المتغيرة .

٤- لتأكيد وجود دوائر إفتاء متعددة في الاجتهاد وفي طريقة التعامل مع النصوص والالتزام بها .. وأن حصيلة هذا الاجتهاد في فهم النصوص مرتبط بالظروف والمتغيرات المتعلقة بدائرة الإفتاء نفسها والجمهور المستفيد ولا تلزم غيرهم ما دامت تمثل اجتهاداً في إطار النص الشرعي.

تجديد الخطاب الديني في ضوء دلالات الخطاب الاجتهادي:

ينبغي التجديد في المتغيرات، أي في مطابقة الفهم البشري للنصوص الشرعية طبقاً للمستجدات، وهو ما يفهم من قوله ﷺ: « **إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**»[1]، أي من يوفقه الله لحسن الفهم والاستنباط والاجتهاد والتدبر لبيان رأي الإسلام فيما اعترى أحوال الناس من أمور وما جد لهم من مشكلات. أما الثوابت الإسلامية في العقيدة والعبادات والمعاملات والأخلاق والتي جاءت بها النصوص الشرعية فهذه أمور ثابتة؛ لأن الدين لا يتغير أما الواقع فهو الذي يتغير وهو مناط النظر والاجتهاد.

كما يشمل التجديد للخطاب، بالمعنى الاتصالي، التجديد في الجوانب الاتصالية المختلفة، كالتجديد في الوسائل والأساليب المستخدمة لإيصال الدعوة، وكمراعاة أحوال الجمهور، وحسن الاهتمام بإعداد الدعاة، ودراسة الآثار الناتجة عن ممارسة الدعوة وأساليب إنجاحها، وكذلك البحث في أسس التخطيط الجيد والتقويم والمتابعة وإجراء البحوث المختلفة لتطوير كافة هذه الجوانب.. وكل هذه الأمور الخاصة بالممارسات الدعوية تتطور بتطور العلوم البشرية في مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية والإعلامية وبتطور تكنولوجيا الاتصال المستخدمة.

والتجديد من هذا المنطلق فريضة إسلامية، أوجبها القرآن الكريم على المسلمين في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (إبراهيم: ٤). أي يوضح الحكم الديني فيما يتعلق بأمور معاشهم ليتحرر الخطاب من الجمود والتقليد والتبعية. كما يفهم أيضاً من اللسان اللغة التي يفهمون بها. ولا تعني لغة الكتابة فقط وإنما كافة المقومات الإعلامية التي تساعد على تحقيق هدف الداعية من الإيضاح والتبيين والتأثير.

---

(١) أخرجه أبوداوود.

مواصفات الخطاب الاجتهادى المعاصر:

يسود الخطاب الاجتهادي المعاصر مجموعة من السمات والثغرات أدت إلى توسيع دائرة الخلاف، واستنزفت القوى والجهود الإسلامية، وأدخلت المسلمين في معارك جانبية فرقت الصف، وأكدت كل أسباب الفرقة، ووسعت الهوة والفجوة بين المسلمين، وخالفت كل ما أمرنا به الله تعالى لتحقيق غاية التمكين لدينه والخلافة السوية في الأرض، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾.

- فخطابنا الاجتهادي الآن يتسم بالاختلاف حول الثوابت، فخرجت جماعات بذلك عن الإسلام كالبهائيين... واختلفنا في الاجتهاد والفهم، ورفعنا مستوى الاجتهادات إلى درجة الثوابت فتفرقنا وأصبحنا أمام إسلامات متعددة وليس إسلاماً واحداً، ولم نعد إخوة كما أمرنا الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ﴾ (الحجرات: ١٠).

- وخطابنا الإسلامي الآن يؤكد الفرقة والاختلاف ويدعو للطائفية والعصبية، وليس لرأب الصدع وتحقيق الأخوة، ولهذا اختلفت قلوبنا وتفرقنا وتشتتنا كحال الجاهلية التي غيرها الإسلام بقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال:٦٢-٦٣)، وبقوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ (الصف: ٤).

ونحن نقاتل الآن لأغراض كثيرة وبجيوش عديدة ولا تجمعنا رابطة أو غاية واحدة كما أشارت الآية.

- كما أننا كأفراد لا نجد في خطابنا الاجتهادي ما يتفق مع دعوة الرسول ﷺ لنا بقوله.. «**لا تَحَاسَدُوا، وَلا تَنَاجَشُوا، وَلا تَبَاغَضُوا، وَلا تَدَابَرُوا، وَلا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى**

بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا؛ الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ، وَلا يَخْذُلُهُ، وَلا يَحْقِرُهُ؛ التَّقْوَى هَاهُنَا- وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ- بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ؛ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ»(١).

- وخطابنا الاجتهادى الآن يحمل كل سمات الإعجاب بالرأي، واحتقار الرأي المخالف، والتعصب لرأي عالم أو جماعة أو لمذهب، ويعكس شهوة الزعامة وحب الصدارة والجاه والحسد والبغض والغيرة من العلماء الآخرين، ويؤكد الولاء للمذهب أو للرأي، ويجعل كل أعمال الآخرين سيئة وغير صحيحة بالمخالفة، لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة:٨).

- وأصبح هم هذه الخطابات الأساس هو تتبع عثرات وسقطات الآخرين لإبراز تفوقنا عليهم باجتهاداتنا .. لذلك سادت هذا الخطاب لغة التفرقة ولهجة الهوى والتي نهى الله عنها، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ (ص:٢٦)، وقال: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ (المؤمنون:٧١).

وأصبحت الملامح العامة للخطاب الاجتهادي الآن تزخر بالجدال الباطل الذي يستهدف الغلبة على الاجتهادات الأخرى، بغض النظر عن إظهار الحق وتحرير الاختلاف، كما تجرأ غير المختصين على الفتوى والتصدر للخطاب، وقد نهى المولى عز وجل عن ذلك بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ

(١) أخرجه مسلم.

إن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ﴾ (غافر:٥٦). وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ (غافر:٣٥). ونتيجة لهذا، خلطوا بين الثوابت والمتغيرات حيناً، وجعلوا المتغيرات ثوابت حيناً آخر، واختلفوا حولها، متناسين قوله تعالى: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (الحشر:٥).

- كما خلطوا بين المفاهيم.. فلم يتفقوا على المفاهيم الأساسية للدين، مثلما فعل الرسول ﷺ عندما حدد لنا مفاهيم الدين الأساسية في أحاديثه الكثيرة والتي أوضحت لنا معنى الإسلام، ومعنى الإيمان، ومعنى الإحسان، ومعنى البر، ومعنى التقوى... إلخ... والتي أكدها القرآن الكريم في سياق التنبيه إلى أهمية المفهوم بقوله تعالى: ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾ (الحجرات:١٤).

- كما لم يتفقوا حول المصطلحات الشرعية التي رتب الشرع عليها المدح والذم والوجوب والتحريم، وهي مصطلحات عامة يحتاجها الخطاب في التنزيل على الواقع والمواقف، لتلبية الشرع لمتطلبات واحتياجات الناس وفقاً لاختلاف الزمان والمكان.

- الخلط في ترتيب الأولويات : فلم تعد من القضايا الأساسية تعليم العقيدة، ولا مواجهة الذنوب والمعاصي، ولا الاجتماع إلى الحق، ولا التعاون والوحدة، ولا آدمية الإنسان وحقوقه، ولا المواجهة الموحدة للأعداء، ولا الإحساس بعالمية الخطاب الإسلامي، ولا الإحساس بالقدوة لحديث « إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ»[1]، لم تعد قضايا أساسية يتفق عليها في كافة الخطابات الاجتهادية الإسلامية المعاصرة، وإنما بدلاً من ذلك ساد سوء الظن والتعصب الأعمى وغلبة الأهواء والذاتية للخطاب، الأمر الذي بدد الطاقات

(١) أخرجه الترمذي.

والجهود وفرق المسلمين إلى خطابات كثيرة ومتعددة وأفقد الثقة بالدعاة مما أشاع الفرقة والفتنة والاختلافات.

- وأصبحنا الآن، في حوارنا الداخلي أو في حوارنا الحضاري مع العالم الغربي، أبعد ما نكون عن ممارسة الدعوة بالضوابط التي حددها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ﴾ (النحل:١٢٥).

فإذا كانت الحكمة، كما يقول الراغب الأصفهاني، إيصال الحق بالعلم والعمل، وكما يعرفها السيد الطباطبائي بأنها: الخروج إلى نتيجة الحق الذي لا مرية فيه ولا وهن ولا إبهام، وكما يعرفها العالم ابن القيم الجوزي بأنها: وضع الشيء في موضعه اللائق، فإن الحكمة هنا تقتضي في خطابنا الاجتهادي الإسلامي تلافي كافة عوامل الضعف والتفرق، التي أشرنا إليها سابقاً، كسمات لهذا الخطاب، وتقتضي فهم أصول هذا الدين، وترتيب أولويات الخطاب، ومراعاة الظروف والمستجدات، ومراعاة كافة المقومات التي تساعد على نجاح الخطاب في توجهه إلى المسلمين داخل العالم الإسلامي، أو في خارجه إلى الأقليات المسلمة، وفي التوجه إلى غير المسلمين بالدعوة والإقناع... فكل هذه وغيرها تدخل في إطار الحكمة.

وتعني «الموعظة الحسنة» استخدام كافة الأساليب المؤدية للإقناع، مع التنويع بين التخويف والزجر والأمر والتقرير واستخدام الحجة والبرهان، أي القول البليغ اللين الهادئ، كما في قوله تعالى لموسى وهارون عندما أمرهما بالتوجه إلى فرعون: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ (طه:٤٣-٤٤).

أما الجدال «بالتي هي أحسن» فهو الحوار مع (الآخر) مسلماً كان أم غير مسلم، وأن يكون الحوار حسناً، بمعنى أن تتوافر له كافة المقومات الموضوعية والنفسية والمنطقية،

والتي تضمن القرآن نماذج عديدة لها، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ (لقمان:٢٥).

وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (يس:٧٨-٧٩).

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ (الحج:٥).

وذلك كله بهدف الوصول إلى المثالية في الخطاب، وحفظ التوازن النفسي والمنطقي للخطاب ليحول دون الخروج عن الموضوعية أو الابتعاد عن الهدف المنشود.

رابعاً: مواصفات الخطاب الإسلامي المعاصر:

يتسم الخطاب الإسلامي المعاصر بمجموعة من المواصفات هي :

١- قصور الخطاب الإسلامي:

فهناك فهم سائد لدى كثير من العلماء والمصلحين، بل والدعاة أنفسهم، بأن الخطاب الإسلامي يعني الخطاب الديني فقط، بالمخالفة لحقيقة وواقع هذا الخطاب؛ فـ«الخطاب الإسلامي» يتسع ليشمل كافة الخطابات الأخرى في المجتمع المسلم: الخطاب السياسي، والخطاب الاقتصادي، والخطاب الاجتماعي، والتربوي، والإعلامي، فكل هذه الخطابات من خلال الرؤية الإسلامية تعد روافد للخطاب الإسلامي وانعكاسات له.

وكافة هذه الخطابات في حاجة إلى جهود الفقهاء والعلماء والمتخصصين لإبراز الملامح المميزة لروافد «الخطاب الإسلامي» في كافة هذه المجالات.

ولعل قصور هذه النظرة أدى إلى الخلل الحادث في الخطاب الإسلامي المعاصر بصورة أعجزته عن تلبية متطلبات الواقع الراهن للمجتمعات الإسلامية وبصورة أتاحت الفرصة

للخطابات الأخرى، كالعلمانية والشيوعية والغربية، لعرض تصوراتها ورؤاها للنهضة الإسلامية، في غيبة حقيقية أو في ظل وجود خافت للخطاب الإسلامي.

وتتحدد من ثم المشكلة في ضرورة الحضور القوي لـ«لخطاب الإسلامي»، فكراً وتصوراً ومنهجاً، في كافة مجالات وأبعاد الحياة المعاصرة.

٢- افتقار الاستراتيجية الواضحة لمواجهة التقدم التكنولوجي الغربي:

يتحرك «الخطاب الإسلامي المعاصر»، على مستوى خطاب الذات، بدون استراتيجية واضحة لمواجهة التقدم المادي الغربي في مجال التكنولوجيا.

فعلى مستوى المواجهة المادية، فقد قطع المجتمع الغربي والمجتمعات التي اقتدت به شوطاً عظيماً في مجال المستجدات التكنولوجية بفضل الإيمان بالعلم وإعلاء شأن العلماء وتوفير كافة المتطلبات المادية للإنفاق على البحث العلمي في مختلف المجالات، بحيث أصبح العلم مسؤولية وواجباً على جميع أفراد المجتمع الغربي .. الحكومة والمؤسسات والهيئات والأفراد على السواء، واحتل العلم مكانته اللآئقة في البناء الهرمي الاجتماعي.

هذا في الوقت الذي لايزال فيه «الخطاب الإسلامي» يعتبر العلوم الطبيعية فرض كفاية ويجعلها في المرتبة التالية للعلوم الشرعية، ولذلك تداعت مكانة العلماء في المجتمع الإسلامي وتعمقت الفجوة بين نتائج العلم والتطبيق داخل المجتمع، وضعفت إلى درجة كبيرة المخصصات المالية للإنفاق العلمي وبالتالي عجزت الأمة عن تلبية احتياجات التخصصات العلمية اللازمة لتحقيق النهضة الحضارية للأمة الإسلامية.

هذا في الوقت الذي يعد فيه العلم أحد المقومات العقائدية في الخطاب الإسلامي، فعبادة الله حق عبادته وإعزاز هذا الدين وإعلاء كلمة الله لا تكون إلا بالتفوق العلمي، للاستفادة من كافة الإمكانات التي سخرها الله للإنسان.

٣- عجز الخطاب الإسلامي عن المواجهة الفكرية للغرب:

ارتكز الخطاب الغربي لتحقيق نهضته على مفهوم الحرية، كإطار لممارسة كافة الأنشطة الحياتية المختلفة في المجال السياسي والاقتصادي والاجتماعي والفكري والإبداعي، بينما انطلق الخطاب الإسلامي المعاصر من عباءة الرعاية الأبوية التي تقتضي الهيمنة والتوجيه والتدخل في كافة النشاطات، بدءاً من تربية النشء وتعليمهم إلى الممارسة السياسية والاقتصادية إلى الأنشطة الاجتماعية والإدارية.. فهناك – هناك دائماً من هم أكثر فهماً وحكمة وأقدر على تحديد الحدود في إطار التوهم برعاية الصالح العام.. بل إن الخطاب الديني نفسه خضع لهذه الهيمنة، فوجدنا حكومات تتدخل بالضوابط والقيود لضبط حركة الدعوة والدعاة بالمخالفة لقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ﴾ (الجن:١٨). وبالخلاف لجوهر الخطاب الإسلامي نفسه الذي ضمن الحرية بكل أبعادها وزواياها للمسلم في كافة جوانب حياته .. بل إن الحرية في الإسلام في أقصى معانيها تنطلق من حقيقة العبودية والإخلاص لله.. حيث إن العبودية لله تعني التحرر من سلطان الهوى والمادة والقوة والجاه والسلطة والنفس ولا يكون الخضوع إلا له سبحانه وتعالى.

وهذه المفارقة هي التي جعلت العالم الغربي الآن يتجه بالإصلاح المنشود القائم على الحرية لفرضه فرضاً على الدول الإسلامية، أو بما يسمى اصطلاحاً بلدان الشرق الأوسط الكبير.. والمقصود بها التدخل في أمور هذه البلدان تحت مسمى الحرية لتحقيق أطماعهم في الاستغلال والسيطرة.

ولهذا فلابد من الوقوف أمام الدلالات الحقيقية لمفهوم الحرية في الخطاب الإسلامي، والعمل على تحرير هذا المفهوم وتحديد آليات تطبيقه تطبيقاً إسلامياً صحيحاً في ظل المستجدات والمتغيرات العديدة وانطلاقاً من الرؤية الإسلامية الشاملة للإنسان والكون والحياة.

٤- سيادة الفكر التجزيئي:

نتيجة لعدم فهمنا لطبيعة الخطاب الاجتهادي وأهميته في إطار الخطاب الشرعي انقسم الخطاب الإسلامي إلى خطابات كثيرة في كل مجالات الفكر، السياسة والاقتصاد والاجتماع.. إلخ.. وأصبح الرأي أساساً عقائدياً.. والاختلاف أصلاً.. فانقسمنا إلى فرق وطوائف وأحزاب ومذاهب وجماعات إسلامية.. كلها يرى أنه الأصوب والأفضل تعبيراً عن الإسلام.

ومن ناحية أخرى فإننا نتيجة لعدم اتفاقنا حول ثوابت محددة اختلفت أولوياتنا، فلكل فريق أولوياته واجتهاداته، ودخلنا في معارك خلافية ومذهبية.. لدرجة أنه لا يزال بيننا من يشاحن حول سنن ومستحبات الصلاة والمسح على الرأس وأهملنا بذلك القضايا المصيرية للأمة.. كالتركيز على القيم الإسلامية الإنسانية، قيم الحرية والعدل والمساواة، واحترام حقوق الإنسان وكرامته ودور المواطن في الدولة التي يعيش فيها وحقوق الأقليات وغير ذلك.

وانتقلنا بهذه الخلافات في خطابنا للأقليات المسلمة في المجتمعات الأخرى، بحيث صارت مثلنا في التشاحن والبغضاء، ولم نقدم حقائق الإسلام في بساطة ويسر، ولم نوفر المؤلفات البسيطة والواضحة التي توضح لهم حقائق الدين وتساعدهم على تبيانه للآخرين.

بل إن خطابنا (للآخر) في هذه الزاوية اتسم بالفرقة والتناقض وعدم الاتفاق بصورة أدت إلى البلبلة وإلى تصور وجود إسلامات كثيرة وليس إسلاماً واحداً، ولذلك فإن المشكلة الأساسية في «الخطاب الإسلامي» تتمثل في تحديد مرجعية واحدة وأولويات محددة وتبسيط للقضايا والفكر تحقيقاً للوحدة في مخاطبة الذات أو مخاطبة (الآخر) غير المسلم انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة:١٤٣).

٥- افتقاد المبادأة والإيجابية والفعل:

يتسم «الخطاب الإسلامي المعاصر»، في الدعوة والأدب والفن والسياسة والاقتصاد وغير ذلك من المجالات، بافتقاد القدرة على تنمية روح المبادأة والإيجابية والفعل، فهو خطاب تشنجي يتسم بالعصبية، وخطاب بكائي، يبكي على الماضي ويتوقف عنده ولا يرى صورة سواه. وهو أيضاً خطاب عمومي يتجه إلى المجموع لا يخاطب فرداً محدداً، يحدد له مسؤوليات ويوجب عليه حقوقاً، بالمخالفة «للخطاب الإسلامى»، الذي يخاطب الفرد المسلم ويستحثه على إماطة الأذى عن الطريق ورعاية الجار ورد الأمانة وحفظ الحقوق وعيادة المريض وتقديم يد المساعدة وتقديم النصيحة..

بل إن المسلم لا يعد مسلماً إلا إذا أمر بالمعروف.. والأمر بالمعروف يتسع ليشمل كافة نشاطات المجتمع، والتي أصبحت الآن، عندما خرجت عن دائرة «الخطاب الإسلامي»، مجال الحركة لجمعيات المجتمع المدني والجمعيات الخيرية والأهلية.. وأصبحت هذه كمؤسسات بديلة تقدم كافة الخدمات في المجتمعات الإسلامية ولكن من منطلقات فكرية أخرى غير التي تضمنها «الخطاب الإسلامي».

ولذلك فإن مسؤوليتنا تتحدد في ضرورة المبادرة إلى تحميل «الخطاب الإسلامي» بالجانب الخدمي، كما تضمنه الإسلام في دائرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بجعل الدين واقعاً في حياة الناس وتدعيم الشعور بالمسؤولية لكل مسلم عن كل مسلم في إطار المساعدة على الخير وبالمشاركة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية: «فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»[1] كما يقول الرسول ﷺ.

(١) أخرجه البخاري.

٦- الإهمال لقطاعات نوعية عديدة في المجتمع:

يتسم الخطاب الإسلامي المعاصر بعمومية التوجيه في كل أشكاله الأدبية والفنية والإعلامية والدينية، ولا نكاد نجد به اهتماماً بالقطاعات النوعية كالأطفال والشباب والمرأة.. وأيضاً هناك إهمال على مستوى القطاعات المهنية المختلفة... وهو ما انعكس بالسلب على الروح المعنوية العامة للمجتمع الإسلامي، الذي أصبح يتسم بالعجز عن التفكير والعجز عن ملاحقة (الغير) وعدم الرغبة في التطور بالصورة التي دعمت روح التشاؤم والتخاذل داخل المجتمعات الإسلامية.

وإذا ركزنا فقط على قطاع المرأة وهي التي جعلها الخطاب الإسلامي في أعلى مقام وجعل الجنة تحت أقدام الأمهات، ووفر لها الرعاية النفسية والاجتماعية والخلقية والدينية والثقافية، جنيناً ورضيعاً وطفلة وبنتاً وأماً وزوجه وأختاً، وحفظ لها كيانها واحترامها، نلاحظ أن «الخطاب الإسلامي المعاصر» في الأدب والفن والدين والتعليم.. إلخ أغمطها حقها تحت وطأة العادات والتقاليد البالية والتي لا تعد من الدين في شيء.

بل إن الخطاب الديني في توجهه للمرأة يتسم بالضعف، فالأمية الدينية حتى في أمور النساء تسود غالبية النساء في المجتمع الإسلامي .. وليس لدينا كفاية في الدعاة، بل إن الكثير منهم ليس مؤهلاً للدعوة للمرأة، كما افتقدنا الاهتمام بتوفير الداعيات بالكم وبالكفاءة المطلوبة، فلم نعلّم النساء حقيقة الدين و لم ندعم حقوقهن الشرعية.. إلى الصورة التي أصبحت مدعاة للخطاب الغربي للتدخل لدعم هذه الحقوق ليس حباً في المرأة المسلمة ولا في المسلمين وإنما دعماً لخطابات أخرى وقيماً أخرى، لتحقيق الانسلاخ التام للمرأة عن مجتمعها المسلم في اتجاه السيطرة والغزو الفكري والثقافي.

ولذلك فإن المرأة والطفل والشاب في «الخطاب الإسلامي المعاصر» في حاجة ماسة إلى استراتيجية صالحة للخطاب الفعال.. من حيث الفكر والقائمين على التوعية والدعوة،

ومن حيث حسن الإعداد والتأهيل والإنفاق الكافي، ومن حيث الكم الهائل والمتخصص والمطلوب لممارسة الخطاب الفعال سواء داخل المجتمعات الإسلامية أو للعمل بين الأقليات المسلمة في المجتمعات الأخرى.

٧-افتقاد التخطيط والتنسيق والتقويم والمتابعة:

يتسم «خطابنا الإسلامي المعاصر»، على المستوى الإسلامي العام أو على مستوى كل دولة، وكذلك بالنسبة لخطابنا مع (الآخر)، بافتقاد الأخذ بالأسلوب العلمي المنهجي للممارسة.. سواء بالنسبة لتحديد السياسات والأهداف أو لتحديد التوظيف الأمثل للوسائل والطرق والأساليب أو بالنسبة للتقويم والمتابعة. وكذلك أيضاً نفتقد الأساس العلمي لتوفير المعلومات والبحوث لضمان نجاح هذه الجهود.. بل إن إنفاقنا على كافة هذه الجهود لا يكاد يفي بجزء يسير من كافة هذه المتطلبات.

٨- قصور الخطاب الإسلامي (للآخر):

وتتمثل جوانب القصور في افتقاد الخطاب الإسلامي للمقومات التي تساعده على النجاح والفاعلية في عدة أمور، منها:

- الانطلاق من رؤى متعددة وخطابات متشددة لا تعكس بساطة الإسلام ولا ما اتسم به من سهولة ويسر.

- التركيز في الحوار على مهاجمة (الآخر) فكراً وديانه بالمخالفة لقوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ (النحل:١٢٥).

- الانطلاق من زاوية رد الفعل.. فخطابنا الآن مهتم بالدفاع عن الإسلام من تهمة الإرهاب، لا بتوضيح حقائق الإسلام وسماته، ولا بما تضمنه من قيم إسلامية عالية لا خلاف عليها بين البشر جميعاً.

- جهل الكثيرين، من المسؤولين عن هذا الحوار، بثقافة وحضارة (الآخر)، وبمختلف الظروف والملابسات الأخرى، الأمر الذي يضعف الأثر المتوقع للحوار.

- التركيز على فئات محددة في الحوار وبخاصة المسؤولين، في حين أن التركيز على الفئات الأخرى كالعلماء والمفكرين والأدباء والإعلاميين والمؤسسات السياسية والاجتماعية يجعل الحوار أكثر نفعاً.

- وختاماً:

فإنه في ضوء المواصفات التي اتصف بها الخطاب الإسلامي بصفة عامة والمواصفات الخاصة بكل من خطاب الثوابت والمتغيرات، والتي أثمر عدم الالتزام بها عن جوانب خلل شابت مواصفات الخطاب الإسلامي المعاصر وأثرت على مدى جدارته وفاعليته، فإن المراجعة الدائمة للخصائص الذاتية «للخطاب الإسلامي» واستيعابها، لتقديم خطاب إسلامي جديد في مستوى العصر ينطلق من ثوابت القرآن والسنة ويتعاظم مع مستجدات الواقع وتداعيات العصر يعد أمراً وجوبياً على جميع المسلمين، لأهميته، ولتأكيد الخصائص الذاتية للأمة الإسلامية في مواجهة التحديات الداخلية والخارجية، التي تتقاذفها، ولدوره في بناء الوعي الشامل بـ (الذات) وبـ (الآخر) بكل مستوياته وأبعاده.

والله ولي التوفيق.

الخطاب الديني والواقع المعاصر

الأستاذ محمد السماك(*)

انطلاقاً من مبدأ الحرية، الذي أكد عليها القرآن الكريم، تقوم القاعدتان الأساسيتان في الثقافة الإسلامية: التعارف والحوار.. ويتطلب ذلك وجود (آخر) مختلف، إثنياً وثقافياً ودينياً ومذهبياً، كما يتطلب الاعتراف به، واحترامه، وتقبلّ المختلَف معه، وليست الحرية التي منحها الله للإنسان سوى مظهر من مظاهر الكرامة التي خصه الله بها.

مقدمة:

يواجه العالم الحديث متغيرات ثقافية وسياسية واقتصادية تفرض على الأمم والشعوب، المختلفة الثقافات والأديان والمصالح، تحديات من نوع جديد، ولا يُستثنى من ذلك العالم الإسلامي.

بل إن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها معنيون بهذه المتغيرات مواجهة وتكيفاً واستيعاباً، باعتبار أن الإسلام دعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، مفتوحة للناس جميعاً وحتى قيام الساعة.

(*) كاتب صحفي.. (لبنان).

لقد جاء الإسلام وفي أساس دعوته أنه رسالة للعالمين - وليس للعرب وحدهم - إلا أنه في عالمية رسالته لم ينكر لا المسيحية ولا اليهودية كرسالتين من عند الله.

فالإسلام، في المفهوم الديني، هو كل المسيرة الإيمانية بالله الواحد، بدءاً من إبراهيم حتى محمد مروراً بموسى وعيسى وإسحاق ويعقوب وسائر الأنبياء والمرسلين، عليهم الصلاة والسلام، وللعولمة الدينية في الإسلام إشارات واضحة في القرآن الكريم، مصدر التشريع الإسلامي، أورد ثلاثة منها:

تحمل الإشارة الأولى الآية الأولى من سورة النساء؛ تقول هذه الآية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ (النساء: ١)، إن في ذلك تأكيد المساواة بين كافة أجناس البشر، مهما اختلفت أعراقهم وألوانهم، ومهما تباينت أديانهم ومذاهبهم، فكل الناس، دون استثناء، مخلوقين من نفس واحدة.

وتتمثل الإشارة الثانية في الآية (٧٠) من سورة الإسراء، وفيها يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾، والتكريم الإلهي هنا هو لبني آدم، أي لكل الناس، بصرف النظر عن أي انتماء عرقي أو ديني حضاري أو قومي.

أما الإشارة الثالثة فتعكسها الآية (١٠٧) من سورة الأنبياء، في هذه الآية يخاطب الله عز وجل النبي محمد ﷺ بقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾، أي لكل الناس، في العالم كله، وليس للعرب بني قومك فقط.

من هنا فإن عالمية الإسلام، أي عالمية رسالته ودعوته تستمد أسسها من المساواة التامة بين الناس جميعهم في الخلق من نفس واحدة، ومن التكريم الإلهي لبني آدم، الذين أورثهم واستخلفهم فيها وفضّلهم على كثير ممن خلق، حتى على الملائكة.

غير أن الإسلام يتعرض في هذه المرحلة التاريخية إلى كثير من التشويه والإساءة. ولا يعود ذلك إلى أعداء الإسلام فحسب، والذين يقوم عداؤهم له على قاعدة الجهل به، ولكنه يعود أيضاً إلى الدور الذي تلعبه قلة صغيرة من أبنائه من خلال تقديم صورة سلبية عنه يجري تعميمها على أنها هي صورة الإسلام.

من هنا تبرز حاجة المجتمعات العالمية إلى التعرف إلى القواعد الأساس التي يقوم عليها الإسلام في صياغة دعوته الدينية، وفي تحديد علاقته وبلورة تعامله مع (الآخر) غير المسلم.

ومن هنا كان هذا البحث.

١- حرية الإنسان في الإسلام

عرفت الموسوعة الإسلامية الحرية بأنها: «القدرة على الاختيار بين الممكنات بما يحقق إنسانية الإنسان» [١].

وعرفتها الموسوعة العربية العالمية بأنها: «الحالة التي يستطيع فيها الأفراد أن يختاروا ويقرروا ويفعلوا بوحي من إرادتهم، دونما أية ضغوط من أي نوع عليهم» [٢].

هذا في التعريف العام للحرية، ولكن عندما يتعلق الأمر بالدين فإن الأمر يحتاج إلى تفصيل أوسع.

أن القرآن الكريم هو المصدر الأول للفكر وللتشريع الإسلاميين.

والقرآن الكريم يقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:٩٩).

والقرآن الكريم يقول أيضاً: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ﴾ (البقرة:٢٥٦)، والـ«لا» هنا ليست ناهية، بمعنى لا تكرهوا الناس على اعتناق الدين، ولكن نافية، بمعنى لا يكون إيمان ولا عقيدة ولا دين بالإكراه.

ويقول القرآن الكريم كذلك، على لسان النبي هود، عليه السلام، مخاطباً قومه الذين أرسله الله إليهم هادياً ومبشراً: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ (هود:٢٨).

(١) الموسوعة الإسلامية الميسرة (حلب: دار صحار، ١٩٩٧م).

(٢) الموسوعة العربية العالمية (الرياض: ١٩٩٦م).

تبين هـــذه الآيات الكريمة مدى تجذر الحرية في العقيدة الإســـلامية، فالـــدين ليس ما يدين به الإنسان في الظاهر على جهة الإكراه، إنما الدين هـــو المنعقـــد في القلب، لأن ما هو دين في الحقيقة هو من أفعال القلوب.. كما قال ابن الأنبـــاري «أما ما يكره عليه فليس بدين حقيقة»، كما أن من أكره على الكفر ليس بكافر.

مع ذلك لا بد من التساؤل:

هل هناك فرق بين الحرية الدينية وحرية الاعتقاد؟

وهل هناك فرق بين حرية الاعتقاد وحرية التفكير؟

ثم أين تنتهي المسؤوليات الدنيوية وأين تبدأ المسؤوليات الأخروية المترتبة عـــن ممارسة هذه الحريات؟ .. أين ينتهي الحق القانوني للفرد، وأين تبدأ مسؤوليته أمـــام الله، وليس أمام منظمة من هنا أو من هناك؟

في الأساس سوَّى الله النفس الإنسانية، وألهمها فجورها وتقواهـــا. وتـــرك الله للإنسان حرية الاختيار، بين الفجور والتقوى، على أن يتعـــرض للمســـاءلة يـــوم الحساب، ثواباً أو عقاباً. والذي يحاسب هو الله، والله لم يعط إنساناً حـــق محاســـبة الناس على إيمانهم أو على كفرهم.

إن الحكم بين الناس على ما هم فيه من اختلافات عقائدية، مهمـــة إلهيـــة لا إنسانية، ذلك أن الإنسان أياً كان موقعه من الاختلاف العقائـــدي هـــو طـــرف، والطرف لا يكون حَكَماً، إن الحكم إلا لله، ثم إن أي طرف يمنح نفسه حق النيابـــة عن الله وإصدار الأحكام باسمه يحول صيغة الاختلاف من اخـــتلاف علـــى الله إلى خلاف مع الله. فالله أجل وأكبر وأعظم من أن يعطي وكالة لأي إنسان أن يتحدث باسمه (باستثناء الأنبياء والرسل طبعاً).

في الأساس أن الحرية هي عطاء من الله للإنسان، وما أعطاه الله لا يحجبه إنسان، ثم إن المبدأ الذي شاءه الله وقدره لتنظيم الحياة الإنسانية هو مبدأ الحرية، مصحوباً بمبدأ المحاسبة، فانتزاع الحرية أو حجبها أو مصادرتها، مخالف للإرادة الإلهية، ومحاسبة الناس للناس على خياراتهم الحرة مخالف أيضاً للإرادة الإلهية، يقول القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾ (الحجرات:١٣).

وسأتناول موضوع التعارف بإسهاب فيما بعد، ولكن لا بد هنا من الإشارة إلى أن التعارف يكون بين المختلفين المتباينين في الرأي والأحكام. وما كان الاختلاف بين الناس إلا نتيجة لتعدد خياراتهم ورؤاهم؛ وما كان لهذا التعدد أن يكون من دون الحرية ومن دون حق ممارستها.

لم يقل القرآن الكريم: وجعلناكم شعوباً وقبائل لتتوحدوا في عقيدة واحدة أو تحت مظلة إيمان واحدة، قال: ﴿لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾، أي ليقبل بعضكم بعضاً على قاعدة على ما بينكم من اختلاف وتباين حر؛ فالمعرفة المتبادلة تقود إلى التفهم المتبادل، فالتفاهم المتبادل، فالاحترام المتبادل، ويوم الحساب يحكم الله بين الناس فيما هم فيه مختلفون، فالحكمة الإلهية كما حددتها الآيتان (١١٨-١١٩) من سورة هود: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ﴾.

وهذا يعني أن مشيئة الله هي أن لا يكون الناس أمة واحدة، بل أمماً وشعوباً؛ ويعني أيضاً أنه حتى لو كانوا أمة واحدة فسوف يظلون مختلفين، إلا من رحم ربك؛

ويعني كذلك أن الله خلقهم من أجل ذلك. أي من أجل أن يكونوا أمماً وشعوباً مختلفة ولكنها مدعوة إلى التعارف.

يقوم الاختلاف على أساس ما ورد في الآية (٦٧) من سورة الحج: ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾، وهو الأساس نفسه الذي تؤكده الآية (٤٨) من سورة المائدة: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾.

إن تعدد المناسك (الآية الأولى) وتعدد الشرائع والمناهج (الآية الثانية) لا بد أن يؤدي إلى تعدد صيغ الإيمان بالله الواحد، وبالتالي إلى تعدد الثقافات والمعتقدات والتقاليد والعادات.

ولأن الأساس في الإسلام هو الحرية، فقد حدد القرآن الكريم مهمة الرسل بما يتوافق مع تجنب الإكراه.. من عناوين هذه المهمة:

أولاً: الإنذار:

- ﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ ﴾ (إبراهيم:٤٤).
- ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ﴾ (الشعراء:٢١٤).
- ﴿ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ ﴾ (نوح:١).
- ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ (المدثر:٢).
- ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ (الأنعام:٤٨).
- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (البقرة:١١٩).

ثانياً: التذكرة:

- ﴿ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ (المزمل:١٩).
- ﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾ (لاحظ عبارة من شاء في الآيتين الكريمتين) (المدثر:٥٤-٥٥).

ثالثاً: التبليغ:

- ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (المائدة:٩٢).
- ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ (آل عمران:٢٠).
- ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ (المائدة:٩٩).
- ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ (الرعد:٤٠).

رابعاً: التبشير:

- ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ ﴾ (البقرة:٢٥).
- ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ (الأحزاب:٤٧).

خامساً: التذكير:

- ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الذاريات:٥٥).
- ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (ق:٤٥).
- ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ (الغاشية:٢١).

في ضوء هذه الوظائف للرسل يبدو واضحاً مدى نبذ الإسلام للإكراه في الدين، واحترامه لحرية الاختيار عند الإنسان.

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ (يونس:١٠٨)؛ ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ (الزمر:٤١)؛ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ (النجم:٣٠).

إن جزاء الهداية يعود إلى المهتدي، وعاقبة الضلال تعود إلى الضال، وكل منهما مسؤول لاختياره الحر، للهدى أو للضلال، وبالتالي يتحمل مسؤولية هذا الاختيار أمام الله يوم القيامة.

انطلاقاً من مبدأ الحرية، الذي أكد عليها القرآن الكريم، تقوم القاعدتان الأساسيتان في الثقافة الإسلامية. والقاعدتان هما: التعارف والحوار، ويتطلب العمل بهاتين القاعدتين - كما سنفصل ذلك فيما بعد – وجود (آخر) مختلف، إثنياً وثقافياً ودينياً ومذهبياً، كما يتطلب الاعتراف بهذا (الآخر) واحترامه وتقبل المختلَف معه، وليست الحرية التي منحها الله للإنسان سوى مظهر من مظاهر الكرامة التي خصه الله بها.

٢- الكرامة الإنسانية

تعلمنا الأدبيات الدينية أنه في البدء كانت للإنسان حياة في الجنة، تتسم بالنعيم المقيم. وبعد الوقوع في الغواية وارتكاب فعل المعصية ثم التوبة، أصبحت للإنسان حياة في الدنيا تقوم على قواعد يمكن استخلاصها من القرآن الكريم على النحو التالي:

أولاً: إن الإنسان لا يؤثم على ذنب لم يقترفه، وبالتالي فإنه لا يولد مذنباً بل يولد على الفطرة، أي أنه يخلق مبرمجاً للبحث عن الله والإيمان به: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ﴾ (الأنعام:١٦٤)؛ ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ﴾ (الإسراء:١٥).

ثانياً: إن الإنسان هو خليفة الله على الأرض؛ وخلافة الله مهمة تعكس أعلى مراتب التكريم الإلهي للإنسان: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٣٠).

ثالثاً: لأن الإنسان هو خليفة الله، فقد سخر الله له ﴿مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (لقمان:٢٠)؛ ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم:٣٢-٣٤).

هذا يعني أن الله خلق قوانين الطبيعة لتكون مسخرة للإنسان ليقوم بمهمة خلافة الله في إعمارها: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود:٦١) ذلك أن من مقومات خلافة الله عمارة الكون وبنائه خدمة للإنسان وليس إفساده وتدميره.

رابعاً: إن خلافة الله أمانة، أي أن خلافة الله في الناس (الحكم) أمانة، خلافة الله في الطبيعة (البيئة) أمانة، والأمانة مسؤولية كبرى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب:٧٢).

خامساً: إن الله خلق الإنسان بحيث يقدر على استجلاء وعلى استيعاب علوم الدنيا كلها: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة:٣١)، ولذلك حث الله الإنسان على أن يتفكر في خلقه وفي نفسه وفي الكون من حوله، حتى يدرك أن سقف العلم مرتفع، وأن آفاقه واسعة، وأنه مهما اكتشف الإنسان من معادلات المعرفة فثمة مزيد يجب أن يعمل عقله وفكره على اكتشافه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء:٨٥)، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (يوسف:٧٦)

سادساً: خلق الله الإنسان ﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين:٤) وصوره في أحسن صوره (التغابن:٣)، من الخلية الحية بما تحمله من مورثات ووظائف، إلى العقل المفكر وما يستطيع أن يصل إليه من آفاق المعرفة والقدرة على الإبداع والاستدلال: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم﴾ (الإسراء:٧٠).

إن تكريم الله للإنسان في الإسلام هو تكريم لذاته الإنسانية وتكريم لدوره (خلافة الله): ولقد فضل الله الإنسان ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾، فضله

حتى على الملائكة الذين لا عمل لهم سوى عبادة الله، والذين خلقهم من نار وخلقه من طين، وذلك عندما أمرهم بالسجود لآدم الإنسان، وبرزت مقومات التفضيل التكريمي من خلال المعرفة التي شاء الله أن يودع منها عقل الإنسان ما لم يشأ أن يودعه عقل الملائكة: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (البقرة:٣١-٣٣).

أودع الله في الإنسان بعض مفاتيح المعرفة، وهي في ذاتها تشكل نصيباً من صفات إلهية من دونها لا يستطيع الإنسان أن يقوم بمهمة خلافة الله. من هذه المفاتيح/الصفات أن يكون الإنسان رقيباً على نفسه، ممسكاً بناصيتها، قيماً عليها على النحو الذي شرحه أبو حامد الغزالي (توفي ١١١١م) في كتابه «إحياء علوم الدين»، وأن يكون قاضياً على أعماله وعلى نواياه، على قاعدة قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**»، وعلى قاعدة قوله عز وجل ﴿ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ (طه:٧).

كثيرة جداً هي المخاطبات الألهية في القرآن الكريم لقوم يعقلون، لقوم يعلمون، لقوم يتفكرون:

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (الروم:٨).

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ (الطارق:٤).

﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ ﴾ (يونس:١٠١).

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ (الحج:٤٦).

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ ﴾ (الأعراف:١٨٥).

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (الغاشية:١٧-٢٠).

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (آل عمران:٧).

عندما يسخّر الله للإنسان ﴿ مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ (لقمان:٢٠)، فإن معنى ذلك أن الإنسان أهم من الطبيعة، أي أن الإنسان أعظم (مثلاً) من الشمس التي ذهب في تعظيمه لها إلى حد العبادة، وأعظم من القمر ومن النار ومن الرياح وغيرها من الظواهر الآفلة.. وعندما يجعل الله علاقة الإنسان به علاقة مباشرة، وعندما يجعل حسابه، ثواباً وعقاباً، مهمة إلهية فقط، وعندما يحمل الله الإنسان تبعات خياراته وأعماله في الدنيا وينصبه حكماً على نفسه وقاضياً على نواياه، فإنه بذلك يرفع من قدره ويكرمه ويصطفيه على كثير ممن خلق.

هذه الصفات تجرد الإنسان عن التبعية العمياء، وتسمو به إلى الطاعة المطلقة لله من خلال العقل والعلم والفكر: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر:٩)، ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ (فاطر:٢٨).

وزيادة في تكريم الذات الإنسانية فإن الإيمان بالله في الإسلام لا يكون وراثياً من بطن أم مثلاً، ولا يكون إجرائياً بطقوس رمزية، ولكنه يكون بفعل إرادة فردية: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (الكهف:٢٩)

والإيمان لا يكون بالإكراه: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ (البقرة:٢٥٦)، والـ«لا» هنا - كما أسلفنا - ليست ناهية، أي لا تكرهوا الناس حتى يؤمنوا، ولكنها نافية، بمعنى لا يكون إيمان بالإكراه.

إن الذاتية الإنسانية تتبلور في «الأنا» من خلال صياغة الركن الأول في الإسلام، فعبارة «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»، تعني: أنا الإنسان أقرر أنني أؤمن وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فالإيمان هنا ليس إرثاً ولا منة ولا فرضاً، الإيمان هداية من الله ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ (النور:٣٥)، وهي هداية تضيء العقل الإنساني وتفتحه على معرفة الله والإيمان به.

ولقد ذهب الإسلام في احترام الإنسان وفي احترام وكالته عن نفسه أمام الله، تأكيداً لكرامته الإنسانية، إلى حد إلغاء أي وساطة بين الله والإنسان، فلا سلطة لأي مرجعية على إيمان الفرد سوى سلطته على نفسه في الدنيا وسلطة الله في الآخرة، ثواباً أو عقاباً: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١١٧ وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ (المؤمنون:١١٧-١١٨)، ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ (الكهف:٢٩).

لعبت القومية ولا تزال تلعب دوراً أساسياً في تفتيت الإمبراطوريات أو الدول ذات التكوين الإمبراطوري، وعندما طرح الرئيس الأمريكي الأسبق «وودرو ولسون» في فرساي مبدأ الحكم الذاتي تنبأ وزير خارجيته «روبرت لانسينغ» أن «هذا المبدأ محشو بالديناميت؛ لأنه يثير آمالاً غير قابلة للتحقيق». وذكر الوزير «لانسنيغ» في مذكراته الشخصية: «أنني أخشى أن يكلف الحكم الذاتي الآلاف من الضحايا».

وبالفعل فإن مئات الآلاف من الضحايا سقطوا في أوروبة وحدها تحت مظلة الحكم الذاتي، من أيرلندة في الغرب حتى الشيشان في الشرق، مروراً بالبوسنة - الهرسك، وكوسوفو، وكذلك في الباسك الأسباني وكورسيكا الفرنسية.

في الاتحاد السوفيتي السابق، كما في الاتحاد اليوغسلافي السابق، لم تكن الحرية بما تعنيه من احترام واعتراف (بالآخر)، هي الخيط الجامع، كانت مركزية السلطة المطلقة بما تمارسه من قهر وقمع، القوة التي تفرض على (الآخر) الخضوع والإذعان، إلا أنه ما أن ارتفعت هذه اليد حتى خرجت إلى الحياة جماعات قومية هنا وهناك، كما تخرج الزهرة من شقٍ في صخر صلد.

في عام ١٩١٦م رسم موظفان إنكليزي وفرنسي هما «سايكس» و«بيكو» الحدود السياسية لمعظم الدول العربية. كذلك فإن الحدود القائمة حتى اليوم بين معظم دول آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية تمثل إرث القوى الاستعمارية وحدود صراعاتها على النفوذ.

فكما أن الحدود السياسية الحالية لا تراعي التطلعات القومية للشعوب العربية، كذلك، فإن الحدود القائمة في العالم الثالث لا تحترم التشكيلات العنصرية والانتماءات القبلية والاعتقادات الدينية لشعوبها المتعددة.

إن أي خلل يؤدي إلى سوء التعامل مع أي أقلية في أي من هذه الدول يفتح ثغرة في جدار السد الوطني سرعان ما تتسع لتعرض السد كله للتصدع والانهيار، كما حدث في أنغولا ورواندة والصومال والكونغو وفي غيرها من الدول الإفريقية، ولعل ما حدث في شرق تيمور، وما حدث في جزر الملوك بأندونيسيا، ثم ما حدث ويحدث في كشمير بالهند، يشير إلى أن عدم احترام خصوصيات الجماعات وذاتياتها

يؤدي إلى تحول حركة التطلع المشروع لممارسة حق التميز الذاتي إلى حركة المطالبة المشروعة بممارسة حق الاستقلال الذاتي.

من ميثاق عصبة الأمم، إلى ميثاق الأمم المتحدة، وشرعة حقوق الإنسان إلى شرعة حقوق الأقليات، فإلى إقامة محكمة دولية دائمة لمحاكمة مجرمي الحرب؛ إن هذه المواثيق والعهود كلها تقفز من فوق الكيانات السياسية للدول، وتتجاوز المبادئ التقليدية للاستقلالات الوطنية لتجعل من انتهاك الخصائص الدينية أو الثقافية لأي جماعة في أي دولة انتهاكاً للقانون الدولي تترتب عليه عواقب وعقوبات دولية.

إن حدوث انتهاكات لحقوق أقليات في مناطق متعددة من العالم، يوجب العمل على وضع حد لها، ليس فقط ضناً بالشعوب وبالدول المعنية بها مباشرة، إنما حرصاً على سلامة وأمن واستقرار الدول والمجتمعات الأخرى التي تتأثر بالانعكاسات السلبية لهذه الانتهاكات والتي قد تتعرض وحدتها الوطنية وصيغ عيشها الوطني بسبب ذلك للتصدع.

لم يعد مفهوم الحرية كما كان في القديم، مجرد التحرر من القهر أو من الضغوط، إن المفهوم الجديد للحرية هو تحقيق الذات؛ ذلك أن كل إنسان يريد أن يكون نفسه، أي أنه يريد أن يتحرر من كل ما من شأنه أن يحول دون أن يكون ما يريد، والأمر نفسه ينطبق على الجماعة.

من أجل ذلك فإن الحرية تتجاوز في مفهومها التعريف أو التعاريف القديمة، وأصبح لها مفهوم أكثر تعقيداً وأشد طموحاً. ولكن ما هي القيم التي تحدد مقاييس تحقيق الذات الإنسانية أو الذات المجتمعية؟ ومن هي الجهة المؤهلة لتحديد هذه القيم؟.. وبالتالي للحكم على ما إذا كانت موضع احترام أو تجاوز؟

من المعروف أن الغرب حريص على تصدير قيمه وعلى تدويلها، بحيث تصبح نموذجاً تُعطي علامات النجاح أو الفشل للشعوب الأخرى في ضوء اقترابها أو ابتعادها عن هذا النموذج من القيم.

ومن المعروف أيضاً أن هذا السلوك الغربي يستقوي بما يمتلكه من نفوذ معنوي ومن سيطرة على وسائل الاتصال والتواصل عبر شبكات التلفزة والإنترنت وعلى أدوات المعلوماتية الحديثة الأخرى.

ومن المعروف كذلك أن ثمة مجتمعات عديدة أخرى تمتنع عن الذوبان طوعاً أو كرهاً في المنظومة القيمية للغرب، وتحرص على التمسك بقيمها وبتراثها القومي. ومن شأن ذلك كله أن يدفع الفريقين إلى صراع قيمي تستخدم فيه أسلحة التشهير والتشويه على نطاق واسع ودون مراعاة للحرمات.

من هذه الحرمات التي لا تُراعى: وحدة النسيج الوطني للعديد من شعوب العالم المستعصية على الذوبان. من هنا تبرز جدلية العلاقة بين أهمية المحافظة على وحدة النسيج الوطني من جهة وضرورة توفير الحرية للخيوط المتعددة التي يتشكل منها من جهة ثانية. فالتحريض الخارجي لا ينجح إلا إذا توفرت له ثلاثة شروط أساسية:

أولاً: الأرضية المبررة للتدخل من الخارج، نتيجة تغييب الحرية في الداخل.

ثانياً: طرح مبادئ وقيم ومفاهيم جذابة تعكس توق الجماعات المغلوبة على أمرها في تحقيق ذاتها.

ثالثاً: التجاوب مع التدخل الخارجي أملاً في الخروج من حالة الاختناق الداخلي.

لذلك، إذا كان التدخل الخارجي عملاً سيئاً ببعديه التحريضي والاستغلالي، فإن التقصير الداخلي في إشاعة الحرية وصيانتها لا يقل سوءاً، بل إنه بالتأكيد أشد سوءاً.

لقد اجتازت الإنسانية مسافة طويلة حتى وصلت إلى المفهوم الحديث للحرية. فالحرية في مطلع القرن كانت حكراً على طبقة معينة من الناس. كانت أربع ولايات أمريكية فقط (هي يوتا وأيداهو وكولورادو ويومنغ) تعترف بحق الاقتراع للمرأة. كان على الأمريكيين أن يكافحوا حتى عام ١٩٢٠م لإقرار المادة (١٩) من الدستور التي تعطي المرأة حق الاقتراع. وكان عليهم أن يكافحوا حتى عام ١٩٦٥م لإقرار قانون الانتخاب الذي يساوي بين السود والبيض.

ليس كل تدخل خارجي، دفاعاً عن حقوق الإنسان والجماعات، مرفوضاً؛ لأنه ربما يشك في أنه يعمل على ضرب الوحدة الوطنية لأمة أو لشعب من الشعوب؛ وإلا تصبح كل استغاثة أو طلب استعانة انطلاقاً من معاناة داخلية، محكوماً عليها بالخيانة لأنها تستقوي بالخارج الأجنبي على الداخل الوطني. والصحيح أنه لا أنين من غير ألم ، ولا شكوى من غير معاناة، وبالتالي ليس كل استنجاد بالضرورة خيانة. وليست كل نجدة بالضرورة تدخلاً، إلا أن الصحيح كذلك أن التدخل الخارجي يزيد بالتأكيد الوضع الداخلي تعقيداً وسوءاً، لأنه يقوم على الفصل بين الجماعات وليس على الوصل بينها. فهو يستسهل أبغض الحلال متجاوزاً إمكانات التوفيق وترميم جسور أخوة العيش والمواطنة. هذا إذا استبعدنا سوء النية، وفي عدم استبعادها نصف الطريق إلى الحقيقة.

يقوم التشريع الإسلامي، كما هو معروف، على القرآن الكريم أساساً، وعلى السنة النبوية الشريفة، وعلى المعقول الموافق لروح المنقول، بالإجماع والقياس والاستصحاب والاستصلاح والاستحسان.. أكدت الشريعة على أمور عديدة تصون الكرامة الإنسانية، ومن أبرز هذه الأمور المساواة بين الناس، وحماية حق

الحياة: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ (الأنعام: ١٥١)، وحماية البشرية: ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (المائدة: ٣٢).. وقبل ألف عام من إعلان جان جاك روسو «إن الإنسان يولد حراً» قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في رسالة لعمرو بن العاص، رضي الله عنه، عبارته الشهيرة: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً».

والاجتهاد الفقهي هو في ذاته معلم من أبرز معالم احترام الكرامة الإنسانية في ممارسة حرية الفكر والرأي والبحث عن الحقيقة. لقد دعا النبي عليه السلام إلى الاجتهاد على قاعدة: «اجتهدوا فكل ميسر لما خلق له»[1] وهي قاعدة عامة مفتوحة لكل مجتمع في كل وقت. ولذلك رفض الإمام مالك، رحمه الله، العمل باقتراح هارون الرشيد بفرض مذهبه على الناس، وبرر الإمام مالك رفضه بحرصه على عدم تقييد حرية الاجتهاد، وقصة الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في قضية المهور معروفة عندما تراجع، وهو الخليفة العادل، عن اجتهاد خاطئ له مردداً بأعلى صوت: «أصابت امرأة وأخطأ عمر».

ولقد بلغ احترام الحرية الإنسانية في الإسلام حد الاعتراف بشرعية الاختلاف في تفسير آيات القرآن الكريم نفسه، والاختلاف هنا ليس كامناً في النص المقدس، بل إنه اختلاف إنساني على الفهم غير المقدس للنص. إنه اختلاف بين المفسرين والمجتهدين حول إشراقات أكثر من معنى في عقول مختلفة حول نص واحد. إنه اختلاف بين آراء وليس اختلافاً مع النص. ومن هنا نشأت المذاهب والمدارس الدينية

(١) أخرج البخاري عنْ عليٍّ، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ».

المتعددة التي تشكل ظاهرة صحة وعافية في مجتمع يحترم عقل الإنسان وكرامته وحقه في استنباط الأحكام ضمن الأطر العلمية والدينية الرصينة.

لم يفرض الإسلام نفسه و لم يشق طريقة إلى القلوب والعقول بالخوارق من الأعمال. فالرسول محمد، عليه السلام، لم يقم بمعجزات من نوع شفاء المرضى وإحياء الموتى بإذن الله، أو بتحويل العصا إلى حية تسعى بإذن الله، أو بمخاطبة الحيوان أو سوى ذلك مما يفوق قدرة البشر الطبيعية.. والإعجاز الوحيد الذي جاء به محمد، عليه السلام، هو القرآن الكريم من حيث إنه نص إلهي يحمل في المحدود من كلماته وأحرفه، اللامتناهي من المعاني، التي يمكن استخلاصها لتتناسب مع طبيعة التطور الإنساني في كل زمان ومكان.

خاطب الإسلام العقل الإنساني احتراماً، واعتمد على المنطق وعلى مقارعة الحجة لتسفيه عقيدة الشرك، ولتحرير الإنسان من عبادة الأوثان احتراماً له أيضاً وإقناعه بعبادة الله الواحد الأحد، و لم يحمل السيف داعياً، بل مدافعاً عن النفس وعن العقيدة.

من خلال ذلك يجدر التوقف أمام أمر أساسي هو أن التكريم الإلهي للإنسان الوارد في القرآن الكريم هو تكريم بالمطلق، سواء كان الإنسان مؤمناً بالله أو كافراً به، سواء كان مسلماً لله أو جاحداً له. وبالتالي فإن التكريم ليس وقفاً على فئة دون أخرى من الناس، فالكرامة الإنسانية المستمدة من إرادة الله وفضله كرامة تشمل الناس جميعهم، أياً يكن جنسهم أو لونهم أو لغتهم، وبصرف النظر عن معتقداتهم، فالله ليس رب اليهود وحدهم، أو رب النصارى وحدهم، أو رب المسلمين وحدهم. إنه رب العالمين.

خاتمة

في شهر مايو/ أيار ٢٠٠٣م، نظم المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في جمهورية مصر العربية مؤتمراً تحت عنوان: «مستقبل الأمة الإسلامية» يعكس هذا العنوان في حد ذاته شعوراً بالقلق على مستقبل الأمة الإسلامية؛ كما يعكس الحاجة إلى نفض الغبار المتراكم على الفكر الإسلامي وتجديده انطلاقاً من الثوابت الإيمانية، التي تنص عليها الشريعة الإسلامية في القرآن الكريم، وفي الحديث النبوي الشريف.

ولقد أخذ المؤتمر بالمعطيات المهمة الآتية:

أولاً: أن طريق الإصلاح يبدأ بالتعرف على الأخطاء والعيوب عن طريق النقد الذاتي والمراجعة الدائمة للسلبيات.

ثانياً: التمسك بالثقافة الإسلامية التي تدعو إلى الحوار المسؤول والمتكافئ، وبالتعايش مع (الآخر) في ظل مبادئ القانون الدولي وتبادل المصالح المشتركة.

ثالثاً: العمل بمبادئ العدالة والإخاء والتعاون على البر والتقوى وسيادة الشورى بصيغها الحديثة والمتطورة في العالم الإسلامي، على جميع المستويات، ومشاركة الشعوب الإسلامية في الدفاع عن ثرواتها ومكافحة التخلف بكل أشكاله.

رابعاً: ضرورة العمل على مواجهة المفاهيم المتزمتة التي تحصر الإسلام في طقوس العبادات فقط وتروج للتواكل والأفعال السلبية التي تحول دون التقدم والرقي واكتساب وسائل القوة والمنعة.

خامساً: أهمية العمل للتغلب على الخلافات التي تضعف الأمة الإسلامية وتضر بمصالحها.

سادساً: ضرورة التزام أفراد الأمة بقيم الإسلام الدافعة لتقدم المجتمع، بما فيها الوعي بقيمة الوقت والعمل الجاد والارتباط المتين بين العلم والعمل والقول والفعل.

سابعاً: أهمية الوعي بالمتغيرات الدولية والأوضاع الجديدة التي طرأت على العالم المعاصر، وتأثيرها على الأمة الإسلامية.

ثامناً: الوعي بأن تعمير الأرض والنهوض بمستوى الشعوب الإسلامية، يعتبر فريضة إسلامية وتكليفاً إلهياً لا يقل شأناً عن بقية التكاليف الأخرى.

تاسعاً: التأكيد على أن الدفاع عن الأمة الإسلامية يتطلب الاهتمام بالعلوم التطبيقية وسائر المعارف الضرورية لإنشاء القوة الاقتصادية والعسكرية مع التمسك بالقيم الإسلامية العليا الداعية إلى العدل، وتغيير ما بالأنفس، وإعداد القوة على جميع الأصعدة.

عاشراً: لن تتحقق للإرادة الإسلامية القوة والمنعة إلا إذا كان للمسلمين تجمع اقتصادي قوي قادر على المنافسة عالمياً.

وتبع ذلك مؤتمر القمة الإسلامي الذي عقد في ماليزيا في شهر أكتوبر /تشرين أول ٢٠٠٣م؛ وقد عكس هذا المؤتمر أيضاً قلق العالم الإسلامي من واقعه الذي يبدو فيه كـ«القصعة» التي يتهافت عليها الناهشون.. ويبدو فيه المسلمون غثاء كغثاء السيل.. وانطلاقاً من هذا القلق قرر المؤتمر التحرك ثقافياً وإعلامياً لتصحيح الصور السلبية النمطية عن الإسلام والمسلمين، وهي مهمة لا تكتسب صدقيتها في العالم الخارجي ما لم تثبت أقدامها في العالم الإسلامي أولاً.

من هنا أهمية ممارسة النقد الذاتي، ومن ثم الانفتاح على العالم، على قاعدة الثوابت العامة التي تحدد علاقة المسلم مع (الآخر)، ومن هذه الثوابت ما حاولت هذه الدراسة أن تلقي عليها الضوء، وفي مقدمتها الحرية، والحوار، والوسطية، والاعتدال، والانفتاح على (الآخر) بحب واحترام، والتعارف بين الأمم والشعوب المتعددة الإثنيات والثقافات واللغات والأديان.

قبل أن تحيط بنا أخطاؤنا

الأستاذ عمر عبيد حسنه(*)

إن إشكالية الخطاب الكبيرة والخطيرة تتمثل في تجريم وتأثيم الفعل النقدي، الذي أدى إلى غياب النقد والتقويم والمراجعة والمناصحة والتجديد بسبب تلبس «خطاب المسلمين»، الذي هو في نهاية المطاف اجتهاد بشري قابل للخطأ والصواب محتاج للنقد والمراجعة والتقويم، بقيم الكتاب والسنة، «خطاب الإسلام».

أهمية الخطاب:

قد لا نكون بحاجة أن نتحدث عن أهمية الخطاب ودوره في تشكيل الأمة المسلمة، وتحريك رواكدها، وإثارة فاعليتها، وتغيير واقعها، وبناء حضارتها، وتصويب مسيرتها، وإنضاج عقلها، وحسن قراءة تراثها، وتجديد معالم حياتها، وصوغ مصطلحاتها، وإبصار مستقبلها، وتحقيق منعتها، وحمايتها من الذوبان والانقراض.

(*) مدير مركز البحوث والدراسات.. (قطر).

ذلك أن استقراء ظروف وشروط ميلاد الأمة المسلمة يؤكد أن الخطاب (القرآن)، كان وراء إخراجها خير أمة للناس؛ هو الوسيلة الأساس في معاودة إخراج الأمة وتحقيق شهودها الحضاري، استجابة لقوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة:١٤٣)، وحسبنا هنا أن نشير إلى أن الأمة المسلمة تشكلت من خلال «خطاب»، وبدأ وحيها بكلمات «كتاب»، وامتدت ثقافتها وحضارتها من خلال «كتاب»، وجاءت معجزتها الخالدة متمثلة في «كتاب» (القرآن)، وتحققت عصمتها وعدم اجتماعها على ضلالة، بالتزام قيم «الكتاب»، يقول تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ (آل عمران:١٠٣) ، ويقول الرسول ﷺ: « **إنَّ أُمَّتِي لا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلالَةٍ**»[1].

وكان «الكتاب» ولا يزال من أهم أدوات جهاد الأمة ومحل اجتهادها، بل إن قيمه هي دليل هدايتها سبيل السلام، ومحور فعلها وإنتاجها الثقافي والمعرفي في شعب المعرفة جميعاً، يقول تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ (الفرقان:٥٢)، ويقول: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (ق:٤٥)، حتى أننا نعتقد أن الجراحات والإصابات المادية، مهما كانت بليغة وقاسية، فسوف لا تنال من إمكان الأمة على النهوض، طالما أن قيمها في القرآن موجودة، وأن خطابها سليم محفوظ، ولا أدل على ذلك من قوله تعالى، بعد أن ذكر قصة أصحاب الأخدود بكل فظائعها وضرب المثل بفرعون كأنموذج متصاعد للظلم والطغيان والتأله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ (البروج:٢١-٢٢)، وما ورد في أعقاب هزيمة أحد بكل قساوتها وجراحاتها: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران:١٣٩)، فكان الإيمان والاستمساك بالقرآن وقاية وحماية من الوهن الحضاري، وسبيل معاودة النهوض، والتبصير بوسائل النهوض أيضاً.

---

(١) أخرجه ابن ماجه.

ولقد أدرك الكفار أهمية الخطاب (القرآن) وخطورته ودوره في التأثير والتغيير، فما كان منهم إلا الشغب عليه وبذل الجهد للحيلولة دون وصوله أو إيصاله، حيث حكى الله قولتهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت:٢٦) والفرار من سماعه، حتى شبه القرآن حالهم بحُمر مستنفرة فرَّت من قسورة.

وفي ضوء ذلك، فقد لا يكون مستغرباً أن تتمثل مهمة النبوة وفعلها ورسالتها بالبلاغ، قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (العنكبوت:١٨)، واعتبار البلاغ «الخطاب» سبيل النهوض والارتقاء والحماية والفلاح، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ...﴾ (الجن:٢٢-٢٣)، ويقول الرسول ﷺ: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا»[1].

دلالة المصطلح:

وقد يكون من المفيد، بين يدي البحث، الإشارة إلى أهمية تحديد مفهوم أو دلالة بعض المصطلحات، لعل ذلك يساعد في تجلية الحقيقة، وإزالة اللبس، ويساعد على تحقيق المعنى المطلوب، فيما نعتقد؛ ذلك أن المصطلحات، بشكل عام، تمثل المفاهيم الأساس لثقافة الأمة، والنوافذ الصحيحة لمعارفها، فهي بالنسبة للثقافة كالمعاجم بالنسبة للغة؛ كما تمثل حالة النضج الفكري والعلمي؛ ولعلها تعتبر من جوامع الكلم؛ كما أنها تمثل بدلالاتها المحددات الأساس لنطاق الفهم وتحديد المعنى المراد، حيث إن الدلالة المحكمة للمصطلح يمكن أن تعتبر المعيار والحكم الفاصل عند التباس المعاني واختلاط التعابير وتضارب وتناقض محاولات التفسير والبيان.

---

(١) أخرجه الترمذي، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

هذه الأهمية للمصطلح، لا تعني بحال أن المصطلحات تشكل آصاراً وأغلالاً على العقل تحول دون طلاقته وإبداعه وارتقائه، بل لعل المصطلحات، بتحديدها الدقيق، تمثل الدرجات النضيجة والأرضية الثابتة لترقي العقل، كما تمثل من جانب آخر مساحات واسعة للتفاهم والتفاعل وبناء المشترك الإنساني، فتساهم بإيصال الحوار إلى تحقيق غاياته، بما يمتلك المصطلح من الحكمة والدقة وفصل الخطاب، بدل أن يتحول الحوار والنقاش ليصبح أقرب لحوار الطرشان وسبيل التضليل الثقافي.. فالمصطلح، بشكل عام، هو دليل الفهم، ونافذة المعرفة الصحيحة، وسبيل الوضوح وعدم الالتباس، كما أسلفنا.

وقد يكون المصطلح معلماً معرفياً عاماً، شأن المصطلحات الثقافية، وقد يكون خاصاً، سواء في ذلك مصطلحات العلوم، حيث لكل علم مصطلحاته، أو الأفراد، حيث يكون لكل باحث أو مفكر مصطلحاته ومفرداته الخاصة به، التي تشكل مكونات أسلوبه ومفاتيح فهمه وعدم تقويله ما لم يقل، أو تحميل كلامه ما لم يُرِده أو يهدف إليه.

لذلك فقد يكون من الأمور اللافتة حقاً أن الكثير من الباحثين والمفكرين والعلماء، من أبناء الحضارة المتقدمة اليوم، تتصدر مؤلفاتهم وبحوثهم قائمة بالمصطلحات الواردة ومدلولاتها، من وجهة نظرهم واستعمالهم لها، ليكون القارئ على بينة مما أراد الباحث، وهذه بدون شك سمة حضارية متقدمة تُحسب لأهلها؛ لأن الكثير من الإصابات الفكرية والثقافية قد تكون بسبب غياب نضج المصطلح وعدم وضوحه، أو عدم تقدير قيمته وأهميته العلمية والفكرية في بناء المحددات الذهنية والمعالم الفكرية والتداول المعرفي.. فالمصطلح مؤشر حضاري، وقيمة ثقافية، أشبه بالعملة الجيدة المتداولة في السوق المالية.

وهذا المؤشر على النضج الثقافي يمكن أن نبصره في ميراثنا العلمي أو الثقافي في عهود التألق والنهوض والازدهار وما تولد عنها من مصطلحات في شتى ضروب المعرفة، العلمية والفكرية، حتى أصبح لكل فنّ مصطلحاته، التي تعتبر مفاتيح الفن ووسيلة إدراكه، وأكثر من ذلك أيضاً فلقد أُلّفت كتب ومعاجم خاصة ببيان دلالة المصطلحات لكل علم وفن.

«خطاب الإسلام» و«خطاب المسلمين»:

وقد يكون من المفيد أن نتوقف عند مفهوم أو دلالة، وما نقصده، من مصطلحات: «خطاب الإسلام»؛ «الخطاب الإسلامي»؛ و«خطاب المسلمين».

فمصطلح «خطاب الإسلام» ينصرف ابتداءً - فيما نرى - إلى خطاب الوحي؛ بكل ألفاظه وظروفه وأحواله ومجالاته ومضامينه التي يعرض لها؛ هو «الخطاب»، المعصوم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

أما ما وراء ذلك من الإنتاج الفكري والفقهي والعلمي، والتعبير عن سائر الفهوم والجوانب المعرفية، فهو يمثل «خطاب المسلمين» واجتهادهم وفهومهم في التعامل مع «خطاب الإسلام» في الكتاب والسنة والسيرة، ومحاولاتهم تنزيله على واقع الحياة في كل زمان ومكان، وهو بطبيعة مصدره (الإنسان) محل الخطأ والنسيان.

لذلك نرى أو نقترح أن يكون مصطلح «خطاب الإسلام» دالاً على معرفة الوحي في الكتاب والسنة والسيرة الصحيحة.. وهذا المصطلح أو هذا «الخطاب» له سماته ومواصفاته وخصائصه، من حيث مصدر التلقي، ومن حيث منهج النقل، ومن حيث العصمة والصحة، ومن حيث الخاتمية والخلود، وبذلك يفترق في دلالته ومفهومه حتى عما يسمى «بالخطاب الإسلامي» - أو «خطاب المسلمين» - إذا اعتبرنا أن كلمة «إسلامي» لا تعني الإسلام وإنما تعني نسبة «الخطاب» البشري إلى القيم الإسلامية وانطلاقه منها، وبذلك يختلف في صفاته وخصائصه ومواصفاته عن «خطاب الإسلام» – كما أسلفنا- حيث إنه خطاب يأتي ثمرة لاجتهاد بشري يجري عليه الخطأ والصواب، وهو بطبيعته قابل للمراجعة، والمناقشة، والتقويم، والاختبار، والتعديل، والإلغاء.

«فالخطاب الإسلامي» بهذه النسبة هو المنتج البشري الاجتهادي المرتكز إلى قيم الإسلام، أو إلى «خطاب الإسلام».

وخشية التباس «الخطاب الإسلامي»، باعتباره منتجاً بشرياً، «بخطاب الإسلام» كوحي إلهي، نقترح أن يكون البديل له «خطاب المسلمين»، حيث الدلالة أبين، وإزالة اللبس أوضح، الأمر الذي يدفع إلى ديمومة النظر والاجتهاد والتجديد والتقويم بعيداً عما يمكن أن يُتوهم من قداسة وحواجز نفسية وخلط بين قول الشارع واجتهاد الشارح.

ولذلك رجحنا استخدام مصطلح «خطاب المسلمين» على استخدام مصطلح «الخطاب الإسلامي».

ويبقى لهذا الترجيح والتحديد والتمييز بين «خطاب الإسلام» و«خطاب المسلمين»، الذي رجحناه، أهميته - في تقديرنا- فهو يساهم في تفكيك الكثير من صور الالتباس والتلبس، وفي مقدمتها أهمية نزع صفة القدسية والعصمة عن «خطاب المسلمين»، بكل أبعاده، بحيث يجعله محلاً للمدارسة والمراجعة والتقويم والنقد وإعادة النظر والمعايرة بقيم الكتاب والسنة، ويبطل ما يمكن أن يحدث من صور دينية مشوهة من الكهانات البشرية، كما أنه يميز بين الذات والقيمة، ويؤصل لروح النقد والحوار والمراجعة والتصويب والتجديد والإلغاء والتعديل والعدول عن الاجتهاد إلى اجتهاد آخر، حسب تطور الظروف واختلاف المشكلات والفوارق الفردية ونمو الكسب المعرفي.. وليس ذلك فقط، وإنما يكون سبباً أيضاً في إطلاق الطاقات العقلية، وبروز الملكات الاجتهادية، ونزع حالة الإرعاب والإرهاب الفكري الديني والخوف من النظر والتفكير، وزرع حالة الأمن الفكري والثقافي وتنميتها ورعايتها.

ذلك أن «خطاب الإسلام» يمثل قيم الدين المعصومة، ومعاييره التقويمية لفعل البشر، وأن «خطاب المسلمين» يمثل صور التدين والفهم والإنتاج، الذي هو بطبيعته محل المعايرة والتقويم، لما يجري عليه من الخطأ والصواب، ومدى الملائمة للعصر الذي وضع له.. فالدين شيء والتدين شيء آخر.

وما لم تتضح هذه الحقيقة الشرعية والعقلية، التي تعيد للعقل قيمته ووظيفته وتطلقه من عقاله، وتكسبه الاطمئنان، وتشعره بالثواب على جهده واجتهاده، وتدفعه للاجتهاد دفعاً، فإن استمرار الالتباس سوف يتحول إلى مأساة ثقافية وفكرية وحضارية تنتهي إلى تكريس العجز والتخاذل والتخلف والجمود والتقليد وبروز الكهانات الدينية في الواقع الإسلامي، التي تتحول شيئاً فشيئاً إلى وثنيات لا تُمس، حيث تلتبس الذات بالقيمة، ويصبح التدين هو الدين، والشخص هو المقياس والمعيار، فتنعكس المعادلة، وتختل الموازين، وتتقهقر الأمة، فيُعرَف الحقُّ بالرجال بدل أن يعرف الرجال بالحق.

وسوف لا يشفع لذلك، أو يسوغه، الادعاء بأن هذه الاجتهادات البشرية، أو هذا الإنتاج البشري على مختلف الأصعدة، إنما ينهل من معين الكتاب والسنة ويرتكز إليهما، للاختلاف النوعي بينهما؛ ذلك أن ما توفر «لخطاب الإسلام» - (نص الوحي) في الكتاب والسنة - من الخصائص المتميزة، من حيث مصدر التلقي والخلود والخاتمية غير المحكوم بظرف الزمان والمكان، لأنه يتأتى من الخالق ويُتلقى من المعصوم، وما توفر له أيضاً من مناهج النقل والتلقي، لم يتوفر لاجتهادات البشر، إضافة إلى تعدد وجهات النظر البشري في الفهم والاجتهاد بل وتعارضها أيضاً، الأمر الذي لا يؤهلها لأن تكون معياراً وقيمة، بسبب من الفوارق الفردية وما تحمله تلك الفوارق بكل أبعادها، بالإضافة إلى أنها صادرة عن إنسان علمه محدود وعمره محدود ومعارفه نسبية محكومة بقيد الزمان والمكان، مهما كانت المقاربة مع النص، أو «خطاب الإسلام»، أو خطاب الوحي ذي المعرفة المطلقة.

من هنا نقول: بأن «خطاب المسلمين»، في صوره وحالاته المتعددة، هو بطبيعته محل للنقد والمراجعة والتقويم وإعادة النظر والتصويب، دون أن يرافق ذلك أي ارتياب أو خوف أو رعب من أن ذلك فسق أو عدوان على القيم الدينية، بل لعلنا نقول: إن ذلك يعتبر علامة صحة ثقافية ونضج حضاري، وسبيل ارتقاء وتجدد وتجديد وكسر لقيود الجمود والتقليد والاستنقاع الثقافي؛ هذا على المستوى الفكري والثقافي، أما على المستوى

الديني فهو حراك وجهد مأجور، بأجر تارة وأجرين أخرى، حسب العطاء وصحة المقاربة وسلامة التنـــزيل «لخطاب الإسلام»، في الكتاب والسنة، على الواقع.

لذلك فإن فقه المصطلح ومدلولاته تعتبر مفتاح هذا العمل الثقافي الضـــخم المتـــراكم والمتراكب والحيوي (الديناميكي)، ذلك أن النقد والتقويم والمراجعة والمعايرة بقيم الكتاب والسنة هو السبيل الوحيد لمحاصرة الخطأ وحصحصة الحق والتمكن مـــن تحقيـــق خلـــود «خطاب الإسلام» في الواقع ليأتي «خطاب المسلمين» في مستوى إسلامهم وعصرهم.

والمراجعة المقصودة هـــنا لا تعني الرجـــوع والنكوص عن قيم الدين وتوهينها بحـــال، أو الحط من قدر التدين والمتدينين، وإنما تعني الاجتهاد والتجديد والتصويب ونفي نوابـــت السوء وتحريك الرواكد وديمومة النظر، ليتحول الخطاب إلى المجال التنموي الإنتاجي الباني، بحيث ينخرط في قضايا الأمة والإنسانية، ويقدم الرؤى الرشيدة لحركة الحياة وقيام العمران.

وتشتد الحاجة إلى المراجعة والتقويم وإعادة النظر «لخطاب المسلمين» في شتى المجالات السياسية والتربوية والاجتماعية والتنموية والإنسانية... إلخ، كلما اشـــتدت وعظمـــت الخطوب. بل لعل الحاجة إلى تجديد الخطاب وحضوره والنظر في مدى ملاءمتـــه تكـــون آكد إذا لحق الأمة الخَطْب، الأمر العظيم، الذي يحتاج إلى رؤى نضيجة، وحلول سليمة، وإدراك شـــامل، من زوايا متعددة، وأوعية مســـتوعبة، وإحاطـــة بعلم الأشياء — حـــتى لا نكذب بما لم نحط بعلمه - ذلك أن الخطاب هو في أصله اللغوي من الَخْطب، وهـــو الإشكالية الكبيرة التي تلحق بالأمة وتتطلب فصل خطاب يخرج الأمة من معاناتها، ويقدم لها الحلول الناجعة.

وطالما أن الحياة متجـــددة ومختلفـــة ومتطورة وسريعة، فالحاجة قائمـــة ومســـتمرة لإعادة النظر في الخطاب، وتطـــويره، واختبار مدى قدرته على تقديم الرؤيـــة الســـليمة للتعامل مع قضايا الحياة والمجتمع والمفاتيح الصحيحة للدخول إلى المشكلات من أبوابهـــا ومعرفة فعاليتها.

من آفاق الخطاب

والخطاب في ذلك لا بد أن يأخذ باعتباره بعدين، أو أن يبصر أفقين لحركته :

الأفق الأول، والأهم، يتمثل في امتلاك القدرة على استشراف المستقبل، من خلال المنهج السنني الذي يبصر بتداعيات الحاضر وفقه المآلات التي سوف يصير إليها، في ضوء استشراف واستقراء الماضي وإضاءاته، لتحقيق الوقاية، أو التقوى، من الإصابات والأزمات، يقول تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۝ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران:١٣٧-١٣٨) ذلك أن التأمل في قوانين الحركة الاجتماعية يبصِّر بالسنن والقوانين (الأقدار) التي تمكن الإنسان من الاستشراف وقراءة المآلات والعواقب وأخذ الحذر، وكيفية مغالبة قدر بقدر، للحيلولة دون السقوط في الأزمات، ويعتبر هذا من أرقى أنواع الخطاب الاستشرافي، الذي يمكّن من امتلاك القدرة على التخطيط والتحول إلى السير أمام المجتمع.

والأفق الآخر يتمثل في امتلاك الأدوات الخاصة والصحيحة، التي تمكن من إدارة الأزمات حال وقوعها، بحيث يكون العلاج فعلاً مدروساً قادراً على أن يحوِّل المشكلة إلى خبرة وبصيرة وحل، والنقمة إلى نعمة، ولا يقتصر على أن يكون انفعالاً وغضباً لا يورث عظة ولا يمنح عبرة، وإنما يستنزف الطاقة، ويكرس العجز، ويوقع في التخاذل، ويورث الإحباط.

الخطاب الدفاعي:

وهنا قضية قد يكون من المفيد أن نعرض لها بالقدر الذي يسمح به المجال، وهي أن أحد أبعاد الخطاب سوف يتمركز بشكل طبيعي وضروري حول البعد الدفاعي، أو ما يمكن تسميته «بالفكر الدفاعي» أو «الإنتاج الدفاعي».

ونقول هنا: إن السلبيات التي قد يحملها الفكر الدفاعي كثيرة، وليس أقلها نزع روح المبادرة والإبداع وترتيب الأولويات وحرية التصرف و الاختيار في حركتـــه، ذلـــك أن الفكر الدفاعي هو استجابة قد تكون سوية وقد لا تكون لما يطرحه الخصم أو العدو مـــن الإشكالات ويقذفنا بها وما يفتعل من الأزمات، تمكنه من التحـــكم بالساحـــة الفكريـــة أو بتحديد ساحة الإنتاج الفكري مسبقاً، وتحويل الجهود والطاقات الفكرية للمجال الذي يرسمه هـــو، بحيث يكون زمـــام المبادرة بيده، وتكون حركة الأمة الفكرية هي عبـــارة عن ردود فعل للرد على ما يلقى إليها من تهم، وقد يحرك طاقاتنا على أحسن الأحـــــوال بما يصب في نهاية المطاف في مصلحته وحضارته، وبذلك تحرم الأمة من إمكاناتها وتوظف لصالح (الآخر)، وتعزل عن قضاياها، وتُقْتل روح المبادرة فيها، وهذا بدون شك يشـــكل خطورة حضارية وثقافية.

ولو بقيت طاقات الأمة الفكرية تتحرك بخيوط ممسوكة بأيدي الخصم والعدو، فـــإن خطابها وإنتاجها يتحول ليمثل بعمومه رجع الصدى.

والإشكالية أن للفكر الدفاعي، أو للخطاب الدفاعي، أدواته الساخنة، من خطـــاب الشجب والإدانة والاستنكار وما يورثه من إثارة الحقد والكراهية، وما يتطلبه ذلك مـــن الحالات الكثيرة غير السوية، بحيث يتحول الإنتاج الفكري أو الخطاب إلى لون من ألوان الفكر الاستهلاكي، بعيداً عن الفكر الإنتاجي التنموي الاستشرافي الإبـــداعي، ويصـــبح المتميز هو الأعلى صوتاً، والأسمك حنجرة، والأكثر انفعالاً وإثارة، وتستمر زعامة الخطباء وتتراجع قيمة الفقهاء والخبراء ودورهم في بناء الحضارة والعمران ومعالجة مشكلات الأمة بوسائل صحيحة متخصصة.

ونحن لا نريد التنكر لدور الفكر الدفاعي في حماية حدود الأمة الثقافية والحضارية، وحتى الجغرافية، أو نتنكر لسنة المدافعة أو التدافع وما يحدث من التفاعل مع (الآخر)، مـــن فهمـــه

ومعرفته، وأهمية إنتاج الخطاب الدفاعي، لكن الذي ننبه إليه أن لا يستغرق ذلك طاقاتنا كلها وخطابنا كله، ونتجاوز النسب والأقدار المطلوبة لذلك، ونتحول إلى أدوات في يد خصومنا وأعدائنا، فنبقى باستمرار تحت السيطرة السياسية والثقافية والحضارية والتربوية.

ولو تأملنا في خطابنا لأكثر من نصف قرن، بل يكاد ذلك يستغرق قرناً كاملاً، لوجدنا أنه يتحرك ضمن حلقات ودوائر مرسومة مسبقاً، وضمن خارطة معدة سلفاً في قضايا الحدود والمرأة والميراث والأسرة والجنس... إلخ، ونستمر في معاودة الإنتاج أو إعادة الإنتاج، وكأن ما قدمناه غير مقنع أو غير كاف، ولو كان ذلك على حساب الكثير من القضايا الحيوية والحياتية الإنسانية والعالمية التي لم نقدم فيها إنتاجاً مقدوراً، على الرغم من أنها بأشد الحاجة إلى الرؤية الإسلامية الغائبة، رغم شعارنا المرفوع لعالمية الإسلام وخلوده.

ولعل الإشكالية في مثل هذه القضايا المطروحة على الساحة الفكرية تتمثل في اعتبار حضارة (الآخر) وممارساتها هي المقياس، وعدم النظر إلى هذه القضايا ضمن المنظومة الثقافية الإسلامية، أو بمعنى آخر: قياس واقع حضاري على أصول حضارة أخرى.

والفيصل في هذا الأمر – فيما نرى- ليس بإلغاء الخطاب الدفاعي، وإنما التأكيد على أهمية ضبط النسب – كما أسلفنا – بحيث لا يستنزف «الخطاب الدفاعي» جهدنا، ويتحول إنتاجنا ليصبح سلبياً؛ وذلك بوضع رؤية استراتيجية تأخذ في اعتبارها: هذا العالم المتغير، ورؤية (الآخر) وشراكته في هذه الحياة، ومنظومته الفكرية، وأدواته وأسلحته الثقافية، والاجتهاد في عدم تجاوز الدليل المقنع والرؤية الإسلامية لمن يبحث عن الحق ويريد الاستدلال، ذلك أن الإشكالية في كثير من الأحيان قد تكون في المستدِل، عناداً وكبراً وتعصباً وحقداً وكراهية وتسلطاً، وليس في الدليل قوة وضعفاً.

إن خطابنا لو اقتصر على الفكر الدفاعي لم يبق لدينا ما ندخره لمعاودة إخراج أمة، وبناء حضارة، وإقامة عمران.

وخطاب الوحي، في الكتاب والسنة، يضيء لنا طريق التعامل، حتى في مجال الفكر الدفاعي، فهو لم يتجاهل (الآخر) بكل أطيافه وطروحاته التاريخية والواقعية؛ لأنه موجود ومتفاعل، كما لم يهمل مدافعته، بمساحات كبيرة من الرد والتصويب والدفاع وبيان الخلل والخطأ فيما يورد (الآخر) من اتهامات ويفندها، و لم يقتصر على ذلك وإنما تجاوز إلى الاعتراف بما يقع من إصابات وخروق ذاتية، حتى ولو جاءت من (الآخر) الذي يحاول النفوذ منها، ويحاول تصويبها، بحيث تكون اتهامات (الآخر) سبيلاً إلى معرفة الخطأ وكشفه وتصويبه، ونجد ذلك واضحاً في أسباب نزول قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ... ﴾ (البقرة:٢١٧)، ذلك أن الناظر في أسباب نزول هذه الآية يدرك الأبعاد الكثيرة لما يحققه ويتطلبه التعامل مع الخطاب الدفاعي.

كما نرى أن الكثير من الآيات الأخرى جاءت رداً على تساؤلات أو اتهامات أو مغالطات يطرحها (الآخر).

لكن الملاحظ أن «الخطاب الإسلامي» الدفاعي، في الكتاب والسنة، لم يستغرق الخطاب بكل أبعاده ومجالاته، وإنما طرح من الخطاب الدفاعي ما يكفي دليلاً لمن يريد أن يستدل، أما ما وراء ذلك فقد اعتبر أن المشكلة في كثير من الأحيان ليست في قوة الدليل وإنما في العلل المزمنة والتاريخية للمستدل، نلمح ذلك واضحاً إذا تأملنا قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ (إبراهيم: ١٠).

لذلك لا بد من تجاوز الإشكالية بعد طرح الأدلة الكافية لمن يريد أن يستدل - ومن لا يستدل فالمشكلة فيه وليست في الدليل - والتحول إلى بناء أمة وإقامة حضارة، ولولا ذلك التجاوز لجاءت الآيات والأحاديث جميعها رداً على تمحلات الكافرين والمشركين، الذين

كلما جاءهم آية لم يقتنعوا وطلبوا أخرى، فكان لا بد من تجاوزهم.. فالبناء والخطاب الإنتاجي التنموي هو الكفيل، في كثير من الأحيان، بمعالجة الإشكالات السلبية التي يطرحها (الآخر)، لذلك قد تكون روح المبادرة بالأعمال البانية هي الحل لمعالجة الفتنة والإصابة والتهمة، يقول ﷺ: «بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ »[1].

ولا بد من الاعتراف هنا أيضاً: بأن العقل المسلم بشكل خاص يعيش اليوم أشد وأخطر حالات الوهن، في تاريخه الثقافي الطويل، التي تستدعي وتهيئ القابلية للتلقي.. فتكاد تكون جميع المصطلحات والمفردات والأفكار والمفهومات والشعارات والقراءات والاتهامات اليوم متدفقة من (الآخر)، على كل المستويات وفي المجالات كلها (!) حتى المؤسسات العلمية والثقافية والتربوية والتعليمية والإعلامية الموجودة في بلاد المسلمين، والمنشأة بأموال المسلمين، أصبحت مرتهنة بشكل أو بآخر وأسيرة للتلقي، وما تقدمه في معظم الأحوال لا يكاد يمثل إلا رجع الصدى، وفي أحسن الأحوال يأخذ باعتباره اتهامات (الآخر)، وكأننا نمكّن (الآخر) من عقلنا ومؤسساتنا، ونملّكه أدواتنا، ونوظف له طاقاتنا، بأموالنا، فهو نوع من الاحتلال الخفي، حيث فتح علينا أبواب كل شيء إلى درجة بدأ الكثير منا يفتقد حتى مجرد الرؤية الصحيحة، وتُصَادَر حتى قيمه الأخلاقيه، ولا يُقْبل منه إلا أن يتحول إلى أن يكون بوقاً في (الجوقة)، يستميت في تبرير مسالكه وتسويغ فعل (الآخر) بنا.

ويذكرنا هذا بقول بعض الصالحين: «لا تخافوا الفتن، فإنها حصاد المنافقين»، حيث بدأت تظهر الضغائن على المسلمين، وتعلوا بعض الأصوات الشعوبية التي تحاول سلب العرب والمسلمين من كل مكرمة.

وليس ذلك فقط، وإنما وصل الوهن والهوان إلى حالة تسمح بمحاولات التدخل في صياغة «خطاب المسلمين» المقبول والمطلوب، حتى ولو تجاوز الثوابت وأساسيات الدين،

(١) أخرجه مسلم.

حيث لم يقتصر الأمر على الاختراق الأمني للمؤسسات والجماعات ومراكز الفعل والنشاط، وقراءتها من الداخل، في محاولة لوضع الخطط للتعامل معها والتنبوء بفعلها المستقبلي ورد فعلها الآني وإبقائها تحت السيطرة، وإنما تجاوز ذلك إلى محاولة تشكيل خطابها، وصناعة سلوكها، أو دفعها لبعض الممارسات التي تسوغ إلغاءها أو محاصرتها أو الإغراء بإقصائها وإلغائها.

هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن الكثير من الأنشطة والحوارات والندوات والأحاديث والمقابلات التي تعرض «لخطاب المسلمين»، نقداً وتقويماً ومراجعة، لا تخرج عن تحكم (الآخر)، ومعاييره واعتبار حضارته هي المقياس، حيث أصبحت نسبة الخطاب المنتج إلى المسلمين محل الكثير من الريبة والشك، على مستوى الأفراد والمؤسسات والتجمعات، حتى بعض الفتاوى باتت تنتج حسب الطلب.

خطاب المسلمين فقط هو المتهم:

وقد لا نستغرب اليوم أن نرى هذا الاهتمام الملفت «بخطاب المسلمين» من (الآخر)، والإقدام على إقامة ندوات وحوارات تُحدَّد أهدافها ومحاورها وأوراقها وحتى توصياتها ابتداءً من قبل (الآخر)، ويُستدعى لها بعض المسلمين المختارين بدقة، أو على أحسن الأحوال من المؤسسة الدينية الرسمية، ليشكلوا فريقاً يشارك في الحوار المطروح، ويملأ المربعات المرسومة مسبقاً، علماً بأن الكثير من مضامين الحوار وأدواته، وحتى مجرد طرحها وتناولها، يعتبر من المحرمات التي لا تمس.

لقد أصبحت الإشكالية هي اليوم فقط في «خطاب المسلمين» وإشكالاته ومخاطره وأخطائه وانحرافه وشره (!) أما خطاب (الآخر) فهو يتمتع بمحض الصواب والحكمة والحضارة والخير والعصمة، وهو غير قابل للفحص والاختبار.. المتهم هو «الخطاب الإسلامي» و«خطاب المسلمين» دون غيره، وكأن خطاب (الآخر) هو المعصوم، الذي لا يتطلب فحصاً ولا مراجعة.

وهنا لا بد من وقفة عند قضية ربط الإرهاب بالإسلام، واختزال تاريخ عطاء القيم الإسلامية والحضارية الإسلامية في موقف أو تصرف، أو فئة أو جماعة، فهو مما يدعو إلى السخرية التاريخية والثقافية والعلمية أيضاً. وحتى ولو كان هناك من جنوح ومغالاة وعسكرة لبعض طروحات «الخطاب» فذلك يعتبر رجع الصدى، ذلك أن المخيلة، أو المخيال الإسلامي، لم تنسج -شأن (الآخر)- من خيوط الحروب الصليبية وما ادعي من بطشها وفروسياتها وجبروتها من قصص وروايات، الأمر الذي يملأ مخيلة (الآخر)، ولا من خيوط الاستعمار الحديث وما أورثه من قهر وتخلف ووصاية على الأمم والحكم بأنها قاصرة، ولا من خيوط المعاهد ومراكز الدراسات المتخصصة بإنتاج أدوات الهيمنة والتسلط والقهر.

إن الإرهاب والإرعاب صناعة دخيلة على الإسلام، والعالم الأقوى اليوم يتخذ من مسألة «الإرهاب الإسلامي» ذريعة لممارسة أفعاله وضرباته الاستباقية، ونقل المعارك إلى داخل العالم الإسلامي، وإنهاك طاقاته، وتحويله عن عملية التنمية، سواء في ذلك ما أقامه من أنظمة الاستبداد السياسي سابقاً التي محقت كل شيء وطاردت كل خبرة أو فكرة، أو ما اصطنعه من معارك وقائية، وما أسماه من هجوم دفاعي أو ضربات استباقية أدت إلى عسكرة الخطاب.

لذلك نرى أن كل أنواع الشجب والإدانات والمطاردات والحلول الأمنية لممارسات الإرهاب والإرعاب لا تشفع لأصحابها، حتى لأي باحث يدين الإرهاب، مهما كانت أسبابه، إذا حاول أن يطرح السؤال الكبير: ما هو السبب؟ وكأن البحث في الأسباب من المحرمات، بادعاء أن ذلك يعني تسويغ الإرهاب؛ لأن البحث في السبب سيؤدي إلى إدانة الظلم والقهر والاستعباد والاستبداد، ويلقي أضواء كاشفة على الفاعل الحقيقي، ويلقي القبض على القاتل بدل القتيل.

لذلك نقول أنه لم يعد يقتصر الأمر على نقل المعارك المادية إلى بلاد المسلمين، وممارستها بسواعدهم، وإنما أصبحت البلاد محلاً للمعارك الثقافية أيضاً، وبذلك يتم احتلال العقل والساعد معاً، وتُبدد الطاقات، وتهدر الإمكانات، وتوظف الأموال والطاقات والتضحيات لصالح (الآخر).

وهذا المناخ المضلل أخرج الكثير من الأضغان، وأيقظ الكثير من النزعات الشعوبية - كما أسلفنا - التي بدأت تصول وتجول وتصنع بطولات في الفراغ، على حساب الإسلام والمسلمين، وتنتج خطاباً شعوبياً يطفو على السطح، وينزل إلى سوق التداول كالعملة المزيفة الرديئة، التي تطرد العملة الجيدة من التداول في السوق، وتحاول غسيل العقول كممارسة غسيل الأموال، بانتظار دورة ثقافية تصحيحية جديدة.

وليس هذا فقط؛ ذلك أن الوهن والتخلف عملية مركبة متراكبة تنعكس على معظم الأنشطة الثقافية والإنتاجية، حتى التي تشكل محل الأمل في الإنقاذ، خاصة وأن الكثير من الجماعات، والمؤسسات، والأنظمة المرتهنة (للآخر)، ضماناً لاستمرارها وبقائها، والتي قد يوكل إليها القيام بدورد وفق تعليماته لمراقبة ومحاصرة «خطاب المسلمين»، على طريقة المثل الشائع: «اقطع الشجرة بفرع منها»، تحاول اليوم، تحت سطوة الأنظمة السياسية على المؤسسة الدينية الرسمية، تسييس الخطاب الديني الرسمي، وتوجيه مساراته، وتحديد أهدافه وحقول اهتمامه مسبقاً، وبذلك تنعكس المعادلة، فبدل أن تكون المؤسسة الدينية الرسمية قادرة على ضبط المسيرة السياسية بقيم الدين وأخلاقه (تديين السياسة) تتحول لتصبح أداة تنتج لصالح المؤسسة السياسية (تسييس الدين)، وهنا قد تفتقد بعض المؤسسات الدينية مكانتها وتأثيرها والثقة بها والكثير من دورها، وتنعزل عن ضمير الأمة، وتساهم ولو سلباً بنشوء أنماط من الخطاب الديني قد لا يخلو من رد الفعل غير السوي المتمثل في الغلو والتأويل الفاسد والانتحال الباطل، الذي يحتاج إلى النقد والتقويم والتصويب.

ونحن بذلك لا ندعي العصمة من الخطأ ولا التنـــزه عن الغرض «لخطاب المسلمين»، كما هو حال «الخطاب الإسلامي» كما لا نطلب له أن يكون فـــوق النقـــد والتقـــويم والمراجعة على المستويات جميعاً، على مستوى الذات و(الآخر)؛ لأنه في النهاية خطـــاب للناس جميعاً، فمن حقهم نقده ومراجعته وتقويمه، فهو بطبيعته وتكوينه محل لهذا جميعـــه، إلى درجة قد نقول معها: إن توقف عمليات النقد والتقويم والمراجعة والتجديد والاجتهاد يكرس الخطأ، ويؤسس للغلو، ويتيح المجال للتأويلات الفاسدة ونوابت السوء.

تحالف الجبت والطاغوت:

ولعل توقف النبوة، الذي يعني توقف الوحي عن التصويب، وخاتمية الرسالة، تقتضي وتستلزم أن يُناط الأمر بالعقل القادر على الاجتهاد والامتداد، وتجريد النصوص الخالـــدة من قيود الزمان والمكان وتوليدها في كل زمان ومكان وإنسان، وممارسة النقد والتقـــويم، ونفي نوابت السوء، وتنقيه الرؤية الإسلامية من كل دخن وانحراف وغلو وتأويل، وهذه كلها احتمالات واردة وقائمة فعلاً، حيث لم ينط فقط بالعقل الامتداد والتوليد، وتعديـــة الرؤية، والنظر في المتغيرات السريعة، والاجتهاد في تنـــزيل القيم الإسلامية على الواقـــع، وإنتاج «خطاب المسلمين» المقنع والمـــلائم المرتكز إلى القيم في الكتاب والســـنة فقـــط، وإنما نيط به أيضاً الحراسة للفهم، والوقاية من الانحراف، وتصويب المسيرة.

وفي ضوء ذلك جميعه نفهم من قول الرسول ﷺ: «**يحمل هذا العلـــم مـــن خلـــف عدُولُه، ينفون عنه تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، وتحريف الغالين**»[1] معنى التأسيس والتأصيل للنقد والمراجعة والتقويم والتصويب والتجديد وديمومة الاجتهاد، وأن أي توقف عن حمل القيم الصحيحة ونفي نوابت السوء المتنوعة يعني تكريس الجمـــود والانحـــراف

(١) أخرجه البيهقي.

والغلو والسماح بمرور واستمرار سائر الإصابات الفكرية؛ كما ندرك من وجه آخر أن هذه الإصابات قائمة ومحتملة، وأن المدافعة على مستوى الذات و(الآخر) هي سبيل الحماية والوقاية وطريق النمو والتنمية.

فإذا كان شعار ديننا العظيم: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ﴾، الأمر الذي يعني -فيما يعني - أن التدين وهو أعلى درجات الحرية والاختيار وأخطرها، وأن التلقي لقيم الدين ابتداءً من الوحي المعصوم، والذي يعني الحقيقة المطلقة، مع ذلك حتى ولو كنت تمتلك الحقيقة المطلقة فلا تمتلك إكراه (الآخر) عليها، فكيف إذا كان ما تملكه اجتهاداً ورؤية نسبية، قابلة للخطأ والصواب؟! لأن (الإكراه) ابتداءً يزري بكرامة الإنسان، ويحط من إنسانيته، لذلك يبقى السبيل للتصويب هو الحوار والمناقشة والمحاججة والمماحكة والمجادلة، وكل الأدوات التي تليق بالتعامل مع عالم الأفكار، وهذا يكفي دلالة على الحرية الفكرية بأوسع آفاقها.

ولعل من أهم ما يميز الرؤية الإسلامية عن غيرها ويسمح بامتدادها هو خلود القيم المرتكزة إليها، الأمر الذي يتطلب استمرار عملية الاجتهاد لإنتاج خطاب جديد ملائم لتطور المشكلات، كما يعني وجود قيم معيارية ثابتة لفحص واختبار هذا الخطاب وتصويبه، وبيان مواطن الخطأ والخلل والتقصير، خاصة أن هذه المعايير ليست من وضع الإنسان، لئلا تلتبس الذات بالقيمة ويكون الفعل الإنساني، محل المعايرة وموضوعها، هو المعيار أيضاً.

إن ضبط مسارات الحرية الفكرية لا يكون بإلغائها وإقصائها وكبتها، وإنما بفتح الباب على مصراعيه للاجتهاد ولممارسة النقد والمراجعة والمجادلة والحوار والمناقشة... لتوسيع دائرة التفاهم، وبناء المشترك، وتصويب الانحراف، ومعالجة الخلل، وبذلك نستطيع القول: إن الحرية الفكرية ومن ثم التقويم والنقد من لوازم ﴿لَآ إِكۡرَاهَ﴾، لأن الإيمان لا يتأتى عن إقناع وبرهان ودليل، فكما أنه ﴿لَآ إِكۡرَاهَ﴾ في عالم الأفكار، ويأتي الدين

والتدين على رأسها وفي مقدمتها - وأسوأ أنواع الإكراهِ الإكراهُ في الدين- فإن النقد والتقويم والمراجعة هي فكر من الفكر، أو هي التفكير في الفكر، فكيف يجوز منعها أو توقفها أو إلغاؤها تحت شتى الحجج والمعاذير؟ إنما نوع من ممارسة المعارضة الفكرية المقابلة للمعارضة السياسية، وهي جزء أصيل وشريك في عملية البناء وانحسار مساحة الانحياز على جميع المستويات، السياسية والثقافية والاجتماعية.

ولذلك نقول: بأن الإسلام ﴿لَآ إِكۡرَاهَ﴾ ينمو ويمتد في فترات الحرية والمدافعة الفكرية والثقافية، وينحسر ويحاصر ويتراجع في فترات الاستبداد والقمع والظلم ومصادرة الحرية، الأمر الذي بات يغيب اليوم عن مساحات كبيرة من «خطاب المسلمين»، بسبب من الاستفزاز وما يورثه من رد الفعل على الظلم والقهر والقمع والضغط، الذي يحرجهم ليخرجهم.. لذلك نرى الكثير من المسلمين يشكلون، باسم الدفاع عن الشورى، حماية للاستبداد في وجه الحرية والديمقراطية، وكأن المعركة بين الشورى والديمقراطية بينما هي بين الدكتاتورية والاستبداد والديمقراطية.

والإشكالية الكبيرة أن يتوهم الكثير من العاملين في المجال الإسلامي أن عملية النقد والتقويم والمراجعة يمكن أن تكون سبيلاً إلى خلخلة الصف، وبعثرة الجهود، وإبراز الأخطاء، وتبصير العدو بمواقع الضعف، وكأن القيم الدينية حكراً عليهم دون غيرهم.

كما أن الروح الحزبية الخطيرة والنامية والاستبداد والتعصب الحزبي والإرهاب الفكري، التي قد تتجاوز مخاطرها الاستبداد السياسي، تحرم النقد والمراجعة، وتصادرها، وتقيم أسواراً سميكة تحمي الخلل والضعف والفساد، وتجعل الأمر حكراً على قيادات بعينها، وبذلك يطرد أهل الخبرة والمعرفة العدول ويقدم أهل الثقة والولاء للأشخاص، ويتحول الولاء للفكرة إلى الولاء للأشخاص، فتلتبس الذات بالقيمة، وتبرز الكهانات الحزبية الدينية إلى جانب الدكتاتوريات في الاستبداد السياسي، فيلتقي الطغيان السياسي

والإرهاب الفكري، ويتصرف بأمور الناس الجبت (الكهانة الدينية) والطاغوت (الاستبداد السياسي)، وتصبح الأمة بين حجري الرحى، وبذلك يسيَّس الدين من قبـل الطـاغوت السياسي، ويطوَّع النص الديني أيضاً للخطاب الحزبي والطائفي والفئوي والمذهبي من قبل الجبت.. والجبت والطاغوت بتكوينهما وطبيعتهما مناقضان للنقد والتقـويم والمراجعـة، ومؤهلان للإرهاب والقمع والتحضير للانفجارات العشوائية.

وتزداد الإشكالية خطورة عندما يصار إلى عولمة تسييس الدين لتصبح المؤسسة الدينية الرسمية، وأحياناً غير الرسمية، تحت سطوة الهيمنة العالمية، مصنعاً لتسويغ الفعل السياسـي وتغطيته بالمشروعية أو بالشرعنة، بمعنى شرعية الفعل السياسي، و«عولمة» الفلسفة الدينية وتحديد مداها، و«عولمة» واحتواء المؤسسة السياسية وتحديد مجالها، وتوزيـع وإخـراج مفرداتها ومصطلحاتها، بحيث تبرز رؤى سياسية واجتهادات دينية لتكون في خدمة الأقوى المهيمن، الذي يرتهن التدين، أو الدين، ويرتهن السياسة معاً.

كما تظهر فتاوى لفلسفـة الهزيمـة، وتكريس العجز والتخلف، وتبرير الاسـتبداد والظـلم المتأتي من واجب الطاعة التي لا تفرق بين بر وفاجر.. وحتى عنـدما ينفصـل الدين عن السياسـة ويعزل ويخرج من الحياة تبقى الإصابة مستمرة لكن بلـون آخـر، حيث يصبح الشيخ أو أمير الجماعة هو المحور والقطب، والمريد أو الحزبي يدور في فلكـه بدون رأس، يعيش قـدراً من الاطمئنان والوهم الخادع بأنه يمـارس فطرة التدين، دون أن يدرك انحرافها، ودون أن تشكل له أي قلق سوي يحمله على اكتشاف الخلل وابتكـار وسيلة تقويمه.

لذلك فقد تكون إشكالية «خطاب المسلمين» اليوم تتراوح بين الاستبداد السياسـي والكهانات الدينية، سواء كانت حزبية أو طائفية أو عشائرية أو فئوية، أي بـين الجبـت والطاغوت، بكل إفرازاتهما ومسمياتهما.

الطبيعة (الدينامية) لخطاب المسلمين:

ومن الأمور الجديرة بالنظر، وعلى الأخص إذا استرجعنا مصطلح «خطاب المسلمين»، الذي يعني إنتاجهم واجتهادهم الفكري في شتى شعب العلوم والمعارف، منطلقين في ذلك من قيم الكتاب والسنة، وأن «الخطاب الإسلامي» هو القرآن والسنة والسيرة الصحيحة (النص الخالد)، وأن الخلود يعني قدرة النص على الاستجابة للحوادث المستجدة، وامتلاك المرونة التي تؤهله للامتداد بالحكم وتنـزيله على الحوادث المستجدة، إن هذا التنـزيل على الواقع وتقويمه بقيم الكتاب والسنة وضبط مسيرته وأهدافه بما هو من مواضعات واجتهادات البشر، يجري عليه الخطأ والصواب والتبديل والتغيير والتجديد والتعديل والتقويم والمراجعة؛ لذلك «فخطاب المسلمين» بطبيعته (دينامي) ومحل تغيير وتجديد وتعديل واجتهاد واستجابة للمتغيرات في عالم مختلف وسريع التغير.

لذلك سوف يكون الالتباس بين قيم الدين الثابتة في الكتاب والسنة «الخطاب الإسلامي» وبين صور التدين، التي تعني اجتهاد البشر في تنـزيل القيم على الواقع، خطير وخطير جداً.

ولعل هذا يعتبر من أكبر الإشكاليات التي أدت إلى الجمود والتقليد والتخلف والعجز ومحاصرة الخلود؛ لأنه خلط والتباس بين القيمة والذات، بين قيم الدين الثابتة وقيمه المطلقة كمعيار وبين صور التدين الاجتهادية المتغيرة المتبدلة النسبية في ضوء الواقع المتغير.

لذلك نقول: بأن «خطاب المسلمين» هو وليد الظروف والمتغيرات وامتلاك القدرة على الاستجابة، في ضوء قيم الدين، وبيان الرؤية فيما يطرأ على الحياة من إشكاليات ونوازل وإصابات، وليس ذلك فقط بل التجاوز إلى امتلاك البصيرة على استشراف المستقبل والنظر في التداعيات والاستحقاقات والمآلات، أو ما يمكن أن نصطلح عليه: «الرؤية الاستباقية للأزمات المتوقعة»، وذلك في ضوء واستيعاب سنن وقوانين الحركة الاجتماعية المتولدة من استشراف الماضي والتوغل في التاريخ وإبصار قصة الحضارة

ومسيرتها، ومن ثم وضع الأوعية الاستباقية لحركة الأمة الرشيدة، فليس الخطاب المطلوب هنا هو خطاب إيجاد المخارج، أو ما يمكن أن نطلق عليه «فقه المخارج»، والقدرة على إدارة الأزمات وفقه التعامل معها، على أهمية ذلك، بل تجاوز ذلك إلى تحقيق الوقاية الحضارية من الإصابات والأزمات وتحقيق المقاصد (التجاوز إلى فقه المقاصد).

فالخطاب المتأتي من الكتاب والسنة ليس «خطاب مخارج» فقط، وإنما هو أيضاً خطاب مقاصد؛ ليس خطاب إدارة الأزمات وإنما خطاب تجنب الأزمات وتحقيق التقوى الحضارية.. وبذلك لا يقتصر على رد الفعل، وفي أحسن الأحوال الفكر الدفاعي، وإنما يتجاوز إلى الفكر البنائي والتنموي.

فالإنسان في الحقيقة والواقع متغير، نفسياً وعضوياً وعقلياً وعلمياً واجتماعياً، لذلك من العبث معاندة السنن والأقدار وصب الإنسان المتغير في قوالب جامدة؛ حتى أقدار التدين كأمر كسبي، تزيد وتنقص؛ واستطاعات التكليف تزيد وتنقص؛ وعلاقات الأمم والأفراد تتأزم وتنفرج؛ والكون بكل كواكبه ومحتوياته دائم الحركة والتنوع؛ والمعارف والحقائق تتراكم وتتحرر وتتكشف، وهي في تطور وتنامي مستمر.

حتى الأدوات والوسائل في تغير وتبدل، بل لعلها الأكثر تبدلاً وتغيراً وتطوراً، الأمر الذي يتطلب باستمرار إعادة النظر بمواصفات الخطاب وتطويره، ليصبح قادراً على الاستجابة، فيكون في مستوى العصر، حتى يؤهل الإنسان دائم التطور لعصره ويمنحه الرؤية الصحيحة للتعامل والتفاعل معه والعطاء له.

إن إعطاء صفة القدسية والثبات لاجتهاد الأشخاص ورؤيتهم هو ضد طبيعة الأشياء وحركة الحياة، إضافة إلى أنه محاصرة للخلود، وحيلولة دون الامتداد بالنص لمعالجة تطور الحياة، وانسحاب من الحياة، وإخلاء الساحة لكل غث وسمين.

ويحضرني هنا قول الشاعر الذي يمكن أن ينطبق، في كثير من الوجوه، على أهمية اليقظة والتنبه وتطوير النظر والبصارة وإعداد العدة للتسارع والتطور ومسابقة الزمن:

لحظة يا صاحبي إن تغفل ... ألف ميل زاد بعد المنزل

وحقيقة التغير والتغيير وتطور الخطاب وتطويره، ليكون في مستوى الحاجات والمستجدات، نلمحها بوضوح شديد في الخطاب القرآني، سواء في التعامل مع ذات الإنسان، والارتقاء به والتدرج في ذلك، أو معالجة إشكالاته، أو التعامل مع الزمان ومتطلباته، أو المكان، أو الإمكانات والاستطاعات المتوفرة، حتى إذا ما تغيرت الاستطاعات تغير التكليف، وتغير الخطاب، من حيث الصياغة اللغوية والفاصلة القرآنية ومضمون الخطاب، نرى ذلك واضحاً بين القرآن المكي والقرآن المدني، وبين القرآن المكي نفسه والمدني أيضاً، بحسب الموضوع الذي يعرض النص لمعالجته، وحسب الإمكانات التي تحدد مدى التكليف وإنزال الحكم، والعدول عن الحكم إذا تراجعت الاستطاعة.

كما أنه يختلف أيضاً بحسب أهدافه التي يقصد إليها، سواء كان عقيدة أو عبادة أو تشريعاً أو قصصاً أو مثلاً أو محاجحة أو مجادلة أو برهاناً أو إعجازاً، هذا إضافة إلى تنوع الخطاب بحسب المضمون، فلكل قضية سمات خطابها ومواصفاته، بل لعلنا نقول هنا أيضاً: إن مدلول النسخ، على طريق بناء الأنموذج، هو - من بعض الوجوه- إلغاءٌ لخطاب أو حكم أدى دوره وإثباتٌ لخطاب وحكم خير منه أو مثله، إلغاء لحكم وإثبات لحكم آخر، إلغاء لشريعة وإثبات لشريعة خير منها، قال تعالى: ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ (البقرة:١٠٦)، ليكون الخطاب دائماً مناسباً لحالات الناس وواقعهم المعيش، حتى بني الأنموذج ووصل إلى حالة الكمال والاكتمال.

وقد لا نستغرب أن تتنزل الكثير من الآيات القرآنية - وهي آيات لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد - لمعالجة واقع بعينه أو إشكالية أو نازلة، وكأنما مشكلات الواقع والحاجة إلى علاجها والارتقاء بالواقع هو الذي يستدعي التنزيل أو يقبض بأزمّة التنزيل من بعض الوجوه، هذا إضافة إلى أن ما ورد في القرآن من إشارات مستقبلية لا بد من إبصارها وحسن الإعداد لها، والتحذير من الغفلة عن الآيات والسنن والإعراض

عنها: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (يوسف:١٠٥)، ليكون ذلك دليلاً «لخطاب المسلمين» عبر الزمن، بحيث لا يقتصر خطابهم على رؤية الحاضر، على أهميته؛ لأن الحاضر هو ماضي المستقبل أو مقدماته.

حتى المذاهب الفقهية، نرى الكثير منها تطور وتغير بحسب الظروف والأحوال وتغير الزمان والمكان والإنسان، وكثيراً ما نقرأ في تراثنا الفقهي قولاً للشافعي في القديم وقولاً آخر مغايراً تماماً في الجديد، وكيف أنه غير مذهبه بعد انتقاله من موطن إلى آخر... وهكذا؛ وأن الكثير من الصحابة، رضوان الله عليهم، عندما انتشروا لنشر قيم الدين في العالم، على حضاراته المتنوعة، استطاعوا توليد خطاب وإنتاج فقهي وفكري ودعوي قادر على التعامل مع سكان البلاد المفتوحة واستيعاب مشكلاتهم، التي قد تختلف عما ألفه الصحابة في موطن الإسلام الأول ومنزل الوحي.

ولعل مدرسة الرأي، بكل أبعادها التي تبلورت في العراق والتي شكلت إضافات فقهية وفكرية ولغوية وثقافية، إلى جانب مدرسة الحديث في الحجاز، تعتبر مؤشراً آخر على (دينامية) الخطاب في واقع المسلمين، وأهمية استجابته للنوازل، وقدرته على التعامل معها، من خلال مرجعية الكتاب والسنة، وكيف أن توقفه يمكن أن يعني الموت والخروج من الحياة والمجتمع، والخروج من المدائن والتمدين والتحضر إلى المقابر والجمود والتخلف.

إن التفكير والتغيير والتطوير هو روح الخطاب ودليل فاعليته وحياته وتفاعله مع (الآخر)، الموجود واقعياً، وأن سكونه وجموده هو موت وانطفاء لفعله وفاعليته، وهو محل دائماً للمراجعة والترقية والتطوير، ليس على مستوى الشكل، من حيث الصياغة واللغة والبلاغة التي استغرقت معظم أوقاتنا، وإنما على مستوى المضمون وتناول القضايا الإنسانية في مجالات التنمية والحرية وحقوق الإنسان والبيئة والتلوث والأمن والفقر والمرض... إلخ، والتعامل مع (الآخر)، وأهمية تطوير المفردات وإبداع المصطلحات التي تحمل الدلالات الواضحة، والاجتهاد في تقديم رؤية وفلسفة لهذه القضايا من منظور القيم الإسلامية،

والمساهمة بالانفتاح صوب (الآخر) لإيصال الخير إليه، والاعتراف به، والإحسان إليه، الذي يعتبر الطريق السالكة لكسب ثقته.

وهنا أحب أن أضيف قضية، وهي أن المسلمين طالما هم شركاء في هذه الدنيا، القائمة على الوجود المتنوع والتأثير والتأثر والتفاعل والثقافات المختلفة، فإن أي تغيير في واقعها، ولو كان من قبل (الآخر)، يستدعي بالضرورة إعادة النظر بالخطاب، ليتلاءم مع الواقع الجديد والمتغير، حتى ولو لم يطلب منا (الآخر) إعادة النظر.

فإذا كان التغيير والتطوير سنة الحياة، فكيف يسوغ لنا التوقف عن التجديد والتطوير والتغيير؟ وإذا كان عمر النزول القرآني ثلاثة وعشرين عاماً، قد رافقها الكثير من التنوع والتغيير والتطوير وأحياناً النسخ في سياق الآيات المكية والمدنية، فكيف بعشرات السنين ومئات وآلاف الأعوام المتوالية، بكل ما تجئ به من حوادث ونوازل ومستجدات؟

أزمة تعامل لا أزمة منهج:

وهنا قضية، نعتقد أن طرحها وفتح ملفها على غاية من الأهمية والدقة، وهي: أننا نحن المسلمين لا نعاني من أزمة خطاب إنساني قادر على الاستجابة لتطور الحياة بشكل عام، أو أزمة منهج بشكل أخص، يوضح المقاصد، ويبين الإطار المرجعي، ويقدم الأنموذج التطبيقي في السيرة والبيان التفسيري في السنة، وإنما الذي نعانيه إنما يتمثل في أزمة التعامل مع هذا المنهج، أو مع هذا «الخطاب الإسلامي» الخالد، وإبداع الآليات والكيفيات التي تؤهلنا لحسن التعامل معه وتنزيل أحكامه على واقع الحياة، وتقويم مشكلات الواقع بقيم هذا الخطاب، في القرآن والسنة، والتعامل معه من خلال فقه الواقع بكل مكوناته واستطاعاته.

ولنا من السيرة، وتجسيد قيم الخطاب في الواقع، ومن التجربة الحضارية التاريخية، خير دليل وشاهد عدل على مجموعة المواصفات المطلوبة لواقعية الخطاب وقدرته على النهوض والتغيير والارتقاء والبصيرة.

فالأزمة ليست أزمة خطاب، أو أزمة منهج، فالخطاب موجود، ونماذج التنزيل على الواقع موجودة، والاجتهاد لذلك كله مطلوب ومأجور، لكن الأزمة أزمة تعامل وقدرة على الاجتهاد والتوليد والتجديد والتنزيل على الواقع، من خلال استطاعات الواقع وإشكالياته وبيئته وفضاءاته، وآليات التعامل مع (الآخر)، وإقامة التوازن المطلوب بين الأمنيات والإمكانيات.

وقد تكون الإشكالية، كما أشرنا في كثيرٍ مما كتبنا سابقاً، في بروز الخطباء وغياب الخبراء في الأمة، أو في غياب الفقه وذهاب العلم، ونستطيع أن نقول: لقد انعكس تخلفنا على فهمنا وتعاملنا مع خطابنا (القرآن)، وتحولت العناية به إلى حفظه وحسن ترتيله وطباعته والاقتصار على ترداد فهوم السابقين دون القدرة على التجاوز والتوليد بحسب الواقع المتغير، ونخشى أن نقول: إننا نعيش المرحلة التي أخبر عنها الصادق المصدوق من ذهاب العلم وشيوع الأمية العقلية وتسرب علل الأمم السابقة، التي حذرنا الله منها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ (البقرة:٧٨)، أي: لا يعلمون الكتاب إلا تلاوة وترتيلاً، قال ابن تيمية، رحمه الله، عن ابن عباس وقتادة في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾: أي غير عارفين بمعاني الكتاب، يعلمونها حفظاً وقراءة بلا فهم، لا يدرون ما فيها... وقوله: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾، أي: تلاوة، لا يعلمون فقه الكتاب، إنما يقتصرون على ما يُتلى عليهم...

والأمية العقلية هذه، تسود الأمة في حال التقليد، والغياب الحضاري، والعجز عن تدبر القرآن، والتعامل مع الأحداث، واتخاذ المواقف، واكتشاف سنن الله في الأنفس والآفاق وحسن تسخيرها، ومعرفة كيفية التعامل معها، والنفاذ من منطوق النص وظاهره إلى مقصده ومرماه، والتدخل حين نعلم السنة، وأنها تتكرر ولا تتبدل، فنستطيع توجيهها إلى حيث نريد ونفيد، فنصل إلى مرحلة مغالبة القدر بقدر أحب إلى الله، أو نفر من قدر

الله إلى قدر الله، كما قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.. يقول ابن القيم، رحمه الله: ليس الرجل الذي يستسلم للقدر، بل الذي يحارب القدر بقدر أحب إلى الله... [1].

إنها الأمية العقلية التي نعيشها اليوم مع القرآن، والتي تعني ذهاب العلم على الرغم من تقدم فنون الطباعة، ووسائل النشر، وتقنيات التسجيل.. ولعل فيما يذكره ابن كثير، رحمه الله، عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ....﴾ (المائدة:٦٣) في الجدال الذي وقع بين الرسول ﷺ وصاحبه زياد بن لبيد، يعتبر مؤشراً دقيقاً على الأمية العقلية التي صرنا إليها مع كتاب الله.

فعن الإمام أحمد، رحمه الله، قَالَ ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا فَقَالَ: «**وَذَاكَ عِنْدَ أَوَانِ ذَهَابِ الْعِلْمِ**».. قَالَ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! وَكَيْفَ يَذْهَبُ الْعِلْمُ وَنَحْنُ نَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَنُقْرِئُهُ أَبْنَاءَنَا، وَيُقْرِئُهُ أَبْنَاؤُنَا أَبْنَاءَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا ابْنَ أُمِّ لَبِيدٍ، إِنْ كُنْتُ لَأَرَاكَ مِنْ أَفْقَهِ رَجُلٍ بِالْمَدِينَةِ، أَوَلَيْسَ هَذِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ لَا يَنْتَفِعُونَ مِمَّا فِيهِمَا بِشَيْءٍ**».

فالإشكالية، كل الإشكالية، والعطب والخلل، تكاد تكون اليوم في «خطاب المسلمين»، الذي يشكل أدوات ووسائط التعامل والتواصل والتوصيل مع «الخطاب الإسلامي» في الكتاب والسنة، الذي فشل ولا يزال في تحضير المسلمين للإفادة من قيم الكتاب والسنة وحسن تنزيلها على الواقع، وتقويمه بها، كما فشل في قراءة التراث، كإنتاج بشري اجتهادي، والتعامل معه وحسن استشرافه؛ لأنه يعتبر المقدمة التي صنعت هذا الواقع الذي نشكو منه جميعاً والذي إذا استمر فسوف يصل خلله وخطؤه لإصابة المستقبل أيضاً.

وما لم ندرك أن النقد «لخطاب المسلمين» وإنتاجهم في شتى ضروب المعرفة هو أداة التغيير ووسيلة التحول والانتقال من مرحلة إلى أخرى؛

---

(١) مدارج السالكين، ج١.

وما لم ندرك أن ثقافة النقد هي التي صنعت القلق السوي والحس بالتناقض بين القيم والواقع، وصنعت الهاجس الدائم والفاعلية الدائبة في التفكير بالارتقاء واكتشاف مواطن الخلل؛

وما لم نبن العقل الناقد، العقل العدل، الذي يحمل القيم الصحيحة ويكتشف مواطن الجمود والغلو والانحراف والفساد، ويقف بجرأة وشجاعة لنقدها وتقويمها، استجابة لقول الرسول ﷺ: «**يحمل هذا العلم من خلف عدُولُه، ينفون عنه تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، وتحريف الغالين**»؛

وما لم ندرك المساحات الكبيرة التي وردت في «الخطاب الإسلامي» للنقد الذاتي: ﴿ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ ﴾ (آل عمران:١٦٥)، والنقد الحضاري في القصص القرآني جميعه تقريباً، فسوف نستمر في رحلة الوهم ونحن نحسب أننا نحسن صنعاً، ولعلنا نقول هنا: إن الأنبياء هم رسل وطلائع النقد والتصويب والتغيير للواقع وتقويمه بقيم السماء.

وسوف لا نأتي بجديد، وإنما لمعاودة التذكير: بأن خيرية الأمة المسلمة، التي كانت خير أمة أخرجت للناس، إنما تحققت بسبب عدم تواطئها على الخطأ والمنكر، ذلك أن استمرار هذه الخيرية منوط باستمرار النقد والمناصحة؛ لأنها تمثل روح الأمة وسبيل بقائها.

ولعل تسمية الخلل والحيدة عن الجادة ومخالفة القيم والمعايير بالكتاب والسنة بهذا المصطلح: «المنكر»، أي الأمر المستنكر، ما يعتبر من أعلى درجات النقد والمناصحة وأشدها، حيث جعل الإسلام النقد والتقويم والمراجعة مسؤولية جماعية ومسؤولية فردية في وقت واحد، يقول تعالى: ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ ﴾ (آل عمران:١٠٤)، ويقول الرسول ﷺ: « **مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِه، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِه، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِه، وَذَلكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**»[1].

(١) أخرجه مسلم.

واعتبر الإسلام توقف النقد والمناصحة معصية ومدعاة لوقوع الكوارث والعذاب الجماعي، يقول تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ (الأنفال:٢٥)، ويقول الرسول ﷺ: « **وَالَّذي نَفْسِي بِيَده لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوف وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلا يُسْتَجَابُ لَكُمْ** »[١]، ويقول ﷺ: « **إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ** »[٢].. ولم ير الإسلام عذراً للقاعدين عن النقد والمناصحة والحسبة: «**أَلا لا يَمْنَعَنَّ رَجُلاً هَيْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ بِحَقٍّ إِذَا عَلِمَهُ**»[٣].

لذلك فالخيرية واستمرارها، والنمو، والعطاء، والامتداد، وحمل الرحمة، وتقويم الاعوجاج، وتحقيق عصمة الأمة، وتصويب الخطأ والخلل، بل معاودة إخراج الأمة وبناء خيريتها، مرهون باستمرار النقد والمناصحة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

لذلك نرى عمليات النقد والمناصحة والمراجعة وإنكار المنكر أخذت بعداً تاريخياً بالنسبة لقصص الأنبياء مع أقوامهم ولم وتقتصر على نقد (الآخر) فحسب، وكيف أن توقف النقد والمناصحة وإنكار المنكر ومعالجة الخلل كان سبب الانقراض؛ لأنهم ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (المائدة:٧٩)، وإنما كان نصيب الذات منها الشيء الكثير والكبير من المساحات التعبيرية في القرآن والنماذج التطبيقية في السيرة.

فالبدريون، وهم خير الأمة - ولا أدل على ذلك من قول الرسول ﷺ: « **لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَى مَنْ شَهِدَ بَدْرًا فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ** »[٤] - قد قص الله علينا خلافهم في الغنائم بعد المعركة، وكيف أن فريقاً منهم كان كارهاً الخروج للمعركة،

(١) أخرجه الترمذي، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.
(٢) أخرجه الترمذي، وقال: وَهَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ.
(٣) أخرجه الترمذي، وقال: وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.
(٤) أخرجه البخاري.

وكيف جادل بالحق بعد ما تبين له، حتى تروي السيرة أن عبادة بن الصامت قال: اختلفنا في غنائم بدر حتى كادت تسوء أخلاقنا، فنزعها الله منا، وجعل أمر قسمتها لله ورسوله.

وما قراءة الآيات في مطالع سورة الأنفال إلا دليل وبيان على الحال، التي تتطلب إعادة البناء وتصويب الخلل.

وفي غزوة أحد، التي انتهت بهزيمة كبيرة وإصابات بالغة، عندما تساءل الصحابة عن أسباب الهزيمة: أنّى هذا؟ جاء الجواب الحاسم: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾، وورد في الآيات تفصيلاً للأسباب التي كانت وراء الهزيمة، ليأخذ المسلمون حذرهم، حتى تجاوز النقد في أعقاب المعركة الحالة الظاهرة إلى خفايا النفوس: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ (آل عمران:١٥٢)، وهذا مستساغ لمعرفة الوحي حتى يدع الناس ظاهر الإثم وباطنه.

لكن المشكلة قد تكون في العجز عن تطوير أساليب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ووسائل وآليات الرقابة العامة في المجالات المتعددة في الواقع الإسلامي اليوم، وانتهاء عملية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى نماذج وممارسات قد لا تكون مقنعة في كثير من الأحيان بل مسيئة، بعد أن تطورت في الأمم الأخرى شعب المعرفة جميعاً وأنشطة الحياة جميعاً، السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية والأدبية... ووظف هذا التقدم للارتقاء بالإعلام وأدواته المتنوعة حتى أصبحت الصحافة والإعلام والنقد تمثل سلطة رابعة.

إن هذه الممارسات البائسة لا تحط من قدر القيم ولا أهميتها، ولا دورها في الفعل الاجتماعي والتصويب لمسيرة الأمة، وحمايتها من الانحراف والسقوط حتى لا تحيط بها خطيئتها، لذلك ندعو إلى تفعيل دور النقد والتقويم والمراجعة لخطاب المسلمين، في محاولة إلى استرداد فاعلية هذه القيم، وإدراك أهميتها، وتطوير أساليبها وأوعيتها؛ لأن معاودة إخراج الأمة واسترداد فاعليتها وبناء خيريتها منوط بإدراك أبعاد رسالتها، ومعرفة طريقها، وإقامة الحمايات والحراسات على الطريق، المتمثلة في النقد والمراجعة والتقويم: ﴿ كُنتُمْ

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران:١١٠).

إن تحرير معايير النقد والتقويم والمراجعة وتحديد مرجعيته، لكشف الخلل واقتراح الحلول البديلة، يعتبر من المرتكزات الأساس في ممارسة عملية النقد، حتى لا يتحول النقد إلى جلد، والعدول عن تجريح الأشخاص إلى تقويم الأعمال، وتوقف المناصحة، و«**الدِّينُ النَّصِيحَةُ** »[1]، والتستر على الأخطاء، باسم وحدة الصف تارة والحفاظ على تماسكه وعدم تبصير العدو بمواطن الضعف والخلل تارة أخرى، وكأن ما قدمه القرآن، في أعقاب معركتي بدر وأحد لأكرم جيل وأكرم قيادة، وقد كانوا أحوج ما يكونون لوحدة الصف وعدم تبصير العدو بمواطن الضعف، كان خطأ.

إن التستر على الخطأ يؤدي إلى تكريس التخلف والتراجع والجمود والاستنقاع الحضاري، ويمثل نوعاً من الخروج عن سنن الحياة المتغيرة، والعصيان لدواعي الشرع في طلب المناصحة والتجديد، وحيدة عن منهج القرآن في البناء، ومؤشراً على تسرب علل التدين للأمم السابقة، التي كانت السبب في السقوط الحضاري؛ لأنهم ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (المائدة:٧٩).

وتربية الروح الناقدة المبصرة، وصناعة القابلية والتأهيل لقبول المراجعة والنقد، ليس بالأمر السهل على النفس.

إن تأهيل المجتمع، وتحضير المتلقين، وتثقيفهم، وتمرين أذهانهم على النظر والمقارنة والمقايسة والفحص والاختبار، والتراجع عن الخطأ، واعتبار ذلك موازياً للثبات على الحق، أو ما يسمى بالمصطلح الشرعي: «التبين» قبل اتخاذ الموقف، أو بمعنى آخر إشاعة ثقافة النقد والمناصحة وبناء العقل الناقد، هو السبيل لصنع القابليات للتجديد والتغيير والارتقاء، وإلا أصبح خطاب النقد والتقويم مستنكراً؛ لأنه خارج عن الإيقاع العام، ومحاصر

---

(١) أخرجه البخاري.

لا ينتفع به، حيث يصدق في ذلك قول الشاعر:

وكم من قائل قولاً صحيحاً ... وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الأفهام منه ... على قدر القرائح والعلوم

فتأهيل المتلقي ليقنع أن الناقد هو الشريك في عملية البناء، ويدرك أن العقل الناقد هو القادر على التطوير والتغيير، هو من الأهمية بمكان بالنسبة «لخطاب المسلمين» المعاصر، وهو مطلوب بالنسبة للخطاب والإنتاج الثقافي بشكل عام، على الرغم مما قد يصاحب النقد من الانحياز والتجريح، وأحياناً الخروج عن خلق المعرفة وآداب الاختلاف، ويتجلى ذلك بشكل واضح وجارح إذا كانت معايير النقد والتقويم والمناصحة من وضع الإنسان نفسه، لما يخالطها من حظ نفس وتصفية حسابات، ومع ذلك فإن المثاقفة والمحاورة والمجادلة بحد ذاتها مؤذنة بالوصول إلى الحقيقة والصواب، فكيف إذا كانت معايير النقد ليست من وضع الإنسان، وكانت معصومة ومتأتاة من جهة خارجة عن الإنسان، موحى بها من الله سبحانه وتعالى؛ لأن المعايير الموضوعة من الإنسان نفسه مهما تجردت لا تبرأ من التحيزات - كما أسلفنا - وبذلك يصبح الإنسان هو الأداة والمعيار وهو موضوع المعايرة، هو الناقد واضع معايير النقد وهو موضوع النقد.

خطورة تأثيم الفعل النقدي:

وفي تقديري أن إشكالية الخطاب الكبيرة والخطيرة تتمثل في تجريم وتأثيم الفعل النقدي، الذي أدى إلى غياب النقد والتقويم والمراجعة والمناصحة بسبب تلبس «خطاب المسلمين»، الذي هو في نهاية المطاف اجتهاد بشري نسبي قابل للخطأ والصواب محتاج للنقد والمراجعة والتقويم بقيم الكتاب والسنة، «بالخطاب الإسلامي»، نصوص الكتاب والسنة وتطبيقات السيرة الصحيحة، أي بين قيم الدين المعصومة الثابتة المطلقة وصور التدين، الأمر الذي أدى إلى اختلال الموازين، واختلاط الأمور، وسيطرة الرعب والإرهاب الفكري، الذي يحمي الخطأ، ويكرس التقليد والتخلف، ويحول دون الإبداع والتجديد والاجتهاد، ويؤدي إلى انفجارات عشوائية خطيرة؛ وأكثر من ذلك، يجعل

المسلم في حيرة من أمره وشك في جدوى قيم الإسلام وقدرتها على حل المشكلات ومعالجة النوازل واستشراف المستقبل وتقديم الإجابات الصحيحة عن أسئلة الحياة اليومية وكيفية التعامل معها، من خلال قيم الكتاب والسنة؛ لأن الدين أو التدين قد تحوَّل إلى كهانات معصومة أصبحت هي المعيار(!)

هذه هي إشكالية الخطاب الكبيرة والخطيرة، وما وراءها لا يخرج عن كونه مظاهر لها أو أعراضاً ونواتج ومشكلات صغيرة على هوامش الإشكالية الكبيرة، مرهون علاجها بمعالجة المشكلة الأساس.

وهذه الإشكالية في الأصل ناتجة عن غياب العقل الجمعي الاستراتيجي، أو التفكير الاستراتيجي، الذي يبصر الأهداف، ويتبصر بالعواقب، ويأرق من تخلفها، ويوائم بين الأمنيات والإمكانيات، ويدرس الجدوى قبل الإقدام، ويستوفي الدراسات المطلوبة من قبل أهل الخبرة والاختصاص، ويراقب الحركة، ويتابع المسيرة، ويقوِّم المراحل، ويحدد موطن الخلل، ويأخذ بالاعتبار الإمكانات المتاحة والظروف المحيطة، وفي مقدمتها معرفة (الآخر) وخططه ومراقبة تصرفاته، ومن ثم يأخذ ذلك جميعه بعين الاعتبار.

وقد يكون المطلوب من «خطاب المسلمين» اليوم نزع فتيل الغضب والحماس والانفعال، الذي يحول بطبيعته دون التروي والتنبيه والتعرف على الإمكانات واختيار المكان الملائم للفعل، ضمن ظرف الزمان والمكان، حيث لا بد من النقلة الذهنية للمسلمين اليوم ليتم التحول من قول الشاعر الحماسي:

السيف أصدق أنباءً من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب

إلى قول الشاعر الحكيم:

الرأي قبل شجاعة الشجعان

هو أول وهي المكان الثاني

فيسبق الفكر الفعل، وتدرك أبعاد النية قبل العزيمة والحركة.

من إصابات «خطاب المسلمين» المعاصر

قد يكون من المفيد أن نشير إلى بعض الإصابات التي لحقت «بخطاب المسلمين» فأعجزته، وعزلته، وأطفأت فاعليته وتأثيره في الذات و(الآخر)، وأخرجته من الساحة، وأصبح فكراً خاصاً منعزلاً، كما أن الكثير من العاملين للإسلام أصبحوا أجساماً منفصلة عن المجتمع، وابتعدوا عن التوسع في دوائر الخير فيه والتعرف على مشكلاته، وأطلقوا أحكاماً جزافية أعفتهم - حسب ظنهم- من المسؤولية، وسوغت لهم عند أنفسهم الانسحاب والخروج، فجاء «الخطاب» ثمرة لهذا كله.

ولعل في مقدمة الإصابات:

- غربة الزمان والمكان:

وهذه من الإصابات الخطيرة التي تفقد الخطاب واقعيته، وحيويته، وجديته، وفقهه للواقع، وغيابه عن المشكلات والمعاناة اليومية للمجتمعات، وتحول دون الانخراط في قضايا الأمة الكبرى وتقديم الرؤية الإسلامية للعلاج، وتؤدي إلى تراجع الحركة والاجتهاد في تنـزيل القيم الإسلامية على واقع الحياة وتقيمه بها.

فقيم الدين إنما جاءت لإصلاح الدنيا، ومعالجة مشكلاتها، ورفع معاناتها، واسترداد إنسانية الإنسان، وتحقيق كرامته، ومنحه الحرية والمساواة المتولدة من قصر العبودية على الإله الواحد، وإلغاء تسلط الإنسان على الإنسان، تحت شتى المسميات.

أما الانسحاب من المجتمع والانفصال عن جسم الأمة والنكوص عن معالجة مشكلاتها بحجة محزنة هي أن هذه المشكلات إنما تولدت عن تطبيق أنظمة وقيم غير إسلامية، وأن تلك الأنظمة وتلك القيم هي المسؤولة عن مشكلات الأمة ولا شأن للإسلام بها، إذ لو كان الإسلام هو الحاكم لما كانت تلك المشكلات، فقضية خطيرة، وتكاد تكون مدمرة؛

ذلك أن الإسلام إنما جاء لهداية الناس واستنقاذهم مما هم فيه، مما أورثته وتورثه الجاهليات بكل أشكالها ومواطنها وأسبابها.

أما القول: بأن هذه المشكلات تولدت من قيم غير إسلامية، فعلى صحة ذلك، فهو دليل على الحاجة إلى الإسلام، الذي جاء علاجاً ودواءً ورحمة للعالمين، الذين سقطوا في الجاهليات والأخطاء والمعاصي، فما قيمة الإسلام إذا جاء لمجتمع لا مشكلات فيه؟

هذا إضافة إلى حجج أخرى ليست أقل بؤساً وتأزماً، وهي أن معالجة المشكلات وتقديم الحلول لها هو قيام بواجبات ومسؤوليات هي في الأصل من مسؤوليات الدولة، التي لا تلتزم الإسلام، والقيام بهذه المسؤوليات إعانة لها وتقوية وتمكين لاستمرارها (!) وبذلك إبطال لرسالة الإسلام في الحياة، وفلسفة للهروب والانسحاب من المساهمة بالارتقاء بالأمة إلى مستوى الإسلام، وإقناعها بأنه الدواء الشافي لأمراضها.

لذلك نرى الكثير من «خطاب المسلمين» يعيش في غيبوبة، بعيداً عن الواقعية، أو عن فقه الواقع، أو الانخراط في الواقع، أو طرح مشكلات الواقع، وبذلك يعاني غربة، ويقيم الحواجز بينه وبين الناس، فكيف نقدمه لناس لا ندرك مشكلاتهم، ولا نعرف أسبابها، ولا نعالج آثارها؟ كيف نرغّب في الإسلام ونثير الاقتداء؟ هل يفيدنا المكوث في غرفة الانتظار حتى يأتينا الناس أطهاراً بريئين من آثامهم؟

وقد يكون الهروب إلى الماضي والغيبوبة فيه والعجز عن الإفادة من تجربته لعلاج الحاضر وإبصار المستقبل، هو من بعض الوجوه يمثل غربة الزمان الذي تغير، ومحاصرة الخلود والقيم الإسلامية وصلاحيتها لكل زمان ومكان، ومحاولة لمعالجة مركب النقص، وتغطية العجز عن الإنجاز.

إن استشراف الماضي والإفادة منه، لاستيعاب الحاضر وإبصار المستقبل، من الأمور الأساسية في عملية النهوض والتنمية، إذ أن الحاضر هو مستقبل الماضي وماضي المستقبل.. وهذه الأبعاد الثلاثة للزمن هي مكون الحضارة، وسبيل فهم السنن، وتسخيرها، وإعمالها

في الحياة، ومغالبة قدر بقدر.. أما إسقاط الزمان أو أحد أبعاده فهي غيبوبة وانقطاع وغياب وعي، فالاحتماء بالماضي والتشبث به دون القدرة على الإفادة من تجربته وعبرته للحاضر والمستقبل عطالة وخزي وعجز وعدم فقه، وموت حضاري.

وقد لا نستغرب كثيراً إذا قمنا بعملية اختبار بسيطة، وهي أن نأخذ إحدى الدوريات التي تمثل «خطاب المسلمين»، ونزعنا عنها الغلاف، الذي يحدد زمان ومكان صدورها، لنرى كم يصعب علينا أن ننسبها لزمان ومكان بعينه (!).. وإذا أخذنا إصداراً قبل خمسين سنة فسوف نجد أن القضايا المطروحة هي نفسها والمعالجة هي نفسها أيضاً، دون أن يكون لنصف قرن من الزمان والتغير والاختلاف أي أثر في بناء خطابنا ومكونات ذهننا.

وكذلك الحال إذا حاولنا دخول أحد المساجد للصلاة والاستماع إلى خطبة الجمعة، التي الأصل فيها أن تعالج الخطوب الواقعة والمتوقعة في الأمة.. ولعلها سميت «خطبة» لأنها إنما شرعت لمعالجة الخطوب الكبيرة والعظيمة، وفي الأثر أن الرسول القدوة ﷺ كان إذا حلَّ بالمسلمين أمرٌ عظيم قام فخطبَ الناس وخاطبهم.

والحقيقة التي يصعب علينا الاعتراف بها أيضاً أن نحدد مجتمع الخطبة وزمان الخطبة.. وهكذا الكثير من خطابنا اليوم، يعاني من عدم الواقعية ومن غربة الزمان والمكان، وقد تجد لذلك ثقافة رائجة في داخلنا، لأكثر من سبب، وفي مقدمة ذلك أن الكثير من خطابنا اليوم يطغى عليه الانغلاق، وتحاصره أسوار الحزبية والطائفية.

- طغيان الخطاب الحزبي والطائفي:

إن الخروج والانسحاب من المجتمع، وتشكيل أجسام خاصة منفصلة وجزر معزولة عن واقع الحياة، وفصل قيم الدين عن واقع الحياة عملياً، وإن كنا نرفض ذلك نظرياً، والإحساس الخادع والمخادع بالتميز، والتصور المتوهوم بالمثالية، والإعجاب بالذات، والحط من قدر (الآخر)، على مستوى الداخل (الذات) والخارج (الآخر)، أنتج خطاباً

خاصاً ينصرف في معظمه إلى الاقتصار على قراءة (الذات) وتمجيدها، بحيث يتحول «الخطاب»، مهما اختلف مكانه وزمانه، حتى ولو كان دورية عامة، مجلة أو جريدة أو موقعاً إلكترونياً، إلى نشرة خاصة حزبية أو طائفية، لا تقرأ إلا فكرها ولا تعجب إلا بنفسها، حتى لو كان مكان الخطاب الجمهور العام أو الجامعات أو المعاهد أو الكليات أو المدارس أو المساجد أو سائر الأنشطة الفكرية، وحتى المنابر العلمية - مع الأسف- توظف لمحاكاة الفكر الحزبي والتمكين له، الذي يتحول شيئاً فشيئاً لبناء طائفي سميك الجدار، بحيث تقوى الأسوار الحزبية وتضيق وتنتهي إلى ألوان من التطفيف والبخس والجهل (بالآخر) والعطالة، وهكذا يتحول موقع الماضي ليصبح مستقبلاً، ويقتصر الأمر والفكر والخطاب على التغني بالماضي، باعتباره هو البديل عن التفكير بالمستقبل.

إن «الخطاب الحزبي»، بدل أن يكون محرضاً على الحوار والمثاقفة والمفاكرة والمناقشة وإنعاش المنافسة وتنشيط الذهن، تحول إلى قوالب جامدة، وتكاد تكون مقدسة، ومتاريس وخنادق وصراعات واقتتال وإقامة خيام جديدة بدل أن تكون خيام قبائل، حيث تطور الشكل وبقي المضمون.. فالحزبية تنتج خطاباً حزبياً، و«الخطاب الحزبي» ينتج خياماً ويكرس النزعات الحزبية التي بدأت تنغلق وتتطوأف، بحيث تحول الولاء للحق والفكرة إلى الولاء للأشخاص، وفي ذلك ارتكاس إلى البدائية وأي ارتكاس (!)

وبدل أن تكون الأحزاب والتجمعات محلاً للتدريب على القيم الإسلامية والمناصحة وإشاعة معاني الخير وتحقيق كسب أكبر للقضية، للفكرة، تحولت لتصبح هدفاً بحد ذاتها؛ تحولت من وسيلة إلى غاية، ومن تحقيق المبادئ إلى كسب وتوفير المصالح التي قد تكون سريعة وموهومة.

وبالإمكان القول: إن الكثير من الجماعات والأحزاب امتلكت القدرة على بناء الجدران الحزبية وحمايتها، لكنها بقيت عاجزة عن ملاحظة المتغيرات وتطوير الذات؛

واستطاعت أن تستمر لكنها لم تستطع أن تنجز، اللهم إلا من تضخيم بعض الأفراد، حيث صار الحزب والجماعة في خدمة الفرد، وليس العكس.

إن حال الجماعات والأحزاب، التي يفترض فيها أن تشكل الأمل والحلم، ليس بأحسن من حال الدول والحكومات إلا من حيث الحجم، أما المضامين والممارسات فتكاد تكون واحدة؛ لأن خطاب الجميع ينطلق من منطلقات واحدة، وينتج عقليات وكيانات متماثلة في المضامين، وإن اختلفت في العناوين. وهذا بلاء من البلاء، يقضي على الأمل في التغيير والإصلاح؛ فما المعارضات بأحسن حالاً من الحكومات، والحال من بعضها، كما يقال.

- من خطاب الأزمة إلى أزمة الخطاب:

ما من شك بأن لكل مقام مقال، كما يقال، ولكل حالة خطابها الملائم، ولكل علم خطابه، ولكل جنس فكري وأدبي وعلمي خطابه وأسلوبه ومفرداته ومصطلحاته أيضاً، سواء كان تربوياً أو سياسياً أو اجتماعياً أو علمياً؛ والتعميم والتوهم أن الخطاب المنتَج لمعالجة حالة يصلح لكل حالة هو نوع من العامية أو عمى الألوان، فالبلاغة في أبسط مدلولاتها هي «مطابقة الكلام لمقتضى الحال».. وبدون إدراك الحال ومكوناته وإصاباته واستحقاقاته وعواقبه لا يمكن أن يجئ الخطاب مطابقاً لمقتضى الحال.

ولعل من الإصابات الخطيرة التي لحقت بخطاب بعض الجماعات والتجمعات الإسلامية، بسبب ما عانته من الخلل ابتداءً، وذلك يعود إلى عدم إنتاج خطاب يحقق الوقاية ويحول دون وقوع الأزمات، إضافة إلى الفشل في كثير من الأحيان في إنتاج خطاب قادر على إدارة الأزمة والتعامل معها، أن الأزمات المتلاحقة التي مرت بالعاملين للإسلام والمعاناة التي عاشوها أنتجت أدبيات معينة وتفسيرات معينة لآيات في الكتاب ومقاصد التشريع، كما أن قراءات للتراث أيضاً جاءت خاصة، إضافة إلى أن إسقاطات القيم في الكتاب والسنة على الواقع جاءت من وحي الأزمة والإصابة.

لقد أفرزت الأزمة خطابها المتسم بالغضب والإدانة والشجب والمواجهة والاتهام... إلى آخر هذه القائمة التي تتمحور حول المواجهة والتعبئة، بما يمكن أن نطلق عليه «خطاب الأزمة».. لكن الإشكالية في أن يتكرس هذا الخطاب ويخلد ويستمر وينتج ذهنيات لا تحسن غيره، وقد تصل إلى قناعة أن المواجهة دليل الصحة والاستقامة والصواب ولا تستطيع قراءة تغير الحال وتبدل المقامات وتغير المصالح واستبدال الوسائل، فتتحول من خطاب الأزمة، الذي قد يكون طبيعياً في طرقه ودوافعه، إلى ما يمكن أن يصطلح عليه بـ: «أزمة الخطاب».

ولعلنا نقول: إن «خطاب المسلمين» اليوم هو خطاب مأزوم إلى حد بعيد؛ لأنه في معظمه تمركز حول خطاب المواجهة والحماس وبقي يفتقر إلى الكثير من التقويم والمراجعة واختبار الملاءمة، ومن ثم القدرة على التجاوز والاكتفاء بالعبرة، فقد بات «خطاب بعض المسلمين» يستدعي الأزمات؛ لأنهم لا يحسنون إلا «خطاب الأزمة»، الأمر الذي أوقعهم بـ: «أزمة الخطاب»، والتحرك في حلقات مفرغة بعيدة عن مراقبة الواقع ومتطلباته.

- شيوع خطاب الحماس وانكماش خطاب الاختصاص:

ومن الظواهر الخطيرة والإصابات البالغة التي لحقت «بخطاب المسلمين» شيوع خطاب الحماسات والشعارات والانفعالات وردود الأفعال، الأمر الذي أنتج أنواعاً من «زعامات الخطبة» الذين لا يملكون غير جهورية الصوت، وسماكة الحناجر، والقدرة على مخاطبة المشاعر والعواطف والإثارة، والاكتفاء بالإحساس بالمشكلات، وتحسيس الناس بها، دون القدرة على إدراكها وتحليل مكوناتها ووضع الحلول والأوعية الشرعية لطاقات الأمة في الموقع المجدي، وامتلاك القدرة على معالجة المشكلات بدراسة أسبابها وترميم آثارها، الأمر الذي يعود على الأمة بمزيد من سوء التقدير، الذي يستدعي هدر الطاقات واتساع الحركة العشوائية والغوغائية، والتوهم بأن الصياح والبكاء والأصوات العالية هي

المفتاح السحري لحل المشكلات، وهي حالة طفولية يمارسها الطفل عادة لاستدعاء من يؤمِّن عادة حاجاته ويحقق متطلباته، لكن المشكلة أن الحالة الطفلية، والتي لم تعد مقبولة لتربية الأطفال وتنشئتهم عليها، تستمر في حياة بعض الشعوب، فتتوهم أنها بالصياح والتظاهر والشعارات تحل مشكلاتها.

هذا إضافة إلى أن حقنات الحماس، التي يقوم بها الخطباء للأمة، إذا لم تترافق بوضع برامج وأوعية لحركة الأمة، تأخذ في اعتبارها الظروف المحيطة والإمكانات المتاحة، فسوف تؤدي إلى انفجارات عشوائية تصبح وباءً على الأمة وسبباً في تراجعها وتآكلها، وسبيلاً لمزيد من الانحطاط ونيل عدوها منها.

فإذا كانت أبسط قواعد المنطق تقول: بأن الحكم على الشيء هو فرع عن تصوره، فكيف لنا أن نقتنع بأن بروز «خطاب الحماس» وغياب «خطاب الاختصاص» سوف يحل المشكلة؟ كيف نتصور إصابات بروز الخطباء وغياب الفقهاء والخبراء، وما تورثه للأمة من إشكالات؟ ولعل الزعامة التاريخية المفضلة كانت ولا تزال زعامة الخطبة.

وقد يكون من أخطر نتائج ذلك تقديم أهل الثقة والولاء الحزبي والسياسي على أهل الخبرة والاختصاص.

- غياب مواصفات الخطاب المطلوب:

وقد يكون من الإصابات الخطيرة، التي لحقت «بخطاب المسلمين» اليوم، غياب التمييز وسوء التقدير والعجز عن التحديد لمواصفات «الخطاب» المطلوبة بحسب موضوعه، ومن ثم عدم الموضوعية، والتوهم بأن المقال الواحد يصلح لكل المقامات، وقد أشرنا سابقاً إلى أن البلاغة في أبسط مدلولاتها هي «مطابقة الكلام لمقتضى الحال»، وأن من الآثار الشرعية - إضافة إلى موضوعية الخطاب وأهدافه- ملاحظة أحوال المتلقين واستطاعاتهم وأحوالهم وكسبهم المعرفي وسويتهم.

ولعل القول المأثور: «خاطبوا الناس على قدر عقولهم، أتحبون أن يكذب الله ورسوله»، وكيف أن الخطاب يمكن أن يتحول من البناء إلى الهدم، ومن الارتقاء بالناس إلى إيقاع الفتنة فيهم، يعتبر معلماً على طريق الدعوة الطويل.

فمن حيث الموضوع هناك مواصفات تكاد تصبح منهجاً ومعلماً، سواء من حيث الأسلوب أو المفردات المستخدمة، أو ما يمكن أن نسميه بـ: «الأدوات»، فالحرب، والتعبئة النفسية، والإغراء بالتضحية والإقدام، وثواب الشهادة وقيمتها وأبعادها، والتحريض على قتال العدو، واستعذاب الموت والتضحية، والصبر على الشدائد، والفروسية، وما إلى ذلك، له أسلوبه وأدواته وفاعليته، ولقد شرع لنا «خطاب الإسلام» (القرآن) نماذج في ذلك، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ (الأنفال:٦٥)، ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ (التوبة:١٢٣)، ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (الأنفال:١٢)، ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ (التوبة:٢٩).. إلى آخر هذه الآيات.

بينما نجد مواصفات ومفردات وأدوات خطاب الحوار والمجادلة والدعوة والتربية تختلف اختلافاً بيناً .

ولقد قدم القرآن كذلك نماذج مضيئة للاقتداء وبناء الذهنية المسلمة على حسن التقدير والموضوعية، فقال تعالى في هذا المقام: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ (النحل:١٢٥)، وقال تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت:٤٦)، وقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ...﴾ (آل عمران:٦٤)، وقال: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران:١٥٩)، وقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾.

كما قدم القرآن نماذج أخرى للخطاب في موضوع ومجال آخر هو مجال العقيدة، قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ (البقرة:٢٥٦)، ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ (الغاشية:٢٢)، ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ (النمل:٦٤).

أما في مجال التعامل الاجتماعي والمواطنة والسلم الأهلي، فللخطاب أسلوب آخر ومفردات أخرى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ (الممتحنة:٨).

وفي مجال العلاقات الدولية أنموذج مختلف: ﴿۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ (الأنفال:٦١)، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ (البقرة:٢٠٨).

وأكثر من ذلك، حيث إننا نجد في القرآن أسلوب الترغيب غير أسلوب الترهيب، وأسلوب التشريع وبيان الأحكام من حيث الجرس والإيقاع والفاصلة القرآنية غير أسلوب القصص القرآني، وبالمثل نجد أسلوب القرآن المكي، الذي كان موضوعه بناء العقيدة وصناعة الإيمان، غير أسلوب القرآن المدني، الذي كان موضوعه التشريع وبناء المجتمع.. وهكذا.

هذا إضافة إلى أن ما تتطلبه مواصفات «الخطاب» المطلوب من حسن التقدير وفقه أبعاد التكليف وتحديد الاستطاعات وما يلائمها من الأحكام، ومعرفة العلل والأدواء وما تتطلب من أدوية، هي الأحكام الشرعية.

إن سوء التقدير للحكم المطلوب لكل مرحلة، قد يحوِّل الأحكام الشرعية من حل إلى مشكلة، فننزل «خطاب الدعوة» على ساحة المعركة، وننزل «خطاب النصر» على ساحة الهزيمة، وننزل «خطاب العقيدة» على ساحة الدعوة، وننزل «خطاب العهد» والقبول بمواطنة (الآخر) وحرية اعتقاده وعبادته على ساحة المواجهة، أو بكلمة مختصرة:

تقديم «خطاب المواجهة» على «خطاب الحوار والحكمة»؛ والخلط بين الدعوة والدولة، والاستضعاف والتمكين، هي اليوم مخاطر وإصابات خطيرة، إذا لم تُستدرك سوف تنتهي إلى سلسلة أخطاء وكوارث كثيرة تحيط بالمسلمين.

وقد لا نجافي الحقيقة إذا قلنا: بأن «خطاب الحوار» والمناقشة والمجادلة أكثر كسباً للمسلمين من «خطاب المواجهة» والعنف، الذي لم يأت بخير، وقد أدرك خصومنا ذلك، فعملوا على إقامة العسكرة والاستبداد السياسي من حولنا.

- بروز حملة الفقه وغياب الفقهاء:

إن غياب الفقه، والاقتصار على حمل الفقه وحفظه، و«**رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ**»[1]، أدى إلى ضروب من الفوضى والعبث بالأحكام الشرعية، وتنـزيلها على غير محالها وحالاتها، لغياب فقه الواقع وتحديد احتياجاته بدقة، وموازاتها بالاستطاعات، التي تحدد مدى التكليف، الأمر الذي أدى في كثير من الأحيان إلى الإبهام والعبث في فهم أبعاد الدعوة إلى تطبيق الشريعة، ذلك أن التطبيق كما هو معلوم منوط بالاستطاعات، فإذا استفرغ الإنسان وسعه في تطبيق الأحكام التي يستطيعها فقد طبق الشريعة ولو لم يستكمل جميع فروعها؛ لأنه غير مكلف بها لفقدان الاستطاعة، لذلك نقول: بأن الإسلام يبدأ مع الناس من حيث هم، وبإمكانهم تطبيق الشريعة بحسب أحوالهم، ومن ثم الارتقاء بالشريعة لاستكمال تطبيقها، أما ممارسات التضليل والدعوة إلى تحضير المجتمع لتطبيق الشريعة، ولا ندري كيف يحضر المجتمع بغير الشريعة لتطبيق الشريعة، ففي تقديرنا أن المشكلة تكمن في عدم إدراك حدود التكليف وربطه بالاستطاعة.

هذا إضافة إلى أنه من المعلوم أن بعض الأحكام الشرعية، في الحرب والسلم والعقوبات والمعاهدات ... إلخ، إنما نيطت بالسلطة المسلمة وليس بالأفراد؛ لأنها لو نيطت

---

(١) أخرجه الترمذي، وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ.

بالأفراد لأصبحت كارثة، وتحولت الحياة إلى غابات، وانتشرت الفوضى والاضطراب.. فالفقه العليل أدى إلى فهم مغشوش وخطاب معوج، كلف المسلمين ولا يزال الكثير من الخسائر، وأفقدهم الكثير من المواقف، وحاصرهم بل أقصاهم عن مواقع الفعل والفاعلية، وأنتج خطاباً مغشوشاً، وأقام كيانات هي أشبه بالألغام في الجسم الإسلامي.

فإذا غابت الدولة المسلمة يتقدم بعض الأفراد أو أمراء الجماعات فيصبحون هُمُ الدولة، ويعطون أنفسهم الحق في ممارسة وظيفتها، وإذا غاب القاضي فَهُمُ القضاة، بلا علم ولا فقه.

وأكثر من ذلك، لقد أدى الفهم المعوج وغياب الفقه إلى كبائر وخطايا، الله أعلم بمدى آثارها؛ حيث أعطى بعض العاملين في المجال الإسلامي لأنفسهم الحق في أخذ البيعة الكبرى والإمامة الكبرى، وبدأ يمارس مهامها ووظائفها، وينتج خطابها، ويعبث بمسؤولياتها (!) فاستبيح كل شيء، من الأموال والأعراض التي يعتبر حفظها وحمايتها من مقاصد الدين وضروريات الشرع، وأصبح يقول في هذا الدين من شاء ما شاء، وغاب العلماء العدول، الذين ينفون عن الدين الغلو والانحراف والتأويل الفاسد، الأمر الذي شجع بعض الأفراد، من تخصصات أخرى، بمجرد انحيازهم للإسلام، أو دخولهم في تجمعات وجماعات وأحزاب، أن يعطوا لأنفسهم الخبرة والعلم والفقه والحق في الحديث و«الخطاب الإسلامي».

- التكرار وإعادة الإنتاج:

ومن الإصابات البالغة أيضاً، انعكاس واقع الأمة المتخلف وخطابها العاجز حتى على المجال الخاص المسمى بالمجال العلمي الأكاديمي، الذي يفترض فيه أن يشكل المصانع والمخابر الحقيقية لإنتاج الخطاب التخصصي والاستشرافي المنوط به معالجة إشكالات الأمة، ودراسة الأسباب المنشئة لها، والتمكن من كشف الخلل وإحياء المنهج السني، فابتلي بالتكرار وإعادة الإنتاج والدوران وصرف الجهد جميعه لتحقيق النص «خطاب

الإسلام» (القرآن والسنة)، وإثبات النص، وعظمة النص، وخلود النص، وواقعية النص، ومرونة النص، وقدرته على الاستجابة للنوازل (!) وهذا على أهميته وضرورته إلا أنه في نهاية المطاف يقع في نطاق علم الوسائل، ويشكل نصف الطريق، ويبقى النصف الآخر هو التفكير والاجتهاد وإنتاج خطاب يبيِّن كيفية تنـزيل النص على واقع الحياة، وتقويم المجتمع بقيم «الخطاب الإسلامي»، ومعالجة الخلل، أي إعمال النص.

ويكفي أن نقول: إنه على امتداد الزمن، وتغير المشكلات، وتطور المجتمعات، وتداخل العقائد والأفكار، وانفتاح الدنيا، وثورة المعلومات، ما نزال عاجزين حتى عن الإتيان بمثال آخر للقاعدة غير ما جاء به الأقدمون، عاجزين عن تقديم الرؤية وتوليد الأحكام والأمثلة والحلول لمشكلات الحياة، حتى تحول الكثير من الدوريات المحكّمة والدراسات الأكاديمية والرسائل والأطروحات إلى جثث هامدة لا تحرك ساكناً ولا تفيد إلا بتكريس الأوهام وصنع الألقاب وتأليف الجيوب بدل تأليف القلوب.. فكم أضاع التكرار والشرح والاختصار ومن ثم الاختصار والشرح، من أوقات وأموال دون القدرة على التقدم خطوة واحدة، إلى درجة يمكن معها القول: بأن الزمن الذي أُهدر لأكثر من قرن يمكن اختصاره بسنوات.

- فقه المخارج والسير خلف المجتمع:

ومن الإصابات، التي قد لا تقل خطورته عن سابقاتها، أن «خطاب المسلمين» يأتي -كما يقال- في الزمن الأخير، وهو من بعض الوجوه خطاب أعقاب، حيث يسير في أحسن الأحوال خلف المجتمع، دون أن يكون جزءاً من قضاياه، فاعلاً فيها، مشاركاً في معالجتها وتنميتها، مبيناً رؤية الإسلام في مشكلاتها وكيفية إدارتها، قادراً على تجنيب المجتمع الأزمات قبل وقوعها، باستشراف المستقبل في ضوء المنهج السنني والحركة التاريخية، واستشراف الماضي واكتشاف قوانين الحركة الاجتماعية وفقه مكونات الحاضر والواقع.

وهو بعمومه «خطاب فقه مخارج»، يسير خلف المجتمع، ويظهر ذلك جلياً في المجال التجاري والمصرفي، ويحكم على تصرفاته بالحِلّ والحرمة، بالإباحة أو الحظر، حتى قد يمارس بعض التكييفات الشرعية، التي يُطلق عليها مصطلح: «الحيل الشرعية»، للتعامل مع قضايا المجتمع ومشكلاته، من موقع التلقي والانفعال وليس من موقع العطاء والفعل ووضع البرامج لحركة الأمة وفق المقاصد والأحكام الشرعية، مع أن الأصل في «خطاب المسلمين» أن يكون رائداً، أن يكون قادراً على السير أمام المجتمعات ورسم طريقها المأمون، وحماية هذا الطريق من الإصابات أثناء السير فيه، وأن يتركز على جلب المصالح أكثر من أن يتمحور حول درء المفاسد وسد الذرائع؛ لأن ذلك استثناء، فالأصل تحقيق المصالح والمقاصد؛ لأن فعل المصالح وتوسعه يحاصر فعل المفاسد، وبذلك يتحول الخطاب من الاقتصار على «فقه المخارج» إلى الارتقاء إلى «فقه المقاصد والغايات».

لكن الإشكالية اليوم قد لا تقتصر على السير خلف المجتمعات وما يسمى بفقه المخارج، وإنما شيوع فلسفة الانسحاب من المجتمع ورجمه والاعتزال له، والحكم عليه بأحكام جائرة قد تسوغ عند بعضهم استباحة محرماته بفقه عليل.

- الخلط بين القيم المنزلة والبرامج المطلوبة:

ولعل من الإصابات الأساس، في بعض جوانب «خطاب المسلمين» ومكوناته، الخلط بين القيم الموحى بها في الكتاب والسنة، التي مهمتها الأساس بناء المرجعية، وضبط المسيرة، وتحديد الأهداف والمنطلقات، وبيان الغايات والمقاصد، وبين وظيفة العقل، ومجاله من وضع الخطط والبرامج، المنطلقة من القيم العاملة على تحقيق المقاصد، ووضع العقل في مقابل الوحي، والانتهاء إلى وضع الإنسان أمام هذه المعادلة الصعبة في الاختيار - الأمر الذي قد ينتج تديناً بلا عقل، وعقلاً بلا دين - ووضع المقدمات المخطئة التي سوف تقود إلى النتائج المخطئة أيضاً.. فالعقل محل الوحي، وسبيل معرفته، ومناط التكليف، ودليل

الوحي، وأداة الاجتهاد وكيفية تنــزيل القيم على واقع الناس وإنتاج الخطاب المطلــوب للتعامل مع تقلب الحياة من خلال عطاء الوحي.

ولعلنا نقول هنا: إن هذه الثنائية، أو هذه المعضلة، أو المعادلة الصــعبة، إلى جانــب الكثير من الثنائيات الأخرى الدخيلة على الفكر و«خطاب المسلمين» استهلكت جهــوداً وأوقاتاً وأموالاً دون نتيجة وجدوى؛ لأنها ضرب في الحديد البارد، وفعل خارج الموضوع والمطلوب، ونخشى أن نقول في ذلك: ضياع للأجر والعمر، والله أعلم، علــى حســاب القضايا المجدية وبناء الرؤية الإسلامية والبرامج الإسلامية والانخــراط في قضــايا الحيــاة والمجتمع والتفكير بإيجاد الأوعية الشرعية لحركة الأمة ومعالجة مشكلاتها.

وهذه المعادلة المخطئة أورثت الذهنية المسلمة اليوم أن تنتج خطابــاً قائمــاً علــى الشعارات والمبادئ والقيم والحماسات، عاجزاً عن إيجاد البرامج والاجتــهاد في وضــع الأوعية والحلول لقضايا الأمة، هذا إضافة إلى أن الاقتصار على شكل الخطاب وكلماتــه وصياغته على حساب طرح مضمونات تهم الأمة، وحسن معالجتها، ليصبح جزءاً من هذه الفوضى الفكرية، جعل من الساحة الإسلامية مباحة أو مستباحة لكل من شــاء، مهمــا كانت قدراته وتخصصاته، لأن التحشيد والشعارات والتعميمات يمكن أن يرفعها العوام.

- الالتباس بين الذات والقيمة:

قد تكون قضية الالتباس بين الذات والقيمة، أو بين قيم الدين وصور التدين، هي مشكلة المشاكل في الواقع الإسلامي، بما تفرزه من أنشطة وممارسات مختلفة، وتشيعه مــن ثقافــات مغشوشة تكرس التخلف والعطالة والعجز وتطفئ الفاعلية وتخلف بيئة من الإرهاب الفكــري الديني الذي قد لا يقل خطورة عن الاستبداد السياسي، إرهاب يمارس باسم الدين، ويحــاط بالقدسية، وينتهي بالأمة إلى الخنوع والانطفاء؛ وهو بذلك من أخطر أنواع الإرهاب، لأنــه يحتال على فكرة الألوهية ويعزلها عن حياة الناس، التي يعني تحقيقها في حياة النــاس المســاواة

والحرية وكرامة الإنسان أمام الله خالق الناس جميعاً، واسترداد إنسانية الإنسان، وإيقاف تسلط الإنسان على الإنسان، الذي يعتبر مصدر الشر في العالم، ويقيم بديلاً عنها ألوهيات وكهانات ووثنيات من الباطن، تحمي نفسها بما تستظل به من قيم الدين.

إن التباس الذات بالقيمة، وقيم الدين بصور التدين، يؤدي إلى تفريق الدين، وتسرب علل التدين لواقع المسلمين، الذي حذرنا الله منه، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الروم:٣١-٣٢)، كما يؤدي إلى فقدان البوصلة الهادية واختلال المعايير، الأمر الذي يؤدي إلى إقامة حواجز سميكة بين أبناء الأمة وحتى العاملين في الحقل الإسلامي، وتتحول المعايير الضابطة في الكتاب والسنة لتصبح نصوصاً للتبرك، وتصبح آراء الأشخاص ومسالك الأشخاص هي المعيار، ويصبح المس بالأشخاص أو نقدهم أو مراجعة أقوالهم مساً بقيم الدين ونكراناً لها.. وبدل أن نعرف الحق فنعرف أهله تختلط الأمور، فنعرف الحق بالأشخاص ولا نعرف الأشخاص بالحق.

ومن المعلوم، في تاريخ النبوات، الدور الخطير لطبقة رجال الدين، وادعاؤها التحدث باسم الله، واحتكارها لمعارف الكتاب المقدس، لتبقى هي المرجع، وقولها هو الدين، لتجمع الجبت والطاغوت، هذا إضافة إلى إقامتها التحالف غير المقدس مع بعض الحكام المستبدين.

ولعلنا نقول هنا: إن الإسلام، أو النبوة الخاتمة، هي التي استطاعت أن تفصل فكرة الألوهية عن الحكم، وتنزع صفة الألوهية عن رجال الحكم، وترسخ بشرية الحكام وبشرية رجال الدين، التي تخطئ وتصيب وتصوِّب، وتقرر أن الجميع مسؤولون أمام الله سبحانه وتعالى، وأن المناصحة والنقد والمراجعة هي من لوازم البشرية، التي يجري عليها الخطأ والصواب، لإيقاف التسلط باسم الله، الذي يعتبر من أخطر أنواع التسلط، فكل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد إلا المعصوم ﷺ، أو كما قال الإمام مالك، رحمه الله تعالى.

- ضمور المفهوم الصحيح للفروض الكفائية:

وقد يكون من الإصابات البالغة، حتى تكاد تشكل عموم البلوى، التي لحقت «بخطاب المسلمين» أو بالإنتاج الفكري للمسلمين بشكل عام، الذي يصنعه الخطاب ويُصنع به، والتي كانت السبب الرئيس في التخلف والعجز وشيوع الإحساس بالمشكلات والحماس لها وتخلف الإدراك وانتشار الغوغائية والخلط بين الأمنيات والإمكانات وسوء التقدير للمصالح والمفاسد، هو غياب المفهوم الصحيح لفروض الكفاية؛ ذلك أن هذه الفروض هي واجبات أو مسؤوليات اجتماعية ووظائف رئيسة في المجتمع المدني مطلوب توفيرها والاضطلاع بها في المجالات الحياتية، أو الأنشطة الحياتية المتعددة، وتأتي مكملة للفروض الفردية، التي تتمحور حول بناء الفرد وإصلاحه ليؤهَل للاضطلاع بالفرض الكفائي، بحيث تشكل له المرجعية التي ينطلق منها للمشاركة في الفروض الكفائية أو الواجبات الاجتماعية.

وهي في أبسط تعريف لها: مسؤوليات وواجبات، إذا قام بها بعض المسلمين وتوفرت في المجتمع بشكل كامل ومتقن (بمعنى إذا قام بها وأداها على الوجه الأكمل) سقطت المسؤولية - والمسؤولية هنا تعني في المصطلح الشرعي الإثم والذنب والخطيئة - عن سائر أفراد المجتمع، وإذا لم تتوفر على شكل يغطي الاحتياجات أثم الجميع، ولحقت بهم الإصابات في الدنيا، بسبب عدم توفرها، والعذابات في الآخرة، بسبب عدم توفيرها.

وهذه الفروض هي وظائف الاستخلاف الإنساني لبناء الحياة وإقامة العمران، بكل شعبها واستحقاقاتها ومعارفها، أو هي بتعبير آخر جميع التخصصات أو الخبرات المطلوبة لاستقامة حياة الأمة والارتقاء بها وتمكينها من الاضطلاع برسالتها في إلحاق الرحمة بالعالمين وتحقيق إنسانية سعيدة يعمها الخير والعدل والأمن والسلام.

وإحياء هذه الفروض ضرورة؛ لأنها السبيل إلى توفير الخبرة والقدرة، القوة والأمانة، الإخلاص والإدراك، النية والعمل على تحديد المصالح والمفاسد في كل جانب من

جوانب الحياة وكل إشكالية تعرض للأمة وتستدعي أن يجمع لها العالمون ليعطوا الرأي ويحددوا المصلحة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ (الفرقان:٥٩)، ويقول: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (فاطر:١٤).

ذلك أن ما يقع به «خطاب المسلمين» اليوم من الخلط بين الأمنيات والإمكانيات، بسبب من سوء التقدير، إذ كيف يتحصل التقدير الصحيح في حال غياب الاختصاص والخبرة؟ وما يؤديه سوء التقدير من هدر الطاقات وبعثرة الإمكانيات وعدم إبصار الظروف المحيطة والإمكانات المتاحة، أو استشراف الرؤية المستقبلية، سببه عدم الاستشعار بأهمية إحياء فروض الكفاية والاضطلاع بها؛ بل في واقعنا ما هو أخطر من ذلك، من صور التدين المغشوش، وهو مغادرة ميدان التخصص في كثير من الأحيان إلى منابر الحماس والوعظ والإرشاد، علماً بأن من اختار تخصصاً ما وأنجزه يصبح في حقه فرض عين بعد أن كان فرض كفاية.

لذلك نصف حال المخلصين فينا، الذين لا اختصاص لهم، بحال الأمِّ، فهي مهما كانت مخلصة وصادقة العاطفة، وملتاعة على ابنها المريض، فإنها لا تستطيع أن تقدم له الدواء ولو قدمت الحنان والعاطفة، فالطبيب المتخصص هو المؤهل لكشف أسباب مرضه ومعالجته، حتى ولو كان الدواء الموصوف مراً قد يزعج الأم ويؤلمها.

إن غياب التخصص في شعب المعرفة والأعمال الاجتماعية هو السبب الرئيس للفوضى والتبعثر، وإصابة شبكة العلاقات الاجتماعية بالعطب، وظهور القيادات والزعامات الفاشلة، غير ذات الخبرة والتخصص والأهلية، التي تورد الأمة موارد الهلاك، حتى ولو كانت مخلصة، وإن كنت أرى أن الإخلاص هو بصيرة بحد ذاته، لا بد أن يؤدِّب صاحبه ويعرفه بنفسه وبقدراته والمكان المناسب له؛ أما الرجل الملحمة، الذي يدَّعي المعرفة بكل شيء، والفهم بكل شيء، والخطابة في كل شيء، دون أي وازع أو رادع،

أو أدب معرفة حيث لا مانع عنده أن يتكلم في الاختصاصات الدقيقة، التي يفني فيها الناس أعمارهم؛ فذلك قد يؤدي إلى الكهانات المزيفة، التي لا تزيد المسلمين إلا ضغثاً على إباله، كما يقول المثل.

- الانحباس ضمن أطر ودوائر محددة مسبقاً:

ومن الإصابات التي لحقت «بخطاب المسلمين» فأعجزته وأفقدته الفاعلية وجمدته بل وأخرجته من مجال الانخراط بهموم الناس ومشكلاتهم، على المستوى الإسلامي والدولي والإنساني، وأقعدته عن استشعار مسؤولية القيام بالبعد الرسالي وإلحاق الرحمة بالعالمين: الانحباس في دوائر تقليدية دفاعية مكرورة والدوران في حلقات مفرغة، الانحباس ضمن خارطة محددة لبعض القضايا والمشكلات التي مضى عليها ما يقارب القرن، وهو لا يزال يبدي فيها ويعيد، وقد لا يضيف جديداً حتى في إعادة تناول هذه القضايا، وإنما يحكمه التكرار وإعادة الإنتاج لما سبق، وكأن ما قُدِّم فيها منقوص وغير كاف وغير مقنع.

فقضايا إرث المرأة، وحقوقها، والطلاق، والتعدد، والقوامة، والحدود، والمساواة، وتطبيق الشريعة... ما تزال هي خارطة الطريق، أو خارطة حركة «خطاب المسلمين».. وقد يضاف إلى ذلك اليوم بعض ما يلصق بالإسلام والمسلمين من تهمة الإرهاب، ليبقى «خطاب المسلمين» محاصراً ومحصوراً ودفاعياً، وتبقى الساحة الفكرية والذهنية ونوع الإنتاج محكوماً بفعل (الآخر) تحكمه انفعالاتنا، أو تحديده ردود فعلنا.

أما قضايا الحرية وحقوق الإنسان، والتنمية والإعلام والتعليم والمعلوماتية، وقضايا البيئة والتلوث، وقضايا الفقر، والعولمة، والتجارة، والشذوذ الجنسي، وكسر القيم الأخلاقية بجعل الجنس قضية عرف اجتماعي، وتفكيك الأسرة، وتشجيع الإباحية، فكأنها لا تعنينا؛ لأننا مشغولون بالدفاع عن الإسلام كما حددت خارطته لنا.. أما تقديم الرؤية

الإسلامية لهذه القضايا وتقديم نماذج مضيئة من الإحسان ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف:٧٨)، وإثارة الاقتداء، فهي ليست من الدفاع عن الإسلام (!) وأنّى لنا أن نقدم رؤية متخصصة مؤطرة بمرجعية إسلامية للقضايا الإنسانية إذا لم نتوفر على الاختصاصات المطلوبة وندرك أهميتها؟ حيث يصعب إدراك النتائج وحسن التعامل معها إذا تجاوزنا إحسان وإتقان المقدمات.

- القدرة على صناعة الموت والعجز عن صناعة الحياة:

ومن الإصابات الخطيرة التي لحقت بفكر المسلمين وخطابهم، ما نراه من التعبئة والحماس والعسكرة والقدرة على صناعة الموت (في سبيل الله) وتقديم التضحيات والضحايا الكبيرة، في أكثر من موقع وأكثر من زمان وأكثر من مجتمع، التي قد لا نجد لها مثلاً عند الآخرين؛ لأنها تصل إلى التضحية بالنفس، وهي أعلى درجات التضحية، حتى أصبحت سمة وحالة متأصلة في ذهنية المسلمين، لها فلسفتها ومسوغاتها، التي تتطلب الكثير من التحرير لمدى شرعيتها أو شرعية الكثير منها.

وهذه التضحيات الكبيرة، إذا أدركنا أنها وسيلة لإزالة العوائق من أمام حرية الاختيار لنشر الدعوة وإقامة الحياة الإسلامية ولحماية المجتمع الإسلامي، وأبصرنا مواقعها الصحيحة، وصرفناها في مواقعها، تصبح فضيلة يمتاز بها المسلمون، وتحقق لهم الحماية، لينعم العالم بحرية الاختيار والحياة الكريمة.

لكن الخطورة، كل الخطورة، أن لا نضع لحركتها الأوعية الشرعية المدروسة، والرؤية الاستراتيجية المحكمة، ودراسة الجدوى بشكل صحيح، وعدم التفريط فيها حتى لا تتحول إلى ألغام اجتماعية متحمسة قد تنفجر في مجتمعها وتقتل صاحبها، بل لعلنا نقول أكثر من ذلك: لقد أدرك أعداء الإسلام والمسلمين من وقت مبكر هذا المخزون الهائل من الأفكار والتضحيات الجاهزة أكثر من إدراك أهلها لها، فوضعوا الخطط والبرامج لاستعماله

وتوظيفه في تصفية الحسابات الدولية، التي قد لا يكون للمسلمين نصيب منها، حيث يدخلونهم معارك في غير عدو مباشر، ويستخدمونهم وقوداً لمعارك نيابة عنهم، لا يمكن التحكم من ثم بنتائجها لصالح المسلمين.

لقد وصل الاختراق إلى درجات خطيرة، حيث بدأ العدو يتحكم بأفكارنا، ويوجهنا حيث شاء، ويوهمنا - أو نتوهم - أن ذلك قرارنا، وهذا من البلاء، وبذلك نكسر أسلحتنا بأيدينا أو بأيدي خصومنا وأعدائنا، الذين يعرفون كيف يخترقوننا ويصنعون اهتماماتنا ومعاركنا، ويعرفون كيف يتعاملون معنا، ونحن نحسب أننا نحسن صنعاً.

إن بأس المسلمين اليوم بينهم شديد، فالشعوب في مواجهة الحكومات، والدولة في مواجهة الأمة، وتُتبادل التهم والشكوك، وتُهدر الطاقات هنا وهناك، وقبل ذلك كله التعامل مع الأحكام الشرعية يتم ببؤس وفقر في الوعي والفقه.

إن نبي الإسلام ﷺ يقول: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»[1]- ولقد بدأت بهذا الحديث، لأهميته، جميع كتب التراث تقريباً، فالنية - فيما نرى - رؤية مسبقة أو استباقية لميدان الفعل، وفكر نضيج، واستراتيجية قبل الفعل، «**فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»[2]، والرسول ﷺ يقول: «**وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً فَقُتِلَ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ** »[3]، والراية العِمِّيَّة: غير المدروس هدفها ومقصدها وعواقبها، ومع ذلك نقوم من حفرة لنقع في أخرى، باسم الدين، فالمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، لكن الفهم الأعوج ينتهي به إلى أن يلدغ ثلاثاً وأربعاً.

(١) أخرجه البخاري.
(٢) أخرجه البخاري.
(٣) أخرجه مسلم.

و«خطاب المسلمين» وأدبياتهم، لا بد أن تُعيد النظر، وأن تفكر بأن المطلوب منا شرعاً أن نحيا في سبيل الله، وليس أن نموت في سبيل الله، بدون سبب واضح وهدف واضح، فخيرنا من طال عمره وحسن عمله؛ فالمطلوب أن نحسن صناعة الحياة وضبطها بمرجعية الدين، وأن ندرك أن الموت والجهاد هو وسيلة لإقامة الحياة وحمايتها.

- غلبة العقلية الذرائعية إعفاءً للنفس من المسؤولية:

ومن الإصابات البالغة، بل المزمنة، غلبة الذهنية الذرائعية بشكل عام على «خطاب المسلمين»، الأمر الذي ما يزال يحول بين المسلمين وبين استشعار المسؤولية عن مشكلاتهم، والبحث في أسبابها، وتحديد مواطن الخلل والخطأ والقصور، وبيان أسباب التقصير، ومن ثم وضع الخطط والبرامج لعلاجها وتجاوزها في ضوء الظروف المحيطة والإمكانات المتاحة، والتيقن بأن ما يصيبنا هو بما كسبت أيدينا، وأنه من عند أنفسنا: ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾؛ وأن (الآخر)، الذي يمثل المشجَبَ الذي نلقي عليه بالتبعة والمسؤولية عن إصاباتنا، لإعفاء أنفسنا من المسؤولية عن استمرار الفشل والانحطاط والهزائم، إنما يمتد في فراغنا، ويمر من خلال قابلياتنا، ويدخل من خلال الثغور المفتوحة في حياتنا.

إن الإلقاء بتبعة فشلنا على (الآخر)، في محاولة حزينة لإعفاء الذات من المسؤولية، وتسويغ الفشل والهزيمة، وسد الباب أمام المساءلة والمراجعة والنقد والتقويم، والإيذان باستمرار القيادات، وتكريس الهزيمة وأن «ليس بالإمكان أفضل مما كان»، يعتبر من أخطر الإصابات الثقافية والسياسية والحضارية بشكل عام، وهو بلاء أو وباء نفسي وثقافي وسياسي يكاد تقع فيه جميع القيادات، مهما تعددت مواقعها ومسمياتها.

وكم يتمنى الإنسان، على الرغم من الهزائم المتتابعة والفشل الذي يلاحقنا ويحيط بنا، أن يجد ولو مجرد اعتراف هنا أو هناك بالخطأ والإصابة وسوء التقدير وغياب الدراسة المتخصصة، ذلك أن الناظر في أدبيات، أو في خطاب العاملين للإسلام، يرى أنه محض الصواب، لم تسجل عليه إصابة واحدة من قبل أهله، وكأن مقام العاملين فوق مقام النبوة (!)

فالله سبحانه وتعالى قال لأكرم خلقه: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ ﴾ (التوبة:٤٣)، والعفو لا يكون إلا من اقتراف ذنب (وإن كان ذلك على سبيل التعليم والتربية لنا).. وقال له: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ... ﴾ (الأنعام:٥٢)، وقال واصفاً حاله: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ...﴾ (عبس:١-٣) إلى غير ذلك من الآيات التي لم يقتصر العتاب فيها على النبوة الخاتمة.

لكن المشكلة هذه العقلية الذرائعية، التي إذا لم تجد من تلقي بالتبعية عليه فلتلق بالتبعة على القدر، وكأن القدر يستهدفنا دون غيرنا، وبشكل أعشى(!) الأمر الذي قد يؤدي إلى اهتزاز القيم المعصومة نفسها.

ونحن هنا لا نرى التقليل من كيود الخصوم ولا مؤامرات الأعداء، فذلك أمر طبيعي، وسنة اجتماعية من سنن المدافعة والمغالبة الحضارية، لكن الإشكالية هي في ذهنية الاستسلام وقابلية الاستسلام وغلبة نظرية المؤامرة على كل فعل أو قول أو نشاط، واتخاذها ذريعة مستمرة.

ونظرية المؤامرة، التي يتذرعون بها، قد تتوهم بعض القيادات الفكرية والثقافية والدينية أنها تصب في مصلحتها؛ لأنها تستخدمها لإسكات خصومها ومطاردتهم واتهامهم بالعمالة، إلى آخر هذه القائمة التي ما تزال تحكم خطابنا منذ عصر الاستعمار، وتتمركز في حياتنا في عهد ما بعد الاستعمار، دون أن ندرك تماماً أن الإلقاء بالتبعة كلها في فشلنا على (الآخر) ومؤامراته يعني، من كل الوجوه، أننا دون سوية المرحلة التي نتعامل معها، وأننا أرقام لا معنى لها، ولا فاعلية أو فعل لوجودها.

وما لم نتحول من شعار: «ليس بالإمكان أفضل مما كان»، الذي يعني الركود وانطفاء الفاعلية، إلى شعار: «أن بالإمكان دائماً أفضل مما كان»، الذي يقود إلى المراجعة والتقويم والنقد وحسن توظيف الإمكانات بشكل أفضل وامتلاك القدرة على التعامل مع سنة التدافع الحضاري، فسوف يستمر فشلنا، حتى يتحول إلى وراثة اجتماعية، مهما علت أصواتنا.

- احتكار الخطاب وتحويل الأمة إلى إقطاعات:

ومن الإصابات التي تكاد تصبح مزمنة أيضاً، هي احتراف عدد من الأسماء والألقاب واحتكارها «لخطاب المسلمين» في المؤتمرات والندوات والحوارات والمقابلات والفضائيات، فكما أن القيادات على المستوى السياسي، التي احتلت هذا الموقع بوضع اليد، تحولت إلى قدر ووقف على مصير الأمة، فكذلك بعض الأسماء والألقاب على المستوى الثقافي والفكري أصبحت وقفاً على عقل الأمة وثقافتها إلى درجة الاحتراف والاحتكار والحجر على فضل الله بإيجاد بدائل أو أمثال، ولا ندري ماذا سيكون حال الأمة بعد انقضاء حياتهم؟!

فهم رجال المؤتمرات مهما كان موضوعها، والندوات مهما كان مضمونها ومحاورها، وهم فرسان الحوارات مهما كان مستواها، بحيث تحولت المواقع إلى إقطاعات مرتهنة لهم دون التفكير باستنبات بدائل تقود مسيرة الأمة وتسدد طريقها.

وعلى الرغم من التكرار لأكثر من نصف قرن من الزمان، لكن بأوعية ثقافية وإعلامية متطورة، وعلى الرغم من الفشل الذي يؤكده الحال ويدينه الواقع، مع ذلك ما يزالون يسجلون حضوراً حيثما اتجه الإنسان أو نظر أو ذهب؛ وكثيراً ما نهرب منهم إليهم، ولا يقتصر هذا على المستوى الفردي، فالكثير من الجماعات والتنظيمات يحتكر أيضاً الحديث باسم الإسلام، ولا غرابة في ذلك حيث لا بد أن يتوازى البعد الثقافي مع البعد السياسي، كل في ميدانه (!)

وكأن الوقف في حياة المسلمين، بالمصطلح الشرعي، تحول من الفعل الاجتماعي إلى أن يصبح بعض الأشخاص، على مستوى السياسة والثقافة والتدين، وقفاً على رقاب المسلمين، الأمر الذي سوف لا يسمح بأي أمل في التغيير.

خاتمة

فلقد سبق الكلام عن أهمية «الخطاب» ودوره في الفعل الحضاري والثقافي والاجتماعي؛ دوره في إقامة الحضارات ونشوء الأمم، وحتى انهيارها؛ دوره في بناء التفكير وتنظيم عالم الأفكار، في تنمية الفكر، وتطوره وتطويره.. وحيث إن «للخطاب»، الذي هو الإنتاج المعرفي في شتى المجالات، هذه الأهمية، فقد ارتقى حتى يكاد يصبح معياراً وقيمة ومقياساً للحضارة، وتشعبت أساليبه ومفرداته ومصطلحاته وأدوات توصيله، فأصبحت لكل شعبة معرفية أسلوبها ومفرداتها ومعاجمها ومفاهيمها، التي تكوّن خطابها بها، فللتربية خطابها، وللاقتصاد خطابه، وللمال والأعمال لغته، وللدبلوماسية مفرداتها، وللحرب والتعبئة النفسية خطابها، وللإعلان خطابه، وللحملات الانتخابية خطابها، وهكذا.

كما أن لكل حقبة تاريخية سماتها ومصطلحاتها وملامحها وقسماتها اللغوية والفنية، فالحقب التاريخية تولد مصطلحاتها.

كما لأجناس الأدب أساليبها ومفرداتها، فأسلوب الرواية ومكوناتها غير أسلوب القصة، وخطاب المقالة وأسلوب وفاصلة النثر غير قوالب وبحور وقافية الشعر.

لقد تبلورت أساليب الخطاب، وتنوعت، وتطورت، وأُنضجت، وأصبح لكل خطاب مواصفاته، بل لغته ومفرداته ومصطلحاته ومقاماته الصوتية، بحسب موضوعه وأهدافه ومقاصده، لدرجة لم يعد ينفع معها أو يقنع الصخب والضجيج والنعيق والصياح والحماس والتعالم والمجازفة في القول في كل علم وفن وموضوع.

إضافة إلى أن الخطاب أصبح ثمرة لمجموعة علوم وتخصصات معرفية، حتى لنكاد نقول: إن الخطاب والإعلام والاتصال أصبح علماً قائماً بذاته، وليس ذلك فقط

وإنما تطور الأمر حتى أُبدعت معايير للتقويم والقياس ودراسة الجدوى ومدى الملائمة وتحقيق الأهداف.

بل وأكثر من ذلك، إن الكثير من الفلسفات، عند الأمم الناهضة، انطلق من فكرة الشك، أي أن الأصل في الإنتاج والخطاب الخضوع للفحص والاختبار والتقويم والمراجعة.

والحقيقة الدينية والتاريخية، واستقراء المسيرة الحضارية، تؤكد أن من لوازم الرسالة الخاتمة التجديد والتصويب، لتوقف التصويب من السماء، وأن التجديد هو إخبار من الصادق المصدوق: « **إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**»[(1)]، وهو تكليف للأمة أيضاً، وأن الإصابات المتأتاة من الذات أو من (الآخر) هي عقوبات على معاصٍ وخطايا، لا بد من استدراكها وتصويبها، وهي في الوقت نفسه نذر ومحرضات واستفزازات حضارية وثقافية، تدفع الأمة لمراجعة واقعها ووضع خطة للتجاوز، وأن الطائفة المثيرة للاقتداء القائمة على الحق المتمثلة له قد تضيق وقد تتسع لكنها لا تنقطع.

وأن الحضارة الإسلامية عصية على الانقراض، بسبب الروح الفاعلة، ومسؤوليات التجديد لأمر الدين، ونفي نوابت السوء.

وبعد:

فإن ما يمتلكه المسلمون من قيم الوحي، في القرآن والسنة الصحيحة والسيرة العملية، لتنزيل هذه القيم على واقع الناس، يشكل لهم مرجعية ومعايير لتقويم الفعل والاجتهاد البشري، ويحول دون اجتماعهم على الضلال، ويمكنهم من التجدد والتجديد باستمرار،

---

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم.

ذلك أن خلود القيم يعني تجردها عن حدود الزمان والمكان وقدرتها على الإنتاج في كل زمان ومكان، وتلك وظيفة العقل والاجتهاد، وهذا يمنح الحضارة الإسلامية الروح السارية المتجددة، ويحول دون انقراضها، ويمنحها القوة الدافعة لحمل رسالتها الإنسانية إلى العالمين، كما يمنحها القوة والممانعة من الذوبان في حالة الإصابة والتخلف الحضاري، للحفاظ على خميرة النهوض.

كما أن ما يلحق «بخطاب المسلمين» من إصابات إنما هو في الحقيقة عقوبات على معاص اجترحوها، ومنبهات ومحرضات حضارية، ونذير خطر – كما أسلفنا – لمعاودة التقويم والمراجعة والحذر من تسلل علل التدين التي لحقت بالأمم السابقة، فكانت سبب انقراضها وأفول نجمها، حيث أحاطت بها خطيئتها فأسقطتها.

فهل يبقى المسلمون على حذر دائم، فيصوِّبوا المسيرة بممارسة النقد والتقويم والمراجعة قبل فوات الأوان، وقبل أن تحيط بهم خطاياهم؟!

ذلك أن ممارسة النقد أو المناصحة ليست لإنهاك العمل وجلد الذات والانتقاص منها، وإنما للتحرر من حالة الجمود والتقليد والتراجع، واسترداد الحقيقة وإحياء الفاعلية وتحقيق التقوى (الوقاية الحضارية).

نعود إلى القول: إن أبسط مدلولات البلاغة هو «مطابقة الكلام لمقتضى الحال» – كما أسلفنا – ودراسة الحال ومقتضياته واستحقاقاته ورؤية المصالح والمفاسد لا يقوم به اختصاص واحد، وإنما هو ثمرة لمجموعة اختصاصات، حيث أشرنا إلى أن الخطاب الإعلامي اليوم هو نتيجة أو عطاء لمجموعة علوم وخبرات وشعب معرفية.

فالفكر الاستراتيجي هو وراء الخطاب الموافق لمقتضى الحال، حيث يكون العقل من وراء اللسان، أو اللسان من وراء العقل، إن صح التعبير.

وحتى يكون تفكيرنا اســـتراتيجياً، وخطابنا ثمرة له، أعتقد أنه قبل إنتاج أي خطاب لا بد من الإجابة عن مجموعة استفهامات أو أسئلة، يأتي في مقدمتها:

لماذا الخطاب (إبصار الأهداف والمقاصد بدقة)؟؛

ولمن الخطاب (معرفة أحوال المخـــاطَبين، وثقافتـــهم، وتـــاريخهم، ومشـــكلاتهم، ومستوياتهم الحضارية، ومعاناتهم، واهتماماتهم، وتجاربهم)؟؛

وكيف (اختبار الوسائل، ومشروعيتها، وفاعليتها، وقدرتها على أداء دورها)؟؛

ومتى (معرفة الزمان ومكوناته، فما يصلح لزمان قد لا يصلح لآخر، وما يصلح لجيلٍ قد لا يصلح لغيره)؟؛

وأين (معرفة الواقع، بكل مكوناته وتركيباته وطوائفه ومشكلاته)؟

وبعد هذا كله يأتي السؤال الكبير:

هل أدى خطابنا إلى ما نصبوا إليه، أم أن هناك خللاً حـــال دون تحقيـــق المقاصـــد والأهداف؟ وهل نمارس عملية المناصحة والمراجعة، لنأخذ عبرة وعظة ونصوِّب أخطاءنا، ونغني تجاربنا، لجولات قادمة، قبل أن تحيط بنا خطايانا؟

الخطاب الإعلامي في عصر العولمة

الدكتور عبده مختار موسى (*)

ليس المقصود بالإعلام الإسلامي رفضاً لكل أساليب الإعلام القائمة، بل المقصود صبغ الإعلام الحالي وقنواته المتعددة وأنماطه الحديثة بصبغة إسلامية بحتة تلائم المجتمع المسلم. وهذا يستلزم وضع أطر لتأصيل إعلامي ينطلق من مضمون الرسالة الإعلامية الإسلامية ويعمل على تطويع التقنيات الحديثة.

مقدمة:

الخطاب هو اللغة والشكل والأسلوب، الذي يجسد روح المضمون ويعبر عن جوهر الفكر. فالفكر بدون خطاب واضح ومتسق يكون أقرب إلى الشمول والعمومية. أي يمكن النظر للخطاب باعتباره التنزيل الواقعي للمثاليات المجردة. ويجعل بعض الباحثين للخطاب قيمة ديناميكية باعتباره برنامج العمل الجماهيري لرمز فكري أو لتيار أو حزب معين.

(*) باحث أكاديمي.. جامعة أم درمان (السودان).

الخطاب مصطلح أقدر على التعبير عن الخصوصية الذاتية والأيديولوجية. ويمكن تشبيه الخطاب بالإخراج في العمل الدرامي، أو التقديم (presentation)، أو أسلوب الطرح. فهو عنصر مهم جداً مكمل لجوهر الفكر. لذلك يمكن أن تفشل فكرة ما، رغم قوتها وأصالتها، بسبب سوء الطرح أو ضعف الخطاب.

فالخطاب السياسي، مثلاً، هو التعبير الأيديولوجي لجماعة ما أو لتيار أو فكر في مرحلة تاريخية سياسية معينة، استجابة لتحديات ضاغطة. والخطاب الإعلامي أو الاتصالي لا يمكن عزله عن الخطاب السياسي، بل يمكن الحديث عن علاقة جدلية بينهما. وقد انعكس ذلك في ظهور فرع من المعرفة في مجال «السوسيولوجيا» وعلم الاجتماع السياسي يُسمى «الاتصال السياسي» (political communication). وهو حقل تتجلى فيه المنهاجية المتداخلة (inter-disciplinary approach) بصورة واضحة؛ حيث يلتقي – أو يتداخل – علم الاجتماع مع علم النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع السياسي والعلوم السياسية والإعلام.

وهو مجال أتاح الدراسة العلمية المتعمقة لعدة قضايا وموضوعات مثل: التنشئة السياسية (political socialization)، والرأي العام، وغرس القيم (value inculcation) وإعادة توجيه القيم (value re-orientation)، ونشر المذاهب (indoctrination)، والخطاب السياسي من حيث اللغة والمضمون والمصدر والجمهور المستهدف، والدور السياسي للإعلام مثل ترتيب الأولويات (agenda setting) ، وعمليات غسل الأدمغة واستخدام الرموز والتمويه والدعاية

ورسم الصورة الذهنية (image) وتشكيل الرأي العام والإقناع السياسي وتفعيل المشاركة السياسية.

والمؤسسات السياسية تحتاج إلى الخطاب الإعلامي لإنجاز خمس وظائف أساسية: «التوحيد، وإضفاء الشرعية، التوجيه، حل الصراعات، وتنفيذ السياسات». [١] فالخطاب الإعلامي إذا كان متسقاً مع المبادئ والأهداف يمكن أن يساعد على توحيد الرؤى وبلورة الرأي العام حول قضية ما - أو توحيد الرأي – وبالتالي يضفي نوعاً من الشرعية على القضية أو التوجيه. ويمكن أن يساهم بعقلانية الطرح في إزالة التوتر وحل الصراعات، كما يمكن أن يمهد لتنفيذ السياسات.

في عصر العولمة، يصبح للخطاب الإعلامي دور أكبر وأهم، حيث تواجه الأمة الإسلامية حرباً حضارية شرسة وفتناً دينية وعرقية وتحديات كبيرة تحتاج لخطاب في مستوى التحديات، وهذا لا يتأتى إلا من خلال منهج توحيدي وتأصيلي وتجديد يواكب خطاب العصر.

غير أن معالجة إشكالية الخطاب الإعلامي في عصر العولمة تستدعي رؤية فلسفية ومنهجاً وأدبيات كثيفة لتشكيل الإطار العام الذي به يمكن توليد اللغة المناسبة وتوجيه الخطاب الإعلامي الإسلامي المعاصر. وهذا يستلزم أيضاً دراسة الواقع الدولي الذي يعمل فيه الإعلام الإسلامي بكل تحدياته وعلى رأسها إعلام العولمة. فما هي إذن سمات إعلام العولمة الذي ينبغي أن نصوّب نحوها الخطاب؟ ثم ما هي سمات الخطاب الذي يجب أن نؤسسه تبعاً لذلك؟

---

(١) C. A. Smith and K. B. Smith,«The Rhetoric of Political Institutions», in D. C. Swanson and D. Nimmo (eds.), New Directions in Political Communication. (Newbury Park., Ca: (Sage, 1990) p. 226.

الإعلام المطلوب لبناء الخطاب المعاصر:

الحديث عن خطاب إعلامي إسلامي يرتبط - ابتداءً - بمفهوم الإعلام الإسلامي. وهذا الأخير ينبغي أن يرتكز على التصور الإسلامي للإعلام وعلى البعد الأخلاقي- الرسالي في عملية الاتصال (communication process).

الإعلام الإسلامي إعلام يتسم بالاستقلال والحرية، ويبتعد عن التحيز والمداهنة، ولايمكن أن يكون أداة في يد السلطات للتحكم في الناس أو التمويه عليهم أو تسخيرهم واللعب بعقولهم على نحو ما يحدث من دعايات في النظم السياسية المستبدة (despotic) أو حكم الطغاة (tyrant) والتي تجعل من الإعلام أداة للضغط والقهر (coercion) وهو ما يسمى بالإعلام الاستمالي (persuasive) أو التطوعي لتسخير الجماهير لتنفيذ سياسات معينة. إن الإعلام الإسلامي يلتزم دائماً بقيم الإسلام ومعاييره ومبادئه، كما إنه يعبر عنها في كل ما يقدمه للناس من معلومات[١] .

ليس المقصود بالإعلام الإسلامي علماً جديداً أو رفضاً لكل أساليب الإعلام القائمة حالياً، بل المقصود صبغ الإعلام الحالي وقنواته المتجددة وأنماطه الحديثة بصبغة إسلامية بحتة تلائم المجتمع المسلم. وهذا يستلزم اجتهاداً واستنباطاً لوضع أسس أو مبادئ تؤطر لتأصيل إعلامي ينطلق من منهج علمي يستوعب متطلبات مضمون الرسالة الإعلامية الإسلامية من ناحية ويعمل على تطويع أو تكييف التقنيات الحديثة في الإعلام المعاصر - من ناحية أخرى - لخدمة الرسالة الإعلامية الإسلامية.. فليس من الواقعية أن نعمل بمعزل عن تقنية الاتصال الحديث، كما ليس من الصائب دينياً أن نستسلم بصورة مطلقة لتأثير الإعلام الدولي أو نخضع لمؤثراته القوية وبالتالي نتأثر

(١) إبراهيم إمام، أصول الإعلام الإسلامي (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٨٥م) ص ١٥.

بمضمون رسالته التي قد تتعارض مع عقيدتنا وقيمنا الإسلامية. فالإعلام ينطلق من القيم والمفاهيم التي تسيطر على المجتمع الذي يعمل فيه، ويخضع في برامجه وخططه لعقيدة ذلك المجتمع، وذلك مطلب أساسي وعادل لا يختلف عليه اثنان[1] .

إن الإعلام الإسلامي يعني أن نبث وننشر أفكارنا ودعوتنا وتراثنا الإسلامي باستخدام أحدث وسائل الاتصال والإعلام المعاصرة، كما يعني تكييف هذه الوسائل والأجهزة الحديثة، بألقها الإلكتروني وفنوها الجذابة وطرحها الشيق، للتعبير عن الشخصية الإسلامية لبث القيم الإسلامية وإحلالها محل القيم الدخيلة على الإسلام والمسلمين . لكن ذلك يستدعي النظر في كيفية تقديم التراث الإسلامي في شكل إعلامي جذاب بصورة حيوية تخلو من الجمود، دون أن يؤثر ذلك على جوهر التراث أو يشوه قيمه الأصيلة . ولذلك يجب «أن نقدم المضامين الإسلامية بصورة فنية تبرز عظمتها وتزيدها مهابة واحتراماً وإجلالاً لدى المسلمين، ليحبوها ويعملوا بها، لتصبح منهج حياهم ولتصبح هي سلوكياهم».[2]

ويمكن تحديد خصائص الإعلام الإسلامي في الآتي:

أولاً: المنهج: وهو منهج إسلامي، ويشمل هذا المنهج الرسالة الإعلامية ومحتواها وموضوعيتها. يجب أن تُضَمّن الرسالة الدعوة إلى مبادئ وقيم الدين في كل ما يصدر عن أجهزة الإعلام في الدول الإسلامية، من دعوة للفضيلة والخلق الحسن والصدق وحسن التعامل وحسن الجوار والسلام والأمن الاجتماعي والتعاون والتكامل والإخاء والمساواة والحرية. وتحتاج هذه المفاهيم والمبادئ السامية إلى

---

(١) محمود محمد، الإعلام وموقف الكتاب العربي السعودي، ط١ ، ص ٤٧؛ في: عبد الوهاب كحيل، الأسس العلمية والتطبيقية للإعلام الإسلامي (بيروت: عالم الكتب، ١٩٨٥م) ص ٢٠.

(٢) عبد الوهاب كحيل، الأسس العلمية والتطبيقية للإعلام الإسلامي، المرجع السابق، ص ٢١.

عناصر أمينة وكوادر مؤمنة ومقتدرة تصوغها بأمانة، وتتمتع بمواهب وملكات واستعداد على نشرها أو طرحها أو تقديمها لجمهور المتلقين بإخلاص وحماس وتفاعل صادق مع مضمون الرسالة ومقاصدها وأهدافها.

ثانياً : **الأسلوب الفني الإعلامي**: ويعني الشكل الفني الذي ينبغي أن تعالج من خلاله أو تصاغ فيه الرسالة التي تركز على المنهج الإسلامي. فلكل رسالة شكل فني أو قالب يناسبها بحسب نوع ومستوى الجمهور المستهدف. وكل ذلك يعتمد على مهارة وتقدير رجل الإعلام المسلم لما إذا كانت الوسيلة الأنسب هي المطبوعة أو المسموعة أو المرئية. وفي كل ذلك يجب أن يوضع المنهج الإعلامي في شكل جذاب، وأن يعرض بطريقة غير مباشرة بعيدة عن الوعظ المباشر الجاف أو الأسلوب الرتيب، حيث نجد كثيراً من البرامج الدينية في الدول العربية منفرة.

ينبغي أن ينسجم الإعلام الإسلامي مع الحقيقة الأصلية للدين الإسلامي من أنه منهج شامل للحياة، وليس منهجاً جزئياً يعالج جانباً من جوانب الواقع الإنساني. وعلى هذا الأساس فإن البرامج بأشكالها المختلفة والمسلسلات والأفلام، يجب أن تنبع من التصورات العقيدية للإسلام، وأن تنطبع بالقيم والأخلاق التي تنبع من الإسلام. [1]

وبهذا المفهوم وذلك المنهج ينبغي أن يحقق الإعلام الإسلامي أهدافاً محددة منها[2]:

١- نشر عقيدة التوحيد، وتحرير الإنسان من كل عبودية إلا عبودية الله سبحانه وتعالى.

---

(١) مختار عثمان الصديق، الإعلام الإسلامي المعاصر، في مجلة أفكار جديدة، الخرطوم: هيئة الأعمال الفكرية، العدد٤، مارس ١٩٩٩م، ص ٩٧-٩٨.

(٢) للمزيد من التفاصيل حول أهداف الإعلام الإسلامي انظر: إبراهيم الإمام، أصول الإعلام الإسلامي، مرجع سابق، ص ٣١.

٢- ترقية اهتمامات الناس والسمو بعقولهم ووجداهم وسلوكهم، وإشاعة الثقافة الإسلامية بمبادئها السامية وقيمها الرفيعة، ورفع المستوى الفكري، والسعي لتوحيد الأمة وتضامنها، ورفع وبث روح التماسك والمودة والتعارف والانسجام بين المسلمين.

٣- توجيه دعوة الإسلام إلى الناس كافة، باستعمال كل الوسائل والأساليب التي تتناسب مع كل زمان مكان، والأمر بالدعوة: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ (النحل:١٢٥).

٤- الدفاع عن قضايا الأمة ومصالحها، والاهتمام بشؤون المسلمين في كل مكان.

٥- العمل على تعرية الحضارة الغربية الرأسمالية مما فيها من مفاهيم منافية للإنسانية وأفكار علمانية، وفضح العقائد الزائفة كلها، والدعوة إلى العودة إلى نقاء الإسلام وبساطته.

٦- توجيه الحرب التقنية ضد الأعداء كسلاح من أسلحة الدعوة والمقاومة للعدو.

٧- مواجهه الحرب الدعائية والدعاية المضادة (counter-propaganda)، ومحاربة الشائعات.

وقد أشار بعض الباحثين إلى وظائف محددة للإعلام الإسلامي من مثل:

بيان الحق؛ دفع الباطل؛ تبليغ الدعوة؛ التربية؛ رفع الناس إلى المنازل العليا؛ تحقيق التعاون والتآلف؛ الحفاظ على الأوقات؛ التنمية؛ والترويح.

ويسعى الإعلام الإسلامي إلى تحقيق هذه الأهداف في سياق وظائف الإعـــلام المعروفة، والتي تشمل الإخبار والتحليل والتفسير والتوجيـــه والإرشـــاد والتـــرويح والتسلية والإعلان والتسويق.

غير أن تحقيق هذه الأهـــداف من خلال تلك الوسائل والوظائف ينبغي أن يـــتم في إطار التصور الإســـلامي الشامل، الذي يرتكز على البنـــاء المعـــرفي الإســـلامي بعناصره ومصادره (القرآن – السنة – التراث الإسلامي، والعقل الناقد والمتـــدبر في الكون). إن اتساق التأصيل الإعلامي مع هذا البناء المعرفي يستدعي صـــياغة مبـــادئ عامة – أو نظرية إسلامية – ينطلق منها ويسترشد بها الإعلام الإسلامي، على المستوى النظري والعملي، في تحقيق أهدافه ورســـالته. وهذا يعني ضـــرورة صـــياغة نظريـــة إسلامية للإعلام، يحدد علماء المسلمين أسسها ومعالمها وخصائصها التي تميزها عـــن النظريات الغربية التي تقوم على منطلقات مادية علمانية. وبدون هذه الخطوة ليس من الصائب أن نتحدث عن وجود إعلام إسلامي في واقعنا المعاصر. كمـــا أن صـــياغة نظرية إسلامية في الإعلام خطوة لازمة وسابقة للخطاب الإعلامي المطلوب للمجتمع العربي المسلم.

وتتمثل الخطوة التالية، في بناء الخطاب الإعلامي الإسلامي، في النظر إلى القائم بالاتصال «الصحفي» المسلم – وكذلك الداعية – باعتباره أهم الأعمدة في الخطاب الإسلامي، لذلك على الصحفي العربي– المسلم أن يتمثّل التصور الإسلامي في أداء رسالته، وأن يؤدي وظيفته في إطار مجموعة من المبادئ من أهمها: الصدق، التقوى، الأخلاق، الدعوة والتبليغ، الرقابة الذاتية.

أولاً: الصدق:

الصدق من صفات المؤمن. والصحفي المسلم يجب أن يكون صادقاً وأميناً في تغطيته للأحداث وصياغة الأخبار وفي تحقيقاته، وأن يجتهد في البحث عن الحقيقة وتمليكها للجمهور، وأن يحافظ على مصداقيته.

ثانياً: التقوى:

الصحافة بمعناها الشامل (المنطوقة والمطبوعة) في فلسفة الإسلام ينبغي أن تتم ممارستها على أساس من التقوى. والمقصود من التقوى هنا معناها الواسع، الذي يعني أنها منبع كل خير. والصحفي المسلم هو الذي يتقي الله في عمله ولا يخشى في الحق لومة لائم، ويكون الجهر بالحق ديدنه في ممارسة مهنته، ويجعل من عمله عبادة ومن مهنته رسالة، ويجعل مصلحة المجتمع هي هدفه ورضاء الله هو غايته، وأن يكون الرسول ﷺ قدوته، والقرآن هداه ومرجعه في كل شيء، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (التوبة:١١٩).

ثالثاً: الأخلاق:

الأخلاق كمبدأ وقيمة سلوكية يمكن أن تكون معياراً يحكم عمل الصحفي المسلم فينأى به عن مزالق النفاق والكذب، ويمارس عمله بنزاهة وموضوعية وحياد وتجرد، ولا يكون عرضة لتقبل الهدايا والرشوة لخدمة فئة دون أخرى أو لتزوير الحقائق وتحريف الأخبار، مبتغياً رضاء السلطة أو أصحاب الجاه والمال، تحقيقاً لمصلحة شخصية.

والأخلاق الإسلامية تبعد الصحفي عن الابتزاز والابتذال، وتنأى به عن استخدام وعرض الصور الفاضحة التي تخدش الحياء العام أو قيم المجتمع المسلم.

وعندما نتحدث عن الأخلاق فإنما نتحدث عن ثنائيات محددة مثل الخير والشر، والحق والباطل. وأخلاق المسلم هي بالضرورة تمثل الجانب الإيجابي في هذه الثنائيات.

الإعلام الإسلامي كدعوة يعني التزام الصحفي بمسؤولية الدعوة من خلال أدائه ومن خلال قنوات الاتصال المتعددة.

والإعلام هنا لا ينفصل عن الدعوة: «لأن الإعلام مرحلة من مراحل الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالة الإسلام مقدمة أساسية للإيمان والاقتناع، ولا بد للداعية أن يكون عالماً بموضوع الإسلام»، والإعلام الإسلامي يختلف عن غيره في المفهوم والمقومات والأهداف والغايات. إن طبيعة الإعلام الإسلامي قائمة على أساس إيصال وإبلاغ الحقيقة، وقد عبر عنها القرآن الكريم بـ (الدعوة إلى الله)، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ (الأحزاب:٣٩)، ويقول تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ (فصلت:٣٣) أي أن المحور والغاية هو الله والحقيقة. [١]

والملاحظ أن كلمة (دعاية) مشتقة من نفس الفعل (يدعو) الذي تشتق منه كلمة (دعوة) وكلاهما يعني الإيصال والتبليغ بالإقناع والاستمالة والترغيب ونشر القيم والمبادئ. غير أن كلمة (دعاية) ارتبطت في واقع عالمنا المعاصر بفلسفة الغرب التي أفسدتها (الميكافيلية).. و(الدعوة) الإسلامية هي التزام جانب الحق، وهي رسالة الإسلام وما تتضمنه من عقيدة وقيم.. وهي تبليغ هذه الرسالة إلى الناس وحثهم على فهمها والإيمان بها واتخاذها معياراً لسلوكهم في الحياة.[٢]

---

(١) مجلة التوحيد، العدد ٦٥، يونيو ١٩٩٣م، ص ٩٩.

(٢) إبراهيم إمام، مرجع سابق، ص ٢٢.

خامساً: الرقابة الذاتية:

الصحفي المسلم رقيبه هو ضميره المؤمن بالله، ويكون هدفه الحق والخبر اليقين ولا يحتاج لرقيب خارج هذه الرقابة الذاتية، فهو يعلم بأن هنالك رقابة أخرى عليه من الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (ق:١٦-١٨).

أما الصحفي غير المسلم فهو، بالإضافة إلى خضوعه للرقابة الرسمية، يخضع كذلك لمؤثرات أخرى مثل الانتماءات الإثنية والجهوية والحزبية وجماعات الضغط والانتماء الطبقي. وكلها تؤثر في الصحفي من حيث تعامله مع الأحداث والوقائع وصياغته للأخبار وتحريرها. وعلماء الصحافة يعترفون بتأثير هذه العوامل ولذلك يقرون بعدم وجود حياد تام أو موضوعية مطلقة.

بينما نجد الصحفي المسلم يمكن أن يتجاوز هذه الحدود ويتغلب على هذه المؤثرات؛ لأن الدين الإسلامي لا يقوم على أساس انتماء الفرد لهذه الكيانات المحدودة والضيقة، وإنما يقوم على وحدة الأصل ووحدة الانتماء إلى الخالق الواحد؛ كما يقوم على أساس المساواة بين بني البشر. لذلك ينتفي في الإعلام الإسلامي التمايز الطبقي أو التأثير العرقي أو الاقتصادي أو السياسي على عمل الصحفي.

وفي ضوء تلك المبادئ يمكن أن تقوم نظرية إسلامية في الإعلام. وهي نظرية ذات منهج رباني خالص، تتميز عن النظريات العلمانية التي تقوم على فلسفة الغرب

التي تتسم بالطابع المادي وغير الأخلاقي.. والصحفي الغربي هو جزء من ذلك المكون الفلسفي. وهنا تبرز الحاجة الملحة لتحرير الصحفي المسلم من تأثير فلسفة الغرب ومنهاجها الميكافيلي ومرجعيتها المادية.

إذن ينبغي في تأصيلنا للإعلام أن نستدعي التصور الإسلامي في جوانب العملية الاتصالية كلها، وفي أشكال المعالجات الإعلامية كلها، وفي الأنماط ومضامين الرسالة الإعلامية وقنواتها المختلفة، وفي إعداد الكادر العامل في الإعلام الإسلامي وفقاً لهذه الرؤية التأصيلية الشاملة، فتشمل الخبر والمقال والإعلان والدعوة والعلاقات العامة والرأي العام، وتشمل الصحف والمجلات والكتب والإذاعة والتلفاز والفيديو والحاسوب والإنترنت وغيرها من وسائل الاتصال الحديثة.. أن يتم ذلك وفق المنهج الإسلامي والأسلوب (الشكل) الفني الإعلامي.

لقد اقترن مفهوم المهنية (professionalism) في وسائل الإعلام اليوم بمفهوم الابتذال والخلاعة، نتيجة لكثرة تعود الجماهير على ذلك. فالمنتجون والمخرجون القائمون على أمر وسائل الإعلام، خاصة المسموعة والمرئية، يرون أن جذب انتباه المستمع أو المشاهد لا يكون إلا بتصميم الرقصات المثيرة أو بالصور الخليعة أو بالأجساد العارية أو الأصوات المثيرة. بينما يمكن توظيف وتأصيل قوالب العمل الإعلامي الفني من: أفلام ومسلسلات وتمثيليات مثلاً، لبث أفكار وقيم إسلامية تقدم للجمهور سلوكيات نافعة، وتقدم الدين بصورة مقبولة تناسب العصر.

والتأصيل لا يعني الانعزال عن التقنيات الحديثة، بل توظيف هذه الوسائل لنشر عقيدة التوحيد، وممارسة العملية الإعلامية من خلال مفهوم: (العمل عبادة)، في سياق وظيفة الإنسان في الكون.

الإعلام في عصر العولمة:

نحن الآن أمام معطيات محددة تفرزها العولمة من أبرزهـــا أن العولمـــة مصـــدرها ومركزها الغرب؛ وأن العولمة ليست هي أدوات ووسائل تقنية حديثة أو أنماط إنتـــاج جديدة بل هي مضامين قيمية وثقافية. لذلك يكون للخوف والتحفظ في التعامل معها ما يبرره. لذا ينظر الكثير من المفكرين والباحثين في عالمنا العربي والإسلامي باهتمـــام إلى الجوانب الخفية لبريق العولمة. إن نقد الظاهرة لا يعني الانغلاق أو الرفض المطلق لها (وهو موقف غير ممكن في الواقع) بل ينطوي النقد على تجاوز حالة الانبهار والدعوة لتشكيل رؤية وصياغة منهج للتعامل مع الظاهرة بما يحفظ هوية (الآخر) في خضم عالم متعولم بسرعة مذهلة لا تنتظر المتفرجين ولا ترحم المنبهرين. إن القراءة الناقدة للعولمة تكشف حقيقة مضامينها باعتبارها ظاهرة جديدة في سياق التفوق والسيادة الغربية على العالم : «العولمة تعميم لنموذج حضاري استهلاكي أمريكي على العـــالم». (١) لذلك يصف بعضهم العملية بأنها محاولة لأمركة العالم (Americanization).

نحن الآن – في العالم العربي الإسلامي – نتعولم من خلال تعاطينا لأدوات العولمة من فضائيات وتجارة إلكترونية وهاتف جوال وإنترنت، ومن خـــلال تفاعلنـــا مـــع قـــيم وإفرازات ظاهرة العولمة. ومن خلال هذا التفاعل العولمي نتنـــازل (لا إراديـــاً) عـــن خصوصيتنا الثقافية، ونتشرب تدريجياً قيماً جديدة وافدة هي قيم الغرب.

إذن تكمن الخطورة في أننا نتعولم دون أن نهيئ أنفسنا لذلك بمنهج أصيل يرتكز على منطلقاتنا العقدية، وتلك هي مهمة التأصيل.

إن الحديث عن التأصيل الإسلامي في ظل العولمة يستلزم استصـــحابنا لمعطيـــات العولمة، خاصة في مجال الإعلام والثقافة والفكر، وما يرتبط بهذه المكونات من هجوم

---

(١) محمد عابد الجابري ، حديث صحفي لجريدة المستقلة، لندن، العدد ١٧٠، ١٩٩٧/٨/١١م.

علماني متقن على الإسلام وعلى ثوابت الأمة العقيدية والقيمية وهويتها، وما يستهدفه ذلك من إضعاف لحصانة الأمة و فاعليتها في مواجهة الغزو الخارجي.

إن العولمة تستخدم أسلحة فاعلة لإحداث هزة في الهوية الإسلامية وذلك من خلال أدواتها المختلفة وبخاصة الإعلام. فالإعلام هو مدخل أساس في استهداف هوية الأمة الإسلامية. لذلك ينبغي النظر لمخاطر العولمة من الزاوية الإعلامية الثقافية.

في مواجهة إعلام العولمة يجب أن نعي بأن الإعلام الإسلامي لا يعمل في فراغ، وإنما يعمل في إطار - بل وفي مواجهة - إعلام غربي يسيطر على الإعلام الدولي ويؤثر على الرأي العام العالمي بما في ذلك المجتمعات المسلمة. لذلك ينبغي دراسة الواقع الإعلامي الدولي، وأهم اللاعبين فيه، وسمات هذا الإعلام الدولي، وطبيعة القوى التي تسيطر عليه وتضع (أجندته) وتحدد اتجاهه.

إن الواقع الدولي الراهن، الذي يتفاعل معه الإعلام الإسلامي قد شهد طفرات كبيرة في مجال الإعلام والمعلومات منذ الثورة الصناعية الثالثة التي «ارتكزت على إنتاج العقل البشري المتدفق واللانهائي من الأفكار والمعلومات والمعرفة المكثفة خاصة في مجالات الاتصالات والمعلومات والفضاء والحاسب الآلي والإلكترونيات الدقيقة والهندسة الوراثية»[١]. وإزاء هذا الواقع الدولي المتعولم فإن على الإعلام الإسلامي أن «يوظف تكنولوجيا الاتصال وما وصل إليه العلم من وسائل وأجهزة متقدمة تخدم الدعوة الإسلامية... والإسلام لا يحارب الوسائل الحديثة ما دمنا نستخدمها في خدمة الإسلام». [٢]

---

(١) وكالة الصحافة العربية، خدمة خاصة، صحيفة الرأي العام السودانية، الخرطوم،العدد١١٤٦، ٢٧/١٠/٢٠٠٠م.

(٢) Water Lipmann, "The World Outside and the Picture in Our Heads". In: *The Process and Effects of Mass Communication*, by Wilbur Schramm and Donald F. Robert, (eds.), University of Illinois Press, 1977, P265.

ونحن كجزء من منظومة العالم الثالث ودول الجنوب الفقيرة (أو الدول النامية) وبالرؤية المشوهة التي يرانا بها الغرب – نتأثر ضمن تلك المنظومات بالإعلام الدولي الذي تحتكره دول الشمال الغني والغرب المتحكم على تكنولوجيا الاتصال . وهذا الإعلام الغربي الدولي يرتكز على فلسفة تختلف مع عقيدتنا، ويعمل وفق نسق قيم ومعتقدات تختلف عن منطلقاتنا العقائدية. والإعلام الغربي يعمل لصالح دول الغرب وبذلك تنتفي الموضوعية في التغطية. ونحن في هذا الوضع الدولي لإعلام غير متوازن وغير متكافئ، ولا يقوم على مبادئ تخدم الإنسانية بتجرد، تلح علينا الحاجة إلى ضرورة عمل إجراء وقائي في مرحلة أولى تتدرج إلى أن تصل إلى مرحلة بناء إستراتيجية متكاملة لإعلام رسالي واع بدوره في الكون.

وتبرز أهمية تأصيل – أو أسلمة – الإعلام، كمفهوم وعملية ومؤسسات، من أننا نواجه هجمة ثقافية وحرب أفكار تتخذ من وسائل الإعلام آليتها الفاعلة لتحقيق الهدف. وقد استخدم المستشرقون لتشويه الثقافة الإسلامية وسائل وأساليب عديدة، منها المباشر الواضح وتشمل دوائر المعارف، الكتب، الإذاعة، التلفزيون، ومنها غير المباشر وهي تلاميذ المستشرقين، الذين تأثروا بأفكارهم وشعاراتهم فأصبحوا يتبنونها ويبثونها بين أبناء الأمة العربية والإسلامية في كل مجالات الحياة الفكرية، والتربوية والثقافية والسياسية والاجتماعية وغيرها.

يقول أحد الباحثين الغربيين: «إن العالم الذي نتعامل معه سياسياً هو خارج نطاق وعينا وإدراكنا لذلك يجب أن نتخيله. وهذا هو دور الإعلام، بأن يرسم لنا صورة عنه»[1]. هكذا يرى أحد الباحثين في الغرب أهمية ودور الإعلام في تشكيل الصورة الذهنية للغرب عن (الآخر).

---

(١) بول فيندلي، من يجرؤ علي الكلام؟ (بيروت: ١٩٨٦م) ص ٤٨٣.

إن الإعلام الغربي كمؤسسة من مؤسسات الحضارة الغربية الحديثة يقوم على فرضية أساسية وهي تفوق الإنسان الغربي النوعي على غيره من البشر، وهنا ينبغي أن نأخذ في الاعتبار أن المثقف والإعلامي الغربي هو أسير ثقافته الغربية، وهي ثقافة مؤسسة -تاريخياً- على تلك النظرة الاستعلائية، وأن المسلم يوجد في أسفل سلم الدونية في ذاكرة ومخيلة الغرب، حيث تأسست الصورة الذهنية الثابتة بأن المسلم - والعربي - هو متخلف وبربري وهمجي ينزع للحروب ويلجأ للعنف؛ وأنه متطرف (extremist) ومتشدد (radical). وطالما بقي الإسلام في نظر الدوائر المعادية على أنه تهديد أصولي فإن الإسلام سيبقى مادة محورية للإعلام الدولي، كما كان عليه الحال في الربع الأخير من القرن العشرين. وهذه النظرة الغربية للإسلام لها جذورها التاريخية وإطارها الثقافي، حيث يتأثر الإعلام الغربي بتلك الصورة الذهنية التي ابتدعها الغرب حول المسلمين والعرب. وظل يعيد الغرب إنتاج تلك الصورة الذهنية (image) جيلاً بعد جيل حتى ترسخت لدى الرأي العام الغربي وامتد تأثيرها (عبر الآلة الإعلامية الفضائية) إلى الرأي العام العالمي.

وعلى خلفية هذه النظرة الغربية - التقليدية للعرب والمسلمين تتم معالجة الرسالة الإعلامية الخاصة بتغطية الأحداث في الدول العربية والإسلامية، أو في اختيار وتحرير الرسالة الموجهة لتلك المناطق. وقد اعترف عضو الكونجرس الأمريكي السابق بول فيندلي (Paul Findley) بهذا الانحياز الأمريكي ضد العرب ولصالح إسرائيل وذلك في كتابه «من يجرؤ على الكلام». حيث يرى فيندلي أن هذا الانحياز في تغطية الإعلام الأمريكي للشرق الأوسط يعود إلى نجاح جهود اللوبي الإسرائيلي في السيطرة على وسائل الإعلام الأمريكي بشن حملة احترافية لتهديد وسائل الإعلام بمختلف الوسائل. ومن تلك الوسائل جملة تهديدات يتلقاها المحررون ودوائر الإعلان مثل المقاطعة المنظمة والافتراءات وحملات التشهير الشخصية. وهذه هي الأسلحة التي تستعمل ضد

الصحفيين المصنفين بأنهم محايدون، وإجبارهم على عدم نشر أي خبر يتعارض مع المصالح الإسرائيلية[1]. وقد شمل ذلك التهديد بفقدان الصحفي وظيفته؛ لأن معظم وسائل الإعلام الرئيسية في أمريكا يسيطر عليها اليهود. وإذا قرأنا هذه الخلفية مع سيطرة اليهود على الإعلام الأمريكي ونفوذهم السياسي على اتخاذ القرار في السياسة الخارجية تجاه الشرق الأوسط لاتضح لنا حجم خطورة الإعلام الغربي على الإسلام.

وتعود علاقة الإعلام الدولي بالعولمة إلى منتصف القرن التاسع عشر عندما ظهرت قنوات الاتصال الدولي المتمثلة في وكالات الأنباء العالمية. واستمر احتكار الغرب للإعلام الدولي إلى عصرنا الراهن، عصر الكومبيوتر والأقمار الاصطناعية (الفضائيات) والإنترنت. ونتيجة للتدفق الكبير والسريع للأخبار والمعلومات فقد عرف العصر الحديث بعصر انفجار المعلومات. واستمر الغرب مصدراً لهذه الثورة، بينما بقي دور العرب هو دور المتلقي أو المستهلك في الأساس؛ دور المتلقي وليس دور المبدع، دور المستهلك وليس دور المنتج. ومن خلال سيطرة الغرب على الإعلام الدولي فإن ثقافة الغرب تقهر الثقافات الأخرى.

وبدهي أن هذه المعلومات تنقل ثقافة الغرب. لذلك ينبغي التعامل مع هذه الثورة بمضمونها، حيث تحدث بعض الباحثين عن «أيديولوجيا المعلوماتية والاتصال والإعلام... وأن هذه الثورة التكنولوجية ثورة بمعنى الكلمة، فهي حركة ترتب تحولات كيفية في مجالات عديدة من المعرفة العلمية النظرية والتطبيقية... أو كما قال كون (Kuhn): إنها ثورة تفترض الانتقال من نظام مفاهيمي قديم إلى نظام مفاهيمي آخر جديد»[2].

---

(١) جلال أمين، المسلمون في مواجهة ثورة المعلومات، في مجلة المجتمع، العدد ١٣٤٤، ٦/٤/١٩٩٩م.

(٢) سمير أمين، العولمة: مناخ العصر، رؤية نقدية في العولمة والتحولات المجتمعية في الوطن العربي، ندوة مركز البحوث العربية، الجمعية العربية لعلم الاجتماع (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٩م) ص ٥٩.

ويأتي القلق العربي الإسلامي من ثورة المعلومات هذه بسبب هذا البعد القيمي- الأيديولوجي؛ ذلك لأن في الثقافة العربية الإسلامية موقف يرفض الادعاء بأن العلم محايد، أو أن الأدب والفن محايد، وكذا الرسالة الإعلامية المعولمة بالتقنيات الفضائية الحديثة. «فالمسألة ليست أنهم يعرضون علينا أفلاماً إباحية، ولكن في الواقع أنهم ينقلون قيماً أخلاقية باستمرار وأنماطاً حياتية حتى لو كان الفيلم لا يحمل أي مشاهد للإباحية أو العنف».[1]

إذن من الخطأ أن ننظر – في سطحية – لوسائل الإعلام الغربية (الدولية) بأنها تنقل المتعة والتسلية والترفيه؛ إنما تنقل أفكاراً وقيماً، وهي ذات طبيعة سياسية وليست تجارية، حيث إن «الكثير من الدول تسعى إلى نشر وترقية لغاتها وثقافاتها ورؤيتها للعالم والمجتمع... فمثلاً هناك إجماع بأن البي. بي. سي. تنشر الرؤية الإنكليزية والغربية للعالم»[2]. وينطبق هذا على الإذاعات والفضائيات الدولية الأخرى. إن هذا البعد القيمي والفكري، الذي يحمل مضامين الرسالة الإعلامية الدولية، ينبغي أن يمثل قلقاً للعرب والمسلمين خاصة في عصر العولمة الراهنة.

ونسبة لإدراك اليهود لأهمية المعلومات والإعلام فقد سيطروا منذ فترة طويلة (وما زالوا يسيطرون) على الإعلام الدولي.

في بروتوكولات حكماء بني صهيون تقرأ هذه العبارات: «يجب أن لا يصل أي طرف من خبر إلى المجتمع من غير أن يحظى بموافقتنا، ولذلك لابد لنا من السيطرة على وكالات الأنباء التي تتركز فيها الأخبار من كل أنحاء العالم، وحينئذ سنضمن أن لا ينشر من الأخبار إلا ما نختاره نحن ونوافق عليه».[3]

(١) جلال أمين، مجلة المجتمع، المصدر السابق، ص ٢٤.
(٢) زياد أبو غنيمة، السيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام العالمية (عمان: دار عمارة ، ١٩٨٩م) ص ٩٩.
(٣) المرجع السابق، ص ٢٩ – ٣٥ .

إن أعرق وكالات الأنباء الدولية (رويتر) أسسها اليهودي الألماني «جوليوس باول رويتر»، وكان اسمه حتى العام ١٨٤٤م هو «إسرائيل بيير جوازفات». كما يسيطر اليهود على أعرق الصحف في العالم، وكذلك على السينما العالمية، لإدراكهم خطورتها رغم اكتشاف التلفزيون. فمازال الشباب في العالم الثالث يتدافع لدور السينما لما لها من إغراء وجاذبية؛ ولأنها تعرض الأفلام المثيرة رغم وجود رقابة في بعض الدول. وهذا يعني ضرورة أن تنتبه السلطات في الدول المسلمة إلى نوعية ومضمون الأفلام المستوردة. لقد اهتم اليهود بصناعة السينما، لذلك نجد أن رواد السينما العالمية وخاصة الأمريكية معظمهم من اليهود. ومن هؤلاء اليهود: الألماني الجنسية «كارل ماير»، واليهودي الروسي الجنسية «سيرجي آينشتاين»، والأمريكي «ديفيد روك غريفيت» الذي يعتبر شيخ السينمائيين الأمريكيين اليهود. ورويداً رويداً أصبح اليهود سادة صناعة السينما العالمية من خلال امتلاكهم لأشهر شركات الإنتاج السينمائي العالمية وخاصة الأمريكية. وتشير الإحصائيات إلى أن أكثر من ٩٠% من مجموع العاملين في الحقل السينمائي الأمريكي، إنتاجاً، وإخراجاً، وتمثيلاً، وتصويراً، ومونتاجاً، هم من اليهود. [١]

ومنذ القرن التاسع عشر (١٨٣٠م) نشطت الدعاية الصهيونية، وقادت حملات واسعة ضد الإسلام، ابتداءً من محاولة إضعاف دولة الخلافة العثمانية وذلك لتهيئة الأجواء بتنفيذ مخطط ماكر للقضاء على الخلافة الإسلامية باعتبارها الرمز الذي يلتقي حوله المسلمون جميعاً، وقد انحصر دور الدعاية الإعلامية اليهودية في عدة مجالات منها:

١- تشويه صورة الأتراك المسلمين بإظهارهم بمظهر سفاكي الدماء، المنغمسين في الفساد والانحلال، وذلك بقصد إذكاء الحقد الصليبي الأوربي ضد الأتراك المسلمين.

(١) المرجع السابق، ص ٦٧.

٢- تحريك غرائز الطمع الاستعماري الصليبي وإغراء الأوربيين بسهولة الانقضاض على بعض أجزاء الدولة العثمانية، وقد نجحت الدعاية الصهيونية في ذلك.

٣- إشعال الفتنة بين الدروز والنصارى في سوريا ولبنان والمسارعة إلى اتهام الدولة العثمانية بأنها وراء ذلك.

ونجحت الدعاية الصهيونية نجاحاً كبيراً في تحقيق الهدف على يد مصطفي أتاتورك، الذي صورته الدعاية الصهيونية في صورة المنقذ.

٤- تشويه صورة العرب والمسلمين بتشويه التاريخ الإسلامي العربي ومحاولة إقناع النصارى بخطر الإسلام على النصرانية.

وقد استمر ذلك المخطط الصهيوني من خلال التعتيم الغاشم الذي تتعرض له قضايانا الإسلامية، من مثل فتك الروس بالمسلمين في البوسنة والهرسك والشيشان وألبانيا والأراضي المحتلة وكشمير وأفغانستان وغيرها.

وبالإضافة إلى سيطرة اليهود على الإعلام الدولي، كذلك هناك مجموعات إعلامية مسيحية موجهة للعالم الإسلامي، وهي تحارب الإسلام، وتسهم في العمل التنصيري، من أبرزها:- الرابطة الدولية الكاثولوكية للراديو والتلفزيون؛ الرابطة الدولية للإذاعيين المسيحيين؛ الرابطة العالمية للإذاعة المسيحية؛ المنظمة الدولية للإعلام المسيحي؛ صوت الإنجيل؛ إذاعة «بالحب الأبدي نكسب إفريقيا»؛ إذاعة صوت طنجة؛ إذاعة صوت «مونت كارلو»؛ راديو «ألوّا» وهي إذاعة أمريكية مسيحية تُبث من ليبيريا. وتستخدم ثلاثة من هذه المنظمات المسيحية الموجات القصيرة لتبث ٢٠,٠٠٠ (عشرين ألف) ساعة في الأسبوع، بحوالي ١٢٥ لغة، مما يجعل هذه المنظمات الإعلامية المسيحية أقوى القنوات الدولية.[1]

(١) للمزيد من التفاصيل انظر: الدكتور محي الدين عبد الحليم، إشكاليات العمل الإعلامي بين الثوابت والمعطيات العصرية، كتاب الأمة، قطر، رئاسة المحاكم الشرعية، العدد (٦٤)، ربيع ١٤١٩هـ.

إذن، يجد الإعلام الإسلامي نفسه في عصر العولمة بين فكي اليهودية والمسيحية. وهذه هي إحـــدى التحديات التي تواجه الخطاب الإعلامي المسلم الموجه للخارج أو (للآخر) وللرأي العام الدولي.

المثقف المسلم والخطاب الإعلامي:

الحديث عن الخطاب الإعلامي لا بد أن يشمل الإشارة إلى دور المثقف (العربي المسلم) بوصفه ركناً أساسياً في بناء الخطاب الإعلامي، وذلك لما يتمتع به المثقف من إدراك لطبيعة الجمهور المستهدف في الداخل والخارج، وخصـــائص البيئـــة المحليـــة والدولية وتحديات الواقع وبالتالي سمات الخطاب المطلوب. وهذا يســـتلزم وجـــود المثقف المسلم الملتزم.. والالتزام يقوم على الإيمان بالقضية، وإدراك الرسالة، والوعي بالدور، والاستقلال الذاتي في الموقف والرؤية. حيث ينبغي أن يتحدد موقف المثقف بمعيار الحق والموضوعية، وأن تنطلق رؤيته من التصور الإسلامي. إن توافر مثل هذه الخصائص في المثقف تشكل الأساس للنقلة التصورية الاعتقادية لنقل المثقف من تلك الحالة، حالة التسطيح الفكري والتقلب في المواقف وعدم الثبات على المبدأ، لضعف العامل الديني وغياب البعد الرسالي وانعدام الالتزام الأخلاقي.

إن المثقف المطلوب هو من يتمثل قيم الإسلام وعناصر الثقافة الإسلامية وأنماط السلوك الرفيعة في المجتمع المسلم، فيكون هو القدوة في القول والعمل ويقوم بوظيفة التنوير؛ وهو الذي يضطلع بدور تربوي وتعبوي. فهو الذي يستنهض الجماهير نحو التغيير، ويمثل نبراساً يهتدي به الشعب في مسيرته الحضارية. المثقف بهذا الشـــمول

يعول عليه لحمل لواء التغيير والتطور في المجتمع، وهو الذي يعبر عن نبض الجماهير وحركة المجتمع وصيرورته. وبهذا الفهم ينبغي النظر لدور المثقف في المجتمع المسلم وفي بناء الخطاب الإعلامي.

المثقف هو جزء من النخبة (Elite) وقادة الرأي؛ نخبة مؤثرة في المجتمع وليس نخبة بالمعني السلبي، «صفوة منعزلة عن الجماهير». بل إن ما يميزه هو الوعي، وما يعطيه الوزن والقيمة في المجتمع هو درجة تفاعله مع الجماهير والتعبير عن آرائها وتطلعاتها. وبذلك التأثير وبتلك الفاعلية والتفاعل يستطيع المثقف أن يبني له مركزاً اجتماعياً مرموقاً، وأن يطرح أمام الجمهور، بحكم موقعه وهيبته في المجتمع، آراءً ينظر إليها باعتبارها نماذج يجب أن تحتذى وتحترم. ومن خلال وسائل الاتصال الجماهيري يستطيع المثقف، وكجزء من قادة الرأي «أن يطرح أمام جماهير مجتمعه القيم والاتجاهات الجديدة، ويساهم في تكوين صور قومية للمجتمعات الأخرى لدى الجماهير، وفي صياغة القيم والتفضيلات والأهداف ليتبناها الآخرون»[1].

ويتمتع المثقف بالقدرة على الإقناع والاستمالة والتحريض والتعبئة، وهو يساهم في تشكيل الرأي العام. ولكن تتوقف مساهمة المثقفين هذه على «تماسكهم، وموقف النخبة الحاكمة منهم، واتجاهاتهم إزاء الحياة السياسية وقضايا المجتمع»[2].

إن المثقف، مع المفكر والإعلامي وبقية عناصر قادة الرأي، يشكلون أهم المرجعيات في صياغة الخطاب الإعلامي المسلم.

---

(١) عبد الغفار رشاد، الرأي العام، دراسة في النتائج السياسية (القاهرة: ١٩٨٤م) ص ١٣٢.
(٢) المرجع السابق، ص ١٣٥

خاتمة

إن ضرورة وجود خطاب إعلامي إسلامي معاصر تفترض أن ينطلق الخطاب من رؤية إسلامية تقوم على منهج تأصيلي. إن تأصيل الخطاب الإعلامي يعني الالتزام بالجانب الأخلاقي في الطرح والصدق والأمانة في أداء الرسالة. وعليه يمكننا أن نتحدث عن خصائص محددة للخطاب الإعلامي الإسلامي مثل:

١- الموضوعية؛

٢- العقلانية؛

٣- المعاصرة؛

٤- الوضوح والبساطة والمرونة؛

٥- الاتساق وتجاوز التناقضات.

أي أننا نحتاج إلى خطابٍ موضوعي، وعقلاني، ومرن، وفاعل، ومعاصر.

ولكي يكون خطابنا موضوعياً، يجب أن يكون واقعياً.

ولكي يكون عقلانياً يجب أن يبتعد عن الإثارة والتهريج والغوغائية والديماغوجية.

ولكي يكون فاعلاً ومعاصراً يجب أن يتجه إلى الجماهير مباشرة وللرأي العام المحلي والعالمي، وبكل الوضوح والاتساق، وخال من التناقضات، وأن يجسد الفعل وليس ردة الفعل.

وأن يتسم الخطاب بالمرونة يعني الابتعاد عن الجمود والتشدد أو التطرف، وأن يتسم بالحيوية والتجدد، فدائماً مانفقد الجمهور المستهدف بسبب الجمود والتكرارية مما يسبب الملل الذي يبعد المتلقي، بسبب الإطناب والإسهاب والمقدمات الطويلة والتي تكون على حساب التركيز على النقاط المركزية في الرسالة، التي يهدف الخطاب إلى نقلها.

كذلك أن يتخلص الخطاب من النمطية والقوالب الجاهزة مثل ترديد مقولات نظرية المؤامرة، والتشبث بالماضي، والبكاء على التاريخ باستمرار، حتى لا نعيد إنتاج حالة الضعف ونستديم الهشاشة والقابلية للاختراق.

لبناء خطاب إعلامي إسلامي معاصر لمواجهة عصر العولمة يجب أن ننطلق من نقد الذات. فخطابنا يضعف بسبب أننا نقع فريسة تناقضات نابعة من الثنائيات المتناقضة خاصة ثنائية (الذات والآحر) في ظل غياب الحوار مع الذات.

على الخطاب الموجه للداخل أن يتجاوز حالة التناقضات التي تضعف دوره في توجيه الأمة، مثل التناقض؛ المفتعل بين القومية والدين في العالم العربي. على الخطاب الإعلامي أن يتجاوز ذلك التناقض؛ لأن الدين لا يتعارض مع القومية؛ بل على العكس يمكن أن يساهم الدين في توحيد الأمة العربية.

الخطاب الإسلامي المعاصر
وجوه الأزمة ومداخل في الحل

الدكتور رفيق عبد السلام(*)

يحتاج الخطاب الإسلامي إلى مراجعة ذاته وإعادة ترتيب سلم أولوياته، وذلك بتغليب قيمة المجتمع على الدولة، والتربية على القانون، وتغليب نزعة الإصلاح على العقوبة والردع، فقد بينت التجربة الحية أن الوصول إلى الحكم عبر جهاز الدولة يحمل في طياته من المخاطر والتحديات ما يفوق مرحلة المعارضة أصلاً.

شهد العالم الإسلامي منذ أواسط القرن العشرين، وبصورة أوضح خلال العقدين الأخيرين، حالة بارزة من الصحوة الدينية واليقظة السياسية تجلت مظاهرها في مختلف مناحي الحياة الخاصة والعامة، وامتدت تياراتها إلى عموم الجغرافيا الواسعة لعالم الإسلام، كما ارتسمت ملامحها في أوساط النخبة المثقفة والقوى السياسية

(*) باحث في الفكر السياسي والعلاقات الدولية.. جامعة وستمنستر (المملكة المتحدة).

المنظمة وفي الحركة التلقائية والعميقة للمجتمع.. وفي أجواء هذه الطفـرة الهائلـة تمكنت التيارات الإسلامية من تسجيل حضور قوي ونشـيط في الحيـاة السياسـة والثقافية، ومن المشاركة القوية في الانتخابات العامة، ومن دخول البرلمانات في البلاد الإسلامية، التي تتوفر على هامش من حرية النشاط السياسي، بل إنه حتى في بعـض البلاد الإسلامية التي نهجت حكوماتها توجهات استئصالية لم تتمكن من إلغاء الحالة السياسية الإسلامية أو شطبها من المعادلة.

ومن المؤكد هنا أن هذه الحالة تدل في وجه من وجوهها على عـودة الإسـلام مجدداً إلى قلب المعادلة الدولية، بعد غيبة طويلة قد فرضت عليه بقوة الجيوش الغازيـة وما لحقها من اتفاقيات دولية مجحفة -كان أبرزها سايكس بيكـو ١٩١٦م، الـتي قسمت العالم الإسلامي إلى مناطق نفوذ دولية- ثم تفكيك ما تبقى من رموز الحضور السياسي للمسلمين في المسرح الدولي بعد إنهاك الدولة العثمانية وشطبها من المعادلات الدولية. وبذلك تحول الإسلام من خصم عنيد في المسرح الدولي إلى مجرد ملـف في أجندة الساسة الغربيين سمي في البداية مشكلة الرجل المريض وأخيراً المسألة الشرقية.

على أن حالة الصعود السياسي الإسلامي، على ما سجلته من مكاسب لا يمكن إنكارها بأية حال من الأحوال، إلا أنها مع ذلك لم تخل من مظاهر قصور وإخـلال بينة، ولعل التعبير الواضح عن هذا القصور ما يعبر عنه عادة بعناوين متعددة ولكنها قريبة المعنى من مثل أزمة الخطاب الإسلامي، وأزمة الفكر الإسلامي، وأزمة الـوعي أو العقل الإسلامي، وما شابه ذلك. وفعلاً قد يكون هنالك بعض مـن المبالغـة في تضخيم الأزمة أو في فهم أسبابها وشخوصها ولكن كل ذلك لا يمنع من القول: بأن هنالك مشكلة حقيقية وعميقة تحتاج إلى التشخيص والفهم الـدقيقين، ثم محاولـة التدارك والإصلاح.

الخطاب الإسلامي الحديث وجذور الأزمة

إن مشكلة الخطاب الإسلامي الحديث، أو ما يعبر عنه عادة بأزمة الوعي الإسلامي، لا يمكن فصلها بأية حال من الأحوال عن أزمة الواقع الإسلامي، إذ ليس من المنتظر أن يكون الخطاب الإسلامي بخير وعافية في ظل تفكك المؤسسات المعرفية والعلمية الإسلامية، التي تمده بمقومات الحياة والنمو، أو ضمن أوضاع التفكك الاجتماعي والمؤسسي التي يشهدها العالم الإسلامي. ومن الدروس المهمة، التي يرشدنا إليها العلامة (ابن خلدون) هي كون العمران البشري هو عبارة عن نسيج مترابط الحلقات والعناصر، ما من خلل يطرأ على أحدها أو بعضها إلا وتصيب آثاره مجمل البنيان العمراني، وبهذا المعنى ليس من المتوقع أن يكون الإنتاج المعرفي والعلمي الإسلامي سليماً أو رفيع المستوى إذا كانت المؤسسة العلمية مختلة، ولا يمكن للخطاب الإسلامي أن يكون قوياً ومتيناً إذا كان الواقع الذي ينتجه أو يتعاطى معه هذا الخطاب في حالة فوضى واضطراب عام، وهذا ما ينطبق على وجه الدقة على الحالة الإسلامية الراهنة.

واحدة من المشكلات الكبرى، التي يعانيها الخطاب الإسلامي الحديث، تعود إلى ما يمكن تسميتها بأزمة تصدع الوعي الإسلامي، هذه الأزمة الناتجة بدورها عن تفكك عرى الاستمرارية التاريخية، بفعل موجة الاجتياح الاستعماري الغربي وما تبع ذلك من حالة تصرم واضطراب عام مازال يعيشها عالم الإسلام الواسع إلى يومنا هذا.

فالخطاب الإسلامي يعيش حالة قلقة بين قديم متفسخ وبين جديد هجين ومشوه، لا هو حافظ فعلاً على وتيرة الاستمرار التاريخي بكل ثرائها وغناها ولا هو انتقل إلى الوضع الجديد بكل مكاسبه وإضافاته، فقد اختفت أو تكاد صورة العالم الموسوعي

والمتبحر في مختلف حقول المعرفة الإسلامية من نحو وصرف وبلاغة وعلم فقه وأصول وعلم كلام وغيره، في حين «المفكر» أو الباحث الإسلامي المتخصص (أو ما يعبر عنه عادة بالإنتلجينسيا) والذي من المفترض أن يملأ المساحة التي تركها دور العالم أو الفقيه فهو غائب تماماً، أو في الحد الأدنى لا ترى له أثراً يذكر في عالم المعرفة الإسلامية. وهي حالة تعكس بشكل أو بآخر أزمة أعمق وأشمل تتمثل في ضمور أداء المؤسسات التعليمية التاريخية، مع ضعف أداء الجامعات الحديثة في العالم العربي والإسلامي عامة، بحيث إن هذه الجامعات الحديثة ما استطاعت المحافظة على التراث العلمي والمعرفي الهائل الذي خلفته المؤسسات التعليمية «التقليدية»، بله المراكمة عليه وإغنائه، ولا هي ارتقت إلى مستوى جدارة الندية مع الجامعات الغربية الحديثة.

لا شك أن صدمة الحداثة، التي اجتاحت عالم الإسلام على حين غرة مصحوبة بقوة الجيوش والتدخلات العسكرية والسياسية والهيمنة الاقتصادية، قد أحدثت رجات هائلة وعميقة في البنى الاجتماعية والسياسية ونمط الحياة العامة للمسلمين، كما أنها قد أصابت تبعاً لذلك بنى الوعي الإسلامي بارتجاجات هائلة مازالت تداعياتها قائمة إلى اليوم. فقد كان من بين نتائج هذه الصدمة العنيفة والمباشرة انقسام النخبة الإسلامية إلى ثلاثة تيارات كبرى، أو لنقل ثلاثة أجناس من الخطاب «الإسلامي» مازالت ارتساماتها قائمة وذيولها ماثلة إلى يومنا هذا.

تيار أول: عمل على مواجهة هذه الصدمة العنيفة عبر الاحتماء الدفاعي بمواقع الموروث الثقافي والركون إلى دفء المؤسسات التقليدية محاولاً إغلاق المنافذ التي يمكن أن تتسرب منها رياح هذه الحداثة العدوانية والمتجاسرة على كل شيء، وقد شمل هذا التيار القطاع الأوسع من العلماء والجماعات الأهلية التي ألفت وتيرة

الاستقرار ودفء العلاقات الحميمية الممتدة من العائلة والعشيرة والحارة والمحلة وما شابه ذلك، فلم يكن يسيراً على هذه الجماعات الخروج من سلطان الموروث وعرف العادة أو مغادرة حضن الجماعة إلى عالم الاضطراب والفردية القلقة التي ينبئ بها تيار الحداثة «المسلحة» الجارف.

أما التيار الثاني: فقد راهن على التكيف مع النموذج الاجتماعي والثقافي الغربي المتغلب بحلوه ومره باعتباره قصب النجاة مما وقع فيه المسلمون من وهدة التخلف العمراني والتجسيد الأمثل للمدنية الحديثة التي لا مفر منها، ويتفرع هذا التيار بدوره إلى رافدين رئيسين، رافد أول يتكون من رجالات الدولة والثكنات العسكرية الذين لا يهتمون كثيراً بالأبعاد الفكرية والثقافية بقدر ما يهتمون بمبدأ النجاعة العملية التي تقتضي الأخذ بأسس النظام الحديث لتحسين فاعلية الأجهزة السياسية والإدارية والعسكرية للدولة؛ ورافد ثان كانت تغلب عليه مسحة ليبرالية واضحة تسربت مع الإرساليات العلمية للعواصم الغربية، ثم حركة المثاقفة والنقل والترجمة عن الكتابات الأوروبية، وهذا التيار لا يرى غضاضة من الأخذ بأسباب «الرقي» والتمدن الغربي بحسبانه مثالاً شاملاً للحضارة الإنسانية الكونية.

أما التيار الثالث: - وهذا الذي يعنينا بالأساس- فقد حاول مواجهة هذه الصدمة العنيفة بضرب من الإحيائية الإسلامية، مراهناً على العودة إلى المنابع والأصول الإسلامية ممثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وتراث السلف الصالح، وقد كان هذا التيار متبرماً مما اعتبره جموداً على الماضي وتنكباً عن الاجتهاد وروح العصر وانصرافاً عن الأخذ بأسباب المدنية الحديثة، ومن المعلوم هنا أن المدنية الحديثة التي يقصدها رجال الإصلاح الإسلامي هي بالأساس مدنية الغرب الحديث على نحو

ما تجسدت واقعاً في مدن الرفاه والنجاعة العملية، كما هو حال باريس ولندن وفيينا وروما وغيرها، التي كان لبعضهم تجربة الزيارة أو الإقامة فيها ردحاً من الزمن.

وقد حاول رموز الإصلاحية الإسلامية منذ السيد جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا وشكيب أرسلان وبقية تلاميذهم إيجاد معادلة توليفية بين «الحفاظ» على أسس الإسلام وكلياته الجامعة، وبين الأخذ بأساليب المدنية الحديثة ممثلة في الإدارة والصناعة ومناهج التعليم وغيرها، ورغم أن رجالات هذا التيار ينحدرون في الغالب الأعم من المؤسسات التعليمية التقليدية وكان لهم باع كبير في مجال المعارف الإسلامية التقليدية من فقه وعلم أصول ونحو وبلاغة وشعر، إلا أنهم حاولوا بدرجات متفاوتة تطعيم ثقافتهم التقليدية بمعارف غربية حديثة ووسعوا أفق تساؤلاتهم وإشكالاتهم، كما أن حالة الاضطراب الكبير التي أصابت بنيان المجتمعات الإسلامية بفعل موجة الاجتياح الاستعماري الغربي، فضلاً عن شعورهم المتزايد بجلل المخاطر التي تتربص بكيان الجماعة وتتهدد بيضة الإسلام في الصميم قد فرض عليهم دخول عالم السياسة بكل تعقيداتها وصراعاتها المكلفة، بما ينأى عن تقاليد الهدوء وعدم الاشتغال بالشأن السياسي المباشر على نحو ما عرف بذلك العلماء والمؤسسة التعليمية التقليدية منذ وقت مبكر.

على أنه من المهم التنبيه هنا إلى أن هذا التمييز لم يكن قاطع المواقع بائن الخطوط بقدر ما كان ثمة قدر من التداخل والتزاوج بين هذه التيارات الثلاثة، من ذلك مثلاً أن التقليديين مثلاً لم يكونوا بمنأى بالكامل عن ضغوطات العصر، الذي اضطرهم بأشكال متفاوتة إلى الأخذ ببعض أدوات العصرنة، كما أن الإحيائيين لم يكونوا بعيدين عن أجواء الثقافة والمؤسسات التقليدية، ولا منفصلين بالكامل عن الخط

الليبرالي الذي خرج بدوره من تحت عباءتهم، أما الليبراليون فلم يكونوا بدورهم منقطعين تماماً عن الثقافة الإسلامية والأجواء العامة للمجتمعات الإسلامية.

لقد عاش الإصلاحيون الإسلاميون المحدثون بشكل أو بآخر ما يمكن تسميته «قلق الوعي»، هذا القلق الناتج عن التحديات الهائلة والمحزنة التي ولدها الاجتياح الغربي لعالم الإسلام، كما عاشوا نوعاً من الغربة وحتى الاستبعاد المتبادل بينهم وبين الجماعات والمؤسسات التقليدية التي رأت فيهم نوعاً من الخروج عن أسس «الإجماع» واندفاعاً غير مبرر نحو قبول فكر المتغلب.. ورغم أن فكر هذا التيار لم يخل من بعض مظاهر التعميم والتوليف القلق في الكثير من الحالات إلا أنه مثّل البداية الفعلية لنشأة خطاب إسلامي جديد ينحو منحى الموازنة بين ثوابت الإسلام ونوازل العصر.

فبفضل الجهود الرائدة للإصلاحية الإسلامية وأعلامها المجددين، منذ أواخر القرن التاسع عشر، تمكن التيار الإسلامي من التفاعل مع «عالم الحداثة» وولوج مؤسساتها، وفي مقدمة ذلك المؤسسة التعليمية، بعدما كان سجين الهياكل التقليدية، ومن دخول المدن والحواضر الكبرى بعدما كان متوارياً في أعماق البوادي والأرياف النائية، وبذلك أصبح من اليسير على المسلم الانفكاك من أسر الانتماء القبلي أو الطائفي وأوعية الانتظام التقليدية والتواصل مع العالم الحديث ومؤسساته، ولكن بالاستناد إلى دينه ولغته ورموزه الخاصة، وذلك خلافاً لشعوب أخر كثيرة فرض عليها الاختيار بين ثقافة محلية «ميتة» وغاربة أو الانصهار في تيار التغريب الجارف.

ومما يلفت الانتباه اليوم حضور الإسلام وتزايد سلطانه في مختلف المؤسسات الشعبية والاجتماعية وخاصة بين القطاعات والمؤسسات الحديثة، وهو إنجاز يسجل بكل تأكيد لصالح الإصلاحية الإسلامية الحديثة، التي عملت على إحياء الإسلام وتجديد وضعه بغاية

إعادة وصله بحركة الواقع ومستجدات العصر، استناداً إلى مبدأ الاجتهاد مع إدانة روح التقليد والجمود التي كانت شائعة بين القطاع الأوسع من المسلمين.

لقد بدأت الحركة الإصلاحية جهداً إحيائياً رائداً لوصل حركة الإسلام بالمستجدات السياسية والفكرية الهائلة، التي فرضها الاحتلال الغربي لديار المسلمين، وهذا التيار على اختلاف تفريعاته وألوانه راهن على التجديد ضمن منابع الإسلام وأصوله الكلية، فقد كان هذا التيار متشبثاً بالأصول بقدر ما كان نابذاً للتقليد والجمود، وكان معتصماً بحبل الإسلام بقدر ما كان منفتحاً على مشاغل العصر، وكان فضل هذا التيار عظيماً في نقل لغة الإسلام ومختزناته من المؤسسات التعليمة التقليدية إلى قلب المؤسسات التعليمية والاجتماعية الحديثة، ومن السجالية الكلامية الجافة إلى لغة ميسرة وحديثة، علماً بأن تيار الإحيائية الإسلامية هذا مازالت تفاعلاته جارية وتأثيراته بائنة في أرض الإسلام الواسعة، الأمر الذي يؤكد أن مهمة الإصلاح التي بدأت تشقها الحركة الإصلاحية منذ أواسط القرن التاسع عشر مازالت تنتظر الإنجاز والاستكمال، مع ضرورة تدارك ما اعتراها من نقائص ومواطن قصور في الفكر والعمل.

كانت الحركة الإصلاحية الحديثة، وخلافاً لحلقات الإصلاح السابقة التي عرفها التاريخ السياسي الإسلامي، تمتلك وعياً حاداً بثنائية التقدم والتأخر، قياساً بالغرب الحديث الصاعد، فخلافاً للإصلاحيين القدامى والمتأخرين وإلى غاية القرن الثامن عشر، الذين كانوا يحاكمون أوضاع «التأخر» أو الانحطاط الاجتماعي والأخلاقي استناداً إلى «النموذج التاريخي» الإسلامي واعتماداً على مثاليات الإسلام الكبرى، فإن الإسلاميين المحدثين قد أضافوا عاملاً جديداً إلى ذلك، ألا وهو التأخر والانحطاط قياساً بما أسموه المدنية الحديثة، أي الغرب الحديث والناهض على نحو ما تجسد في

مدن الرفاه وقوة الصناعة والتقنية ومكنة التسلح. ولعل الرسالة الشهيرة التي كتبها شكيب أرسلان والمعنونة بـ«لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم» تعكس هذا التحول الحاصل في سياق الوعي التاريخي للنخبة الإسلامية، فـ«الغير» الذي يقصده شكيب أرسلان هنا ليس الصين ولا اليابان أو الهند بل يقصد بذلك على وجه الدقة باريس ولندن وفيينا.

وبهذا المعنى يمكن القول: إنه إذا كانت جهود المصلحين القدامى وإلى غاية ولي الله الدهلوي في الهند ومحمد بن عبد الوهاب في شبه الجزيرة العربية والسنوسي في ليبيا في القرن الثامن عشر جزءاً من خط الاستمرارية التاريخية والمعرفية الإسلامية، فإن الإصلاحية الحديثة ممثلة في الأفغاني وعبده وبقية تلاميذهما تحمل بعداً مزدوجاً ومتداخلاً، فهي من جهة ذات وعي حاد بمعضلة التأخر والتراجع قياساً بأمجاد التاريخ الإسلامي المندرسة ومثاليات الإسلام الكبرى الضامرة في النفوس والعقول، ثم هي من جهة أخرى ذات وعي حاد ومقلق بصعود الغرب الحديث وتقدمه غير المسبوق على أمة الإسلام.

توقفنا مطولاً بعض الشيء عند تيار الإصلاحية الإسلامية أكثر من غيره، وذلك بالنظر إلى ما مثله خطاب هذا التيار من مظاهر جدة وإضافة في مسار الخطاب الإسلامي، سواء كان ذلك من جهة الوعي التاريخي الحاد بضرورة النهوض وتدارك الغفلة التي وقع فيها المسلمون، أو من جهة محاولة الاستجابة للتحديات الجديدة التي فرضها تبدل أحول الاجتماع السياسي الإسلامي وظهور تحديات جديدة وغير مسبوقة، وعليه فإن أي جهد إصلاحي جاد لابد وأن يراكم على هذه اللبنات الأولى التي وضعت أسسها الحركة الإصلاحية الحديثة.

مظاهر الأزمة في الخطاب الإسلامي

- الفراغ الفكري والجنوح المثالي:

تعاني الحالة الإسلامية المعاصرة ضموراً واضحاً على صعيد الإنتاج المعرفي الجاد، ما جعلها تفتقد التوازن المطلوب بين الأداء الفكري والنشاط السياسي الحركـــي... هكذا تبدو الحالة الإسلامية أشبه ما يكون بجسم ضخم وممتد ولكن بـــرأس صـــغير وشاحب، أي بقدر ما تتمتع بحضور أفقي وواسع بين مختلف القطاعات الاجتماعيـــة والشعبية بقدر ما تبدو جدباء قاحلة في ميدان التفكير الجاد والحي.. طبعاً هذا لا يعني أن الساحة الإسلامية خالية تماماً من أي جهد فكري جاد، أو أنها لا تتوفر على نخبـــة من أهل الدراية والنظر، ولكن المشكلة أنه قل وندر أن تم التواصل المطلوب بين الأداء السياسي الحركي وبين الجهد الفكري والمعرفي، ويعود ذلك إلى الاستغراق الشديد في النشاط السياسي الحركي على حساب الفاعلية الفكرية والمعرفية.

ومن المؤكد هنا أن المناخات السياسية الصاخبة والمتأزمة التي ولد في أجوائهـــا التيار الإسلامي الحديث، إلى جانب شدة المخاطر والتحديات التي كـــان ومـــازال يواجهها عالم الإسلام الواسع قد فرضت عليه تحمل أعباء ومسؤوليات هائلـــة بمـــا يفوق حجمه ويتجاوز نصيب خبراته.. كما لا ننسى هنا أن الفراغ السياسي المريع الذي خلفه إلغاء نظام الخلافة لاحقاً، إلى جانب تفاقم الأزمات واشتداد المخاطر التي واجهت ومازالت تواجه العالم الإسلامي ومختلف شعوبه، قد فرضت بشكل أو بآخر انتقال الأعباء السياسية الكبرى من الإطار الرسمي للدولة إلى الجماعات السياســـية

الأهلية، ولذلك لم يكن غريباً أن تتزامن نشأة التيار الإسلامي الحديث مع إعلان نهاية «الشرعية» السياسية الإسلامية ممثلة في نظام الخلافة الإسلامية في اسطمبول.

كما أن الفراغ المؤسسي الذي تعانيه اليوم جل أقطار العالم الإسلامي، بسبب تفكك عرى الهيئات الاجتماعية والتعليمية التقليدية سواء كان ذلك بفعل الإرث الاستعماري الثقيل أو بسبب السياسات التحديثية الهوجاء التي نهجتها النخب الاستقلالية، قد جعل من الحالة الإسلامية تتحرك فيما يشبه الفراغ الفكري والمؤسسي، وعليه تفتقد الأساس المعرفي المتين الذي من شأنه أن يضبط حركتها ويصوب فعلها.

كان من الممكن للمرء أن يلتمس للتيار الإسلامي المعاصر عذراً أو بعضاً من العذر في ثقل الأعباء والمسؤوليات السياسية التي فرضت عليه لو كان هناك قدر من التعاضد والتساند ولو في حده الأدنى بين الرؤية الفكرية والحركة السياسية، ولكن المشكلة حينما تكون الهوة واسعة بين عالم الفكر وعالم الممارسة السياسية إلى الحد الذي لا يمكن ردمه. والغريب في الأمر أنه حتى بعض النخب الإسلامية الجادة، التي نشأت على تخوم الحالة السياسية الإسلامية والتي كان من الممكن أن تساهم في تدارك هذا الخلل وتشق جسر تواصل بين فضاء الفكر وعالم الممارسة السياسية، غالباً ما يتم نبذها ووضعها على هامش التيار، مع ما يرافق ذلك من تغذية الشعور بالغبن لدى هذه النخبة، ثم على الطرف الآخر من المشهد ضعف الرؤية المبصرة لدى الحركة السياسية.

ولعل إحدى المضاعفات الخطيرة والمباشرة لهذه الظاهرة أن أصبحت بعض التيارات الاسلامية غير مدركة لسلم الأولويات ولطبيعة المهام الكبرى المطروحة

عليها، وغير متناغمة مع حاجيات الواقع ومتطلباته، فتجدها تدخل في معارك سابقة لأوانها أو لا معنى لها أصلاً، ويتم تكرار ذات الأخطاء التي وقعت فيها حركات فكرية وسياسية سابقة دون أدنى استفادة من خبراتها وتجاربها، فضلاً عن حالة الانكفاء والجمود بسبب غياب الرؤية الفكرية الثاقبة والنخبة المؤهلة لترشيد الحركة السياسية وعقلنتها، وليس أدل على ذلك ما يلقاه مجال التفكير والبحث من إهمال، أو في الحد الأدنى غفلة من طرف القسط الأوفر من التيارات الإسلامية، هذا في الوقت الذي أضحت فيه المعرفة جزءاً لا يتجزأ من إرادة السلطة والتحكم.

وقد زاد من خطورة الوضع نشوء تيارات التشدد من داخل الساحة الإسلامية العامة، وهي تيارات تتسم في صورتها العامة بنزوع تكفيري واضح وميل مشط إلى استخدام العنف، حيث لا تتردد هذه الجماعات في إشهار السلاح وإعماله في غير موضعه في الكثير من الحالات، إلى جانب ما تتصف به من ضيق الأفق الفكري والسياسي وغياب الإدراك العميق لمعادلات الصراع وميزان القوة، سواء في الأقطار التي تتحرك فيها أو على المستوى الدولي، ومثال ذلك جنوحها إلى العنف والدخول في صراعات تفوق حجمها وإمكاناتها فينتهي بها الأمر إلى الانكسار أو التمزق الداخلي، بل إن هذه القوى وبسبب ما تتسم به من ضيق أفق وقلة دراية بعالم السياسة وتعقيداتها تبدو عاجزة عن إدارة الصراع بصورة عقلانية ورشيدة، بله تأسيس الوفاق الداخلي وتوحيد الصف الإسلامي بتلويناته وتعقيداته الواسعة وذلك بحكم ميلها التكفيري ومنزعها الإطلاقي.

ولعله لهذا السبب بالذات كثيراً ما تنتهي هذه التجارب إلى عواقب ثقيلة ومكلفة ليس فقط على هذه الجماعات بل على مجمل الوجود الإسلامي واستقرار

المجتمعات الإسلامية والسلم الأهلي عامة، على نحو ما رأينا ذلك في الحالة الجزائرية والمصرية والأفغانية.

قد لا يشك المرء في صدق هذه الجماعات وصفاء إيمانها، ولكن دوافع الإيمان وحدها لاتكفي ما لم تقترن برجاحة العقل وسلامة البصيرة.

إن أخطر ما في هذه الجماعات ميلها السريع إلى تكفير وتبديع المخالفين في الرأي، إلى جانب تساهلها في رفع السلاح مع ما يستتبع ذلك من إهراق الدماء وإزهاق الروح البشرية المعصومة بحبل الشريعة الغراء، يقول تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ (المائدة:٣٢).

فمقولة انشطار العالم إلى فسطاطي إيمان وكفر، على نحو ما ردد ويردد بعضهم، ما يفتأ أن يتحول لاحقاً إلى ضروب من التقسيمات الحادة داخل الجسم الإسلامي نفسه، فهم يبدؤون بسلسلة من الشطوب والحذوف الداخلية حتى لا يستبقون في نهاية المطاف غير القلة النقية والصافية.

فما يعني هذا الفريق من «مدرسة» التشدد والغلو ليس البحث عن الجوامع المشتركة بقدر ما هو معني بالبحث عما يقسم ويمزق، ولذلك فهم من هذه الناحية مشروع حروب طائفية ومذهبية وتناحرات سياسية لا حد لها، وتزداد خطورة هذه التيارات بالنظر إلى ما تختزنه المنطقة من تنوعات مذهبية ودينية وعرقية لا حصر لها، ثم بالنظر إلى ما يعتمل فيها من أزمات وجراحات عميقة بما يجعلها في أمس الحاجة إلى فكر مركب يستوعب مشكلاتها ويقدم العلاجات المناسبة، وإلى روح وفاقية

تشد نسيجها وتخيط رتوقها، فكر قادر على جمع الكلمة وحشد الطاقات لا تذريرها وتبديدها، و يقدم الأهم على المهم، ويرجح المصالح على المفاسد، ويغلب المشترك على المختلف، بدل هذا التفكير الوثوقي والتبسيطي الذي لا دراية له بتعقيدات السياسة وعالم العلاقات الدولية، فضلاً عن جهله بتعقيدات أوضاع مجتمعات المسلمين.

ورغم أن هذه الجماعات الإسلامية تؤسس شرعيتها الفكرية والأيديولوجية على مسوغات دينية، ويتكلم قادتها لغة عامرة بالرموز والإحالات الدينية، إلا أنهم في حقيقة الأمر أقرب ما يكون إلى الجماعات الرومانسية والفوضوية الثورية التي نشأت على تخوم الحداثة الغربية في القرن التاسع عشر، ويتضح ذلك من جهة تعلقها بفكر ذرائعي لا يتردد في استخدام العنف وما هو متاح من وسائل التقنية الحديثة لتحقيق غايات سياسية محددة، فضلاً عن نزعتها الجذرية المراهنة على تغيير العالم بفعل إرادي أهوج لا يفرق بين دائرة الممكن ودائرة الخيالي.

إن نهوض الأمم وخروجها من وهدة التخلف لا ينفصل بأية حال من الأحوال عن يقظة الروح والفكر وعن حرارة العمل، بحيث يكون الفكر باعثاً على عزيمة العمل المتبصر والجاد ويكون العمل حافزاً على مزيد إعمال النظر والفكر الحي، إلى الحد الذي لا ينفصل أحدهما عن الآخر. ولعل المشكلة الكبرى التي تواجه عالم الإسلام اليوم تتمثل في غياب الصلة الرابطة بين الفكر والعمل، فغدا الفكر أنساقاً مجردة لا صلة لها بالواقع، وظل هذا الأخير خاضعاً للمعارف الحسية البسيطة التي هي أشبه ما يكون بالمعارف الغفلية للأطفال القصر.

فبعملية مقارنة بسيطة بين حالة نهوض الغرب الحديث وبين حالتنا الإسلامية التي اصطلحنا على تسميتها بالصحوة الإسلامية أو النهوض الإسلامي تستبين مساحة الاختلاف والتباين الواسع بين التجربتين. لقد دخل الغرب مغامرة «الحداثة» بفورة هائلة في مجال الإبداع الفكري والفلسفي جنباً إلى جنب مع حالة النهوض السياسي والاقتصادي التي أخرجت أوروبا من غفوتها وجمودها الإقطاعي أو ما أطلق عليه عصور الظلام، وفتحت أمامها أبواب التوسع الخارجي لمراكمة الثروة والمجد القومي.

أما نحن، فإن هذه الفورة السياسية الهائلة التي تشق عالمنا الإسلامي العريض لا تكاد تسندها أو تؤطرها حركة فكرية وعلمية رصينة؛ ومما ضاعف هذه الأزمة غياب دور العالم والفقيه مع تفكك المؤسسة التعليمية التقليدية دون أن يحل محلهما دور المفكر أو المثقف الإسلامي، وبذلك أصبحت الحركة السياسية الإسلامية تسير في الفراغ وعلى غير هدى في الوجهة ولا انتظام في السير. فقد ضمرت حركة التفكير الحر والمنفتح في أوساط المسلمين، واختفت حركة التداول الحواري والاجتهادي لصالح التبسيط الفكري والتنميط الأيديولوجي.

- اتساع الهوة بين الواقع والطموح:

يعاني الخطاب الإسلامي الحديث نوعاً من المثالية الحالمة والمنقطعة عن الواقع، وربما يعود ذلك إلى كون الخطاب الإسلامي الحديث مازال يتغذى من الموروث الفقهي «القديم» و لم يدرك بعد حجم الهوة التي باتت تفصل بين ماضي المسلمين وحاضرهم. لا ننسى هنا أن المدونة الفقهية والأصولية الإسلامية وجل المفاهيم السياسية الإسلامية (المعبر عنها بالسياسة الشرعية) على ثرائها وعظمتها قد تشكلت في أوضاع السيادة السياسية للمسلمين، ومن ثم كانت معبرة عن أجواء «الصعود»

الإسلامي ومستجيبة لحاجات المسلمين التاريخية، ولكن الشرخ الذي مزق خط الاستمرارية التاريخية الإسلامية، ثم تبدل أحوال المسلمين، وتحول مركز السيادة العالمية إلى الأمم الغربية المتغلبة، قد جعل من غير الممكن سحب مقالات الأقدمين على المحدثين أو استنساخ معالجاتهم على الأوضاع الراهنة للمسلمين.

ومن مظاهر هذه الأزمة التي تحدثنا عنها ما نراه من انفصام هائل يطبع الخطاب الإسلامي والوعي الإسلامي عامة، بين ذاكرة تاريخية عامرة بالأمجاد التاريخية والسيادة السياسية العالمية، وبين واقع يتسم في صورته العامة بمظاهر الضعف والانقسام والانكسار المتتالي أمام القوى الأجنبية، ولذلك كثيراً ما يكون هذا الميراث التاريخي حاجباً عن فقه الواقع وفهم تعقيداته، فترى الخطاب الإسلامي يقفز من الحاضر إلى الماضي دون وعي بحدود المسافة الفاصلة تاريخاً ووعياً، فضلاً عن الانجذاب المنفعل إلى التاريخ والماضي وحتى الانخراط في قضاياه وصراعاته ومشكلاته على حساب الحاضر ومشكلاته الراهنة.

مما لا شك فيه أن هذا الموروث التاريخي والمعرفي بالغ الثراء والضخامة، الذي يمتلكه المسلمون، هو من بين العوامل المهمة التي كانت ومازالت تحفظ للمسلمين مقومات الوجود وتمنحهم الثقة في النفس، وذلك خلافاً لأمم أخرى قد جرفتها ثقافة المتغلب، ولكن حينما يغيب «الحس التاريخي» اليقظ في التعاطي مع هذا الموروث يتحول عبأ ثقيلاً على أهله وعائقاً حائلاً دون إدراك الواقع والالتصاق بالعصر.

وحتى نجلي الأمور أكثر فإننا نقول هنا: إن المشكل لا يكمن في الموروث ولا في التاريخ في حد ذاتهما بقدر ما يعود الأمر إلى أشكال التعاطي معهما. وفعلاً فإن من يتابع مجريات الخطاب الإسلامي يلحظ أن الكثير من سجالاته ومماحكاته

النظرية لا علاقة لها بالواقع الراهن للمسلمين، بل هي في الغالب الأعم إما مستمدة من سجالات القدامى وقضاياهم أو هي اجترار بليد لقضايا الآخرين وأجوبتهم.

ومما يعقد الأمر أكثر حينما يتم الاستنجاد بمقالات القدامى ومفاهيمهم بصورة معزولة عن سياقاتها التاريخية والمعرفية ويتم إسقاطها على أوضاع أخرى مغايرة وضعاً وكيفاً، من ذلك مثلاً استدعاء صراعات قديمة بين مدارس كلامية أو حتى فقهية أضحت عديمة المعنى أصلاً من قبيل الخصومة التاريخية بين المعتزلة والأشاعرة، أو بين السلفيين والمتكلمين، أو بين الفقهاء والفلاسفة وما شابه ذلك، أو إثارة معارك لا أول ولا آخر لها حول الذات والصفات، وحول الجزء الذي لا يتجزأ، والتحسين والتقبيح، ونظرية الكسب.

لسنا ممن يدعو هنا إلى القطع مع ماضينا المجيد ولا مع موروثنا الإسلامي العظيم، الذي هو بكل تأكيد مصدر فخر واعتزاز لهذه الأمة الموصولة بحبل الشريعة الغراء، بقدر ما ندعو إلى التعامل المتبصر والحي مع هذا الميراث وحسن استثماره وتفعيل مختزناته، مع التمييز الواضح بين ما يدخل ضمن دائرة الإلزامي القطعي الذي يستوجب السمع والطاعة وما يدخل ضمن دائرة العفو فيستدعي الاجتهاد وإعمال النظر، كما أننا لسنا ممن يدعو إلى إهدار معاني الدين وإفساد أسس الشرع المتين بذريعة التجديد والتطوير المزيف، بقدر ما ندعو إلى إذكاء روح الوعي وعدم التهيب من النظر المتبصر والحي في قضايا ديننا ومشكلات عصرنا.

مما يميز الأمم الحية، قياساً بالأمم العاطلة، يتمثل في قدرتها على تحريك مختزناتها الرمزية والتاريخية وحسن استثمارها فيما هو مستجد من أوضاعها، بحيث يستحيل الماضي ملهماً للحاضر، والسلف عوناً للخلف، في حين أن الأمم الفاشلة والعاطلة تجعل من ماضيها ومواريثها قفصاً حديدياً يأسر العقول والألباب.

واحدة من المشكلات الراهنة التي تطبع الخطاب الإسلامي المعاصر تتمثل في صرف النظر عن الواقع الحي والاستعاضة عنه بالحلول الجاهزة والبسيطة، من ذلك أنه كلما واجهت المسلم مستجدات وطرأت في حياته مشكلات إلا وتراه يهرع إلى كتب التراث «لاستخراج» الحلول الجاهزة بدل بذل الوسع في فقه الواقع وحسن تشخيصه. وبدل أن تكون هذه النصوص التاريخية موضعاً للتأمل الثاقب وإعادة الفهم بما يفتحها على أبعاد تأويلية جديدة، تصبح عبارة عن مدونة نمطية ومغلقة يتم لي عنق الواقع لها قسراً.

كما أن التعلق الشديد بالمثل والنماذج التاريخية المنصرمة كثيراً ما يدفع إلى تغليب الطموحات الحالمة على ممكنات الفعل الواقعي، مع ما يتبع ذلك من تشبث بروح إطلاقية يغيب منها فقه التنسيب والموازنات بين المصالح والمفاسد أو إرادة فهم موازين القوة الفاعلة، ومثال ذلك غياب روح المراكمة والتدرج، وعدم التمييز بين المهم والأهم، وأولوية درء المفاسد على جلب المصالح، وأن الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف وغيرها من القواعد الشرعية الذهبية.

من الواضح أن هذه المفارقة الواسعة بين الإمكانيات الفعلية للمسلمين وحظوظهم من موازين القوة وبين ذاكرتهم التاريخية المجيدة وتطلعاتهم التاريخية الرفيعة، ذات دلالة ووظيفة مزدوجة في نفس الوقت. فهي من جهة أولى تدل على أن أمة العرب والمسلمين رغم ما أصابها من انكسارات إلا أنها لم تفل في عضدها وتثني عزمها على الحياة وإرادة التجدد، فلم تستسلم لميزان القوة الغاشم والراجح لصالح (الغير)، ولم تخر قواها أمام إرادة الهيمنة الدولية الماسكة بزمام البأس العسكري والمنعة السياسية والقدرة الاقتصادية، وهذا خلافاً لأمم أخرى أكثر قوة ولكنها مع

ذلك سلمت للمنتصر بحق السيادة عليها، ورضيت بوضع التابعية له، على نحو ما حصل مع اليابان وألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية، ولكنها من الجهة الأخرى كثيراً ما يستولي هذا الإحساس المفعم بعظمة الماضي وضخامة الطموحات التاريخية على حساب الرؤية المتبصرة بالواقع وفهم حاجياته.

ومما يفسر حالة الانفجار الواسعة، التي يشهدها عالم الإسلام بجغرافيته الواسعة وشعوبه المترامية الأطراف، الذاكرة التاريخية العامرة والطموحات التاريخية الهائلة التي يختزنها المسلمون، والتي تتحول في بعض الأحيان إلى طاقة انفجارية غير منضبطة ومعقلنة، بما أغرى الكثير من الأقلام الغربية بالحديث عن مقولة (صراع الحضارات) قاصدة بذلك أساساً الصراع بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية، إلى جانب اتهام الإسلام بكونه ديناً يحرض على العنف وإهدار الدماء وإزهاق الأرواح البريئة، فضلاً عن كونه حائلاً دون إرساء قيم التسامح والتعايش مع الآخرين.

ولعله لهذه الأسباب ترى عالم الإسلام يفور بموجات الرفض وحركات المقاومة، ما أن تنكسر الواحدة حتى تليها الأخرى. حيث ظلت روح الانتفاض والرفض هذه تعتمل في أعماق الشخصية الإسلامية ويشتد أوارها أكثر كلما برزت بؤرة من بؤر الصراع مع قوى الهيمنة والاحتلال الأجنبي في هذا الموقع أو ذاك من العالم الإسلامي، ولولا روح التضحية الهائلة هذه التي يختزنها المسلمون لاندرس ما تبقى من مقومات وجودهم وشخصيتهم على غرار الهنود الحمر في أمريكا الشمالية وأمم أخرى بائدة لم تقو على تحدي ميزان القوى الذي فرضه عليها ذوو الشوكة والبأس.

بيد أن هذا الطموح التاريخي المصحوب بذاكرة تاريخية عامرة بالأمجاد والانتصارات كثيراً ما يتحول إلى طاقة انفجارية مندفعة لا تحسن قراءة الواقع

أو حسن فهم موازين القوة الفاعلـــة.. هكذا تنتهي بعض الجمـــاعات الإســـلامية إلى قراءة بتراء للنصوص الدينية والتراثية واختيار مماحكات نظريـــة لا علاقـــة لهـــا بالواقع، وتخوض في ضوء ذلك معارك تفوق حجمها وإمكانياتهـــا، وتـــدخل في صراعات في غير مواقيتها وأماكنها المناسبة، فتجر على نفسها وعلى الأمة كثيراً من الرزايا والويلات.

يخيل لبعض الجماعات الإسلامية بمجرد امتلائها باليقين الديني والقضـــية الـــتي انتدبت نفسها لأجلها أنها قد امتلكت مفاتيح العالم ومن ثم قادرة على قلب موازين القوة رأساً على عقب أو اختصار دائرة التاريخ بأسرع من البرق، وبدل أن تتجـــه هذه الجماعات إلى إدراك الواقع الذي تتحرك ضمنه وفهم قواه الفاعلـــة تكتفـــي باستدعاء النصوص والتاريخ لتسويغ اندفاعاتها العاطفية الجياشة، ولذلك ليس غريباً أن نرى هذه الجماعات تنقلب على عقبيها حينما تصطدم بصخرة الواقع.

الخلاصة هنا: أن عالم الإسلام وقواه المتحركة تمـــتلك طاقة بـــذل واسعـــــة وإرادة عطـــاء هائلة قل نظيرها بين أمم العـــالم الأخرى، وهو معـــطى مهـــم في حماية هوية الأمة والدفاع عن كيانها في وجه قوى الجبروت الدولي، ولكـــن هـــذه الطاقة في حاجة ماسة إلى أن تتعاضد مع ملكة التشخيص والفهم للواقع ومعطياتـــه المركبة والمعقدة وإلا تحولت إلى فعل أهوج لا يفرق بين الممكن الفعلـــي والممكـــن الخيالي، كما أن هذا الطموح التاريخي الجياش الذي يغمر كيان وقلب كل مسلم قد يكون مدمراً إن لم يقترن بحالة وعي تاريخي يحسن فهم قـــوانين التـــاريخ وســـنن الاجتماع البشري.

- الإغراق في المحلية وغياب الهم العالمي:

يتسم الخطاب الإسلامي في صورته الغالبة بنوع من الانكفاء على الذات وإغراق في المحلية الضيقة عل حساب البعد الإنساني والكوني، ولذلك لم يكن غريباً أن يغيب أو يكاد هذا الخطاب عن مجمل القضايا والمعضلات التي تواجه المصير الإنساني اليوم، حتى ليخيل إليك أن المسلمين غير معنيين بما يدور في العالم من حولهم من تساؤلات، وما يعج به من أزمات طاحنة تسحق البشرية وتؤز كيانها العام، كقضايا العولمة والبيئة والتفكك الاجتماعي وأزمة المعنى وطغيان ثقافة العنف والهيمنة وما شابه ذلك.

ورغم أن رسالة الإسلام قد قامت في جوهرها على بعد الإنسانية الجامع التي تتأسس على النداء الكوني: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ (الحجرات:١٣)، إلا أن الخطاب الإسلامي المعاصر تغلب عليه المشاغل الأخلاقية المحلية على حساب الجهد المقاصدي الكوني. فالقسط الأوفر مما يكتب اليوم في العالم الإسلامي لا يرتقي إلى مستوى الجدارة العلمية ولا ينال حظاً من الاعتراف العالمي ليس لضعف في الطرح والمحتوى فحسب بل لأن هذه الكتابات لا تهتم أصلاً بالشأن الإنساني العام أو هموم البشرية.

ومما يزيد في تعقيد الوضع أكثر ما أصاب المدونة الفقهية الإسلامية من «جمود» بسبب الفجوة التي باتت تفصلها عن وتيرة الحياة وأنماط الاجتماع الراهنة للمسلمين، ولذلك لم يكن غريباً أن نشهد حالة الفوضى المعرفية التي تسم مختلف

حقول المعرفة الإسلامية، ســواء كان ذلك من جهة الإصطلاح اللغوي أو المفاهيم أو من جهة نظام الدلالة والمعنى، توازياً مع حالة الفوضى العامة التي تطبع الحالــة الاجتماعية والسياسية الإسلامية.. فحركة الاجتهاد الفقهي، التي كانت موصــولة بحياة المسلمين وكانت تقوم على إنتاجها المؤسسات العلميــة المتخصصــة والــتي راكمت جهودها ورسخت تقاليدها على امتداد قرون متتالية، أضحت اليوم جهداً فردياً معزولاً، وحالة منقطعة عن وتيرة الحياة اليومية للمسلمين ومنفصلة عن مشاغل العالم وهموم البشرية الواسعة. فقد بعدت الشقة بين فقه الدين ونمط الحياة العامــة للمسلمين وخاصة في مجال السياسة والشؤون العامة، وعليه نحى فقه الدين منحــى مجرداً بعيداً عن الواقع، وانفصل هذا الأخير عن روح الدين وما عاد حقلاً للاستقراء والاجتهاد الديني.

وعلى الجملة يمكن القول: إن الخطاب الإسلامي تتوزغــه اليــوم وجهتــان مفسدتان، وجهة أولى غارقة في التقليد ورتابة التكرار لما قاله الأولــون، ووجهــة أخرى منغمسة في آفة تقليد الآخرين والسير على منوالهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع تحت دعاوى حداثة كونية مغشوشة. فعلى كثرة ما يثيره «الحداثيون» من ضــجيج المصطــلحات وعلى كثرة حديثهم عن فضيلة الإبداع والنقد، لا نكاد نرى لهــم جهداً إبداعياً يذكر، فهم في صفــتهم الغالبة عالة على غيرهم، عبء على الفكــر الجاد والمبدع.

ثمة مفارقة عجيبة بين ما يختزنه الإسلام من قيم وجوديــة وأخلاقيــة ســامية ومنفتحة على المصير الإنساني الكوني وبين خطاب إسلامي منكفئ علــى نفســه وحدوده الضيقة، التي لا تتجاوز غالباً دائرة المذهب أو الطائفة أو القطر الضيق، وفي

أحسن الحالات أمة المسلمين، دونما انشغال بإبلاغ معاني الرحمة الإلهية إلى الأسرة البشرية الواسعة.

وتشتد الحاجة اليوم، أكثر من أي وقت مضى، إلى وجود خطاب إسلامي متين يبرز القيم الكونية الإسلامية ومعاني الرحمة الإلهية في الأنفس والأكوان ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، خاصة في عصرنا المعولم، الذي غلبت عليه نزعات الفراغ العدمي، ومسالك الذرائعية العلمانية.

فالمتأمل اليوم في مسارات الوعي الغربي والعالمي عامة يلحظ دفقاً متصاعداً نحو غلبة العلمنة أو الدهرنة، وذلك بسبب ضمور القيم الضابطة والموجهة.. وليست حركة العولمة، المراهنة على ما تسميه بالضبط الذاتي لحركة السوق والمتعاضدة مع نظرة إجرائية وبرجماتية للوجود الكوني والوضع الإنساني، ليست إلا التعبير الأكثر كثافة عن شيوع قيم الدهرية العلمانية توازياً مع ضمور الموجهات والغايات الكبرى، فقد ضمرت بواعث الدين لصالح نزعة عقلانية صلبة كانت متزاوجة في بواكيرها مع المواريث اليهودية المسيحية، ثم ما فتئت أن تراجعت هذه النزعة العقلانية المعلمنة تحت ضغط الآلة الرأسمالية الواسعة ثم فلسفات القلق الوجودي لتحل محلها نزعة عدمية جامحة أتت على ما تبقى من رواسب الدين والعقل معاً. وليست هذه النزعة الدهرية الجامحة إلا حلقة متصاعدة ضمن الخط العام لمشروع الحداثة، فما كان ضامراً فيها أصبح واضحاً، وما كان خفياً أضحى جلياً بائناً.

ولعل المعركة التي تدور رحاها، الباردة والساخنة، على أرضنا الإسلامية الواسعة اليوم، وما نسمعه من لغط عن مجافاة الإسلام لقيم العصر ودوره المزعوم في تغذية الإرهاب، سوى القشرة الخارجية التي تخفي مطلباً أكبر ومسعى أوسع للقوى

الغربية، إلا وهو مسعى تفكيك ما تبقى من حصون ممانعة في ابتلاع قيم العلمنة والعولمة، التي تتخذ من النجاعة الاقتصادية مبدأها الأسمى ومن الإنسان الإجرائي مثالها الأعلى.. ففي الوقت الذي اجتاحت القيم الدهرية مختلف مناحي المعمورة الكونية توازياً مع تزايد سطوة العولمة بقوتها الإعلامية والدعائية، وفي الوقت الذي أذعنت رقاب أغلب شعوب العالم طوعاً وكرهاً للنموذج الغربي المعلمن والمعولم حافظت المنطقة الإسلامية على قدر مهم من استقلالها الرمزي والروحي.

لسنا مبالغين إذا قلنا: إن عصرنا الراهن هو عصر تفكك اليقينيات الكبرى، اليقينيات الدينية والأخلاقية، واليقينيات العلمية والسياسية، التي كانت بمثابة الأسس الرافدة لبنى الوعي والاجتماع الغربيين الحديثين، فقد اهتزت الثقة في الأسس الكبرى التي قام عليها عصر الحداثة، ومن ثم تحولت إلى ضرب من التأويلية العابثة التي لا تعرف مرتكزاً دلالياً ولاقيمياً، وهذا ما يسميه المفكر الفرنسي «جون فرنسوا ليوتار» أحد منظري ما «بعد الحداثة» بنهاية السرديات أو الروايات الكبرى، قاصداً بذلك نهاية القيم الأساسية والمستندات الكبرى، التي قامت عليها تجربة الحداثة الغربية، وفي مقدمة ذلك العقلانية الصلبة ونزعة التقدم، والإيمان بالذاتية الإنسانية، لتحل محلها نزعة تأويلية نيتشوية (نسبة إلى الفيلسوف الألماني فردريك نيتشة) تعمل على تفكيك الفكر وإفراغ العالم من دواخله وأعماقه، أي تحويله إلى مجرد لعبة تأويلية عابثة، وفاقدة لأي دلالة أو وجهة غائية.

لا شك أن مستقبل الإسلام والعالم من حولنا سيظل محكوماً بنوعية الأجوبة التي سيقدمها الخطاب الإسلامي بديلاً عن حركة العولمة المادية الواحدية، التي تكاد تطبق على المعمورة الكونية من جناحها الغربي بحلوليته المادية القاسية، ومن جناحها

الشرقي الآسيوي بحلوليته الروحانية المغالية. وليست حركة العولمة التي تريد أن تتخذ من الاقتصاد مثالاً أعلى ومن الإنسان الإجرائي البراجماتي مطية إلا لحظة اكتمال العلمانيات المادية السائبة بوجهيها الشرقي والغربي، التي تراهن على التمدد نحو كل أطراف المعمورة الكونية وتفكيك ما تبقى من حواجز جغرافية وفكرية ودينية.

من المؤكد هنا أن عالم الإسلام إذا ما قيست أوضاعه بميزان الاقتصاد أو عطاءات العلوم والتقنية أو بميزان الحضور في المعادلات الدولية لا يكاد يذكر، كما أن جغرافية الإسلام الممتدة والواسعة تبدو واقعة بشكل أو بآخر تحت سطوة النفوذ السياسي والأخطبوط الاقتصادي الغربي، ولكن الثابت في كل ذلك أن المسلمين قد حافظوا على قدر غير قليل من استقلالهم الرمزي والروحي، الذي هو شرط لازم لأي مشروع إحيائي جاد.

توقفنا هنا عند بعض مناحي الأزمة التي تواجه الوعي الغربي، والتي أضحت في حقيقة الأمر أزمة عالمية بحكم قوة الانتشار وسطوة التأثير التي امتلكها الغرب الحديث، بما جعل من ندوبه واختناقاته ندوباً عالمية، ولنبين حجم الأزمة التي أضحت تتخبط فيها الحضارة المعاصرة وحاجتها إلى نبراس الهداية الربانية.. والشيء الثابت أن الإسلام بأعماقه الروحية وتطلعاته الكونية الأقدر على تقديم إجابات كبرى تخرج البشرية من صحراء التيه والضياع التي تتخبط فيها، وتنير لها سبل الخلاص. ولكن يبقى التحدي قائماً في مدى قدرة النخب الإسلامية على صياغة خطاب إسلامي متين يستجيب لهذه التحديات ويتحسس مسالك الحل وتقديم الإجابات الإسلامية، وربما تظل هذه المهمة الكبيرة متروكة إلى أجيال المسلمين القادمة، فلعلها تكون أقدر منا على تقديم الخطاب الإسلامي الأنسب والأمتن.

- تضخم هاجس الدولة:

ولد الخطاب الإسلامي الحديث مسكوناً بهاجس إعادة بناء الدولة الإسلامية منذ بواكيره، وذلك بسبب الصدمة العنيفة التي ولدها الاجتياح الاستعماري الغربي، وما تبع ذلك من تفكيك متتال لأسس الإجماع الأهلي ومباني الشرعية التقليدية، وقد جاءت صدمة إلغاء الخلافة العثمانية في تركيا سنة ١٩٢٥م مشفوعة بـإعلان علمانية الدولة ليدفع بالمشكل السياسي، وعلى رأس ذلك مطلب الدولة الإسلامية إلى صدارة أجندة تيار الإسلام المعاصر.

لم يكن غريباً أن تكون نشأة الحركة الإسلامية الحديثة في العالم العربي ممثلة في (الإخوان المسلمين) في مصر بقيادة الشهيد حسن البنا سنة ١٩٢٨م، وبعد سنوات قليلة فقط من إلغاء الكيان السياسي العثماني وتسلم كمال أتاتورك لشؤون الحكم في العاصمة العثمانية. ويجب أن نضيف إلى هذه الأسباب تبلور رؤية نافية لصلة الدين بالسياسة ولوجود دولة في الإسلام أصلاً كانت قد انبعثت من داخل المؤسسة التعليمية التقليدية أصلاً، فالكل يذكر الزوبعة الصاخبة التي أثارها كتاب علي عبد الرازق المعنون بـ«الإسلام وأصول الحكم» سواء داخل الأزهر الشريف أو في الأوساط الفكرية الإسلامية الواسعة، وما لحق ذلك من ردود واسعة هدف أغلبها إلى نقض قراءة علي عبد الرازق وتأكيد صلة الإسلام بالسياسة وشؤون الحكم.

ففي مواجهة هذه الموجة المتجهة إلى عزل الإسلام عن الشأن السياسي ومشاغل العصر نزع الخطاب الإسلامي الحديث إلى رفع شعار الدولة الإسلامية وإكسائها بالفضائل الأخلاقية والسياسية بصورة غير مسبوقة، ولا ننسى هنا أن التيار السياسي الإسلامي الحديث ولد متأثراً بالثقافة السياسية السائدة في المنطقة وفي الساحة العالمية عامة، وهي ثقافة كانت في مجملها تتمركز حول التحديث السياسي والاقتصادي

والاجتماعي عبر أدوات الدولة، ولذلك لم يكن غريباً أن يتمركز خطاب النخبة الاستقلالية في العالم العربي بعد رحيل الجيوش الاستعمارية الغربية وقيام «الكيانات الوطنية» حول الدولة باعتبارها ضامنة التقدم الاقتصادي والتحرر السياسي وقاطرة الالتحاق بركب «التمدن» الذي عد الغرب الحديث نموذجه الأكمل، وقد مثل النموذج الشيوعي في روسيا، والفاشي في إيطاليا، وقبل ذلك نموذج يعاقبة الثورة الفرنسية نوعاً من الإغراء والجاذبية بالنسبة للنخب الاستقلالية التحديثية في العالم الإسلامي، بل لنخب العالم الثالث عامة، وتقدم التجربة الناصرية في مصر، والبومدينية في الجزائر، والبعثية في العراق وسورية والبورقيبية في تونس مثالاً بارزاً على هذا التوجه.

ورغم أن علاقة التيار الإسلامي لم تكن ودية في الغالب مع تيارات العلمنة السياسية والحركة الاستقلالية (مع تفاوت في نوعية هذه العلاقة من قطر إسلامي إلى آخر طبعاً) إلا أنه مع ذلك لم يكن بمنأى عن الأجواء السياسية والثقافية التي نشأ ضمنها واشتغل في أجوائها، بما في ذلك الثقافة السياسية للنخب العربية بجناحيها الليبرالي، العروبي اليساري، المتماهية في مقولة الدولة الحديثة.

وما يزيد في تعميق المشكل أن الخطاب الإسلامي الحديث يميل في صورته الغالبة إلى أسلمة دولة الانقسام والتجزئة، التي ورثت الكثير من الأزمات والأعطاب الهائلة منذ الحقبة الاستعمارية الثقيلة، عبر أسلمة التشريعات القانونية والمظاهر العامة لهذه الدولة ثم نعتها بالدولة الإسلامية، فحينما يتحدث الإسلاميون عن الدولة الإسلامية فهم يقصدون غالباً أسلمة الأوعية السياسية المحلية التي يتحركون ضمنها مكتفين بإسقاط مقولات السياسة الشرعية ونموذج الخلافة على نحو ما تحدث عنه الفقهاء والأصوليون القدامى على دولة التجزئة الحديثة، أما أولئك الذين يطالبون بدولة

الخلافة الجامعة كما هو حال حزب التحرير فهم في الغالب يتعلقون بصفاء المثال والنموذج بمنأى عن الواقع السياسي العيني ومشكلاته الراهنة.

لا ننسى هنا أن أهم الشعارات التي حركت شباب الجبهة الإسلامية في الجزائر مثلاً، وألهبت حماستهم الجياشة هو شعار الدولة الإسلامية، مراهنين في ذلك على «أسلمة» دولة الاستقلال التي ورثتها جبهة التحرير الوطني عن الاستعمار الفرنسي، بعد أن رأوا فيها خروجاً عن أسس الثورة وأسس الإسلام، و«خيانة» لتضحيات مجاهديها، وحينما يتحدث بعض الإسلاميين السودانيين عن دولة الإسلام فهم لا يقصدون بذلك شيئاً سوى حدود الدولة المهدية على نحو ما ورثوها عن نظام الانتداب البريطاني، ولا نتحدث هنا عن الإسلاميين الإيرانين، الذين ورثوا دولة ذات تقاليد قومية ثقيلة الوطأة عملوا على صبها في قالب الإمامة الشيعية.

لم يكن الخطاب الإسلامي واعياً بما فيه الكفاية بالخطورة الهائلة التي تختزنها الدولة الحديثة بأجهزتها الأمنية والعسكرية الضاربة، وتنظيمها الإداري الضخم، وما تتمتع به اليوم من قدرة هائلة على الرقابة والضبط، كما أن هذا الخطاب لا يمتلك الوعي الكافي بحجم القطيعة التاريخية الحاصلة بين النموذج التاريخي للدولة السلطانية القديمة ونظام دولة الانقسام الناشئة بعد تجربة الاجتياح الاستعماري الغربي، أو بين مقولة الإمامة أو السلطنة التي تحدثت عنها أدبيات السياسة الشرعية وبين طبيعة وخصائص دولة التجزئة الناشئة بفعل التقسيمات الاستعمارية، ولعل هذا ما يجعل من الخطاب الإسلامي يبدو خليطاً غير منسجم من ترسبات «الآداب السلطانية» القديمة ومن تكييفات حداثية سياسية تم تكييفها في مقولة «الدولة الإسلامية».

تأسست الدولة الحديثة على ادعاءات شمولية واسعة النطاق، من ذلك مقولات السيادة العلوية والمطلقة لهذه الدولة، ومطلب الطاعة والخضوع الكاملين، إلى جانب احتكار ومركزة أدوات العنف بيدها، والانفراد بمشروعية استخدام هذا العنف ضمن ما أسماه عالم الاجتماع الألماني "ماكس فيبر" بالاستخدام المشروع للعنف. لا يجب النظر هنا إلى الدولة الحديثة في نسختها الغربية الديمقراطية، أو من زاوية وجهها الليبرالي والرفاهي، فهذه مظاهر مستجدة بعد الحرب العالمية الثانية، ولا تعطي صورة كاشفة عن المسار التاريخي المركب، وحتى الدموي المخيف، الذي لازم نشأة الدولة القومية الحديثة.

الدولة الحديثة هي أشبه ما يكون بآلة صماء وضخمة لها معقوليتها الإكراهية الخاصة التي لا تعبأ كثيراً بنوعية الأيديولوجيا التي تستند إليها أو المطالب الأخلاقية والدينية التي تنادي بها، أو نوعية الأشخاص القائمين عليها. ما يهم هذه الدولة بدرجة أولى هو تحقيق مبدأ النجاعة العملية وضمان الانضباط والسيطرة على أجساد وأرواح رعاياها بالإكراه الخفي، والمعلن إن لزم الأمر، ولذلك نرى هذه الدولة تعمل على تجيير الدين، وتوظيف كل شيء لصالح الانفراد بالسيطرة والخضوع، ودع عنك هنا التصورات المثالية التي تصور الدولة الإسلامية وكأنها المسيح المخلص من شرور العالم وخطاياه وطريقاً إلى جنة الله الموعودة في هذا العالم.

اقترن الخطاب الإسلامي الحديث بقدر غير قليل من المثالية في تصور السياسي عامة وموضوعة الدولة خاصة، إذ يخيل للكثير من النشطاء الإسلاميين أن الدولة الإسلامية كفيلة بالسيطرة على مجمل الصعوبات التي يعانيها الجسم الإسلامي العليل وتجسيد التطلعات والأحلام الكبرى، ويزداد الأمر خطورة حين يتم اعتبار هذه الدولة المؤتمن على الدين والصوت العميق «للأمة»، فيتم تبعاً لذلك مطابقة الدين في الدولة ومصالح المجتمع في مصالح الدولة.

ولا ننسى هنا أن هذا الاهتمام المركزي بالسياسي عامة وبالدولة خاصة يعد من ملازمات العلمنة السياسية الحداثية، التي قامت على إعلاء دور السياسي في إعادة تشكيل شروط الوجود الإنساني وإعادة هندسة البنية الاجتماعية عن طريق الفعل السياسي المبرمج، هذا الاهتمام الذي عملت الاتجاهات الشمولية على دفعه إلى حدوده القصوى. وهنا أقول: إن أقصر طريق لعلمنة الإسلام هو اختصار رهاناته وسلم أولوياته في مطلب الدولة.

ولكن المشكلة ما أن يتحرك الإسلاميون باتجاه هذه الدولة حتى يكتشفون اتساع الهوة التي تفصل بين المثال والواقع، بين فكرة الدولة الإسلامية المخلصة التي يحلمون بها، وبين واقع الأزمات والحصار الذي يطبقه عليهم نظام دولي ثقيل الوطأة يمسك بنسيج الاقتصاد، والسياسة، ويتحكم في حركة الأساطيل والجيوش، فتتحول أحلامهم الوردية إلى كوابيس مخيفة.

فالدولة الإسلامية التي أريد لها أن تكون الأداة السحرية لأسلمة المجتمع وتجاوز حالة العطالة التاريخية، التي ألمت بالوجود الإسلامي على امتداد القرون الثلاثة الأخيرة، إذا بها تتحول إلى عبء ثقيل على مشروع الإسلامي نفسه.. وهكذا تغدو الهدف الأسمى والأعظم الذي يهون دونه كل شيء.. فأمام اشتداد الضغوط والمخاطر الداخلية والخارجية يصبح المطلب الأول والأخير هو الحفاظ على هذه الدولة قبل أي شيء آخر، أما الطليعة الإسلامية التي دخلت عالم السياسة مفعمة بطهورية روحية وأخلاقية نبيلة فإذا بعناصرها يتحولون إلى ممتهنين سياسيين يفوقون في ذرائعيتهم السياسية ذرائعية مكيافيلي، وتجربة الإسلاميين في بعض البلاد العربية ونزاعاتهم الساخنة والباردة تغني عن مزيد التفصيل.

إن الدولة القومية الحديثة، ومهما كانت هويتها الفكرية والعقائدية، ليست مجال تجسد الفضائل الأخلاقية والسياسية بقدر ما هي موضع المصالح والقوة، علماً وأن أي دولة لها ميولات طبيعية نحو التمدد والسيطرة، بغض النظر عن نوعية القائمين عليها ومدى التزامهم الأخلاقي والديني، ولعله لهذا السبب بالذات وجب النظر إلى الدولة بأنها الشر الأعظم، وإن كان شراً لابد منه، ومن ثم العمل على الحد من غلوائها وكف يدها عن التمدد والسيطرة على المجتمع والاستيلاء على الدين، أي العمل على التخفيف من وطأة الدولة وتجريدها من ادعاءاتها الشمولية في تمثيل الدين والجماعة السياسية بدل إكسائها بهالة قدسية، مع العمل على تحويل ما أمكن من صلاحياتها إلى الجماعات الأهلية المستقلة، بحيث لا يبقى منها إلا ما كان ضرورياً لإدارة الاجتماع السياسي وليس أكثر.

لا شك أن منظومة الإسلام الأخلاقية والروحية تبرز رابطة وثيقة بين الشأن الديني والمجال السياسي، ولكن بشرط أن نفهم السياسي هنا بمعناه العام والشامل الذي يتجاوز المفهوم الحصري للدولة، فهذا الترابط الوثيق بين الجانبين، كما بيّن ذلك محمد إقبال، رحمه الله، يعود في بعد من أبعاده الأساسية إلى أن الإسلام لا يعترف بثنائية الحقيقة الدينية مثلما لا يعترف بالثنائية التقابلية على مستوى الذاتية الإنسانية.

فالحقيقة الدينية في الإسلام إذا نظرت إليها من جانب هي بعد روحي متعال، وإذا نظرت إليها من الوجه الآخر هي سياسة ودولة كما يقول إقبال، تماماً مثلما إذا نظرت إلى الشخصية الإنسانية، فهي في وجه من وجوهها جسم مادي وفي وجهها الآخر نفحة روحية.

فالعلاقة بين الديني والسياسي ليست علاقة إضافة عنصر لآخر بقدر ما هي علاقة صميمية من داخل البنية الدينية ذاتها، بحيث لا تعدو أن تكون الدولة سوى

إحدى نقاط التقاطع التي يلتقي عندها الديني والسياسي، ولكنها بكل تأكيد ليست نقطة التقاطع الوحيدة ولا الرئيسية، وذلك للاعتبارين التاليين:

أولاً: لأن مجال السياسي في الإسلام أوسع مدى من مجال الدولة، فهو يخص السلطة وإمكانات فعلها، بالمعنى العام والشامل للكلمة، بحيث إن مفهوم السلطة ليس قاصراً على النواة المركزية للدولة، مثلما ذهب إلى ذلك التصور الماركسي التقليدي، بل يطال كل أشكال التنظيم الاجتماعي والسياسي التي تخص المصير الإسلامي العام.

ثانياً: لأن استراتيجيات الإسلام الكبرى، وكذلك تجربته التاريخية، أوسع فاعلية ومدى من الدولة التي كانت في الكثير من الأحيان كلاً وعبئاً عليه، ولذلك إذا جردنا الإسلام من بعد الدولة، مثلما ذهب إلى ذلك بعض أجنحة المعتزلة والخوارج- وهو بكل تأكيد تصور لا يخلو من المثالية وحتى الفوضوية- فإنه لا يمكن تجريده بالتوازي مع ذلك من البعد السياسي، الذي يتعلق به مصير الجماعة الإسلامية وكيفية تنظيم شؤونها الدنيوية، الذي هو بعد ملاصق ومتداخل مع الأبعاد الروحية والعقائدية.

ولعله لهذا السبب بالذات تواضع الفكر السياسي الإسلامي السني على اعتبار المسألة السياسية ضمن دائرة المصالح والوسائل لا دائرة الأصول والغايات. كما يمكننا أن نفهم التسوية التاريخية التي انتهى إليها الفكر الأصولي والفقهي في خطه الغالب، وبعد فشل تجارب الخروج السياسي وما نتج عنها من تصدعات في بنيان الاجتماع السياسي الإسلامي، بقبول شرعية الحاكم المتغلب مكتفين باشتراط اعترافه بالإطار العام للشرعية الإسلامية وعدم مروقه على الشريعة مع انتزاع الكثير من الصلاحيات الدينية والسياسية من بين يديه لصالح المجتمع الأهلي الإسلامي ومؤسساته الطوعية. أي أن الفقهاء ومهما كانت تحفظاتنا اليوم على كثرة وساوسهم مما أسموه

بالفتنة، أو نوعية المعالجات التي انتهوا إليها، إلا أن الشيء الثابت في ذلك وعيهم الثاقب باتساع نطاق السياسي وعدم اختصاره على النواة المركزية للدولة.

يحتاج الخطاب الإسلامي إلى مراجعة ذاته وإعادة ترتيب سلم أولوياته، وذلك بتغليب قيمة المجتمع على الدولة، والتربية على القانون، وتغليب نزعة الإصلاح على العقوبة والردع، فقد بينت التجربة الحية أن الوصول إلى الحكم عبر جهاز الدولة يحمل في طياته من المخاطر والتحديات ما يفوق مرحلة المعارضة أصلاً. هذا لا يعني دعوة إلى التخلي عن خيار الدولة والحكم بنزعة صوفية طهورية بقدر ما هو دعوة إلى ضرورة النظر إلى سلم الأولويات السياسية ضمن مشروع النهوض الإسلامي الشامل. وهذا يقتضي الانتباه إلى خطورة المراهنة الشديدة على الدولة، لما تحمله هذه الأخيرة من آليات إكراه وإخضاع تفوق إرادة القائمين على شؤونها أنفسهم، فضلاً عن أوضاع السيطرة الدولية التي لا تترك فسحة لقيام تجارب إسلامية راشدة ومتوازنة.

كل هذه العوامل التي ذكرنا تدفع بالخطاب الإسلامي إلى مراجعة هذا التمركز الشديد على مطلب الدولة الإسلامية، والنظر إلى الواقع الإسلامي بعين ثاقبة بعيداً عن الرغبات والأحلام المثالية. وتبقى جملة من الأسئلة الكبرى مطروحة بقوة على هذا الجيل، وربما الأجيال القادمة من المفكرين والقادة الإسلاميين، من ذلك:

إلى أي مدى يمكن «أسلمة» وتطويع هذه الآلة الضخمة والعمياء المسماة بالدولة القومية الحديثة؟ إلى أي حد يمكن التعايش بين هذا النمط من الدولة الهائلة التي فرضت نفسها خلال القرون الخمسة الأخيرة، بحروبها وحدودها الدموية، وبين المطالب الأخلاقية والدينية التي ينادي بها المسلمون؟ إلى أي حد يمكن أسلمة هذه الأوعية السياسية الصغيرة التي ورثناها عن الحقبة الاستعمارية، أو المراهنة عليها في النهوض الإسلامي المنشود؟ وإلى أين يجب أن تعطى أولوية العمل الإسلامي، هل للدولة أم إعادة بناء المجتمع الأهلي الإسلامي المستقل عن الدولة؟

خاتمة

سلطنا الضوء في هذه الورقة البحثية على مناح معينة من الخطاب الإسلامي عددناها وجوهاً معبرة عن أزمته الراهنة، كما اجتهدنا في فتح بعض من مسالك العلاج، على أن المنهجية العلمية وفضيلة التواضع المعرفي تقتضي تجنب الادعاءات الشمولية والكلية، أي القول هنا: بأننا لم نغط كل وجوه الأزمة الواسعة التي تطبع الحالة الإسلامية اجتماعاً وخطاباً، كما أننا لا ندعي أننا قد اكتشفنا الحلول «السحرية» والكاملة لهذه الأزمة، بقدر ما اجتهدنا بالقدر المستطاع في فتح أفق العلاج والحل، ولعل أول الشروط اللازمة لتدارك بعض من الأخلال التي تطبع الخطاب الإسلامي المعاصر تتمثل في ضرورة تغليب روح الموازنة والترجيح، التي وضع أسسها أسلافنا الأصوليون المسلمون، والتخلي عن النزعات الوثوقية والشمولية التي تدعي الكمال وبلوغ المرام في كل شيء.

وننبه أهل الدراية والنظر، في خاتمة هذا البحث، إلى ضرورة المزاوجة بين إذكاء روح الوعي التاريخي الثاقب عند التعاطي مع مشكلات أمتنا الإسلامية وعاهاتها، وبين إحياء جذوة الأمل وهمة العمل، وألا يكون الحديث عن الأزمة أو الخلل باعثاً على تغذية روح اليأس والتخبط؛ فالأمم الحية هي التي تجعل من تشخيص عاهاتها وأمراضها مقدمات لتفعيل حضورها والارتقاء بكسبها العمراني وليس أداة لزرع عوامل القنوط والتيه.

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ (هود: ٨٨).

والله ولي التوفيق والسداد.

فلسفة الخطاب في السياسة

الشيخ الدكتور فهد بن عبد الرحمن آل ثاني (*)

> نحن المسلمين لسنا دعاة حرب، ولا ممن يتلذذون بإيذاء الآخرين، بل جميع المسلمين حزنوا لما حدث للأبرياء في أمريكا، ولكن هل تشارك الإدارة الأمريكية المسلمين آلامهم، في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي، وعلى رأس القائمة ٧ مليون فلسطيني مشردون منذ أكثر من نصف قرن؟

عندما تلقيت الدعوة الكريمة من مركز البحوث والدراسات، في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، للكتابة في موضوع: «الخطاب الإسلامي المعاصر.. دعوة للتقويم وإعادة النظر»، وجدت نفسي أمام تحد جديد، لا يعتمد فقط على الخبرة السياسية والاقتصادية والقانونية والاستراتيجية، وإنما الموضوع يحتاج إلى عمق لغوي لكي يسهل على المفكر في الموضوع ترويض الأفكار والتأمل فيها وتوظيفها التوظيف السليم في مواقعها المناسبة، دون الخروج عن الموضوع الأصلي.

(*) أستاذ «الجيوبوليتيكس» المشارك وباحث قانوني.. (قطر).

وكما يعتقد الكثير بأنه يوجد عندنا شيء من الإبداع في الفكر السياسي والاستراتيجي والاقتصادي والقانوني، ولكن لابد أن اعترف لكم بأن السيطرة على ترويض مصطلحات اللغة العربية هي «أم المعارك» بالنسبة لنا، ولكن ذلك لا يمنع أن نجتهد، فإذا أصبنا فلنا أجران، وإذا أخطأنا فلنا أجر واحد، أو كما قال الإمام الشافعي، رحمه الله: «قولي صواب يحتمل الخطأ، وقول غيري خطأ يحتمل الصواب».

وسوف يرتكز البحث في «فلسفة الخطاب» على ثلاثة محاور:

الأول: أسلوب الخطاب الإسلامي؛

الثاني: أسلوب الخطاب المعاصر؛

الثالث: التلاعب باللغة السياسية؛

وسوف نجتهد في العمل على توضيح تدرج الخطاب، وكذلك طرق الاتصال الأخرى مثل الحوار والتفاوض وصولاً إلى مرحلة الجدال، من خلال تصور مختلف الثقافات؛ مؤكدين مسألة في غاية الأهمية، وهي أنه لن نستطيع أن نحل قضايانا إلا بالحوار، وأنه لكي تدار عملية الحوار أو التفاوض بطرق ناجحة يفترض أن يكون هناك تواز بين الطرفين المتحاورين؛ منبهين إلى أن التوازي لا يعني بالضرورة أن يكون الطرفان يملكان جميع المقومات بالتشابه، ولكن أن يمتلك كلا الفريقين مقومات متوازية الأهمية!

أسلوب الخطاب الإسلامي

أولاً: الخطاب في القرآن الكريم:

١- تأسيس عالم نوح، عليه السلام:

تقول الآيات الكريمة:﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ (هود:٣٨)، وعندما انتهى نوح من صناعة سفينة العالم الجديد آنذاك، كما أمره المولى عز وجل، دبت العاطفة الأبوية العظيمة في قلب نوح، عليه السلام، مرة أخرى، وقال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (هود:٤٥-٤٧).

الآيات الكريمة أعلاه ترسم لنا مجموعة صور:

أ- الإذن لنوح، عليه السلام، الانتقال للعالم الجديد.

ب- الأمر واضح وقاطع بالنسبة لفريق العمل في السفينة بحيث يجب أن يكون من الصالحين، أي حتى ولو كان ابن نوح، عليه السلام (!) لكنه غير صالح لم يسمح له المولى عز وجل أن ينضم إلى فريق السفينة أو حكومة نوح، كما يحلو لنا أن نسميها في عالمنا المعاصر.

ج- أخيراً الإذن لنوح، عليه السلام، بالهبوط وممارسة دوره في بناء الكوكب الأرضي، مع تلميح الآية الكريمة إلى أنه سينجح ولكنه لن يستطيع أن يصل إلى المثالية في الأرض.

وأعتقد أن الأمر بالنسبة لنا كسياسيين واضح وصريح، بأنه يوجد صراع منذ نشأة كوكب الأرض بين قوى مختلفة، وأن أبرز الصراعات وأخطرها هو الصراع الأزلي القائم ما بين آدم، عليه السلام، وإبليس، فتقول الآية الكريمه عن إبليس في مخاطبة المولى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الحجر:٣٩).

٢- حوار إبراهيم، عليه السلام، والنمرود:

- قال إبراهيم، عليه السلام: إن ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾.

- قال النمرود: ﴿أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾.

- قال إبراهيم: تعني أنك تقتل وتعتق كما يفعل كل الناس أم تعني أنك تتميز بملكية الأسباب الطبيعية للموت والحياة؟

- قال النمرود: بل أملك الأسباب الطبيعية للموت والحياة.

- قال إبراهيم: حسناً، ولكن الأسباب الطبيعية جزء من الأسباب الكونية، فهل تملك الجزء أم تملك الكل؟

- قال النمرود: بل أملك الكل!

- قال إبراهيم: حسناً، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾، لأنك تملك الأسباب الكونية وتتحكم بها، فأرنا قدرتك يا نمرود!؟

والنتيجة انتصار إبراهيم، عليه السلام، على النمرود، كما أوضحت ذلك الآية الكريمة: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقرة:٢٥٨).

٣- موسى عليه السلام، وتأسيس العالم الجديد، في عصره:

أول الأوامر من الله سبحانه وتعالى لموسى، عليه السلام، لتأسيس عالم عصر موسى الجديد، كما تقول الآيات الكريمة: ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ (طه: ٢٤-٣٥).

وبعد أن أعطى المولى عز وجل موسى، عليه السلام طلباته، أو كما نسميها بمصطلح السياسة اليوم العملية اللوجستية، صدرت أوامر المولى عزل وجل إلى موسى، عليه السلام، أن يذهب إلى فرعون ويستخدم آليه الخطاب التالية: ﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ (طه: ٤٢-٤٤).

إذاً هنا المولى عز وجل أعطى موسى، عليه السلام، الضوء الأخضر لبداية صناعة العالم الجديد، ولكن أمره أن تكون بداية الدعوة بأسلوب حضاري، ومؤدب، ومبشر غير منفر، علماً بأن كوكبنا بأكمله لا يساوي جناح بعوضة، كما يقول الحديث الشريف عن سهل بن سعد الساعدي، رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: **«لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»**[١].

---

(١) أخرجه الترمذي.

ولكن فن الخطاب يجب أن لا يكون ترهيبياً، وإنما يبدأ بأسلوب مبشر، كما فعل موسى عليه السلام أعلاه، وعندما يصبح الأسلوب الديبلوماسي الناعم عديم الفائدة ينتقل المحاور تدريجياً إلى الأسلوب الأكثر شدة، إلى أن يصل إلى المواجهة، وخاصة في الأمور المصيرية، أما الصغائر فيترفع عنها الإنسان المؤمن العاقل، وانظر هنا أسلوب التصعيد ما بين موسى، عليه السلام، وفرعون، تقول الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ (الإسراء:١٠١-١٠٣).

هنا وصل الطرفان إلى المواجهة الحاسمة، ففرعون قال لموسى، عليه السلام: أظنك يا موسى مسحوراً أو أصابك مس من الجنون، فكان رد موسى، عليه السلام، حاسماً، فقال: أظنك يا فرعون هالكاً ومصروفاً عن الخير.. وعندما حاول فرعون القضاء على موسى، عليه السلام، وأتباعه أو نفيهم من البلاد، كان المولى عز وجل لهم بالمرصاد في ساعة الحسم فقضى على الطاغية وأتباعه بالغرق.

هنا يكمن فن الخطاب وفن التعاطي للعملية السياسية، إلى أن تصل مرحلة الحسم ويفرض عليك خصمك إنهاء المعركة، إمَّا لك أو عليك، فلا تهرب من المواجهة، لأن الهرب من شيم الجبناء، والمؤمن ليس جباناً.

٤- فن إدارة الحوار السياسي في الإسلام قائم على عدم إنقاص مكانة أو حقوق (الآخر):

في فن الخطاب يفترض أن توفي التقدير الكامل للشخص المقابل لك، وهذا التقدير يشمل احترام الشخص المقابل، واحترام مكانته، وإمكانياته المادية، والمعنوية.. إلخ، ومن خلال هذا الاحترام سيسهل عليك ذلك الاقتراب من (الآخر) إيصال رسالتك له، فالآية الكريمة تقول: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف:٨٥).

٥- الإسلام، منذ هزيمة المسلمين في عصر الكشوفات في القرن الخامس عشر الميلادي تقريباً، امتد قائماً على فن الخطاب:

فن الخطاب الإسلامي جعل الإسلام أكثر الديانات انتشاراً في العالم.. وزعماء العالم المعاصر، مثل الرئيس الأمريكي السابق «بيل كلينتون» ورئيس وزراء بريطانيا «توني بلير»، اعترفوا بأن الإسلام أوسع الأديان انتشاراً في الغرب، وهم مع ذلك يستغربون هذا الانتشار لكنه الواقع كما يرونه[1]!

وليس هناك جهود خارقة تقف وراء هذا الانتشار العظيم للإسلام في الغرب، بل هي أسهل الوسائل وأبسطها، إنما ثمرات الحوار، والكلمة الصادقة، والقدوة الحسنة: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل:١٢٥).

---

(١) العليان، ص٢٣١.

وفي كتابنا «العالم الإسلامي»، أثبتنا أنه رغم وقوع معظم أرجاء العالم الإسلامي تحت سيطرة الاستعمار، منذ بداية القرن العشرين، وتحت نفوذ العالم الغربي وبعض دول الشمال إلى يومنا هذا، إلا أن الدين الإسلامي، بفضل الله سبحانه وتعالى ومن ثم بفضل الخطاب الذي يستخدمه بعض الدعاة المسلمين، أصبح أكثر الأديان نمواً في العالم.. ففي عام ١٩٠٠م كانت نسبة المسلمين تمثل ١٢% من سكان كوكب الأرض، والمسيحيين ٣٣%؛ وفي عام ١٩٨٠م ازدادت نسبة المسلمين إلى ٢٠% من سكان الأرض؛ وفي عام ٢٠٠٠م أصبح المسلمون يشكلون ٢٥% من سكان الأرض، والمسيحيون تناقصوا إلى ٣٠%[١].

ثانياً: الخطاب في عهد الرسول ﷺ:

١- إبداع الرسول ﷺ في صلح الحديبية في طريقة إدارة الحوار:

عندما اتفق الطرفان، المسلمون وقريش، على التعاهد والتهادن، كانت سياسة النبي ﷺ في قبول الشروط التي طلبتها قريش غاية في الحكمة والقدرة (الديبلوماسية) كما تسمى في علم السياسة الآن، فدعا الرسول ﷺ علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، لكي يكتب الاتفاق مع قريش، وعندما بدأ عليّ بالكتابة:

- قال له الرسول ﷺ: اكتب «بسم الله الرحمن الرحيم».
- فقال ممثل قريش، سهيل بن عمرو: أمسك (أي قف أو اسكت)! لا أعرف الرحمن الرحيم، بل اكتب «باسمك اللهم».
- فقال النبي ﷺ: اكتب «باسمك اللهم».

---

(١) آل ثاني، ص٧٠.

ثم قال الرسول ﷺ: اكتب « هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل ابن عمرو ».

- فقال سهيل بن عمرو: امسك! لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك.

- فقال الرسول ﷺ لعلي بن أبي طالب، رضي الله عنه: « اكتب محمد بن عبد الله في موضع محمد رسول الله» .

والمهم هنا روح الاتفاقية.. لقد أراد الرسول ﷺ من خلال هذه الاتفاقية الإثبات لأهل مكة أن الإسلام هو خاتم الرسالات، وهو دين الحق الذي لا يوجد له منازع، فروح الاتفاقية كانت كالتالي: «من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رد عليهم، ومن جاء قريش من رجال محمد لم يردوه عليه، وأنه من أحب من العرب محالفة محمد فلا جناح عليه، ومن أحب محالفة قريش فلا جناح عليه، وأن يرجع محمد وأصحابه عن مكة عامهم هذا على أن يعودوا إليها في العام الذي يليه، ويقيموا بها ثلاثة أيام ومعهم السلاح والسيوف في قربها، ولا سلاح غيرها».

ركائز الإبداع في هذا الاتفاق كالتالي:

أ- من أراد أن يدخل الإسلام من قريش بغير إذن وليه لا يستطيع أن يذهب إلى الرسول ﷺ لأن الرسول ﷺ خلال فترة الاتفاقية لا يستطيع أن يستقبله، فبالتالي إما أنه يكتم إسلامه في صدره ويبقى عند وليه، أو يخرج من مكة إلى جهة غير محددة، وفي أغلب الأحيان عندما يحتاج سيتجه إلى طريق قوافل قريش لينتزع نصيبه بالقوة منها، وذلك مما يضعف بطريقة غير مباشرة، من قوة قريش الاقتصادية.

ب- من جاء من أصحاب محمد إلى قريش فلا يردوه عليه، وذلك أمر يقوي الإسلام، لأن من ارتد عن دين الإسلام وذهب إلى قريش ففي صالح المسلمين اكتشاف أمره؛ لأنه كان منافقاً ويعيش بين ظهرانيهم، وعندما يذهب إلى قريش ينكشف أمره ويُكتفى المسلمون شره، أما الأمر الثاني فاستراتيجية الحرب تستدعي أن يكون لك عيون في دار الأعداء، وفي هذه الحالة يصبح من الممكن لبعض القادة المسلمين زراعة بعض العيون عند قريش.

ج- من أحب من العرب محالفة محمد فلا جناح عليه، ومن أحب من العرب محالفة قريش فلا جناح عليه. في تلك الفترة كانت قريش تمثل مركز السطوة والسلطة والمال في جزيرة العرب، وبالتالي كانت معظم القبائل العربية تعمل ألف حساب لقريش، إما خوفاً منها، أو حباً للمحافظة على تبادل المصالح معها... وبتوقيع الرسول ﷺ هذا البند، جعل العرب في حل من أية حرج أمام قريش عندما يريدون الذهاب إلى محمد ﷺ!!

إذاً، الصورة واضحة، إن مدرسة محمد ﷺ السياسية هزمت مدرسة قريش السياسية هزيمة قاضية، من دون استخدام الإكراه، أي أن المسلمين انتصروا بالديبلوماسية الناعمة، على قريش، رغم أن كلاً من الطرفين استخدم الديبلوماسية الصلبة لسنوات طويلة، و لم يستطع أن يحسم الصراع!!

٢- رسالة محمد ﷺ إلى النجاشي:

«سلمت أنت، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول، الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى، فخلقه الله من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده ونفخه، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي

جاءني، فإني رسول الله، وقد بعثت إليك ابن عمي جعفراً ونفراً معه من المسلمين، فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبر، فإني أدعوك وجنودك إلى الله، فقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحي.. والسلام على من اتبع الهدى».

وهنا نتعلم من الرسول ﷺ الإبداع في فن الدعوة والخطاب، فالبداية كانت التحية؛ المرحلة الثانية كانت تنـزيهاً لله سبحانه وتعالى بذكر أسمائه الحسنى؛ وثالثاً بما أن النجاشي كان مسيحياً، فقد قام الرسول ﷺ بتوضيح رأي الإسلام في الديانة المسيحية وفي عيسى، عليه السلام؛ رابعاً بعد المقدمة التي مرت بثلاث مراحل في الخطاب الموجه إلى النجاشي، أي تجهيز النجاشي لسماع الكلمة الحاسمة، قال الرسول ﷺ كلمته الحاسمة للنجاشي من خلال: «دع عنك التجبر، فإني أدعوك وجنودك إلى الله، فقد بلغت، فاقبلوا نصحي»؛ وأخيراً عاد الرسول ﷺ مرة أخرى وأنهى الخطاب بتحية ديبلوماسية من خلال: «والسلام على من اتبع الهدى».

٣- فن القيادة عند الرسول ﷺ:

من خلال وصف الرسول ﷺ لأصحابه نستطيع أن نستنبط ملامح الشخصية القيادية للرسول ﷺ وذلك من خلال طريقته في اختيار وتوظيف القاده السياسيين، سواءً كانوا يستخدمون في ساعة الشدة الديبلوماسية الناعمة أو الديبلوماسية الصلبة، فنجد وصف الرسول ﷺ كالتالي:

أ- وصف الرسول ﷺ لأبي بكر الصديق، رضي الله عنه: «أن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، وكذلك وصف الرسول ﷺ، أبا بكر بأنه مثل عيسى، عليه السلام، قال: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾».

ب- وصف الرسول ﷺ لعمر بن الخطاب، رضي الله عنه: عمر مثل نوح، عليه السلام، قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾، ومثلك مثل موسى، عليه السلام، قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

٤- أسلوب الخطاب عند الصحابة، رضي الله عنهم:

أ- صحابة الرسول ﷺ اشتهروا بالديمقراطية الحميدة، فالشيخ أبو الأعلى المودودي، رحمه الله، وهو من أكثر أسماء المعاصرين انتقاداً لبعض النظريات الغربية بما فيها الديمقراطية، قال في كتابه «مفاهيم إسلامية حول الدين والدولة»: كان الصحابة أكثر حباً للديمقراطية، وأشد تمسكاً بالحرية الفكرية، و لم يكن الخلفاء يكتفون بما يتحصل من نتائج الحرية الفكرية من قبل الناس، بل كانوا يستثيرون هممهم، و لم يدَّع أحد من الصحابة أنه لا يخطئ، وأبو بكر هو القائل: «هذا رأيي، إن كان صواباً فمن الله وإن يكن خطأ فمني واستغفر الله»، وعمر هو القائل: «لا تجعلوا خطأ الرأي سنة للأمة»[1].

إذاً، الصحابة هم رواد الديمقراطية والشورى والرأي والرأي الآخر، وهذا ما نراه في خطبهم وحواراتهم.

ب- صفات الصحابة، رضي الله عنهم:

عندما وصل خبر وصول الدعوة إلى الإسلام إلى أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، ذهب إلى الرسول ﷺ يسأله عن الأخبار التي وصلته، فدار حوار بين محمد ﷺ وأبي بكر، رضي الله عنه:

(١) العليان، ص ٢٤٦-٢٤٧.

- يا أبا القاسم، ما الذي بلغني عنك؟

- فسأله النبي ﷺ: وما بلغك عني يا أبا بكر؟

- قال: بلغني أنك تدعو إلى توحيد الله، وزعمت أنك رسول الله؟

- قال النبي ﷺ: نعم يا أبا بكر، إن ربي جعلني بشيراً ونذيراً، وجعلني دعوة إبراهيم، وأرسلني إلى الناس جميعاً.

- فقال أبو بكر، رضي الله عنه، واصفاً الرسول ﷺ ومبايعته: والله ما جربت عليك كذباً، وأنك لخليق بالرسالة، لعظم أمانتك، وصلتك لرحمك، وحسن فعالك، مد يدك فإني مبايعك.

لنا ملاحظة مهمة هنا، وهي أن هذه الصفات التي وصف بها أبو بكر، رضي الله عنه، محمداً ﷺ، هي نفسها التي وصفته بها زوجته أم المؤمنين خديجة، رضي الله عنها، عندما جاءها ﷺ مرتعباً بعد أول مقابلة بينه وبين جبريل، عليه السلام، في غار حراء، وكان الرسول ﷺ يقول: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي».. وبعد أن وفرت خديجة، رضي الله عنها، للرسول ﷺ الفراش الآمن، وهدأ الرسول ﷺ قليلاً سألته أم المؤمنين خديجة: ما الأمر يا محمد؟

فأخبرها الرسول ﷺ عن أول لقاء بينه وبين جبريل، عليه السلام، وأن الأمر صدر إليه ﷺ ليبلغ الإسلام لكافة البشر.

فقالت خديجة للرسول ﷺ مبايعة له ورافعة معنوياته: «**كَلاَّ، وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ**».[1]

(١) أخرجه البخاري.

إذاً هذه صفات محمد ﷺ ولكن ما هي صفات الصحابة؟

عندما ضيق مشركو مكة الخناق على الرسول ﷺ وصحابته، أذن لهم الرسول ﷺ بالخروج من مكة لكي يقوا أنفسهم شر المشركين، وكان من بين هؤلاء، الذين أذن لهم الرسول ﷺ بالخروج من مكة أبو بكر الصديق، رضي الله عنه.. وعندما وصل الخبر إلى ابن الدغنة، ذهب إلى قريش وقال لهم: « **أَتُخْرِجُونَ رَجُلاً يُكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ، وَيَحْمِلُ الْكَلَّ، وَيَقْرِي الضَّيْفَ، وَيُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ؟!** »[1].. انظروا، هذه صفات أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، عند مشركي مكة.. لذلك عندما همَّ بعضهم بإخراجه، أجاره بعضهم الآخر، لشهامة صفاته.

أما صفات الإمام علي، رضي الله عنه، في مرحلة الفتنة والصراع، فكان يقول: «والله ما معاوية بأدهى مني... ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس».

أما رأي الإمام علي، رضي الله عنه، في البطانة، فهو القائل: « لا تدخلن في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر، ولا جباناً يضعفك عن الأمور، ولا حريصاً يزين لك الشره بالجور، فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله؛ إن شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً، ومن شركهم في الآثام، فلا يكونن لك بطانة، فإنهم أعوان الأئمة وأخوان الظلمة، وأنت واجد منهم خير الخلف ممن له مثل آرائهم ونفاذهم وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم».

وعلينا أن نتذكر دائماً أنه مهما وصلنا إلى قدرات عالية في الدهاء والمكر السياسي، إلا أن ارتباطنا بالله سبحانه وتعالى هو أقوى من القدرات البشرية، فالآية الكريمة تقول: ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (آل عمران:٥٤).

---

(١) أخرجه البخاري.

ومن هنا أدعو نفسي وأدعو من أراد الاستماع إليّ من إخـــواني، أن نحاســـب أنفسنا ونصلحها، إذ أننا نعيش في أمة يسودها الخير والسلام والأمن والعدالـــة، لأن الأمثلة أعلاه توضح لنا أنه ليست صفات الرسول فقط، المعصوم من الله ســـبحانه وتعالى، حميدة ولكن كذلك صفات أصحابه، رضي الله عنهم، حميدة أيضاً، ومـــن هنا نتذكر المقولة المشهورة: «كما تكونوا يولى عليكم».

ج- من أقوال الصحابة التي ما زال لها أثر في القانون الدولي العام والعلاقـــات الدولية إلى يومنا هذا: وصية أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، لجيش أسامة:

«لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة؛ وقد تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصـــوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منه شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها، وتلقون أقوامـــاً قـــد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب، فاخفقوهم بالسيف خفقاً.. اندفعوا باسم الله!».

الوصية أعلاه قيلت قبل ما يقارب ١٥ قرناً من الزمان، ونرجو مـــن المهـــتمين بالقانون الدولي المعاصر وقوانين الحرب واتفاقيات جنيف أن ينظروا إلى الوصية أعلاه والقوانين الدولية المعاصرة، أرجو أن لا تستغربوا ذلك.. إنما الرسالة الخاتمة، رسالة محمد ﷺ العظيمة.. كل ما نبدأ بتطوير شيء معاصر لنا الآن نجد بأن أساسه انطلق منذ عهد الرسول ﷺ.

وسنقدم مثالين لما فعله المسلمون عند انتصارهم وفتح بيت المقدس:

«هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان: أعطاهم أماناً لأنفسهم، وأموالهم، وصلبالهم، وسائر ملتهم، ولا تسكن كنائسهم، ولا تهدم، ولا ينتقص منها، ولا من حيزها، ولا من صليبها، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم».

وكذلك سمح أمير المؤمنين عمر لأهل عانات «أن يضربوا نواقيسهم في أية ساعة، وأن يخرجوا الصلبان في أيام أعيادهم»[1].

وعندما عرض النصارى على أمير المؤمنين الصلاة في كنيسة القيامة، رفض عمر الصلاة في الكنيسة، خشية أن يتخذها المسلمون سنة من بعده فيغلبوا النصارى بكثرة صلاقم[2].

أما الفرس عندما هزموا الرومان[3]، نهبوا وحرقوا مدينتهم، وأحرقت كنائسهم، وأُهين المكان الذي يعتقد النصارى أن المسيح دفن فيه، وحملت النفائس والمقدسات ومن بينها الصليب الكبير الذي يعتقد النصارى أن المسيح صلب عليه، وقد احتفل رجال الدين الفرس بابتهاج بانتصارهم على رجال الدين النصارى.

وكذلك قال أمير المؤمنين عمر، رضي الله عنه، لعلي بن أمية حين أرسله إلى نصارى نجران: «إيتهم ولا تفتنهم في دينهم».

وهذه صورة أخرى يقدمها الإسلام تعبيراً عن إيمانه بمبدأ تعايش الحضارات.

(١) خطاب، ص٣١٤.

(٢) خطاب، ص٣١٤.

(٣) خطاب، ص ٣١٥-٣١٦.

فن الخطاب المعاصر

١- في العالم الغربي[١]:

العالم بأكمله يتذكر، بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١م في الولايات المتحدة الأمريكية، لغة الخطاب التحريضية التي استخدمها الغربيون.

فالرئيس الأمريكي «جورج بوش» قال: بأن هذه الحرب «حرب صليبية».. خطورة المصطلح تكمن في أن هذه الحرب ستكون بين العالم المسيحي والعالم الإسلامي، ولكن بعد ذلك أدرك واستدرك الرئيس بوش خطورة المصطلح.

البارونة «مارجريت تاتشر» رئيسة وزراء بريطانيا السابقة، ورائدة نظرية الدولة الحارسة الجديدة، التي يحاول العالم تطبيقها الآن من خلال العولمة، ومن أبرز سياسي النصف الثاني من القرن العشرين، للأسف، قالت: إنه من المؤكد على المسلمين أن يكفروا عن ذنوبهم ويعتذروا.

«بريلسكوني» رئيس وزراء إيطاليا قال: بأن الحضارة الغربية أفضل من الحضارة الإسلامية.

وحتى لا نكون كمن يوصف بأنه ينظر إلى الجوانب السلبية ويترك الجوانب الإيجابية في الأرض، نقول: بأن هناك بعض المفكرين والقادة الغربيين انصفوا الإسلام وأعطوه مكانته:

«برنارد لويس»، على الرغم مما يعرف عنه من مواقف عداء للإسلام والمسلمين، قال: «إنه في غالبية الحقب التاريخية عاشت الأقليات الدينية بصورة أفضل في ظل الحكام المسلمين».

(١) انظر: آل ثاني، جريدة الراية، العدد ٧١١٤.

«الأمير تشارلز» ولي عهد بريطانيا يقول[1]: إن الثقافة الإسلامية جاهدت للحفاظ على الرؤية الصحيحة المتكاملة للعالم، وعلى نحو افتقدناه نحن خلال الأجيال السابقة في الغرب.. وهناك الكثير مما يمكن لنا أن نتعلمه من رؤية العالم الإسلامي في هذا المضمار، وهناك طرق شتى لبناء صرح الفهم والتقدير المتبادل، ولعلنا نستطيع على سبيل المثال أن نبدأ بزيادة عدد المعلمين المسلمين في المدارس البريطانية.. إننا نحتاج أن يعلمنا معلمون مسلمون: كيف نتعلم بقلوبنا كما نتعلم بعقولنا، وإن بداية الألفية الثالثة قد يكون الحافز المثالي الذي يحفزنا إلى استكشاف هذه الصلات وتنشيطها، وآمل ألا نفوت الفرصة السانحة التي تتيح لنا اكتشاف الجانب الروحي في رؤيتنا لوجودنا كله؟!

٢- رسائلنا إلى الغرب:

في مجموعة دراسات لنا بعد أحداث سبتمبر، وجهنا فيها مجموعة من الرسائل، سواءً لأهلنا في العالم الإسلامي، أو لأصدقائنا في العالم الغربي، وكنا نركز ونحث على نبذ العصبية وتحكيم العقل:

قلنا عن أسر أمريكا لبعض المسلمين، في بداية الحرب على الإرهاب، التالي: نحن لا نستطيع أن نجد أي تبرير لانتهاك أمريكا القانون الدولي العام في قضية الحرب على الإرهاب، ولكن في الوقت نفسه لا نستطيع أن ننكر بأن هناك بعض الخطوات اتخذتها أمريكا تعتبر قانونية في حالة الحرب. فبالنسبة للقانون الدولي العام، في الآثار المترتبة على الحرب، يثير الفقهاء سؤالاً تقليدياً هو: ماذا يحل برعايا الدولة العدو المقيمين في أراضي دولة محاربة؟ كانت الدولة قديماً تحتجزهم كأسرى حرب، ولكنها اليوم تكلفهم مغادرة البلاد أو تطردهم منها. ولوحظ أن هذا الأسلوب قد

(١) العليان، ص ٢١٣.

يضر بمصالح الدولة؛ لأن هؤلاء الرعايا قد ينضمون، بعد خروجهم، إلى قوات العدو وينـــزلون الضرر بالدولة التي كانوا فيها، ولكنه لوحظ أيضاً أن إبقاءهم في إقلـــيم الدولة قد يجعل منهم طابوراً خامساً يعمل لصالح دولتهم، ولذلك جرت العادة على إبقائهم في إقليم الدولة المحاربة ووضعهم تحت المراقبة أو اعتقالهم في أماكن معينـــة؛ وبعض الدول تفضل ترحيل الأطفال والنساء والعجزة وتبادلهم بغيرهم من رعاياها، إن أمكن، وطبعاً مع عدم المساس بأموالهم وأملاكهم، وأن وضع اليد عليهـــا يـــتم مقابل تعويض مناسب، وهذا ما حدث لليابانيين في أمريكا أثناء الحـــرب العالميـــة، ولكن هل يستمر ذلك؟

بالطبع لن يستمر ذلك، لأن الولايات المتحدة ســـتكون الخاســـر الأول، لأن الأساس الذي أقام المؤسسون أمريكا عليه في العالم هو أن تكون الدولـــة الراعيـــة للحرية في العالم، والمطبقة لسياسة السوق المفتوحة، وليست الدولة التي يوجد بهـــا أحد أكبر سجون العالم، مثل ما يحدث الآن!

وكذلك قلنا، قبل أن تبدأ أمريكا حربها على الإرهـــاب في أواخـــر ســـبتمبر ٢٠٠١م، بأن على أمريكا أن تراعي أشياءً كثيرة؛ لأن الدمار لا يجلب إلا دمـــاراً، وكان ملخص خطابنا لأمريكا التالي: [١]:

صدمنا عندما وجدنا التصنيف الأمريكي للدول الراعية للإرهـــاب في الشـــرق الأوسط يشمل: أفغانستان وإيران والعراق وسوريا وليبيا والسودان! وهذا يعني بمعنى ملطف أن الإرهاب هو الإسلام؛ وإن حاول الأمريكان تلطيف ذلك مـــن خـــلال تحديد مدارس إسلامية معينة مثل المدرسة السلفية، والإخوان المســـلمين، والجهـــاد الإسلامية، وحزب الله... إلخ، وحتى لو كانت أمريكا تقصد هذه المنظمات فهـــل هذه المنظمات تمثل جميع المسلمين؟ وغاب عن ذهن الغرب بأن عدد المســـلمين في

---

(١) آل ثاني، جريدة الراية، العدد ٧٠٨١.

العالم ١,٦٠٠ مليون نسمة، يمثلون ٢٧% من سكان الكوكب الأرضي، وأكثر من ٦٠% منهم أقل من عمر ٢٠ عاماً، أي أنهم مجتمع فتي، و٨٠% ممن هم في سن العمل يعانون بطالة سافرة ومقنعة! رغم أن معظم المواد الأولية التي يعتمد عليها الاقتصاد العالمي موجودة في أقاليمهم!

ونحن الآن نقترب من نقطة الصفر، التي تمثل فيصل حوار الحضارات، والقيادة الأمريكية تعلم جيداً ما هو الدور المنوط في حوار الحضارات، ونحن المسلمين لسنا دعاة حرب، ولا ممن يتلذذون بإيذاء الآخرين، بل جميع المسلمين حزنوا لما حدث للأبرياء في أمريكا، ولكن هل تشارك الإدارة الأمريكية العرب والمسلمين آلامهم، في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي، وعلى رأس القائمة ٧ مليون فلسطيني مشردون من وطنهم منذ أكثر من نصف قرن؟ وهل شاركت أمريكا المليار جائع من المسلمين آلامهم؟ وماذا تتوقع أمريكا من مليار جائع، هل يهابون الحرب، وهم لا يوجد لديهم ما يفقدونه؟

من خلال اجتهادنا أعلاه استطعنا أن نصيغ رسالتين أو خطابين: الأول للعالم الإسلامي، والثاني للولايات المتحدة الأمريكية!

٣- الخطاب السعودي إلى الغرب:

ومن خلال متابعتنا للأحداث لفت نظرنا مجموعة الخطب السعودية إلى الغرب، وفيه وجدنا[١]:

أ- توضيح إمكانية التعايش والتمازج الحضاري بين المسلمين والكتابيين:

فنحن المسلمين نلتقي مع النصارى واليهود بأننا جميعاً نؤمن بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، ونؤمن بالحساب وبالجنة والنار، ونؤمن بكرامة الإنسان وأهليته

---

(١) خطاب، ص ١٧،٢٧،٣٦، ٣٨، ٤٥، ٥٢.

للمسؤولية، وحقه في الحرية والاختيار، كما نؤمن بالمساواة والعدل وفضائل الأخلاق، ونتفق حول أغلب القيم، ولولا أهواء السياسة لكان المسلمون والنصارى واليهود أشد الأمم تقارباً وانسجاماً.

ب- الخطاب السعودي يوضح أن كره السياسة الخارجية الأمريكيين، لا يعني كره الشعب الأمريكي:

ثنائية الحب والكره للشعب الأمريكي وللسياسة الخارجية الأمريكية غير متلازمة، فالنظر إلى الأمريكيين ليس هو ذات النظر إلى السياسة الخارجية الأمريكية، فالعالم يكره السياسة الخارجية الأمريكية المجحفة، ولكنه لا يكره الأمريكيين، بل يحترم هذا الشعب العظيم ويقدر القيم الأمريكية العظيمة، فلا بد أن تكون هذه حقيقة واضحة لدى الأمريكيين لئلا تلتبس الأمور، فقد تساءل الرئيس الأمريكي جورج بوش باستغراب: لماذا يكرهوننا؟!

والتساؤل بهذه الصيغة يوهم بأن الكره موجه للأمريكيين عموماً.

ج- الحضارات في الأصل تتكامل ولا تتصادم، ولكنها تتنافى وتتصادم إذا أرادت لها ذلك القيادات السياسية أو القوى المؤثرة ذات المصالح المختلفة.. والصراع قد يكون داخل الحضارة الواحدة: فأوربا خلال القرون الماضية كانت مسرحاً لأعنف وأطول الصراعات داخل الحضارة الواحدة، فقد كانت الحروب المقدسة مشتعلة في أوربا بين الطوائف النصرانية ذاتها، وكانت تلك النزاعات أعنف وأدوم من النزاع مع المسلمين، فالصراع الدامي بين الكاثوليك والبروتستانت لا يجهله أحد، ومازالت بقايا ذلك الصدام قائمة حتى اليوم في أيرلندا، وكذلك الحرب الأهلية الأمريكية لم تكن صراعاً بين حضارتين وإنما كانت حرباً داخل الحضارة الغربية، بل داخل الوطن الواحد، ومع ذلك تغيب هذه الحقائق الحية عن كثير من أذهان الغربيين.

فالحضارات في الأصل ينبغي أن يستفيد بعضها من بعض وتتكامل ولا تتصادم، وهي كلها بمثابة روافد تصب في الفهم الإنساني الجامع. إنما تلتقي وتتلاحم إذا هي تركت تتحرك بفعل طبيعتها الداخلية، لكنها تتنافى وتتصادم إذا أرادت لها ذلك - كما أسلفنا- القيادات السياسية أو المرجعيات أو القوى المؤثرة ذات المصالح المختلفة.

د- التوضيح للعالم أجمع القيمة العظيمة للنفس الإنسانية، بغض النظر عن الحضارة التي تنتمي لها:

تقول الآية الكريمة: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة:٣٢). فقتل البريء هو قتل لمبدأ حق الحياة المكفول في كل الشرائع، غير أن ذلك يقتضي أن يقف العالم ضد كل قتل ظالم ويتحرك لمواجهة العدوان!!

هـ- الإرهاب السياسي أصله أوربي وليس إسلامي، فالتنظيمات الإرهابية ذات الصبغة الإجرامية البحتة مثل ألمافيا والتنظيمات الإرهابية السياسية مثل الألوية الحمراء في إيطاليا، وحركة العمل المباشر في فرنسا، والجيش الأحمر في ألمانيا، والجيش الجمهوري الإيرلندي، والحركة الانفصالية للباسك في إسبانيا، وجماعة بادر - ماينهوف الألمانية، وحركات الاحتجاج العنيف التي عمت أوربا وأمريكا عام ١٩٦٨م، كلها حركات ومنظمات أوروبية.. ويقول «إريك موريس» في كتابه عن الإرهاب: بأن فكرة التنظيم الإرهابي والسياسي ظهرت لأول مرة في الجمعيات السرية في إيطاليا وإسبانيا، ثم انتقلت فكرة هذه الجمعيات إلى الألمان قبل أن يعرفها الروس. ومن اللغو الظن بأن الجيش الأحمر الياباني وجماعة أيلول الأسود أو جماعة الجهاد الإسلامي قد جاءوا بما لم يأت به الآخرون.

التلاعبات باللغة السياسية

استخدم «برنارد لويس» أسلوباً مميزاً لتحليل الألقاب التي يستخدمها أرباب السلطة بالعالم، وبالتحديد في العالم الإسلامي[1]:

- **الخليفة:** عندما خلف أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، الرسول ﷺ كان يسمى خليفة رسول الله، وعندما استلم عمر زمام الأمور، أتى رجل إلى عمر وقال له: خليفة الله، فقال عمر: هذا داود، فقال الرجل: أنت إذن خليفة رسول الله، فقال عمر: لكن هذا كان أبا بكر، وقد مات، وقال له الرجل: يا خليفة خليفة رسول الله، فقال عمر: هذا صحيح، لكن الأمر سيطول بعد، فقال الرجل: إذن بماذا ندعوك؟ فقال عمر: «أنتم المؤمنون وأنا أميركم، سموني إذن أمير المؤمنين».

- **ملك الشمس:** أحياناً الموقع الجيواستراتيجي يؤثر في مصطلحات الزعماء: فمثلاً كان أحد ملوك فرنسا فخوراً أن يسمى ملك الشمس، وذلك لأن فرنسا إقليم بيئي يميل للبرودة وكثرة المطر، فخروج الشمس كان يعتبر رحمة للشعب الفرنسي، وهنا أحب الملك أن يكون عظيماً مثل عظمة الشمس عند شعبه .

- **ظل الله في الأرض:** وفي الشرق الأوسط لم تكن الشمس صديقاً طيباً بل كانت عدواً قاسياً، لذلك لم يكن دور الحاكم المجازي أنه شمس بل ظل، يمنح الظل ليحمي الناس تحت سلطته من الشمس القاسية، وطبقاً لعبارة مأثورة قديمة أن السلطان (هو ظل الله على الأرض، تأوي إليه كل المخلوقات).

---

(١) لويس، ص ٣٣، ٣٥، ٧٣، ٨٦.

ولذا لاحظ بعض الزعماء عظمة الظل الذي ينقذ الناس من حرقة الشمس الحامية، والقاتلة أحياناً، فأراد أن يكون عظيماً كالظل، فمنح نفسه لقب ظل الله على الأرض!

– **الحكومات الشابة:** وهي رسالة تحمل معنى خفياً وهي أن مستلمي السلطة يوهمون الناس بأن هذه الحكومة كالدماء الجديدة التي تنبثق أقوى من مجرى النهر الدائم الجريان للمساهمة في أوطانهم، ولكن المشكلة أن هذا اللقب يبقى حتى عندما تشيخ الحكومة.

وتعود بدايات هذه الفكرة إلى حركات سياسية أوروبية مثل ألمانيا وإنجلترا الفتاة.. وظهرت لأول مرة في الشرق الأوسد عند الأتراك من خلال حركة (العثمانيين الشباب) أو العثمانيين الجدد، وتلاها ظهور حركة (تركيا الفتاة) التي قامت بثورة ١٩٠٨م.. وبعد عدة أجيال بدأ القادة السياسيون العرب يوصفون أنفسهم بالشباب، وهم يتوقعون أنهم سوف يكتسبون بالتالي احترام الناس ولن يخسروه.

– **جلالة الملك:** وهي صفة التشريف الأوربية «صاحب الجلالة» وكانت تستخدم من قبل في شأن الله فحسب، وأول علامة على العودة إلى الأعراف الإسلامية الخالصة وعدم استخدام لقب «صاحب الجلالة» يمكن أن يشاهد في القرار الملكي السعودي الصادر في أكتوبر سنة ١٩٨٦م لإلغاء صفة الجلالة واتخاذ اللقب التقليدي (خادم الحرمين الشريفين) وأعتقد هنا بأن المخطط السياسي السعودي أبدع في هذا التغيير؛ لأن اللقب الجديد أرسل صورة غير مباشرة بأن العاهل السعودي زعيم العالم الإسلامي، على المستوى المعنوي على أقل تقدير.

عموماً الألقاب كثيرة مثل: صاحب السمو، وصاحب المعالي، أو السعادة، وصاحب الفخامة! وجميعها لإضفاء بعض التمييز المعنوي على صاحب السلطة عند الإنسان العادي، وربما أفضلها لقب شيخ، فالشيخ دلالة كبر سن ورجاحة عقل، وإذا كان شاباً وأعطي اللقب فهو وقار له لرفعة مكانته الاجتماعية.

أما الأمير فهو من ولاية الأمر، والدليل على ذلك الفاروق عمر، أمير المؤمنين، رضي الله عنه.

- مصطلحات تولي السلطة في العالم الإسلامي:

- **البيعة:** البيعة نفسها ليست انتخاباً أو يمين ولاء، ولكنها تتم على مرحلتين: أن يثبت الشخص نفسه بطرق شرعية أو غير شرعية، ويكون فيها طرفان: الحاكم نفسه، والطرف الآخر، ويوصف في كتب الشريعة بأنه «المسلمون» عموماً، لكن عند التنفيذ العملي يتكون عادة من جماعة صغيرة من الناس، كضابط البلاط والجيش والبيروقراطية، وكما هو متوقع القيادة الدينية (ويسمون أحياناً علماء السلطة) في مركز القوة.

- **الشوكة:** سنجد هنا أن البيعة لا بد أن يسبقها السيطرة الكاملة على الموقف، ويصبح السواد الأعظم من الأمة أمام أمرين، إما أن يؤدوا البيعة عن يد وهم صاغرون فيقوا أنفسهم الشر القادم إليهم حتى ولو كان مؤقتاً، أو أن يعترضوا فيعرضوا أنفسهم للتهلكة.

وفلسفة الشوكة كالتالي: إذا خلا الوقت من إمام فتصدى لها من هو ليس من أهلها، وقهر الناس بشوكته وجنوده بغير بيعة أو استخلاف،

انعقدت بيعته ولزمت طاعته، لتنظيم شمل المسلمين وتجميع كلمتهم، ولا يقدح في ذلك كونه جاهلاً أو فاسقاً في الأصح!! وإذا انعقدت الإمامة بالشوكة والغلبة لواحد ثم قام آخر فقهر الأول بشوكته وجنوده، أنعزل الأول وصار الثاني إماماً.. إلخ.

هنا أجد تفسيراً للشوكة عند بعض فقهاء المسلمين، وفي القانون الدولي المعاصر، وربما أن القانون اقتبس ذلك من فقهاء المسلمين، وذلك في حالة قيام انقلاب في دولة ما، واستطاع الثوار السيطرة بشكل مطلق على الدولة، وبعد ذلك أعلن الثوار بأنهم يحترمون جميع الحقوق المدنية لمواطنيهم، و لم يقوموا بسفك جماعي للدماء، وإنما حاولوا السيطرة على من حاول أن يعارضهم، بدون سلاح، وكذلك استطاعوا أن يقهروا بالقوة الحاسمة معارضيهم المسلحين، ويأسروا معارضيهم الآخرين، وأعلنوا بأنهم سيعرضون جميع الأسرى أمام قضاء مستقل ونزيه، وكذلك أعلنوا بعد أن يستقر لهم الأمر بأنهم سيرفعون إعلان حالة الطوارئ، وسيصدرون عفواً عاماً، هذا من الناحية الداخلية، وإضافة بعض الشكليات مثل إعلان حكومة إنقاذ مؤقتة.. إلخ؛ أما من الناحية الخارجية، إذا أعلنوا اعترافهم بجميع المعاهدات والاتفاقيات والمواثيق الدولية التي وقع عليها النظام المخلوع، في هذه الحالة يرى بعض فقهاء القانون بأن الثوار أصبحوا حكومة شرعية!!

ولكن لو فشل الثوار في السيطرة على الأمن، أصبحوا خونة ومجرمين.

أرجو من القارئ الكريم أن ينظر إلى هشاشة الخط الفاصل في السياسة ما بين: الشريف والنزيه والبطل الوطني، وبين المجرم والخائن للوطن!!

- طريقة إيصال الرسائل غير المباشرة للسلطة:

نحن من أكثر المؤمنين بتدرج الخطاب، وشريعتنا الإسلامية السمحاء أمرتنا بالتدرج في الخطاب والدعوة؛ وقد اقتبس أو اتفق القانون الدولي العام الوضعي مع شريعتنا الإسلامية بالتدرج في الخطاب، فنحن نقول لطلبتنا: في كل المنازعات الدولية يفترض أن يكون هناك تدرج مثل التفاوض المباشر، يليه المساعي الحميدة، وبعد ذلك الوساطة، وإذا تعقدت الأمور يلجأ الطرفان إلى التحكيم، وإذا تعقدت الأمور أكثر يمكن أن يلجأ الطرفان إلى الوسائل السياسية من خلال المنظمات الدولية، وبعد ذلك إلى القضاء الدولي، وإذا انتهت الطرق السلمية من الممكن أن يلجأ الطرفان أو أحدهما إلى الإكراه أو الحرب، مع احترام القانون الدولي في هذا الشأن والقانون الإنساني أيضاً.

لذلك يفترض أن تكون الوسائل إلى السلطة متدرجة؛ لأن المواجهة المباشرة تجلب الفتنة للأمة، ويفترض أن لا تلجأ الأطراف لمواجهة السلطة بالعنف إلا عندما تصل الأوضاع إلى مستوى يصبح معه بقاء السلطة أكثر خطراً وشراً على العامة من محاولة خلعها!!

ولذلك سنتناول بعد تقنيات الرسائل التي من الممكن أن توجه للسلطة:

يقول والدنا الأكبر الشيخ جاسم بن محمد آل ثاني، رحمه الله، مؤسس دولة قطر:

فويل لقاضي الأرض من قاضي السما

لاعاد ميزان عن الحق مايل(*)

(*) لون من ألوان الشعر (النبطي) المعروف على نطاق واسع في منطقة الخليج العربية.

ويقول الشيخ راكان بن حثلين أحد زعماء قبيلة العجمان، عندما نمى إلى علمه بأن أحد زعماء القبائل الأخرى عاقد العزم على غزو (اعتداء) المناطق الجيوسياسية التي يسيطر عليها (وسنقتبس لكم هنا لغة الديبلوماسية في السياسة):

كزيت لك نور السلف والجهامه

باغيه ذخر في مقاديم الأيام

وهنا يذكر الشيخ أعلاه أعداءه: أنني استخدمت معكم جميع الوسائل السلمية لكي احتفظ معكم بعلاقات سلمية، ولكنكم، على ما يبدو، تتنصلون عن الطرق السلمية!!

ويقول الشريف بركات لابنه:

وطالع ترى مكة ولاها ابنا اخيك

ولو تطلبه خمس ملاليم ما أعطاك

وهذه رسالة غير مباشرة من خلال (نصائح الأب لابنه) ولكنها في الحقيقة موجهة إلى السلطان بأن قد بلغ من الجور والظلم حداً لا يطاق!

ويقول الأمير محمد بن أحمد السديري:

يا عل قصرن ما يجي له ظلالي

ينهار من عالي مبانيه للساس

لا صار ما هو مدهل للرجالي

وملجا لمنهو يشكون الظيم والباس

أو ربما يعكس صورة شعرية لبعض معارفه من شدة الظلم والطغيان من أصحاب نفوذ أعلى منه، والمهانة التي وقعت عليهم!

ولكن لا بد أن نتفق جميعاً بأن المعنى يبقى في قلب الشاعر!

خاتمة

ركزنا في «فلسفة الخطاب» على ثلاثة محاور، الأول منها أسلوب الخطاب الإسلامي، والثاني أسلوب الخطاب المعاصر، والثالث التلاعب باللغة السياسية، وأعتقد هنا أننا استطعنا أن نوضح تدرج الخطاب، وكذلك طرق الاتصال الأخرى مثل الحوار والتفاوض وصولاً إلى مرحلة الجدال، من خلال تصور مختلف الثقافات.. والعنصر الذي يفترض أن نركز عليه هو بأنه لن نستطيع أن نحل قضايانا إلا بالحوار، ولكي تدار عملية الحوار أو التفاوض بطرق ناجحة يفترض أن أكون موازياً للطرف المقابل.. والتوازي ليس بالضرورة أن يكون الطرفان يملكان جميع المقومات بالتشابه، ولكن يفترض أن يمتلك كلا الفريقين مقومات متوازية الأهمية!

هذا إذا كنا نريد أن ندير العملية السياسية الناعمة بالطريقة الصح، أما غير ذلك فيبقى مناورات وتهدئة واستدراج كل طرف للآخر.. ولكن لا أعتقد أن أية مفاوضات أو أساليب خطابات منمقة ستجعل الأمة الإسلامية تحصل على حقوقها كاملة بطرق سلمية من دون وجود إصلاحات حقيقية، وهنا لا بد أن نتذكر دائماً المقولة المشهورة: «إذا أردنا السلام لا بد أن نكون أقوياء».

وللتذكير مرة أخرى، نحن اجتهدنا وقدمنا هذا العمل الذي يعتمد على تحليل فلسفة الخطاب السياسي، علماً بأن أسلوبنا المتبع عادة هو التحليل الموضوعي للقضايا السياسية، والاقتصاد السياسي، والقانون الدولي العام، ولكن نختم قائلين: إذا أصبنا في هذا الأمر فهو خير من الله، وإن كان غير ذلك فمن نفسي، ونسأل الله القبول لنا ولكن في طيب الأعمال!!

المراجع

١- آل ثاني، فهد، فلسفة السياسة، الراية، العدد (٨٦٤٦).

٢- آل ثاني، فهد، الأعداء، الراية، العدد (٧٠٨١ ، ٧١١٤).

٣- خطاب إلى الغرب، غنياء للدراسات والإعلام، ٢٠٠٣م، الرياض.

٤- العليان، عبد الله، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٤م، بيروت.

٥- آل ثاني، فهد، العالم الإسلامي، دار الثقافة، ٢٠٠٢م، الدوحة.

٦- الراوي، جابر، حقوق الإنسان وحرياته، دار وائل، ١٩٩٩م، عمان.

٧- ديوان الشافعي، المكتبة الثقافية، بيروت.

٨- السعيد، طلال، الموسوعة الثقافية الكاملة، ذات السلاسل، ١٩٨٧م، الكويت.

٩- الظاهري، أبو عبد الرحمن، العجمان وزعيمهم راكان بن حثلين، ذات السلاسل، ١٩٩٦م، الكويت.

١٠- السعيد طلال، ديوان المرحوم الأمير الشاعر محمد الأحمد السديري، الجزء الأول، ذات السلاسل، ١٩٨١م، الكويت.

١١- ديوان الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني، الطبعة الرابعة، دار الكتب القطرية، ١٣٨٤هـ، الدوحة.

١٢- لويس، برنارد، لغة السياسة، دار قرطبة للنشر والتوثيق، ١٩٩٣م، ليماسول.

١٣- العقاد، عباس محمود، عبقريات، محمد، الصديق، عمر، علي، منشورات المكتبة العصرية، بيروت.

١٤- النووي، الدمشقي، رياض الصالحين، الجزء الثاني، دار الفكر العربي، ١٩٩٨م، بيروت.

تأملات في «هوجة إصلاح الخطاب الإسلامي» (١)

الدكتور سيد دسوقي حسن (*)

هذا ما يأمرنا به ديننا:
نتعارف مع الناس، فإن وجدناهم يريدون الخير تعاونًا معهم؛ وإن وجدناهم يبحثون عن عقيدة صالحة دعوناهم؛ وإن وجدناهم يريدون الاعتداء علينا قاومناهم؛ وإن وجدنا من يريد المعاهدة على نصرة المظلوم عاهدناه.

في أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر جاءتنا ريح عاصف استهدفت العالم الإسلامي، دولاً وشعوباً وثقافة، وجعلتنا جميعاً في قفص الاتهام، مطَالَبين أن ندافع عن أنفسنا في جريمة نكراء، لا ناقة لنا فيها ولا جمل.

---

(١) نظراً لما يتمتع به الأخ الدكتور سيد دسوقي من حس دقيق وتفكير استراتيجي، ووعي بالواقع، وامتلاك رؤية لإمكانية التجاوز، كنا ننتظر مساهمة مميزة لمثل هذه الإشكالية الخطيرة أو «الهوجة» التي تجتاح الأمة اليوم، كما أسماها، لكن ما وصلنا على وجازته يعتبر مساهمة تشكل مؤشراً على ملامح التضليل والارتهان الثقافي ولفتاً لحركة رياح السموم الهوجاء، التي تهب على عالم المسلمين، ليأخذ الناس حذرهم.. (الناشر).

(*) أكاديمي.. مفكر.. (مصر).

في حديث تليفزيوني أجرته معي قناة «A.B.C.» في أعقاب هذه الأحداث قلت للمذيعة الحسناء: إن مَثَل العالم الإسلامي وأمريكا كمثَل فريقين للكـــرة، أصرت فيه أمريكا أن تختار فريقها وفريقنا؛ فاختارت لنا «بـــن لادن» كـــابتن فريقنا، ومُلاّ «عمر» حارس مرمانا... إلى آخر الأسماء.. وقلت لها أيضـــاً: إن هذه الأسماء لا أعرف عنها شيئاً، وهي أسماء تعاونت مع أمريكـــا في حملتـــها الأولى ضد الوجود السوفيتي في أفغانستان، والعالم الإسلامي كله لا يعرف قصة سبتمبر هذه، ولا علاقة له بها، وعند «C.I.A.» الخبر اليقين.

أما الاتهام الذي حملته هذه الريح العاصف فكان اتهام الأمـــة، حكومـــات وشعوباً وأفراداً وثقافة بالإرهاب، ولقد نجحت هذه الريح العاصف في زعزعـــة الثقة عند الأمة الإسلامية في ثقافتها، وتبارت الأقلام والحكومات والمؤسســـات تكتب عن ضرورة إصلاح الخطاب السياسي الذي فجر العنف في نيويورك وفي كل مكان تحدث فيها مقارنة ضد محتل أو صراع ضد سلطة.

إذن فهناك مصطلحان ظهرا مع الريح العاصف ينبغي أن نتوقف عنـــدهما: مصطلح «الإرهاب» ومصطلح «الخطاب».. وكلا المصـــطلحين اســـتخدمه القرآن الكريم، والأمة ملزمة بالتزام هذا الاستخدام القرآني، وهو للأسف مغاير للاستخدام الحالي في عالم السياسة والثقافة المفروضة علينا من الخارج.

أما «الإرهاب» في الاستخدام القرآني، فيعني بناء القوة الذاتية حتى لا يجرؤ المفسدون في الأرض على إشـــعال الحروب الظـــالمة ضد الأمة: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم

مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (الأنفال: ٦٠)؛ أي أن «الإرهاب» بلغة العصر هو: الردع؛ أبني قوتي حتى لا تنقض على الذئاب والكواسر لتأكلني.

إذن فالإرهاب في المفهوم القرآني مصطلح يعني بناء القوة الذاتية من أجل البقاء في عالم آمن لا تنفرد بنا فيه القوة الباغية التي لا تعرف قيماً، ولا تحمل شريعة، وإنما تخطط فقط لمصالحها الإجرامية الآنية فحسب؛ ولذلك أيضاً نرى الغرب مجمعاً على منعنا من امتلاك القوة الذاتية بكل ما أوتوا من مكر ودهاء، وكلما نشأت محاولة هنا أو هناك في عالمنا الإسلامي سارعوا لمحاصرتها وضربها بالمكر أو بالحرب الظاهرة.

وعلى المستوى الفردي الإيماني يطلب الله تعالى من عباده أن يَرْهبوه (أي يخافوه) من أجل صلاحهم في الدنيا والآخرة، وعباد الله الصالحون هم الذين يدعونه رغباً ورهباً (أي رغبة في ثوابه وخوفاً من عقابه)؛ فالمصطلح القرآني لمادة «رهب» مصطلح إيجابي، يعني الخوف من عصيان الله تعالى في حياتنا الفردية أو الجماعية، ومن ثم الاستقامة على الصراط المستقيم.

وعلى عكس هذا يأتي مصطلح «الخطاب» في القرآن بإيحاءات سلبية؛ فالله يقول لنوح، عليه السلام: ﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ (هود: ٣٧)، والخطاب هنا رجاء ورغبة عاطفية ألا يعاقب الله هؤلاء الظالمين بالغرق، وهي رغبة مرفوضة ورجاء غير مستجاب.

وأحـــد المتخاصمين عند دواد، عـــليه السلام، يقـــول: ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴾ (ص:٢٣). و«عزني في الخطـــاب»؛ أي غـــلبني ظلماً في الحجاج، والله يقول في صـــفات عبـــاد الـــرحمن: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ (الفرقـــان:٦٣)، فحديث الجاهلين لعباد الرحمن سمي «خطاباً» لاضطرابه واختلاط معانيه؛ ولذا طالبهم ربهم أن يقـــولوا كلاماً ويختـــاروا ردوداً تـــؤدي إلى الســـلام، والله يتحدث عن داود، عليه الســـلام، فيقـــول: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ (ص:٢٠)، ويعلق الرازي، رحمه الله، على هذه الآية فيقول: «فصل الخطـــاب يعني كونه قادراً على التعـــبير عن كل ما يخطـــر بالبـــال، ويحضـــر في الخيال؛ بحيث لا يختـــلط شيء بشيء، وبحيث ينفصل كل مقـــام عن الآخر»، ويعـــني ذلك قـــدرته على تهـــذيب «الخطـــاب» بفصل أجزائه بعضها عن بعض.

وفي ســـورة النبأ يقول الله تعالى: ﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ (النبأ:٣٧)؛ أي لا يســـتطيع العباد أن يســـائلوا ربـــهم أســـباباً لأقـــداره، التي يجريها عليهم أو لسنـــنه التي يمضيها فيهم وفي الكون من حولهم.

وخلاصة القول: إن مصطلح «الخطاب» في القرآن مصطلح يعني المحاججة الظالمة، أو الرجاء غير المبرر، أو الكلام المختلط المضطرب.

ونعود إلى القضية الأصلية؛ وهي قضية اتهام المسلمين بالعنف الإجرامي، ثم إلصاق ذلك بالثقافة الإسلامية، وكيف يستطيع المسلمون أن ينفضوا عن أنفسهم هذا الشعور غير المبرر بالذنب.

في القرنين الأخيرين:

مَنْ الذي اعتدى على مَنْ؟

و مَنْ الذي احتل أرض مَنْ؟

و مَنْ الذي سرق وما زال يسرق ثروات مَنْ؟

و مَنْ الذي يناهض تقدم مَنْ؟ ومَنْ الذي قسم أوطان مَنْ؟

ومَنْ الذي يلاحق ثقافة مَنْ؟

ومَنْ الذي يفزع مَنْ؟

ومَنْ الذي يحمي ويصون النظم الفاسدة في بلاد مَنْ؟...

الإجابات واضحة لا لبس فيها، حتى للأصم والأعمى والمجنون؛ فكيف نواجه ذلك ونخرج من هذه الحلقات الحديثة؟

المَخْرَجْ هو في التعارف الإنساني: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (الحجرات:١٣).

نتعارف مع الناس، فإن وجدناهم يريدون الخير للإنسانية تعاونا معهم على البر والتقوى.

نتعارف على الناس، فإن وجدناهم يريدون التعلم علمناهم.

نتعارف على الناس، فإن وجدناهم يبحثون عن عقيدة صالحة دعوناهم.

نتعارف على الناس، فإن وجدناهم يريدون أن يمكروا بنا انتبهنا لمكرهم.

نتعارف على الناس، فإن وجدناهم يريدون الاعتداء علينا قاومناهم، فإن اعتدوا حاربناهم.

نتعارف على الناس، فإن وجدنا منهم من يريد أن يتعاهد على نصرة المظلوم ومساعدة الفقراء وحماية الحياة الطيبة للإنسان والحيوان والطير والنبات تعاهدنا معهم.

هذا ما يأمرنا به ديننا، ولننس موضوع «الخطاب» المتهم وموضوع «الإرهاب»؛ فكلا الأمرين صناعة مخابراتية عدائية، والله من ورائهم محيط.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
- تقديم سعادة وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية .... فيصل بن عبد الله آل محمود	٧
- هذا الكتاب	١٥
- الخطاب الإسلامي.. رؤية مستقبلية .... د. سعيد إسماعيل علي	٢٣
- الخطاب الإسلامي.. والخروج من مأزق الثنائيات .... د. محمد بن نصر	٦٩
- الخطاب الإسلامي المعاصر.. وتشوهات الخلط والتسطيح .... د. عبد الحميد أبو سليمان	١٠٧
- مراجعات في الخطاب الإسلامي المعاصر .... د. أحمد الريسوني	١٣٩
- الخطاب الإسلامي المعاصر.. المنهج والآليات .... د. حليمة بوكروشة	١٦٧
- الخطاب الإسلامي.. والتحولات الحضارية والاجتماعية .... الأستاذ إبراهيم غرايبة	١٩٥
- الخطاب الإسلامي المعاصر.. دعوة للتقويم وإعادة النظر .... د. منى حداد يكن	٢٣٩
- التعددية الفكرية والحوار في المجتمع المسلم .... د. محمد عبد الغفار الشريف	٢٥٥
- الخطاب الإسلامي ومنهجية المقاصد .... الأستاذ رياض أدهمي	٢٧١

الموضـــــــوع	الصفحة

- الخطاب الإسلامي المعاصر.. بين التجديد والتبديد ٢٩٩

الأســـتاذ محمـــد صـــياح المعـــراوي

- إعادة بناء المفاهيم.. وتأصيل المصطلحات ٣٤٥

د. عبـــــد الــــــرزاق قســــوم

- نحو خطاب إسلامي راشد ٣٨٩

د. محمــــــد الفاضــــــل اللافـــــي

- تعثر الخطاب الإسلامي المعاصر ٤٣٩

د. أحمــــــــد عيســــــــاوي

- مواصفات الخطاب الإسلامي ٤٨٩

د. محمــــــد منيــــــر حجــــاب

- الخطاب الديني والواقع المعاصر ٥٣٥

الأســـــتاذ محمـــــد الســـماك

- قبل أن تحيط بنا أخطاؤنا ٥٥٧

الأســـتاذ عمـــر عبيـــد حســـنه

- الخطاب الإعلامي في عصر العولمة ٦١٧

د. عبـــده مختـــار موســـى

- الخطاب الإسلامي المعاصر.. وجوه الأزمة ومداخل في الحل ٦٤١

د. رفيـــق عبـــد الســـلام

- فلسفة الخطاب فى السياسة ٦٧٥

الشيخ د. فهد بن عبد الرحمن آل ثـاني

- تأملات في هوجة إصلاح الخطاب الإســلامي ٧٠٥

د. ســـيد دســـوقي حســـن

- الفهـــرس ٧١١

سلسلة :

« المشروعات الثقافية الجماعية المشتركة »

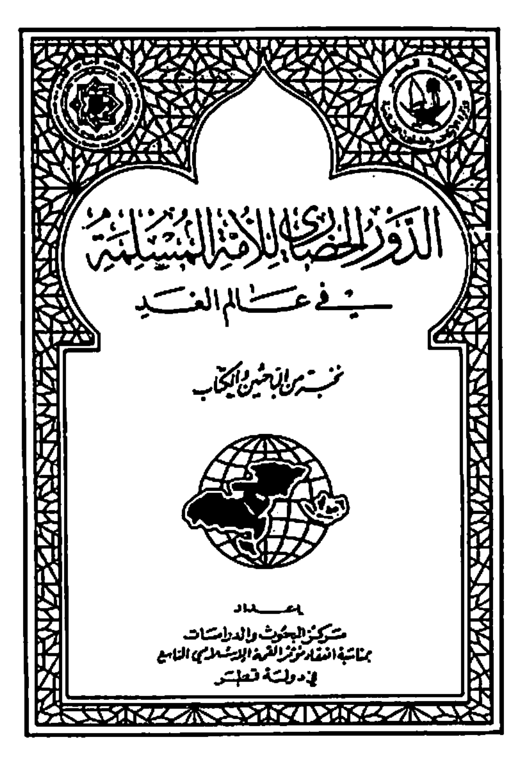
سلسلة دورية تصدر عن مركز البحوث والدراسات، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ قطر



صدر منها خمسة مشروعات، ترجم بعضها إلى عدد من اللغات الحية

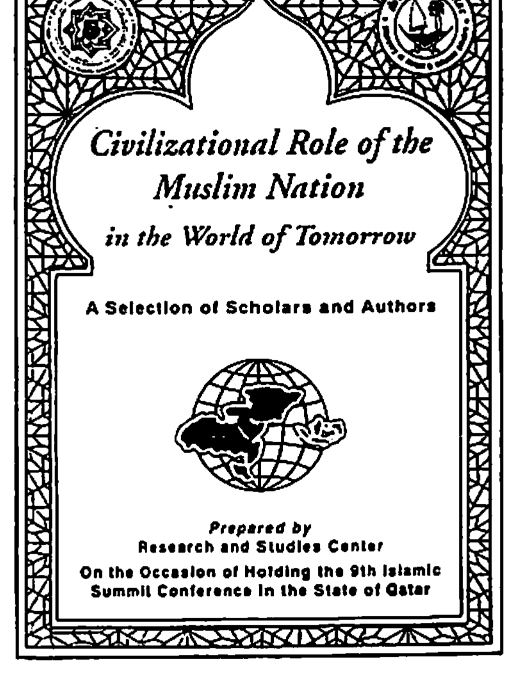
الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد

يعتبر كتاب «**الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد**»، الذي صدر باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية، بمناسبة انعقاد مؤتمر القمة الإسلامي التاسع في رحاب دولة قطر (تشرين أول/نوفمبر ٢٠٠٠م) من أبرز الأعمال التي اضطلع بها المركز في سنيه الأخيرة، مساهمة في إحياء عملية الاجتهاد والتجديد وإعادة بناء مشروع النهوض، لتستأنف الأمة المسلمة دورها في الشهود الحضاري وإلحاق الرحمة بالعالمين، وما يتطلبه ذلك من معرفة الذات، وما تمتلكه الأمة من الإمكان الحضاري والتخطيط لحسن استثماره، ومعرفة (الآخر)، المعرفة التي تمكن من كيفية التعامل معه ودعوته إلى كلمة سواء، وتحقيق المشترك الإنساني.



ويأتي الكتاب - الذي تقع نسخته العربية في (٧٥٢) صفحة من الحجم المتوسط (١٧×٢٤سم)- في إطار محاولة لتقديم رؤية مستقبلية، لما يمكن الاصطلاح على تسميتهم (أهل الاجتهاد والفكر والرأي)، بحيث تشكل هذه الرؤية أحد أدلة العمل أمام أصحاب القرار للوصول إلى تحقيق الانسجام والتكامل والتصالح بين أهل الرأي وأصحاب القرار.

وكان الهدف الأساس من هذا المشروع الثقافي الممتد، التعرف على الإمكان الحضاري الذي تتوفر عليه الأمة، والرؤية الاستراتيجية لتفعيله، وكيفية استرداد الدور الغائب للأمة لتستأنف من جديد رسالتها في الشهود ومعالجة أزمة الحضارة، وتحقيق الغاية التي من أجلها جاءت الرسالة .



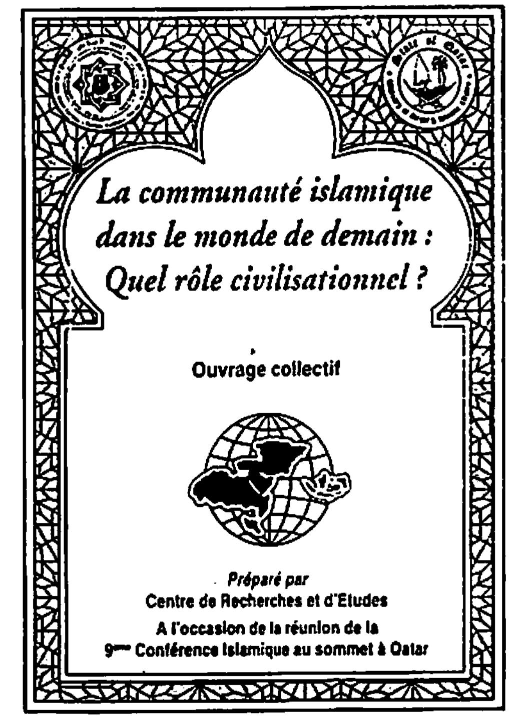
ولقد كان الحرص أن تأتي المساهمات من مواقع ثقافية وجغرافية ومدارس فكرية ومذهبية متنوعة، ممثلة، إلى حد كبير، لجميع بلاد العالم الإسلامي الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي، على اختلاف مذاهبهم وتوجهاتهم، إضافة إلى مساهمات ممن يعيشون ضمن منظومة الثقافة الغربية المعاصرة ومؤسساتها.

وتركز الكتاب حول أربعة محاور أساس:

* **أهم مقومات وشروط النهوض التي تمتلكها الأمة** ، في إطار التعرف على الذات (الإمكان الحضاري).

* **أسباب عطالة الأمة وعدم فاعليتها: المعوقات** (التعرف على مواطن الخلل).
* **أزمة الحضارة العالمية وحاجتها إلى الرؤية الإسلامية** (معرفة الآخر وتحديد الحاجة والمداخل الفاعلة).
* **أولويات مشروع النهوض على مستوى الأمة**، والرؤية الاستراتيجية لمستقبل العمل الإسلامي العام (دليل عمل، أو سبيل الخروج).

وكان التوجه إلى عدم تحديد المحاور التي تدور حولها المساهمات حتى لا يشكل ذلك محددات مسبقة لرؤية الباحث، فترك الموضوع لكل باحث يتناوله من الزاوية التي يرى أهميتها، دون تحديد مسبق أو مداخلة لاحقة ، ومن ثم المحافظة على نص الباحث، على الرغم مما يمكن أن يوجد فيه - أحيانًا - من بعض الملحوظات أو التحفظات القابلة للمناقشة.

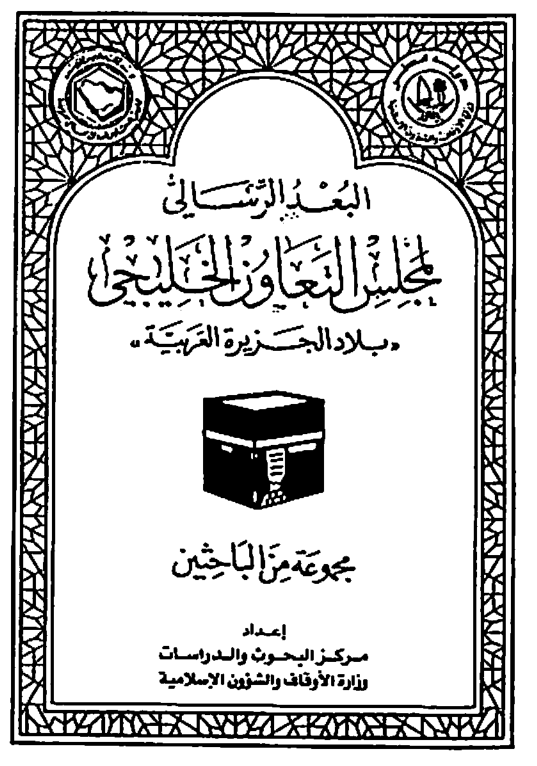


لذلك جاءت الآراء والاجتهادات الواردة في الكتاب (٣٥ مساهمة) تعبيراً حقيقياً عن وجهة نظر أصحابها؛ وهي تشكل في محصلتها محاولة لتقديم رؤية عن الواقع الموجود، بكل ما فيه، الذي تمور به الساحة الفكرية، ونوافذ مهمة تمكن من الإطلالة على هذا الواقع الثقافي القائم.

وتتمثل المحصلة الثقافية لهذا المشروع-الكتاب في أهمية طرح الأمر، وتأكيد الرؤية المستقبلية واستدعائها إلى مجال الهم الثقافي العام، وساحة تفكير النخبة المثقفة بشكل أخص، وذلك بغض النظر عن نوعية بعض المساهمات وقدرتها على إثراء الموضوع من جوانبه المتعددة وتحقيق الهدف المأمول، حيث إنها تعتبر باكورة لدراسات مستقبلية متكاملة ونضيجة.

البُعْدُ الرِّسَالِيُّ لمجلس التعاون الخليجي «بلاد الجزيرة العربية»

صدر كتاب: «**البعد الرسالي لمجلس التعاون الخليجي.. بلاد الجزيرة العربية**»، باللغتين العربية والإنجليزية، بمناسبة انعقاد الدورة الثالثة والعشرين للمجلس الأعلى لمجلس التعاون لدول الخليج العربية في دولة قطر (كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢م)، إسهاماً في الدعوة إلى تجديد الانتماء وإعادة النظر والمراجعة والتقويم للواقع، في محاولة لاستشراف الماضي وإبصار المستقبل، وسعياً للارتقاء والتنمية والنهوض على مختلف الأصعدة، وتأكيداً على أهمية الاضطلاع بالدور الرسالي لبلاد الجزيرة العربية، التي اختارها الله أرضاً للرسالة الخاتمة وشرفها بالإسلام.



ويشكل الكتاب، الذي جاءت نسخته العربية في (٤٣٢) صفحة من الحجم المتوسط، رؤية للبعد الرسالي، وأحد أدلة العمل المستقبلي أمام إنسان المنطقة وأصحاب القرار، والاستشعار بالمسؤولية الحضارية نحو الذات و(الآخر)، بحيث يكون استشراف الماضي هو السبيل لتقويم الحاضر وإبصار المستقبل، والارتقاء بإدارة الموارد البشرية، وإدارة الموارد المادية، للعطاء الأفضل.

وشارك في هذا العمل الثقافي، الذي جاء تحت شعار قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ نخبة من الباحثين على مستوى دول الخليج العربية.

وقد اشتمل على ثلاثة محاور أساس:

المحور الأول: استشراف الماضي (التجربة الحضارية التاريخية):

- الجزيرة العربية أرض النبوة الأولى (إبراهيم أبو الأنبياء عليه الصلاة والسلام) والرسالة الخاتمة (محمد ﷺ)؛
- النص السماوي، وخاتمية وخلود الرسالة، وقدرتها على الإنتاج والنهوض تاريخياً؛
- عطاء التجربة التاريخية (القيادة الحضارية العالمية): عبرة الماضي ورؤية المستقبل.

المحور الثاني: الإمكانات المذخورة:

- **الإمكان التاريخي**: مهبط الوحي؛وراثة النبوة؛التجربة الحضارية التاريخية؛امتلاك الأنموذج التطبيقي (السيرة النبوية، وخير القرون)؛ العطاء الإنساني على مستوى الذات و(الآخر).

- **الإمكان الثقافي والاجتماعي:** عالمية الرسالة وإنسانيتها؛ امتلاك الطاقة الروحية(الحرمين)؛ الرصيد الإسلامي في العالم؛ قبلة المسلمين (توجه المسلمين اليومي صوب الجزيرة العربية(دول مجلس التعاون) واستمرار الارتحال للحج والعمرة؛ عوامل التجانس والتشكيل المشترك، والتي تؤهل للدور الرسالي: العقيدة (القرآن)، اللغة واللهجات،التاريخ المشترك،العادات والتقاليد وطبيعة الوحدات الاجتماعية (الأسرة والقبيلة)، الوحدة الجغرافية، الظروف الطبيعية (الجغرافيا)؛ التزاوج؛ التداخل السكاني (الديموغرافي).

- **الإمكان الاقتصادي:** امتلاك الطاقة المادية(النفط، المحرك الأساس لعجلة الحضارة العالمية)؛ الموقع الجغرافي؛ ارتفاع مستوى الدخل؛ توفر الأمن الاقتصادي والاجتماعي.

المحور الثالث: إبصار المستقبل (الرؤية المستقبلية للاضطلاع بالدور الرسالي):

الحاجة الإنسانية الحضارية المتأزمة للدور الرسالي؛ مواطن الخلل وأسباب القصور وعوامل الإعاقة؛ السبيل إلى الخروج ومعاودة الإحياء والبعث لأمة الرسالة، لإلحاق الرحمة بالعالمين.

State of Qatar

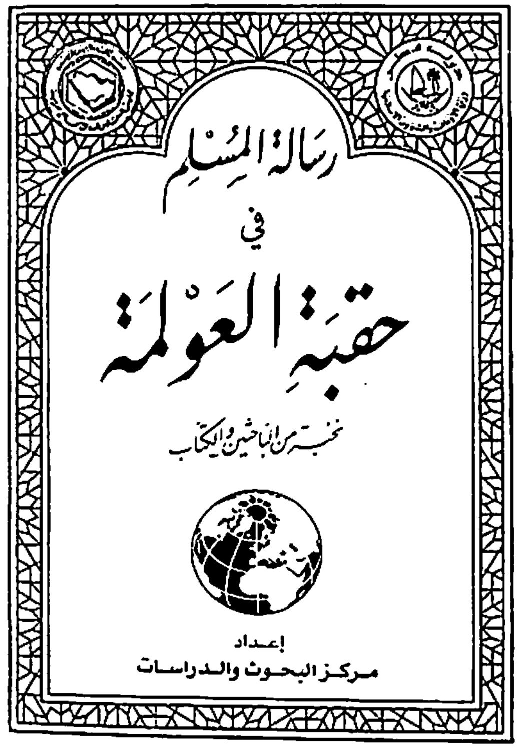
Missionary Dimension
of the Gulf Cooperation Council
«Land Of The Arabian Peninsula»

A Group of Researchers

Prepared by
Research and Studies Center
Ministry of Endowments & Islamic Affairs

رسالة المسلم في حقبة العولمة

يعتبر كتاب: «**رسالة المسلم في حقبة العولمة**» الذي صدر باللغتين العربية (٧٦٠ صفحة من الحجم المتوسط) والإنجليزية، مساهمة في محاولات الارتقاء بالوعي الإسلامي، وتبصير المسلم برسالته الإنسانية، والمهمة التي لا بد أن يضطلع بها في كل الظروف والمتغيرات، لإلحاق الرحمة بالعالمين، انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، وما يتطلب ذلك من الوعي بالذات أولاً، وما تمتلك من قيم خالدة، قادرة على العطاء، والتعامل مع نوازل العصر، ومتغيراته، وما ترتكز إليه من مخزون تراثي، وشخصية حضارية تاريخية، حملت



قيم الحق، والعدل، والخير للإنسانية جمعاء، وشاركت فيها جميع الأجناس، والألوان، والثقافات، فجاءت نسيجاً إنسانياً عالمياً، ولم تكن حكراً على أحد، فبرئت بـــذلك من أدواء الهيمنة والجمود والتعصب والانغلاق.

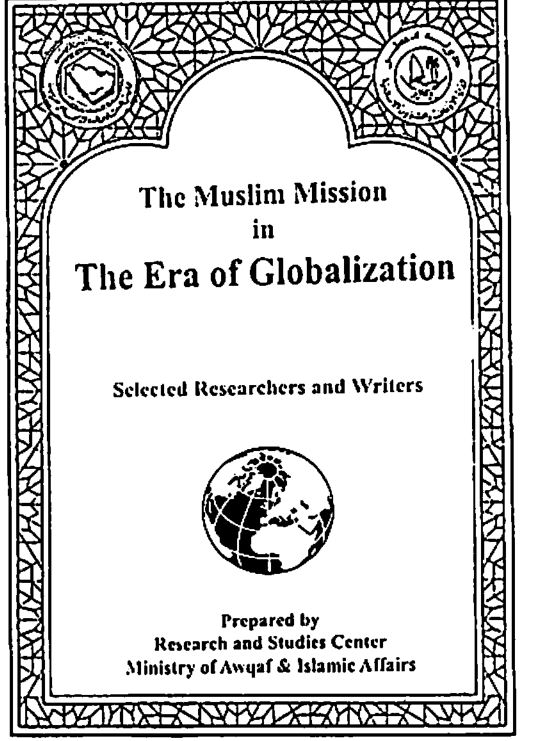
كما يتطلب ذلك الوعيَ (بالآخر)، بعقائده، وتاريخه، وحاضره، ومكوناتـــه الثقافية، حتى يشكل ذلك بصيرة، ودليلاً، لكيفية التعامل معه، من خلال معـــايير واضحة، تشكل أساساً للحوار، والتعاون، وبناء المشترك الإنساني، بعيـــداً عـــن الإكراه والتسلط والاستبداد، والإقصاء السياسي، والاغتصاب الثقافي.

حيث تشتد الحاجة لهذا الوعي، بالذات و(الآخر)، أكثر فـــأكثر، في هـــذه الحقبة، من تاريخ الإنسانية : «حقبة العولمة»، بكل ما ترافق معهـــا مـــن إزالـــة الحدود والسدود، وماترتب عليها، من محاولات الهيمنـــة والمغالبـــة الحضـــارية، والثقافية، والسياسية، والاقتصادية، وإخضاع العالم لثقافة الأقوى، أو لثقافة القوة، وإذابة الخصوصيات وإلغاء التنوع الثقافي.

وكان الهدف الأساس من هذا المشروع الثقافي الممتد، الذي سعى المركـــز لفتح ملفه واستدعائه إلى ساحة الهمِّ الإسلامي، تقديم بعض الملامح، والمعالم، التي يمكن أن تشكل خميرة الإنجاز وسبيل استرداد الفاعلية والنهوض، وتمثـــل إحـــدى اللبنات في البناء المأمول، كما تشكل نوافذ للإطلالة منها، والامتداد بها، وتبصـــير المسلم، بأبعاد هذه الحقبة، والاجتهاد في تقديم ما يمكن أن يسمى: «دليل عمل وتعامل» مع هذه المرحلة، ومحاولة تحقيق الوقاية الحضارية، إضافة إلى الـــتفكير بكيفية التقاط فرص «العولمة» والإفادة من أدواتها، وآلياتها، ومجالاتها المتاحـــة،

وحتى من أزماتها، لطرح قيم الإسلام، وتحقيق كسب أكبر، وذلك من خــلال الوصول بالرسالة الإسلامية، وإبلاغها إلى العالم، وامتلاك القدرة على تجــاوز السلبيات، التي تحملها «العولمة»، وتوظيف إيجابياتها.

وحيث إن البعد الثقافي، هو الأخطر دائماً، وإنه المناخ، والرحم، الذي تنشأ وتنمو «العولمة» من خلاله، كان لا بد من إدامة التفكير والاجتهاد في استنهاض هِمم الباحثين، والمفكــرين، والنخــب الفكرية، التي من المفترض أن تمثل عقل الأمة، للمساهمة في تقديم رؤية، أو دليل عمل، وتعامل، لكيفية التعــاطي مــع حقبة «العولمة».



و كما هو الحال في المشــروعات الثقافية السابقة، جاءت المساهمات، من مواقع ثقافية وجغرافية، ومدارس فكرية ومذهبية متنوعة، إضافة إلى مســاهمات من غير المسلمين أيضاً، أو من الــذين يعيشون ضمن منظومة الثقافات الغربية، ومؤسساتها.

وحرصاً على تقديم فكرة واضحة عن الموضوع المطروح، وضعت له عدة محاور، علها تحدد الإطار المطلوب للمساهمات، وتأتي البحوث قاصدة إلى حد ما، وملتزمة بالمحاور المطروحة، ومستصحبة الإطار الموضوع.

المحاور

المحور الأول: دلالة المصطلح والتجليات التاريخية في المجالات المختلفة «الثقافي، السياسي، الاقتصادي، الاجتماعي، الإعلامي، ...».

المحور الثاني: العولمة وسنن المدافعة الحضارية وبناء المشترك الإنساني.

المحور الثالث: كيفية التعامل مع حقبة العولمة، من خلال القيم الإسلامية، واغتنام الفرص المتاحة، تنمية، وعطاءً، وبلاغاً، وتحقيقاً للوقاية الثقافية.

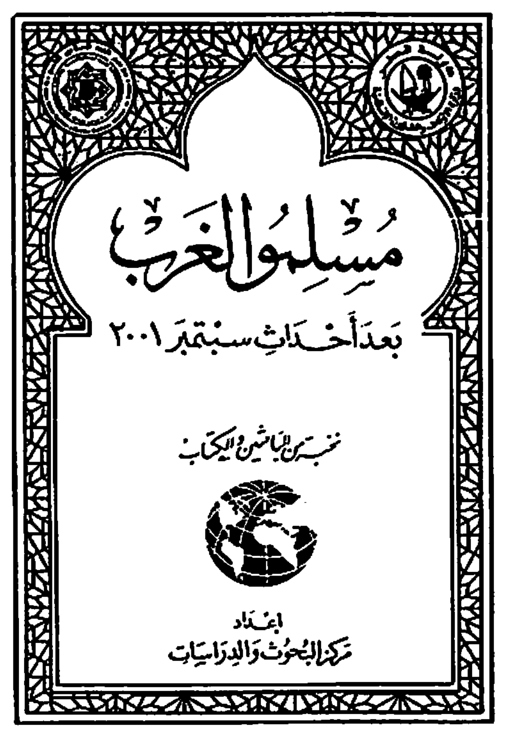
المحور الرابع: العولمة بين الحوار والمواجهة ومحاولات الهيمنة والاغتصاب الحضاري.

المحور الخامس: المسلم والعولمة: رؤية مستقبلية (بصائر وبشائر).

مُسلِمُو الغَربْ

بَعدَ أَحْـدَاثِ سبْتمبَر ٢٠٠١

يتناول كتاب: «**مسلمو الغرب بعد أحداث سبتمبر**»، حدثاً ونازلة تعد من أخطر النوازل، إن لم تكن أخطرها على الإطلاق في هذه الحقبة من تاريخ البشرية، وما يمكن أن يترتب عليها من تداعيات، ويطرح موضوعاً على غاية من الدقة والخطورة، بحيث أصبح من الموضوعات الثقافية والسياسية والفكرية الكبرى، على المستوى الإقليمي والعالمي، بل والإنساني، وليس الإسلامي فقط، مما استدعى أهمية أن يكون الكتاب مساحة مفتوحة للحوار من الجميع، حتى من (الآخر)؛ لأن الموضوع يخص الجميع وليس المسلمين فقط.



ويشكل الكتاب، في جانب مهم منه، إسهاماً جاداً في مجال فتح أبواب الحوار مع (الذات) على مصراعيها - التي أصبحت اليوم من الأولويات الكبرى لحياتنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية بشكل عام، وحياتنا الثقافية بشكل أخص- وبذل الجهد لاستدعاء العقل الناقد، الغائب، وإعادة تشكيل الذهنية الثقافية القادرة على النقد والتقويم والمراجعة، وفك قيود التعصب والتقليد والتباس الذات بالقيمة واجتهاد الإنسان الشارح للنص بقول الله الخالق الشارع للنص، والاطمئنان أن ممارسة التقويم والمراجعة والمناصحة دين من الدين وسبيل إلى التقوى، وامتلاك أهلية الفرقان، وبناء (الذات)، وإعادة بناء النسيج الاجتماعي للأمة، وتوسيع دائرة التفاهم والمشترك الإنساني، وتشريع أبواب الاجتهاد والحرية على مصراعيها، وإعادة بناء وبلورة مفاهيم ومصطلحات كبيرة وكبيرة في حياتنا، تواضعت عليها الأجيال لقرون طويلة، حتى كادت تصبح من المسلمات، بعد تغير الزمان والمعادلات الدولية، لتتحول الأمة من حقبة الحماس إلى دائرة الخبرة والاختصاص، انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿ ...فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ (الفرقان:٥٩)، ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ (فاطر:١٤).

وليس ذلك الحوار المطلوب على مستوى (الذات) فقط، بل التقدم والسير صوب (الآخر)، والتعرف على السنن والقوانين الحضارية للسقوط والنهوض، وأخذ العبرة والدرس، والتحقق بالوقاية الحضارية.. فالحوار مع (الذات) على أهميته وأساسيته قد يتحول إلى حوار مغلق، وافتتان بالذات وقوالب جامدة، وخنادق ومتاريس، بعيدة عن التفاعل والنمو والمعرفة والتماحك والاحتكاك والمدافعة، لذلك لا بد من الحوار لإعادة بناء (الذات) أولاً ومن ثم الانفتاح والحوار والتفاهم مع (الآخر).. وهذا الحوار هو إحدى وسائل الدعوة وأساليب الإسلام في الإقناع

والتواصل؛ فإما طريق الحوار والدعوة والتفاهم، وأما طريق الإكراه والغصب والإقصاء (للآخر).

ويتميز الكتاب (٦٠٠ صفحة من الحجم المتوسط)، كما هو الحال في المشروعات الثقافية السابقة، أن تأتي المساهمات فيه، من مواقع ثقافية وجغرافية، ومدارس فكرية ومذهبية ومؤسسية متنوعة، إضافة إلى مساهمات من غير المسلمين أيضاً، وجاء التركيز على بلاد الغرب، أو من الذين يعيشون ضمن منظومة الثقافات الغربية، ومؤسساتها، حتى لو تضمنت مساهماتهم بعض المغالطات أو سوء الفهم للقيم والأحكام الشرعية، والعجز عن تنزيلها منازلها من منظومة القيم الإسلامية، واجتزائها، والحكم عليها في ضوء قيم حضارية أخرى، حتى تأتي النظرة للأمور واقعية وموضوعية تمكن من كيفية التعامل مع الواقع وامتلاك المفاتيح الصحيحة للمداخلة والتأثير.

وحرصاً على تقديم فكرة واضحة عن الموضوع المطروح، وضبط مساره، ما أمكن، وضع له مركز البحوث عدة محاور، علها تحدد الإطار المطلوب للمساهمات، وتأتي البحوث قاصدة إلى حد ما، وملتزمة بالمحاور المطروحة، ومستصحبة الإطار الموضوع، ذلك أن الكثير ما يزال يعاني من بعض الإصابات، التي تتمركز في عدم الالتزام بالموضوع، والانضباط بمحاوره، واستصحاب إطاره، والتوهم أن ما عنده، أو يهتم به، يمكن أن يكون صالحاً لكل زمان، وكل مكان، ويمكن أن يندرج تحت أي عنوان، ويستجيب لكل موضوع، مهما كان عنوانه، ومحوره، وإطاره، وهذا يوقع في حرج شديد، من جانب، ويدلل على الحالة الثقافية البائسة لبعض من نسميهم «نخبة» من جانب آخر.

ومع ذلك يمكن القول: بأن هذه النوازل والهزات الفكرية والثقافية التي تجتاحنا، علها تكون قادرة على تحريك الرواكد، بحيث تمثل تحريضـاً ثقافيـاً، وحضـارياً، وتشعرنا بالتحدي، وتدفعنا إلى إعادة النظر بواقعنا الثقافي، واكتشاف مواطن الخلل، والتخلص من إشكالية الرجل الملحمة، الذي ما يزال يملأ مخيلتنا، الذي يدعي المعرفة بكل شيء، ويدعى للكتابة والرئاسة لكل شيء، للوصول إلى نوع من تقسيم العمل، والتخصص المعرفي حتى يتكامل العمل، ويعظم الإنجاز، ويعاد بناء شبكة العلاقـات الاجتماعية بشكل سليم.

ويتمحور الكتاب حول المحاور الآتية:

المحور الأول: الإسلام في الغرب «النشأة والتاريخ»:

- من الإقامة إلى المواطنة (الاستمرار).
- من المعرفة بالإسلام إلى اعتناقه.
- بين الاندماج والذوبان والانتماء.

المحور الثاني: التباس المفاهيم والمصطلحات:

تحرير مصطلح:

- الولاء والبراء.
- دار الحرب ودار الإسلام.
- أمة الإجابة.. وأمة الدعوة.

المحور الثالث: مؤسسات المسلمين في الغرب:

- الدور الغائب والفاعلية المطلوبة.
- المرأة وظاهرة إسلام النساء.
- مواصفات مخاطبة الغرب.

المحور الرابع: الإصابات الداخلية والتحديات الخارجية:

- من التعارف المشروع إلى التعايش المطلوب.
- حوار لا مواجهة (عنف تدين .. لا عنف دين).
- الإسلام والديموقراطية (التجانس الغائب).

المحور الخامس: مسلمو الغرب والعالم الإسلامي:

- أبعاد الارتكاز الحضاري التاريخي.
- تجسير التواصل والحوار بين الحضارات.
- دور مسلمي الغرب في نهوض عالم المسلمين.

المحور السادس: رؤية مستقبلية:

- كيفية بناء الأنموذج المثير للاقتداء.
- دور الكفاءات المسلمة في المستقبل الحضاري الغربي.

جـائـزة الشيـخ

علي بن عبد الله آل ثاني

في العلوم الشرعية والفكر الاسلامي

جائزة محكمة

إسهامًا في تشجيع البحث العلمي، والسعي إلى تكوين جيل من العلماء في ميادين العلوم الشرعية المتعددة، تنظم أمانة جائزة الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني العالمية، مسابقة بحثية في مجال العلوم الشرعية والفكر الإسلامي، **جائزتها (١٠٠) ألف ريال قطري.**

شروط الجائزة:

١- أن يكون البحث قد أعد خصيصاً للجائزة، وألا يكون جزءاً من عمل منشور، أو إنتاج علمي حصل به صاحبه على درجة علمية جامعية.

٢- أن تتوفر في البحث المقدم خصائص البحث العلمي، من حيث الإطار النظري للبحث، والمنهج العلمي، والإحاطة والشمولية، والجدة والابتكار.

٣- أن يلتزم الباحث بالمحاور المعلنة جميعها.

٤- يقدم البحث باللغة العربية من ثلاث نسخ، مكتوباً على الحاسوب، على أن تكون عدد صفحاته في حدود (٢٠٠-٢٥٠) صفحة (حوالي ٤٠٠٠٠ كلمة).

٥- يقدم الباحث ملخصاً لبحثه في حدود خمس صفحات باللغة العربية، والإنجليزية إن أمكن.

٦- يرفق مع البحث ترجمة ذاتية لصاحبه، وثبتاً بإنتاجه العلمي المطبوع وغير المطبوع، بالإضافة إلى صورة جوار السفر وصورة شخصية حديثة، وصورة من القرص الذي طبع منه البحث.

٧- تُعرض البحوث على لجنة من المحكَّمين.

٨- يحق للجنة التحكيم التوصـية بمنح الجـائزة مشتركة بين اثنين أو أكثر من الباحثين، كما يجوز اشتراك باحثين أو أكثر في كتابة بحوث الجائزة .

٩- يحق لأمانة الجائزة سحب قيمة الجائزة، إذا اكتشف أن البحث الفائز قد نشر سـابقاً، أو قدم إلى جهـة أخرى، لغرض آخر، أو مستلاً من رسالة علمية، كما يحق لها حجب الجائزة في حالة عدم ارتقاء البحوث المقدمة للمستوى المطلوب.

١٠- لا تمنح الجائزة للفائز خلال ثلاث سنوات.

١١- التزام الباحث الفائز باستدراك ملحوظات المحكمين ولجنة الجائزة.

وقد أعلن عن موضوع:

«الحـوار منهجـاً وثقافـة»

كعنوان لجائزة ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، وفق الأطر العامة الآتية:

- **منهجية الحوار: مقدماته، شروطه، آدابه، عوائقه.**
- **مشروعية الحوار في الكتاب والسنة.**
- **الحوار الداخلي (بناء الذات) والحوار الخارجي (التعايش وبناء المشترك الإنساني مع الآخر) (لتعارفوا).**
- **الإسلام بين الحوار والمواجهة (نظرية صراع الحضارات).**
- **وسائل بناء ثقافة الحوار.**
- **من ثمرات الحوار في الدعوة والتربية والثقافة والإعلام.**

آخر موعد لاستلام البحوث: **نهاية شـهر آب (أغسـطس) ٢٠٠٦م.**

لمزيد من الاستفسار، يمكن الاتصال على:

هاتف: ٤٤٢٠٠٦٦- فاكس: ٤٤٢٠٠٩٩ (+٩٧٤) ص.ب: ٨٩٣ – الدوحة – قطر

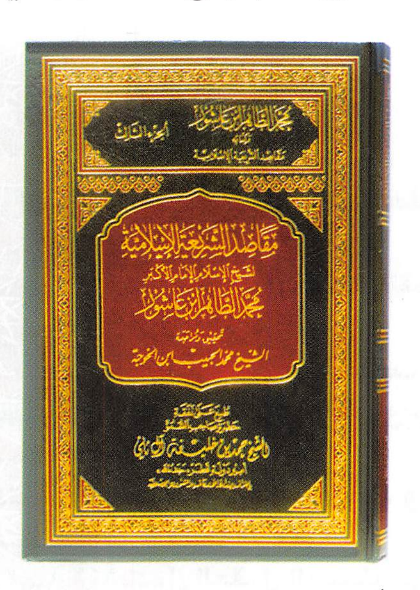
البريد الإلكتروني: E_Mail: Sheikhali_award@awqaf.gov.qa

مقاصد الشريعة الإسلامية

للشيخ محمد الطاهر بن عاشور (رحمه الله)

تحقيق الشيخ محمد الحبيب بن الخوجة

الأمين العام لمجمع الفقه الإسلامي



طبع محققاً للمرة الأولى بمجلداته الثلاثة على نفقة

حضرة صاحب السمو

الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني

أمير دولة قطر

بإشراف وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

إن الشريعة مبناها وأساسها مصالح العباد، في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة ..

(ابن قيم الجوزية).



سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر

تهـدف إلى:

* العـودة بالأمـة إلى الكتاب والسنة، ومعـالجة أسـباب الغلو والتشدد.
* تأصيل الـرؤية الشـرعية للقضـايا والمشكلات المعاصرة.
* تجديد أمـر الـدين، ونفـي نـوابت السـوء.
* إحياء مفهوم فـروض الكفاية، وبيـان أهمية التخصص.
* التعريف بأهم مقومات النهوض، ومعالجة أزمة الحضارة.
* إعـادة تشكيل العقـل المسلم في ضـوء معرفة الوحي.
* إبـراز دور الطـائفة القـائمة عـلى الحـق.

ربع قرن من العطاء


مطابع الدوحة الحديثة المحدودة
ص.ب: ١٤٥ - الدوحة - قطر - تلفون: ٨٠٣٢٤٠٤